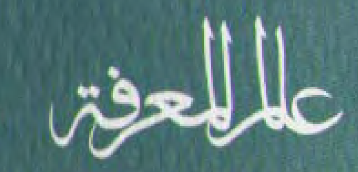


سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الشبكة الإنسانية

نظرة محلِّقة على التاريخ العالمي

جون روبرت مكنيل
وليام هاردي مكنيل
ترجمة: مصطفى قاسم





سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

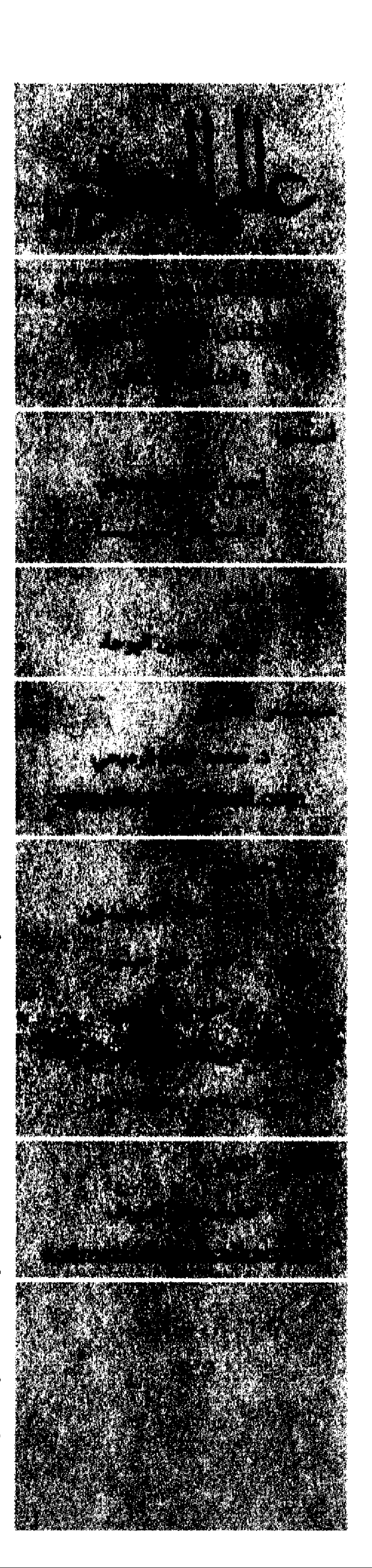
الشبكة الإنسانية

نظرة محلّقة على التاريخ العالمي

جون روبرت مكنيل
وليام هاردي مكنيل
ترجمة: مصطفى قاسم



مارس 2018
458





ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

هاتف: 22431704 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 578 - 5

العنوان الأصلي للكتاب

The Human Web:

A Bird's-Eye View of World History

By

J.R. McNeill and William H. McNeill

W.W. Norton, N.Y. 2003

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

جمادى الآخرة 1439 هـ ـ مارس 2018

المحتوى

تقديم المترجم

الابتكار وتنسيق الجهد البشري مفتاح التقدم التاريخي

«في كل حالة انتقال للمركز الحضاري، كانت الحضارة الإنسانية تزداد تعقيدا على مرحلتها السابقة، وتدمج - طوعا أو كرها - مزيدا من البشر ضمن دائرتها، فيتقارب البشر فيها حول نماذج وممارسات وأفكار بعينها، ويزداد في الوقت نفسه الافتراق بين متصدري العملية الحضارية والمقطوعين عنها»

لايزال الفقر والمرض والجهل والاستبداد وإنكار قيمة الإنسان وتغييب العقل ورفض الآخر أمراضا تنتشر مبعثرة هنا وهناك في عالمنا المعاصر. ولكن لا مناص من الاعتراف بأن تحوُّلا جذريا قد حدث على المستوى العالمي، ومن منظور التاريخ الإنساني الطويل، نحو الوفرة والصحة وانتشار التعليم، ونحو نظم الحكم الديموقراطية التي تعلي من شأن الإنسان وقيمته، وتحكيم العقل في إدارة الشأن العام وتنظيم المجتمعات، وسيادة التسامح بين أصحاب الأديان والثقافات المختلفة.

فبالنظر إلى حال أغلب سكان الكوكب من منظور التاريخ الإنساني الطويل، صارت

الحياة أفضل وأكثر إشباعا على المستويات كلها، إذ تضاعفت أعداد البشر خلال القرنين الماضيين، وارتفع مستوى رفاههم في المجمل، وطالت أعمارهم وتحسّنت صحتهم، وارتفعت مستويات التعليم وانتشرت مؤسسات العلم ومخرجاته وأفكاره وترسّخت، ولم تعد الغلبة الناتجة عن القوة الفجة هي التي تحكم العلاقات بين الحكام والمحكومين؛ بل الاتفاق والعقد الذي يحفظ للمحكومين حرياتهم وحقوقهم، ومنها اختيار النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تنظم أحوالهم كجماعة سياسية، واختيار الحاكم ومحاسبته. وصارت العقلانية الناتجة عن التجريب الاجتماعي هي الحاكمة لإدارة الشأن العام وتنظيم المجتمع. وأخيرا، صار الكوكب قرية واحدة متعارِفة ومتفاعلة ومتعاونة، وأنشئت مؤسسات دولية لحماية البيئة والإنسان وكبح النزاعات الدولية، وإن لم تحقق نجاحا ملموسا.

يشير هذا التحوُّل الواسع والكاسح في رفاه الإنسان إلى ما يسميه البعض قانون التقدم، الذي يعني أن البشرية تسير على المستويات كلها نحو حالة أكثر رقيا وكمالا. إذ على الرغم من استمرار وجود كثير من الظواهر السلبية، ومن حدوث انتكاسات هنا وهناك ومن حين إلى آخر، فإن حال البشر في المجمل في تحسُّن مطَّرد على كل الصُّعُد، وفي مناطق الكوكب كلها، حتى صارت القاعدة هي أن يتوقع الابن أن يعيش حياة أفضل من أبويه وأجداده - المباشرين وليس البعيدين فقط - وأن يعتبر كل جيل نفسه أكثر رقيا وازدهارا من الأجيال السابقة، القريبة وليس البعيدة فقط. بيد أن هذا الفهم والتقدير لمسيرة التاريخ والحالة الإنسانية لا يلقيان قبولا بين أقليات من البشر تنتشر هنا وهناك، منهم مثلا من يعيشون بيننا في العالم العربي والإسلامي، ممن يرون أن أزهى عصورنا توجد في الماضي، وأن تقدمنا لا يتحقق إلا بالعودة إلى الوراء، إلى نماذج متخيلة للكمال، لأن معاييرهم للتقدم والكمال مختلفة عن بقية العالم. لكن يظل هؤلاء أقلية، حتى في مجتمعاتهم، وبالطبع على المستوى العالمي، كما أن رفاههم الإنساني والمادي يشهد هو نفسه على قانون التقدم، وإن رأوا هم خلاف ذلك.

لكن من أين جاء هذا التحوُّل؟ وما مصدر ذلك التقدم؟ قبل طرح هذا السؤال يجب أن نسأل من أي فرع معرفي يمكننا أن نستقي الإجابة عنه؟ لا شك في أن التاريخ، برصده لحركة البشر وتدافعهم على مر العصور، هو الميدان الذي يمكن

أن يقدم إجابة شافية عن هذا السؤال. فالتاريخ هو المختبر الأكبر والأصدق للأفكار والنظريات الكبرى كالتقدم والحرية والعقلانية والرفاه الإنساني والعولمة والنظم السياسية والاقتصادية وما إليها. بمعنى أن من يُرد أن يرقب مسيرة البشر ويحكم عليها إن كانت تسير في اتجاه التقدم والكمال أو التدهور والنقصان فعليه أن يرجع إلى التاريخ، ومن يُرد أن يعرف شروط هذا التقدم فعليه أن يرجع إلى التاريخ، ومن يُرد أن يقيّم مدى صدق الأفكار والنظريات الكبرى من النوع السابق فعليه أيضا أن يرجع إلى التاريخ.

من حسن الحظ أن أحد التطوُّرات المحمودة في مهنة التاريخ خلال العقدين الأخيرين قد تمثّل في إعادة تأسيس التاريخ العالمي كمجال جدير بالدراسة والكتابة والتدريس، وذلك بفضل الزخم المتنامي الذي نتج عن الاهتمام التقليدي بالحضارة الغربية، والتفاعلات مع الثقافات الأخرى في إطار السردية الإنسانية العالمية، والاستبصارات التي أنتجتها العلوم التاريخية والطبيعية. ويتجاوز التاريخ العالمي التواريخ الوطنية والمقارِنة والوقائعية إلى البحث عن الأنماط العامة التي انبثقت عبر الثقافات على مر التاريخ، ويتجاوز بذلك نقيصة التمركز حول أوروبا أو الانحياز لها، ويستخدم مؤرخو العالم مقاربة الموضوع التي تركز على محورين رئيسين يرون أنهما يتخللان التاريخ ويلحمان أحداثه وفاعليه معا، وهما الاندماج: بمعنى العمليات التاريخية التي جمعت شعوب العالم ومناطقه وثقافاته معا، والافتراق: بمعنى ما يكشف عنه التاريخ العالمي من تنوع واختلاف وافتراق في الخبرة الإنسانية.

يمكن اعتبار ممارسي التاريخ العالمي فصيلا منشقا أو معسكرا معارضا من الدارسين الذين نذروا أنفسهم خلال العقود القليلة الماضية لبناء سرديات للتاريخ الإنساني تتفادى، عن عمد، أي انحياز لأوروبا أو تمركز حولها، ليركزوا - بدلا من ذلك - على ظواهر لا تسعها فئات التحليل المقيّدة جغرافيا أو ثقافيا، تتراوح من انتقالات التقنية وانتشار الأمراض المعدية إلى أنماط الهجرة وترسُّخ علاقات التبعية الاقتصادية العالمية، ولينتجوا في أثناء ذلك أعمالا تتميّز بإبداع وقوة تفسيرية جلية، موظّفين مدى من المنهجيات والعديد من المنظورات. وسواء أطّر مؤرخو العالم حججهم في شكل «تماثلات غريبة» Strange Parallels كما فعل فيكتور ليبرمان Victor Lieberman، أو «افتراقات كبرى» Great Divergence كما فعل كينيث بوميرانز

Kenneth Pomeranz وصمويل هنتنغتون Samuel Huntington ودارسون آخرون، أو «البنادق والجراثيم والصُلب» guns, germs and steel كما فعل جاريد دايموند Jared Diamond، أو غيرها من النماذج الأصيلة للتاريخ العالمي التي كتبت خلال السنوات الأخيرة، يمكن القول إن كل هذه الأعمال وأترابها تشترك في الرغبة الأساسية نفسها، وهي القدرة على تفسير تطوُّر المجتمع الإنساني العالمي بطريقة مستقلة عن سردية الحضارة الغربية.

يؤكد مبحث التاريخ العالمي أن الحضارة الإنسانية واحدة، وأنها انتقلت من هذا المركز إلى ذاك، مع حدوث إضافات وتحوُّلات مع كل عملية انتقال، ومع تقارب البشر حول نموذج واحد للدولة والمجتمع، وفي الوقت عينه حدوث افتراق في الحالة الإنسانية بناء على مدى الاندماج في آخر مرحلة للتطوُّر الحضاري أو القطيعة معها. فقد بدأ التقدم الإنساني في جنوب غرب آسيا ومصر ووادي السند، وهي الحضارات أو الحضارة الواحدة التي يسميها مؤلفا الكتاب الحالي ممر النيل - السند، ومنها انتشرت الحضارة - بما هي التعقيد المتزايد في المجتمع والاقتصاد والسياسة والثقافة والتنسيق المتزايد للجهد البشري اللذان تكشّفا في حياة الحضر- إلى مجتمعات أخرى في شرق آسيا وجنوبها حيث الصين والهند، قبل أن تنتقل إلى جنوب أوروبا مع الحضارة اليونانية - الرومانية، ثم يعود المركز الحضاري إلى جنوب غرب آسيا ومصر مع ظهور الإسلام، ثم ينتقل إلى أوروبا الغربية ليعمّ بعدها العالم بأسره شرقا وغربا، شمالا وجنوبا. وفي كل حالة انتقال للمركز الحضاري، كانت الحضارة الإنسانية تزداد تعقيدا عن مرحلتها السابقة، وتدمج - طوعا أو كرها - مزيدا من البشر ضمن دائرتها، فيتقارب البشر فيها حول نماذج وممارسات وأفكار بعينها، ويزداد في الوقت نفسه الافتراق بين متصدري العملية الحضارية والمقطوعين عنها.

ففي ممر النيل - السند الذي شمل الحضارات المتفاعلة التي قامت في وديان مصر وبلاد ما بين النهرين وبلاد السند، تحوّل البشر من حياة الترحال ونمط الصيد والجمع - صيد الحيوانات والطيور وجمع الثمار والحبوب - إلى حياة الاستقرار والزراعة التي انبثقت عنها المدينة والحياة الحضرية، التي قامت على الإنتاج الزراعي القروي ووفّرت له احتياجاته الأمنية كالحماية من اللصوص والبدو النهّابين، واحتياجاته الإنتاجية من أدوات كالفؤوس والمناجل والمحاريث الحديدية وتجهيزات كالقنوات والحواجز النهرية، في مقابل الحصول من الريف على الريوع والضرائب. ومن هنا ظهر نموذج

الدولة الإمبراطورية التي رعت الحضارة ووسّعت الاتصالات والروابط بين البشر ونسّقت الجهد البشري على نحو غير مسبوق، ثم انتقل هذا النموذج إلى شرق آسيا، وهناك قامت الحضارة الصينية على محاصيل أخرى كالأرز، لكنها قامت على الدولة الإمبراطورية نفسها والتكافل بين الريف والحضر. وبالتزامن مع ذلك، كانت الجماعات البشرية في الأمريكتين، اللتين شكلتا عالما منفصلا حتى العام 1492، تتطوّر في اتجاهات مماثلة لهذا التطوّر الأوراسي(*)، وإن ظلت متخلفة عنه نوعيا وكميا بسبب صغر حجمها وبيئتها وأنواعها النباتية والحيوانية غير المواتية للاتصال مقارنة بأوراسيا.

هذا العرض الموجز نفسه للفرع المعرفي الذي يمكن أن نستقي منه الإجابة عن سؤالنا حول منشأ التحوّل ومصدر التقدم في الحالة الإنسانية، يشير إلى الإجابة عن هذا السؤال، ويدخلنا مباشرة إلى موضوع الكتاب الحالي الذي ينتمي هو نفسه إلى مبحث التاريخ العالمي، ذلك أن القول بأن محرك التاريخ العالمي يكمن في أنماط التقارب والافتراق بين البشر والثقافات يمثل في آنٍ معا إجابة موجزة عن سؤال المصدر والمنشأ ومدخلا إلى موضوع الكتاب الحالي.

فمن المركز الحضاري الأول، انتقلت الحضارة إلى شرق العالم وغربه بفضل عمليات الاتصال والتبادل التي نقلت الأفكار والتقنيات والتجديدات والممارسات عبر المجتمعات الإنسانية، وهو ما يقصده الكتاب الحالي بمفهوم الشبكة.

يتمثّل المفهوم الناظم للكتاب الحالي في مفهوم الشبكة، الذي يعرّفه المؤلفان بأنه «مجموعة من الارتباطات تجمع البشر معا». ويكمن الدافع الأساس وراء هذه المقاربة في رؤية المؤلفَين للتاريخ العالمي في شكل سلسلة من العلاقات المعتمدة بعضها على بعض، تتضمن اتجاهات مثل التعاون والتنافس والاتصال المتزايد بين شبكات آخذة في الكثرة والاتساع، وهي العملية التي أنتجت أخيرا حقبة جديدة في التاريخ العالمي تسمى الأنثروبوسين(**)، يدفع المؤلفان بأنها لم تغير التاريخ الإنساني فقط، بل تاريخ الكوكب ككل.

(*) أوراسيا Eurasia كلمة منحوتة من كلمتي أوروبا وآسيا، وتشير بذلك إلى كتلة اليابسة الممتدة للقارتين في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والشرقي، من المحيط الأطلسي غربا إلى المحيط الهادي شرقا، ويحدها شمالا القطب الشمالي وجنوبا البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي. [المترجم].

(**) الأنثروبوسين Anthropocene مصطلح مكوّن من الكلمتين اليونانيتين anthropo (إنسان) وcene (حقبة)، ويعني بذلك «حقبة الإنسان»، ويشير إلى حقبة مفترضة بدأت حين أصبح للنشاطات والأفعال البشرية تأثير عالمي كبير في النظم البيئية للأرض. [المترجم].

فبداية من الشبكات المحلية النحيلة التي ميّزت المجتمعات الزراعية قبل اثني عشر ألف سنة، مرورا بالشبكات الحضرية الأشد كثافة والأكثر تفاعلا التي قامت حول مدن مصر وسومر وأثينا وتمبكتو القديمة، وصولا إلى الشبكات العالمية المعتمدة على الكهرباء التي تسع اليوم العالم بأسره في دوّامة من التعاون والصراع، يثبت المؤلفان أن الشبكات الإنسانية كانت دائما مكوّنا أساسيا في التاريخ العالمي، وإطارا تحليليا كاشفا. ومن خلال تجنب أي شكل من أشكال الحتمية - بيئية كانت أو ثقافية - يقدم المؤلفان صورة تركيبية للأنماط الكبرى في التاريخ العالمي في رواية محكمة وثرية ومفتوحة النهاية.

يكمن محرك التاريخ وفقا لرؤية الكتاب الحالي- إذن- في شبكة التفاعلات المتنامية التي ربطت جماعات الصيد والجمع أولا، ثم الحضارات الزراعية، وأخيرا العالم ككل، والتي من خلالها انتشر البشر والسلع والأفكار والأمراض. فأطروحة الكتاب الأساسية هي أن شبكات التأثير والتبادل التي ربطت البشر كانت - ولاتزال - أساسية للتطوّر البشري، لأنها تضمن تبادل الأفكار والمعلومات، ما يؤثر بدوره في السلوك الإنساني المستقبلي ويلهب «طموح الإنسان إلى أن يغيّر حالته حتى تتطابق مع آماله».

تشرح مقدمة الكتاب خصائص الشبكات، وتلي المقدمة ثمانية فصول تطوّر وتدعم أطروحة مؤداها أن الشبكة العالمية ليست مفهوما جديدا، بل تمثّل واقعا تطوّر دائريا مع التاريخ الإنساني. تتناول الفصول- تباعا- أقدم فترات التطوّر الإنساني (قبل أحد عشر ألف سنة)، ونمو إنتاج الغذاء (بين أحد عشر ألف سنة وثلاثة آلاف سنة خلت)، وحضارات العالم القديم (خلال الفترة 3500 ق.ح - 200 ح.م)(*)، ونمو الشبكات في العالم القديم والأمريكتين (خلال الفترة 200 - 1000 ح.م)، وتكثّف الشبكات (خلال الفترة 1000 - 1500)، ونسج خيوط الشبكة العالمية (خلال الفترة 1450 - 1800)، وكسر الأغلال القديمة وإحكام خيوط الشبكة الجديدة (خلال الفترة 1750 - 1914)، والضغوط الحديثة التي تؤثر في الشبكة (بداية من العام 1890 حتى اللحظة الراهنة). ويقدم فصل تاسع ختامي تأملات شخصية منضبطة حول الممكنات بعيدة المدى للتاريخ العالمي والشبكات.

(*) راجع حاشية لاحقة للمؤلفَين حول استخدامهما نظامَ تسمية التواريخ، إذ يستخدمان بداية الحقبة المشتركة بديلا عن ميلاد المسيح، وبذلك يشير الاختصار «ح.م» إلى السنة كذا من بداية الحقبة المشتركة، ويشير الاختصار «ق.ح» إلى السنة كذا قبل الحقبة المشتركة. [المترجم].

لقد كُتب هذا الكتاب للقراء الذين يرغبون في معرفة كيف وصل العالم إلى ما صار إليه حاليا، وما يمكن أن يصير إليه مستقبلا، لكنهم لا يتوافر لهم الوقت أو القدرة أو المصادر لقراءة رف أو اثنين أو ربما مكتبة كاملة من كتب التاريخ. والكتاب من تأليف أب وابن دفعتهما إلى كتابته الرغبة نفسها في المعرفة، فيما أتيحت لهما - بحكم التخصص - الفرصة لقراءة عدة أرفف من الكتب التاريخية. بدأ المشروع حينما سيطرت على ذهن الابن فكرة طموحة: إن كان ستيفن هوكنغ قد تمكن من ضغط تاريخ الكون في مائة وثمانٍ وتسعين صفحة(*)، فلا بد أنني أستطيع أن أضغط تاريخ البشرية في مائتي صفحة. لكنه بعد أن أدرك أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك وحده، لجأ إلى أبيه الذي سبق أن كتب تاريخا للبشرية (في ثمانمائة وتسع وعشرين صفحة بعنوان «صعود الغرب - تاريخ الجماعة الإنسانية» The Rise of the West: A History of the Human Community، والكثير من الكتابات القيّمة الأخرى)، ليشاركه في تأليف الكتاب. وهكذا بدأ التعاون بين مؤرخين عنيدين. وبعد مناقشات متواصلة ومتقطعة على مدار عدة سنوات، ظهر كتابهما الحالي إلى النور.

يقدم الكتاب رؤية أصيلة للتاريخ العالمي تكشف الأنماط الأوسع للتعاون والصراع البشريين منذ أقدم العصور: لماذا ظهرت الحضارات الإنسانية الأولى في الزمان والمكان اللذين ظهرت فيهما؟ ولماذا غدا الإسلام منذ نشأته قوة توحيدية للعالم؟ وما الذي مكّن الغرب من نشر سلعه وقوته حول العالم بداية من القرن الخامس عشر؟ ولماذا اختُرعت الزراعة سبع مرات، بينما لم تكن هناك حاجة إلى اختراع المحرك البخاري أو الإنترنت إلا مرة واحدة فقط؟

ففي إسهام شجاع في النقاش المتنامي للأسئلة من النوع السابق حول التاريخ العالمي، التي نهزت مؤرخين كبارا من أمثال جاريد دايموند صاحب كتاب «البنادق والجراثيم والصُلب» وكتاب «الشمبانزي الثالث»، وديفيد لاندز صاحب كتاب «السلالات: حظوظ العائلات التجارية الكبرى في العالم وعثراتها»، وكتاب «ثراء الأمم

(*) ينتمي كتاب ستيفن هوكنغ المعنون «تاريخ موجز للزمن: من الانفجار العظيم إلى الثقوب السوداء Stephen Hawking, A Brief History of Time: From the Big Bang to the Black Holes (New York, 1988) إلى مبحث التاريخ الكبير Big History وهو فرع معرفي ناشئ يتقصى التاريخ من الانفجار العظيم حتى الزمن الحاضر عبر أطر زمنية طويلة وباستخدام مقاربة متعددة الفروع المعرفية بالجمع بين الكثير من التخصصات من العلوم الطبيعية والإنسانية، ويتقصى الوجود الإنساني في سياق هذه الصورة الأوسع. [المترجم].

وفقرها: لماذا اغتنى البعض وافتقر غيرهم» وغيرهما، والتي تكتسب - أي الأسئلة - أهمية كبرى في الوقت الراهن مع زيادة الاحتكاكات العالمية، يتقصى مكنيل الأب والابن الشبكات التي جمعت البشر معا ضمن أنماط من التفاعل والتبادل والتعاون والصراع منذ بداياتها. فهذه الشبكات، سواء كانت صغيرة أو كبيرة، فضفاضة أو محكمة، مخلخلة أو كثيفة، كانت الوسيط لانتقال البشر والأفكار والسلع والقوة والمال داخل الثقافات والمجتمعات والأمم وعبرها، ما أدى إلى وصول البشر إلى ما صاروا إليه من ثراء وقوة.

***

تفيد نظرة الطائر المحلّق التي تغض الطرف عن التفاصيل بعض الشيء في تكثيف الرؤية العامة، التي تضيع غالبا في تفاصيل التواريخ الإقليمية والتواريخ العالمية التفصيلية الضخمة. ولعل ما يلزمنا فهمه في العالم العربي فيما يتعلق بقضية التقدم هو الصورة العامة الإجمالية أكثر من التفاصيل التي نغرق فيها، فتفوتنا الخطوط العريضة والقسمات العامة.

تكمن مفاتيح التقدم الإنساني، وهي نفسها مفاتيح تقدم الأمم والمجتمعات - في التاريخ وفي الحاضر والمستقبل - في شبكات الاتصال والتبادل وتنسيق الجهد البشري. وما نقلته الشبكة عبر أرجاء المعمورة، وما يرجع إليه الفضل في تقدم الحالة الإنسانية ورفاه الإنسان واستقرار المجتمعات، هو الحضارة، بمعنى التعقيد المتزايد للمجتمع وتنسيق الجهد البشري. ويشمل التعقيد التخصص في العمل وتقسيمه ونمو المعارف والمهارات، وربما أيضا الفرز الطبقي، بينما يشمل تنسيق الجهد البشري تسخير طاقات كل سكان هذه الجماعة السياسية أو تلك لخدمة الأغراض العامة أو الخاصة. كان هذا التنسيق في مراحله الأولى يقوم بالدرجة الأولى على القهر، كما تجلّى في إتمام مشاريع عامة عملاقة مثل القنوات والحواجز النهرية والحملات العسكرية والمعابد والزقورات ومشاريع خاصة مثل قصور النخبة والأهرام (مقابر الفراعنة) في الحضارات القديمة(*).

(*) الزقورة بناء ضخم كان يُبنى في بلاد ما بين النهرين وسورية وشرق الهضبة الإيرانية قديما، يتخذ شكل هرم مدرج من مصاطب تتناقص مساحتها مع كل مستوى أعلى، يعتقد أنها كانت معابد، من أشهرها زقورة أور الكبرى القريبة من مدينة الناصرية بمحافظة ذي قار العراقية. [المترجم].

وفي ظل العولمة التي يعيشها المجتمع الإنساني حاليا، التي تعد أعلى مستويات تطوُّر الشبكة، صارت الأفكار والتجديدات والتقنيات والعلم مشاعا، إذ غدت متاحة لمن يريد أن ينهل منها، بفضل تقنيات الاتصال الحديثة التي كشفت المجتمعات على نحو كامل بعضها أمام بعض. لكن في مقابل هذا الجانب الداعم للمساواة في الحضارة الحديثة الذي تنقله الشبكة العالمية، لايزال تنسيق الجهد البشري متفاوتا بين المجتمعات، بين نظم الحكم الديموقراطية في المجتمعات المتصدّرة للمرحلة الراهنة من العملية الحضارية والنظم الاستبدادية القمعية في الدول التي لاتزال بعيدة في ممارساتها عن تلك المجتمعات.

للحضارة - إذن - جانبان أو مكوّنان: المكوّن التجديدي والمكوّن الإداري، أو ما يمكن أن نسميهما - باستعارة مصطلحات الحاسوب - المكوّن المادي - حتى إن شمل أفكارا ونظريات إلى جانب التقنيات - والمكوّن التشغيلي، الذي يشير بالمصطلحات الحديثة إلى نوع إدارة الجماعة السياسية وشكل النظام السياسي فيها. يتعلق الأول بالتجديدات الفكرية والمادية الأصيلة أو المستعارة، ويتعلق الثاني بتنسيق الجهد البشري المشترك ضمن هذه الجماعة السياسية أو تلك. والجانبان مرتبطان كلاهما بالآخر، إذ يؤثر نوع الإدارة السياسية بلا شك في مدى قدرة المجتمع على اجتراح التجديدات أو استعارتها، ويؤثر مدى التقدم في الجانب التجديدي في مدى قابلية الجماعة السياسية لنظم الإدارة الديموقراطية.

ومن عجائب التاريخ أن المنطقة التي شهدت ميلاد الحضارة - جنوب غرب آسيا ومصر ووادي السند - التي تتطابق مع معظم العالم العربي، وتوسّعا مع جزء كبير من العالم الإسلامي، لاتزال بعيدة عن آخر ما وصلت إليه أحدث المراكز الحضارية في مجال تنسيق الجهد البشري للجماعة السياسية. فالجماعة السياسية في هذه المنطقة لم تتجاوز بعد مرحلة الحضانة الحضارية في إدارة الدولة وتداول السلطة، إذ لاتزال السلطة في أغلبها تؤخذ وتمارس بالغلبة والقوة الفجة، تماما كما كانت في مصر وبلاد ما بين النهرين وبلاد السند القديمة. بل إن هذه المجتمعات لم تحسم أمرها بعد من نُظم الحكم الحديثة، ممثلةً في الديموقراطية والحكم الدستوري وسيادة القانون، إذ لاتزال قطاعات كبيرة فيها تتبنى رؤى ماضوية غامضة عن الدولة الدينية أو دولة الخلافة، وهؤلاء - كما جاء في صدر هذا

التقديم - هم الذين قد يعترضون على قانون التقدم، ويرون مثال الكمال في الماضي وليس المستقبل.

ولعل في هذا الكتاب من الأفكار ما يصحح رؤى العالم التي يتبناها كثيرون منا إزاء قضايا التقدم والعولمة ونظم الحكم والاقتصاد وغيرها من القضايا الكبرى التي تتخلل الكتاب الحالي. ولعل الكتاب بذلك يسد ثغرة في المكتبة العربية والتناول العربي للتاريخ العالمي والإنساني، ويكون مفيدا ومشوقا لكل من القارئ العام والمتخصص على حد سواء.

وقبل البدء، يسجل المترجم امتنانه للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت على نشره ترجمةَ هذا الكتاب، الذي ضَمِن بصدوره ضمن سلسلة «عالم المعرفة» المرموقة أن يصل إلى أكبر عدد ممكن من قراء العربية من المحيط إلى الخليج.

الدكتور مصطفى قاسم

الرياض، أبريل 2017

مقدمة

الشبكات والتاريخ

لا شيء يمكن أن يكون أكثر انعزالا واكتفاء من حياة هذين الاثنين اللذين يمشيان هنا في ساعة الوحدة قبل طلوع النهار... غير أن المسارات التي كان كل منهما يسير فيها منفردا لم تكن عملا منعزلا بحال من الأحوال، بل كانت جزءا من النمط الكامن في الشبكة الكبرى للفعل الإنساني التي كانت تنسج خيوطها حينئذ في نصفي الكرة الأرضية كليهما من البحر الأبيض إلى كيب هورن(*).

توماس هاردي، «أهل الغابات» (1887)

يمزج هذا الكتاب القديم والجديد معا، ويصب المزيج في قالب جديد. فبعض الأفكار والمنظورات الواردة هنا عبارة عن نسخ مقطرة من أخرى قُدمت لأول مرة قبل نصف قرن من

«ما كان من الممكن لنا أن نبلغ قوة ستة مليارات إنسان لولا العدد الكبير من الارتباطات المتبادلة وتدفقات وتبادلات الغذاء والطاقة والتقنية والمال التي تشكل الشبكة العالمية الحديثة»

(*) البحر الأبيض White Sea خليج أو مدخل جنوبي لبحر بارنتس Barents Sea، يقع في شمال غرب روسيا. وكيب هورن Cape Horn أبعد رأس بري إلى الجنوب في أمريكا الجنوبية البرية، يقع في أقصى جنوب دولة تشيلي. [المترجم].

الزمان، فيما يُقدم غيرها لأول مرة بين دفتي هذا الكتاب. أما القالب الجديد الذي يعطي الكتاب شكله، فهو فكرة مركزية شبكات التفاعل في التاريخ الإنساني.

تتمثّل الشبكة - كما نراها - في مجموعة من الارتباطات تجمع البشر معا، يمكن أن تتخذ أشكالا كثيرة، منها اللقاءات العابرة والقربى والصداقة والعبادة الجماعية والتنافس والعداء والتبادل الاقتصادي والتبادل البيئي والتعاون السياسي وحتى التنافس العسكري. وفي أمثال هذه العلاقات جميعها، يتبادل البشر المعلومات ويستخدمونها لتوجيه سلوكهم المستقبلي، وفي أثناء ذلك ينقلون ويتبادلون التقنيات والسلع والمحاصيل والأفكار المفيدة وأشياء أخرى كثيرة. كما أنهم يتبادلون - من دون قصد - الأمراض والأعشاب الضارة، وهي أشياء لا يستخدمونها، لكنها مع ذلك تؤثر في حياتهم وموتهم. والأهم من ذلك كله هو أن تبادل وانتشار هذه المعلومات والمواد النافعة والأشياء الضارة، واستجابات البشر لها هي ما تشكّل التاريخ.

إن ما يدفع التاريخ قدما هو تطلع الإنسان إلى أن يغيّر حالته؛ حتى تتطابق مع آماله. على أن ما يتطلع إليه البشر - في العالمين المادي والروحي - والطرق التي يسعون من خلالها وراء تطلعاتهم، تعتمد جميعها على المعلومات والأفكار والنماذج التي تتوافر لهم. وعلى ذلك فإن الشبكات قد أسهمت في نقل وتنسيق التطلع والفعل الإنسانيين، ولاتزال تفعل ذلك إلى يومنا.

ومع أن الشبكة الإنسانية كانت موجودة دائما، فقد غيّرت - على مر الزمن - من طبيعتها ومغزاها بدرجة كبيرة تجعلنا نتحدث عن الشبكات بصيغة الجمع. ترجع الشبكة الإنسانية - في مستواها الأساسي - إلى تطوُّر الكلام البشري على أقل تقدير، إذ نشر أسلافنا البعيدون التكافل الاجتماعي ضمن جماعات صغيرة من خلال التحدث معا وتبادل المعلومات والسلع. كما تفاعلت الجماعات وتواصلت معا، ولو على نحو متقطع. وعلى الرغم من الهجرات التي أخذت أسلافنا إلى كل القارات، باستثناء القارة القطبية الجنوبية، فإننا اليوم لانزال نشكّل نوعا واحدا، وهو ما يعد دليلا على تبادل الجينات والزيجات بين الجماعات البشرية على مر العصور. ويبيّن انتشار أدوات مثل الأقواس والسهام عبر أغلب أنحاء العالم - ما عدا أستراليا - في الأزمان السحيقة، أن التقنيات المفيدة كانت تنتقل على نطاق واسع من جماعة إلى أخرى. وتعد هذه التبادلات دليلا على وجود شبكة من الاتصال والتفاعل، وهي

شبكة قديمة وفضفاضة وواسعة، نسميها الشبكة العالمية الأولى first worldwide web. لكن البشر كانوا قليلي العدد، وكانت الأرض شاسعة عليهم، ولذلك ظلت الشبكة غير محكمة الربط حتى نحو اثني عشر ألف سنة خلت.

ومع ازدياد كثافة السكان، الذي حدث مع ظهور الزراعة قبل نحو اثني عشر ألف سنة، نشأت شبكات جديدة أشد إحكاما ضمن الشبكة الأصلية الفضفاضة. فلم تختفِ الشبكة العالمية الأولى، بل أصبحت أجزاء منها أكثر تفاعلا، حتى إنها شكّلت شبكاتٍ أصغر قائمةً بذاتها. نشأت هذه الشبكات في بيئات منتقاة مكّنت الزراعةُ أو وفرة الأسماك فيها من قيام حياة أكثر استقرارا، ما سمح بحدوث تفاعلات مستديمة ومنتظمة بين أعداد أكبر من البشر. لكن هذه الشبكات الأشد إحكاما وكثافة كانت محلية أو إقليمية في نطاقها.

وفي النهاية، اشتد إحكام خيوط هذه الشبكات المحلية والإقليمية، وهو ما حدث قبل نحو ستة آلاف سنة بفضل ظهور المدن التي عملت كتقاطع طرق ومخازن للمعلومات والسلع والأمراض المعدية. شكّلت المدن شبكات حضرية metropolitan webs تقوم على تفاعلات تربط المدن بمناطقها الداخلية الزراعية والرعوية وكذلك بالمدن الأخرى. على أن الشبكات الحضرية لم تربط البشر جميعا، إذ ظل بعض البشر خارجها - حتى أزمان قريبة - وظلوا مستغنين اقتصاديا ومتمايزين ثقافيا ومستقلين سياسيا. تشكّلت الشبكة الحضرية الأولى حول مدن سومر القديمة قبل نحو ستة آلاف سنة، ثم توسّع بعضها واستدمج شبكات أخرى أو اندمج معها. وازدهرت شبكات أخرى فترةً من الزمن، لكنها أفلت في النهاية وتفككت، ذلك أن عملية بناء الشبكات شهدت الكثير من حالات الهدم والنقض. وقبل نحو ألفي سنة، تشكّلت أخيرا الشبكة العالمية القديمة Old World Web الكبرى التي غطت أغلب أوراسيا وشمال أفريقيا، من خلال الاندماج التدريجي للكثير من الشبكات الأصغر. وخلال السنوات الخمسمائة الأخيرة، وحّدت الملاحة عبر المحيطات الشبكاتِ الحضريةَ في العالم - وشبكاته المحلية القليلة المتبقية - في شبكة كونية cosmopolitan web واحدة. وخلال السنوات المائة والستين الأخيرة - بداية من التلغراف - غدت الشبكة العالمية تعمل بالكهرباء على نحو متزايد، ما جعل التبادلات أسرع وأوسع نطاقا. واليوم، ومع أن الناس يعايشون ذلك بطرق

مختلفة، فإننا جميعا نعيش داخل شبكة عالمية واحدة، تشكّل دوّامة توحيدية من التعاون والتنافس. وعلى ذلك فإن عمل شبكات الاتصال والتفاعل يشكّل البنية الجامعة للتاريخ الإنساني.

***

قبل أن نبدأ روايتنا الموجزة لذلك التاريخ، إليكم بضعَ ملاحظات أخرى حول الشبكات تتعلق بطابعيها التعاوني والتنافسي، وميلها إلى التوسّع، وأهميتها المتنامية في التاريخ، وتأثيرها في تاريخ الكرة الأرضية:

(1) جمعت الشبكات كلها بين التعاون والتنافس. ويتمثّل الأساس الأول للقوة الاجتماعية في الاتصال الذي يوجد التعاون بين الناس، إذ يمكّن الاتصال الكثير من الناس من العمل معا من أجل أهداف مشتركة، ما يمكّنهم - بدوره - من أن يتخصصوا فيما يفعلونه على نحو أفضل من غيره. وضمن الإطار التعاوني، يجعل التخصص وتقسيم العمل المجتمع أكثر ثراء وقوة مما يمكنه دونهما، ما يجعل المجتمع أقرب إلى الطبقية وأبعد عن المساواة. وفي حال الحفاظ على الإطار التعاوني، فإنه كلما كبرت الشبكة، أظهر المشاركون فيها المزيد من الثراء والقوة والتفاوت.

وللمفارقة، تعهد التنافس العدائي أيضا عملية مماثلة، إذ تبادل المتنافسون المعلومات، بالدرجة الأولى في شكل تهديدات. وفي حال الاعتقاد بصدق التهديدات، فإنها كانت تثير ردود أفعال، انطوى الفعال منها عادة على شكل أقرب إلى التعاون. من ذلك مثلا أنه لو هددت مملكةٌ مملكة أخرى، فإن الملك المهدَّد يبحث عن وسائل لتنظيم رعاياه على نحو أكفأ للدفاع عن مُلكه، وقد يبحث عن تحالف أوثق مع ممالك أخرى. وعلى ذلك، فإن التنافس على أحد المستويات قد دفع التعاون على مستويات أخرى.

(2) ومع الوقت، تحسّن الموقف التنافسي وفرص البقاء التي حظيت بها الجماعات التي حققت اتصالا وتعاونا أكفأ داخل صفوفها، سواء كانت عائلات أو عشائر أو قبائل أو مَشيخات أو دولا أو جيوشا أو أديرة أو مؤسسات مصرفية أو شركات متعددة الجنسيات، إذ نجحت في تحقيق تراكم الموارد والممتلكات والأتباع على حساب الجماعات الأخرى الأقل كفاءة في الاتصال والتعاون الداخليين. وعلى ذلك فإن الاتجاه العام للتاريخ كان نحو المزيد من التعاون الاجتماعي - الطوعي أو القسري - المدفوع بواقع التنافس الاجتماعي. ومع الوقت، أخذت الجماعات

المتعاونة من كل نوع تنمو من حيث الحجم إلى الحد الذي أضعف ترابطها الداخلي وقدرتها على الاتصال والتماهي أو أهدرهما تماما.

وبالمثل، أخذت الشبكات الحضرية الأكبر للتفاعل، التي ربطت كل أنواع الجماعات، تنمو لثلاثة أسباب أساسية. أولا، كانت هذه الشبكات تعطي مزايا للمشاركين فيها، إذ من خلال الاتصال والتعاون فيما بينها، غدت المجتمعات داخل الشبكات الحضرية أقوى من المجتمعات خارجها، وذلك لأن المشاركة في هذه الشبكات كانت تحقق للمجتمعات مزايا اقتصادية عن طريق التخصص في العمل والتبادل، فيما كانت المزايا العسكرية تأتي في شكل أعداد أكبر من المحاربين جيدي التجهيز، كانوا في الأغلب متخصصين في فنون العنف ومنقطعين لها كليا وملمين بأحدث التقنيات العسكرية التي استخدموها كلما دعت الحاجة. وتراكمت مزايا وبائية لدى الأشخاص الذين كانوا يولدون داخل الشبكات الحضرية، لأنهم كانوا يكتسبون مناعة ضد مجموعة من الأمراض أوسع من غيرهم من الجماعات.

بيد أن هذه المزايا للحياة داخل الشبكة الحضرية لم تتحقق بلا تكلفة. فكما خلق التخصص والتبادل الاقتصاديان الثراء، أوجدا الفقر أيضا، وكان المحاربون المهرة يوجهون أسلحتهم أحيانا إلى الأشخاص الذين كانوا ينتظرون منهم الحماية، ولم يكتسب سكان الحضر المناعة ضد الأمراض إلا من خلال التعرض المتكرر للأوبئة الفتاكة. ومع ذلك فقد تمتع الناجون من هذه الأخطار بقوة ملحوظة مقارنة بمن كانوا يعيشون خارج هذه الشبكات.

لكن ثمة عوامل أخرى أسهمت في توسُّع الشبكات الحضرية. كانت الشبكات سمة للحياة الاجتماعية لم يدركها البشر أو يقصدوها، لكنها مع ذلك ضمت تنظيمات أدركوها وقصدوها - مثل جماعات القربى والقبائل والكنائس والشركات والجيوش وعصابات قطع الطرق والإمبراطوريات - كان لها زعماء مارسوا سلطة واسعة، وأسهموا في أثناء سعيهم وراء مصالحهم الخاصة في توسيع الشبكات الحضرية. كان زعماء أي من هذه التراتبيات يحظون بتدفق متنامٍ من السلع والخدمات والتبجيل والمكانة، وكانوا يسعون عادة إلى توسيع نطاق عملياتهم بغرض زيادة هذا التدفق. وقد ساعدهم أتباعهم في ذلك، إما خوفا من العقاب أو طمعا في نصيب من المكافآت المتوقعة، وهو نصيب ظل تافها مقارنة بنصيب الزعماء. وفي

الماضي، كان هذا الدافع إلى التوسّع يأتي غالبا على حساب الجماعات التي كانت تعيش خارج الشبكات الحضرية؛ والتي ظلت تنظيميا أضعف من أن تدافع عن حياة أفرادها وممتلكاتهم ومواردهم وأديانهم. وغالبا ما كان الناجون من هذه الجماعات يجدون أنفسهم وقد أُدمِجوا في ارتباطات اقتصادية وسياسية وثقافية، أي في شبكة. وعلى ذلك فإن زعماء التنظيمات الساعين إلى تعظيم قوتهم ومكانتهم، قد عملوا بدأب - ولو من دون قصد - على توسيع الشبكات التي كانوا يعملون خلالها.

وأخيرا، فإن الشبكات الحضرية قد توسّعت بفضل تحسُّن تقنيات الاتصال والنقل. كانت الكتابة والطباعة والإنترنت - على سبيل المثال - من أشكال التقدم الرئيسة في نقل المعلومات، وأسهم كل منها في تقليل تكلفة المعلومات، وتيسير بناء شبكات أكبر للتعاون والتنافس، والحفاظ على بقاء هذه الشبكات. وأسهمت السفن الشراعية والعجلات والسكك الحديد في خفض تكاليف النقل وتشجيع تبادل السلع والمعلومات عبر مسافات أوسع وضمن جماعات أكبر.

(3) وعلى ذلك فإن الشبكات شملت كلا من التعاون والتنافس، ومع الوقت صار نطاقها أوسع وغدا تأثيرها في التاريخ أكبر. كانت الشبكة العالمية الأصلية تفتقر إلى الكتابة والعجلات وحيوانات الحمل، ولذلك كان حجم الرسائل والأشياء التي توزع ضمنها صغيرا وسرعة نقلها بطيئة بالمعايير اللاحقة، ولذلك أيضا كانت قوة تأثيرها في الحياة اليومية ضعيفة، مع أنها نقلت - من حين إلى آخر - تغييرات كبرى. فيما كانت الشبكات الحضرية الأكثر إحكاما، التي ظهرت إلى الوجود بداية من نحو ستة آلاف سنة خلت، تنقل المزيد من المعلومات والأشياء، وبسرعة أكبر، ولذلك لعبت دورا أكبر في التاريخ. ومع نمو هذه الشبكات واندماجها، تراجع أكثر وأكثر عدد المجتمعات التي تعيش في عزلة، إذ كانت تتطوّر بالتوازي مع غيرها، وأخذت مجتمعات أكثر وأكثر تعيش وتتطوّر في اتصال مع غيرها. وبين اثني عشر ألفا وخمسة آلاف سنة خلت، كانت سبعة مجتمعات حول العالم على الأقل قد اخترعت الزراعة، على الأغلب في استقلالية كاملة بعضها عن بعض، إذ يبدو أن ضغوطا متماثلة قد أنتجت حلولا متماثلة. لكن في المقابل، لم تكن ثمة حاجة إلى اختراع المحرك البخاري سبع مرات حتى ينتشر حول العالم، وذلك لأنه بحلول القرن الثامن عشر، كان يكفي اختراعه مرة واحدة فقط.

(4) شكّلت قوة الاتصال والتعاون والتنافس بين البشر تاريخ الكرة الأرضية، تماما كما شكّلت التاريخ الإنساني. فقد أدى الفعل الإنساني المنسق إلى زعزعة العلاقات البيئية السائدة، أولا من خلال الاستخدام المتعمد للنار، والصيد المنسق للطرائد ضخمة الجثة، وتدجين الحيوانات والنباتات(*). وتدريجيا، تعلم البشر كيف ينتزعون أنصبة أكبر من طاقة الأرض وتدفقاتها المادية من أجل أغراضهم، ما أحدث زيادة كبيرة في انتشارنا وفي أعدادنا. أدى ذلك - بدوره - إلى تيسير بناء وتطوير البنية التحتية للشبكة العالمية، ممثلة في السفن والطرق والسكك الحديد والإنترنت. وقد دعمت عملية بناء الشبكة وعملية توسيع بيئة البشر كل منهما الأخرى. فما كان من الممكن لنا أن نبلغ قوة ستة مليارات إنسان لولا العدد الكبير من الارتباطات المتبادلة وتدفقات وتبادلات الغذاء والطاقة والتقنية والمال التي تشكّل الشبكة العالمية الحديثة. وأخيرا، دشّن البشر حقبة جديدة من تاريخ الأرض تسمى الأنثروبوسين، تمثّل أفعالنا فيها العامل الأهم على الإطلاق في التطوّر الأحيائي، وفي العديد من التدفقات الجيوكيميائية الأحيائية للكوكب وعملياته الجيولوجية.

وموضوع الكتاب الحالي هو كيف خلق البشر شبكات التفاعل؟ وكيف نمت تلك الشبكات وتطوّرت؟ وما الأشكال التي اتخذتها في مناطق العالم المختلفة؟ وكيف تجمعت في الأزمان الحديثة ضمن شبكة كونية واحدة؟ وكيف غيّر ذلك دور الإنسان على الأرض؟ وكل ما نتمناه هو أن يلقي هذا المنظور على الماضي ضوءا كاشفا على معضلات الحاضر والمستقبل.

(*) ينطبق مصطلح «التدجين» على النبات، كما على الحيوان، إذ يعني في الحالتين إخضاع النبات أو الحيوان لسيطرة الإنسان بدلا من تركه للظروف الطبيعية، بحيث ينمو في الوقت والمكان والظروف وبالكمية والنوعية التي يختارها الإنسان، فيتحوّل الأرز - مثلا - من نبات بري ينمو في أي مكان وبأي كمية ونوعية، ولا يكون للإنسان دور سوى جمعه، إلى نبات يزرعه الإنسان في الوقت (وفق ظروف المناخ)، والمكان (وفق جودة التربة ووفرة الماء)، وبالكمية والنوعية اللتين يريدهما الإنسان، وقد أنتج التدجين في الحالتين تغيرات وراثية واضحة في الحيوانات والنباتات، حتى إن علماء الآثار يستطيعون أن يُميّزوا بين الحيوانات والنباتات البرية ونظيرتها المُدجّنة كما يرد لاحقا في هذا الكتاب. [المترجم].



التلمذة الإنسانية

عظام مبعثرة، وحجارة منحوتة، وكسرات من الفحم، هي كل ما في حوزتنا من أدلة حول الطريقة التي عاش بها أسلافنا البعيدون. ومع أن علماء الآثار درسوا حتى الآن آلاف المواقع واكتشفوا ملايين الأجزاء والكسرات، فإن معرفة الطريقة التي بدأت بها مسيرة البشر على الأرض تأسيسا على هذه الأدلة تظل ضربا من التخمين. لذلك نجد أنفسنا في حاجة إلى خيال ثري لإعادة بناء الجماعات البشرية من العظام والحجارة المتفرقة، وبعدها يُعرض البناء الناتج من خيال الخبراء على خبراء آخرين ليكون هدفا لتفنيدهم. لكن تظل هناك - مع ذلك - معالم تبدو أكيدة، وقد أسهمت تقنيات التحليل الكيميائي التي استحدثت أخيرا في تحديد تواريخ كثير من الاكتشافات بمزيد من الدقة. وعلى الرغم من ذلك، يظل كل شيء

«أصبح النمو السكاني المركز جليا قبل نحو ستة عشر ألف سنة، عندما بدأ أحدث تجمد جليدي كبير في الذوبان، وعندما تعلمت بعض الجماعات البشرية حفظ الغذاء، ما ضمن لها تغذية موثوقة على مدار السنة»

مؤقتا وغير نهائي، إذ يمكن لاكتشاف واحد جديد في أي وقت أن يقلب الأفكار المقبولة في الوقت الراهن.

في خضم حالة الالتباس الناتجة عن ذلك، ما التخمينات الأكثر معقولية حول التلمذة الإنسانية human apprenticeship التي بدأت منذ أن نزل أسلافنا من فوق الأشجار؟

أولا، حدث هذا النزول الحاسم إلى الأرض في أفريقيا، التي انطلق فيها أسلافنا أشباه القردة apelike في منطقة السافانا قبل نحو أربعة ملايين سنة. والسافانا منطقة سهلية جافة يكسوها العشب وتنتشر فيها مجموعات متفرقة من الأشجار المقاومة للجفاف، يفترض أنها - أي الأشجار- وفّرت للبشر أماكن آمنة للنوم ليلا. وفي هذه المنطقة، تتناوب فصول مطيرة مع فترات من الجفاف كان الوصول خلالها إلى ماء الشرب ضروريا للحيوانات السائمة، ولأسلافنا كذلك. كان البشر البدائيون متعددي البراعات بكل معنى الكلمة، فأمدّوا أجسامهم واستهلاكهم للطاقة بأسباب الحياة، وكبرت أدمغتهم بفضل النظام الغذائي المتنوع وعالي الجودة المكوّن من الجوز والفاكهة وجذور النباتات وأوراقها، فضلا على أجسام الحيوانات الصغيرة والحشرات واليرقات التي كانوا يأكلونها. ومن نافلة القول أن هؤلاء الأسلاف كانوا هم أنفسهم طعاما للقطط الكبيرة، وربما تنافسوا مع النسور والضباع على اللحم المتبقي من فرائس هذه القطط.

جعل النظام الغذائي للبشر - المركز والمتنوع - تكيفهم مع التغير المناخي سهلا نسبيا، حتى إن نجاح البشرية اللاحق نتج في معظمه من تلك القدرة على التكيف، ذلك أن حوادث تكوّن الجليد وذوبانه المتكررة بداية من نحو مليونين ونصف مليون سنة خلت، قد أحدثت تغيرات مناخية حادة في كل أجزاء كوكب الأرض، وزعزعت الأنظمة البيئية في كل مكان، ويمكن القول إن أسلافنا تخصصوا في التكيف، إذ أصبحوا نوعا متفوقا في التكيف مع المناطق المجهَدة من خلال إيجاد أنواع جديدة من الغذاء، ومع الوقت، بابتكار طرق جديدة لتحصيله.

نشأ ذلك النجاح - بدوره - عن سمات أخرى ميّزت حياة الإنسان البدائي protohuman في منطقة السافانا الأفريقية، منها أن أسلافنا منذ أن مشوا على قدمين معظم الوقت أو كله، تمكنوا من استخدام أيديهم للسيطرة على العصي

ورمي الحجارة، ما مكّنهم من تشكيل العصي والحجارة لكي تصلح لأغراض محددة. وعلى رغم أن الأدوات الخشبية ربما تكون أقدم زمنيا، فإن الأدلة الحالية ترجع صنع الإنسان للأدوات إلى ما قبل واحد وثمانية أعشار مليون سنة(*)، وهو ما حدث عندما بدأت في الظهور ضمن السجل الأثري الحجارةُ المنحوتةُ عن قصد، وذات الحواف الحادة القادرة على تقطيع جثث الحيوانات أو تشكيل عصي الحفر والرماح الخشبية. وفي حين تعتمد معظم الحيوانات على الأسنان للقبض على طعامها وتقطيعه، أمكن لأسلافنا أن يتعاملوا بأسنان أصغر وأصغر، وذلك لأنهم كانوا يستخدمون العضلات الكبيرة في الذراعين والساقين للقبض على الأطعمة وتقطيعها، بمساعدة العصي للحفر والحجارة للتقطيع. واستعاض أسلافنا بالعصي والحجارة عن الأسنان في الدفاع عن أنفسهم ضد الحيوانات المفترسة، وبذلك استطاعوا أن يقفوا على مسافة بسيطة من مهاجميهم، ما قلل خطر الإصابات بينهم.

كانت الاستعاضة عن الأسنان بالأدوات مبادلة جيدة منذ البداية، ومع الوقت تطوّرت هذه الميزة مع كل تحسُّن في تقنية الحجارة والعصي. لكن قبل أن يظهر في السجل الأثري تطوُّر واسع النطاق في الأدوات، أطلق البشر تحوُّلا أساسيا آخر في طريقة حياتهم من خلال تعلم طرق استخدام النار والسيطرة عليها. وعلى رغم أنه لايزال من غير المؤكد متى حدث ذلك وكيف[1]، فمن المؤكد أنه بينما كان البشر يحسّنون الأدوات التي يستخدمونها، غيّروا في الوقت عينه علاقاتهم بالنار، وتعلموا أخيرا كيف يستخدمونها لرد الحيوانات المفترسة ودفع الطرائد إلى الفخاخ أو الكمائن، وللطبخ والحصول على الدفء والنور، وبؤرة للحياة الاجتماعية. وتمكن أسلافنا من خلال الإحراق المتعمد للغطاء النباتي الجاف من إعادة تشكيل المشهد الطبيعي لتحسين عملية الصيد. كانت السيطرة على النار عملية في غاية الأهمية، حتى إن الجماعات التي تعلمت الطيف الكامل لاستعمالات النار هي وحدها التي كُتب لها البقاء.

من المرجح أن هذه السمات السلوكية ساعدت في تشكيل التطوُّر الأحيائي لأسلافنا. غير أن الكسرات العظمية المتبقية لا تمكّننا من إجراء إعادة بناء

(*) يتعلق هذا القدم بالأدوات الحجرية، في حين كانت الأدوات الخشبية أسهل بالتأكيد على الإنسان في تشكيلها واستخدامها، ولا بد أنها لذلك السبب كانت أسبق في الاستخدام من الأدوات الحجرية، لكن عوامل التلف نالت منها يقينا أكثر من الأدوات الحجرية التي بقيت بكثرة. [المترجم].

موثوقة للكيفية التي تحوّل من خلالها أسلافنا أشباه القردة إلى الإنسان الحديث moderns. لكننا نعرف أن الأدمغة صارت أكبر، وأنه قبل نحو واحد وستة أعشار مليون سنة بلغ الإنسان المنتصب Homo erectus نحو قامة الإنسان الحديث نفسها، بقدمين وساقين تشبه أقدامنا وسيقاننا، وأنه تخصص في الجري والمشي لمسافات طويلة[2].

قبل أكثر من مليون سنة، غادرت جماعات الإنسان المنتصب منطقة السافانا الأفريقية، أولا إلى آسيا، ولاحقا إلى أوروبا. وتُبيّن العظام المكتشفة في جاوة وشمال الصين شرقا وفي المجر غربا أن البشر تمكنوا من البقاء في ظروف طبيعية متنوعة، من بينها البرودة الجليدية في الشتاء. وخلال هذا الانتقال، كان الكساء (ربما فراء دب على ظهر الإنسان)، والمأوى في الكهوف وفي الأكواخ أو الخيام الاصطناعية، والمهارة المطلوبة للحفاظ على نيران الموقد (وربما لإضرامها)، ضرورية لتمكين مخلوق كان استوائيا في السابق مثل الإنسان المنتصب من البقاء في المناخ الجليدي. لكن الأدلة الأثرية غامضة، ما يجعلنا غير متيقنين من ذلك تمام اليقين.

غير أن التكيف الرائع الذي أظهرته جماعات الإنسان المنتصب يتضاءل أمام التكيف الذي أظهره خلفاؤهم من جماعات الإنسان العاقل Homo sapiens، وهم أسلافنا المباشرون. يتميّز الإنسان العاقل عن الإنسان المنتصب بكبر حجم الجمجمة الحافظة للدماغ، فضلا على تغيرات صغيرة أخرى في بنية الهيكل العظمي. ثم جاءت التغيرات السلوكية والاجتماعية في النهاية لتوسّع الفجوة بينهما أكثر وأكثر. ربما لم تظهر الاختلافات السلوكية إلا بعد فترة طويلة من الوقت الذي ظهرت فيه بقايا من عظام الإنسان العاقل لأول مرة في أفريقيا، وذلك بين نحو مائة وثلاثين ألفا ومائتي ألف سنة خلت. ويبدو أن النمط الحديث للبشر المتمثّل في التكيف التقني الدائم لم يظهر إلا قبل نحو أربعين ألف سنة فقط، كما تكشّف في تكاثر أنواع الأدوات وتباينها عبر المكان والزمان والانتشار السريع للبشر في كل أنحاء الأرض الصالحة للسكنى[3]. كانت أستراليا - بين أربعين ألف سنة وستين ألف سنة خلت - أولا ثم الأمريكتان - قبل نحو عشرين ألف سنة - أكبر المناطق الجديدة التي سكنها الإنسان العاقل، ونجحت جماعات الإنسان العاقل في إزاحة جماعات الإنسان النياندرتالي من أوروبا وجنوب غرب آسيا أو استوعبوهم قبل نحو خمسة

وثلاثين ألف سنة(*)، واخترقوا قوس الجزر الواسع الواقع قبالة جنوب شرق آسيا. وقبل عشرة آلاف سنة، كانت المناطق المغطاة بالجليد والجزر البعيدة هي وحدها التي لم تطأها قدم إنسان.

لم تشهد الأرض قبل ذلك انتشارا عالميا مشابها لأحد المخلوقات ضخمة الجثة، حدث على هيئة قفزات عبر الحواجز المناخية والمائية كلتيهما، كما فعل الإنسان. فقد تجاوز التكيف الإنساني القيود البيئية العادية. لذلك بدأ التأثير الإنساني على أشكال الحياة الأخرى يغيّر الأنظمة البيئية المحلية في كل مكان على سطح الأرض.

وإذا حاولنا أن نتخيل ذلك الذي جعل هذا الإنجاز المتفرد ممكنا، فإن التفسير الأكثر معقولية هو أن نفترض أن التحسينات الملحوظة في شبكة الاتصال والتعاون الإنسانيين هي التي مكّنت جماعات الإنسان العاقل المتنقلة من استعمار المناطق الصالحة للسكنى بالكرة الأرضية وتوطيد أنفسهم في كل مكان بصفتهم النوع المهيمن. ربما تمثّل ابتكارهم الأهم في التوظيف الكامل للغة في خلق معان رمزية. وعندما أصبح البشر قادرين على بناء عالم متفق عليه من المعاني من خلال التحدث عن الأشياء وإعطاء أسماء اصطلاحية للأشياء والأفعال والمواقف، فإنهم بذلك أدخلوا مصفاة لفظية بين الخبرة الشخصية وكل شيء خارجها (ومن ضمن ذلك كل الأفراد الآخرين في الجماعة المباشرة وأفعالهم الممكنة أو المحتملة)، ما سمح للسلوك الاجتماعي بأن يبلغ مستويات عالية من التنسيق الدقيق. وكما حدث مع الأدوات والنار، أمكن للبشر تغيير المعاني المتفق عليها وتحسينها في كل مرة أدت فيها الخبرة إلى توقع خائب.

وحيث إن هذه الإحباطات كانت - ولاتزال - مزمنة، فإن الدافع للاختراع كان حاضرا دائما وأبدا، وهو ما ييسر لنا فهم الانطلاقة في سرعة الابتكار التي ما كان من الممكن فهمها لولا اللغة. خلاصة القول أنه منذ أن بدأت اللغة في تشكيل عالم مفهوم من المعاني المتفق عليها بين البشر، لم يتوقف الصدام بين التوقع والخبرة عن حث الجهد لتعديل تلك المعاني بغرض تغيير السلوك وإرغام العالم على الإذعان لرغبات البشر وآمالهم ومقاصدهم.

(*) ينسب الإنسان النياندرتالي Neanderthal إلى واد بالاسم نفسه يقع بالقرب من دوسيلدورف بألمانيا، وجدت فيه بقايا هيكل عظمي لإنسان قديم. [المترجم].

أحدث ذلك انفجارا متواصلا وكاسحا في الأفعال والأفكار الجديدة، ما أعطى النوع الإنساني قدرة سريعة التنامي على تعديل سلوكه وتغيير بيئته المحيطة. معنى ذلك أن التطور الرمزي لدى الجماعات البشرية قد حلّ بدرجة كبيرة محل التطور الوراثي باعتباره القوة الدافعة للتغير الأحيائي على الأرض، وبذلك بدأ ما يمكن أن نسميه على نحو ملائم الحقبة الإنسانية من التاريخ البيئي قبل نحو أربعين ألف سنة.

لذلك يبدو أن نوعنا متفرد، فهو وحده الذي خلق عالما من المعاني الرمزية قادرا على التطور السريع وتنسيق سلوك أعداد لا تحصى من البشر، تصل في عصرنا الراهن إلى بلايين البشر. وذلك الإنجاز عينه هو ما يتناوله الكتاب الحالي.

كان الكلام المفهوم والمنضبط بقواعد هو الشرط اللازم لهذا العالم الرمزي الذي خلقه البشر. وحيث إن النسانيس والقردة مخلوقات اجتماعية تنتج أصواتا وتستخدم إشارات صوتية للإنذار وتوصيل غير ذلك من الرسائل، فمن المرجح أن أسلافنا الأوائل كانوا يفعلون الشيء نفسه. لكن البقايا العظمية لا تقول شيئا عن هذا السلوك، ما يضطرنا إلى تخيل كيف حدث التحسّن التزايدي في سرعة الاتصال ومداه ودقته وكيف تعزّز بفضل الإيماءات والتلفظات غير الكلامية والأدمغة الكبيرة والحنجرة التي تغير مكانها وفترة الاعتمادية الأطول بين الأطفال البشريين وشبكة التفاعلات الاجتماعية الدائمة داخل جماعات صغيرة من البشر.

كان اختراع الغناء والرقص أحد المعالم المهمة في هذه العملية التطورية. فعندما تثني مجموعات من البشر عضلاتها الكبيرة وتحركها آنيا بأداء الحركات والأصوات إيقاعيا، فإن ذلك يثير إحساسا دافئا بالتضامن الوجداني يجعل التعاون والدعم المتبادل في المواقف الخطرة أشد ثباتا وقوة منهما بغير ذلك. لذلك أصبح الغناء والرقص إحدى السمات المشتركة بين الجماعات البشرية، إذ يميّز هذا السلوك نوعنا، تماما كما يميّزه الكلام. تمثّلت الفائدة الكبرى للغناء والرقص في تمكين جماعات أكبر من البشر من الالتئام معا وتسوية النزاعات والدفاع عن الأرض على نحو أكفأ، وذلك لأن المشاركة في الرقص والغناء في المناسبات الاحتفالية تزيل الخلافات والخصومات بين المشاركين فيهما.

إن أبسط المجتمعات الإنسانية المعروفة لعلماء الأنثروبولوجيا تضم عشرات الأفراد، وعادة مئات الأفراد. أما جماعات الشمبانزي، فهي أصغر كثيرا بالمقارنة مع

البشر، وفي حالة لوحظت فيها من قرب، أدت المنافسات بين ما لا يزيد على خمسة عشر ذكرا بالغا من الشمبانزي إلى انقسام المجموعة إلى مجموعتين منفصلتين ومتعاديتين، وتلا ذلك قتال مهلك، وخلال بضع سنوات أفنيت المجموعة الأصغر تماما. لو تصرف أسلافنا على نحو مماثل، فمن السهل أن نتخيل أن الأعداد الأكبر التي جمعت بينها عاطفة رفقة استحثّها الغناء والرقص، قد حظيت بميزة حاسمة على الجماعات الأصغر والجيران الممزقين بفعل النزاع. ويمكننا أن نتخيل أن ذلك كان كافيا لجعل الغناء والرقص سمة عامة بين البشر، مثله مثل استعمال النار، وأنه أقام بين أسلافنا كيانا إنسانيا مكبرا.

شجعت الجماعات الأكبر- بدورها - التحسّن في الاتصال اللفظي. وفي النهاية، تجاوز البشر - بين أربعين ألف سنة وتسعين ألف سنة خلت - عتبة حرجة عندما بدأ تفاعل خصب بين المعاني المتفق عليها واللقاءات الفعلية مع العالم الخارجي. وكما حدث مع السيطرة على النار، ومع الغناء والرقص، أعطى الكلام القادر على خلق عالم من المعاني المشتركة مزايا بقاء هائلة، ومن ثم أصبحت إحدى السمات المميّزة للبشر. وبذلك أصبحت أشكال السلوك المتعلّمة الثلاثة - السيطرة على النار والرقص والغناء والكلام - ولاتزال - علامات مميّزة لنوعنا.

ربما نتج انتشار البشر المتفرد حول العالم - بين نحو عشرة آلاف وأربعين ألف سنة خلت - من التنافس الإقليمي بين الجماعات البشرية المتجاورة، من النوع الذي لوحظ أخيرا بين جماعات الشمبانزي المتجاورة. تتناوب جماعات الشمبانزي على حراسة حدود إقليمها على فواصل زمنية قصيرة، وتستطلع الأراضي المجاورة بانتظام، وتنتزع مزيدا من الغذاء، وتختبر أنفسها في مقابل جيرانها من خلال استعراض الأصوات، ومن حين إلى آخر من خلال العراك المهلك. وتؤدي هذه المواجهات من وقت إلى آخر إلى تغييرات حدودية، ذلك أن زيادة الأعداد داخل الجماعات المتجاورة أو نقصانها يؤديان من حين إلى آخر إلى إعادة تعيين حدود الإقليم[4].

لو كان أسلافنا قد تصرفوا على نحو مماثل، ولو كانت مهاراتهم المتفوقة قد مكّنتهم من إعالة أعداد متزايدة، وهو ما يبدو مؤكدا، فإن كل المطلوب للانتشار العالمي كان القدرة على إيجاد الغذاء والمأوى في البيئات الجديدة. كان البشر مهيئين لذلك فعلا بفضل نظامهم الغذائي المتنوع وصندوق أدواتهم المتنامي وقدرتهم

المتسارعة على الاختراع والاكتشاف التي منحتها اللغة لجماعات مختلفة في بيئات طبيعية مختلفة.

جاءت نتيجة ذلك مذهلة حقا، إذ بدأ البشر انتشارهم كجماعات من الصيادين المهرة كانت تفضل الطرائد الكبيرة لأن العائد من الصيد الواحد كان يتناسب مع حجم الجثة، وكان من الوارد أن تقترب الوحوش الكبيرة من البشر في البيئات الجديدة بسبب تهورها وعدم خوفها من البشر غير المخيفين جسديا. وعلى أي حال، ففي كل من أستراليا والأمريكتين، تزامن وصول الصيادين من بني البشر مع الاختفاء الواسع للحيوانات ضخمة الجثة.

في هاتين البيئتين، تزامن حدوث تغير مناخي حاد مع ظهور البشر، ولذلك لا أحد يستطيع أن يجزم بأن الصيادين البشريين هم المسؤولون عن هلاك هذه الحيوانات. لكن يبدو من المرجح أنهم كانوا عاملا حاسما في بلوغ ذلك المصير، كما تبرهن على ذلك حالة جزر مثل نيوزيلندا ومدغشقر، التي وصل استعمار البشر إليها متأخرا، وأدى إلى اختفاء الطرائد ضخمة الجثة خلال بضع مئات من السنين. وعلى النقيض من ذلك، لم تشهد أفريقيا التي اجتاحتها تغيرات مناخية لا تقل حدة عن الأماكن الأخرى، اختفاء مماثلا لهذه الحيوانات، ربما لأن جماعات البشر والحيوانات تعايشت هناك منذ بداية مسيرة البشر على الأرض، وأتيح لها وقت طويل ليتعوّد بعضها بعضا. لذلك يبدو من المرجح أن الصيادين البشريين المهرة الذين اصطدموا مع الوحوش ضخمة الجثة عديمة الخبرة، التي ربما تأثرت سلبا بالتغيرات المناخية، قد شكّلوا مزيجا قاتلا لعدد كبير من الحيوانات ضخمة الجثة. كانت هناك أنواع يمكن استخدامها كحيوانات أليفة من بين تلك التي اختفت من الأمريكتين، من أهمها الخيل والإبل. قد يكون ذلك أقدم دليل على تأثيرنا المدمر للأنواع الأخرى، على رغم أنه من المحتمل أن تكون بعض الجماعات البشرية قد استنزفت موارد محلية أخرى على نحو متهور حتى قبل القضاء على هذه الأنواع في الأمريكتين وأستراليا، بل ومازلنا نفعل ذلك حتى اليوم.

تطلب انتشار البشر حول العالم - وشجع بدوره - توالد تقنيات جديدة لاستغلال موارد المناطق المتنوعة. وعندما بدأت الجماعات البشرية في استخدام أشكال أكثر تطورا من المأوى والكساء وأنواع جديدة من الأدوات والأسلحة ووسائل

النقل والزينة، اشتد تأثيرها في البيئة المحيطة. وبوجه عام، كانت النار أكثر الأدوات فعالية تحت تصرف البشر لتغيير المشهد الطبيعي. فمن خلال الإضرام المتعمد لنيران واسعة في فصل الجفاف، تمكن الصيادون من تحسين عمليات الإغارة على الحيوانات التي يصطادونها. ومن بين القارات، كانت أستراليا الأكثر تأثرا، ذلك أن جفافها جعل النار قوية هناك إلى حد كبير. فيما كانت الغابات المطيرة الاستوائية رطبة على الاحتراق، وكانت موارد الغذاء فيها على مستوى الأرض ضئيلة، ما جعل استعمار البشر لتلك البيئات محدودا بالقدر نفسه. بينما كانت منطقة السافانا والغابات المعتدلة - في المقابل - أسهل في إضرام النيران فيها في الفصول الجافة، وهو ما فعله الصيادون في أنحاء أفريقيا وأوراسيا والأمريكتين جميعا.

تحلّل النار المادة العضوية إلى المواد الكيميائية الأولية المطلوبة لكي ينمو النبات الجديد أسرع مما يمكن للجراثيم أن تفعل. ومن خلال إشعال نيران واسعة وإنتاج رماد أكبر مما تنتجه نيران البراكين أو البرق، ساعد البشر في تسريع توزيع المواد الأولية عبر أجيال متعاقبة من النباتات، ما وسّع نطاق انتشار بعض الأنواع وضيّق نطاق غيرها. لذلك يعد تكاثر أشكال النبات القادرة على احتمال النار علامة أخرى على هجرة البشر حول العالم. كان ذلك مهما للنباتات، تماما كما كان اختفاء الطرائد ضخمة الجثة مهما للحياة الحيوانية.

وكان تطوير أدوات وأسلحة وآلات متنوعة وأشد تعقيدا رفيقا آخر لانتشار البشر في مختلف أرجاء العالم. بيد أنه ليس في وسعنا إلا أن نخمن استخدام البشر لأدوات حجرية بعينها، بينما تظل معرفتنا غير يقينية بكيفية الجمع بين الحجارة المنحوتة وغيرها من مكوّنات صندوق الأدوات البشري الآخذ في الاتساع، الذي شمل الجلود والألياف النباتية والعصي والعظام والصبغات المعدنية وحتى قشر البيض، وذلك لأن الأجزاء الباقية من هذه المواد القابلة للتلف شحيحة. ومع ذلك، فإن هناك اتجاها يؤكد بوضوح حدوث تحسُّن مطّرد في المدى الفعال للأسلحة. من ذلك مثلا أن الرماح المحمولة في اليد أفسحت المجال أخيرا لرماح أخف تُطلَق باستخدام عصي قذف، أدت إلى زيادة السرعة والمدى[5]. بعد ذلك، ظهرت الأقواس والسهام في مكان ما في أوراسيا أو أفريقيا بين خمسة عشر ألف سنة وثلاثين ألف سنة خلت، ما أدى إلى تخفيف وزن القذيفة وزيادة سرعتها ومداها بفضل

الإطلاق الآني للطاقة المخزنة في توترات قوس مشدودة. كان القتل من مسافة باستخدام الرماح والسهام أكثر أمانا بكثير من الاقتراب من الخصم، وكان على الطرائد أن تتكيف مع هذه المهارات الإنسانية المحسّنة من خلال تعلم الفرار متى شعرت بوجود الإنسان.

لم يكن الصيد يوفر بالطبع غير جزء من النظام الغذائي للإنسان فقط، إذ كان جمع الأطعمة النباتية ضروريا مثل الصيد تماما لنجاح البشر في اختراق الكثير من البيئات المختلفة. تتمتع جماعات الصيد والجمْع الحديثة بمعرفة واسعة بالمواقع وفصول السنة وطرق جمع عدد كبير من الأطعمة المختلفة ومعالجتها، منها عدد مذهل من النباتات السامة في حالتها الخام. ويمكن أن نقول بدرجة من الثقة إن أسلافنا البعيدين جمعوا معرفة مماثلة على مر الزمن، واكتشفوا أو ابتكروا من وقت إلى آخر طرقا جديدة لجمع الغذاء كانت لا تقل أهمية لتغذيتهم عن أهمية التحسينات في المقذوفات بالنسبة إلى الصيد. بيد أن التجديدات في جمع الغذاء لم تترك في معظمها مخلفات أثرية، لكن الأثقال الحجرية المثقوبة التي يسّرت استخراج جذور النباتات من خلال دق عصي الحفر عميقا في التربة، تشهد على جانب من هذه العملية.

تخصصت النساء والأطفال في الجمع، وذلك لأن الأطفال الصغار الذين كان يتحتم حملهم كانوا يشكّلون عبئا ثقيلا بالنسبة إلى الصيد الذي أصبح لذلك تخصص الرجال. وفي هذه الظروف، كان لتبادل الغذاء بين الصيادين الذكور والجامعات الإناث مزايا واضحة، وأدى أخيرا إلى تكوين وحدات عائلية توزع الغذاء بطريقة منظمة بين الآباء والأمهات والأطفال[6]. وشكّلت العائلات - بدورها - شبكات كثيفة، نقلت المهارات والمعارف المتنامية من الآباء والأمهات إلى الأطفال.

لم يقتصر التخصص على توفير الغذاء. فمع ظهور اللغة، على وجه التحديد، ميّز الخبراء في عالم الروح أنفسهم عن الأشخاص العاديين، ربما تأسيسا على قوة الأدوار الطقوسية وقدرة غير عادية على الدخول في حالة النشوة. يُفترَض عموما أن الشامانات السيبيريين الذين يتواصلون مع الأرواح من خلال الرقص والنشوة يعدون مثالا حيا لهذه المعرفة وورثة لشكلها الأقدم، وربما يكونون كذلك فعلا(*).

(*) الشامانية shamanism ممارسات دينية - ثقافية متنوعة وكثيرة تنتشر في شمال آسيا، لا سيما سيبيريا، بين عدد كبير من الجماعات، تقوم في بعض تنويعاتها على الرقص والغناء ومحاكاة الأصوات الطبيعية. [المترجم].

كان مفهوم عالم الروح - الخفي والموازي للمجتمع الإنساني - أول نسق فكري واسع يبتكره البشر، لأنه يقدم تفسيرا لكل شيء يحدث. فإذا كان كل جسم بشري يستمدّ الحياة والشعور والإرادة من روح خفية تسكنه في أثناء اليقظة، وإذا كانت هذه الأرواح تستطيع أن تنتقل حول العالم مثلما تشاء، فإن خبرات متنوعة مثل الوعي والنوم والأحلام والموت والمرض والنشوة تصبح مفهومة، إذا ما فُسرت بوضوح على أنها ناتجة من الطريقة التي تنتقل بها أرواح بعينها إلى الأجسام البشرية ومنها. وقد قدم لهم النَّفَس الذي يفارق الإنسان مع الموت نموذجا معقولا لمفهوم الروح الحية الخفية. أما خبرة النائم الذي يقابل الموتى ويتحدث معهم في الأحلام، فقدمت لهم قاعدة من الخبرة لفكرة أن العالم تسكنه أرواح لا أجساد لها. وإذا كانت الأشياء المتحركة الأخرى تمتلك أرواحا تشبه أرواحنا، فإن بقية العالم تشبه المجتمع الإنساني، ويشبهه أيضا العالم الخفي - ربما إلى حين فقط - للأرواح التي بلا أجساد.

لذلك كان لزاما الإبحار في عالم الروح بالعناية والدقة التي اتبعت في العلاقات داخل الجماعات. ومن هذا المنطلق، ظهر الخبراء في عالم ما وراء الطبيعة الذين كان في مقدورهم، باعتبارهم وسطاء بين الأرواح وعامة الناس، أن ينقلوا المعلومات المهمة، وهو ما كان شأنه أن يبدّد القلق ويحدد ما يجب فعله لتخفيف خيبة الأمل والمحنة أو تجنبهما. وقد أسهم تعلم طرق حث مساعدة الأرواح الطيبة واسترضاء الأرواح الشريرة أو الغاضبة في توسيع نسق القواعد التي تحكم العلاقات داخل الجماعات لتشمل العالم على اتساعه، ومن ضمن ذلك العلاقات مع الجماعات المجاورة. وأسهم في تخفيف الصدامات مع العالم الطبيعي من خلال جعل كل ما يحدث يبدو مفهوما وقابلا للعلاج طقوسيا ضمن حدود بعينها.

كانت الأرواحية - بإعطاء هذه الفكرة اسمها الحديث - ولاتزال رؤية العالم الأسهل في استيعابها وجدانيا من بين كل ما أبدعه البشر على الإطلاق(*). وبالنظر إلى انتشارها بين جماعات الصيد والجمْع الباقية في جميع أنحاء الأرض، فإنها ربما تشكّل جزءا من المتاع الثقافي الذي حمله البشر معهم في أثناء انتشارهم العالمي.

(*) الأرواحية animism أو مذهب حيوية المادة، هي الاعتقاد أن لكل ما في الكون روحا أو نفسا، حتى الكون نفسه. [المترجم].

ولم تنجح الأنساق الدينية والفلسفية التي ظهرت لاحقا في إزاحة الأرواحية تماما، ولا حتى الأفكار العلمية الحديثة تمكنت من ذلك. ولا توجد رؤية للعالم دامت كل هذا الأمد الطويل أو فسرت كل هذا الكم من الظواهر لهذا العدد الكبير من البشر على هذا النحو المقنع. وهي لذلك تستحق احترامنا.

ربما ضمت بعض الجماعات أشخاصا آخرين تمتعوا بمهارات خاصة، مثل صناع الأدوات، لكن على امتداد الزمن الذي كانت الجماعات البشرية فيه تتوسّع عبر سطح الكرة الأرضية، ظلت أعداد هؤلاء المتخصصين صغيرة نسبيا. ربما كان ما يسميه الخبراء اختلاط «الانشقاق - الانصهار» fission-fusion sociality من النوع الذي يسود اليوم بين جماعات الشمبانزي، جزءا من الميراث الإنساني، بمعنى أن عائلة واحدة أو أكثر كانت تخرج وحدها بحثا عن الغذاء لمعظم الوقت، لكن عندما كان أفراد نفس الجماعة يلتقون، فإنهم كانوا يتعرفون بعضهم على بعض في الحال. وفي الأوقات من السنة التي كان الغذاء فيها وفيرا، كان من الممكن أن تجتمع الجماعة كلها وتلتقي بالجماعات الأخرى للاستمتاع بالغناء والرقص وترتيب الزيجات وتبادل المعلومات والأشياء الثمينة.

شكّلت هذه اللقاءات الاحتفالية شبكات اتصال صغيرة امتدت عبر مسافات طويلة وكانت قادرة على نشر الابتكارات المفيدة والنقالة - مثل القوس - حتى عبر مضيق بيرنغ(*). كان الزواج من الأباعد مهما من الناحية الأحيائية، وذلك لأن الجماعات المبكرة كانت صغيرة ولم يكن من الممكن تجنب التناسل الضار إلا من خلال الزواج من الغرباء. ويبدو أن هذه الزيجات كانت سمة عامة، وكان لانتشار الجينات الناتج عن ذلك الفضل في الحفاظ على البشر نوعا واحدا على الرغم من انتشارهم العالمي وتكيفهم المتنوع مع بيئات مختلفة. كانت هذه هي الشبكة الإنسانية الأولى التي غطت العالم، ومن خلالها تسرب تدفق محدود - لكن مؤثر - من الجينات والمعلومات على نحو متواصل من جماعة إلى أخرى في كل الأماكن التي وطئتها أقدام البشر.

(*) يصل مضيق بيرنغ Bering Strait بحر بيرنغ (جزء من المحيط الهادي) بالمحيط المتجمد الشمالي، ويعد أقصر مسافة بين آسيا وأمريكا الشمالية البريتين، ويعتقد أنه المكان الذي عبر منه البشر من آسيا إلى الأمريكتين عبر جسر بري يسمى بيرنغيا Beringia تشكل عندما أدى انخفاض مستوى المحيط إلى انكشاف شقة واسعة من قاع البحر، ربما بسبب جبال جليدية حبست كميات كبيرة من المياه. [المترجم].

ربما كانت الزعامة في الجماعات البشرية المبكرة تقوم على المهارات والخبرات الشخصية أكثر منها على المكانة الموروثة. على أن أحدا لا يعرف ذلك على وجه اليقين، لكن يبدو من المؤكد أن الأعداد الإجمالية للبشر زادت مع تعلم الجماعات المتنقلة طرقا لاستغلال الموارد الجديدة في الأراضي الجديدة. ولم يتمكن الكثير من الطفيليات الاستوائية التي نشأت مع البشر في أفريقيا من النجاة في درجات الحرارة المتجمدة، ولذلك تركتها وراء ظهرها الجماعاتُ التي عاشت في المناخ المعتدل أو التي مرت خلال المناطق المتجمدة في طريقها إلى المناطق الاستوائية في جنوب شرق آسيا والأمريكتين، ما أدى - بلا ريب - إلى تقليل الأمراض المعدية المهلكة والمنهكة. وحيث إن الطفيليات التي تمكنت من النجاة من التجمد كانت بطيئة في اكتشاف كيف تتغذى على البشر، فقد أدى عدم التوازن البيئي الناتج عن ذلك إلى نمو سكاني ربما فرض ضغوطا متكررة على إمدادات الغذاء المحلية.

كان البشر أينما وصلوا يغيّرون المشهد الطبيعي بسبب نشاطاتهم، لا سيما بسبب استخدامهم للنار. وظف البشر معارفهم ومهاراتهم المتراكمة في تسخير مزيد من تدفقات الطاقة الطبيعية من بيئتهم لخدمة تطلعاتهم واحتياجاتهم، ما أدى بدوره إلى توسيع بيئتهم وبيئة الأنواع الأخرى التي تمكنت من التكيف مع النظام الجديد الذي بدأت تلك المجتمعات الإنسانية في تشكيله.

كانت بعض الأنواع مصادر غذاء مواتية للبشر، ولذلك تعهدوها برعايتهم عن قصد. وثمة أنواع أخرى تكاثرت على خلاف رغبة البشر، ولذلك عاملوها معاملة الكائنات الضارة. لكن من المؤكد أن مجموعة كبيرة من النباتات والحيوانات والحشرات والكائنات المجهرية المتكيفة - فُلك نوح حقيقي - قد وسّعت بيئتها ضمن توازن الطبيعة مع انتشار المدّ البشري عبر سطح الأرض. اختلفت تفاصيل ذلك وفقا للمناخ والمشهد الطبيعي. إجمالا، تعتمد إعادة بناء ما حدث للحياة النباتية على عينات غبار مأخوذة من قُرارات رسوبية، ذلك أن البقايا الحيوانية متفرقة لدرجة يصعب معها سرد قصة متماسكة، فيما لا تترك الحشرات والكائنات المجهرية أثرا. ومع ذلك يمكن القول إن الجماعات البشرية الصغيرة المتنقلة تمكنت - متسلحة بالنار - من إحداث تغيير جذري في العالم الطبيعي المحيط بها، وتكشف رواسب الغبار أنهم فعلوا ذلك في الحياة النباتية على كل القارات، باستثناء القارة القطبية الجنوبية.

أصبح النمو السكاني المركز جليا قبل نحو ستة عشر ألف سنة، عندما بدأ أحدث تجمد جليدي كبير في الذوبان، وعندما تعلمت بعض الجماعات البشرية حفظ الغذاء، ما ضمن لها تغذية موثوقة على مدار السنة. كانت نتائج ذلك كبيرة، وكان من أولها وأوضحها أثرا أن الجماعات البشرية غدت قادرة على الازدهار عندما تمكنت من حفظ الوفرة المؤقتة في الغذاء الناتجة عن حصاد أنواع مهاجرة مثل الرنة والسلمون والحبوب البرية لاستهلاكها على مدار السنة. لكن تخزين الغذاء على نطاق واسع كان يعني البقاء في مكان واحد طوال السنة أو معظمها، واستلزم إحداث تحسينات سريعة في الأدوات الضخمة والمتقنة المطلوبة لتحقيق الاستفادة الكاملة من وفرة الغذاء المؤقتة، مثل الأسيجة والفخاخ والشِباك وأماكن تدخين الأسماك وأماكن التخزين وما شابه ذلك من استثمارات كبرى. وأصبح المأوى أكثر ملاءمة عندما استقر البشر في بقعة واحدة. والأهم من ذلك أن وقت الفراغ الذي نشأ عندما أصبح من الممكن تحصيل غذاء السنة في بضعة أسابيع أو أشهر، استدعى كل أنواع الإتقان الطقوسي. وفي هذه الظروف، انطلقت الجماعات المختلفة في مسارات ثقافية مختلفة تماما، وتحوّل التماثل النسبي لحياة الجماعات الرحّالة - ربما لم تكن متماثلة تماما بالقدر الذي توحي به أدواتها الحجرية - إلى تنوع شديد. وكمثال لحياة البشر في تلك المرحلة، نختتم هذا الفصل بوصف موجز لثلاثة من مجتمعات الصيد والجمع المتخصصة والمستقرة بدرجة أو بأخرى.

كانت الجماعات المعروفة لنا أكثر مما عداها (لأنها بقيت حتى القرن التاسع عشر) تعيش على طول سواحل المحيطين الهادي والقطبي لأمريكا الشمالية، وهناك تعلمت جماعات متنوعة كيف تصطاد الأسماك - السلمون بالدرجة الأولى - والحيتان المهاجرة. ومكّنتهم أسيجتهم وشِباكهم وحرابهم من الصيد على امتداد المحيط الهادي، ما مكّنهم - بدوره - من جمع كميات كبيرة من الغذاء من مواقع استراتيجية على طول الساحل من شمال ألاسكا حتى كاليفورنيا.

ترجع بداية البقايا الأثرية لمصائد السلمون على طول ساحل المحيط الهادي إلى نحو ثمانية آلاف سنة خلت، لكن أساليب صيد أعداد كبيرة من الأسماك وحفظها لم تتمكن من إعالة مستوطنات دائمة كبيرة إلا في نحو العام 500 ح. م.[7]. ربما كانت الأقواس والسهام التي استوردت من آسيا في وقت ما بين العامين 100 و500 ح. م. هي التي

أرغمت صيادي السلمون على التجمع معا للدفاع عن أنفسهم ضد تهديدات الجيران. لكن من المؤكد أنهم عندما نصبوا أسيِّجة وشِباكا فعالة وشيَّدوا معامل تدخين لتجفيف الأسماك، فإن بضعة أسابيع من العمل المكثف أصبحت كافية لتزويد عدد أكبر نسبيا من السكان بأغلب الغذاء الذي يحتاجون إليه على مدار السنة، ومكّنهم وقت الفراغ الذي نتج عن ذلك من إدخال إتقان رائع على مساكنهم وأعمدتهم الطوطمية ومهرجانات البوتلاتش(*)، وهذه الأخيرة كانت فرصة لكي يؤكد الأفراد تميّزهم الشخصي ومكانتهم الاجتماعية من خلال إهداء الضيوف المدعوين سلعا مخزنة وفقا لروابط قربى ومراتب اجتماعية محددة بعناية، وفي المقابل كان على هؤلاء الضيوف أن يوزعوا هدايا مكافئة في المهرجانات التالية، ما أوجد مجالا لتبادل السلع الثمينة عبر مئات الأميال، وأسهم في تحديد مراتب اجتماعية معقدة وإقرارها طقوسيا في كل الجماعات المشاركة. كانت الحروب تندلع أحيانا على حقوق الوصول إلى أفضل مواقع صيد الأسماك على طول الأنهار والشواطئ، لكن العلاقات داخل الجماعة كانت تحدد دائما من خلال مهرجانات البوتلاتش التي كان يدعى إليها عادة الشخصيات البارزة من كل حدب وصوب.

تؤكد قسوة مناطق ساحل القطب الشمالي التي عاش فيها صيادو الحيتان الإنويت Inuit (الإسكيمو) أن إنجازاتهم كانت أعظم من إنجازات صيادي السلمون. تطوَّرت أساليب صيد الحيتان الناجحة في نحو العام 800 ح. م. عندما مكّنت القوارب الجلدية الكبيرة بما يكفي لحمل طاقم من ثمانية رجال، والحراب ذات الرؤوس القابلة للانفصال والمربوطة بإحكام في القوارب، من مطاردة مخلوقات في ضخامة الحيتان المصابة وقتلها. كانت الحيتان المهاجرة تقترب من الساحل في الصيف عند أماكن بعينها على طول ساحل ألاسكا، شمال وجنوب مضيق بيرنغ، طلبا للغذاء، وهناك كانت مجموعات من صيادي الحيتان الإنويت تتمركز - على بعد عشرات أو حتى مئات الأميال من إحداها الأخرى - في الأماكن المواتية وفق التيارات الهوائية والبحرية السائدة وشكل الساحل. وخلال القرن الثامن عشر كان

(*) الأعمدة الطوطمية Totem Poles، منحوتات نُصبية من أشجار ضخمة على هيئة أعمدة، كانت الشعوب الأصلية على ساحل الهادي الشمالي الغربي لكندا والولايات المتحدة تستخدمها ليس كأنصاب تعبدية، بل كأعمال تنقل جوانب من الثقافة المحلية أو تُخلد معتقدات ثقافية أو تسرد قصة أو أسطورة مألوفة أو خط نسب القبيلة أو أحداثا بارزة. البوتلاتش Potlatch مهرجان لتبادل الهدايا، كان بمنزلة النظام الاقتصادي الأساسي لدى الشعوب الأصيلة على ساحل الهادي الشمالي الغربي لكندا والولايات المتحدة [المترجم].

الطاقم الواحد من صيادي الحيتان الإنويت يصطاد عادة أكثر من عشرة حيتان في الموسم الواحد، وحيث إن وزن الحوت الواحد كان يصل إلى عدة أطنان، فإن صيد الطاقم الواحد كان يكفي لإطعام مئات الأشخاص.

ليس غريبا - إذن - أن ربابنة قوارب الحيتان كانوا الزعماء الاجتماعيين للجماعة وأن مرتبة أفراد طواقمهم كانت أعلى من الآخرين الذين كان إسهامهم في توفير غذاء الجماعة تافها بالمقارنة بهم. كان لحم الحيتان يحفظ بالتجميد، وكان اللحم المجمد يخزن تحت الأرض، وكانت كميات اللحم المخزن كبيرة إلى حد أنهم اعتادوا أن يطعموا بها كلاب الزلاجات التي كانت تستخدم لنقل السلع فوق الجليد. كما وفّر لهم دهن الحيتان الزيت للطبخ المنزلي وللمصابيح التي جعلت ظلام الشتاء محتملا. كانت كل أدوات شعب الإنويت تنمّ عن البراعة، ومنها الفراء المحاك والملابس الجلدية والقوارب الجلدية الكبيرة والصغيرة والأقواس والسهام وزلاجات الكلاب والأكواخ الجليدية المقببة والحراب المتقنة وغيرها الكثير.

كانت كفاءة الإنويت في استغلال موارد الساحل القطبي فائقة حتى إن طريقتهم وتقنياتهم انتشرت سريعا على طول ساحل شرق سيبيريا وعبر أقصى شمال كندا، بل واخترقت حتى أماكن لم تأتِ إليها الحيتان قط، وظل سكانها مضطرين إلى أن يقتاتوا على حيوانات الفقمة والفظ كما كانوا يفعلون في السابق[8]. وعلى الساحل الغربي لغرينلاند(*)، واجهت جماعات صيادي الحيتان المتوسّعة مستعمرين إسكندينافيين بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر من الحقبة المشتركة. ربما عجلت الصدامات المسلحة مع الإنويت انقراض الغرينلانديين الإسكندينافيين، وفي أزمان لاحقة، اندلعت حروب مماثلة بين جماعات متنافسة من الإنويت في ألاسكا، استخدمت فيها دروع من عظام الحيتان.

لكن ذلك لم يحل دون حدوث لقاءات سلمية، شملت حتى ألف إنسان، على طول ساحل ألاسكا خلال القرن الثامن عشر، وربما قبل ذلك. وتوسّعت موارد صيادي الحيتان بفضل الارتباطات التجارية واسعة النطاق مع كل من صيادي الرنة في الداخل البري والجماعات الساحلية في آسيا، ومن خلال ذلك وصلت إلى أيدي

(*) غرينلاند Greenland أكبر جزيرة في العالم، تقع بين المحيطين الأطلسي جنوبا والقطبي الشمالي شمالا، شرق أرخبيل الجزر القطبية الكندية، وعلى رغم انتمائها جغرافيا إلى أمريكا الشمالية، فإنها سياسيا وثقافيا تتبع أوروبا - الدنمارك والنرويج وآيسلندا - على مدى أكثر من ألف سنة. [المترجم].

الإنويت بضع قطع من الحديد المصنّع قبل أن تصل السفن الأوروبية إلى المشهد. وعلى كل، فإن إنجازهم في استغلال البيئة القطبية الجرداء يعد - بكل المعايير - مثالا مدهشا للبراعة والتكيف الإنسانيين.

تعد رسوم الكهوف المغدلينية الشهيرة في جنوب فرنسا وشمال إسبانيا، التي تؤرخ إلى نحو ما بين ستة عشر ألف سنة وثلاثة عشر ألف سنة خلت(*)، منتجا لا يقل روعة للتعاون والابتكار الإنسانيين. يعتقد حاليا أن الجماعات التي كانت تصطاد الرنة المهاجرة بعد أن تعلموا تخزين اللحم (ربما بتدخينه كما تعامل هنود ساحل المحيط الهادي مع السلمون)، استخدموا وقت الفراغ للاعتناء بالطقوس الغامضة للكهوف. ومع أنه لا يعرف أي شيء حول ما يسمى المجتمع المغدليني الذي أنتج رسوم الكهوف الفريدة، فإن التشكيلة الكبيرة من الأدوات المصنوعة من العظام والخشب والحجارة وبضع منحوتات عاجية تشهد على المهارة الحرفية الفائقة، حتى إن دقة الخطوط التي تظهر في رسوم الكهوف قد دفعت بعض مؤرخي الرسم إلى افتراض أن هؤلاء الرسامين كانوا محترفين متفرغين.

اكتشف علماء الآثار أخيرا مواقع معيشة المغدلينيين التي تقع بالقرب من شعاب جبلية ضيقة كانت حيوانات الرنة المهاجرة تضطر إلى المرور من خلالها عندما تنتقل من المراعي الشتوية إلى المراعي الصيفية. وتعد غلبة عظام الرنة على البقايا الحيوانية في مواقع هذه المعسكرات التي تشكّل خمسا وتسعين في المائة منها، الأساس الوحيد لافتراض أن المغدلينيين استقروا هناك واعتمدوا على قطعان الرنة المهاجرة في غذائهم على مدار السنة. ويمكننا أن نتخيل أعداد الرنة الكبيرة التي كانوا يصطادونها كل سنة من خلال دفعها خلال مناطق مسيّجة كانت تشيّد مسبقا على طول طرق هجرة الحيوانات، لكن نظرا إلى أنه لم يعثر على آثار لمثل هذه الأبنية حتى الآن، فلا أحد يستطيع أن يجزم بذلك.

ولا أحد يعرف الأفكار الكامنة وراء رسوم الكهوف المغدلينية والطقوس التي كانت تجرى بالتأكيد في باطن الأرض. ومن المرجح أن الغناء والرقص كانا

(*) تنسب رسوم الكهوف المغدلينية Magdalenian cave art أو المدلينية Madelenian إلى الموقع الأثري لامدلين La Madeleine بجنوب غرب فرنسا، وهي من إنتاج ثقافات من العصر الحجري القديم في غرب أوروبا. [المترجم].

أحداثا بارزة. البوتلاتش potlatch مهرجان لتبادل الهدايا، كان بمنزلة النظام الاقتصادي الأساس لدى الشعوب الأصلية على ساحل الهادي الشمالي الغربي لكندا والولايات المتحدة. [المترجم].

أساسيين لهذه الطقوس، إذ تنتج بعض الكهوف التي ترك فيها المغدلينيون رسومهم أصداء مخيفة للصوت الإنساني، ولذلك يجد البعض إغراء في افتراض أنها كانت في السابق مكانا لمحادثات موسيقية بصدى الصوت مع عالم الأرواح. لكن لا أحد يعرف ما حدث للمغدلينيين. لقد أدى التغير المناخي في النهاية إلى نمو غابات في مكان كان في السابق سهلا عشبيا تغذيه الرطوبة والدفء الآتيان من المحيط الأطلسي، ونتيجة لذلك أخذت الرنة تهاجر إلى الشمال، وربما ذهب الصيادون المغدلينيون وراءها. وكما هي الحال مع مهرجانات البوتلاتش والأعمدة الطوطمية الأمريكية الشمالية، تشكّل رسوم الكهوف التي تركها المغدلينيون وراءهم مثالا رائعا لما يمكن للبشر أن يفعلوه بوقت الفراغ عندما يكفي حصاد الغذاء الموسمي السنة كلها.

ثمة مثال آخر أقل إبهارا، وإن كان أكثر أهمية، لكيفية استغلال فائض الغذاء الموسمي، يأتي من جنوب غرب آسيا. فقبل نحو خمسة عشر ألف سنة، سمح المناخ الذي أصبح أكثر دفئا ورطوبة بنمو القمح بريا على منحدرات التلال بكميات وفيرة مكّنت البشر هناك من إطعام أنفسهم على مدار أغلب السنة من خلال حصاد البذور الناضجة، على نحو لم يتوافر إلا للقليل من الجماعات البشرية. وتشهد المواقع النطوفية التي تنتشر على نحو متفرق من سيناء إلى الحدود الجنوبية لسورية الحديثة شمالا(*)، على ما أمكن لهذه الجماعات أن تفعله. تمثّل المناجل لجني القمح وأحجار الرحى لطحنه نوعا من التوقيع المميّز للمستوطنات النطوفية، وتكشف عظام الظباء وبعض الحيوانات الأخرى أن الصيد استمر حتى بعد أن أصبح القمح المحصود مصدر غذائهم الرئيس. وتشهد بقايا أخرى - الأصداف البحرية وغيرها من الواردات - على حدوث تجارة مع الغرباء، وتشير سلع المقابر الثمينة التي تقترن في بعض الحالات بمقابر الأطفال إلى أن النطوفيين عرفوا المكانة الاجتماعية الموروثة. كما شيّدوا بيوتا وحفر تخزين، واحتفظوا بكلاب مدجّنة، واستنادا إلى حجم المواقع النطوفية وتوزيعها، يمكن القول إن عدد السكان إجمالا ازداد سريعا خلال الألفين وخمسمائة سنة التي ازدهرت خلالها هذه القرى.

(*) الثقافة النطوفية Natufian culture ثقافة قديمة تنسب إلى وادي النطوف الواقع شمال غرب القدس في فلسطين الذي اكتشفت فيه آثار مميّزة لهذه الثقافة في مغارة شقبا. [المترجم].

وبعد ذلك، تحوّل المناخ ثانية قبل نحو ثلاثة عشر ألف سنة إلى الجفاف حتى تقلّصت أجمات القمح البري ثم تلاشت نهائيا. ويعتقد أن بعض الجماعات النطوفية تحوّلت إلى جماعات رحّالة تعتمد على الصيد والجمع، لكن بعضهم ظلوا يعتمدون على القمح المحصود من خلال تعلم كيفية زراعته في مناطق لم يكن ينمو فيها بريا.

***

خلاصة القول، إن قدرة البشر الأوائل على الاتصال والتعاون تحسّنت على نحو متقطع. كانت اللغة الاختراق الأهم، لكن الرقص والطقوس والرسم كانت مهمة هي الأخرى. ومن خلال هذه الأنواع الجديدة من الاتصال، شكّل البشر الأوائل جماعات أكبر وأكبر، وإن ظلت مترابطة ومنسقة. مكّنهم ذلك من الانتشار في كل حدب وصوب عبر الكرة الأرضية، مع التكيف مع مدى واسع من البيئات وتعديلها لكي تناسب بعضهم على الأقل، ولبعض الوقت على الأقل. كان تطوّر زراعة الحبوب التعديل الأكبر من هذا النوع، وهو ما حدث في البداية في جنوب غرب آسيا. ومن خلال الزراعة، انفتحت إمكانات جديدة تماما للحياة البشرية، وبزغ فجر الحقبة الزراعية التي قامت على الإنتاج المتعمد للغذاء من خلال العمل الشاق. ومع هذا التحوُّل، لم يعد التاريخ الإنساني ولا الكرة الأرضية كما كانا قبله.

2

التحوُّل إلى إنتاج الغذاء بين 11 ألف سنة و3 آلاف سنة خلت

> «مع تزايد ضرورة الدفاع المحلي، ربما تغلبت الجيرة على القربى باعتبارها القاعدة الأساسية للتضامن، أو هكذا يمكن أن نفترض»

ثمة ألفة جديدة مع البشر تكوّنت لدى بضع مئات من الأنواع المدجّنة من الحيوانات والنباتات عندما بدأ البشر في إنتاج معظم - وفي النهاية كل - الغذاء الذي يستهلكونه باللجوء إلى الزراعة وتربية الماشية، وهو ما حدث في تجمعات صغيرة من البشر كانت تعيش في سبعة أجزاء مختلفة من الأرض على الأقل. أحدث ذلك زيادة هائلة في عدد البشر وعدد النباتات والحيوانات المدجّنة، وذلك لأن الاعتماد المتبادل مكّن البشر والنباتات

والحيوانات المدجّنة من الاستئثار بنصيب من طاقة سطح الأرض أكبر من أي وقت سابق. وأصبح البشر وبعض - وليس كل - حيواناتهم المدجّنة مطالبين ببذل مزيد من الجهد في العمل، كما أنهم جلبوا على أنفسهم أخطارا أشد فتكا كالمجاعة والمرض والحرب بسبب التغييرات الجذرية التي أقحموها على البيئة.

تولى البشر إدارة كل هذه العلاقات الجديدة. وغيّرت أفعالهم واختياراتهم سمات النباتات والحيوانات التي أخضعت للتدجين وسلوكها بشدة إلى حد أن علماء الآثار يستطيعون عادة أن يميّزوا عظام الأنواع المدجّنة وبذورها من عظام أقربائها البرية وبذورها. وعدّل البشر سلوكهم بشدة عندما أصبحت العناية بالبساتين والحقول والقطعان وتيرة يومية. ووفقا لما يتوافر لدينا من معلومات، فإن بعض سماتنا الوراثية المستمدة من حقبة الصيد والجمع الطويلة ربما تكون قد تعدلت من خلال الانتقاء عند أولئك الذين تحمّلوا وتيرة الزراعة المرهقة.

يمكّننا التقدم الأخير في تحليل الكربون المشع من تحديد التاريخ الموثوق لحبة القمح الواحدة، ويمكّننا التحليل الإحصائي للغبار المترسب في المستنقعات القديمة وقيعان البحيرات من إعادة بناء مجموعات النباتات القديمة بدقة كبيرة. قطعت هذه التقنيات والتنقيب الأثري المتأني شوطا طويلا في كشف بدايات الزراعة في جنوب غرب آسيا وأمريكا الوسطى والغابات الشرقية للولايات المتحدة، ولاتزال الدقة المماثلة فيما يتعلق بالصين وجنوب شرق آسيا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى في طور التشكّل. يلخّص الجدول (1-2) أحدث النتائج في هذا الجانب:

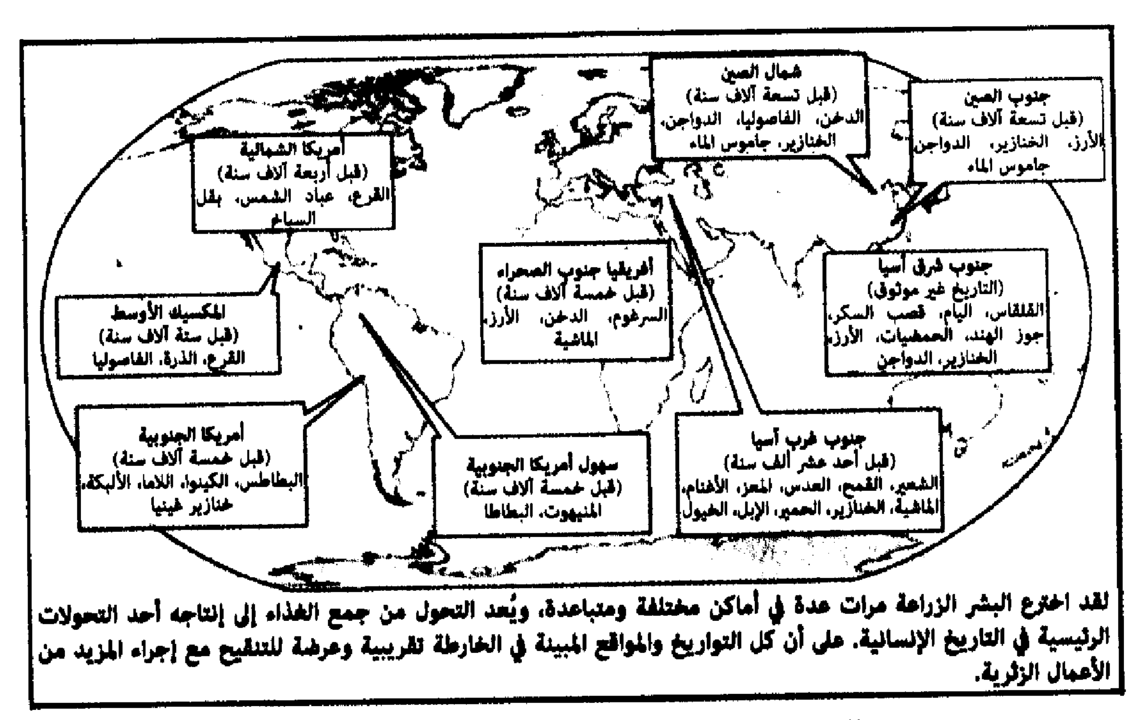
احتدم الجدل حول الكيفية التي بدأت بها الزراعة والأسباب وراء ظهورها، وذلك منذ أن أوضحت الدراسات عن جماعات الصيد والجمع المعاصرة في العقد السابع من القرن العشرين أن هذه الجماعات كانت تقضي بضع ساعات من اليوم فقط في تحصيل الغذاء وكانت مع ذلك تتمتع بنظام غذائي أفضل من المزارعين الكادحين الذين يعتمدون على نوع واحد في كل غذائهم. فمن ذا الذي يرغب إذن في أن يكون مزارعا؟

إن ما حدث - على ما يبدو- هو أنه في المناطق الأكثر ثراء وتنوعا، وجدت جماعات الصيد والجمع أنه من الأنسب لها أن تستقر في مكان واحد طوال السنة أو معظمها،

الجدول (2-1) تدجين الحيوانات والنباتات

السنة والتاريخ	المكان	النباتات الأساسية	الحيوانات الأساسية
غير موثوق	جنوب شرق آسيا	القلقاس، اليام، قصب السكر، جوز الهند، الحمضيات، الأرز	الخنازير، الدجاج
بين 11000 و4000 سنة خلت	جنوب غرب آسيا	الشعير، القمح، العدس	المعز، الأغنام، الماشية، الخنازير، الحمير، الإبل، الخيل
بين 9000 و6300 سنة خلت	الصين	جنوب الصين: الأرز شمال الصين: الدخن، فول الصويا	الخنازير، الدجاج، جاموس الماء
بين 6000 و4000 سنة خلت	المكسيك الأوسط	القرع، الذرة، الفاصوليا	لا شيء
بين 5000 و4000 سنة خلت	أمريكا الجنوبية	السهول: المنيهوت (*)، البطاطا المرتفعات: البطاطس، الكينوا	السهول: لا شيء المرتفعات: اللاما، الألبكة، خنازير غينيا
بين 5000 و3000 سنة خلت	أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى	السرغوم، الدخن، الأرز	الماشية

(*) المنيهوت manioc (أو cassava) نبات شجري استوائي وشبه استوائي يستخرج من جذوره نشاء مغذ ويؤكل كالبطاطس، موطنه الأصلي أمريكا الجنوبية. والبطاطا sweet potato هو ذلك النبات الجذري الذي يسمى أيضا البطاطا الحلوة أو السكرية. والكينوا quinoa نوع من الحبوب صالح للأكل كحبوب وأوراق خضراء، موطنه الأصلي أمريكا الجنوبية. والسرغوم sorghum نبات كالذرة يستخرج من بعض أنواعه - الذرة السكرية - عصير سكري ويستخدم علفا للحيوانات، فضلا عن استخدامات أخرى. واليام [illegible] am [illegible] ـات استوائي تحتوي درناته على كمية كبيرة من النشاء والماء وبعض [illegible]



لقد اخترع البشر الزراعة مرات عدة في أماكن مختلفة ومتباعدة، ويُعد التحول من جمع الغذاء إلى إنتاجه أحد التحولات الرئيسية في التاريخ الإنسانية. على أن كل التواريخ والمواقع المبينة في الخارطة تقريبية وعرضة للتنقيح مع إجراء المزيد من الأعمال الأثرية.

الخريطة (1-2) اختراع الزراعة في مناطق مختلفة كل على حدة

وحينئذ كانت الطرق المألوفة لتشجيع نمو النباتات المفيدة قد اكتسبت انتشارا أوسع من قبل. كانت جماعات الصيد والجمع قد تعودت منذ وقت طويل على استخدام الكثير من النباتات المختلفة لأغراض مختلفة. فكانت ألياف النباتات تمدّها بالألبسة والشِّباك وأوتار الأقواس وما شابه، وكانت هذه الجماعات تضفي قيمة كبيرة على الأدوية العشبية والسموم والعقاقير التي تغيّر الحالة المزاجية، فضلا عن التغذية التي كانت بعض النباتات توفرها. وأينما استقرت الجماعات، كان من الملائم أن تكون هناك نباتات مفيدة تنمو بالقرب منها. وأينما سمحت التربة والمناخ لبذور وشتلات منتقاة بالازدهار في مواقع جديدة، أمكن بعد ذلك توسيع هذه البساتين المواتية حتى توفر معظم - وفي النهاية كل - الغذاء والمنتجات النباتية الأخرى التي تحتاج إليها الجماعات.

لا شك في أن فهم طرق تكاثر النباتات كان إنجازا قديما. لكن مادام الغذاء الذي توفره الطبيعة ظل يكفي استهلاك الجماعات البشرية المتنقلة التي كانت تتقاسمه فيما بينها، ظل الجهد الإضافي المطلوب لزراعة البساتين عملا غير مغرٍ، وقبل كل شيء لم يكن من الممكن تخزين البذور لزراعة السنة التالية. لكن بعد أن تحوَّلت وحدات عائلية إلى مستهلكين مستقلين للغذاء، أصبح من الممكن حينها فقط أن تنطلق الزراعة. ومن المرجح أن المعيشة المستقرة هي التي أحدثت ذلك التغيير. ومن السهل أن نتخيل أنه

عندما بدأت النساء فرادى في إنشاء بساتين من النباتات المفيدة حول مساكنهن، فإنهن بذلك أوجدن إحساسا بالملكية الشخصية والعائلية تأسيسا على الكدح والعرق الذي كن يبذلنه وعلى قرب البساتين من بيوتهن. وعندما حلّ هذا المبدأ محل روح التقاسم التي ميّزت الجماعات المتنقلة، أخذت البستنة والزراعة تتطوّران.

بيد أن البستنة لم تتوسّع نتيجة لاختيارات إنسانية مقصودة وحسب، فهناك عوامل أخرى أدت دورا حاسما بالتأكيد، منها تحديدا أن طريقة الحياة المستقرة في البيئات الغنية مكّنت العائلات من إعالة أكثر من طفل صغير واحد، في حين أُعيق النمو السكاني بين جماعات الصيد والجمع المتجولة لأن الأمهات لم يكن بوسعهن عادة حمل أكثر من طفل صغير واحد في أثناء الانتقال من مكان إلى آخر، وكان من الوارد أن يتعرض الأطفال الذين تعلموا المشي من فورهم للجوع والعطش والإرهاق والفقد في أثناء الترحال. وبذلك سمح الاستيطان بنمو سكاني أسرع، وكثّف السكان المتنامون - بدورهم - عمليات الصيد والجمع المحلية، ما جعل إمدادات الغذاء البرية أكثر ندرة شيئا فشيئا. وعلى ذلك فمن المرجح أن الجماعات المستقرة وجدت أنفسها محاصرة داخل وتيرة حياتية أكثر إرهاقا، إذ عملت أولا في بساتين صغيرة، وبعد ذلك في حقول أكبر، مع تراجع العائدات من عمليات الصيد والجمع القديمة.

كانت البستنة في البداية عمل النساء، إذ كانت زراعة النباتات قبل حصادها أحد تنويعات جمع النباتات من البرية، وهو العمل الذي تخصصت فيه النساء والأطفال الصغار. وقد اشتقت الأدوات اللازمة للزراعة مباشرة من السكاكين وعصي الحفر التي كانت تستخدم لقطع سيقان النباتات والحفر حول الجذور التي تنمو بريا. لكن عندما تحوّلت البساتين إلى حقول، وتراجع ناتج الصيد حتى غدا إمداد الغذاء على مدار السنة لكل عائلة يعتمد بالدرجة الأولى على الحصاد، ربما تقبل الرجال حينها أدوارا جديدة من خلال المساعدة في جني الحبوب الناضجة وتوصيلها بأمان إلى المخازن. وفي أفريقيا وأمريكا الشمالية ما قبل الكولومبية(*)، ظلت الزراعة عمل النساء بالدرجة الأولى. ومن المرجح أنه بعد أن بدأت الحيوانات الأليفة - التي كانت

(*) تشير أمريكا ما قبل الكولومبية إلى كامل تاريخ الأمريكتين قبل وصول كريستوفر كولومبس والاستعمار الأوروبي في العام 1492، وتستخدم مصطلحات أمريكا ما قبل الاتصال وأمريكا ما قبل الاستعمارية وأمريكا ما قبل التاريخية، و- في حالة أمريكا اللاتينية - أمريكا ما قبل الإسبانية تبادليا مع ذلك المصطلح. [المترجم].

مسؤولية الرجال - في جر المحاريث خلال التربة، بدأ الرجال حينها فقط في اتخاذ العمل في حقول الحبوب عملا منتظما لهم. بيد أن أحدا لا يستطيع أن يجزم بذلك.

وفي جنوب غرب آسيا، كان القمح والشعير المحصولين الأساسيين، فيما كانت الماعز والأغنام أول ما دُجّن من الحيوانات آكلة العشب[1]. وكما رأينا في الفصل السابق، فإن أجمات القمح والشعير البرية كانت على بعض منحدرات التلال في تلك المنطقة كثيفة بما يكفي لحث الاستقرار على مدار السنة قبل نحو خمسة عشر ألف سنة، ثم حلّ مناخ أكثر جفافا واختفت هذه المستوطنات، لكن أينما كانت التربة رطبة أو أينما حدث فيضان موسمي، بدأت بضع جماعات في بذر القمح في أراض لم يكن ينمو فيها بريا. وبدأ هذا النوع من الزراعة يقوم على آبار ضخمة في غور الأردن بالقرب من أريحا قبل تسعة آلاف وثمانمائة سنة، وهو التوقيت الذي يرجع إليه اكتشاف أقدم مثال مثبت للزراعة المستقرة.

في ذلك الوقت، كانت نباتات القمح في أريحا قد تكيفت فعلا مع الظروف الجديدة التي أوجدها الحصاد والتخزين وبذر البذور لمحصول السنة التالية. على وجه التحديد، أصبحت القصبة الواصلة بين كل بذرة وسنبلتها أقسى حتى لا تقع بذور كثيرة على الأرض عند حصد القصبات بالمناجل. وعلى كلٍّ، فعندما بدأت الأيدي البشرية في بذر البذور، فإن الحبوب التي تصل أماكن التخزين سالمة كانت هي وحدها التي يمكن أن تتكاثر في السنة التالية. وحيث إن النباتات ذات السيقان الأقسى كانت تأتي بحصاد أوفر إلى أماكن التخزين، فقد أثبت هذا التعديل أنه مفيد للطرفين: الحبوب والبشر. ولاحقا، حدثت تلقائيا عدة تغيرات أحيائية أخرى، وبدأ المزارعون يختارون عن قصد نباتات ناتجة من هذه التغيرات يعلمون أنها متميّزة عن غيرها. وسرعان ما بدأت البذور الأكثر عددا والأكبر حجما للنبات الواحد والقشرة الأرق والأسهل في إزالتها تميّزان القمح والشعير المزروعين عن تنويعاتهما البرية.

وأينما وفّرت الرواسب الغرينية والآبار الرطوبة اللازمة، حدثت تجارب مماثلة لزراعة القمح على امتداد الجانب الداخلي للتلال الساحلية للمشرق حتى دمشق شمالا. وإلى الشمال في سورية والعراق، زرع الشعير في الوقت نفسه تقريبا وعبر عملية مماثلة. وفي الوقت عينه، كان البشر يمدّون سيطرتهم إلى تربية الماعز على سفوح جبال زاغروس (غرب إيران) والأغنام على سفوح جبال طوروس (جنوب تركيا).

كان وضع القطيع في الحظيرة ليلا وحمايته من المفترسين الآخرين وهو يسيم نهارا، جانبا أساسيا للعلاقة الجديدة التي نشأت بين البشر والحيوانات. وكما في حالة الحبوب، أحدث ذلك تعديلا جذريا في الجانبين كليهما: البشر والحيوانات. فأخذ رعاة الماشية البشريون الذين يحرسون الحيوانات ويسوقونها إلى المراعي نهارا وإلى الحظائر ليلا، يتولون دور الذكر المهيمن في البنية الاجتماعية للقطعان المدجّنة. ومن منظور الحيوانات، كانت الأسلحة البشرية توفر- من دون شك - حماية أفضل من القرون التي تمتلكها الحيوانات. لكن الرعاة لم يكن أمامهم لتأكيد زعامتهم إلا قتل الحيوانات التي تتحدى إرادتهم، ما أدى - من دون قصد - إلى تعزيز التوالد الانتقائي للسلوك المطيع لدى الحيوانات، وهو ما أدى سريعا إلى تعديل السمات الوراثية، كما تكشف العظام الأنحف للقطعان المدجّنة. كان على الصيادين في الوقت عينه أن يتعلموا حماية الحيوانات التي كانوا يفترسونها في السابق، ويقتلون بعض أفرادها فقط من حين إلى آخر.

أدخل تطوُّر الزراعة المستقرة أنواعا جديدة من المعلومات إلى الشبكة الإنسانية، إذ كان المزارعون في مرحلة التلمذة يتبادلون باستمرار المهارات والمعارف والبذور وقطعان التربية مع الجماعات المجاورة. وفي غضون بضعة قرون، تراكمت مجموعة متميّزة من الأنواع المحسَّنة من القمح والشعير والأغنام والماعز في عدد متزايد من القرى الزراعية المبعثرة عبر أنحاء الهلال الخصيب الذي امتد خلال أفضل سهول وتلال العراق وسورية وفلسطين من حيث الري. وسرعان ما زرعت هذه القرى الكثير من النباتات الأخرى، فكان العدس يكمِّل الحبوب منذ البداية، وكذلك أصبح الزيتون والعنب والتين والبلح نباتات قيّمة في المواقع المواتية لها بداية من نحو ثمانية آلاف سنة خلت، وأضافت الخضراوات والتوابل المختلفة تنوعا وفيتامينات إلى النظام الغذائي للبشر، وكذلك زرع الكتان من أجل أليافه.

ثم أخذ نمط جنوب غرب آسيا المعتمد على الجمع بين الزراعة وتدجين الحيوانات في الانتشار من مهده الأول في كل الاتجاهات. ومع توسُّع أعمال الري، أثبتت هذه الزراعة أنها ممكنة ومفيدة حتى في الأراضي الصحراوية على طول الامتدادات الدنيا لنهري دجلة والفرات. وأصبحت هذه البيئة المتخصصة المركز الأول للحياة الحضرية والمجتمع الطبقي المعقد - أي الحضارة - كما سنرى في الفصل التالي.

ومما لا يقل أهمية عن ذلك أن زراعة الحبوب تكيفت مع أسطح الأرض الأكثر ارتفاعا وخطوط العرض الأبعد إلى الشمال التي تسقط فيها أمطار كافية لنمو الغابات. وأدى نزع لحاء الأشجار النفضية إلى موتها، ما سمح لضوء الشمس بالوصول إلى التربة، وبذلك لم تعد الحبوب المبعثرة تحتها تحتاج إلا إلى المطر الطبيعي لكي تنضج. وأمكن تجديد الخصوبة بعد ذلك بفضل انتشار الرماد الناتج عن إحراق الأشجار الميتة. وعندما استوطن المزارعون الأوائل التربة الخصبة، لاسيما الرواسب الطفلية التي نقلتها الرياح، أصبح الاستيطان الدائم ممكنا. لكن عندما استنزف الرواد الأوائل التربة الأفقر، تراجعت الغلة سريعا، ولذلك وجد مزارعو الغابات أنه من الأفضل لهم أن ينتقلوا دائما إلى مواقع جديدة، وبذلك كانت دورة قطع الأشجار وإحراقها تبدأ من جديد. ومن خلال القيام بذلك مرارا وتكرارا على مدار حياة الإنسان الواحد، خلقت هذه الجماعات تخوما استيطانية متحركة في المناطق الغابية الملائمة قبل نحو أربعة آلاف سنة(*).

بينما كان التوسُّع الزراعي في المنطقة الغابية بأوراسيا لايزال في مراحله المبكرة، كانت الحيوانات المدجَّنة حديثا والطرق الجديدة لاستغلال القطعان قد أحدثت زيادة كبيرة في إنتاجية نمط الزراعة المميِّز لجنوب غرب آسيا. وقائمة الحيوانات الإضافية التي دُجِّنت طويلة كما يبيِّن الجدول (2-2):

الجدول (2-2): الحيوانات التي دُجِّنت في جنوب غرب آسيا

الحيوان	التاريخ	الموقع المحتمل لأول تدجين
الأغنام	قبل 10000 سنة	جبال طوروس
المعز	قبل 10000 سنة	جبال زاغروس
الخنازير	قبل 8700 سنة	جنوب غرب آسيا والصين
الماشية	قبل 8000 سنة	غير معلوم
الحمير	قبل 7000 سنة	مصر
الخيل	قبل 6000 سنة	أوكرانيا
الإبل ذات السنامين	قبل 4700 سنة	آسيا الوسطى
الإبل ذات السنام الواحد	قبل 3000 سنة	جنوب بلاد العرب

(*) في الجغرافيا، تشير التخوم frontiers إلى مناطق التوسّع الممكنة المخلخلة سكانيا في محيط المراكز الحضارية والسكانية، وتشير في الجغرافيا السياسية geopolitics إلى مناطق الاتصال بين المركبات الحضارية والثقافية. [المترجم].

كانت هذه الحيوانات المدجّنة الحافز الأكبر للانتشار اللاحق لنمط الزراعة المميّز لجنوب غرب آسيا إلى أوروبا، وعبر معظم بقية آسيا، وإلى أجزاء من أفريقيا، ولاحقا إلى الأمريكيتين وأستراليا، إذ قام هذا الانتشار العالمي الثابت على تطوّر مذهل في علاقات البشر مع قطعانهم المدجّنة. من ذلك مثلا أنه قد ظهر بين ستة آلاف سنة وخمسة آلاف سنة خلت نوع متحوّل من الأغنام غزيرة الصوف في مكان ما في جنوب غرب آسيا، وسرعان ما انتشر على نطاق واسع، لأن صوف الأغنام المنتوف - والمجزوز لاحقا - أثبت أنه ألياف مفيدة لصنع المنسوجات[2]. وفي الوقت نفسه تقريبا، عُوِّدت الماعز أولا، ثم الأغنام لاحقا، على السماح للأيدي البشرية بحلبها. وبذلك حلّ رعاة الماشية محل الجديان والحملان كمستهلكين للحليب، وهي حالة فريدة لإفساد العلاقات الأحيائية الطبيعية. ولاحقا، عُوِّدت الماشية، وحتى الخيل والإبل، على تقديم حليبها لاستهلاك البشر، لكن بعض الجماعات البشرية في غرب آسيا وأوروبا هي وحدها التي نمّت القدرة على هضم هذا الحليب الجديد. وبذلك أخذت هذه الجماعات إحدى سمات مرحلة الرضاعة معها إلى مرحلة البلوغ، ما مكّنها من تحقيق الاستفادة الكاملة من إمكانات حلب الحيوانات. وتعد هذه الحالة أوضح مثال معروف للتعديل الوراثي لدى البشر نتج من الزراعة وتربية الماشية.

على جانب البشر، قدم حلب الحيوانات ميزة هائلة تمثّلت في زيادة الحصيلة السُّعرية من العلف الذي تستهلكه الحيوانات المدرّة للبن بنحو أربعة أضعاف عما يقدمه ذبح الحيوانات من أجل لحمها. وعلى جانب الحيوانات، كان ذلك يعني أن البشر بدأوا في تربية قطعان أكبر من قبل، وعلى السهول العشبية في أوراسيا وأفريقيا التي ساد فيها الرعي في أكمل صوره، فاقت القطعان المدجّنة رعاتها البشريين عددا في النهاية، وهو ما شكّل دافعا للبشر لتحويل موارد غذائهم إلى الحملان والجديان والعجول والأمهار، ما وفّر الحليب واللبنة والجبن والزبد للبشر.

ثمة استخدام آخر للحيوانات الأليفة لا يقل أهمية عن لحمها وحليبها، وهو الاستفادة منها كحيوانات عمل، وذلك لجر المحاريث والعربات. كانت الحمير هي حيوانات الحمل الأولى، لكن حلّت محلها الخيل والبغال والإبل لاحقا لمعظم النقل في المسافات الطويلة بسبب قدرتها الأكبر على التحمّل. كانت الماشية حيوانات الجر

الأساسية في بادئ الأمر، وذلك لأن ربط المحراث أو العربة بقرونها كان سهلا نسبيا، ولأن ذكورها المخصية - الثيران - كانت رصينة وقوية.

كانت الأرض اللينة والمجاري المائية تعرقل النقل في معظم البيئات الخصبة، ولذلك لم يكن من الممكن استخدام العربات ذات العجلات في بادئ الأمر إلا للمسافات القصيرة[3]. وحتى بعد وقت طويل من تشييد الحكومات الإمبراطورية الطرق المناسبة للعربات، ظل الحرث هو الاستخدام الأهم على الإطلاق للقوة العضلية الحيوانية لأنه كان يضاعف مساحة الأرض التي تستطيع العائلة الواحدة أن تزرعها أضعافا كثيرة، وهو ما يعني - قبل كل شيء - أنه في معظم السنوات، وفي الكثير من أنواع التربة المختلفة وفي المناخات المختلفة، صار البشر والثيران قادرين على إنتاج حبوب أكثر من حاجة استهلاكهم، ما أوجد فسحة بيئية لظهور المدن والحضارة التي أثبتت سريعا قدرتها على التكيف بسهولة مع مناطق العالم المختلفة. يساعد ذلك، جنبا إلى جنب مع الأسبقية الزمنية التي تمتعت بها حضارات جنوب غرب آسيا على ما عداها، في تفسير لماذا كانت الغلبة من نصيب ورثتهم في غرب آسيا والهند وأوروبا على مدار الألفيات التالية.

أما الصين، فلا يعرف الكثير عن بداية الزراعة فيها، إذ لم تكتشف إلا خلال العقد قبل الأخير من القرن العشرين أدلة قوية على أن الأرز كان يزرع في وادي اليانغتسي قبل نحو ثمانية آلاف وخمسمائة سنة على ضفاف البحيرات والأنهار التي يغطيها الفيضان موسميا، ولايزال يجري اكتشاف مواقع جديدة. ومازلنا لا نعرف على وجه اليقين كيف بدأت هذه الممارسات وأين بالضبط. يعطي الأرز غلة أكثر من حبوب جنوب غرب آسيا، وتبلغ نسبة الغلة إلى البذور في حالة الأرز حاليا 1:100 حتى في حال استخدام طرق الزراعة التقليدية، فيما كان المعدل 1:6 لغلة القمح في أوروبا القرون الوسطى معدلا عاليا.

لكن في المقابل، كانت زراعة الأرز- أو أصبحت - أكثر مشقة من زراعة الحبوب في جنوب غرب آسيا، إذ يزرع مزارعو الأرز نباتاتهم في مشاتل خاصة للبذور، ثم ينقلونها يدويا واحدة بواحدة إلى حقول الأرز التي يغطيها ماء راكد[4]، وبعد ذلك يتخلّصون من الأعشاب الضارة، ثم يحصدون المحصول يدويا. وكانوا أحيانا يحرثون التربة باستخدام الجاموس لتهيئتها للزراعة، لكن عموما كان الدور الذي مارسته

القوة الحيوانية في زراعة الأرز أصغر من دورها في زراعة الحبوب في جنوب غرب آسيا، إذ كان العمل البشري أساسيا، لاسيما بعد أن بدأ المزارعون في زراعة الأرز المائي على أراضٍ أكثر ارتفاعا وغير مستوية السطح، إذ وضع ذلك التحوّل على كواهلهم المهمة الشاقة المتمثّلة في إعداد حقول مستوية، وإقامة حواجز حول كل حقل، وبعد ذلك تحويل جداول الماء عن مسارها الطبيعي لخلق برك ضحلة لا يتعدى عمقها بضع بوصات فقط في كل حقل أرز. وكانوا مطالبين بتوفير الصيانة المستمرة للهندسة المائية اللازمة، ما استلزم اتفاقات محلية معقدة لتنظيم الوصول إلى الماء الجاري المطلوب للإبقاء على الأرز المزروع في كل حقل مغمورا بالماء بالدرجة المناسبة إلى أن يحين وقت تصريف الماء من الحقل وحصد المحصول الناضج.

كان من نتيجة ذلك أن زراعة الأرز عندما أصبحت أساسية للصين وغيرها من مجتمعات شرق آسيا، فإن العمل المتواصل في الحقول دفع العلاقات العائلية والأبنية الاجتماعية الأكبر في اتجاهات مختلفة عن تلك التي سادت في الأماكن الأخرى. بيد أن الأرز لم يصبح الغذاء الأساس في الصين إلا بعد نحو العام 200 ح. م. وقبل ذلك التاريخ، ظل قلب الصين التاريخية يقع في وديان النهر الأصفر (هوانغ هو Huang He) وبعض روافده التي بدأ فيها قبل نحو سبعة آلاف وخمسمائة سنة نمط زراعة مختلف تماما يقوم على الدخن وفول الصويا والخنازير، مع زهاء عشرين محصولا آخر أقل في الأهمية. في هذا الجزء من الصين، كان المزارعون الأوائل يعزقون التربة الرسوبية الناعمة الخصبة - التي نقلتها الرياح - ويعتمدون على الأمطار الموسمية المتقلبة في ضمان الحصاد.

بداية من نحو أربعة آلاف سنة خلت، أعالت القرى التي مارست هذا النوع من الزراعة أقدم سلالة صينية حاكمة، فيما كان مزارعو الأرز في الجنوب يعيشون في مجتمعات أقل تطوُّرا أثبتت عجزها عن مقاومة التوسُّع الصيني. لماذا تطوَّرت الأحداث على هذا النحو، مع أن زراعة الأرز كانت - أو أصبحت - أكثر إنتاجية وثباتا من زراعة الدخن؟ يحتاج هذا السؤال إلى إجابة، لكنها لاتزال في انتظار إجراء بحوث أثرية واسعة في جميع أنحاء الرقعة الواسعة لجنوب شرق آسيا وجزرها الواقعة قبالة الشاطئ. وتؤكد اكتشافات متفرقة أن الجماعات المستقرة (التي عاشت على طول الشاطئ أو بجانب البحيرات والمجاري المائية الداخلية

التي وفرت الأسماك وغيرها من الأطعمة المائية) ربما كانت قديمة في ذلك الجزء من العالم، وأن النمط الاستوائي للزراعة البستانية الذي يتميّز بجذور نشوية مثل القلقاس واليام وتشكيلة من المحاصيل الشجرية، وكذلك قصب السكر، وأحيانا الأرز، ربما ظهر في تاريخ مبكر.

تكشف البساتين الواقعة في وديان المرتفعات المنعزلة في نيو غينيا التي لم يكتشفها العالم الخارجي إلا خلال العقد الرابع من القرن العشرين(*)، ما كانت المجتمعات الإنسانية تفعله من خلال زراعة عدد كبير من الأنواع المختلفة من النباتات في منطقة استوائية مكّن فيها نمو النباتات على مدار السنة من الحصاد المستمر الذي يكفي الاستهلاك الفوري فقط. وعلى رغم أن هذه الجماعات كانت كثيرة السكان نوعا ما، فإنها ظلت صغيرة ومتعادية فيما بينها ومنعزلة عن العالم الخارجي بفعل الاختيار الحر والبيئة الساحلية العدائية[5].

ثمة جماعات مماثلة قامت على الزراعة وصيد الأسماك في جنوب شرق آسيا الاستوائي، ربما تكون قديمة جدا، لأن الكثير من جذور النباتات الاستوائية يمكن أن تتكاثر ببساطة من خلال إحداث قطع في قمة الدرنة ووضعها ثانية في التربة، ومن المرجح أن هذه الطريقة البسيطة للحفاظ على مصدر غذائي ثمين كانت معروفة لجماعات الصيد والجمع منذ الأزل. تنتج هذه النباتات درنة أخرى تكون في خلال بضعة أشهر جاهزة لاستقبال جماعات الرُّحّل ومكافأتهم عندما يعودون إلى تلك البقعة. لكن حتى عندما استقرت الجماعات وبدأت في الاعتماد على الغذاء من بساتين فسيحة، كما فعلت جماعات مرتفعات نيو غينيا، فإن بقاياهم الأثرية تظل ضئيلة. ولذلك فإن أحدا لا يستطيع حتى الآن أن يعيد بناء تاريخ هذا النوع من الزراعة الاستوائية.

ربما ظهرت جماعات مستقرة من صيادي الأسماك منذ وقت مبكر. تعد البحار الموسمية - المحيط الهندي والأرخبيل الإندونيسي وبحر الصين الجنوبي - مواتية لإبحار المسافات الطويلة، إذ تهب الرياح السائدة بهدوء من أحد الاتجاهين على مدار نصف السنة، وفي الاتجاه المعاكس على مدار نصف السنة الآخر، ما يجعل رحلات العودة سهلة نسبيا. ويشهد انتشار اللغات الأوسترونيزية والبولينيزية إلى

(*) نيو غينيا New Guinea: جزيرة تقع في جنوب غرب المحيط الهادي تعد الثانية في العالم من حيث المساحة بعد جزيرة غرينلاند، تنقسم تبعيتها بين دولة بابوا نيو غينيا إلى الشرق وإندونيسيا إلى الغرب. [المترجم].

مدغشقر الواقعة قبالة الساحل الأفريقي وإلى أنحاء المحيط الهادي جميعها، على المدى البعيد لهذه الرحلات(*). ويكشف الاستيطان البشري الأول لأستراليا بين ستين ألف سنة وأربعين ألف سنة خلت، كيف تعلم البشر الأوائل عبور البحار المفتوحة - مائة وسبعين كيلومترا أو مائة وخمسة أميال على الأقل - عن طريق نوع من الطوف الخشبي(**).

لذلك يبدو أن استخدام الأطواف الخشبية والقوارب قد حدث قديما بين جماعات جزر جنوب شرق آسيا ومناطقها الساحلية. وتأسيسا على قوة هذه الأدوات، ربما أكملت جماعات صيادي الأسماك ما كانوا يصطادونه من البحر بزراعة بساتين استوائية قبل فترة طويلة من ظهور القرى الزراعية في جنوب غرب آسيا أو أي مكان آخر. لكن ارتفاع مستويات البحر بسبب أحدث نوبات تراجع الجليد يعني أن كل المستوطنات الساحلية القديمة تغطيها مياه البحر حاليا. لذلك تعد جماعات صيادي الأسماك المستقرة الواقعة في الداخل البعيد عن السواحل على طول شواطئ البحيرات وضفاف الأنهار، الأماكن التي يرجح العثور فيها على آثار لهذا النوع من البستنة الاستوائية المبكرة.

لكن حتى لو كانت البستنة الاستوائية سابقة بآلاف السنين على حقول الحبوب - كما يبدو مرجحا - فإنها ظلت غير مهمة نسبيا للتاريخ الإنساني ككل، وذلك لأن البستانيين الاستوائيين يتركون الجذور والثمار في المكان الذي تنمو فيه إلى أن تصير جاهزة للاستهلاك. أما الحبوب التي تنضج معا، فكان لزاما حصادها وتخزينها، وغدا ظهور الدول والمدن ممكنا بفضل الوفرة التي نتجت عن ذلك في إمدادات الغذاء المركزة في صوامع وجرار التخزين لدى المزارعين. كان في مقدور الجنود والكهنة أن يأخذوا من المزارعين نصيبا من حصاد الحبوب في مقابل توفير الحماية لهم من

(*) أوسترونيزيا Austronesia، مصطلح تاريخي يشير إلى جنوب شرق آسيا الجزيري، ومن هنا جاء اسمها المستمد من الكلمتين اللاتينيتين australis+nesos اللتين تعنيان «الجزر الجنوبية»، وهي موطن الشعوب التي تتحدث عائلة اللغات الأوسترونيزية التي تشمل الإندونيسية والملايوية والجاوية والفلبينية ونحو ألف لغة أخرى، ومن أوسع لغاتها انتشارا الملايوية (في إندونيسيا وماليزيا). وبولينيزيا Polynesia، منطقة فرعية من أوقيانوسيا (راجع حاشية لاحقة حولها) تتألف من أكثر من ألف جزيرة مبعثرة عبر وسط المحيط الهادي وجنوبه، منها جزر إيستر ونيوزيلندا وتونغا وساموا. وتعد عائلة اللغات البولينيزية التي تشمل أكثر من أربعين لغة من أهمها التاهيتية والساموية والتونغاوية والماورية، جزءا من عائلة اللغات الأوسترونيزية. [المترجم].

(**) الطوف أو الرمث: خشب يشد بعضه إلى بعضه ليركب به البحر. [المترجم].

الأضرار البشرية وما فوق الطبيعية. فلولا التخزين، لما تيسّر النقل المنتظم لكميات هائلة من الغذاء من المزارعين إلى سكان الحضر، ولما حدث التمايز الاجتماعي والمهني. وعلى ذلك لم يكن من الممكن أن تظهر المهارات المتخصصة للحياة الحضرية على قاعدة البستنة الاستوائية، مهما بلغت إنتاجيتها.

من المعقول - بناء على ذلك - أن نستنتج أنه عندما بدأ مزارعو الحبوب في شمال الصين قبل نحو أربعة آلاف سنة في إعالة دول وجيوش قوية، فإن حكام هذه الدول وجدوا التوسّع المسلح جنوبا على حساب البستانيين الاستوائيين أمرا سهلا نسبيا. بعد ذلك، وسّع مزارعون من الشمال القاعدة المادية للنظام الرسمي الصيني بالانتقال جنوبا واتخاذ الأرز المزروع - الذي يجب تخزينه ويسهل نقله - محصولا أساسيا لهم، وأرغموا مزارعي بستنة الكفاف الاستوائيين الذين كان الأرز محصولا ثانويا بالنسبة إليهم، على التراجع إلى المنطقة الجبلية التخومية(*).

وفي أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، ظهر مركز آخر للزراعة قبل نحو خمسة آلاف سنة. بدأت الصحراء الكبرى في التوسّع عندما حلّ مناخ أكثر جفافا قبل نحو ستة آلاف سنة، ما جعل حياة البشر أكثر صعوبة في غرب أفريقيا. لكن بعض الجماعات استطاعت أن توسّع إمدادها بالغذاء أضعافا كثيرة من خلال زراعة بذور السرغوم ونوعين مختلفين من الدخن في التربة الرطبة الناعمة التي كانت تتكشّف في فصل الجفاف عندما تنحسر مستويات المياه في عدة بحيرات - اختفت حاليا - على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى.

كان رعي الماشية استجابة ناجحة أخرى للتغير المناخي في منطقة السافانا العشبية الأفريقية الواسعة، إذ انتشرت هناك تربية الماشية - التي ربما جاءتهم من جنوب غرب آسيا - أبعد وأسرع من الزراعة، وهيمنت تربية الماشية في النهاية على أغلب الأراضي العشبية الكثيرة بالقارة. لكن أينما وُجدت الذبابة اللاسنة (تسي تسي tsetse)، أدى مرض النوم القاتل - ينتقل إلى البشر عن طريق هذه الذبابة - إلى الحفاظ على بعض الأراضي العشبية الأفريقية آمنة للحيوانات البرية التي بقيت

(*) زراعة الكفاف subsistence agriculture (وكذلك بستنة الكفاف واقتصاد الكفاف): هي الزراعة التي لا تستهدف غير تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء والكساء باستخدام المحاصيل والحيوانات التي تحقق ذلك، وهي بذلك المقابل للزراعة التجارية والنقدية. [المترجم].

فيها حتى القرن الحادي والعشرين. أما في جنوب أفريقيا، فقد انتشرت الزراعة بمعدل أبطأ من الرعي، وذلك لأن الزراعة المبكرة هناك تخصصت في استغلال بيئات شواطئ البحيرات، وهي البيئات التي انحسرت مع جفاف البحيرات.

بدأت الزراعة في الأمريكتين في ثلاث مناطق متمايزة. ففي المكسيك، أصبحت الذرة والفاصوليا والقرع المجموعة المهيمنة بداية منذ أكثر من خمسة آلاف سنة خلت. وعلى ضفاف الأنهار في الغابات الشرقية للولايات المتحدة، بدأت قبل نحو أربعة آلاف وخمسمائة سنة زراعة مجموعة أقل إنتاجية من النباتات، منها عباد الشمس والقرع التي مازلنا نعرفها. وقبل ما لا يقل عن خمسة آلاف سنة، زرعت في السهول الاستوائية بأمريكا الجنوبية نباتات جذرية منها المنيهوت والبطاطا(*). وبين أربعة آلاف وخمسة آلاف سنة خلت، زرعت في الألتيبلانو الأنديزية(**) - على السهول المرتفعة في بوليفيا وبيرو الحاليتين - مجموعة أخرى عالية الإنتاجية من المحاصيل، من أهمها البطاطس والكينوا. ودجَّنت شعوب مرتفعات الأنديز حيوانات اللاما والألبكة وخنازير غينيا، واتخذوا من اللاما حيوانا للحمل، لكنهم لم يستخدموا أيا من الحيوانات في الحلب أو الحرث أو الجر. وبدلا من ذلك، تكفَّلت العضلات البشرية بكل العمل الزراعي في الأمريكتين، باستثناء مرتفعات الأنديز التي كان النقل فيها يحدث عن طريق الحمَّالين البشريين مكمَّلا بالقوارب.

من بين هذه التجمعات الزراعية، أثبتت الجماعات المكسيكية أنها الأقدر على اختراق بيئات جديدة، إذ انتشرت الذرة والقرع والفاصوليا شمالا إلى جنوب غرب الولايات المتحدة قبل نحو ثلاثة آلاف ومائتي سنة، وبدأت في إزاحة محاصيل أقدم في الغابات الشرقية قبل نحو ألف سنة، ووصلت الذرة والقرع والفاصوليا إلى أمريكا الجنوبية، ربما قبل نحو خمسة آلاف سنة، لكنها لم تزدهر في بيئة الألتيبلانو القاسية التي ظلت الغلبة فيها للبطاطس والكينوا.

(*) النباتات الجذرية: هي النباتات التي تزرع أو تجمع من أجل جذورها التي تؤكل مثل المنيهوت والبطاطا والبطاطس. [المترجم].

(**) الألتيبلانو Altiplano (بمعنى السهل «المرتفع» في اللغة الإسبانية) أو الهضبة الأنديزية أو الهضبة البوليفية: هضبة في غرب أمريكا الجنوبية الأوسط، حيث تبلغ جبال الأنديز أقصى اتساعها، تعد أوسع هضبة على الكرة الأرضية خارج التبت. والأنديزي صفة للأنديز Andes وهي السلسلة الجبلية الأطول في العالم التي تمتد على طول الحافة الغربية لأمريكا الجنوبية. [المترجم].

وعلى رغم أن الحصيلة السُّعرية لكل هكتار من الذرة والبطاطس تكافئ حصيلة الأرز وتفوق حصيلة القمح والشعير، فإن الأمريكتين - مثل أفريقيا جنوب الصحراء - تخلفتا عن أوراسيا في تطوير مصادر جديدة للتغلب على الطبيعة وطرق جديدة لتنسيق الجهد البشري. لقد تمتعت أوراسيا بمزايا المساحة الأكبر والأنواع الأكثر عددا القابلة للتدجين، وتمتعت قبل كل شيء بشبكة اتصال أكثر اتساعا تربط سكانها الأكثر عددا[6]. أسهم ذلك كله في تسريع معدل الاختراع والتغيير في ذلك الجزء من العالم. لذلك تمكنت الأنماط المختلفة للزراعة القروية في جنوب غرب آسيا وفي الصين بداية من نحو خمسة آلاف وخمسمائة سنة خلت من إعالة أنماط مختلفة لمجتمع ودولة معقدين ومتخصصين وطبقيين - أي متحضرين - أصبحا بطلي هذه العملية الابتكارية. لكن قبل أن نتابع هذه القصة، هناك بضع ملحوظات عامة حول الدعامة الريفية التي أعالت الحضارات المبكرة في أوراسيا وأفريقيا والأمريكتين.

أولا، مكّن العيش في المكان نفسه على مدار السنة من التطوير السريع لعدد من الأدوات المفيدة، كانت أثقل من أن يحملها البشر في أثناء ترحالهم. وفي المناخ المعتدل، كان المأوى والألبسة المصنوعة من الألياف النباتية والحيوانية للحماية من الطقس، تقدما حقيقيا في رفاه الإنسان. وشكّلت الطرق الجديدة لإعداد الطعام بالغلي والخبز والتخمير إضافة إلى كل من رفاه الإنسان وعمل النساء. كانت المغازل والأنوال مطلوبة للنسج، وأحجار الرحى والأفران للخبز، وفي النهاية أدت المداخن والمستوقدات جيدة التصميم إلى رفع حرارة الأفران بما يكفي لتمكينها من صنع الفخار لاستخدامه صحونا وأكوابا وجرار تخزين وقدور ماء وغيرها من الأغراض. وكانت البلطات الحجرية لقطع الأشجار، والمعازق لعزق التربة، والمناجل لحصد الحبوب، تجديدات أخرى أضيفت إلى صندوق أدوات المزارعين، مكّنت هذه الجماعات - جنبا إلى جنب مع النمو السكاني للبشر والماشية - من تغيير البيئات الطبيعية بدرجة أشد جذرية من قبل.

إجمالا، أزاح المزارعون الغطاء النباتي الطبيعي المتنوع بحقول موحدة بقدر أو بآخر من نباتات قليلة منتقاة، إلى جانب بعض الأعشاب الضارة التي تحدت الجهود البشرية لمحوها. وأسهمت الحيوانات المدجّنة في تغيير المشهد الطبيعي من خلال الرعي المكثف، وأدت الزراعة والرعي كلاهما إلى تسريع تآكل التربة. وتعزّز

التأثير البشري في البيئة بفعل النمو السكاني الذي نتج - بدوره - من اللجوء إلى إنتاج الغذاء.

ففي المناخ المعتدل الذي لم تكن الأمراض فيه بوطأتها في الأقاليم الاستوائية، نمت الجماعات القروية الزراعية بمعدل أسرع من معدل نمو جماعات الصيد السابقة. وعندما كانت كل التربة المناسبة في منطقة بعينها تستوطن أو تفقد خصوبتها الأولية، كان المزارعون يبحثون حولهم عن أماكن جديدة لاستيطانها. لذلك انتشر نمط الزراعة المميَّز لجنوب غرب آسيا عبر كل أوروبا بين ثمانية آلاف سنة وستة آلاف وسبعمائة خلت. ويبدو أن مستعمرين من الخارج هم الذين أدخلوا استغلال الرواسب الطفلية التي نقلتها الرياح وغيرها من أشكال التربة المواتية في أوروبا الشرقية والوسطى. بعد ذلك استعارت الجماعات الأقدم الأفكار والأساليب من الآتين الجدد لتطوير طرق مختلفة تجمع بين الصيد والجمع وأنماط الحياة الرعوية والزراعية. وعلى رغم أن توسُّع نمط الزراعة المميَّز لجنوب غرب آسيا في اتجاه الشرق لم يُدْرَس بالعناية الواجبة، فإن علماء الآثار يعرفون أن مزارعي الشعير والقمح اخترقوا حتى حدود شمال غرب الهند قبل نحو ثمانية آلاف سنة، وأن هذين المحصولين وصلا إلى شمال الصين بعد ذلك بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، وهناك أكملوا الطعام الأساس الأقدم المتمثِّل في الدخن، وإن لم يزيحوه تماما. ويكشف علم الآثار كيف انتشرت الذرة والقرع والفاصوليا المكسيكية إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، لكن هذا الانتشار كان بطيئا لأن الذرة كانت في حاجة إلى أن تتكيف وراثيا مع أطوال النهار المختلفة في خطوط العرض المختلفة قبل أن تتمكن من النضج مع الفصول.

كان هذا النمو السكاني والتوسُّع الإقليمي نجاحا أحيائيا متفردا للمزارعين ونباتاتهم وحيواناتهم المدجَّنة، حتى إن الطريقة التي عدل بها تدجين الحيوانات والنباتات البيئات الأقدم لأشكال الحياة البرية والمدجَّنة لا تقل تفردا في التاريخ الأحيائي عن الانتشار الأولي للبشر حول كامل الكرة الأرضية. ويرجع الفضل وراء كليهما إلى قدرة البشر على التكيف وإلى اختياراتهم الواعية. وهنا أيضا أثبتت شبكات الاتصال وتنسيق السلوك الإنساني مجددا قدرتهما على تغيير الأنظمة البيئية للأرض، وجاء التغيير هذه المرة أشد جذرية منه في أي وقت سابق.

بيد أن النجاح لم يأتِ منفردا، بل ولّد أخطارا وتحديات جديدة. من ذلك مثلا أن الجماعات المستقرة كانت أكثر عرضة للأمراض، وذلك لأنها كانت تظل قريبة من مخلفاتها ونفاياتها بدلا من التنقل كما كانت جماعات الصيد والجمع تفعل. ولذلك فإن الأمراض التي تخفّفت الجماعات البشرية من وطأتها عندما تركت أمراض أفريقيا الاستوائية وراء ظهرها وتعودت على تحمُّل درجات الحرارة المتجمدة، عاودت الظهور مرة أخرى. وصار البشر عرضة لأخذ عدوى أمراض القطيع الفيروسية من حيواناتهم المدجّنة، ولذلك بدأت الأمراض الخطرة تاريخيا مثل الجدري والحصبة والإنفلونزا تصيب الإنسان[7]. وأصبحت حقول الحبوب عرضة للهجمات الفيروسية والحشرية، فضلا على الجفاف والبرَد والفيضان. كان فشل المحصول يعني المجاعة، وعلى مدار آلاف السنين التالية تكاتفت المجاعة مع الأمراض الوبائية وويل آخر جديد، هو الحرب المنظمة، للحد من زيادة أعداد البشر.

غير أنه لا توجد أدلة أثرية جازمة على وقوع الحرب بين المزارعين القرويين الأوائل. ولا تنبئ رؤوس السهام عادة عما إذا كانت قد وجهت نحو البشر أو نحو الحيوانات. وكما كانت الحال بين مزارعي مرتفعات نيو غينيا حتى وقت متأخر، فربما تمثّل القتال بين الجماعات القروية المبكرة في أفريقيا وأوراسيا في تبادل القذائف مع العدو من مسافة مناسبة. لكننا مع ذلك يمكن أن نقول بقدر من الثقة إن رعاة الماشية كانوا يستخدمون الأسلحة دائما للدفاع عن قطعانهم ضد المفترسين الحيوانيين والبشريين، وإن المزارعين كانوا مضطرين إلى حماية مخازن الحبوب من اللصوص البشريين، فضلا على الحشرات والجرذان والفئران. وهناك بضع منحوتات صخرية قديمة في إسبانيا وشمال أفريقيا تصوِّر مشاهد معارك، وتظهر القرى المسوَّرة والمسيَّجة في كل من أوروبا والصين. وكما سيرد في الفصل التالي، فإن إيجاد طرق لمجابهة العنف المنظم كان أحد الأسباب الأساسية التي أرغمت المزارعين القرويين على تحمُّل التكلفة الباهظة المتمثّلة في إعالة المدن والدول.

يبدو أن العيش في جماعات مستقرة أضعف روابط القربى الممتدة، وشجع التضامن مع الجيران بدلا منها. لكن لاتزال الطريقة التي حدث ذلك من خلالها غير واضحة. كانت الجماعات القروية عادة أكثر عددا من جماعات الصيد، ومن المحتمل أن عائلات منفصلة كانت تعتني بالحقول في معظم الحالات. وعندما فرضت

الضرورة حماية الحبوب المخزنة من المغيرين، تجمع المزارعون في مستوطنات كبيرة نسبيا وأقاموا أحيانا أسوارا أو أسيجة للدفاع عن أنفسهم. ومع تزايد ضرورة الدفاع المحلي، ربما تغلبت الجيرة على القربى باعتبارها القاعدة الأساسية للتضامن، أو هكذا يمكن أن نفترض.

وأخيرا، فإن معرفة التوقيت المناسب للزراعة كانت مسألة مهمة في المناخ المعتدل، ما أدى إلى تركيز الانتباه على التحركات الموسمية للشمس والقمر والكواكب. وغدا علم الفلك التقويمي مجالا لخبراء أسّست معرفتهم المتخصصة نوعا جديدا من الزعامة الاجتماعية. لا شك في أن المرشدين المتخصصين في عالم الأرواح كانوا موجودين بين جماعات الصيد والجمع، كما تثبت رسوم الكهوف، لكن القياس الدقيق للفصول تطلب نوعا مختلفا من المعارف والمهارات، أصبح مع الوقت أحد المقومات المهمة لظهور المدن والحضارة.

***

بعد نحو ألفي سنة من ظهورها لأول مرة، انتشرت القرى الزراعية مثل طفح جلدي عبر أوراسيا وأفريقيا والأمريكتين، وأصبحت الإطار الذي يعيش داخله أغلبية البشر ويموتون. وظلت الأغلبية الساحقة من أسلافنا يقيمون في أمثال هذه القرى حتى وقت متأخر. وبمجرد أن تكيف البشر لأول مرة مع الظروف المحلية، أخذت وتيرة الحياة الريفية المعتادة تنقل كل المعارف والمهارات الضرورية من جيل إلى آخر على مدى آلاف السنين، مع تبني تغييرات عرضية فقط، وبسيطة عادة. بإيجاز، اعتمدت الاستمرارية الأحيائية والثقافية لدى أسلافنا على العادات القروية. وحتى عندما كانت القرى تضطر إلى دفع ريوع وضرائب للغرباء، فإنها احتفظت بالاستقلالية في إدارة شؤونها اليومية، ولم تنجح العرقلة المتقطعة الناتجة من المجاعة والأوبئة والحروب إلا نادرا في منع الناجين من استئناف الوتيرة المعتادة حالما سمحت لهم الظروف المحلية بذلك.

إجمالا، حلّت القرى المستقرة محل جماعات الصيد والجمع المتنقلة باعتبارها الخلايا الأساسية للمجتمع الإنساني. وداخل كل قرية، تحققت استمرارية مكثفة ومؤكدة للعادات بفضل شبكة الاتصال وجها لوجه. كانت هذه القرى منضوية ضمن شبكة واسعة النطاق أشد كثافة من قبل، لكنها كانت نحيلة مقارنة بما تلاها

عندما بدأت المدن والحضارات والتجار والمبشرون والمحاربون المحترفون، ولاسيما الصناع المهرة، في العمل عبر مناطق من الأرض أوسع وأبعد مدى. وظلت المدن بعد فترة طويلة من ظهورها الأول متفردة وقلقة، لكنه بالطبع قلق الحياة الحضرية الذي دفع - جنبا إلى جنب مع توتراتها وتحدياتها - سكان الحضر إلى اجتراح معظم التغيرات التقنية والدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية والمؤسسية التي طبعت التاريخ اللاحق. نتحوّل في الفصل التالي إلى ظهور المدن.

3

الشبكات والحضارات في العالم القديم خلال الفترة 3500 ق.م - 200 م

أوجد ظهور الحضارات ارتباطات بين عشرات الآلاف من البشر، ثم بين ملايين البشر، وإن ظلوا - بالضرورة - غرباء بعضهم عن بعض. وللمرة الأولى من نوعها، تجاوزت العلاقات الأساسية والمعاملات اليومية المهمة الجماعات الأولية التي كان البشر في السابق يعيشون ضمنها. وشيئا فشيئا، وجد سكان الحضر والقرويون والرعاة الرُّحَّل، وكذلك جماعات الصيد والجمع المهمشة، أنهم في حاجة إلى التعامل مع الغرباء بطريقة أو بأخرى. وأصبح مزيج متقلب من التبادل الطوعي للسلع والخدمات والتعرض القسري للنهب والريوع والضرائب، سمة أساسية للحياة اليومية لكل البشر الذين كانوا يعيشون في نطاق إحدى الحضارات.

«أينما اختارت النخب المحلية أن تحاكي الأنماط المتحضرة بالسعي الحثيث إلى اكتساب العادات وأسباب الترف الحضرية، كان عليها أن تتخلى عن الطقوس والحقوق والعادات المحلية»

وما إن ظهرت الحضارات، حتى شرعت في التوسُّع، تماما كما ظلت القرى الزراعية تنتشر عبر المناطق الخصبة، وكما انتشرت جماعات الصيد والجمع الماهرة في السابق عبر معظم مناطق الأرض الصالحة للسكنى. كان السبب وراء التوسُّع واحدا في كل الحالات، وهو أنه قد أصبح بمقدور الأشكال المتحضرة للمجتمع الإنساني أن تنتزع من البيئة نصيبا من الغذاء والطاقة أكبر من ذي قبل، ما جعلها تولّد ثراء وقوة أكثر تفوقا، وهي العملية التي لم تتوقف عندما ظهرت حضارات منفصلة وشبكات حضرية منفصلة، بل على العكس من ذلك كانت المهارات والعادات والأفكار الآخذة في التطوُّر دافعا للنزاع والتعاون بين أعداد أكبر وأكبر من البشر، حتى صارت الكيانات التي بدأت كحضارات منفصلة في تماس بعضها مع بعض، ما أوجد بحلول العام 200 ح. م شبكة آخذة في التكثُّف عبر أغلب أوراسيا والكثير من أفريقيا، هي الشبكة التي نطلق عليها اسم الشبكة العالمية القديمة.

غيّر ظهور الحضارات شكل الشبكات الإنسانية وزاد من أهميتها. فإلى أن ظهرت المدن، ظل الاتصال المباشر وجها لوجه ضمن جماعات صغيرة ينقل كل الرسائل المهمة التي تحكم السلوك الإنساني، وظلت اللقاءات مع الغرباء والجيران عرضية ونادرا ما تلفت الانتباه المحلي إلى شيء جديد يتطلب تغييرات في العادات الحالية أو يستحثّها. فقبل ظهور الحضارات، كانت المعلومات الجديدة التي تنقلها الشبكة العالمية هزيلة ومتقطعة. غير أن الثرثرة والنقاش والرقص والطقوس لم تفقد شيئا من سلطتها على حياة الجماعة المحلية عندما ظهرت المدن والحضارات، ولذلك ظلت الجماعات المحلية أساسية وظلت تعطي معنى وقيمة لحياة معظم البشر. لكن استقلالية هذه الجماعات تآكلت، وغدت الرسائل الآتية من الخارج تستحوذ على الانتباه، وكانت في الأغلب تفرض عملا قسريا أو دفع ريوع وضرائب. وإلى جانب هذه الأعباء، كانت تأتيهم روايات عن عجائب الحياة الحضرية، كالمعابد التي تطاول السماء والأدوات المعدنية التي تتلألأ في نور الشمس ولا تتحطم كما كان يحدث أحيانا للأدوات الحجرية. غير أن المهارات والمعارف الجديدة التي ميّزت سكان الحضر لم تؤثر إلا قليلا في بادئ الأمر في الوتيرة اليومية للقرية.

وفي المقابل، انتشرت منذ البداية تجديدات مغرية على طول خطوط الشبكة التي ربطت بين المراكز الحضرية وربطتها مع النخب الريفية. فمع تنوع المهارات

الحضرية، بدأت الاتصالات بين المدن تنقل مزيدا ومزيدا من المعارف المفيدة، حتى عبر المسافات الطويلة. وظلت الارتباطات بين النخب المحلية والمراكز الحضرية أهم منها بين المراكز الحضرية بعضها وبعض، ما دفع توسُّع الحضارة إلى أراضٍ جديدة، لأن الزعماء المحليين آثروا دائما أن يجندوا أتباعهم في إنتاج أنواع المواد الخام التي كان سكان الحضر في حاجة إليها، وكانوا يحصلون في مقابل ذلك على سلع الترف المصنوعة في المدن ويستخدمونها في إظهار سلطتهم وأهميتهم.

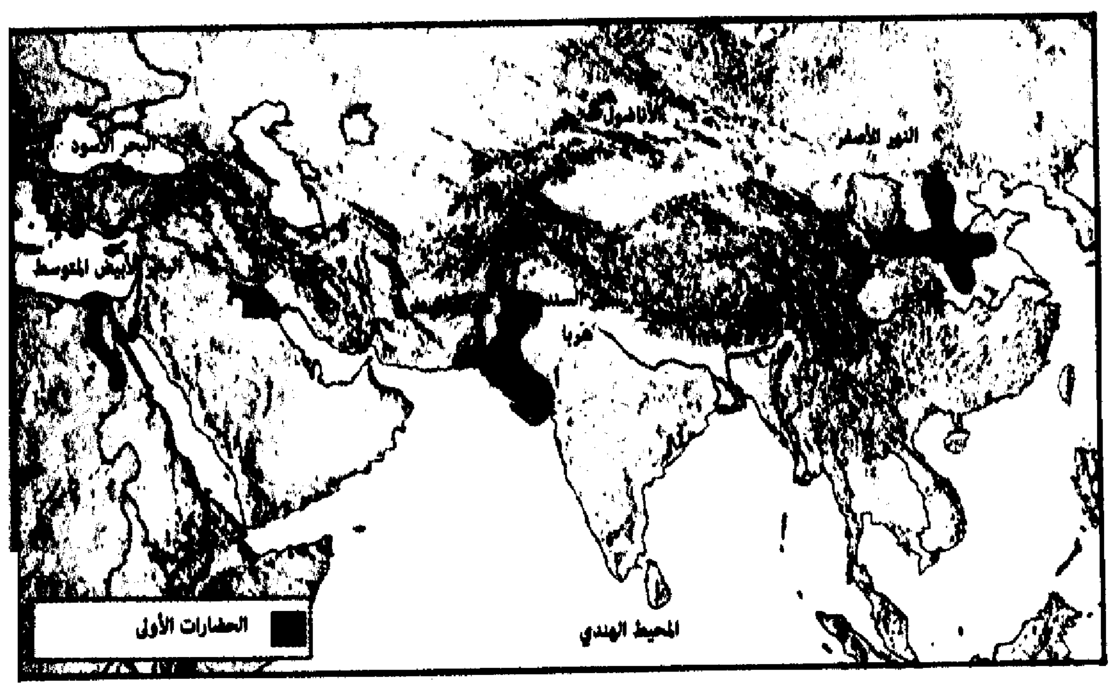
أوجد تمايز المهارات بين المدن والجماعات المحيطة بها شبكات للتبادل والاتصال امتدت عبر مئات - وفي النهاية آلاف - الأميال. فكان لكل حضارة منطقة خلفية، كان مُلاك الأراضي وأصحاب الامتيازات الآخرين فيها يفعلون ما بوسعهم لمحاكاة جوانب منتقاة من الحياة الحضرية. وشكّلت هذه النخبة شبكاتها الإقليمية التي استقرت بدورها فوق الشبكات المحلية الأقدم بالقرية، وأخذت تجند القرويين العاديين الذين يمكن الآن أن نسميهم الفلاحين لخدمة أغراض رؤسائهم الاجتماعيين بطرق مختلفة. وبذلك أصبحت المدن قادرة على استغلال الموارد من كل حدب وصوب وعلى التمتع بثمار ما كان على الأغلب عملا قسريا لملايين البشر. بهذه الطريقة، حققت الحضارات المبكرة الثراء والقوة اللذين جعلاها مغرية في نظر الغرباء.

ومع أن الاختلافات المحلية ظلت شديدة، فإن عملية شاملة قائمة على المحاولة والخطأ قد وفّرت الدافع لكل التغيرات في التنظيم الاجتماعي والتقنيات والاتصال التي عزَّزت سيطرة مقصودة على كل من الموارد الطبيعية والجهد البشري المنسق، وهي العملية التاريخية التي مازلنا ندور داخل حلقاتها، ومن غير المرجح أن نفلت منها، وذلك ببساطة لأن معظم البشر يفضلون دائما الثراء والقوة الجماعيين والشخصيين على الفقر والضعف، حتى لو كلفهم ذلك الخضوع لقواعد وأوامر يفرضها غرباء بعيدون.

الحضارات الأولى

أفرزت عُقد الاتصال المكثف هذه العملية التمدينية في أربعة أجزاء مختلفة من العالم، إذ ظهرت أقدم التجمعات المتحضرة على الأراضي المروية على طول ضفاف ثلاثة نظم نهرية مختلفة، هي دجلة والفرات في بلاد ما بين النهرين - العراق الحديث - والنيل في مصر والسند وروافده في باكستان. كان للمدن السومرية التي زاد عددها

على عشر، والتي ظهرت بالقرب من مصب نهري دجلة والفرات بين نحو العامين 3500 - 3000 ق.ح، سبق زمني ضئيل على الحضارتين المصرية والسندية اللتين انبثق فيهما تعقيد اجتماعي مماثل بعد ما بين قرنين وخمسة قرون. وعزّز الشحن البحري الساحلي، مكمّلا بالقوافل البرية، الاتصال بين الحضارات الثلاث، حتى إنه قد يكون من الملائم أن ننظر إلى ثلاثتها على أنها كانت منذ البداية أجزاء من كل واحد متفاعل دعونا نسمِه ممر النيل - السند Nile - Indus Corridor، وهي أول شبكة حضرية كبيرة.



الخريطة (1-3): أقدم الحضارات في أوراسيا ومصر

وتركزت منطقة متفاعلة مماثلة على التربة الرسوبية شمال الصين على طول الامتدادات الوسطى للنهر الأصفر بداية من نحو العام 3000 ق. ح. بيد أن هذا المركز الواقع في شرق آسيا ظل منفصلا عن ممر النيل - السند، حتى بعد أن جلبت له اتصالات غير مباشرة وغير معلومة عبر السهل والصحاري الفاصلة تجديدات من الغرب أدت إلى توسيع المهارات والتقنيات المحلية في الشرق(*). كان بعض هذه

(*) يشير «الغرب» هنا إلى ممر النيل - السند وحضاراته الثلاث في بلاد ما بين النهرين ومصر وبلاد السند. وعلى امتداد الكتاب، إذا لم تشر كلمة «السهل» إلى سهول بعينها، مثل سهول دجلة والفرات أو النيل أو النهر الأصفر مثلا، فإنها تشير - لاسيما إذا اقترنت بالإغارة - إلى السهل الأوراسي Eurasian Steppe أو السهل الكبير Great Steppe، وهو تلك المنطقة العشبية المعتدلة الشاسعة التي تمتد من رومانيا ومولدافيا غربا خلال أوكرانيا وروسيا وكازاخستان وسنجان ومنغوليا إلى منشوريا شرقا. من هذا السهل خرجت موجات متتالية من جيوش الاتحادات القَبَلية التي اجتاحت الحضارات المجاورة والبعيدة، منهم الهون والآفار والمانشو والأويغور والجونغار والقوزاق والقبجاق والترك والتتر، ومن أشهرهم المغول الذين اجتاحوا الصين والعالم الإسلامي. [المترجم].

التجديدات مهما مثل القمح والشعير وتعدين البرونز والأسبوع المكوّن من سبعة أيام، وبعد العام 1500 ق. ح العجلات الحربية والخيل. وسرعان ما ألهم النموذج الصيني تنويعات إقليمية بين الجماعات المجاورة، وكان من نتيجة ذلك أن ظلت شبكة شرق آسيا التي توجد الصين في مركزها تتوسّع على امتداد التاريخ المدوّن إلى أراضٍ جديدة حتى يومنا، وهذه هي الشبكة الحضرية الكبرى الثانية.

للغرابة، نشأت ثنائية مماثلة في الأمريكتين. وكما كانت الحال في شرق أوراسيا وغربها، كانت الحضارتان المتوازيتان في أمريكا الوسطى والجنوبية تقومانُ على أشكال مختلفة من الزراعة. ففي المكسيك وغواتيمالا، أنتجت البساتين المجففة اصطناعيا التي كانت تقع في أراضٍ سبخة وخصصت بالدرجة الأولى للذرة والقرع، تمايزا اجتماعيا شبيها بذلك الذي حدث في الحضارات الأوراسية، وذلك بداية من الأولمك في نحو العام 1300 ق.ح(*). ولاحقا، ظهرت المراكز الطقوسية والدول المدينية المايا‌وية(**) في نحو العام 600 ق.ح، وظهرت مجتمعات مشابهة في وادي المكسيك الأوسط بعد العام 400 ق.ح. على أن المراكز الحضارية بأمريكا الوسطى لم تندمج معا كما حدث في حضارات ممر النيل - السند، لكن التفاعل المتزايد بينها نسج خيوط أول شبكة حضرية في الأمريكتين.

وفي أمريكا الجنوبية، نشأت مراكز طقوسية معقدة في الصحاري الممتدة على طول الساحل البيروفي، ربما منذ العام 2500 ق.ح، وهناك وفّرت مياه تيار همبولت الغنية نظاما غذائيا ثريا من الأسماك(***)، وتعلم صيادو الأسماك الساحليون أن يكمّلوا صيدهم بزراعة النباتات الجذرية والفاصوليا والقرع في حقول مروية على طول ضفاف عدة أنهار صغيرة تنحدر من جبال الأنديز. وفي نحو العام 900 ق.ح، ظهرت

(*) الأولمك Olmecs: أصحاب أول حضارة كبرى في أمريكا الوسطى، عاشوا في السهول الاستوائية بجنوب المكسيك الأوسط والسهول الشمالية الغربية لغواتيمالا. [المترجم].

(**) الدولة المدينية أو الدولة - المدينة city - state: كيان سياسي مستقل أو قائم بذاته، يتكوّن إقليمه من مدينة واحدة، أو مدينة واحدة كبيرة وتوابعها، من أمثلتها التاريخية المدن السومرية في بلاد ما بين النهرين مثل بابل وأور، ومدن كنعان الفينيقية مثل صور وصيدا، ومن أشهر أمثلتها التاريخية المدن اليونانية مثل أثينا وأسبرطة وثيفا وكورنث، ثم البندقية وجنوى وغيرها من الدول المدينية الإيطالية، ومن أمثلتها المعاصرة إمارة موناكو وسنغافورة والفاتيكان. والمايا Maya حضارة قامت في أمريكا الوسطى، كانت الحضارة الوحيدة في أمريكا ما قبل الكولومبية التي طورت نظام كتابة مكتملا، وتميّزت أيضا برسمها وعمارتها ورياضياتها وتقويمها ونظامها الفلكي. [المترجم].

(***) تيار همبولت Humboldt Current (أو تيار بيرو): تيار مائي محيطي بارد منخفض الملوحة، يتدفق إلى الشمال بمحاذاة الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية، من الرأس الجنوبي لتشيلي إلى شمال بيرو. [المترجم].

حضارة تشافين في مكان يقع على ممر فوق جبال الأنديز، يسّر التبادل مع جماعات الألتيبلانو والامتدادات العليا لحوض الأمازون(*). وعلى مرتفعات الألتيبلانو، أعالت البطاطس والكينوا جماعات كثيفة نسبيا، لكن ربما سادت ممارسات الصيد والجمع في غابات الأمازون العليا. غير أن تداول السلع النقالة والثمينة، مثل ريش الطيور والأصداف البحرية والمعادن الثمينة، وكذلك تبادل المعارف والمهارات للتعامل مع العالمين الطبيعي وما فوق الطبيعي، قد وضع الجماعات المتنوعة على الشاطئ وفي الألتيبلانو والغابات في شبكة حضرية أمريكية جنوبية، تغير مركزها الأساس من وقت إلى آخر، وانتقل إلى الألتيبلانو في نحو العام 100 ح. م.

بيد أنه في حالة أمريكا الجنوبية ووادي السند، يحول عدم وجود سجلات مكتوبة يمكن فكّ شفرتها (في حالة السند توجد سجلات لا يمكن فكّ شفرتها)(**) دون معرفة الكثير حول الأفكار والمؤسسات التي قامت عليها الحضارتان. لكن حتى في الأماكن التي يستطيع فيها الدارسون الحديثون قراءة النصوص القديمة، تظل ترجمتها إلى اللغات الحديثة غير دقيقة لأن الفرضيات الكامنة في مفرداتنا لا تتفق مع الفرضيات الكامنة في مفردات الشعوب القديمة، وكل ما يمكن أن نطمح إليه هو فهم غير مكتمل وإعادة بناء تخمينية فقط.

لكن توجد - لحسن الحظ - معلومات وفيرة حول أقدم مركز للحضارة، وهو ذلك الواقع في العراق الحديث في الأراضي الصحراوية على طول المجرى الأدنى لنهري دجلة والفرات، فهناك تطوّرت الكتابة المسمارية عبر مئات السنين في بلاد ما بين النهرين، كما يطلق الدارسون الحديثون - اتباعا لليونانيين القدماء - على السهل الفيضي لنهري دجلة والفرات. بدأت هذه الكتابة بعلامات بسيطة تسجل مدخولات مخازن المعابد ومصروفاتها، ونتيجة لأن هذه السجلات نقشت على

(*) تشافين Chavin: حضارة ما قبل تاريخية بائدة، سميت على اسم موقعها الأثري الرئيس تشافين دي وانتار Chavin de Huantar الواقع في مرتفعات الأنديز الشمالية في دولة بيرو. [المترجم].

(**) على الرغم من أكثر من مائة محاولة منشورة لفكّ رموز الكتابة السندية على مدى أكثر من قرن من الزمن، فإنها لاتزال طلاسم مغلقة على الفهم، حتى وصفها بعضهم - تهكما - بأنها الكتابة الأكثر تعرضا لفكّ الرموز في التاريخ، وذهب البعض إلى أن قِصر النقوش وندرة كل من النقوش التذكارية والنقوش المؤقتة من النوع الشائع في مصر وبلاد ما بين النهرين القديمتين، يثير الشك في أن النقوش السندية تنتمي أصلا إلى نظم الكتابة. راجع كتاب «حضارات السند البائدة»، تأليف أندور روبنسون وترجمة مصطفى قاسم، مشروع كلمة - هيئة أبوظبي للسياحة والتراث، 2017. [المترجم].

ألواح طينية اكتسبت متانة بعد إحراقها، فقد بقيت بأعداد كبيرة نسبيا. وتوجد بضعة نصوص كتبت لاحقا ولأغراض مختلفة، تلقي ضوءا خافتا على البدايات الحضارية، لكن تظل البقايا الأثرية والاستدلال هما البوصلة الأساسية لفهم كيف بدأت الحضارة الأقدم في العالم.

يتمثّل الشيء المؤكد في أنه بداية من نحو العام 3500 ق.ح، شرع البشر في بناء مجموعات كبيرة من البنايات الطينية بالقرب من مصب نهري دجلة والفرات[1]. كان ما يربو على عشر من هذه المدن البدائية التي كان يقطن في الواحدة منها عدة آلاف من البشر، تتحدث اللغة السومرية، وتحصّل غذاءها من الحقول المروية على طول ضفاف النهرين، وتتاجر برا وبحرا مع دائرة واسعة من الجماعات المجاورة. وفي نحو العام 3000 ق.ح، بنيت أسوار هائلة من الطوب اللبن لحماية هذه المستوطنات من الهجوم الخارجي، وهو ما يعد مؤشرا على بلوغ مستوى جديد من التنظيم الاجتماعي، هو المدينة السومرية.

قامت هذه المدن على شبكة اتصالات برية جديدة نسبيا شملت كلا من النقل النهري وقوافل الحمير، جنبا إلى جنب مع روابط بحرية أقدم غطت سواحل البحار الموسمية. في السابق، كانت الغابات الاستوائية وغيرها من الموانع الأرضية تحرم المبحرين على طول سواحل المحيط الهندي من تحقيق اتصال جيد مع الأراضي الواقعة وراء الساحل، ولذلك كان شريط ضيق من المستوطنات الساحلية هو القادر وحده على الدخول بسهولة في أي تبادل للسلع والأفكار حدث بين صيادي الأسماك والبستانيين على طول هذه السواحل. لكن بعد تدجين الحمير في مصر، أو ربما في جنوب غرب آسيا، في نحو العام 5000 ق.ح، بدأت القوافل البرية تقطع مئات الأميال، ما وضع البيئات المتنوعة للمناطق الداخلية في جنوب غرب آسيا في اتصال وثيق مع الإبحار الساحلي. وتلاقت شبكتا النقل والاتصال هاتان عند رأس الخليج العربي، وهو المكان الذي ظهرت فيه لأول مرة المدن والمجتمع المعقد الذي نصفه بالمتحضر(*).

(*) لقد اكتشف ضمن كنوز عُثر عليها في المقابر الملكية في أور ببلاد ما بين النهرين بعض المقتنيات يفترض أنها صنعت في بلاد السند مثل خرز العقيق الأحمر الطويل، ويبدو أيضا أن خرزا آخر قد أنتج في بلاد ما بين النهرين باستخدام تقنية الثقب السندية، ما ينبئ بأن الحرفيين الذين قاموا بالثقب كانوا مهاجرين من بلاد السند التي تشير إليها النصوص السومرية باسم ملوحا. راجع كتاب «حضارات السند البائدة». [المترجم].

تألفت المدن السومرية من ثلاثة مكوّنات متمايزة: مجموعة من المواطنين أصحاب الامتيازات يزرعون الأراضي المروية القريبة، وبيوت كبيرة تتألف من أقارب ولها رؤساء، ومجموعة من العمال الزراعيين الخاضعين والقليل من العبيد المستوردين. وخارج الأسوار، كانت توجد على ضفة النهر جماعة المرفأ التي ضمت التجار وعمال القوافل والبحّارة الآتين والمغادرين الذين كانوا يجلبون للمدينة واردات ضرورية مثل الخشب والمعادن وغيرها من المواد الثمينة، وكانوا في مقابل ذلك يصدّرون المنسوجات الصوفية ونبيذ البلح وسلعا أخرى مصنّعة. تمثّل تميّز المدن السومرية في وجود واحد أو أكثر من بيوت الآلهة - المعابد - التي كانت أكبر من البيوت الخاصة، لكن توزيع الواجبات والدخل بين أفرادها لم يكن يختلف في الأساسيات عن الطريقة التي كانت توزع بها المهام والمكافآت في البيوت الخاصة.

بيد أن النطاق الواسع أوجد فارقا مهما، فكل بيت من بيوت الآلهة كان يرعى الأغنام على الأراضي العشبية الموسمية للسهل الفيضي ويدير حقولا واسعة من الحبوب المروية قام على رعايتها مئات العمال. بعد ذلك، استخدم الخدم الشخصيون للإله - الكهنة - كميات كبيرة نسبيا من الحبوب والصوف وغيرها من السلع الزراعية التي كانت تأتي لمخازن المعبد في تطوير نمط حياة مترف للإله المقيم، ولأنفسهم، فبنوا بيوتا فخمة لصورة الإله، وأخذوا يقدمون لها وجبات طقوسية - مرتين في اليوم - وألبسة جديدة وتسالي ومباهج أخرى في مناسبات خاصة. ربما كانت الرغبة الجارفة في زيادة الأبهة الطقوسية القوة الدافعة وراء التطوير المتسارع للمهارات الذي رفع المدن السومرية فوق مستوى الجماعات المجاورة، وذلك لأن بيوت الآلهة الغنية تمكنت من إعالة حرفيين متخصصين لإنتاج سلع استهلاكية فخمة تدخل البهجة حتى على الإله متقلب المزاج.

كانت المواد الأولية الثمينة مثل اللازورد سماوي الزرقة تأتي من أماكن بعيدة، ولذلك اعتمد المديرون الكهنوتيون في جلبها على تجار متجولين. وأشرف الكهنة على عمال الصوف الذين كانوا ينتجون المنسوجات لكسوة الإله وكل الأفراد البشريين في بيته. كانت المنسوجات الفائضة تذهب إلى التجار في مقابل سلع الترف المستوردة. ومن أجل الحفاظ على أبهة الإله، عملت قوة عاملة ريفية

بتوجيه الكهنة في رعاية القطعان وصيانة الحواجز النهرية والقنوات وزراعة حقول الحبوب وجلب الحصاد سنويا(*).

قام هذا العمل المتخصص والتبادل على فكرة مؤداها أن الإله إن لم يرضَ عن أبهة المعبد الذي يقيم فيه، فإن سخطه قد يجلب عواقب وخيمة، كالفيضان أو المجاعة أو الوباء أو الغارات. ففي أثناء جهودهم المبكرة لفهم حياتهم الغنية والخطرة على السهول الفيضية، ذهب الكهنة السومريون إلى تعديل أفكار أرواحية أقدم بإضفاء قوة متجاوزة على حفنة من الآلهة الكبرى، وأخذوا ينحتون تماثيل عبادة بالمعبد لتجسيد واحدة أو أخرى من هذه الأرواح الإلهية الخفية القوية التي تأتي وتذهب كيفما تشاء. كان لزاما جعل التمثال ومحيطه جذابين للحيلولة دون مغادرة الإله للإقامة في مكان آخر، وهو مطلب مهم، لأنه في حال وجود الروح الإلهية في تمثال العبادة، كان بإمكان البشر حينها فقط أن يأملوا في أن يظل الإله بجانبهم من خلال الثناء والصلاة والتفاني في خدمته. وكان الإله الغاضب يشكّل خطرا، ولذلك استلزم استرضاؤه عملا يوميا ومهارة خاصة لتفسير حالته النفسية، وكانت قراءة الطوالع في أكباد الأضاحي الحيوانية والتسجيل المتأني لتحركات الشمس والقمر والكواكب من بين الطرق التي استخدمها كهنة بلاد ما بين النهرين لاستطلاع نوايا الإله، كما ابتكروا صلوات وطقوسا متقنة لتجنب سخطه ونيل رضاه.

كان لكل مدينة إله واحد أو أكثر يقيم فيها، لكن كان على كل إله محلي أن يحسب حساب الآلهة الأخرى، ولم يكن بالتالي يتمتع بقدرة مطلقة. وذهب الكهنة السومريون إلى أن مجلسا مكوّنا من الآلهة السبعة الكبرى - الشمس والقمر والأرض والسماء والماء العذب والماء المالح والعاصفة، والأخير هو الأكبر بينهم جميعا - يدير شؤون الكون، وأنهم كانوا يجتمعون في اليوم الأول من السنة الجديدة لتقرير ما تجلبه هذه السنة من حظوظ. يُفترَض أن الكهنة الذين طوّروا هذه الأفكار قد صاغوا سلوك آلهتهم وفقا للطريقة التي كان المواطنون السومريون يديرون بها شؤونهم العامة، إذ كانوا يجتمعون لتقرير الأعمال العامة، سواء كانت تجهيز حملة عسكرية أو شقّ قناة جديدة أو بناء سور حول المدينة. وكانوا يختارون قادة لتنفيذ

(*) الحواجز النهرية dikes: رواب ترابية كانت الشعوب تبنيها على طول الأنهار الموسمية حتى لا تفيض بعيدا على جانبي النهر وتسبب دمارا. [المترجِم].

هذه الأعمال. لكن بعد أن أصبحت الحرب متكررة، تحوَّل القادة المؤقتون إلى حكام أو ملوك مدى الحياة، وأخذوا يبنون بيوتا فسيحة للمحاربين ضاهت بيوت الآلهة وتفوقت عليها في النهاية. ولذلك فبحلول نحو العام 2300 ق.ح، كان القادة العسكريون قد أخضعوا بيوت المعابد الكبرى لسيطرتهم.

لكن يبدو - ابتداء - أن المعتقدات والطقوس التي طوِّرت داخل بيوت الآلهة في سومر كانت القوة الدافعة وراء تشكُّل المجتمع الحضري برمته، فمن المرجح أن المدن نشأت عندما أخذ رؤساء البيوت الذين كانوا يديرون الأراضي المروية حديثا يتجمعون حول المواقع الطقوسية طلبا للحماية فوق الطبيعية، وهناك اجتمع الثراء والطموح المتناميان لدى الكهنة والمواطنين لجذب - أو إعداد - حرفيين متخصصين وتجار وبحَّارة وعمال قوافل لخدمة طقوسهم واحتياجاتهم المادية الأخرى الآخذة في الاتساع.

في بادئ الأمر، كان كل شيء جديدا. فكانت أعداد ضئيلة فقط من جماعات الصيد والجمع تعيش على السهل الفيضي لبلاد ما بين النهرين قبل أن تجعل أعمال الري من الزراعة عملا مجزيا، وكانت هناك حاجة إلى مئات العمال لبناء الحواجز النهرية والقنوات اللازمة، مع العلم أن تنظيم قوة عاملة كبيرة بما يكفي لإنجاز هذه المهمات لم يكن بالأمر الهيِّن، واعتمد النجاح فيه على منطقة خلفية من القرى المزدحمة أمكن تجنيد العمال اللازمين منها، بالقوة أو بالإقناع. ربما كان غرباء آتون عن طريق البحر هم المقاولين الذين تولوا تلك المهمة ونظموا الجهد البشري المطلوب لإيصال ماء النهر إلى الحقول في الوقت المناسب وبالكمية المناسبة، وأصبحوا بذلك مواطنين أصحاب امتيازات ومديرين مقدسين للمدن السومرية المبكرة[2].

تكشف قائمة قصيرة بالمنتجات السومرية عن أنواع الابتكارات التي تعهدتها هذه المدن. فكانت الأقمشة الصوفية سلعة التصدير الأساسية، وكانت الأسلحة والأدوات النحاسية والبرونزية والفخار المصنوع على دواليب والأختام الأسطوانية المحزوزة بمهارة من المنتجات الجيدة للورش السومرية. أما إبداعاتهم الأبرز، فكانت المعابد التي بنيت بملايين من الطوب اللبن، إذ لم يشيِّد البشر من قبل أبنية على هذا النطاق الواسع.

كانت القنوات والحواجز النهرية والمحاريث والعربات والسفن الشراعية التي تظهر جميعها بوضوح في السجلات السومرية للمرة الأولى، أساسية لشكل المجتمع

الجديد. لا شك في أن القنوات والحواجز النهرية ابتُكرت في أماكن عدة، وأن السفن كانت أقدم من سومر، وأن العربات - وربما المحاريث - اختُرعت في أماكن أخرى، لكن المدن السومرية وفّرت مجالا أوسع لهذه الأدوات. على وجه التحديد، اعتمد الفائض الزراعي المركز الذي أعال المتخصصين من كل نوع على الزراعة بمحاريث يجرها ثيران وعلى عربات تحمل الحصاد إلى المخازن الحضرية. وكما جاء في موضع سابق، فإن حلقات الاتصال التي وفّرها الإبحار الساحلي على طول شواطئ البحار الموسمية - جنبا إلى جنب مع قوافل الحمير - أعطت المدن السومرية انطلاقة أقوى من بقية العالم لخلق الحضارة.

تجلّى الدور المتنامي للزعامة العسكرية بعد العام 3000 ق.ح، وارتبط بظهور المجتمعات الرعوية المتمركزة على الأراضي العشبية الموسمية المحيطة بالمنطقة المروية الصغيرة نسبيا في جنوب بلاد ما بين النهرين. فخلال القرون نفسها التي ظهرت فيها المدن السومرية على الأراضي المروية، كان الرعاة يتعلمون كيف يستغلون المراعي المتوافرة من خلال نقل قطعان الغنم والمعز من الشمال إلى الجنوب ومن السهل إلى المرتفعات مع تغير الفصول. وبعيدا إلى الشمال، شغل قوس من القرى الزراعية المناطق التي بدأت فيها الزراعة في الوديان والتلال المحيطة بالسهل الفيضي لبلاد ما بين النهرين. وبعيدا وراء هذه القرى كانت تنتشر عبر أوروبا وآسيا تخوم زراعية استيطانية، كانت تطوّقها - بدورها - مجتمعات رعوية جديدة وطّنت أنفسها على السهل الأوراسي الواسع، واعتمدت على الماشية والخيل أكثر منها على الأغنام والمعز.

وفي الوقت الذي كانت طرق الحياة الرعوية والزراعية والحضرية المتعارضة تفرض فيه نفسها في أنحاء غرب أوراسيا كافة بعد العام 3500 ق.ح، كانت التجارة والإغارة تربط بينها. في بادئ الأمر، حلّقت الإنجازات السومرية عاليا، حتى إن الرعاة الناطقين باللغات الهندية - الأوروبية الذين كانوا يعيشون على السهل بعيدا إلى الشمال قد استدمجوا في دياناتهم عناصر من مجمع الآلهة السومري(*). لذلك ترجع جذور آلهة كثيرة آرية ويونانية ورومانية وسلتية

(*) مجمع الآلهة أو البانثيون pantheon هو مجموعة الآلهة لجماعة ما وكذلك الهيكل المكرس لجميع آلهتهم. [المترجم].

وجرمانية من أزمان لاحقة إلى اللقاءات المبكرة لأسلافهم مع الآلهة السبعة الكبرى في الديانة السومرية(*).

شكّل التدافع الدائم بين طرق الحياة الحضرية والقروية والرعوية الأساس للتاريخ الأوراسي والأفريقي اللاحق وهيمن على الشؤون السياسية والعسكرية على مدى آلاف السنين. كان سكان الحضر والرعاة قليلي العدد نسبيا، لكنهم تمتعوا بمزايا عسكرية كبيرة على القرى التي كانت تضم أعدادا أكبر من البشر. تخصص الرعاة في حماية قطعانهم، ما جعلهم يتشربون الطباع العسكرية، وذلك لأن صد المغيرين البشريين كان دائما أصعب من إبعاد المفترسين الحيوانيين، فضلا على أن حركية الرعاة مكّنتهم من الحشد السريع لقوات إغارة كبيرة عندما كانت تلوح لهم أهداف جيدة. كانت الحبوب التي يخزنها المزارعون هدفا دائما لهم، مع أن التبادل السلمي الإرادي للمنتجات الحيوانية في مقابل الحبوب وسلع الترف من الورش الحضرية كان دائما بديلا متبعا.

نشأت المزايا العسكرية للمجتمعات الحضرية عن حيازتهم أسلحة - برونزية في البداية - أكثر تفوقا ومن قدرتهم على إعالة محاربين متخصصين مدربين على القتال ضمن تشكيلات وعلى إطاعة قائد واحد. كانت أعداد هؤلاء المقاتلين المحترفين ضئيلة في بادئ الأمر، إذ كانوا أقل عددا من القبائل الرعوية التي كان كل ذكر بالغ فيها يعد مقاتلا كامنا. كانت علاقات المقاتلين المحترفين مع سكان الحضر الآخرين مضطربة لأنهم كانوا أحيانا يستخدمون أسلحتهم ضد مواطنيهم، وضد القرويين الذين كانوا يدفعون ريوعا، وكذلك بعضهم ضد بعض. لذلك أدت التوترات الناتجة عن ذلك داخل المجتمع الحضري إلى إشعال ثورات من حين إلى آخر، وعندما كانت الثورات الداخلية تتزامن مع غارات الرعاة، كان الحكام يُخلَعون وينصب محلهم

(*) الآريون Aryans: شعب قديم من شرق أوروبا، استولى على إيران من الشمال الغربي للهند في العام 2000 ق.ح، وكان سببا في تدهور حضارة السند، تحدثوا اللغة الآرية التي يعتقد أنها أصل اللغات الهندية - الأوروبية؛ السلتيون أو الكلتيون Celts واحدة من الجماعات الإثنية اللغوية القَبَلية بالعصر الحديدي والعصور الوسطى، عاشت على الساحل الأطلسي لغرب أوروبا الذي عرف لذلك باسم الحافة السلتية، يقال إنهم سلف الغال Gaul الذين استوطنوا فرنسا وبلجيكا وإيطاليا والجزر البريطانية؛ والجرمانيون Germanic Peoples (أو التيوتونيون أو السويبيون أو القوط) جماعات إثنية لغوية هندية - أوروبية نشأت في شمال أوروبا، تحدثت اللغات الجرمانية، اجتاحت الإمبراطورية الرومانية عندما أزاحتهم قبائل آتية من الشرق، وأنشأت دولا في مناطق متفرقة في أوروبا الغربية. [المترجم].

إما مصلحون ثوريون وإما غزاة من الخارج. وفي الحالتين كلتيهما، سرعان ما كان الحكام الجدد يجدون أنفسهم في حاجة إلى متخصصين عسكريين وجباة ضرائب للحفاظ على سلطتهم، وكانوا بذلك يعرضون أنفسهم مجددا للدورة السياسية نفسها عندما تتراجع الروح المعنوية والطاعة بين الجنود وجباة الضرائب.

إجمالا، تحمّل المزارعون القرويون وطأة التوازن المضطرب بين القدرة العسكرية الرعوية والحضرية الذي انبثق في جنوب غرب آسيا بعد نحو العام 3000 ق. ح. وباستثناء مناطق الجبال أو المستنقعات التي أعاقت الهجوم الخارجي، لم تتمكن جماعات المزارعين المحلية من مجاراة العنف المنظم الذي مارسه الرعاة والجنود الحضريون المحترفون بانتظام. لذلك كان الخضوع حتميا ومفضلا على المقاومة، لأن الريوع والضرائب المتوقعة كانت أيسر في تحمُّلها من النهب المنفلت. أقرّ الجميع ذلك الواقع، وأصبحت هذه الترتيبات هي القاعدة والعرف. ويمكن القول إن الرعاة أقاموا مع الجنود المحترفين للدول الزراعية وحكامها سوقا غير رسمية - وإن كانت فعالة - لتكاليف الحماية، إذ حددوا مدفوعات الريوع والضرائب عند مستوى يضمن البقاء للقرويين، حيث كانوا يتركون لهم في السنوات العادية هامشا يحميهم من حالات فشل المحاصيل العرضية. وبعد نحو العام 2500 ق. ح، قام هذا النوع من سوق الحماية بإخضاع الفلاحين وإعالة الحضارات على مدى آلاف السنين التالية، وربما حتى الوقت الحاضر.

كان التبادل التجاري الطوعي بدرجة أو بأخرى بين جماعات النخب المختلفة متمِّما للنقل الأساسي للريوع والضرائب من الفلاحين إلى مُلاك الأراضي والحكام. انخرطت المدن السومرية في هذه التجارة منذ البداية. على وجه التحديد، لم تكن المعادن والخشب موجودة في السهل الفيضي، ولذلك ربما تمثّل أحد الأدوار التي أداها الملوك السومريون الأوائل في قيادة الحملات المسلحة للاستيلاء على السلع المطلوبة من الجماعات الجبلية المجاورة، وتكشف ملحمة غلغامش أمورا كثيرة، منها حكاية عن القائد البطل الذي عاد بالخشب إلى أوروك بعد أن قتل حارس غابة أرز بعيدة(*).

(*) أوروك أو الوركاء Uruk: مدينة قديمة في سومر ثم في بابل، تقع على نهر الفرات على مسافة 35 كيلومترا من مدينة أور القديمة و30 كيلومترا شرق مدينة السماوة العراقية الحديثة، أدت دورا في بناء حضارة سومر في منتصف الألفية الرابعة قبل الحقبة المشتركة، وبلغت أوجها في نحو العام 2900 ق.ح. [المترجم].

عندما تولى الزعماء المحليون تنظيم أتباعهم لقطع الأشجار أو استخراج المعادن أو إعداد أي سلعة أخرى كان سكان مدينة بعيدة في حاجة إليها، انبثقت طريقة أكثر نفعا للحصول على السلع المطلوبة. وأصبح بوسع الزعماء المحليين الذين اختاروا طريق التعاون مع التجار المتجولين أن يعتمدوا على الوصول المنتظم إلى السلع والأسلحة الثمينة المصنوعة في المدينة، التي ما كانت لتتوافر لهم لولا ذلك. وبذلك تعود الزعماء على التسامح مع القوافل التجارية وحمايتها، وتضاعفت الاتصالات بين المراكز الحضرية والجماعات البعيدة، ما جعل من سلع الترف الحضرية المستوردة رموزا للمكانة الاجتماعية بين النخب المحلية، وهو ما ميّزهم عن العامة. ومع انتشار الأذواق الحضرية، انبثقت طبقة صاحبة امتيازات وبدأت - بدورها - في توفير الرعاية للحرفيين المحليين. وبذلك اجتمع التمايز الطبقي والتخصص المهني لدفع المجتمع المحلي نحو مستويات التعقيد الحضرية. كان الاستيلاء بالقوة على سلع التجار طريقة بديلة للحصول على الأشياء الثمينة، لكنها كانت تترك المغيرين الناجحين في حاجة إلى الوصول إلى أسواق لتحويل غنائمهم المختلفة إلى تشكيلة صالحة للاستخدام من الأشياء التي كانوا في حاجة فعلية إليها، علاوة على أن عوائد الاستيلاء بالقوة كانت متناقصة، لأن ذلك كان يثني التجار عن العودة. لذلك ساد التعاون دائما مع التجار، ما أسهم في تكثيف الشبكة الحضرية لمر النيل - السند وتوسيعها في كل اتجاه.

فابتداء من ظهور سومر، تكاتفت التجارة والإغارة اللتان قامتا بالدرجة الأولى في المدن وبدرجة أقل بين الرعاة، لنشر السلع والأذواق الحضرية والأبنية الاجتماعية المعقدة عبر منطقة واسعة من جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا وجنوب شرق أوروبا. ولاتزال نفس هذه العملية التمدينية المؤلمة دائما تجري اليوم في بضعة أماكن مثل الأمازون النائي ومرتفعات نيو غينيا التي لايزال الاحتكاك بالغرباء فيها في مراحله الأولى.

***

شكّلت التطوّرات المبكرة في وادي النيل ووادي السند إضافة إلى الشبكة الحضرية التي نشأت حول سومر، وربما أسهم هذان الواديان النهريان في بناء شبكة بلاد ما بين النهرين منذ البداية. لكن من الصعب القول بذلك، لأن المياه الجوفية

تحول دون اكتشاف الطبقات الأقدم لمجتمع موهنجو دارو، ويحول الاستعجال غير المبرر والأخطاء الصريحة التي وقعت منذ عهد بعيد في هَرَبّا من دون أن يعرف علماء الآثار كيف ومتى أسست شعوب السند مدنها العظيمة(*). لكن الأختام والمصنوعات السومرية الأخرى التي اكتشفت هناك تشهد على صلاتها التجارية مع سومر. وبالنظر إلى أن الإبحار الساحلي قد يسّر السفر، فلا بد من أن تبادل الأفكار والمهارات قد حفّز التطوُّرات على ضفاف نهر السند منذ البداية.

أخذت المدن السندية فن إدارة المياه إلى آفاق أعلى، فكانوا يفصلون مياه الشرب عن مياه الصرف من خلال ما يبدو أنه أول نظام للصرف الصحي في العالم، ما ساعد - افتراضا - في تقليل بعض الأخطار المرضية للحياة الحضرية. لكن الدارسين لم يفلحوا حتى الآن في فكّ رموز الكتابة السندية، ولذلك فإننا لا نعرف شيئا مؤكدا حول الديانة ونظام الحكم اللذين أوجدا البنايات والأشغال المائية العظيمة لهذه المدن. ويكشف علم الآثار أن تأثير الثقافة السندية انتشر على نطاق واسع على طول سواحل بحر العرب وكذلك إلى بعض المواقع الداخلية(**). وتكشف الصور المنقوشة على بضعة أختام سندية أن بعض آلهة الهندوسية نشأت في الأصل كآلهة سندية.

ونتيجة لأن الكتابة الهيروغليفية المصرية قد فُكّت رموزها على نحو دقيق، فإن الدارسين يعرفون الكثير حول طريقة تطوُّر الحضارة في وادي النيل، وتشير البقايا الأثرية إلى وجود ارتباطات مبكرة مع سومر، منها على سبيل المثال أن الأهرام المصرية المدرجة، وهي الأقدم في مصر، تكشف عن استعارة واعية من العمارة السومرية، وإن كان المصريون قد استخدموا الحجارة بدلا من الطوب اللبن، وطوّروا سريعا أساليب وأنماطا فنية مميّزة. ربما تكشف الكتابة الهيروغليفية عن محاكاة واعية للكتابة المسمارية، وإن كانت الكتابة المصرية تبدو نظاما مكتملا منذ البداية، على خلاف التطوُّر البطيء للكتابة السومرية.

(*) يقع المركزان الرئيسان لحضارة السند: هَرَبّا Harappa وموهنجو دارو Mohenjo Daro، في باكستان: الأول في إقليم البنجاب بالقرب من المجرى السابق لنهر رافي وبدأ استيطانه في نحو العام 3500 ق. ح، والثاني في إقليم السند على نهر السند وبدأ استيطانه في نحو العام 2600 ق. ح. [المترجم].

(**) اكتُشفت على جزيرة فيلكا (الكويت) ودلمون (البحرين) خواتم مستديرة على الكثير منها موضوع الثور ونقش سندي على الوجه وحدبة من النوع السندي على الظهر، تؤرخ إلى الفترة 2100 - 2000 ق. ح. راجع كتاب «حضارات السند البائدة». [المترجم].

وأيا كانت اللمحات المفيدة التي أخذها المصريون الأوائل من الاتصالات مع سومر، فإن الاختلافات الجغرافية والثقافية سرعان ما وضعت مصر على طريق مختلف عما كان سائدا في بلاد ما بين النهرين. كان وصول المصريين السهل إلى الحجارة للبنايات والتماثيل واحدا من تلك الاختلافات. لكن يظل الاختلاف الأساسي هو النيل الذي ضمن لمصر نقلا داخليا موثوقا وممتدا ورخيصا بالقوارب، إذ تيسّر الإبحار جنوبا مع الرياح التجارية الشمالية الشرقية التي تهب على مصر بانتظام، بينما كان تيار النيل الهادئ يأخذ المراكب شمالا بسهولة وأمان مماثلين. كان من نتائج ذلك أنه عندما وحّد الفرعون الأول مصر كلها بعد نحو العام 3100 ق. ح، استمرت هذه الوحدة السياسية - باستثناءات متفرقة فقط - على امتداد تاريخ البلاد اللاحق. فلم يكن ثمة مكان آخر على الكرة الأرضية أفضل من مصر يسهل فيه دمج الشبكات القروية والمحلية في شبكة حضرية واحدة.

ومن خلال السيطرة على الإبحار خلال النيل، استطاع الفرعون أن يستخدم موظفيه لجمع الحبوب وغيرها من الموارد أينما شاء، وأن يستخدم الدخل الضريبي من البلاد كلها لإعالة قوة عاملة هائلة لبناء قبره الشخصي الذي اتخذ شكل هرم، أو بأي طريقة أخرى تراءت له. وزعم حكام مصر الأوائل أنهم آلهة حية، ومن خلال ذلك حوّلوا البلاد كلها إلى جماعة دينية واحدة، ما وضع تحت أيديهم ثروة مركزة جاهزة للاستخدام، استخدمها بيت الفرعون في إعالة مجموعة كبيرة من الحرفيين المهرة وفي تنظيم أعمال ضخمة تعد الأهرام العظيمة الأمثلة الأشهر لها.

حدث أول توحيد لمصر في بداية التحوّل إلى الزراعة بالري، التي غيّرت المشهد في السهل الفيضي للنيل، إذ سرعان ما حوّلت أوامر الفرعون - جنبا إلى جنب مع النمو السكاني وكدح الفلاحين المتواصل - السهول الفيضية إلى شريط ضيق من الحقول الخصبة، وأدخلت دلتا النيل في الزراعة. وبسبب فيضان النيل الهادئ، لم يكن المصريون في حاجة إلى القنوات، واعتمدوا بدلا من ذلك على ري الحياض، من خلال حجز مياه الفيضان وراء حواجز، ما جعل الغرين الخصب يترسب على التربة، وكانوا بعد ذلك يسمحون للماء الفائض بالنزول مع التيار عندما يحين وقت الزراعة. حال ذلك دون ارتفاع مستوى الملح في التربة، في حين تراكم الملح في بلاد ما بين النهرين سنة بعد أخرى عندما كانت مياه الري تتبخر من الحقول - لأن المياه

العذبة تحتوي على قدر صغير من الملح - وهي العملية التي أدت في النهاية إلى تحويل أراضي سومر إلى الصحراء الموجودة اليوم، بينما ظلت أرض مصر خصبة.

على مدى آلاف السنين، أعطت السهولة الفريدة في النقل الداخلي والري المستدام بيئيا، المجتمع المصري استقراره الفريد، ومن ذلك أن النمط الفني المميّز للأنصاب المصرية الذي انبثق في عهد أسرات الدولة القديمة (2615 - 1991 ق. ح)، ظل هو القاعدة المعيارية حتى الأزمان الرومانية، مع أن التركز الأولي للثروة والقوة والمهارات المتخصصة في بيت الفرعون أخذ يتراجع مع الوقت، إذ غدا جزء متزايد من الحصاد يؤول إلى مُلاك الأراضي المحليين وكهنة المعابد الذين كانوا يخدمون آلهة مختلفة، وهي الدخول التي استخدموها لأغراضهم الشخصية.

يرجع البقاء الطويل لأفكار الدولة القديمة إلى أن مصر كانت في مأمن من التهديدات الخارجية، إذ جعلت الصحاري الهائلة الدفاع عن التخوم أسهل منه في بلاد ما بين النهرين، ولذلك لم يخرج المصريون من بلادهم طوال معظم - إن لم يكن كل - العصر القديم، ولم يكونوا في حاجة إلى مؤسسة عسكرية مكلفة من النوع الذي تبناه معاصروهم في جنوب غرب آسيا.

ومع أن جغرافية مصر الفريدة ضيّقت اللقاءات مع العالم الخارجي، فإنها لم تمنعها تماما. فكان في مقدور البحّارة أن يصلوا بسهولة إلى الدلتا الساحلية، ونتيجة لذلك انتشرت التقنيات والأفكار المصرية عبر أقاليم البحر الأبيض المتوسط، ومن ذلك تحديدا أن الرسم المينوسي في جزيرة كريت استمدّ جزءا من إلهامه من الأنماط المصرية في النحت والرسم(*). وجعلت المستنقعات والصحاري الوصول إلى أفريقيا جنوب الصحراء أكثر صعوبة، لكن التأثير المصري امتد إلى ما وراء الجندل الأول الذي ينتهي عنده الإبحار النيلي، وتوجد أدلة على ذلك في البقايا الأثرية المتقنة في النوبة وعلى طول أعالي النيل في السودان الحالي التي يرجع بعضها زمنيا إلى بدايات مصر نفسها. وهناك جدل بين الدارسين حول أبعد مكان وصل إليه تأثير مصر القديمة في أفريقيا وحول تأثير النوبة في مصر. لكن الأدلة المتينة شحيحة.

(*) ينسب الرسم المينوسي أو المينوي Minoan art إلى حضارة بالاسم نفسه، موطنها جزيرة كريت، تنسب إلى مؤسسها الملك مينوس الكنوسوسي Minos of Knossos، تعد من أقدم حضارات اليونان وأوروبا عموما، ازدهرت بين العامين 3650 و1400 ق. ح. [المترجم].

وبعد أن أرسى المصريون نمطهم الحضاري المميّز، لم يجدوا خارج حدودهم شيئا جديرا بالاستعارة، وهي اللامبالاة التي أثبتت خطورتها، كما اكتشف المصريون أنفسهم، عندما اجتاح بلادهم محاربون أجانب من آسيا يعرفون باسم الهكسوس، تمكنوا باستخدام معدات عسكرية كانت قد اخترعت أخيرا - تحديدا العجلات الحربية التي تجرها الخيل - من اجتياز الحاجز الصحراوي المتمثّل في شبه جزيرة سيناء. أدخل الحكام الهكسوس (1678 - 1570 ق. ح) مصر فجأة في نظام الدول الإمبراطورية العسكرية الذي تشكّل حول مركز بلاد ما بين النهرين القديمة بعد أن قامت أجيال متعاقبة من الحكام العسكريين في أثناء صراعهم لتأمين سلطتهم بتأسيس إمبراطوريات بيروقراطية أكبر وأكبر.

وقبل أن نمسح ذلك التاريخ، نتحوّل فيما يلي إلى الصين التي أنتجت فيها عمليات مماثلة من التعاون والصراع، بين جماعات أكبر كثيرا، شبكة حضرية أخرى لها سماتها المميّزة.

***

اتخذ تطوّر الصين مسارا مختلفا عن بلاد ما بين النهرين ومصر. فالعلاقات الطقوسية - السياسية - العسكرية التي أنتجت الحضارة الصينية انبثقت تدريجيا عن قرى متطوّرة أقدم لم تكن تقع في السهل الفيضي، وإنما على الهضاب الرسوبية الجاثمة فوق الامتدادات الوسطى للنهر الأصفر وعلى جانبيه. على خلاف ذلك، كانت السهول الفيضية النهرية في بلاد ما بين النهرين ومصر أراضي تخومية زراعية، ولم تكن هناك قرى سابقة الوجود عندما أطر الكهنة السومريون وبيوت الفراعنة حضارتيهما(*). بينما ظهرت في الصين في نحو العام 3000 ق. ح قرى كبيرة مسوّرة شمل بعضها مقابر مجهزة بثراء تشهد على تمايز متنام بين النخب المحلية وعامة الناس. ويكشف الخزف المصنوع على دواليب والأفران عالية الحرارة المطلوبة لصناعته عن ظهور متخصصين حرفيين، ويبدو أن العلامات التي تظهر على بضعة قدور ملونة كانت الأصل الذي تطوّرت منه رموز الكتابة الصينية.

(*) كأن الدولة في مصر وغرب آسيا سابقة في الوجود على المجتمع! [المترجم].

كانت سلطة الزعماء المحليين تقوم في البداية على احتكارهم للوصول الطقوسي إلى أرواح الأسلاف الأقوياء الذين كان الصينيون في حاجة إليهم للتدخل نيابة عنهم لدى الأرواح الأخرى التي تسيطر على الحصاد، وقد بُني تقديس أرواح الأسلاف على قرابين من المشروبات الكحولية كانت تقدم في آنية طقوسية مصنوعة من البرونز تكشف عن صنعة رائعة وتعد الأمثلة الأساسية الباقية للرسم الصيني المبكر.

لكن كما حدث في بلاد ما بين النهرين، سرعان ما اجتمع النمو السكاني والثروة المتزايدة معا لرفع وتيرة الحروب وشدتها، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى إكمال الحماية الروحية بالتعبئة العسكرية، فقامت عائلات النخب التي اعتادت إدارة العلاقات مع الأرواح بتنظيم العمل المطلوب لبناء أسوار القرى وتولي الدفاع عنها. ومع وجود الزعامة الروحية والسياسية - العسكرية في الأيدي نفسها، فإن الصين لم تعرف الاستقطاب بين الكهنة والملوك الذي ميّز بلاد ما بين النهرين.

على أن القرى الكبيرة المسوّرة لم تحتفظ باستقلالها الكامل طويلا، إذ أقام زعماء العشائر المحليون ائتلافات متغيرة عبر منطقة واسعة في شمال الصين من خلال التوافق على الاعتراف بأسبقية واحدة أو أخرى من السلالات. وتقول تقاليد أدبية لاحقة إن سلالة شيا Xia (1766 - 2205 ق. ح) كانت أول الحكام الذين لم تكن لهم صفة كهنوتية ونالوا هذه الأسبقية بين الجماعات المسوّرة في الصين. وظهرت قاعدة أقوى للسلطة السياسية - العسكرية عندما استوردت سلالة شانغ Shang (1028 - 1523 ق. ح) نظام أسلحة مكلفا، شمل الأقواس المُركّبة والدروع البرونزية والخيل والعجلات الحربية[3]. وتبيّن اكتشافات في آنيانغ Anyang، وهي آخر عاصمة للشانغيين، أن النمط الحضاري الصيني المميّز كان جليا منذ العام 1300 ق. ح، ومن ذلك تحديدا أن النقوش المحفورة على الآلاف مما يسمى عظام الوحي التي تسجل الأسئلة الطقوسية الموجّهة إلى أرواح مختلفة وغير محددة عادة، قريبة الشبه من رموز الكتابة الصينية التاريخية لدرجة أن الدارسين تمكنوا من قراءتها في الحال[*].

(*) عظام الوحي oracle bones: عبارة عن كسرات من الأصداف والعظام، عادة من أكتاف الثيران وصُدرات السلاحف، استخدمت في الصين القديمة فيما يسمى الكهانة الكتفية والكهانة الصدرية، إذ كان العرافون ينحتون على هذه الأصداف والعظام أسئلة للآلهة حول الطقس أو الحصاد أو حظوظ الأعمال العسكرية المستقبلية. تحمل هذه العظام والأصداف أقدم أبجدية صينية معروفة. [المترجم].

وحيث إن النخب القروية المحلية هي التي التأمت معا لدعم الحكومة الإمبراطورية في الصين، فإن الأرواح السلالية والسلالات المتحدرة منها ظلت في المجتمع والسياسة الصينيين أبرز منها في ممر النيل - السند الذي تكوّنت فيه المدن في بادئ الأمر بجذب أناس غرباء من أماكن بعيدة وشرع فيه الحكام الإمبراطوريون في عصور لاحقة في فرض التوازن على النخب المحلية من خلال تعيين دخلاء - عادة من ذوي الخلفية العسكرية - في مواقع السلطة البيروقراطية(*). وتحت وطأة اللقاءات العسكرية مع العالم الخارجي، قبلت الصين المبدأ البيروقراطي نفسه، لكنها فعلت ذلك من خلال تعيين موظفين من طبقة مُلاك الأراضي كانوا يُختارون جزئيا بناء على معرفتهم المتفوقة بالقراءة والكتابة.

ظهور الإمبراطورية البيروقراطية

جاءت العجلات الحربية والخيل التي اعتمد عليها الحكام الشانغيون من جنوب غرب آسيا، ما يكشف عن مشاركة الصين في الدوّامة السياسية - العسكرية التي تمركزت حول بلاد ما بين النهرين. أدت النزاعات المسلحة المدمرة المتواصلة في غرب آسيا إلى تطوير الحكم البيروقراطي الإمبراطوري في المناطق المتحضرة، وفي المقابل ظهور تحالفات عشائرية متغيرة واسعة بين الرعاة في السهل.

توالت الإمبراطوريات الأساسية على بلاد ما بين النهرين والمناطق المحيطة على النحو المبيّن في الجدول (3-1).

يحجب هذا الجدول ثلاثة معالم. أولا، انتشرت ثورة العجلات الحربية عبر أغلب أوراسيا، بدءا من المناطق الحدودية الشمالية لبلاد ما بين النهرين التي شهدت بحلول نحو العام 1700 ق. ح اكتمال تطوُّر العجلات القوية الخفيفة التي تجرها الخيل وتحمل سائقا وقوّاسا خلال المعارك. وكما حدث مع الدبابات في الحروب الأوروبية بين العامين 1918 و1945، كان للعجلات الحربية في أول ظهورها إغراء لا يقاوم لأنها

(*) على الرغم من جدة هذه الفكرة - استعانة الدولة في جنوب غرب آسيا ومصر القديمة بعناصر أجنبية في إدارتها وجيوشها - فإنها تبدو متسقة مع استعانة هذه الدول على مدى معظم تاريخها الوسيط والحديث بعناصر أجنبية شكلت جيوشها ونخبها السياسية، منهم الأتراك في الخلافة العباسية ببغداد والمماليك في مصر والشام والانكشارية في الدولة العثمانية. كأنه ميراث قديم! [المترجم].

الجدول (3-1): إمبراطوريات جنوب غرب آسيا ومصر

التاريخ قبل الحقبة المشتركة	الحكام	الأسلحة السائدة	قاعدة الإمداد
نحو 2350 (نحو 2250)	الأكديون (سرغون)	القوس المُركّب	النهب عن طريق نخبة عسكرية صغيرة
نحو 2000 – 1650	العموريون (حمورابي)	الأقواس والرماح	الضرائب، الريوع، النهب
نحو 1600 – 1200	ميتاني، الحثيون	العجلات الحربية، الأقواس، الرماح	الضرائب، الريوع، النهب
نحو 1600 – 1200	مصر: الدولة الحديثة	الأقواس، الرماح، الدروع البرونزية، العجلات الحربية	الضرائب، الريوع، النهب
نحو 1200 – 1000	دول محلية صغيرة (لا توجد إمبراطوريات كبيرة)	الدروع الحديدية، السيوف، الرماح، الأقواس	النهب
935 – 612	الآشوريون	الأقواس، الرماح، العجلات الحربية، الفرسان، منجنيقات الحصار	الضرائب، الريوع، النهب
550 - 330	الفرس	الأقواس، الرماح، الفرسان، منجنيقات الحصار، السفن الحربية	الضرائب، الريوع، النهب(*)

(*) الأكديون Akkadians: أصحاب إمبراطورية تركزت حول دولتهم المدينية أكد Akkad في وسط بلاد ما بين النهرين، حكمت بلاد ما بين النهرين والمشرق وأجزاء من إيران، بلغت أوجها بين القرنين الرابع والعشرين والثاني والعشرين قبل الحقبة المشتركة؛ العموريون Amorites: شعب سامي من سورية القديمة، حكم أجزاء كبيرة من بلاد ما بين النهرين من بداية القرن الحادي والعشرين حتى القرن السابع عشر قبل الحقبة المشتركة، من أشهر دولهم المدينية بابل؛ ميتاني Mittani: مملكة قامت بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الحقبة المشتركة، امتدت في أوجها في شمال سورية وجنوب شرق الأناضول، واحتفظت بعلاقات تحالف مع مصر، خاصة مع ظهور الحثيين؛ الحثيون Hittites: شعب أناضولي قديم أقام إمبراطورية [illegible] كزت حول عاصمتهم حتوسا Hattusa: في نحو العام 1600 ق.ح. ضمت في أوجها خلال منتصف القرن الرابع عشر قبل الحقبة المشتركة آسيا الصغرى وشمال شرق وشمال [illegible] (المترجم).



الخريطة (2-3): الإمبراطوريات القديمة في جنوب غرب آسيا ومصر

جمعت بين الحركة وقوة الإطلاق والرعب الذي تثيره مواجهة خيل منطلقة. لذلك اجتاح مستخدمو العجلات الحربية بلاد ما بين النهرين، وغزوا مصر (بعد 1678 ق. ح)، واخترقوا شمال الهند (نحو 1500 ق. ح). ووصلت العجلات الحربية إلى أراض بعيدة مثل الصين والسويد خلال بضعة قرون من اختراعها لأول مرة.

حدث تحوُّل رئيس ثانٍ عندما أطاح جنود المشاة العوام المجهزون بدروع حديدية وأسلحة رخيصة نسبيا بنخبة العجلات الحربية بعد العام 1200 ق. ح، ما أدخل المساواة في مجال الحرب وتسبب في ظهور سلسلة من الدول المحلية القائمة على المساواة محل الإمبراطوريات الكبيرة لفترة من الزمن. لكن سرعان ما أدت الصراعات المسلحة مجددا إلى ترسُّخ البيروقراطية، وسرعان ما رفعت الأسلحة الأرخص والجيوش الأكبر الإمبراطوريتين الآشورية والفارسية إلى مستوى من القوة أعلى كثيرا من أسلافهما.

بدأ تعدين الحديد في قبرص أو ربما في شرق الأناضول في نحو العام 1200 ق. ح، وانتشر أبعد كثيرا من العجلات الحربية، إذ عمَّ كل أنحاء أوروبا والهند والصين واخترق أفريقيا جنوب الصحراء بعد العام 600 ق. ح[4]. جعلت الخامات الوفيرة من الحديد معدنا رخيصا إلى حد يسَّر على الكثير من المزارعين شراء شفرات المحاريث والمعازق

والمناجل الحديدية، ما جعل زراعة التربة الطفلية الثقيلة أسهل من قبل. وللمرة الأولى، أصبح للأغلبيات الريفية مصلحة في الحفاظ على عملية التبادل التي كانت تجري في المدن والتي بفضلها واصل عمال التعدين المتخصصون وعمال صهر المعادن والتجار إمداد الحدّادين بالحديد المطلوب لصنع أدواتهم. ولم يمضِ وقت طويل إلا وأثبت الحديد وفرته وأهميته، وبدأ حدّادون متجولون في صنع الأدوات والأسلحة للجماعات الريفية في مناطق مثل شمال أوروبا وأفريقيا جنوب الصحراء، ما ساعد على تضييق الفجوة بين المناطق الخلفية البعيدة والمراكز الحضرية للشبكات الحضرية الآخذة في الاتساع. ربما ظهر شغل الحديد في أفريقيا بمعزل عن الأماكن الأخرى لأن الاكتشافات الأثرية تبيِّن أن ورش صهر الحديد كانت تستخدم هناك في نحو الأعوام 900 - 700 ق. ح، أي قبل أن يصل شغل الحديد إلى مصر.

وحدث تحوُّل ثالث خلال القرن السابع قبل الحقبة المشتركة عندما أصبح القوّاسة الراكبون كثيري العدد ومهرة بما يكفي لتغيير التوازن العسكري - السياسي في أوراسيا مرة أخرى. كانت الخيل وفيرة في السهل(*)، ولذلك عندما تعلم الرعاة كيف يحفظون توازنهم فوق ظهر الخيل وهم غير ممسكين باللجام ويستخدمون اليدين معا لإطلاق السهام من فوق خيل منطلقة (لم يكن إنجازا هينا!)، فإن سرعة الخيل وقوة تحمُّلها مكَّنتهما من تركيز قوة متفوقة أينما أرادوا. ربما تمنى فرسان الدول المتحضرة أن يلحقوا بالرعاة المغيرين أو يجاروهم في تلك المهارة، لكن شح العشب في المناطق المزروعة وارتفاع تكلفة تغذية الخيل بالحبوب جعلت الإمبراطوريات الزراعية غير قادرة إلا على حشد نخبة صغيرة من المحاربين الراكبين لمقاومة الفرسان المغيرين من السهل.

جعل ذلك من أصغر جماعات الرعاة قوة عسكرية هائلة. وفي هذه الجماعات، كان كل ذكر بالغ يعد فارسا كامنا، وكان بوسع أي قائد عسكري ناجح أن يبني بسهولة تحالفات ويجمع حوله أتباعا من كل مكان. لذلك كان أي ضعف في دفاعات الدول المتحضرة يستدعي غارات من السهل. وإذا توقفت المقاومة، فإن المغيرين الناجحين كانوا يبقون في هذه الدولة أو تلك ويستعيضون عن النهب بالريوع والضرائب ويتولون حكم المجتمعات المتحضرة.

(*) راجع حاشية سابقة حول السهل الأوراسي. [المترجم].

كانت المزايا الاستراتيجية التي تمتع بها المغيرون الآتون من السهل كافية لإطلاق حلقة سياسية شاذة في التاريخ الأوراسي دامت من العام 612 ق. ح الذي شارك فيه فرسان سكوثيون من أوكرانيا في إسقاط الإمبراطورية الآشورية، حتى العام 1644 ح. م الذي أسّس فيه فرسان من المانشو سلالة حاكمة جديدة في الصين(*). وعلى مدار القرون الفاصلة بين هذين التاريخين، تحدر معظم حكومات الدول المتحضرة في أوراسيا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من فاتحين من السهل. أما اليابان الجزيرية وأوروبا الغربية الغابية، فكانتا منعزلتين جغرافيا عن المغيرين الرعاة لمعظم الوقت، وليس كله. لكن بالقرب من التخوم بين السهل والأراضي الزراعية في الصين والشرق الأوسط والهند، ساد تناوب شاذ بين الغزو الآتي من السهل والانبعاث المحلي حتى العام 1757 الذي نجحت فيه الجيوش الصينية - بمساعدة الجدري - في تدمير آخر اتحاد قَبَلي من السهل تحدى إمبراطورية زراعية في أوراسيا (انظر الفصل السادس).

لم يكن لهذا التوازن العسكري المضطرب نظير في أي مكان آخر، وفيه واصلت التحسينات في دفاعات الدول المتحضرة الانتشار عبر أوراسيا، ومنها العجلات الحربية والفرسان. وفي المقابل وسّعت الاتحادات القَبَلية السهلية حجمها وحسّنت معداتها وتنظيمها لكي تجاري هذه الدفاعات(**). ويعد ظهور الرِكاب بعد العام 200 ح.م مثالا لسرعة انتشار التجديدات المفيدة، إذ انتشر سريعا إلى حد أن أحدا في الوقت الحاضر لا يستطيع أن يجزم بالمكان الذي صنع فيه هذا الاختراع لأول مرة. كان من نتيجة الاضطراب المتواصل عبر التخوم الرعوية - المتحضرة للسهل قرنا بعد آخر أن جعل التنظيم والمعدات العسكرية الأوراسية أقوى منها في كل الأماكن الأخرى.

غير أن المهارة العسكرية التي تمتع بها الرعاة في تاريخ أوراسيا وشمال أفريقيا استتبعت ما هو أكثر من الاضطراب السياسي والانتشار السريع لفنون الحرب، ذلك أن حركية الرعاة عزّزت الصلات التجارية، وكذلك تبادل الجراثيم والأفكار الدينية والتقنيات، إذ ربط الرعاة المراكز الزراعية معا، من شواطئ البحر الأبيض المتوسط

(*) السكوثيون Scythian: شعب بدوي إيراني عاش طوال العصور القديمة الكلاسيكية في سكيثيا Scythia في المنطقة المطابقة للسهل البونطي - القزويني بأوروبا الشرقية وأجزاء من آسيا الوسطى.
والمانشو Manchu: هم أحفاد الجورشن من بدو منشوريا، يعرفون أيضا باسم المانشو ذوي الشُرّابات الحمراء، غزوا سلالة مينغ وحكموا الصين باسم سلالة تشينغ Qing أو مانشو من العام 1644 حتى العام 1912. [المترجم].
(**) «السهلية» و«السهليون» نسبة إلى السهل الأوراسي الكبير. [المترجم].

إلى البحر الأصفر(*)، وعملوا بلا كلل على إحكام خيوط الشبكات القائمة، وأدمجوها معا في النهاية ضمن الشبكة العالمية القديمة.

أما بالنسبة إلى المجتمع المتمدن، فإن المعاناة الطويلة من الاضطرابات العسكرية - السياسية حول المركز ممثلا في بلاد ما بين النهرين بين العامين 2350 و331 ق. ح، قد دفعت ثلاثة تجديدات أساسية، هي الحكم البيروقراطي والكتابة الأبجدية والأديان العالمية النقالة.

كان المبدأ البيروقراطي يعني أن فردا - أي فرد من حيث المبدأ - يتوقع من المحيطين به أن يطيعوه لمجرد أن ملكا بعيدا فوّض إليه سلطة مَلكية. وعندما انتشر قبول هذه السلطة المفوَّضة، فإنها يسَّرت جمع الضرائب وإنفاذ القانون العام عبر مسافات طويلة، مادام الموظفون المعيَّنون مطيعين لرؤسائهم. يُطبَّق التعيين البيروقراطي في المناصب منذ زمن حمورابي (حكم 1792 - 1750 ق. ح)، وعلى الرغم من العراقيل المؤقتة والمحلية، لم تختفِ فكرة الحكم البيروقراطي وممارستها منذ ذلك الحين.

ومادام الموظفون والجنود موالين للملك البعيد، فإن القانون العام جعل اللقاءات بين الغرباء سلمية وقابلة للتنبؤ. ونالت العقود الخاصة والالتزامات العامة تعريفات عرفية وقانونية، ما سمح بتكاثر المهن المتخصصة وإشراك مزيد من البشر في شبكات التبادل. ومع تقدم التخصص، نمت المهارة والثروة بالقدر نفسه، وواصلت العملية التمدينية جذب أتباع جدد والتوسُّع إلى أراضٍ جديدة، على الرغم من الدمار المتكرر الناتج عن الحرب والتقلب المستمر في طاعة الجنود والبيروقراطيين لرؤسائهم.

ثانيا، ساعد التحسُّن في تقنية النقل والاتصال على توسيع مدى التفاعل الاجتماعي. كان على رأس هذه التجديدات الكتابة الأبجدية التي أحدثت تحوُّلا جذريا في العلاقات الاجتماعية الأقدم من خلال مساواة الأفراد أمام الإلمام بالقراءة والكتابة. ثمة اختراعات مهمة أخرى مثل تصميم صرة العجلة وبرمقها(**)، مكَّنت من ظهور العجلة الحربية، وساعدت في تحسين النقل السلمي. وبالمثل كان للطرق المعدة خصيصا للجيوش، كتلك التي شقها الآشوريون، وظيفة مزدوجة مماثلة:

(*) البحر الأصفر Yellow Sea: اسم يطلق على الجزء الشمالي من بحر الصين الشرقي. [المترجم].

(**) برمق العجلة هو الأشعة الخشبية - والمعدنية لاحقا - التي تمتد من صرة العجلة إلى محورها. [المترجم].

تجارية وعسكرية. وعلى رغم أننا لا نعرف الكثير حول التغيرات في بناء السفن، من الثابت أنها ازدادت عددا وتنوعا وسعة بعد العام 1000 ق. ح، كما يتضح من ظهور المدن التجارية الفينيقية على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط ومن اختراع قوادس حربية متخصصة(*).

كانت طرق الكتابة الجديدة أشد تأثيرا مما عداها في المجتمع الإنساني. بحلول زمن حمورابي، أصبح في مقدور الملك أن يسيطر على أقاليم بعيدة بفضل الرسائل الملَكية المرسلة مع مبعوثين خاصين إلى الموظفين المحليين. ويكشف القانون الشهير الذي نقشه حمورابي على الحجارة - من باب إعلانه وتعميمه - عن استخدام آخر للكتابة في إدارة الشؤون العامة. ولاحقا تحوّلت الكتابة المسمارية المبسطة التي استخدمها حمورابي إلى وسيط للديبلوماسية بين الإمبراطوريات المتنوعة لغويا في عصر العجلة الحربية، ومن ذلك أن علماء الآثار اكتشفوا في مصر مخبأ للوثائق الديبلوماسية المكتوبة بحروف بلاد ما بين النهرين.

وبعد نحو العام 1300 ق. ح، أدخلت الحروف الأبجدية المساواة في مجال الإلمام بالقراءة والكتابة، في الوقت نفسه الذي أدخلت فيه الأسلحة الحديدية المساواة في مجال الحرب. وقد اكتشفت كسرات فخارية مكتوبة تبيّن أن الأفراد الخاصين استخدموا الكتابة الأبجدية بانتظام لتسجيل العقود التجارية، ما يسّر التجارة بالسماح لعلاقات السوق بأن تمتد عبر الزمان والمكان على نحو أكثر يسرا وأمانا من قبل. لكن ربما تمثّل التأثير الأهم للكتابة الأبجدية في إتاحة الكتب المقدسة للجميع - من غير رجال الدين - الذين استخدموها في تطوير الأديان العالمية النقالة.

الأديان العالمية النقالة

كانت الأديان النقالة التجديد الثالث الذي أسهم في تشكيل التاريخ اللاحق للبشرية بدرجة لا تقل أهمية عن إسهام الحكم البيروقراطي والكتابة الأبجدية. كانت

(*) الفينيقيون أو الكنعانيون: شعب بحري سامي قديم غير معلوم الأصل تمركزت حضارته بين القرنين الخامس عشر والثالث قبل الحقبة المشتركة على سواحل فلسطين ولبنان وسورية الحالية، وامتدت إلى قرطاجة في تونس الحالية. القوادس جمع قادس galley وهي سفينة كبيرة ذات مجاديف كانت حتى العصر الحديث المبكر الأساس للأساطيل الحربية. [المترجم].

الأديان في السابق محلية، وكان الاعتقاد الشائع هو أن آلهة كل جماعة تحمي - وتعاقب - أولئك الذين يعبدونها فقط. لكن في وسط الغرباء أصحاب الآلهة المختلفة، كيف كان يمكن للحماية الإلهية أن تتنزل على المنفيين اليهود الذين أبعدهم نبوخذ نصر إلى بابل بعد أن استولى على أورشليم ودمر معبدهم في العام 586 ق. ح؟ اعتمد المنفيون على مجموعة معقدة من الكتب المقدسة لبناء نوع جديد تماما من الدين، يقوم على لقاءات أسبوعية يجتمع فيها الرجال والنساء لسماع تفسيرات مرجعية لإرادة الله كما تتكشّف في الكتابات المقدسة. وحيث إن كهنة أورشليم اختفوا مع المعبد، فقد حلّ محلهم المعلمون المعروفون باسم الأحبار الذين استمدّوا سلطتهم من مهارتهم في التوفيق بين القطع المتعارضة في الكتاب المقدس.

تمكن هؤلاء الأحبار بفضل دراسة الكتب المقدسة وتأملها مليا من بناء شرعة سلوكية للجماعة المنفية حافظت على الروح المعنوية لدى اليهود المنفيين وعلى تميّزهم عن المحيطين بهم. ومن خلال التأكيد على أن أحدا من البشر لا يفلت من قدرة الله، وأن هذه القدرة استخدمت ملوكا أقوياء مثل نبوخذ نصر لعقاب الجماعة اليهودية على ذنوبها، ولاحقا عاقبت نبوخذ نصر على ذنوبه بالجنون، قدم أحبار بابل العون لسلسلة من الأنبياء - أشعياء ونحميا وعزرا - ما حوّل اليهودية إلى دين توحيدي تماما. ويشهد بقاء اليهودية منذ ذلك الحين على قدرتها على توجيه المؤمنين ودعمهم أينما عاشوا ومهما كانت المحن التي واجهوها.

وفي نحو القرن السادس قبل الحقبة المشتركة، دشّنت تعاليم رجل يدعى زرادشت - ربما في مكان ما من الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الفارسية - دينا عالميا آخر اعتمد أيضا على مرجعية الكتاب المقدس. وعلى الرغم من رعاية الدولة لهذا الدين في عهد الملك داريوس (حكم 522 - 486 ق.ح)، أو ربما بسبب هذه الرعاية، لم يؤمّن أتباع زرادشت قاعدة شعبية كما فعلت اليهودية، ولذلك لم ينتشر دينهم على نطاق واسع، مع أن البارسيين Parsees في الهند لايزالون حتى اليوم يقدسون زرادشت لأنه مؤسس دينهم.

كانت اليهودية والزرادشتية دينين نقالين وعالميين يعبدان إلها عادلا صارما تغطي قدرته الأرض كلها، واعتمدا على كتب مقدسة حددت السلوك الأخلاقي لأتباعهما، وتميزا عن الأديان السابقة بالدعم المتبادل بين الأتباع والسلوك المسالم مع الغرباء.

تجارية وعسكرية. وعلى رغم أننا لا نعرف الكثير حول التغيرات في بناء السفن، من الثابت أنها ازدادت عددا وتنوعا وسعة بعد العام 1000 ق. ح، كما يتضح من ظهور المدن التجارية الفينيقية على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط ومن اختراع قوادس حربية متخصصة(*).

كانت طرق الكتابة الجديدة أشد تأثيرا مما عداها في المجتمع الإنساني. بحلول زمن حمورابي، أصبح في مقدور الملك أن يسيطر على أقاليم بعيدة بفضل الرسائل المَلكية المرسلة مع مبعوثين خاصين إلى الموظفين المحليين. ويكشف القانون الشهير الذي نقشه حمورابي على الحجارة - من باب إعلانه وتعميمه - عن استخدام آخر للكتابة في إدارة الشؤون العامة. ولاحقا تحوّلت الكتابة المسمارية المبسطة التي استخدمها حمورابي إلى وسيط للديبلوماسية بين الإمبراطوريات المتنوعة لغويا في عصر العجلة الحربية، ومن ذلك أن علماء الآثار اكتشفوا في مصر مخبأ للوثائق الديبلوماسية المكتوبة بحروف بلاد ما بين النهرين.

وبعد نحو العام 1300 ق. ح، أدخلت الحروف الأبجدية المساواة في مجال الإلمام بالقراءة والكتابة، في الوقت نفسه الذي أدخلت فيه الأسلحة الحديدية المساواة في مجال الحرب. وقد اكتشفت كسرات فخارية مكتوبة تبيِّن أن الأفراد الخاصين استخدموا الكتابة الأبجدية بانتظام لتسجيل العقود التجارية، ما يسَّر التجارة بالسماح لعلاقات السوق بأن تمتد عبر الزمان والمكان على نحو أكثر يسرا وأمانا من قبل. لكن ربما تمثَّل التأثير الأهم للكتابة الأبجدية في إتاحة الكتب المقدسة للجميع - من غير رجال الدين - الذين استخدموها في تطوير الأديان العالمية النقالة.

الأديان العالمية النقالة

كانت الأديان النقالة التجديد الثالث الذي أسهم في تشكيل التاريخ اللاحق للبشرية بدرجة لا تقل أهمية عن إسهام الحكم البيروقراطي والكتابة الأبجدية. كانت

(*) الفينيقيون أو الكنعانيون: شعب بحري سامي قديم غير معلوم الأصل تمركزت حضارته بين القرنين الخامس عشر والثالث قبل الحقبة المشتركة على سواحل فلسطين ولبنان وسورية الحالية، وامتدت إلى قرطاجة في تونس الحالية. القوادس جمع قادس galley وهي سفينة كبيرة ذات مجاديف كانت حتى العصر الحديث المبكر الأساس للأساطيل الحربية. [المترجم].

الأديان في السابق محلية، وكان الاعتقاد الشائع هو أن آلهة كل جماعة تحمي - وتعاقب - أولئك الذين يعبدونها فقط. لكن في وسط الغرباء أصحاب الآلهة المختلفة، كيف كان يمكن للحماية الإلهية أن تتنزل على المنفيين اليهود الذين أبعدهم نبوخذ نصر إلى بابل بعد أن استولى على أورشليم ودمر معبدهم في العام 586 ق. ح؟ اعتمد المنفيون على مجموعة معقدة من الكتب المقدسة لبناء نوع جديد تماما من الدين، يقوم على لقاءات أسبوعية يجتمع فيها الرجال والنساء لسماع تفسيرات مرجعية لإرادة الله كما تتكشّف في الكتابات المقدسة. وحيث إن كهنة أورشليم اختفوا مع المعبد، فقد حلّ محلهم المعلمون المعروفون باسم الأحبار الذين استمدُّوا سلطتهم من مهارتهم في التوفيق بين القطع المتعارضة في الكتاب المقدس.

تمكن هؤلاء الأحبار بفضل دراسة الكتب المقدسة وتأملها مليا من بناء شرعة سلوكية للجماعة المنفية حافظت على الروح المعنوية لدى اليهود المنفيين وعلى تميّزهم عن المحيطين بهم. ومن خلال التأكيد على أن أحدا من البشر لا يفلت من قدرة الله، وأن هذه القدرة استخدمت ملوكا أقوياء مثل نبوخذ نصر لعقاب الجماعة اليهودية على ذنوبها، ولاحقا عاقبت نبوخذ نصر على ذنوبه بالجنون، قدم أحبار بابل العون لسلسلة من الأنبياء - أشعياء ونحميا وعزرا - ما حوّل اليهودية إلى دين توحيدي تماما. ويشهد بقاء اليهودية منذ ذلك الحين على قدرتها على توجيه المؤمنين ودعمهم أينما عاشوا ومهما كانت المحن التي واجهوها.

وفي نحو القرن السادس قبل الحقبة المشتركة، دشّنت تعاليم رجل يدعى زرادشت - ربما في مكان ما من الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الفارسية - دينا عالميا آخر اعتمد أيضا على مرجعية الكتاب المقدس. وعلى الرغم من رعاية الدولة لهذا الدين في عهد الملك داريوس (حكم 522 - 486 ق.ح)، أو ربما بسبب هذه الرعاية، لم يؤمّن أتباع زرادشت قاعدة شعبية كما فعلت اليهودية، ولذلك لم ينتشر دينهم على نطاق واسع، مع أن البارسيين Parsees في الهند لايزالون حتى اليوم يقدسون زرادشت لأنه مؤسس دينهم.

كانت اليهودية والزرادشتية دينين نقالين وعالميين يعبدان إلها عادلا صارما تغطي قدرته الأرض كلها، واعتمدا على كتب مقدسة حددت السلوك الأخلاقي لأتباعهما، وتميزا عن الأديان السابقة بالدعم المتبادل بين الأتباع والسلوك المسالم مع الغرباء.

وخلال القرون التالية، وجدت الجماعات الحضرية، لاسيما الفقراء والمهمشين، أن التوجيه الديني المرجعي والعقيدة المشتركة والدعم المتبادل بين جماعة المؤمنين يمكن أن يعوّضهم عن فقدان العلاقات الحميمية التي ميّزت وجودهم في القرية التي ظلت الأغلبية الريفية تعيش فيها، وأن يعطي معنى وقيمة للحياة اليومية، على الرغم من الاحتكاك اليومي مع غرباء غير مهتمين. وبدورها، دعمت هذه الجماعات الدينية استقرار المجتمع الحضري بجعل الأفراد أكثر تقبلا للتفاوت والقلق المتأصلين فيه.

لم يأتِ تجديد آخر يفوق الإدارة البيروقراطية والكتابة الأبجدية والأديان العالمية النقالة كأدوات لدعم المجتمعات المتحضرة، وتعد إجمالا أهم التجديدات التي انبثقت بين شعوب جنوب غرب آسيا القديم بين العامين 2350 و331 ق. ح. أسهمت هذه التجديدات الثلاثة جميعها في دعم وتكثيف الشبكة الحضرية التي زادت من قوة الحضارة وساعدت في الوقت نفسه في تلطيف العلاقات بين الشعوب المتنوعة المنضوية ضمنها.

***

هناك ثلاثة مراكز سكانية أخرى - في الهند والصين وحول شواطئ البحر الأبيض المتوسط - كانت لكل منها اتصالات مهمة مع المركز الأساس للمجتمع المتحضر الواقع في بلاد ما بين النهرين وحولها، أُخضِع ثلاثتها بحلول العام 200 ح. م لحكم إمبراطوري بيروقراطي من النوع الذي اُبتكر في منطقة بلاد ما بين النهرين، لكن ظلت الاختلافات المحلية شديدة وتستحق شيئا من الاهتمام.

الحضارة الهندية

هُجرت موهنجو دارو وهَرَبّا وغيرها من المدن السندية في نحو العام 1500 ق. ح، وهو الوقت نفسه تقريبا الذي غزا فيه إيران مستخدمو العجلات الحربية الآريون الذين توسّعوا خلال السهل، وربما وصلوا شمال الهند. غير أن أحدا لا يعرف ما حدث تحديدا، فالهجوم العسكري - إن حدث - لم يترك أثرا واضحا، وربما يرجع الانهيار الحضري السندي إلى فرار الفلاحين من الضرائب الباهظة أو انتشار الملاريا أو الفيضانات أو الجفاف أو التغير المناخي أو تراجع غير مدوّن في الإيمان بالسلطة الدينية لحكام السند. لكن من المؤكد أن المحاربين الآريين جاءوا من الشمال

وجلبوا معهم لغة جديدة وأفكارا وممارسات دينية جديدة، في حين اختفت الكتابة والمهارات الحرفية السندية المتخصصة. ربما أدى لقاء الآريين مع الشعوب الأهلية داكنة البشرة إلى ظهور الطبقات الوراثية، لكن لايزال الغموض يكتنف الطريقة التي حدث بها ذلك، لأنه لم يدون[5]. ربما كان نظام الطبقات موجودا بالفعل بين الجماعات السندية وأن الآريين - بوصفهم قادمين جددا متغلبين - تبنوا نظاما اجتماعيا أقدم فقط، كما فعل الفاتحون اللاحقون للهند.

ثمة شيء واحد مؤكد هو نظام الطبقات الذي أصبح سمة مميّزة للمجتمع الهندي، وهو نظام قام على وضع الناس في مجموعات مميّزة بناء على الولادة والمهنة. وأصبح الهنود في النهاية يعتبرون هويات الطبقات ضرورية ومنصفة، لأنهم كانوا يعتقدون أن كل فرد يولد من جديد في أعلى أو أسفل تراتبية الوجود تأسيسا على الكارما karma التي أظهرها، وهي مدى إذعان كل روح إنسانية أعيد تجسيدها للأدوار التي كانت تناسب طبقتها. وأصبح الإيمان بالتناسخ طريقة لتفسير الظلم والجور في المجتمع المتحضر، إذ من خلال الإذعان لقواعد الطبقة، تضمن الروح التي ولدت في طبقة دنيا أن تولد من جديد في طبقة أعلى، بينما يؤدي خرق قواعد الطبقة إلى إعادة الولادة في طبقة أدنى على تراتبية الطبقات، وبذلك يحصل كل إنسان على ما يستحقه.

كان الاتصال مع الطبقات الأخرى محدودا بسبب أفكار التلوث الطقوسي، وحيث إن الزواج كان محصورا بصرامة داخل أبناء الطبقة، فإن هذا النظام كان يعيد إنتاج نفسه. كان الآتون الجدد ينتمون آليا إلى طبقة أخرى، ببساطة لأن الجماعات الأقدم عاملوهم على هذا النحو. واليوم تضم الهند نحو خمسة وعشرين ألف طبقة فرعية تندرج على نحو فضفاض ضمن نحو ثلاثة آلاف طبقة، تصنف جميعها ضمن أربع طبقات متمايزة تسمى فارنات varnas، تقابل نظريا: الكهنة والمحاربين والتجار والعامة أو العمال(*). لكن على أرض الواقع، لا تتطابق المهن الفعلية عادة مع الطبقة الموروثة.

(*) يضم نظام الطبقات caste system الهندي أربع طبقات، هي من الأعلى إلى الأدنى: البراهمة brahmins، الذين خلقهم الإله برهما من وجهه؛ ولذلك يعدون السادة الفكريين والدينيين الأطهار، والكشترية kshatriyas، الذين خلقهم من ذراعيه؛ ولذلك خصصت لهم مهن القوة والبأس كالحكام والمحاربين، والويش vaishyas، الذين خلقهم من فخذيه؛ ولذلك يجب عليهم أن يحصّلوا أرزاقهم بعرقهم من تربية الماشية، والشودرا shudras الذين خلقهم من قدميه؛ وهم بذلك أقرب إلى وضعية العبيد. وخارج هذه الطبقات، يوجد المنبوذون أو الدلت Dalit كما يطلقون على أنفسهم، الذين لا يُعرف مما خلقوا وهم في الأغلب سكان الهند الأصليون. [المترجم].

عادت المدن والدول إلى الظهور في الهند بعد نحو العام 700 ق. ح، لكنها تمركزت هذه المرة في وادي الغانج الأكثر مطرا، اعتمادا على الأرز أكثر من القمح والشعير اللذين اعتمد عليهما المزارعون السنديون. ربما ساعد تعدين الحديد الذي جاءهم من إيران في تحفيز النمو الجديد، لأن الأدوات الحديد جعلت إزالة الغابات أيسر من قبل. وربما أسهم في هذا النمو السرغوم والدخن- المحصولان الأفريقيان المتكيفان مع الظروف الجافة - اللذان وصلا إلى الهند في نحو العام 1000 ق. ح. ومع وصول الأدوات الجديدة والمحاصيل الجديدة من أماكن بعيدة، أصبح سكان شمال الهند قادرين على استغلال الأراضي الرطبة والجافة بكفاءة.

على الرغم من هذه الاستعارات، فإن الحضارة الهندية المنبعثة من جديد شقّت طريقها المميّز منذ البداية. وعلى رغم أن تنظيم المجتمع حول هويات الطبقات الموروثة لم يطبق إلا بعد أن أنجزت الهندوسية نزرا يسيرا من التحديد المذهبي بعد العام 200 ح. م، فإن فكرة التناسخ الأساسية ربما ترجع إلى حضارة وادي السند. وعندما ساعدت عودة ظهور المدن والدول على التراب الهندي في تقوية التقسيم الطبقي من جديد، كانت هذه الفكرة القديمة متاحة لتبرير مبدأ الطبقية وتعزيزه.

ثمة سمة مميّزة أخرى للحضارة المنبثقة من جديد في الهند، هي التبجيل الذي ناله الزهّاد الذين أعطتهم خبرات النشوة وصولا إلى العالم الروحي المتجاوز. كانت اللقاءات اليومية مع العالم المادي في نظرهم تافهة ورخيصة مقارنة بتلك النشوة، وفي النهاية أثرت أساليب بلوغ النشوة الباطنية، كما تطوّرت بين الزهّاد الهنود، في الممارسات الدينية في معظم بقية العالم. وبلغ نمط الحياة الزاهدة تعريفا مؤسسيا باقيا بين أتباع غوتاما بوذا (توفي نحو 483 ق. ح.)، الذين تكاثرت جماعاتهم الرهبانية بعد ذلك عبر جنوب آسيا وشرقها. تخصص الرهبان البوذيون في القداسة، وسرعان ما استحثّوا تبجيلا واسعا بين العامة، ثم طوّر الرهبان والكافة طقوسا ووتيرة للتقوى ملائمة لأدوارهما المتمايزة، وكما كانت الحال مع الدينين العالميين الجديدين في جنوب غرب آسيا، كانت المذاهب والممارسات البوذية الناتجة صالحة لكل مكان ومتاحة لأي إنسان يتقبلها.

وعلى رغم أن البوذيين كانوا يسعون إلى تحرير أنفسهم من المعاناة المتأصلة في الوجود الجسماني من خلال محق الذات وبلوغ النيرفانا(*)، فإن الرهبان كانوا يبنون يوميا جماعات من إخوة الدين، كانت أوسع كثيرا من الجماعات التي بناها اليهود في بابل، وفي الوقت نفسه كانت التزامات الكافة البوذيين أقل من تلك التي رعاها اليهود. وهذا الجمع بين الصرامة الأشد على المتدينين المتطوعين المنقطعين والصرامة الأخف على الكافة جعل البوذية من أكثر الأديان التبشيرية انتشارا على مدار الألفية التالية. ولاحقا قلد الرهبان المسيحيون النمط البوذي بداية من نحو العام 200 ح. م. وعندما ظهر الإسلام على الساحة، كان من الأسباب التي جعلته ينافس البوذية في سعة الانتشار اعتباره الانقطاع للعبادة - أو ما يسمى الزهد - أمرا اختياريا يؤجر فاعله ولا يأثم تاركه، فاقتصرت ممارسته على قلة من الناس سُموا «الدراويش»، وكان لعامة الناس الخيار في تركه. لذلك تحولت الأديرة على النمط البوذي المحاطة بكافةٍ داعمين إلى ابتكار مؤسسي لا يقل أهمية عن الأديان العالمية النقّالة في التقاليد اليهودية - المسيحية - الإسلامية؛ وكما في الأديان الثلاثة، استجاب أتباع البوذية لتعاليمها الداعية إلى تقبل المحن والمشاق الناتجة من الدخول في الشبكة العالمية القديمة.

وفي مقابل هذا التميُّز الديني، كان تأثير بلاد ما بين النهرين وما حولها جليا في الصراع بين المدن الهندية والحكام الهنود وفي نسخ مفهوم الحكم الإمبراطوري البيروقراطي البازغ. كانت السلالة الماورية Maurya (نحو 321 - 184 ق. ح.) أول سلالة تسيطر على شمال الهند كله، لكن الحكام الهنود وجدوا صعوبة في مقاومة المغيرين من آسيا الوسطى، بالدرجة الأولى لأن الحكام باعتبارهم طبقة واحدة بين طبقات كثيرة لم يتمتعوا بولاء كافٍ بين بقية السكان، علاوة على أن الخيل لم تكن كثيرة في الهند، ما يسّر على الفرسان الغزاة تركيز قوة متفوقة ضد المدافعين قليلي الخيل. لذلك فرض المغيرون الناجحون الذين أقبلوا من الشمال أنفسهم مرة بعد أخرى حكاما للهند كلها أو لأجزاء منها على مدار القرون التالية.

وبفضل انتشار الرهبانية البوذية، كان التأثير الهندي بين الشعوب الأوراسية الأخرى دينيا بالدرجة الأولى وتجاريا بدرجة أقل. فبعد بداية الحقبة المشتركة

(*) يشير مفهوم النيرفانا Nirvana في البوذية إلى حالة الخلو من المعاناة أو «الانطفاء الكامل» التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق. [المترجم].

مباشرة، حققت بعض المنتجات الهندية - لاسيما الأقمشة القطنية والفلفل - انتشارا واسعا في الخارج عن طريق البر والبحر، وأدّى التجار المتمركزون في الهند دورا كبيرا في تحفيز ظهور الدول المحلية والحضارات في جنوب شرق آسيا، إذ نقلت ثقافات البلاط في جاوة وكمبوديا وجيرانهما عن الهند بالدرجة الأولى، مع أن الأفكار والممارسات المحلية جعلت كل دولة وشعب مختلفين من حيث التفاصيل عن غيرهما. وأدّت الممارسات البوذية دورا مهما في تتجير المجتمع الصيني بعد نحو العام 700 ح. م، كما سيأتي في الفصل التالي(*).

الحضارة الصينية

كما حدث في الهند، طوّرت الصين نمطها الحضاري المميّز بين العامين 1500 ق. ح. و200 ح. م، وظلت في الوقت عينه تتلقى تحفيزا مهما من غرب آسيا ومن السهل، إذ غدت الصلات مع تخومها الغربية أقوى خلال الألفية الأولى قبل الحقبة المشتركة، عندما اجتمعت الشهية الصينية لليشب من خوتان والمناطق المجاورة في آسيا الوسطى مع طلب بلاد ما بين النهرين للازورد من إيران وأفغانستان(**)، ما أوجد حزام نقل هزيلا يمتد عبر القارة الأوراسية. وعندما تعلم سكان الواحات والسهل إنتاج سلع الترف من هذا النوع للأسواق الحضرية البعيدة، شكّلت الشبكات الحضرية في شرق آسيا وممر النيل - السند حلقة مشتركة. وكما كانت الحال في السابق، ظلت التغيرات في التقنية العسكرية تؤدي دورا مهما، ومن ذلك أنه عندما بدأت حرب الفرسان تظهر عبر التخوم الصينية في نحو العام 350 ق. ح، فإنها سرعان ما جلبت إلى السلطة في الصين سلالة مُعَسْكَرة أكثر مركزية، كما فعلت العجلات الحربية قبل ألف عام.

توفر النصوص الأدبية الصينية سجلا سياسيا مفصلا لا يعتريه الغموض الذي يخيم على التاريخ الهندي المبكر. توضح هذه السجلات أنه في عهـــد

(*) تتجير commercializing المجتمع أو الاقتصاد يعني تحويله إلى التجارة عموما أو إشراكه في عملية التجارة. [المترجم].

(**) خوتان Khotan: مدينة - واحة رئيسة في جنوب غرب الإقليم الصيني سنجان (شينجيانغ Xinjiang أو تركستان الشرقية كما يسميها أهلها)، كانت مملكة مهمة ومحطة على الفرع من طريق الحرير الممتد على طول الحافة الجنوبية لصحراء تكلامكان في حوض تاريم. [المترجم].

سلالة تشو Zhou (حكمت نحو 1122 - 256 ق. ح.)، أشرف مُلاك الأراضي والأمراء على أعمال الحواجز النهرية والصرف الواسعة التي كانت مطلوبة لإدخال السهل الفيضي الواسع للنهر الأصفر في الزراعة لأول مرة. ومع نهاية عصر هذه السلالة، كانت رقعة من الحقول الخصبة قد امتدت عبر ذلك السهل الفيضي، عند امتداداتها الدنيا كان النهر الأصفر يبدأ في التدفق فوق مستوى الأرض محصورا بين رواب اصطناعية. وعلى الامتدادات الرسوبية المرتفعة، ظل الدخن والقمح يزرعان في حقول تُروى بالمطر كما كانت الحال في السابق، لكنهما أصبحا أقل أهمية من المحاصيل التي صارت تنتج في الأراضي المنخفضة الخصبة الجديدة.

أحدث هذا المشروع الهندسي الهائل تحوُّلا عميقا في المجتمع والسياسة الصينيين، وإن لم يُتَنَكَّر لفكرة الخضوع - الطقوسي بالدرجة الأولى - لأباطرة سلالة تشو. ربما كان مُلاك أراضٍ محليون رياديون هم الذين بدأوا استصلاح السهل الفيضي، لكن الهندسة المائية واسعة النطاق كانت في حاجة إلى أمراء إقليميين لتنظيمها، ثم أصبح هؤلاء الأمراء الحكام الفعليين للأراضي المستصلحة، لم يكن يربطهم بالمركز إلا السيادة الاسمية. لذلك اندلعت بينهم لاحقا نزاعات مسلحة، تصاعدت كثافتها إلى أن غزا أمير من إحدى المناطق الحدودية كل الدول المتحاربة في الصين في العام 221 ق. ح، لكن قسوته أثارت مقاومة شديدة، ما جعل السلالة الجديدة لا تدوم طويلا. وبعد وقت قصير من موته، تفشّت فترة أخرى من الحروب قبل أن تحقق الصين نظاما سياسيا واجتماعيا أكثر استقرارا في عهد سلالة هان Han (حكمت 202 ق. ح - 221 ح. م.).

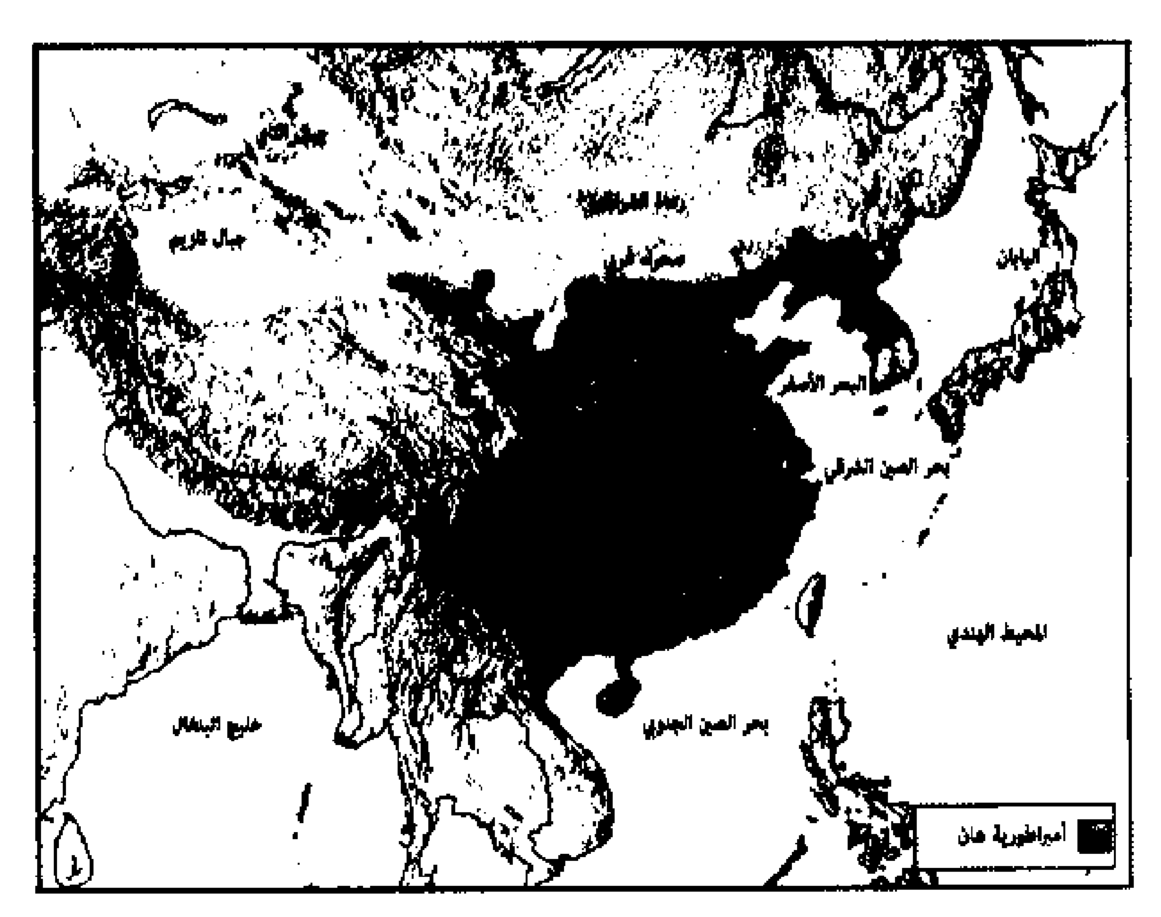
كما كانت الحال في الهند، جاء هذا السجل السياسي شبيها بالاضطرابات العسكرية التي ثارت حول بلاد ما بين النهرين، بل أحدث نتيجة مماثلة، هي تأسيس حكومة بيروقراطية إمبراطورية. لكن المجتمع والبيروقراطية الصينيين قاما على أسس مختلفة وأكثر صلابة. فقد أوجدت الحواجز النهرية والقنوات التي شُيِّدت للسيطرة على الفيضان، شبكة من الممرات المائية الصالحة للملاحة، امتدت خلال الأراضي الزراعية الأكثر إنتاجية في أرجاء البلاد جميعها، ما مكّن الدولة من استخدام مراكب القنوات لتركيز دخل الضرائب - التي كانت تجمع في بادئ الأمر في شكل سلع - في البلاط الإمبراطوري.

كان للإنجاز الفكري دور مهم في دعم استقرار الحكومة الإمبراطورية، وهو الدور الذي مارسه كونفوشيوس[6] (551 - 479 ق. ح.) الذي عاش في وقت اضطراب سياسي، ولذلك استحضر في تعاليمه حول الطريقة الصحيحة للحياة مثالا لماضٍ أكثر استقرارا، حين قال إن الرجال المحترمين يجب أن يحتفظوا بعلاقات جيدة مع الأرواح من خلال التصرف باللياقة الواجبة في كل من حياتهم الخاصة والوظيفة الإمبراطورية. وسرعان ما جمع أتباعه هذه التعاليم وصنفوها، وجمعوا كتابات قديمة مبجلة مع مجموعة من المأثورات التي تنسب إلى كونفوشيوس نفسه. وفي عهد الهانيين، أصبحت الدراسة المدققة لهذه الكلاسيكيات من سجايا الرجل المتعلم ومؤهِّلا لشغل الوظائف. ومع الوقت، أدى التعلم من كتب مشتركة، والتطلع الأخلاقي الذي تشكّل بالدرجة الأولى في قالب كونفوشي، إلى توحيد طبقة مُلاك الأراضي الصينية في طاعة الإمبراطور بالكفاءة نفسها التي وحّدت بها مراكب القنوات الاقتصاد الإمبراطوري.

وفي المقابل، لم تجد الصين حلا دائما لمشكلة التصدي للمغيرين المقبلين من السهل. وكما جاء في موضع سابق، فإن حرب الفرسان ظهرت على التخوم الشمالية الغربية للصين في نحو العام 350 ق. ح. وكانت دولة شيان Xian الحدودية أول من تحمّل وطأة تنظيم المقاومة ضد المغيرين السهليين من خلال تجهيز المشاة بالنشّابيات - كانت حينذاك اختراعا صينيا جديدا - وحشد - أو استئجار- قوة فرسان تابعة لها(*). غير أن الاحتفاظ بقوة فرسان كبيرة في الصين كان أمرا مكلفا، لأنه في حال عدم توافر العشب، كان الحصان الواحد يأكل من الحبوب ما يأكله أكثر من عشرة أشخاص. تمثّل الحل الذي تفتق عنه ذهن أول إمبراطور صيني لإبعاد خيّالة السهل في الشروع في بناء أسوار دفاعية على الحدود الشمالية. لكن ذلك لم يحقق النتيجة المطلوبة، لأن منع المغيرين الراكبين من عبور السور كان يستلزم تمركز حاميات كبيرة من النشّابة على طول السور، وكان الاحتفاظ بهذه القوة على السور والإتيان بالقوّاسة بالسرعة الكافية إلى الموقع المهدد مهمة صعبة دائما. لذلك كان استئجار فرسان السهل القريبين لحراسة الممرات الموصّلة إلى الصين

(*) النشّابية crossbow: نوع قديم من الأقواس القاذفة. [المترجم].

بديلا أرخص. لكن هذا البديل كان عرضة للفشل متى قرر هؤلاء الحراس الانضمام إلى المغيرين على الريف الصيني.



الخريطة (3 - 3): الإمبراطورية الهانية في نحو العام 1 ح. م.

أما على التخوم الأخرى، فقد نجحت سلطة الدولة الصينية في التوسّع بسهولة نسبيا، مدعومة بالنمو السكاني المتواصل والتجديد الزراعي الدائم، لاسيما في الجنوب. وعلى رغم أن وادي اليانغتسي ظل قليل السكان في الأزمان الهانية، ربما لأن مناخه الأكثر دفئا ومطرا جعل المهاجرين من الشمال عرضة لأمراض مهلكة، فإن الحكام الهانيين وطّدوا سيطرتهم على معظم وادي اليانغتسي ومعظم جنوب الصين، وزادوا على ذلك احتلالا عسكريا ضعيفا لمعظم واحات حوض تاريم. لكن ذلك زاد من ضعف الإمبراطورية أمام المغيرين السهليين.

وعندما علم الإمبراطور وودي Wudi ‏(140 - 87 ق. ح.) أنه كانت توجد بعيدا إلى الغرب سلالة خاصة من الخيل «التي تتعرق دما» تحمل رجالا تحميهم

دروعهم الثقيلة من السهام، أرسل حملة لكي تأتيه بهذه الآلة الحربية الواعدة الجديدة(*). عادت في العام 101 ق. ح من وادي فرغانة - في أوزبكستان الحالية - ببعض هذه الخيل والبرسيم الذي تتغذى عليه. لكن اتضح أن إطعام الخيل الضخمة في الأراضي الصينية كان مكلفا، حتى إن الصين لم تحتفظ قط بقوات كبيرة من الفرسان المدرعين.

لكن بعد أن عرفت حملة الإمبراطور وودي الطريق، لم تتوقف تجارة القوافل المنظمة والاتصال المباشر بين الصين وغرب آسيا لمدة طويلة. وما كان في السابق اتصالا غير مباشر ومتقطعا فقط بين المراكز المنفصلة للشبكة الأوراسية المتنامية، أصبح اتصالا متواصلا. فأخذت الأفكار والتقنيات والأمراض والمحاصيل وغيرها من التجديدات تتدفق على نحو متواصل عبر السهول العشبية لآسيا الوسطى وصحاريها، وكذلك عبر البحار الموسمية قبالة السواحل الجنوبية لآسيا. رسّخ ذلك الشبكة العالمية القديمة، ودشّن حقبة جديدة في التاريخ العالمي. لكن قبل تقصي هذه الحقبة، يجب أن نلقي نظرة إلى ما حدث حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط خلال القرون التي كانت الحضارتان الهندية والصينية تتخذان خلالها شكليهما الكلاسيكيين.

الحضارة اليونانية والرومانية

حتى قبل العام 3500 ق. ح الذي بدأت فيه المراكب الشراعية تقطع شرق البحر الأبيض المتوسط جيئة وذهابا، كانت الجماعات التي عاشت بالقرب من الشريط الساحلي تتواصل معا بسهولة باستخدام القوارب، ما يعني أنه عندما ظهرت المجتمعات المتحضرة في مصر وسورية، فإن تأثيرها انتقل سريعا إلى غيرها من جماعات البحر الأبيض المتوسط. من ذلك أن المجتمع المينوسي بقصوره ومعابده في كنوسوس وفيستوس الواقعتين على جزيرة كريت (نحو2100 - 1400 ق. ح.) كان قريبا ريفيـــا لمصر

(*) كانت خيل فرغانة Ferghana horses أحد الواردات الصينية المبكرة من آسيا الوسطى، إذ قطع جيش صيني قبل أكثر من ألفي عام عشرة آلاف كيلومتر بحثا عن «الخيل السماوية» التي أطلق عليها الصينيون اسم الخيل «التي تتعرق دما» blood-sweating horses، وذلك بسبب عرقها الدموي الناتج إما من تفجر أوعيتها الدموية الدقيقة الواقعة تحت الجلد بعد أن يقطع الحيوان رحلة طويلة، وإما من طفيليات ماصة للدم في جلدها أو دودة دقيقة كانت تجعلها تتعرق دما. [المترجم].

الفرعونية(*). فجزيرة كريت المختلفة في النمط الفني وفي الدين وفي اعتمادها على تجارة ما وراء البحار، كانت تشبه مصر في تركز الموارد في يد حاكم مقدس ربما سيطر على الإبحار الخارجي، تماما كما سيطر الفرعون على مراكب النيل التي قامت عليها سلطته.

وبالمثل، كان محاربو العصر البرونزي في ميكناي، الواقعة على البر اليوناني، الذين ازدهروا بعد نحو العام 1400 ق. ح.(**)، قريبين في الشبه من الطبقة الأرستقراطية المعاصرة التي احترفت الحرب بالعجلات الحربية في الإمبراطوريتين الحثية والميتانية. لكن في حالة ميكناي، كانت السفن من النوع الذي حمل محاربي أغاممنون إلى طروادة أهم من العجلات الحربية لكل من الإغارة والتجارة(***). وعندما اجتاح الغزاة الدوريون المسلحون بالأسلحة والأدوات الحديدية اليونان في نحو العام 1100 ق. ح.(****)، جاء ما تلا ذلك من هجرات وتجزؤ سياسي شبيها تماما بالتغيرات السياسية المعاصرة في جنوب غرب آسيا.

اجتازت الحياة العامة اليونانية تحوُّلا مميّزا عندما انتعشت المدن والحضارة حول بحر إيجة بعد نحو العام 800 ق. ح. فهناك نما السكان والثروة والتجارة، وبدأ المجتمع اليوناني ينقسم إلى أغنياء وفقراء، وكان الاستقطاب المألوف في جنوب غرب آسيا بين نخبة حاكمة من متلقي الريوع والضرائب ودافعي الضرائب والريوع الفقراء على وشك الظهور، لكن بدلا من تلك النهاية، ابتكر اليونانيون لأنفسهم مؤسسة أساسية جديدة، هي البوليس، من خلال الجمع بين الأفكار القديمة حول العدالة وطرق جديدة للدفاع عن أنفسهم ضد الهجوم الخارجي(†).

(*) يوجد الموقعان الأثريان كنوسوس Knossos وفيستوس Phaistos على جزيرة كريت ويعدان أقدم المدن الأوروبية. [المترجم].

(**) ميكناي Mycenae: موقع أثري في شمال شرق شبه جزيرة بيلوبونيز اليونانية. كان في الألفية الثانية قبل الحقبة المشتركة أحد المراكز الرئيسة لحضارة اليونان، وإليه ينسب التاريخ اليوناني بين نحو العامين 1600 و1100 ق. ح: اليونان الميكناوية. [المترجم].

(***) في الميثولوجيا اليونانية، قاد أغاممنون Agamemnon الحملة العسكرية التي استعادت هلين زوجة أخيه الملك مينلاوس من طروادة عبر الحرب والحصان الخشبي الشهيرين اللذين حملا اسم هذه المدينة. [المترجم].

(****) الدوريون Dorians: إحدى الجماعات الإثنية الأربع الرئيسة التي صنف الهلينيون أنفسهم إليها خلال حقبة اليونان الكلاسيكية، والجماعات الثلاث الأخرى هي الأيليون Aeolians والآخيون Achaeans والأيونيون Ionians. [المترجم].

(†) البوليس Polis: في اللغة اليونانية تعني «مدينة»، وتعني أيضا المواطنة أو جماعة المواطنين، ولاحقا أصبحت تشير إلى الدول المدينية اليونانية الكلاسيكية. [المترجم].

كانت البوليس اتحادا من مواطنين يقوده حكام يستمدّون سلطتهم من عملية اختيار أو انتخاب قانونية. كانوا يشغلون المنصب فترة محدودة - سنة واحدة عادة - وهو ما انطوى على تفاوض متواصل بين المواطنين وقادتهم حول الأفعال العادلة والصحيحة، وذلك لأن الحكام الذين وصلوا إلى السلطة بدعم مواطنيهم لم يكن في وسعهم أن يمارسوا السلطة بسهولة لمصلحة قلة من العائلات الغنية والنافذة. لذلك كانت مهمتهم تتمثل في اتخاذ إجراءات عامة مقبولة من المواطنين جميعا، وإنفاذ قوانين متفق عليها، وإقامة دفاع مشترك فعال ضد الغرباء.

ظلت المواطنة دائما امتيازا للذكور البالغين فقط، إذ ظلت النساء والعبيد والأجانب مستبعدين، لأن المواطنة كانت تفرض على المواطنين أن يقاتلوا بأنفسهم من أجل البوليس. وحلّت البسالة الجماعية محل الأفعال الفردية في ساحة المعركة عندما أثبتت حروب التشكيل السُّلامي بعد نحو العام 650 ق. ح فاعليتها ضد القتال الفردي العشوائي من النوع الذي احتفى به هوميروس في الإلياذة(*). وفيما بعد أصبح النجاح العسكري يعتمد على مدى بسالة المواطن ومهارته في الحفاظ على مكانه ضمن التشكيل، وهو يستخدم رمحه ببراعة ضد الخصم، ويساعد بدرعه في حماية رفيقه الذي يقف إلى جانبه. وأثبت القتال بالتشكيل السُّلامي(**) فاعليته في كبح الخصومات الفردية من خلال تحويل السعي البطولي وراء الشهرة والمجد من المحاربين الفرديين إلى البوليس ككل.

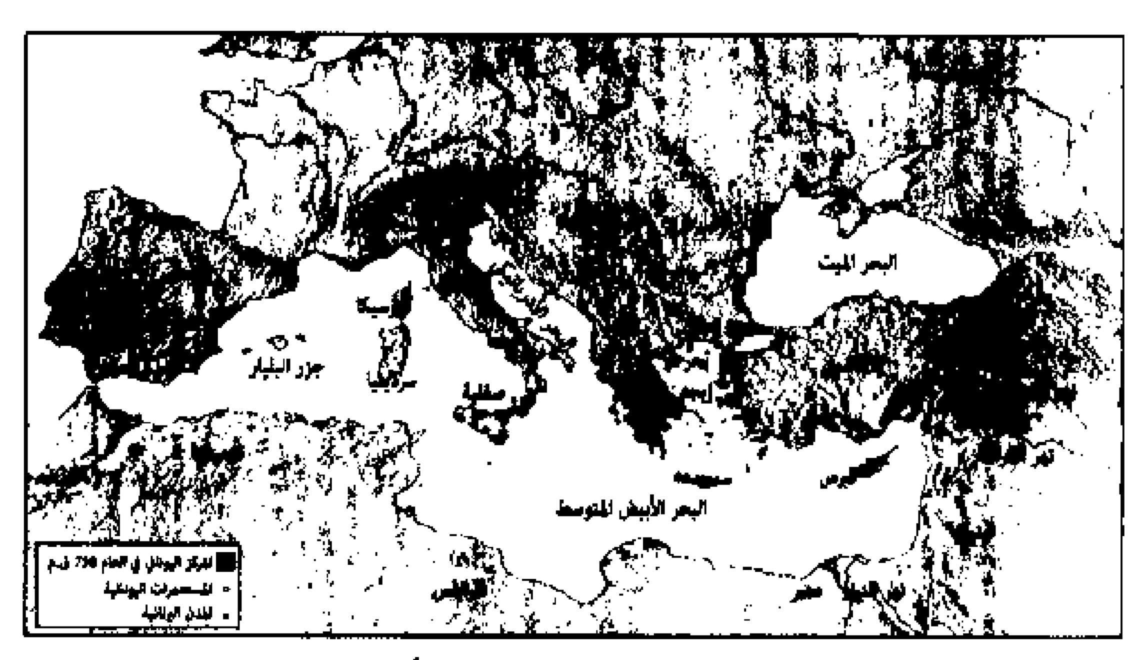
وبعد أن تحوّلت البوليس إلى بطل جمعي - في أسبرطة وأثينا على الأقل - استحثّت ولاء أوسع وأكبر بين المواطنين، إذ غدت جماعات القربى والجماعات الدينية والنشاطات الاقتصادية جميعها تابعة وتالية لها. ترأس الحكام المؤقتون معظم الطقوس الدينية بدلا من الكهانة الوراثية، وأزاحوا سلطة الملوك الوراثيين أو قلّصوها. وعندما أعجزت الديون كثيرا من المواطنين عن تجهيز أنفسهم للتشكيل السُّلامي، أسقط مصلحون راديكاليون من أمثال لايكيرغس الأسبرطي Lycourgos of Sparta (نحو 610 ق. ح.)

(*) الإلياذة: ملحمة شعرية تحكي قصة حرب طروادة وتعتبر مع الأوديسا أهم ملحمة شعرية إغريقية للشاعر هوميروس. [المترجم].

(**) التشكيل السُّلامي Phalanx: تشكيل عسكري مستطيل من جنود مشاة مدرعين ومسلحين بالرماح الطويلة والقصيرة، كان يتصدره صف من حملة الدروع يليهم صف من حملة الرماح يتبادلون المكان في أثناء الدفاع والهجوم، استمد التشكيل اسمه من شكل الرماح التي يسددها الرجال التي تشبه سلاميات اليد. [المترجم].

- الذي ربما كان شخصية أسطورية - والشخصية التاريخية صولون الأثيني Solon of Athens (594 ق. ح.) الديون وأعاد ترتيب الملكية وحقوق التصويت. وبذلك عمل هؤلاء الحكام عن عمد على تقليص الهوة بين الأغنياء والفقراء وزيادة عدد المواطنين المجهزين على نحو ملائم للقتال ضمن التشكيل السُّلامي.

أثبتت البوليس نجاحا فائقا، وذلك لأن كثيرا من المواطنين تعلموا أن يتعاونوا معا طوعا وبفاعلية من أجل أغراض مشتركة. واستجابة منهم لنقص الأراضي المحلية، أقام اليونانيون بداية من نحو العام 750 ق. ح مئات المدن اليونانية الجديدة والمستقلة في مواقع منتقاة في جنوب إيطاليا وصقلية وعلى طول أجزاء أخرى من سواحل البحرين الأبيض المتوسط والأسود. وفي النهاية، أدت النزاعات المسلحة مع الفينيقيين والقرطاجيين والإتروسكانيين إلى كبح هذا التوسُّع(*)، لكن بعد أن هيمنت التجارة اليونانية على معظم شواطئ البحرين الأبيض المتوسط والأسود.



الخريطة (3 - 4): العالم اليوناني القديم في نحو الأعوام 750-450 ق. ح.

(*) قرطاجة: دولة مدينية وإمبراطورية فينيقية ظهرت بين القرنين الثامن والثالث قبل الحقبة المشتركة، كان مركزها في تونس الحالية وامتدت عبر ساحل شمال أفريقيا وأجزاء من شبه جزيرة إيبيريا وجزر غرب البحر المتوسط؛ الإتروستانيون Etruscans أصحاب حضارة قديمة نشأت في إيطاليا بداية من القرن السابع قبل الحقبة المشتركة حتى استوعبتها الجمهورية الرومانية - [المترجم].

نالت هذه التجارة دفعة قوية من المسكوكات محددة القيمة بعد إدخال العملة المعدنية التي أصدرها لأول مرة كرويسوس Croesus (حكم 560 - 546 ق. ح.) ملك ليديا Lydia الواقعة في غرب تركيا الحالية. ربما ظهرت العملات الذهبية في البداية باعتبارها مجرد طريقة أسهل لاستخدام الذهب في دفع رواتب الجنود اليونانيين وغيرهم من المرتزقة الذين خدموا ملك ليديا[7]، لكن سرعان ما بدأت المدن اليونانية في سكّ عملات من معادن خسيسة أقل قيمة لاستخدامها في تعاملات السوق اليومية، ما أعفى المواطنين من صعوبة المقايضة التي كانت تضطر البائعين والمشترين إلى إيجاد شخص مستعد للتخلي عن الكمية الملائمة من السلعة التي يريدها كل طرف. صحيح أن معايير القيمة كانت تستخدم منذ الأزمان السومرية أو قبلها في شكل أنواع نادرة من الأصداف البحرية ومسكوكات برونزية وغيرها، لكن العملات المعدنية التي تحمل الدمغة المميّزة لدار سكّ رسمية كانت صغيرة الحجم ونقالة وسهلة في تمييزها سريعا، وفي الوقت عينه سهلة في إخفائها وصعبة في غشها من دون تغيير مظهرها. ومن خلال تيسير تحديد قيمة نقدية دقيقة لكل شيء معروض للبيع، ساعدت العملات المعدنية في تسهيل تجارتي الجملة والقطاعي وتسريعها وتوسيعها. وتعزّز التخصص الحرفي والزراعي، وأصبحت المدن اليونانية مواقع تبادل لسوقي الجملة والقطاعي بين المواطنين العاديين والأجانب المقيمين، وأحيانا العبيد.

دفع الإنتاج المتخصص الذي يسّره تنقيد المعاملات الاقتصادية اليومية، نموا سريعا في مهارات اليونانيين ومعارفهم وثرائهم(*). حافظ المواطنون لنحو ثلاثة قرون على مستوى فائق من التضامن الاجتماعي والحرية الفردية اللذين ورثوهما عن أسلافهم. ومع أن الفينيقيين والإتروسكانيين والآشوريين أقاموا مدنهم ودولهم على تراث مماثل قادم من غزاة العصر الحديدي القَبَليين، هو التراث نفسه القائم على المساواة الذي ارتكن إليه أنبياء العهد القديم الذين طالبوا ملوك إسرائيل – في الأغلب من دون جدوى - بالاستقامة والعدالة، فإن اليونانيين كانوا أكثر نجاحا من معاصريهم في الحفاظ على إحساس قوي بالقواسم المشتركة ضمن كل بوليس، على الرغم من التنوع الشديد في المهن وأنماط الحياة.

(*) يشير التنقيد monetization إلى استخدام النقد أو العملة بديلا من السلع في المعاملات الاقتصادية وفي جمع الضرائب. [المترجم].

لقد جمع اليونانيون في حقيقة الأمر بين مزايا التضامن القَبَلي والقروي ومهارات الحضارة المدنية وثرائها. بيد أن ذلك الإنجاز لم يدم إلا قرنين أو ثلاثة قبل أن تفرّق الطبقتان العليا والدنيا بين اليونانيين كما حدث قبل زمن طويل بين الشعوب المتحضرة الأخرى. لكن خلال الفترة التي سادها استشراف وعمل مشتركان، أنجزت الحضارة اليونانية أشكالا من التعبير وجد فيها الغرباء إبهارا لا يوصف. لذلك غدت نسخة معدلة من نمط حياة الطبقة العليا اليونانية لبضعة قرون - بالدرجة الأولى بعد أن فقد عالم البوليس اليوناني استقلاله لمصلحة الفاتحين المقدونيين في العام 338 ق. ح - مغرية للنخب المتنوعة في أوروبا وغرب آسيا وشمال أفريقيا.

على امتداد العصر الكلاسيكي، ظلت حروب التشكيل السُّلّمي المدرسة الأولية للمواطنة(*). وعندما نظمت بعض المدن أساطيل بحرية لحماية تجارتها فيما وراء البحار، أتاح ذلك دورا عسكريا للمواطنين الفقراء الذين لم يكونوا قادرين على تجهيز أنفسهم بالدرع الكاملة للحرب البرية، إذ كانت القوة العضلية والإحساس بالإيقاع المطلبين الوحيدين للتجديف على القوادس الحربية[8]. ولذلك فعندما بدأ المواطنون - المزارعون مُلاك الأراضي الذين عملوا ضمن التشكيل السُّلّمي يتشاركون في الدفاع عن البوليس مع الجماعات الحضرية غير مالكة الأراضي، غدت الديموقراطية الأثينية للعصر الكلاسيكي ممكنة وعادلة، بل ضرورية.

تعرض مجتمع البوليس لاختبار حاسم في العام 480 ق. ح عندما غزا الجيش الإمبراطوري الفارسي اليونان مدعوما ومجهزا بسفن وأطقم مجندة بالسخرة من فينيقيا وآسيا الصغرى. وعلى خلاف كل التوقعات، تمكن ائتلاف مهلهل من نحو عشرين مدينة يونانية من إلحاق الهزيمة بالفرس في معركة سلاميس، وتلتها في السنة التالية هزيمة أخرى على البر في بلاتيا Plataea. استغل مواطنو أثينا الديموقراطية ذلك النجاح المفاجئ بحماس، وأعطوا الحضارة اليونانية تعبيرا باقيا، جزئيا عبر الأفعال السياسية والفنون البصرية، لكن بالدرجة الأولى عبر الأعمال الأدبية التي أصبحت أعمالا كلاسيكية خلال القرون التالية.

(*) يغطي العصر الكلاسيكي القرنين الخامس والرابع قبل الحقبة المشتركة، من معركة سلاميس Salamis في العام 480 ق. ح التي كانت نقطة التحوّل في دحر الغزو الفارسي الثاني لبلاد اليونان، حتى موت الإسكندر الأكبر في العام 323 ق. ح. شهد استقلال الدول المدينية اليونانية عن الإمبراطورية الفارسية وازدهارها الذي مارس تأثيرا كبيرا في الإمبراطورية الرومانية وفي مجمل الحضارة الغربية اللاحقة في مجالات السياسة والفن والأدب والفلسفة وغيرها. [المترجم].

فبعد أن وصلت الكتابة الأبجدية إلى اليونان من فينيقيا في نحو العام 700 ق. ح، كُتبت الملاحم الهومرية. وألهم نموذج هوميروس الازدهار التالي في الأدب اليوناني، فمع أن السعي وراء العدالة كان دائما قاعدة البوليس، فإن السعي الواعي وراء الشهرة والحقيقة والجمال لم يكن أقل حضورا. وألهمت تلك التطلعات - بدورها - سيلا متفردا من الشعر والكتابة المسرحية والتاريخ والفلسفة، كانت بمنزلة التعريف للحياة الجيدة بالنسبة إلى الأجيال التالية من المواطنين اليونانيين والرومان.

وبالتزامن مع ذلك، انطلق العلم الطبي والطبيعي في اتجاهات جديدة، عندما افترض بضعة مفكرين جُرآء أنه كما ينظم مواطنو البوليس حياتهم بالإذعان لقوانين مصوغة لفظيا، فإن الطبيعة المادية ربما تذعن لقوانين يمكن صوغها هي الأخرى لفظيا، وهو الافتراض الذي ولّد العديد من الأفكار مثل النظرية الذرية للمادة التي كان ينتظرها مستقبل عظيم. وتجاهل العلماء والفلاسفة كل الحكايات المرتبكة والمتعارضة حول الآلهة الواردة في شعر هوميروس وهسيود وغيرهما، ووضعوا ثقتهم بدلا من ذلك في ملَكات التفكير اللفظي.

تيَسر ذلك بفضل عدم وجود كهانة مرجعية ترعى فهما محددا لمزيج من الأفكار الموروثة بشأن الآلهة. فحكام البوليس الذين تولوا مسؤولية إقامة الطقوس الدينية كانوا يهتمون بالعظمة والأبهة أكثر منهم بالمذهب المتماسك. كان من نتيجة ذلك أن أطلق العنان للتفكير التأملي الذي لا تقيّده غير الملاحظة الدقيقة للظواهر السماوية والأرضية والسلوك الإنساني. وعلى مدى بضعة قرون، تمتعت حفنة من الفلاسفة بحرية تطبيق التفكير اللفظي والرياضي على الشؤون الإنسانية والظواهر الطبيعية، وبلغوا في ذلك نجاحا فذا جعل الفلاسفة اللاحقين يواصلون دراسة كتاباتهم المتبقية حتى الوقت الحاضر[9]. وفي النهاية، صنفت المدارس المتنافسة الأفكار الفلسفية والعلمية اليونانية في شكل موجِّهات بسيطة لنمط حياة الطبقة العليا. وأخذت الجلبة الأولى للتقصي الفكري تخمد عندما أفسحت الأسئلة الصادقة التي أثارها أفلاطون (توفي 347 ق. ح) الطريق للإجابات المنطقية التي قدمها أرسطو (توفي نحو 322 ق. ح) لكل شيء ناقشه أسلافه.

تزامن إنجاز أرسطو مع الغزو المقدوني لليونان الذي أنهى الاستقلال السياسي والعسكري للمدن اليونانية في العام 338 ق. ح. بعد ذلك تضاءلت الرابطة التي

ازدهر داخلها الفن والأدب والفكر اليوناني، مع أن الرعاية المَلَكية - لاسيما للعلم - ظلت تنتج أفكارا طبية وفلكية وجغرافية جديدة ومهمة.

قبل فترة طويلة من نهاية العصر الكلاسيكي بسبب كسوف استقلال البوليس، غدت التناقضات الشديدة المتأصلة في مثال البوليس واضحة على نحو مؤلم. وسرعان ما تحوّل السعي القوي وراء المجد الجماعي من جانب إحدى البوليسات إلى اعتداء على استقلال أخواتها، وهو ما كان يتعارض مع الأفكار الراسخة حول العدالة، ولذلك كان الفشل مآل جهود بناء الإمبراطورية، أولا من جانب الأثينيين وبعدها من جانب الأسبرطيين، إذ كانت تتشكّل دائما ائتلافات منافسة لهزيمتها. ولم يعمر السعي الثيفي للهيمنة طويلا بسبب الفاتحين المقدونيين(*)، أولا بقيادة الملك فيليب في العام 338 ق. ح ثم بقيادة ابنه الإسكندر (حكم 336 - 323 ق. ح). شكّل فقدان الاستقلال السياسي إعاقة شديدة لحياة البوليس، لكنه لم يحجب الحضارة اليونانية. وبدلا من ذلك، فإن الإسكندر المقدوني عندما فتح الإمبراطورية الفارسية بين العامين 334 و331 ق. ح، وجدت المراكز الحضارية القديمة في جنوب غرب آسيا ومصر نفسها فجأة في مهب تأثير يوناني قوي، وذلك لأن الجنرالات المقدونيين الذين تقاسموا إمبراطورية الإسكندر اعتمدوا في إدارة ممالكهم على آلاف اليونانيين.

نشرت إمبراطورية الإسكندر الأكبر الجوانب السطحية للثقافة اليونانية، مثل الألعاب الرياضية والعروض المسرحية وشرب النبيذ، إلى أماكن بعيدة كالهند، جنبا إلى جنب مع الأنماط اليونانية للفن النُّصبي وبعض الأفكار العلمية والفلسفية، والأهم من ذلك أن النمط اليوناني للأسواق الحضرية ترسّخ عبر جنوب غرب آسيا ومصر، في المقام الأول بفضل التدفق المفاجئ للعملة التي سكّها ورثة الإسكندر من الخزائن الملكية التي احتفظ بها ملوك الفرس.

بدأ الاقتصاد النقدي في الظهور عندما أخذ مموّلون خاصون يقدمون قروضا لمسؤولي الدولة، ونالوا في مقابل ذلك الحق في جمع الضرائب نقدا من العامة. استخدم

(*) الثيفي، نسبة إلى مدينة ثيفا Thebes، التي كانت المدينة الأكبر في بيوتيا Boeotia بوسط اليونان، وزعيمة الاتحاد البيوتي ومنافسة أثينا. انحازت للفرس في غزو العام 480 ق. ح، وقضت على قوة أسبرطة في معركة ليوكترا في العام 371 ق. ح، لكنها انهارت بعد هزيمتها أمام فيليب المقدوني في معركة خيرونيا في العام 338 ق. ح وبعد أن محاها ابنه الإسكندر الأكبر وقسم إقليمها بين المدن البيوتية على إثر ثورتها الفاشلة في العام 335 ق. ح. [المترجم].

هؤلاء الملتزمون الضريبيون في الأغلب طرقا ابتزازية لاستعادة أموالهم، كما تكشف الصورة السيئة «للجباة» في العهد الجديد(*). لكن ذلك ساعد في فرض اقتصاد نقدي لأول مرة على نسبة كبيرة من السكان في الأراضي المتحضرة القديمة في غرب آسيا ومصر.

ساعدت قروض المموّلين للتجار في توسيع نطاق تجارة المسافات الطويلة وانتشار أسعار السوق عبر الحدود السياسية والثقافية إلى مستوى أعلى من أي وقت مضى(**). وبذلك أُدمِج معظم أوراسيا وشمال أفريقيا في شبكة تجارية واسعة النطاق كانت مراكزها توجد بالدرجة الأولى على سواحل البحر الأبيض المتوسط، كانت تكمّلها تجارة برية تمتد شرقا إلى الصين عن طريق القوافل، وشمالا إلى أوروبا وآسيا على طول الأنهار الصالحة للملاحة. كانت التجارة البحرية القديمة على طول شواطئ المحيط الهندي وعبر مياه جنوب شرق آسيا قد رُبطت مع هذا النظام التجاري المكثف للبحر الأبيض المتوسط عندما تعلم البحّارة اليونانيون من مصر - بداية من نحو العام 120 ق. ح - كيف يبحرون إلى جنوب الهند ومنها أمام الرياح الموسمية. وصارت الصلات البحرية بين الصين والهند معتادة بعد نحو العام 140 ق. ح، مع أن المرور عبر برزخ كرا الواقع في شبه جزيرة الملايو كان يرفع تكلفة النقل(***). وبذلك بدأت الشبكة العالمية القديمة في العمل بكثافة أكبر

(*) كان الجباة publicans المقاولون العامون يجهزون الفيالق الرومانية ويديرون جمع رسوم الموانئ ويشرفون على الأشغال العامة. شكّلوا في روما القديمة الطبقة الدنيا - بين الطبقتين الأرستقراطيتين - المعروفة باسم الإكوايتس Equites أو الفرسان، بعد الطبقة الحاكمة المعروفة باسم الباتريكيوس Patricius أو الأشراف. إبان عهد الجمهورية الرومانية، وتحديدا خلال القرن الأول قبل الحقبة المشتركة، أخذوا يجمعون الضرائب بناء على عطاءات عامة كان مجلس الشيوخ ينظمها، وهذا الدور الأخير هو وحده الذي ظل بارزا في وعي الناس إبان زمن يسوع المسيح الذي لعنهم باسم العشّارين، والعشّار هو الشخص الذي يأخذ على السلع مكسبا بقيمة عُشرها: «إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصليا واحد فريسي والآخر عشّار. أما الفريسي فوقف يصلي في نفسه هكذا اللهم أنا أشكرك أني لست مثل بقية الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشّار. أصوم مرتين في الأسبوع وأعشّر كل ما أقتنيه. وأما العشّار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلا: اللهم ارحمني أنا الخاطئ. أقول لكم إن هذا نزل الى بيته مبررا من دون ذاك لأن كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع». (إنجيل لوقا، 18: 11 - 14). [المترجم].

(**) تُرجمت كلمة banker إلى «مموّل» لأن البنوك الحديثة لم تظهر إلى الوجود إلا خلال القرن الرابع عشر من الحقبة المشتركة في الدول المدينية الإيطالية، وإن كانت وظيفة المموّل أو الدائن أو المقرض أو المرابي أو العشّار موجودة منذ فجر التاريخ وفي كل الثقافات. [المترجم].

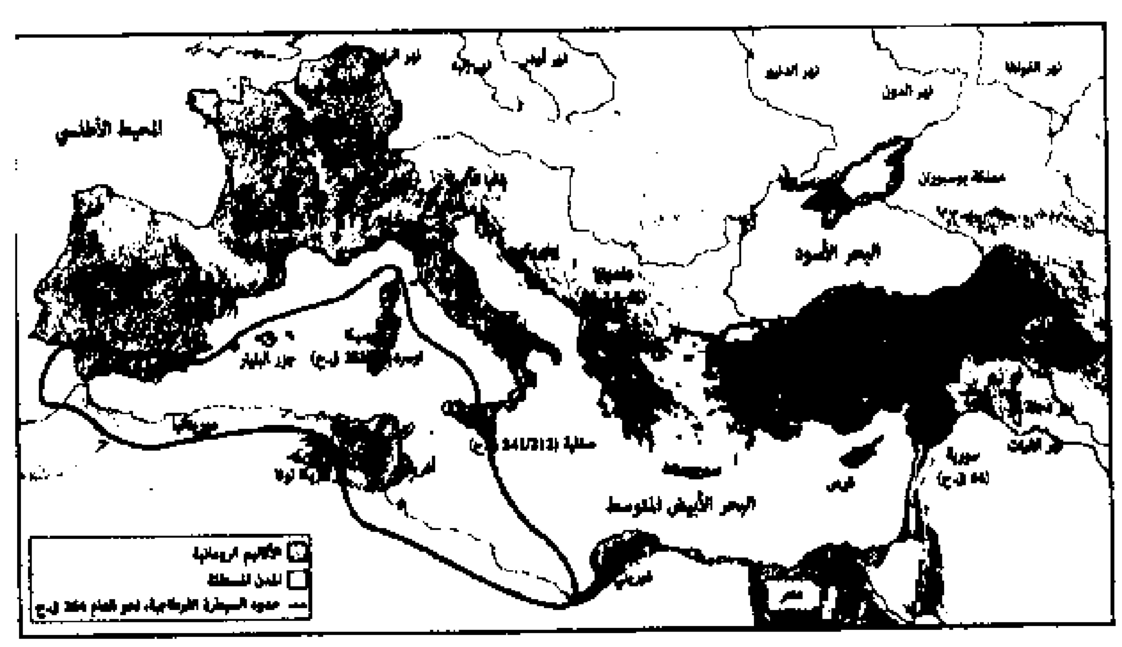
(***) برزخ كرا Kra Isthmus هو أضيق جزء على شبه جزيرة الملايو البرية، يفصل بين خليج تايلند (جزء من بحر الصين الجنوبي والبحار الأرخبيلية الشرقية) إلى الشرق وبحر أندامان (جزء من خليج البنغال) إلى الغرب، ترجع تبعيته حاليا إلى تايلند (الجزء الشرقي) وميانمار (الجزء الغربي). [المترجم].

من قبل، ما ساعد في نشر تقنيات وأفكار مغرية فضلا عن السلع والخدمات عبر مناطق أوسع وأوسع.

وفي جنوب غرب آسيا ومصر، ترسّخ شكل جديد للحكم الذاتي الحضري في مئات المستعمرات اليونانية التي أسّسها حكام هلينيون. لم تكن هذه المدن حرة بالمعنى الكلاسيكي لأنها لم تكن تتجاسر على تحدي السلطة العسكرية الملكية، لكنها بدلا من ذلك حصرت الحياة العامة في الحفاظ على النظام في الداخل والحكم في النزاعات القانونية وإدارة المهرجانات وبناء المعابد والمسارح وغيرها من البهارج الظاهرية لحياة البوليس.

كان زرع هذه المدن شبه المستقلة في مجتمع جنوب غرب آسيا ومصر بمنزلة قاعدة جديدة لتسويات لاحقة بين البيروقراطية الإمبراطورية والنخب الحضرية المحلية. لكن في المناطق الريفية التي كانت لها الهيمنة دائما، ظلت الترتيبات الاجتماعية كما كانت في السابق. وفي اليونان نفسها، أخذ المجتمع يفقد تماسكه القديم، وانقسم بحدة بين أغنياء وفقراء، وبات أقرب إلى نمط جنوب غرب آسيا. ولذلك فعندما غزت الجيوش الرومانية اليونان وأطفأت آخر بقايا استقلال البوليس (215 - 146 ق. ح)، استسلم اليونانيون أخيرا للحكم البيروقراطي الإمبراطوري في الوقت نفسه الذي استسلمت فيه النخبة الرومانية لمفاتن ما أصبح نمطا مميّزا للطبقة العليا ضمن الثقافة الحضرية اليونانية.

كان ظهور الجمهورية الرومانية (نحو 509 - 30 ق. ح) بمنزلة تكرار لتاريخ البوليس اليونانية، على رغم بعض الافتراقات الملحوظة. فكانت سلطة الأشراف أصحاب الكلمة في مجلس الشيوخ توازِنها سلطة المواطنين الرومانيين العاديين على نحو أكفأ مما ساد بين الطبقات الأرستقراطية اليونانية. ومع ذلك فقد ظل الأساس العسكري للمواطنة الرومانية قريب الشبه من نظيره اليوناني، حتى بعد أن جعلت تغييرات في التكتيكات والتجهيزات الفيالق الرومانية أكثر مرونة وأقدر على العمل في التضاريس الوعرة التي لم تستطع التشكيلات السُّلامية العمل فيها[10]. ولذلك فعندما بقيت الجيوش الرومانية في الميدان سنوات متواصلة وبدأت العمل فيما وراء البحار، وذلك في أثناء الحرب البونيقية الثانية ضد



الخريطة (3 - 5): الجمهورية الرومانية بحلول العام 50 ق.ح

قرطاجة في الأعوام 218 - 201 ق. ح(*)، توقف المواطنون - المزارعون المجندون في الجيش عن العمل بالزراعة وانضموا كليا إلى الجندية الاحترافية التي ساعدت طويلا في بقاء الحكم البيروقراطي الإمبراطوري في المناطق المتحضرة في آسيا ومصر. ليس غريبا - إذن - أن الانتصارات الرومانية فرضت الحكم البيروقراطي الإمبراطوري على الدول المدينية اليونانية بعد العام 146 ق. ح وعلى بقية عالم البحر الأبيض المتوسط كافة بحلول العام 30 ق. ح.

عندما دشّن أغسطس Augustus الإمبراطورية الرومانية في العام 30 ق. ح، اختفت المواطنة النشطة، لكن استمرت الحياة الحضرية وانتشرت إلى أراض جديدة - لاسيما في الأقاليم الغربية - وظل الحنين إلى الماضي المواطني المجيد حيا حتى بعد وقت طويل من العام 180 ح. م، الذي انتصر فيه الحكم العسكري المطلق الصريح في عالم البحر الأبيض المتوسط. لكن قبل وقت طويل من ذلك، كانت نخب حاكمة ضيقة قد حلّت محل حق الانتخاب الأوسع الذي ساد خلال

(*) وقعت ثلاث حروب كبرى بين روما وقرطاجة، سميت الحروب البونيقية Punic Wars، وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على القرطاجيين بسبب أصولهم الفينيقية Poenici. في الحرب الثانية المعروفة أيضا باسم الحرب الحنبعلية أو الحرب على حنبعل، حقق القرطاجيون انتصارات كبرى على الرومان على أراضي أوروبا، لكن كانت الهزيمة النهائية من نصيبهم على تراب أفريقيا في معركة زامة، وبها تحوّلت قرطاجة إلى دولة تابعة بعد أن كانت قوة عظمى في عالم البحر الأبيض المتوسط. [المترجم].

الأزمان الكلاسيكية اليونانية والجمهورية الرومانية، فأصبح العامة مجرد متفرجين على مراسم عامة، ولم تتمتع الجماعات الريفية التابعة حتى بمكانة المتفرج، مع أنهم كانوا يدفعون الريوع والضرائب التي أعالت حفنة من مُلاك الأراضي الحضريين في مئات البلدات الإقليمية الرومانية ممن حرصوا على الحفاظ على ذكرى الحرية والأمجاد القديمة ومحاكاتها.

وعلى ذلك فإن الأنماط الجمهورية اليونانية والرومانية للدولة والمجتمع كانت شاذة ولم تدم غير بضعة قرون. لكن الأدب الذي أنتجته حافظ على أفكار الحرية والمواطنة حتى بعد اندثار آخر آثار الإمبراطورية الرومانية. واحتفظت الأجيال التالية بإلمام محدود بهذا الأدب إلى أن ظهرت الدول المدينية المتنافسة في أجزاء من إيطاليا، بداية من نحو العام 1300 ح. م، وإذ ذاك أعطى تشابه الحياة العامة لهذه المدن مع حياة العصر القديم فجأة أهمية جديدة لدراسة النصوص القديمة، واتخذت أفكار الحرية والمواطنة حياة جديدة، ولاحقا جرى تكييفها وتطبيقها شمال الألب في دول أوروبا الغربية الأكبر من الدول المدينية الإيطالية. وبداية من القرن الثامن عشر وحتى وقتنا الحاضر، أدى مزيد من التكييف والتعديل لأفكار الحكم الحر والديموقراطي إلى نشرها حول العالم.

حققت هذه الدول الصغيرة والمتفردة تقدما ملحوظا لكن مفهوما بالنظر إلى نجاح البوليس والحكومة الجمهورية في التوفيق بين ميزتين متعارضتين بوضوح، إذ جمعتا بين ثراء الدول الحضرية المتمدنة وقوتها من ناحية وما ميّز المجتمع القَبَلي من حرية ومساواة وتماسك من ناحية أخرى.

وفي نحو العام 30 ح. م، وهو وقت كانت المسيحية فيه قد بدأت من فورها في الانتشار عبر الإمبراطورية الرومانية، أُتيح لسكان الحضر البسطاء نوع جديد من الجماعة، تسربت في النهاية إلى الريف. بدأت المسيحية باعتبارها طائفة يهودية، ورثت الكتب المقدسة والتقاليد اليهودية، جنبا إلى جنب مع العهد الجديد الذي سجل حياة المسيح وتعاليمه وفسرها[11]. كان الوثنيون الذي اعتنقوا المسيحية قد جلبوا أفكارهم معهم، ولذلك فعندما رفض المسيحيون الشريعة اليهودية كما طوَّرتها أجيال من الأحبار، شقّت الكنيسة طريقها الخاص وطورت أفكارا وطقوسا وطريقة حياة للمؤمنين مزجت بين التراث اليوناني - الوثني - واليهودي.

وفُرت المشاركة النشطة في شؤون الكنيسة - حضور الصلوات الدينية ومساعدة المرضى ومقاومة ضغوط الاستسلام للممارسات الوثنية - بديلا حقيقيا لجماعة البوليس التي اختفت، ورجاء الأمل في الجنة ليهوّن المشقة الدنيوية. بإيجاز، خلقت الكنائس المسيحية هوية وجماعة جديدتين للفقراء والمضطهَدين في العالم الروماني، وسرعان ما أخذت تزدهر خارج الحدود الرومانية في بلاد ما بين النهرين وفي أماكن بعيدة كالهند.

كان على المسيحيين في بادئ الأمر أن يتنافسوا مع عدة «ديانات ملغزة» جديدة أخرى في مدن البحر الأبيض المتوسط(*)، وكانت الكنائس لاتزال قليلة العدد وصغيرة ومبهمة، لكن هذه الحال تغيّرت في الفترة بين العامين 165 و180 ح. م التي تعرضت خلالها الإمبراطورية الرومانية لنوبات وبائية مدمرة أنقصت عدد السكان بنحو الربع. وفي الوقت عينه تقريبا، واجهت الإمبراطورية الصينية أوبئة خطرة. كانت الشبكة العالمية القديمة الأكثر إحكاما المتسبب في هذه الكوارث، إذ مكّنت المسافرين والجيوش من نشر العدوى عبر الحدود وإدخال أمراض مهلكة إلى جماعات لم تخبرها من قبل على الطرفين الغربي والشرقي للشبكة. وعلى النقيض من ذلك، وبقدر ما تكشف السجلات غير المكتملة، كان تأثير النوبات الوبائية الجديدة أضعف في مجتمعات أفريقيا وغرب آسيا والهند.

لم تتوقف الأوبئة المهلكة في العام 180 ح. م، وأسهمت في انهيار الإمبراطوريتين الرومانية والصينية بسبب إنقاص الثروة والسكان فيهما. ونتيجة لأن مجابهة المسيحيين للأوبئة المهلكة كانت أنجح من أي مكوّن آخر في المجتمع الروماني، فقد بدأت الكنيسة في الازدهار على نحو غير مسبوق. وفيما بعد، تراجع المجتمع الوثني داخل الإمبراطورية الرومانية أمام المدّ المسيحي المتقدم، وهو ما كان فاتحة لحقبة جديدة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط والعالم.

وقبل أن نتقصى تلك الحقبة، يمكن لتلخيص موجز لما حدث حول العالم بين العامين 3000 ق. ح و200 ح. م أن يساعدنا في وضع خبرات حضارات أوراسيا وشمال أفريقيا المتنوعة في المنظور التاريخي.

(*) الديانات الملغزة mystery religions أو الأسرار المقدسة sacred mysteries أو الأسرار وحسب: مدارس دينية انتشرت في العالم اليوناني - الروماني، كان الانتساب إليها سريا ويجري عبر طقوس بعينها، لا يعرف الكثير عنها بسبب طابعها السري وبسبب اضطهاد المسيحيين لأتباعها. [المترجم].

السكان والبيئة والأمراض

لقد حدث نمو كبير في أعداد البشر. فمع بداية الحقبة المشتركة، كانت الإمبراطورية الهانية والرومانية تضمان ستين مليون نسمة في كل منهما. ومع أنه لا تتوافر تقديرات موثوقة للأماكن الأخرى، فمن المؤكد أن نموا كبيرا في السكان قد حدث في معظم أجزاء الكرة الأرضية، وذلك لأن الجماعات التي تنتج الغذاء واصلت التوسُّع على حساب جماعات الصيد والجمع أينما وجدت تربة خصبة ملائمة. ومع ذلك فإن جماعات الصيد والجمع كانت في العام 200 ح. م لاتزال تشغل أستراليا وجزءا كبيرا من أفريقيا وجنوب شرق آسيا وأغلب الأمريكتين، ولم تكن بعض جزر المحيط الهادي قد استوطنت بعد. لكن التحوُّل العالمي الهائل نحو الحياة القروية كان واقعا ناجزا.

فبحلول العام 200 ح. م، كانت الأغلبية الساحقة من البشر تعيش في هذه المجتمعات، وكانت نسبة متنامية منهم تدفع ضرائب وريوعا لحكام ومُلاك أراضٍ مقيمين في الحضر، وهو التحوُّل الذي يشهد عليه ظهور الدول الإمبراطورية المتحضرة وانتشارها. وإلى جانب ذلك، كان للحضارات الأربع الأساسية في أوراسيا نظير تمثّل في الحضارات الناشئة في أمريكا الشمالية والجنوبية التي سنتناولها في الفصل التالي لأن شكلها الكلاسيكي كان في العام 200 ح. م لايزال في طور التشكُّل.

كان لأعداد البشر التي تزايدت بفعل التنسيق واسع النطاق للجهد البشري الذي يميِّز الحضارة تأثير قوي في البيئة، تكشَّف في أوضح صوره في إزالة الغابات بسبب انتشار الزراعة، ورعي الأغنام وتحديدا الماعز، واستخدام الفحم لتغذية أفران المعادن وأفران الفخار.

وفي مناطق البحر الأبيض المتوسط الساحلية وخلال معظم جنوب غرب آسيا، كانت إزالة الغابات وما نتج عنها من تآكل للتربة قد بدأ بحلول العام 200 ق. ح في إتلاف الأراضي الزراعية. من ذلك أن الناس هجروا الريف اليوناني بعد العام 323 ح. م، جزئيا بسبب المهن البديلة التي أتيحت للكثير من اليونانيين في جنوب غرب آسيا ومصر، وجزئيا بسبب فقدان التربة الفوقية في الكثير من سفوح التلال اليونانية. وحدث شيء مماثل في جنوب إيطاليا. وفي الصين أيضا، أدى التوسُّع في زراعة التربة الرسوبية الناعمة إلى تآكل سريع للتربة، ولذلك بدأ النهر الأصفر يحمل غرينا أكبر من قبل وبات يشكِّل تهديدا دوريا، ومع تباطؤ جريان النهر عبر السهل

الفيضي المنبسط، أخذ الغرين يترسب ويرفع مستوى قاع النهر، ومن هذه الحالة اكتسب النهر الأصفر كنيته «بلاء الصين»، لأنه كثيرا ما كان يخترق الحواجز الجانبية ويفيض في كل حدب وصوب، وبعدها كان الصينيون يبنون حواجز جديدة، ثم تبدأ الدورة من جديد.

عمّ الجدب سهول سومر بسبب ارتفاع الملوحة. وحدثت أشكال أخرى من تلف التربة، لاسيما على طول تخوم التوسّع الزراعي التي أدت فيها الزراعة بقطع الأشجار وإحراقها في الغابات السابقة إلى إتلاف خصوبة التربة السطحية. لكن في معظم المناطق الزراعية، وبعد أن عمّت ممارسات إراحة الأرض وتسميدها والدورة الزراعية وما إليها، حدث تدهور التربة ببطء شديد، ما جعل ملاحظته تفوت عادة على من عاصروه. كانت الزراعة المصرية مستدامة بكل معنى الكلمة بفضل فيضان النيل. لكن ظل المزارعون في كل مكان يخشون من الطقس السيئ ونوبات الآفات وأمراض النبات المعدية التي سببت من حين إلى آخر فشل المحاصيل، ومن ثم المجاعة.

كانت صحة الإنسان هي الأخرى في خطر، إذ زاد ظهور المدن من انتشار الجراثيم التي تهاجم الجهاز المعوي، وكانت المدن في معظم أوراسيا وشمال أفريقيا قد أصبحت غير صحية تماما بحلول العام 200 ح. م، ما اضطرها إلى الاعتماد على المهاجرين من الريف للحفاظ على أعداد سكانها. وفوق ذلك كله، اشتد الضعف السكاني للحضر مع وصول أنواع جديدة من أمراض القطيع الفيروسية[12]. نتجت الكوارث المرضية التي ضربت الإمبراطوريتين الرومانية والهانية خلال القرن الثاني من الحقبة المشتركة من أمراض فيروسية معدية من هذا النوع، انتشرت بين جماعات كثيفة مختلطة لم تكن تمتلك مناعة موروثة أو مكتسبة لتحاشي تأثيرها المهلك.

بيد أن هذه الأمراض التي أصبحت مألوفة في زمننا كأمراض تصيب الأطفال مثل الجدري والحصبة والنكاف وغيرها، كانت أمراضا من النوع الذي يصيب الإنسان مرة واحدة فقط، لأنها إما كانت تقتله وإما تعطيه مناعة لبقية حياته. كان الوجود الدائم لعائل قابل للمرض يحتاج إلى أعداد كبيرة من البشر: حتى ثلاثمائة ألف إنسان في احتكاك متواصل بعضهم مع بعض. وكما أظهر مآل الإمبراطوريتين الرومانية والهانية، فإن التعود على هذه الأمراض من خلال حشد الأجسام المضادة اللازمة، كان عملية بطيئة ومكلفة سكانيا.

خاتمة

بحلول العام 200 ح. م، لم يكن التكيف الوبائي مع الكثافات السكانية المرتفعة قد اكتمل بعد في أوراسيا، ولم يكن قد بدأ بعد في أجزاء أخرى من الكرة الأرضية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن التوافق النفسي والاجتماعي الذي فرضته الحياة الحضرية وما ولّدته من لقاءات مع الغرباء. أفرز ذلك استجابتين باقيتين ومتعارضتين، نتجتا من الحيرة الشديدة التي تولّدت بين الجماعات الواقعة خارج الشبكات الحضرية أو على حوافها الذين سعوا عندما أدركوا ضعف حالهم إلى معالجة الموقف إما باستعارة وتكييف ذلك الذي جعل الآخرين أقوياء إلى هذا الحد، وإما بالعمل الدؤوب - في المقابل - لرفض الإفساد الخارجي من خلال الدفاع عن ذلك الذي جعلهم مختلفين وتقويته وإعادة تأكيده(*).

ومع انتشار المهارات والسلع والاتجاهات من مركز كل حضارة، أخذ منحدر ثقافي يتكشّف، وعلى امتداده تضاعفت الضغوط الاجتماعية والبيئية في كل مكان. وأينما اختارت النخب المحلية أن تحاكي الأنماط المتحضرة بالسعي الحثيث إلى اكتساب العادات وأسباب الترف الحضرية، كان عليها أن تتخلى عن الطقوس والحقوق والعادات المحلية، وكان عليها في أغلب الأحيان أن تكثّف الزراعة وأن تُتَجِّرها للإنفاق على أذواقها الجديدة. أما الحالات التي رفض فيها الزعماء المحليون إغراء التحضر، فإن ذلك فرض عليهم ضغوطا لأنه كان يعني تقوية الأنماط القديمة بطريقة أو بأخرى. ووقعت توترات اجتماعية مماثلة داخل الإمبراطوريات الزراعية بين العاصمة والأقاليم، كان الأوضح بينها جميعا التوترات بين الحكام والرعايا، وبين كل الجماعات الإثنية والمهنية المتنوعة التي تجمعت في المدن.

بيد أن هذه التكلفة الباهظة لم توقف انتشار المجتمع المتحضر، إذ كانت الثروة والقوة اللتان أنتجهما ارتفاع مستويات التبادل والتعاون في هذا المجتمع، مغريتين وتجُبان التوترات الاجتماعية المتأصلة فيه. وكما رأينا، فقد توافر ترياق فعال للمحن

(*) هما الآليتان ذواتاهما اللتان تلجأ إليهما أي حضارة أو ثقافة - في أي عصر - تجد نفسها مهدّدة وجوديا من جانب حضارة أو ثقافة أخرى: الاستعارة في مقابل التشرنق، وهما الاستجابتان اللتان ظهرتا خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ضمن ما سُمي أدبيات النهضة العربية ردا على التحدي الغربي: التغريب والأصالة. [المترجم].

الشخصية في شكل الأديان النقالة: اليهودية والبوذية والمسيحية التي سرعان ما انضم الإسلام إليها. وتجلّت قوة الدعم الذي وفّرته هذه الأديان على مر القرون، إذ شكّلت تعويضا نفسيا قويا لمشاق الحياة المتحضرة والتباسها. وعلى ذلك، فإن الموضوع المركزي للفصل التالي سيكون استمرار توسُّع الشبكات الحضرية وتكثُّفها واندماجها في كل من العالم القديم والأمريكتين.

4

نمو الشبكات في العالم القديم والأمريكتين خلال الفترة 200-1000 ح. م

ساعدت روابط النقل البري والبحري التي دُشّنت قبل فترة قصيرة من بداية الحقبة المشتركة في جعل حضارات العالم القديم على اتصال دائم بعضها مع بعض خلال القرون الثمانية التي يغطيها الفصل الحالي. أطلقت التفاعلات الناتجة ثلاثة تحوُّلات أساسية: (1) تحوُّلات في الثروة والقوة النسبيتين رفعت الهند وجنوب غرب آسيا إلى آفاق جديدة من الازدهار والتأثير. (2) نشرت الشبكة العالمية القديمة أشكال المجتمع المتحضر إلى أراض جديدة واستدمجت مناطق شاسعة جديدة من آسيا وأفريقيا وأوروبا. (3) حققت الأديان العالمية التي تقدم الأمل في التعويض النهائي عن آلام الحياة الدنيا وإحباطاتها انتشارا واسعا بين شعوب أوراسيا وأفريقيا. وتمثّلت

«صارت الجماعات الزراعية بفضل قيادة الكهنة وتنظيم الطقوس الدينية لحياتها أقدر على الصمود في وجه الكوارث الناتجة من الطقس والأعشاب الضارة والآفات. وهنا تحديدا تكمن قوة الكهنة في المجتمعات الزراعية المبكرة في أنحاء العالم كافة»

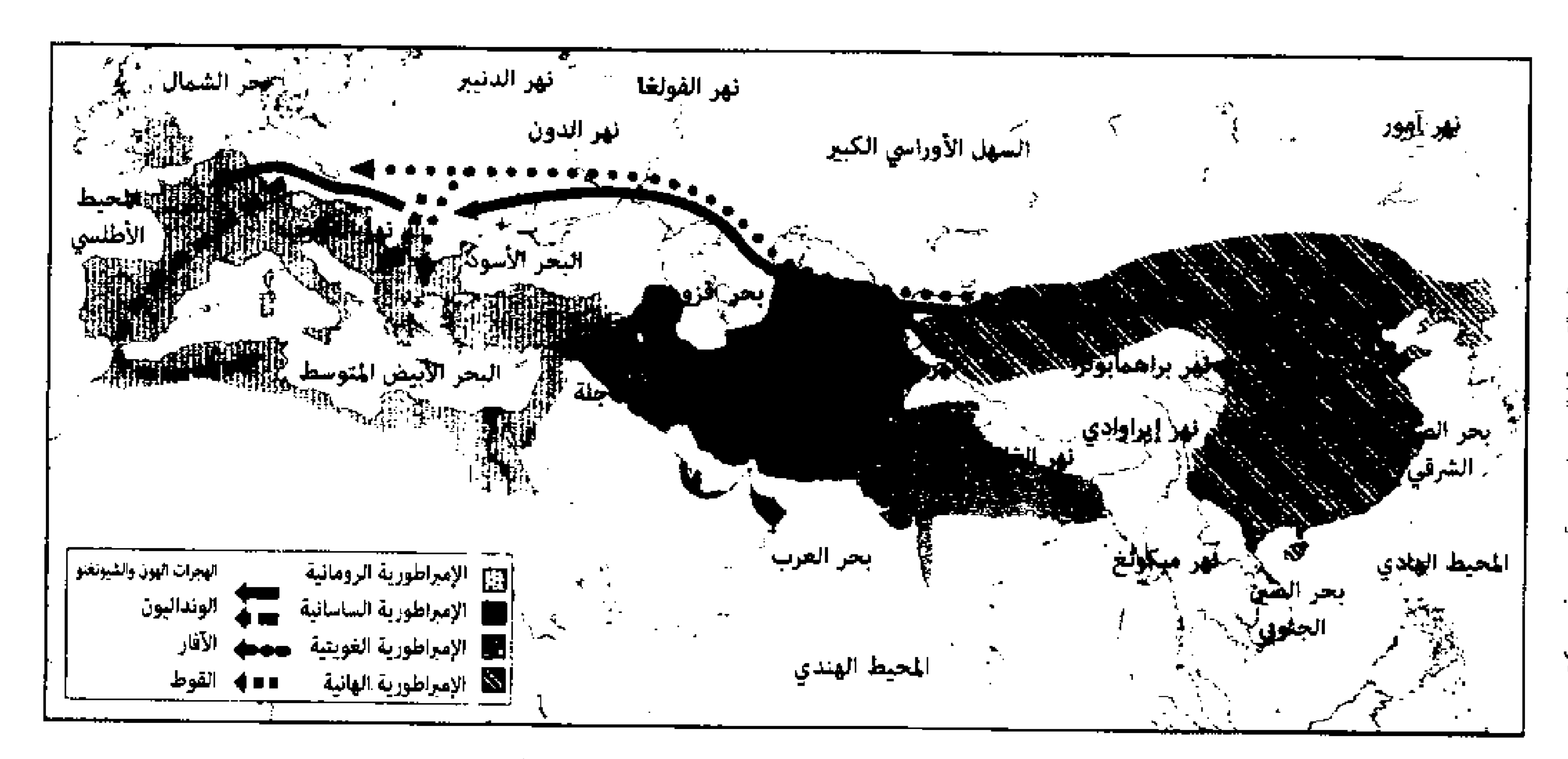
النتيجة المُجَمَّعة لهذه الاتجاهات في زيادة الثروة والقوة وأعداد البشر، فضلا عن جعل الناس أكثر تقبلا للجور والتفاوت المتأصلين في المجتمع المتحضر. وخلال هذه القرون، نسجت شعوب الأمريكتين شبكة مماثلة جمعت حضارات المكسيك وبيرو وحلقة من المجتمعات المتفاعلة التي كانت تحيط بهذين المركزين الرئيسين وعلى اتصال معهما. غير أن البداية المتأخرة والاتصال الأضعف جعلا المهارات التقنية وحشد الجهد البشري للأغراض المشتركة في الأمريكتين متأخرين عما وصل إليه قاطنو أوراسيا وشمال أفريقيا ضمن الشبكة العالمية القديمة.

التحوُّلات في الثروة والقوة النسبيتين

ألحق تفكك الإمبراطوريتين الرومانية والهانية - جنبا إلى جنب مع الأوبئة والعنف اللذين رافقا عمليات الغزو التالية - ضررا بالغا بالجماعات الحضرية والزراعية في أقصى شرق أوراسيا وأقصى غربها كليهما. كان الضرر الذي طال أوروبا البحر متوسطية أشد، إذ انخفض عدد سكانها وتراجعت مراكزها الحضرية. ومع تدهور الإلمام بالقراءة والكتابة، حلّ عصر ظلام دام حتى نهاية الألفية. شهد شمال الصين خبرات مماثلة، لكنه تعافى أسرع من أوروبا، بالدرجة الأولى بفضل الموارد الناتجة من النمو السكاني في وادي اليانغتسي والمناطق الأبعد إلى الجنوب. غير أن ما حدث في شمال الصين وأوروبا البحر متوسطية كان استثنائيا. فبالقرب من مركز الشبكة العالمية القديمة في الهند وجنوب غرب آسيا، كانت هذه القرون عصر ازدهار اقتصادي وثقافي، ولذلك أثرت هاتان المنطقتان في المناطق الأخرى - منها الصين وأوروبا الراكدتان - من خلال تصدير السلع المصنّعة والمهارات والمعارف، كما كانت المراكز المتحضرة تفعل دائما.

يفسر تغير التوازن العسكري بين المغيرين السهليين والمدافعين المتحضرين الانتكاسات المتماثلة التي شهدتها منطقتا البحر الأبيض المتوسط والصين، في حين تواصل ازدهار مركز الشبكة العالمية القديمة. تمثّل التغير الحاسم في أن البارثيين في إيران ابتكروا دفاعات محلية فعالة ضد غارات السهليين(*)، ما حوّل انتباه المغيرين

(*) البارثيون نسبة إلى الإمبراطورية البارثية Parthian Empire (تعرف أيضا باسم الإمبراطورية الأرشكية Arsacid Empire نسبة إلى سلالتها الحاكمة) التي قامت بين العامين 247 ق. م و224 م في منطقة بارثيا الواقعة في شمال شرق إيران الحالية. [المترجم].



الخريطة (4 - 1): التخوم الإمبراطورية الأوراسية والهجرات من السهل في نحو الأعوام 200-600 ح. م

السهليين نحو التخوم الأضعف من حيث الدفاعات، وهي تلك الواقعة إلى الشرق وإلى الغرب.

سيطرت المملكة البارثية على شمال إيران (247 ق. ح - 224 ح. م)، مستفيدة من وقوعها علي طرق التجارة الأوراسية. كان إنجازهم العسكري بسيطا لكن مكلفا، إذ نشأت طبقة من المحاربين البارثيين كانوا قادرين وحريصين على مقاومة المغيرين الآتين من السهل، لأن رفاههم كان مرتبطا بتوفير الحماية لفلاحي الحرث الذين كانوا يحصّلون منهم ريوعا. جهز هؤلاء المحاربون أنفسهم وخيلهم الثقيلة بدروع كافية أبطلت تأثير سهام المغيرين. وباستخدام الأقواس، تمكنوا في كل مواجهة من صد المغيرين سريعا. لكن الفرسان المدرعين المتفرقين كانوا رعايا منفلتين، ما أدى في النهاية إلى تحلل سلطة الملوك البارثيين، وكان لورثتهم الساسانيين (226-651 ح. م) أيضا مجموعة منفلتة من المقاتلين الأشداء، كانوا أحيانا يطيعون الأوامر الملكية، ويتحدونها في الأغلب، أو يتورطون في صراعات محلية فيما بينهم.

كان سلاح الفرسان المدرعين على الطريقة البارثية في حاجة إلى خيل قوية، هي الخيل «التي تتعرق دما»، التي نهزت الإمبراطور الصيني وودي في العام 101 ق.ح إلى إرسال حملة إلى الغرب، دشّن بها ارتباطات القوافل المنتظمة عبر آسيا كلها. كانت هذه الخيل تحتاج إلى علف أفضل من ذلك الذي كان ينمو بريا في السهل المفتوح، ما أوجد تكافؤا عسكريا، إذ لم يكن بمقدور جماعات السهل أن تنتصر على الفرسان المدرعين ولا أن تربي بأنفسها هذه الخيل المكلفة بسهولة، وفي المقابل لم يكن بمقدور الفرسان ذوي الدروع الثقيلة أن يطاردوا المغيرين السهليين بعيدا داخل السهل المفتوح الذي لم يكن يتوافر فيه علف كاف لخيلهم.

كان التبن المجفف من البرسيم المزروع هو ما مكّن الإيرانيين من تربية هذه السلالة الجديدة من الخيل الضخمة. ونظرا إلى أن البرسيم يمكن أن يبذر في حقول الحبوب بدلا من إراحة الأرض، فإن زراعته لم تنقص من إمدادات الغذاء البشري، بل على العكس من ذلك تقوم البكتيريا التي تنمو على جذور البرسيم - وعلى جذور البقوليات الأخرى - بتركيز النتروجين من الهواء في عقد تحت الأرض، ما يخصّب التربة ويحسّن حصاد الحبوب التالي. كما ينمو البرسيم في الربيع بسرعة تمكّنه من مزاحمة معظم الأعشاب الضارة، ويحقق بذلك الغرض الأساس من إراحة الأرض. وفي

المقابل، يحتاج البرسيم إلى ماء أكثر مما يوفّره المطر عادة في الأراضي الإيرانية. لكن أينما أمكن جلب الماء إلى الحقول في الصيف من ذوبان الثلوج الجبلية (في الأغلب من خلال حفر أنفاق تحت الأرض يسمى الواحد منها قناة qanat لجمع المياه الجوفية الراشحة)، احتفظ الريف الإيراني الجاف بمساحات من الزراعة المنتجة، ما ساعد في إعالة مجموعة كبيرة من المحاربين المدرعين، أحدثوا تغييرا جذريا في التوازن العسكري السياسي في أوراسيا بين العامين 200 و651 ح. م، من خلال الدفاع الكفء عن المزارعين المحليين، وتحدي السلطة الملكية مرارا وتكرارا.

امتصت الاضطرابات السياسية المتكررة داخل إيران وحروبها غير الحاسمة مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) معظم الموارد التي كان بمقدور الملوك البارثيين والساسانيين أن يحشدوها. وتشهد خرائب بضعة قصور من الطوب اللبن ونصوص مجزأة - مبهمة في معظمها - على الرعاية الملكية لشكل مُحَدَّث من الزرادشتية وكذلك الدين الجديد المسمى المانوية[1]، وهذا هو كل ما بقي من الثقافة الراقية لذلك العصر، إذ اختفى الكثير من مخلفات ذلك العصر لدرجة يصعب معها التقدير الدقيق للإنجازات الإيرانية، لكن بناياتهم من الطوب اللبن ربما كانت الأصل الذي انبثقت منه القباب وزينة الحوائط الفسيفسائية التي ميّزت العمارة البيزنطية. وبداية من زمن دقلديانوس Diocletian (حكم 284-305 ح. م)، أخذ الأباطرة الرومان يحاكون طقوس البلاط الساساني ورمزيته، وكذلك الفرسان المدرعين الإيرانيين، إذ استأجروا قوات متنقلة من الكاتافراكت Cataphracts باستخدام اسمها اليوناني. غير أن نفقة الاحتفاظ بهذه القوات قيّدت أعدادها بشدة، وذلك لأن السياسة الإمبراطورية لم تسمح لهم بالإفلات من السيطرة المركزية من خلال التعيّش على الريوع المحلية كما كان نظراؤهم الإيرانيون يفعلون.

ازدهرت مدن بلاد ما بين النهرين في ظل الحكم البارثي والساساني، وقام ثراؤها جزئيا على مشاركتها القوية - عن طريق الخليج العربي - في الشبكات التجارية الكثيفة التي كانت تربط سواحل المحيط الهندي[2]، واعتمد ثراؤها بالدرجة الأولى على الزراعة بفضل شقّ قنوات تجري تحت الأرض وفوقها، ما مكّن من توسيع الري أبعد من أي وقت مضى. ويمكن القول حتى إن الهندسة المائية الساسانية لم يظهر

لها ند في وديان دجلة والفرات إلا أخيرا. وساعد قصب السكر والقطن والمحاصيل الجديدة الأخرى التي استوردت من الهند وجنوب شرق آسيا في ازدهار زراعة بلاد ما بين النهرين وسهول البحر الأبيض المتوسط. وعلى الرغم من الفجوات الواسعة في الأدلة الباقية، يظل من الآمن أن نقول إن أراضي جنوب غرب آسيا تمتعت بازدهار وافر وتكشّفت عن إبداع ثقافي رائع خلال القرون التي كانت أوروبا الغربية وشمال الصين فيها قد وصلا إلى الحضيض.

دخلت الهند في عهد سلالة غوبتا Gupta (حكمت نحو 320-535 ح. م) عصرا كلاسيكيا تميّز بالتوسّع الاقتصادي والإبداع الثقافي والتحوّل الديني. وكما كانت الحال في إيران الساسانية، قام ازدهار الهند - إلى جانب التجارة واسعة النطاق - على الزراعة الكثيفة، وبالدرجة الأولى على انتشار زراعة الأرز في أجزاء الهند الأكثر ماء. ظل سهل الغانج المنطقة الأساسية، لكن أصبحت المناطق الساحلية في جنوب الهند مشهدا لزراعة تجارية نشطة كانت تصدّر توابل مثل الفلفل والقرفة إلى بقية أوراسيا. وشكّلت المنسوجات القطنية سلعة أهم في التجارة والصناعة الهنديتين، وربما كانت شبه القارة الهندية موطن القطن. وقد برع الهنود في كل جوانب تحضيره - لاسيما صبغ الأقمشة - منذ الأزمان الغوبتية - وما قبلها - حتى الثورة الصناعية إبان القرن الثامن عشر التي عرقلت الإنتاج اليدوي للمنسوجات في الهند وغيرها من الأماكن. لذلك أدى الازدهار الغوبتي والصادرات الهندية إلى تكثيف حركة النقل خلال الشبكة البحرية على طول سواحل المحيط الهندي.

بيد أن تأثير الهند الأكبر في جيرانها كان دينيا. ارتحل رجال الدين البوذيون والهندوس المتجولون على طول طرق التجارة، آخذين معهم الأمل في الخلاص من المعاناة الدنيوية إلى ملايين البشر عبر معظم آسيا. جذب الهندوس أتباعهم بالدرجة الأولى في جنوب شرق آسيا، بينما انتشرت البوذية على نطاق واسع وأنشأت أديرة في جنوب شرق آسيا ووسطها وفي الصين وكوريا واليابان. ساعد الرسم البوذي والنصوص المقدسة وطريقة الحياة التي وفّقت بين القداسة من ناحية والبيع والشراء في اقتصاد السوق من ناحية أخرى، في تمكين الرهبان البوذيين من التأثير في الثقافة والمجتمع الراقيين في معظم آسيا بين العامين 200 و1000. وحتى في الصين التي دفع رد الفعل الشعبي فيها البوذية إلى العمل تحت الأرض بعد العام 845،

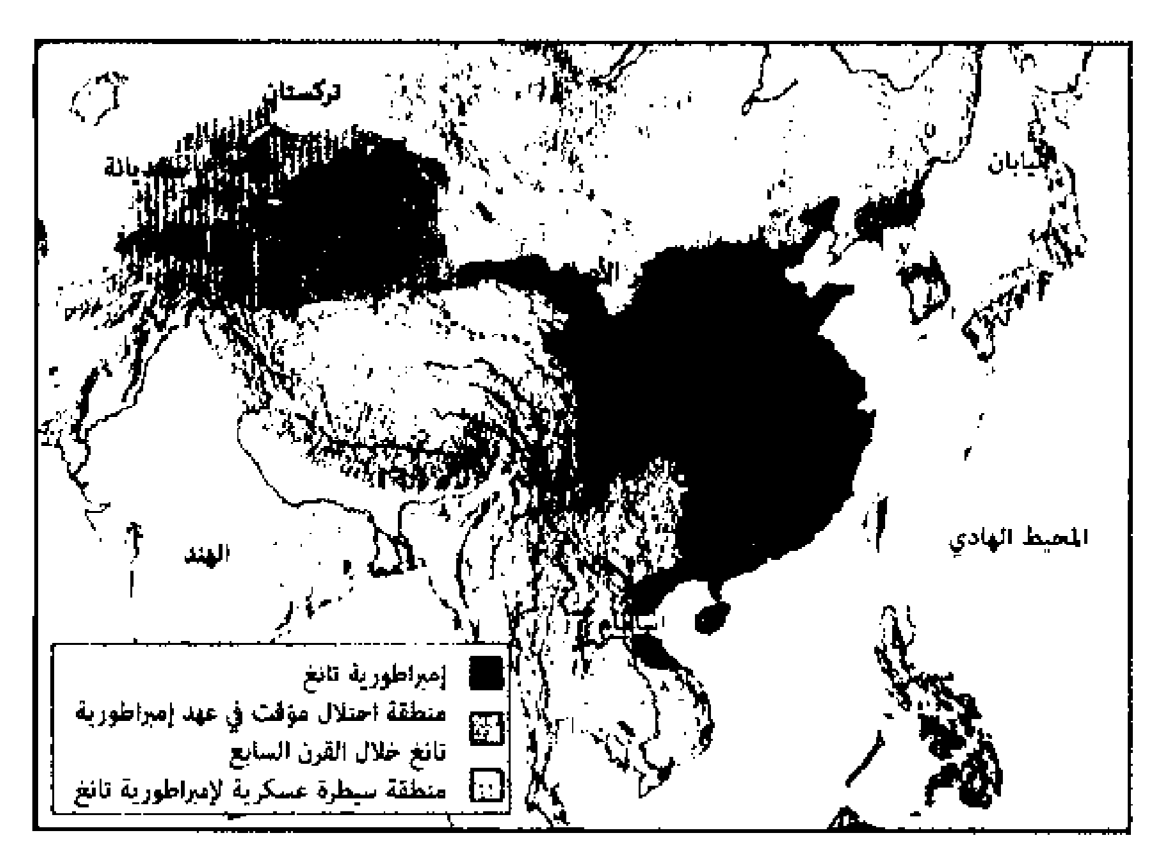
لم يكتب للكونفوشية الغلبة إلا من خلال استدماج الكثير من الموضوعات والأفكار البوذية ضمن ممارساتها.

تغير التوازن بين الحضارات الأوراسية مرة أخرى مع إعادة توحيد الصين في عهد سلالة سوي Sui في العام 589 ومع ظهور الإسلام وتوسُّعه السريع بين العامين 622 و751. بقيت الوحدة العسكرية السياسية للصين - ولو اسميا على الأقل - في عهد سلالات سوي (581-618) وتانغ Tang (618-907) وسونغ Song (960-1279)، وهو ما تكشّف عبر ممارسة سلطة إمبراطورية مركزية متنامية تجلّت في إكمال القنال الكبير في العام 611. قبل ذلك، كان الشمال المهيمن سياسيا والجنوب النشط اقتصاديا يرتبطان على نحو متقلب عن طريق سفن بحرية كانت عرضة عادة لخطر العواصف والقراصنة، ثم جاء افتتاح القنال الكبير ليدشّن نقلا مائيا رخيصا وآمنا بين وادي اليانغتسي الأدنى ووادي النهر الأصفر، ما مكّن الموظفين الإمبراطوريين من توسيع مواردهم باستخدام مراكب القنال لجلب الضرائب في شكل سلع من الجنوب سريع النمو لدعم الجيوش المتمركزة على طول التخوم الشمالية. فقد جلب القنال للبلاط الإمبراطوري فيضا من السلع الثمينة من كل حدب وصوب.

كان في إعادة تأكيد التقاليد الكونفوشية بين طبقة مُلاك الأراضي الصينيين تعزيز للتقبل الفكري والأخلاقي للحكومة الإمبراطورية بين الموظفين المتعلمين. انطوى الإحياء الكونفوشي على إعادة تفسير حاذقة للنصوص الكلاسيكية للإجابة عن الأسئلة التي تثيرها التعاليم والطقوس البوذية. وبدأت الكونفوشية الصينية تقترب في الشبه من الأديان الأخرى عندما استدمجت تأكيدا أقوى على عالم ما وراء الطبيعة. وعندما أقنع الكونفوشيون الحكومة باضطهاد البوذية وغيرها من الأديان الأجنبية بعد العام 845، فإن ذلك كان تأكيدا للخوف المتنامي من الأجانب الذي تكوّن بفعل ضعف الصين الدائم أمام الغارات المسلحة من السهل.

وحيث إن الخيّالة السهليين كانوا دائما أسرع في الحركة من المشاة مهما بلغ عدد الأخيرين، فقد ظلت دفاعات الصين في الشمال والغرب ضعيفة. غير أن موارد الصين المادية الضخمة كان بمقدورها أن تتحمّل جيوشا جرارة، وقد استخدم أباطرة سلالة سوي هذه الجيوش لغزو كوريا، ودفع الأباطرة التانغيون الأوائل قواتهم المسلحة - منها الكثير من الفرسان - إلى عمق آسيا الوسطى. لكن كانت هناك

صعوبة في إمداد الجيوش المتمركزة على التخوم البعيدة والسيطرة على هذه الجيوش كما اكتشف الأباطرة التانغيون في العام 755 عندما اندلعت ثورة هائلة على طول التخوم الشمالية الغربية، ولم ينقذ هذه السلالة إلا التدخل المسلح من جانب أتراك الأويغور Uighur Turks من آسيا الوسطى الذين انتزعوا بعد ذلك إتاوات مالية باهظة من بلاط كان قد افتقر بعد أن انكمشت الموارد الإمبراطورية تدريجيا عندما وجد القادة العسكريون الإقليميون الصينيون أنه من الممكن - بل من الضروري - أن تكون لهم قوات تحت إمرتهم من خلال اعتراض الدخل الضريبي قبل أن يصل إلى العاصمة. وبعد العام 960، استعادت سلالة سونغ سيطرة مركزية أشد على الجيوش الصينية، لكنهم ظلوا غير قادرين على طرد الغزاة السهليين من أقاليم أقصى شمال الصين.



الخريطة (2-4): الصين في نحو العام 900 ح. م

كان من نتائج الإتاوات الثقيلة التي كانت الصين تدفعها لشعوب السهل أنها نشرت السلع والأساليب الصينية عبر السهول الشرقية وعميقا داخل آسيا الوسطى. كان هناك الكثير مما يمكن نشره، ذلك أن النمو الهائل في عدد سكان الصين، لاسيما

في الجنوب، قد أحدث توسُّعا اقتصاديا وتطوُّرا رائعا في المهارات الحرفية والثقافة الراقية التي شكّلت معايير للفن والشعر الصينيين اللاحقين وأشياء كثيرة أخرى. لذلك أدت تجارة القوافل طويلة المسافات إلى آسيا الوسطى والهند وتجارة ما وراء البحار مع السواحل والجزر المجاورة من كوريا واليابان إلى جاوة، إلى نشر دائرة التأثير الصيني عبر وسط آسيا وشرقها، وهي الدائرة التي ظلت قوية على الرغم من التحديات التي فرضها المسلمون.

***

تولى المسلمون بعد العام 634 الصدارة في رعاية الشبكة العالمية القديمة وتوسيعها، وقدموا للعالم حضارة جديدة تقوم على الوحي الذي نُزّل على النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] (نحو 570-632 ج. م)، جنبا إلى جنب مع تراث بلاد العرب الوثنية واستعارة جوانب منتقاة من التراث اليهودي والساساني واليوناني-الروماني والهندي. يعد الظهور السريع للحضارة الإسلامية المثال الأبرز في التاريخ الإنساني لتغير حياة ملايين ومئات ملايين البشر في غضون جيل واحد وعبر القرون اللاحقة بفعل أفكار إنسان واحد. كانت الشبكة العالمية القديمة التي يسّرت ذلك موجودة فعلا، وكل ما فعله النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] هو أنه أطلق في الشبكة رسالة جديدة ذات جاذبية قوية، ما أحدث دويا في كل حدب وصوب.

لذلك أصبح الدين مجدولا مع الحرب والسياسة على نحو معقد عندما هاجر النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] من موطنه مكة في العام 622 ليصير حاكم الواحة القريبة التي سميت المدينة. وشكّل الوحي الشفهي الذي جمع لاحقا في القرآن، سلوك جماعة المؤمنين الذين التفوا حول النبي. كان يقين هؤلاء المؤمنين بأن الله معهم وراء انتصارهم في كل مواجهة لهم مع المشركين، ما مكّنهم من العودة مظفرين إلى مكة في العام 630 وتوحيد كل قبائل بلاد العرب قبل أن يلقى النبي ربه في العام 632، وتعزّز هذا اليقين عينه بفعل الانتصارات الحاسمة الكثيرة التي حققها المسلمون على الجيوش الرومانية (البيزنطية) والساسانية (الفارسية) بين العامين 634 و651. ولم ينقذ العالم المسيحي إلا فشل الأسلحة الإسلامية أمام أسوار القسطنطينية في الأعوام 673-678، ومرة ثانية في العامين 717 و718، لكن الانتصارات المتجددة على التخوم المترامية للعالم الإسلامي- في إسبانيا وشمال غرب

الهند بعد العام 711 وضد الصينيين في آسيا الوسطى في العام 751 - أثبتت مجددا أن الله يقف بجانب الدين الإسلامي.

كانت الإبل القاعدة المادية الوحيدة لانتصارات المسلمين الأولى، والعرب الذين أتقنوا فنون ترويض الإبل، كانت تحت أيديهم أعداد من هذه الحيوانات أكبر من أي شعب آخر، ما مكّنهم من إمداد جيوشهم عبر المناطق الصحراوية على نحو أكفأ من منافسيهم، وهي الميزة التي تفسر المدى الشاسع للفتوحات العربية الأولى التي امتدت من شمال أفريقيا وإسبانيا في الغرب إلى إيران وجوارها في الشرق. غير أن ذلك لا يلغي حقيقة أن اليقين الديني لدى العرب وروابط التضامن الناتجة من هذا اليقين قد أسهمت في الانتصارات الإسلامية المتفردة المبكرة أكثر مما أسهم فيها استعمال الإبل.

وسرعان ما أوجدت العقيدة الدينية القوية حضارة جديدة في أنحاء العالم الإسلامي كافة. وعلى الرغم من الاختلافات المحلية، اكتسب المجتمع الإسلامي طابعا مميّزا يقوم على الصلوات الدينية اليومية وغيرها من الشعائر، تتمُّمها الشريعة التي بنيت على القرآن والسنة وسيرة النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] وصحابته في حياتهم اليومية. كما أن الحاجة التي فرضها الدين إلى تعلم اللغة العربية لحفظ القرآن وتلاوته، وكذلك فريضة الحج إلى مكة على كل من استطاع إليه سبيلا، قد جعلتا النخب في كل أرجاء العالم الإسلامي الآخذ في الاتساع على اتصال بعضها مع بعض.

لكن بعد وفاة النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] في العام 632، فرضت مسألة الزعامة السياسية والعسكرية عقبة كؤودا، وقد اختير الخلفاء الثلاثة الأُول عن طريق مؤتمر تشاوري غير رسمي للدائرة الداخلية لقيادات المسلمين. وفي العام 656، اغتيل الخليفة عثمان - ابن العائلة الأموية - ما أطلق حربا أهلية خرج منها علي - زوج ابنة النبي - منتصرا. وفي واقعة دامية، قُتل الحسين بن علي (680)، وأسّست العائلة الأموية من قاعدتها في دمشق ما صار ادعاء وراثيا بالخلافة. واستمرت الخلافة فيهم إلى أن أطاحت بهم في العام 750 عائلة مكية منافسة، هم العباسيون الذين نقلوا العاصمة إلى بغداد.

ارتاع الكثير من المسلمين المتدينين من اللجوء إلى العنف المسلح لاختيار الخليفة. وآثر بعضهم، وهم الذين عرفوا باسم الشيعة، أن يظلوا على ولائهم

لذكرى علي والحسين، ورفضوا الإذعان لشرعية أي من الخلافتين الأموية أو العباسية، وشكّلوا معارضة دائمة للزعماء العسكريين والسياسيين للأمة الإسلامية. في حين سلّمت الغالبية السنية بأن الله قد اختار خلفاء بني أمية وبني العباس المنتصرين لإدارة الشؤون العسكرية للأمة، لكن هؤلاء الخلفاء اعتمدوا على فقهاء غير حكوميين في الشريعة لحسم المسائل الدينية وغيرها من أمور الحياة. كان من عواقب الانشقاق الناتج بين السنة والشيعة والفجوة بين الزعامة الدينية - الاجتماعية والسياسية - العسكرية أن أوجد خطوط فصل داخل الأمة الإسلامية لاتزال قائمة حتى اليوم.

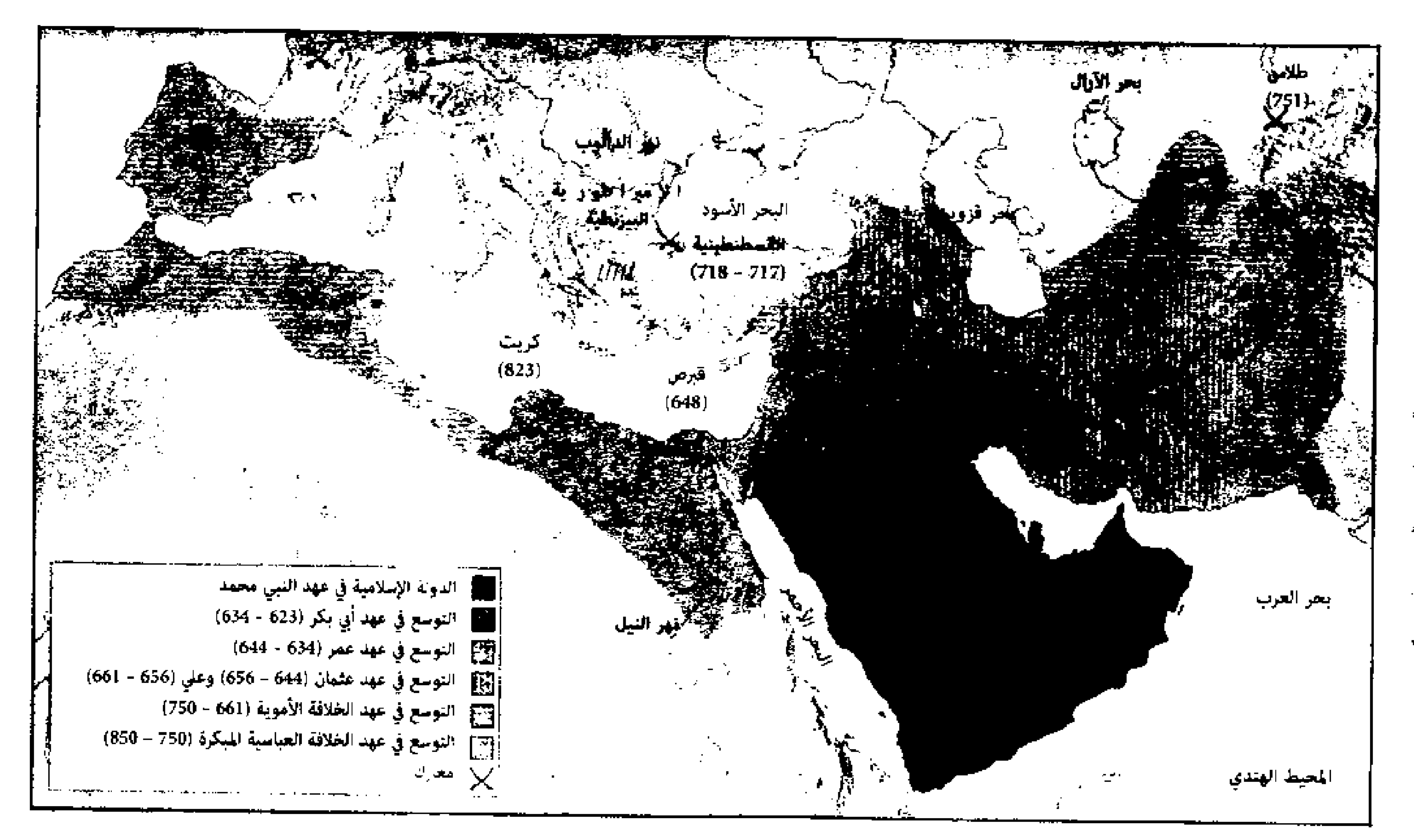
ثمة سمة باقية أخرى للمجتمع الإسلامي ورثها عن التحالف بين سكان الحضر المكيين والبدو. فقد استمرت تجارة مكة على مدى القرون بفضل التعاون الوثيق بين التجار الحضريين والقبائل البدوية من رعاة الإبل الذين شكّلوا القوة العاملة لقوافل التجار ووفّروا لها الحماية. وحتى النبي محمد نفسه سافر إلى سورية البيزنطية تاجرا قبل أن يتنزّل عليه الوحي. لذلك أبدى المسلمون احتراما للتجار وعادات السوق أقوى مما فعل حكام الإمبراطوريات السابقة. وأصبحت الإبل أكثر عددا وأهمية من قبل، وغدت التحالفات الحضرية - البدوية غير الرسمية خاصية للمجتمع الإسلامي الجديد. وفي المقابل، وجد الفلاحون ومُلاك الأراضي الريفيون أنفسهم طوع حكام وسياسات تحابي التجار والرعاة. ليس غريبا - إذن - أن الزراعة تراجعت في بلاد ما بين النهرين والمناطق المحيطة بها. أما في إسبانيا، فقد بلغت الزراعة آفاقا جديدة، بفضل المحاصيل وتقنيات الري الجديدة المميّزة لجنوب آسيا التي جلبها الفاتحون المسلمون معهم من مناطق أكثر جفافا.

كان الدين الإسلامي بطيئا في انتشاره إلى الريف. فالقرآن يقضي بالتسامح مع المسيحيين واليهود ماداموا يدفعون الجزية، ولذلك أيضا تعايش المسلمون والمسيحيون واليهود جنبا إلى جنب على مدى قرون، وأعطيت كل جماعة دينية حق إدارة شؤونها الخاصة، مع الخضوع فقط للجزية وبضعة قيود أخرى فرضها الحكام المسلمون. وبدأت عملية معقدة من الاستيعاب المتبادل، إذ وجد المسلمون الكثير مما يمكن أن يأخذوه من التطوّر الحضري لرعاياهم الجدد، وفي المقابل جذب الدين المنتصر أعدادا كبيرة إلى حظيرته، لاسيما بين الإيرانيين، ما جعل الديانة الزرادشتية

تتضاءل بشدة حتى صارت تقتصر على بقايا صغيرة فقط في شمال غرب الهند تعرف حاليا باسم البارسيين.

جمعت مظلة الإسلام المبكر تبادلات اقتصادية واسعة النطاق تحت سقف واحد، إذ بنى التجار شبكة اقتصادية مترامية الأطراف. فكان بمقدورهم أن يعملوا من المغرب إلى إيران، وأن يجدوا أينما ذهبوا - بحلول العام 700 - الشريعة الإسلامية وفكرة متسقة عن التعاقد. وربطت قوافل الإبل الوديان النهرية والواحات معا بدرجة أوثق من قبل، ما أسهم في حشد طاقات إنتاجية جديدة. وشهدت الأراضي التخومية في جنوب إسبانيا - على سبيل المثال - ازدهارا كبيرا في عهد الخلفاء المسلمين، وذلك بفضل أعمال الري والمحاصيل الجديدة، مثل السكر والحمضيات التي جلبوها من الشرق. واستفادت شبكة التجارة المحسّنة من الشحن في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وبحر العرب، ولذلك ازدهرت قرطبة وفاس والقاهرة ومدن تجارية أخرى. شارك المسلمون والمسيحيون واليهود جميعا في هذا النشاط التجاري، لكن الازدهار كان يستلزم الوحدة والسلام في ديار الإسلام، وهي حالة أثبت الحفاظ عليها أنه صعب.

جاء التحدي الأكبر للوحدة الإسلامية من التخوم الإيرانية مع آسيا الوسطى. كان انهيار الدولة الساسانية في العام 651 قد صاحبه تحلل غامض لطبقة المحاربين الإيرانيين الريفيين الذين كانوا يحرسون الريف في السابق من المغيرين السهليين، ربما كان دخلهم الزراعي قد تراجع بسبب قرون من الري أدت إلى تراكم الملح في الحقول، وربما انخفضت إمدادات المياه الجوفية بسبب الإسراف في الاستخدام أو التغير المناخي، وربما آثر مُلاك الأراضي الإيرانيون - بعد اعتناق الإسلام - رفاهية الحياة في الحضر الذي كان بوسعهم فيه أن يراعوا فروض دينهم الجديد على نحو أكمل. لا أحد يعرف على وجه اليقين، لكن المعلوم يقينا هو أن ذلك قد أحدث تقاربا متناميا بين القبائل التركية السهلية والمراكز الحضرية في جنوب غرب آسيا. على وجه التحديد، أصبح الخلفاء العباسيون يعتمدون في حمايتهم الشخصية على حرس من العبيد الأتراك، ومنذ ذلك الحين - العام 861 تحديدا - بدأ الجنود العبيد يتدخلون في دسائس البلاط العباسي، وفي النهاية حوّلوا الخلفاء إلى دمى يتلاعبون بها. وانفصلت أقاليم عن الدولة تماما، وبحلول العام 1000، كان المغامرون والغزاة


طلاس
(751)
بحر الآرال
بحر قزوين
البحر الأسود
القسطنطينية
(717 - 718)
البيزنطية
كريت
(823)
قبرص
(648)
نهر النيل
البحر الأحمر
بحر العرب
المحيط الهندي
الدولة الإسلامية في عهد النبي محمد
التوسع في عهد أبي بكر (623 - 634)
التوسع في عهد عمر (634 - 644)
التوسع في عهد عثمان (644 - 656) وعلي (656 - 661)
التوسع في عهد الخلافة الأموية (661 - 750)
التوسع في عهد الخلافة العباسية المبكرة (750 - 850)
معارك

الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام السني يسيطرون على السلطة السياسية في معظم المركز الإسلامي الواقع بجنوب غرب آسيا. وبذلك أصبحت الوحدة السياسية للعالم الإسلامي اسمية فقط، بعد أن ظلت قلقة منذ بدايتها.

ثمة تحد آخر للوحدة الإسلامية والزعامة العباسية ظهر في شمال أفريقيا، عندما زعم رجل في العام 909 أنه من نسل فاطمة ابنة النبي، وأعلن نفسه المهدي الذي قيّض له الله أن يعيد الإسلام إلى طهره الأول بانتزاع دوره الشرعي خليفة للأمة الإسلامية. ونجحت حركته التي تبنت شكلا متطرفا من الإسلام الشيعي في اجتذاب أنصار متحمسين من رجال القبائل البربرية الذين كانوا يعيشون في جبال شمال أفريقيا، وسرعان ما انتزعوا - تحت الراية الفاطمية - السيطرة على المدن الساحلية في المغرب والجزائر وتونس. وغزا أحد خلفاء المهدي مصر واتخذ من القاهرة عاصمة له، وبعدها انطفأ حماسهم الديني الأولي، وكما فعل خصومهم العباسيون، وجد الخلفاء الفاطميون في مصر (968-1171) أن الاعتماد على الجنود العبيد أسلم لهم. ومع ذلك فقد ظلت حركة شيعية سرية متعاطفة بشكل أو بآخر مع ادعاءات الفاطميين، تتمتع بدعم كبير في الكثير من أرجاء العالم العباسي، ما زاد قلق المسلمين السنة وحكامهم في وقت كان إيمانهم بالتأييد الإلهي لهم يتآكل مع توقف انتصاراتهم على الكفار المسيحيين والهندوس.

يعتقد المسلمون أن القرآن صحح الأخطاء التي تسللت إلى الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية، ومادامت الجيوش الإسلامية مظفرة في ساحات المعارك، ظل هذا الاعتقاد مقنعا لجميع الأطراف. لكن الحال تغيّرت عندما فشل المحاصرون المسلمون للمرة الثانية في العام 718 في الاستيلاء على القسطنطينية. كان من الواضح حتى ذلك الحين أن الإمبراطورية البيزنطية سيحل بها ما حلّ بالدولة الساسانية، وهو ما كان من شأنه أن يضع كل المسيحيين تقريبا تحت الحكم الإسلامي، تماما كما حدث مع الزرادشتيين. لكن هذا قد صار بوسع المسيحيين بعد العام 718 أن يعتقدوا مجددا بأن الله مازال يقف بجانبهم. ولم تستطع التقلبات اللاحقة في التوازن السياسي- العسكري بين العالمين المسيحي والإسلامي، مهما كان حجمها، أن تزعزع إيمان واقتناع أي من الجانبين بصحة موقفه. لذلك هيمنت الحملات الصليبية والجهاد - الهجوم والهجوم المضاد - على المناطق

الحدودية المسيحية - الإسلامية، مع أن الاتصالات التجارية والفكرية بين الجانبين لم تنقطع يوما.

هكذا انقسم غرب أوراسيا إلى كتل دينية متعادية. وحدث الشيء نفسه تقريبا في شرق أوراسيا، فبعد العام 845 بدأ ارتباط النخبة الحاكمة الصينية بتقاليدها الكونفوشية - بالدرجة الأولى - يضعها في حالة تضاد مع التأثيرات الدينية والثقافية الأجنبية الأخرى، على الرغم من لقاءاتهم التي لا تحصى مع الأويغور المانويين والتبتيين البوذيين والتجار المسلمين الذين وطّدوا أقدامهم في غيتوهات حضرية على طول التخوم الصينية الساحلية والسهلية. بيد أن المقاومة الشديدة للدين الإسلامي بين الكونفوشيين والمسيحيين لم تحل دون الانتشار السريع للمهارات والمحاصيل والأفكار الجديدة بين الشعوب المتحضرة في أوراسيا وكذلك إلى المناطق المحيطة.

توسُّع الشبكة العالمية القديمة وتكثُّفها

أدى تحسُّن النقل إلى مدّ الشبكة إلى أنحاء أوراسيا وشمال أفريقيا كلها، وإلى ما وراءها. واكتسب الإبحار في المياه العاصفة قبالة شمال أوروبا أهمية جديدة وبلغ تمكنا فنيا عندما بدأ المغيرون والتجار والمستوطنون الفايكنغ الآتون من إسكندينافيا يقطعون بحري البلطيق والشمال جيئة وذهابا، ثم غامروا بعد ذلك بدخول المحيط الأطلسي، واستوطنوا أيسلندا (875) وغرينلند (982) ونيوفاوندلاند - لوقت قصير فقط - بعد العام 1000 مباشرة(*). وشهد الإبحار في المحيطين الهندي والهادي مزيدا من التوسُّع الجغرافي والتحسُّن الفني، لكننا في هذه الحالة لا نمتلك شيئا شبيها بالملاحم الأيسلندية لكي تخبرنا بما حدث هناك بالضبط(**).

(*) الفايكنغ Vikings: جماعات من البدو البحريين كانوا يتحدثون اللغة الشمالية القديمة، أغاروا من موطنهم في إسكندينافيا على غرب أوروبا (إنجلترا وفرنسا) وشرقها (روسيا) وجنوبها (صقلية) فيما عرف باسم عصر الفايكنغ؛ نيوفاوندلاند Newfoundland جزيرة على الساحل الشمالي الأطلسي لكندا، اكتشفت ثانية في العام 1497. [المترجم].

(**) الملاحم الأيسلندية Icelandic sagas (أو ملاحم الأيسلنديين sagas of Icelanders أو ملاحم العائلات family sagas): قصص نثرية مجهولة المؤلفين كتبت خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، تقوم في أغلبها على أحداث تاريخية حدثت في معظمها في أيسلندا خلال القرون من التاسع إلى الحادي عشر، تحكي تاريخ الأيسلنديين، لاسيما تاريخهم العائلي والسلالي، وتعكس الصراع الذي نشأ في مجتمع الأجيال المبكرة من المستوطنين الأيسلنديين. [المترجم].

من الأحوط أن نفترض أن اختراع المدّادات لتثبيت الزوارق الشجرية حتى في البحار العاصفة هو ما يسّر الرحلات البولينيزية الطويلة التي أدت إلى استيطان أماكن بعيدة مثل جزيرتي إيستر وهاواي (استوطنتا في نحو العام 400) وجزيرة نيوزيلندا (استوطنت في نحو العام 1300)(*). لكن انقطعت الصلة بين المستوطنين البولينيزيين على هذه الجزر البعيدة وبقية العالم. وعلى النقيض من ذلك، أوجدت السفن التي قطعت المحيط الهندي وغرب المحيط الهادي جيئة وذهابا، شبكة تجارية واسعة ضمت كل المناطق الساحلية على البر الآسيوي وامتدت إلى الجزر الإندونيسية جنوبا وإلى الأرخبيل الياباني شمالا.

لا يُعرَف الكثير عن الطرق التي جرى من خلالها بناء هذه السفن أو تشغيلها أو تمويلها، لكن يمكن القول بشيء من الثقة إن المهارات الملاحية والعمارة البحرية تحسّنت مع مرور الوقت، ما مكّن السفن من الإبحار لمسافات طويلة بعيدا عن مرأى الشاطئ. ولذلك فبحلول نحو العام 400 ح. م، كان المحيط الهندي وغرب المحيط الهادي قد أصبحا مجالا بحريا واحدا. كانت السفن في السابق تبحر في محاذاة الساحل ثم تفرغ حمولتها لكي تُنقل برا عبر برزخ كرا في شبه جزيرة الملايو، ما كان يحمّل التجار مكوسا متكررة لمصلحة السلطات المحلية على طول الطريق من الهند إلى الصين ذهابا وإيابا. لكن عندما بدأت السفن في الإبحار مباشرة عبر خليج البنغال والدوران حول شبه جزيرة الملايو إلى بحر الصين الجنوبي، انخفضت تكاليف الحماية بفضل تقليل عدد الموانئ التي تقف فيها السفن. ومع تراجع تكاليف الحماية، ومع انتشار العملات وأعمال التمويل في كل مكان، اتسع نطاق تجارة المسافات الطويلة. وبدأت سلع مثل القرنفل وجوز الطيب من إندونيسيا، والذهب والعاج من أفريقيا، والخزف والحرير من الصين، والفلفل والقطن من الهند، وغيرها الكثير توزع على نطاق أوسع وبكميات أكبر من قبل.

وعندما أصبحت الإبل حيوانات الحمل الأساسية، ربطت القوافل شعوبا وأماكن كانت منعزلة في السابق بتكلفة أقل وبانتظام أعلى. كانت الإبل المدجّنة معروفة كشكل من الهواية في جنوب غرب آسيا من نحو العام 2000 ق.ح، لكنها كانت

(*) المدّادات أو أذرعة الامتداد أجزاء طافية تضاف إلى جانبي المركب للمساعدة في ثباته وعدم انقلابه في العواصف. والزورق الشجري زورق يصنع بتجويف جذع شجرة. [المترجم].

صعبة في ترويضها وركوبها ومن شبه المستحيل تحميلها، إلى أن نجح اختراع الرَحْل العالي - بحلول العام 200 ح. م وربما قبله - في الإحاطة بسنام الإبل وتوزيع وزن الراكب أو الحمل على ضلوع الحيوان[3].

جعل هذا الاختراع الإبل أنفع كثيرا من الخيل أو البغال كحيوانات حمل في المناطق الصحراوية، وذلك لأنها تحمل أحمالا أثقل وتستطيع أن تتغذى على النباتات الشائكة. كانت بلاد العرب والمناطق المجاورة لها في شمال شرق أفريقيا الأماكن الأولى التي استغلت إمكانات الإبل ذات الرِحال، ثم انتشر فن ترويض الإبل - كما رأينا - في كل حدب وصوب مع الجيوش الإسلامية المظفرة. لذلك أصبحت سهول آسيا الوسطى وصحاريها والصحراء الكبرى الأفريقية مطروقة أكثر من ذي قبل، ما مكّن من تدفق سلع جديدة مثل الذهب الأفريقي والعبيد الأتراك إلى المدن الإسلامية. كان من نتائج استخدام الإبل إبعاد النقل بالعجلات - وتكاليف صيانة الطرق - عن مراكز العالم الإسلامي، وذلك لأن الإبل كانت تكلفتها أقل وكانت قادرة على اجتياز المناطق السبخة والوعرة والحصوية، ناهيك عن الأزقة الضيقة في المدن والقرى التي لم تكن العربات تستطيع المرور خلالها.

توسّعت الشبكة العالمية القديمة وقويت، لاسيما على طول سواحل المحيطات وخلال الأحزمة الجافة بجنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا بين العامين 200 و1000 بفضل تحسُّن مدى السفن والقوافل وسعاتها الحملية. ولم تعد الحضارة شيئا متفردا، إذ أحدث تبادل المحاصيل والسلع المصنّعة والأفكار والأمراض وغيرها من جوانب الحياة المتحضرة تغييرا جذريا في الخبرات الإنسانية في كل مكان تقريبا. فقبل العام 200 ح. م، كانت المجتمعات المتحضرة تنتشر على نحو متفرق ضمن الشبكة العالمية القديمة. لكن بحلول العام 1000، كان مزيد من التوسّع في اتجاه الجنوب قد أدخل معظم أفريقيا وكل جنوب شرق آسيا وجزره في دائرة الحضارة العالمية القديمة. ومع أن التوسّع في اتجاه الشمال أدخل في الشبكة عددا أقل من البشر، فإنه غطى منطقة أوسع، إذ طال كوريا واليابان وشمال أوروبا وأدخل كل جماعات السهل والغابات الشمالية في حالة تكافل عضوي مع الجماعات الزراعية المتحضرة. لذلك جاء العام 1000 وقد بلغت الشبكة العالمية القديمة اتساعا غير مسبوق، إذ ضمت كل أوراسيا تقريبا وأغلب أفريقيا وكانت تربط بين نحو مائتي مليون إنسان.

كان من بين التغيرات الكثيرة التي انطوت عليها عملية التوسُّع أن انتشار حقول الأرز في جنوب آسيا طال تأثيره حياة عدد من البشر أكبر من أي تغير آخر في ذلك العصر. أحدثت حقول الأرز زيادة كبيرة في إنتاج الغذاء، وهو ما جاء على حساب تعريض الحصاد للمصادرة من جانب الدخلاء من المغيرين أو جباة الضرائب والريوع. ربما قاوم مزارعو البساتين في جنوب آسيا انتشار حقول الأرز، كما تشهد على ذلك «شعوب الغابات» الكثيرة الباقية حتى اليوم في الهند وجنوب شرق آسيا وإندونيسيا. غير أن الأرز كان يعني مزيدا من الغذاء - ومزيدا من الكدّ - حتى عندما كان الحكام ومُلاك الأراضي يأخذون نصيبا كبيرا من الحصاد، وكانت زيادة الغذاء بدورها تعني زيادة أعداد البشر. لذلك ظل مزارعو الأرز الهنود والصينيون الأوائل بين العامين 200 و1000 يجورون على كل شعوب الغابات الذين كانوا يعيشون بين مراكز الحضارتين، ووضعوا أقاليم متاخمة شاسعة جديدة وموارد ضخمة تحت تصرف الطبقة الحاكمة في الحضارتين. اعتمد ازدهار الهند في عهد سلالة غوبتا وتعافي الصين في عهد سلالة سوي بعد العام 589 على هذا التحويل المضني للغابات والمستنقعات والسهول الفيضية إلى حقول أرز مستوية وذات حواجز اصطناعية. وبذلك أخذت واحدة من كبرى كتل الغابات الاستوائية في العالم تتآكل تدريجيا لإفساح المجال للأرز.

وأينما ترسَّخت زراعة الأرز على مسافة كبيرة من المناطق الأساسية الهندية والصينية، تجذَّرت مع نباتات الأرز دول مستقلة جديدة. فكوريا - على سبيل المثال - أخذت الأرز عن الصين قبل العام 1000 ق.ح، بينما لم تكتمل التوليفة عالية الإنتاجية المكوَّنة من الأرز المروي والأدوات الحديدية والثيران للحرث إلا بعد نحو العام 100 ح. م(*). كان الأرز الأساس للمملكة الواقعة إلى أقصى الجنوب بين الممالك الثلاث التي سيطرت على كوريا لسبعة قرون قبل أن توحِّد سلالة شيلا Silla شبه الجزيرة الكورية (618 - 676). وخلال هذه القرون أصبحت البوذية الدين الرسمي للبلاد، بينما تجذَّر العلم الكونفوشي والمخطوطات الصينية وشكَّلت

(*) الأرز المروي irrigated rice هو الأرز الذي يزرع في حقول معدة خصيصا بحواجز مرتفعة لحفظ الماء راكدا فيها بارتفاع بضع بوصات تسمى حقول الأرز paddy fields (أو rice paddies)، وذلك في مقابل الأرز الجاف الذي يزرع على المطر rainfed rice. وثمة نوع ثالث من حيث طريقة الزراعة هو الأرز المغمور deepwater rice الذي يغمره الماء حتى نصف متر أو متر (لذلك استطالت سيقانه للتكيف مع ارتفاع مستوى الماء) ويزرع في المناطق الفيضية في مساحات مفتوحة. [المترجم].

المقومات الأساسية للثقافة الأرستقراطية الكورية. وعملت سلالة شيلا (618 - 935) - بغرض زيادة عائداتها وقوتها - على نشر زراعة الأرز المروي في كل وادٍ مناسب في كوريا، بينما ظل الشعير والسرغوم محصولين مهمين في شمال البلاد.

تكررت هذه العملية عينها في اليابان بعد فترة قصيرة، إذ وصل الأرز المروي إلى الجزر اليابانية في نحو العام 300 ق.ج، لكنه لم ينتشر على مستوى يكفي لإعالة دولة ياموتو Yamoto التي تنحدر منها السلالة الإمبراطورية اليابانية الحالية، إلا بعد العام 250 ج. م. وساعد وصول الرهبان البوذيين من كوريا في العام 552 في إدخال الإلمام بالقراءة والكتابة إلى اليابان وإقامة صلات أقوى مع آسيا البرية(*). وعندما قرر البلاط الياباني في العام 593 أن يتبنى الدين المستورد، يسّرت الرابطة البوذية استيراد الأفكار والممارسات الصينية. لكن بعيدا عن البلاط، تحدى المجتمع الريفي الياباني الاستعارة الثقافية وظل وفيا لنفسه.

وبالطريقة نفسها، ظهرت في كل الوديان النهرية الرئيسة في جنوب شرق آسيا البري وعلى جزيرتي جاوة وسومطرة دول جديدة مع انتشار حقول الأرز إلى مواقع مواتية جغرافيا، وتضاعفت الروابط التجارية مع الهند والصين. ورعى كل الملوك الجدد في المنطقة تقاليد محلية متنوعة من خلال استيراد طقوس البلاط والدين من الهند. كان هؤلاء الملوك يحكمون جماعات زراعية وجدت نفسها نتيجة تحوُّلها إلى الاعتماد على الأرز بالدرجة الأولى مجبرة على تقاسم الحصاد مع عدد من جباة الضرائب والريوع، وذلك لأن أعمال بناء القنوات والحواجز المطلوبة لخلق حقول الأرز تطلبت استثمارات ضخمة. ومع ذلك، ففي الكثير من الأماكن، بقيت أنماط الزراعة المتنقلة القديمة - يكمّلها صيد الأسماك والحيوانات والجمع - بعيدة عن أيدي جباة الضرائب. كانت شعوب الغابات هذه تشغل مساحات من جنوب شرق آسيا أكبر مما شغله نظراؤهم في الهند، ولذلك بقيت مدن المعابد والقصور - ومن ضمنها دوائر البلاط - في جنوب شرق آسيا مجرد جيوب غريبة وسط جماعات البستانيين الاستوائيين المحيطة.

(*) تشير الصفة «بري» مع المناطق والقارات مثل جنوب شرق آسيا أو آسيا أو الأمريكيتين أو أوراسيا إلى كتلة اليابسة القارية mainland في مقابل الجزر الواقعة قبالة الشاطئ offshore islands في هذه الحالة أو تلك. [المترجم].

أحدث امتداد الشبكة إلى الجزر الأبعد مثل جزر الملوك Moluccas - في إندونيسيا الحالية - نتائج مختلفة. فهناك بقيت طريقة الحياة المحلية القريبة من نوع البستنة الاستوائية الشائع بين شعوب الغابات في جنوب شرق آسيا حتى بعد أن بدأ سكان الجزر في إنتاج القرنفل وجوز الطيب والميس وغيرها من التوابل للتصدير. غير أننا لا نعرف تحديدا ما الذي دفع الإنتاج التجاري لهذه التوابل، لكن استنادا إلى تنظيم التجارة خلال القرن السادس عشر، يمكن القول إن عائلات المزارعين هم الذين فعلوا ذلك عندما حوّلوا التوابل إلى نوع من الإتاوة للمشايخ المحليين، بينما ظلوا يطعمون أنفسهم من بساتينهم كما كانوا يفعلون في السابق. ومع ذلك فقد ظلت سلطة الحكام المحليين وثراؤهم متواضعين لأنهم كانوا يبيعون التوابل للتجار الأجانب الذين استأثروا بمعظم الربح. ولذلك فإن البهارج الخارجية للحضارة لم تخترق المجتمع المحلي في جزر الملوك، حتى بعد أن شهدت هذه الجزر الصغيرة تصديرا مربحا للقرنفل وجوز الطيب.

أما في أفريقيا، فإن توسُّع شبكات التجارة بالبحر والقوافل لم يؤثر بين العامين 200 و1000 إلا في عدد أقل من البشر عبر منطقة جغرافية أوسع. عرفت هذه المنطقة صلات محدودة عن طريق البحر منذ القدم، ومن ذلك مثلا أن الفراعنة المصريين أرسلوا سفنا إلى جنوب بلاد العرب وأبعد من ذلك إلى الساحل الأفريقي بحثا عن الذهب ونبات المر، وأن التجارة البحرية تكثّفت في الأزمان اليونانية - الرومانية عندما تمكن البحّارة البحر متوسطيون من الرياح الموسمية وبدأوا يبحرون بانتظام بين البحر الأحمر وجنوب الهند. وازدهرت مملكة أكسوم Aksum الواقعة على المرتفعات الإثيوبية القريبة من فم البحر الأحمر، من خلال الإسهام في هذه التجارة بالذهب والعاج وغيرهما من السلع الثمينة الآتية من الداخل الأفريقي. وفي نحو العام 350، أقنعت الارتباطات مع المسيحيين المصريين، ملك أكسوم باتخاذ المسيحية دينا رسميا للدولة. وبقيت الممالك المسيحية في إثيوبيا والنوبة حتى بعد أن قطع المسلمون صلاتهم بالساحل، لكن بعد أن دخلت مصر وشمال أفريقيا تحت سيطرة المسلمين بين العامين 636 و711، أصبحت اتصالات أفريقيا مع بقية العالم تجري مع المسلمين بالدرجة الأولى.

انتشرت الإبل إلى أفريقيا من بلاد العرب بداية من مطلع الحقبة المشتركة تقريبا ووصلت حتى بحيرة تشاد بحلول العام 300 ح. م، وهو الوقت الذي انطلق فيه

السفر بالقوافل عبر الصحراء الكبرى. كان التجار الحضريون قد نشطوا داخل وادي نهر النيجر قبل خمسمائة عام على الأقل من فتح الطرق العابرة للصحراء الكبرى، التي أطلقت جمع الذهب واستخراج الملح من الصحراء، ما شجع قيام دول في غرب أفريقيا على طول الحد بين الصحراء والسهل العشبي(*) أينما سمحت الفيضانات النهرية الموسمية بزراعة الدخن والنباتات الجذرية. كان الحكام يحصلون على سلع المكانة الاجتماعية، مثل الأقمشة، عبر الصحراء الكبرى، وفي مقابل ذلك نظموا جمع الذهب والملح الصحراوي وتصديرهما. وبدأ التجار الأفارقة في اعتناق الإسلام قبل العام 800، واعتنق أول ملك أفريقي - معروف - الإسلام في العام 985(**). قبل ذلك التاريخ، أحجم حكام غرب أفريقيا عن قبول الإسلام، على الرغم من كل فوائد الإلمام بالقراءة والكتابة والمشاركة في العالم الأوسع اللذين كان الإسلام يجلبهما معه، وذلك لأن اعتناق الإسلام كان يستلزم التخلي عن ادعاءات السلطة المقدسة التي كان الحكام يستمدّونها من التقاليد الدينية المحلية. ومع ذلك، فعندما بدأت قوافل منتظمة تربط جماعات غرب أفريقيا الرعوية والمستقرة مع المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط، تسربت نسخة شمال أفريقيا من الحضارة الإسلامية جنوبا عبر الصحراء، مفسحة المجال أمام جماعات غرب أفريقيا للمشاركة بالكامل في العالم الإسلامي بعد العام 1000.

أحدثت القرون الممتدة بين العامين 200 و1000 تغييرات حادة في شرق أفريقيا. فقد أثرت الشبكة العالمية القديمة في المجتمعات الواقعة على امتداد ساحل شرق أفريقيا من خلال تعريضها لاتصالات مكثفة من جانبين منفصلين. جاء الاتصال الأول من الشواطئ الشرقية للمحيط الهندي، إذ بحلول العام 500 ح. م أو قبله، كان ملاحون مما يعرف حاليا باسم إندونيسيا قد وصلوا حتى مدغشقر،

(*) تسمى هذه المنطقة الساحل Sahel تشبيها للخضرة التي تظهر فيها بشاطئ لبحر الرمال المتمثّل في الصحراء الكبرى. [المترجم].

(**) وصل الإسلام إلى شمال أفريقيا مع الفاتحين العرب خلال العقد السابع من القرن السابع، وبداية من القرن الثامن بدأ يشقّ طريقه إلى جنوب الصحراء الكبرى مع التجار، وترسخ هناك عندما اعتنقه وار ديابي War Diaby ملك تكرور Takrur، الواقعة في شمال السنغال، التي أصبحت من خلال تطبيق الشريعة الإسلامية أول دولة إسلامية في غرب أفريقيا، وكوسوي Kosoy ملك غاو Gao، الواقعة في مالي الحالية. راجع كتاب «عباد الله: المسلمون بين العبيد الأفارقة في الأمريكتين». تأليف سيلفيان ضيوف وترجمة مصطفى قاسم، تحت النشر، دار جامعة الملك سعود للنشر. [المترجم].

جالبين معهم المحاصيل الغذائية لجنوب شرق آسيا. وازدهر الموز واليام والقلقاس الإندونيسي في الظروف الرطبة التي لا يزدهر فيها الدخن والسرغوم الأفريقيان. ولذلك فعندما وصلت هذه المحاصيل الآسيوية شرق أفريقيا ووسطها، ساعدت في تسريع استيطان تلك المناطق الغابية - لا سيما حول البحيرات العظمى - التي أخذتها إليها جماعات ناطقة بلغة البانتو من نسل مهاجرين نشأوا في الكاميرون الحالية - غرب أفريقيا - واستخدموها في استيطان المناطق جيدة الري في داخل شرق أفريقيا.

بعد ذلك كثّفت جماعات شرق أفريقيا اتصالها مع جنوب غرب آسيا. وقد وجدت آنية فخارية إيرانية من القرون من الخامس إلى السابع حتى في أماكن بعيدة إلى الجنوب مثل موزمبيق، وكانت الآنية الفخارية الصينية من القرن الثامن أو التاسع المنقولة عن طريق الخليج العربي مألوفة في البلدات الساحلية في كينيا المعاصرة. وعندما اعتنق ملاحو البحر الأحمر والخليج العربي الإسلام خلال القرنين السابع والثامن، جلبوا دينهم معهم إلى ساحل شرق أفريقيا. ويرجع أول مسجد في المنطقة - الذي لم يكن يسع غير تسعة مصلين - إلى القرن الثامن، وسرعان ما انتشر الإسلام على طول الساحل شمالا وجنوبا، إلى أن أصبحت المدن المتنامية إسلامية بالدرجة الأولى، وطورت لغة محلية، هي السواحلية، متأثرة باللغة العربية. لكن الإسلام لم يخترق بعيدا فيما وراء المناطق الساحلية، وذلك لأن الصلات التجارية مع الداخل الأفريقي ظلت تحت سيطرة الأفارقة الناطقين بلغة البانتو الذين ظلوا قانعين بدياناتهم الخاصة لقرون تالية.

أما في أقصى الجنوب ومناطق الداخل الأفريقي التي كانت الزراعة والرعي فيها غير مجديين، فقد ظلت مجالا لجماعات الصيد والجمع. ومع ذلك فإن استيطان البشر لمعظم القارة قد شهد تحوُّله الجذري قبل نهاية الألفية الأولى بفضل المحاصيل الجديدة وتقنية الحديد والمدى الموسع لقوافل الإبل ورعي الماشية، إذ أصبحت أفريقيا - باختصار - منطقة تخومية للشبكة العالمية القديمة.

ظل الداخل الأفريقي تخوما لفترة طويلة بسبب القيود البيئية والجغرافية. فقد كبحت النمو السكاني في أفريقيا الاستوائية مجموعةٌ معقدة من الطفيليات مثل الملاريا والحمى الصفراء ومرض النوم والعمى النهري وغيرها من الأمراض

المهلكة والمنهكة التي عملت في الكثير من مناطق أفريقيا على كبح الاستيطان والنمو السكاني والاتصال والتخصص والتحضر، على الرغم من الجهود الحاذقة للسيطرة على البيئة. كانت الماشية والخيل والإبل في معظم أفريقيا الاستوائية عرضة للمرض الذي ينقله الذباب (داء المثقبيات)، ما أبطل فائدة هذه الحيوانات في النقل. أثبتت الأمراض الأفريقية أنها أخطر على الغرباء، ما منعهم عن اختراقها، وأخّر بالتالي الدمج الكامل للداخل الأفريقي في الشبكة العالمية القديمة إلى القرنين التاسع عشر والعشرين. ومارست جغرافية أفريقيا تأثيرا مماثلا، ذلك أن أنهارها الكبرى - مثل النيجر والكونغو - مواتية للإبحار، لكنها مقطوعة عن البحار بسبب وجود منحدرات نهرية وشلالات بالقرب من مصباتها، ما جعل الروابط بين التجارة البحرية والنهرية أصعب في أفريقيا منها في القارات الأخرى.

وإلى الشمال، انضم السهل الأوراسي على امتداده كاملا تقريبا إلى الشبكة خلال هذه القرون عينها. حافظ بدو السهل على نمط حياتهم المميّز، إذ ظلوا في الوقت الذي لا يقومون فيه بصيد الحيوانات البرية أو الإغارة على المستوطنات الزراعية، يركبون خيلهم ويحرسون قطعانهم. لكن الإغارة لم تكن بحال من الأحوال طريقة فعالة للحصول على ما يريدون، ذلك أنهم كانوا يضطرون دائما إلى مبادلة الغنائم المتنوعة التي تقع تحت أيديهم بما يحتاجون إليه ويثمّنونه فعلا، ما فرض على المغيرين السهليين أن يتسامحوا مع التجار ويحموا السلع التي ينقلها التجار عبر السهل.

كان التفاوض المباشر على تكاليف الحماية إحدى الطرق التي اتبعت لضمان انتشار السلع بين الجماعات البدوية والمستقرة. كان بمقدور الزعماء السهليين، الذين يستطيعون أن يوفّروا الحماية من الغارات في مقابل المنتجات التي يحتاجونها من الورش الحرفية البعيدة، أن يعملوا على تأكيد سلطتهم محليا من خلال توزيع سلع المكانة الاجتماعية بين أتباعهم. وفي المقابل، كان بمقدور الحكام المتحضرين أن يضمنوا من خلال هذا الترتيب استمرار تدفق الدخل الضريبي من الرعايا الذين أنقذوهم - بهذه الاتفاقات - من غارات البدو المدمرة. فقد كانت الفوائد المتبادلة واضحة، لكن ظل الحفاظ عليها صعبا، لأن زعماء الحكومات المتحضرة واتحادات القبائل السهلية كليهما ظلوا دائما عرضة للتحدي من جانب

أتباع ساخطين كانوا يفضلون السعي وراء المكافآت الفورية للإغارة والتمرد، حتى إن كانت خطرة.

بيد أن نوبات العنف التي عرقلت ترتيبات التجارة - الإتاوة بين الاتحادات الرعوية والحكومات المتحضرة مرارا وتكرارا لم تؤدِ في حقيقة الأمر إلا إلى تكثيف التفاعل بين الرعاة والمزارعين، لاسيما عندما كانت تؤدي إلى الغزو البدوي للجماعات المتحضرة، كما حدث على سبيل المثال عندما حكم اتحاد توبا (ترأسه على الأغلب بدو ناطقون باللغة التركية، لكنه ضم أيضا جماعات لغوية أخرى)(*) شمال الصين بين العامين 368 و534 ح. م، وكما حدث عندما ظهر الهون في أوروبا وبدأوا في الإغارة في كل حدب وصوب من مركزهم في السهل المجري (374 - 453)، وأطلقوا هجرات جرمانية أزالت الحدود الرومانية على طول نهري الراين والدانوب(**)، وتسببوا في النهاية في جعل شمال أوروبا جزءا من مجتمع مسيحي جديد وتوحيد سواحل البحر الأبيض المتوسط والبلطيق وكل الأراضي الواقعة بينهما.

أما داخل السهل نفسه، فقد ترتبت نتيجتان عامتان على ظهور الاتحادات القَبَلية واسعة النطاق وتمزقها المتكررين بين العامين 200 و1000. أولا، دفعت هذه الاضطرابات السياسية-العسكرية المتكررة سلسلة طويلة من الهجرات عبر السهل، إذ أخذت الجماعات المهزومة تفر بانتظام نحو أراضٍ عشبية أفضل، بحثا عن المراعي، إما صوب الجنوب الشرقي إلى منشوريا وشمال الصين وإما صوب الغرب إلى أوكرانيا والمجر، وهو ما يفسر السلسلة الطويلة من الآتين الجدد إلى أوروبا الشرقية بين العامين 200 و1000، ذلك أن المغيرين على أوروبا وغزاتها من

(*) في خضم الصراع الذي تلا انهيار الإمبراطورية الهانية، أسّست عشيرة تركية تدعى توبا Toba مملكة واي Wei الشمالية (386 - 534) في عاصمة الهان القديمة لويانغ Lo - yang، ومع أنها لم تصب نجاحا كبيرا في بناء دولة موحدة، فقد دفعت تحوُّل الثقل السكاني من شمال وادي اليانغستي إلى جنوبه هربا من ويلات الحرب الأهلية وللاستفادة من وفرة أراضي الأرز الواسعة في الجنوب، ودفعت دخول الناس في البوذية كملاذ روحي من الأخطار الدنيوية. راجع كتاب «القوة والوفرة: التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (جزءان)، تأليف رونالد فيندلاي وكيفين أورورك، ترجمة مصطفى قاسم، دار جامعة الملك سعود للنشر، 2015. [المترجم].

(**) الهون Huns جماعة من القبائل البدوية من شرق نهر الفولغا بمنطقة السكوثيين الأوائل بالقرب من بحر قزوين. ارتحلوا إلى أوروبا وأسّسوا دولة قصيرة العمر خلال القرنين الرابع والخامس ومن أشهر ملوكهم أتيلا الهوني، يربطهم بعض الدارسين بجماعة الشيونغنو Xiongnu التي كانت تعيش في شمال الصين. [المترجم].

الهون والآفار والبلغار والخزر والبجناك والمجر كانوا في حقيقة الأمر لاجئين فارين من جماعات بدوية أخرى كانت تقطن بعيدا إلى الشرق(*).

ثمة تغير آخر أهم نتج عن الاضطراب السياسي - العسكري بين جماعات السهل، هو أنهم جميعا تعودوا على السماح للقوافل بالمرور في أمان في مقابل الحصول على إتاوة حماية كانت صغيرة إلى حد سمح باستمرار تجارة المسافات الطويلة. ومع أن السجلات لا تكشف تحديدا كيف انتشر الفهم والاتجاهات المواتية للتجارة، فإن انتشار البوذية والمانوية والمسيحية النسطورية والإسلام عبر واحات آسيا الوسطى وبعد ذلك عبر السهل المفتوح يكشف هذا التغير فضلا عن أنه قد عزّزه.

شاركت الجماعات الرعوية - بما تميّزت به من وفرة في الحيوانات المفيدة - في تجارة القوافل منذ بداية نمط حياتهم المميّز. لكن التوسّع الكبير لتجارة القوافل في السهل حدث عندما بدأت مراكب البرج ومراكب الجليد في نقل السلع أعلى أنهار روسيا وسيبيريا وأدناها(**)، ما أدخل الغابات الشمالية في اتصال منتظم مع السهل، وعن طريق القوافل مع المناطق الزراعية المستقرة الواقعة أبعد إلى الجنوب. أدى ذلك إلى دمج البدو السهليين في شبكة تجارة المسافات الطويلة، ما مكّنهم من إكمال ما كانوا ينتجونه لاستهلاكهم بالفراء من الشمال والحبوب والسلع المصنّعة مثل الحرير والمنتجات المعدنية من الجنوب. ومن خلال هذه الواردات، انتشر التعرض للأفكار الدينية وغير الدينية والتقنيات الجديدة في كل حدب وصوب عبر

(*) الآفار Avars قبائل بدوية فروسية سيطرت على آسيا الوسطى في القرنين الرابع والخامس، وحين أجلتهم قبائل أقوى منهم، اندفعوا غربا وأقاموا إمبراطورية شملت أجزاء كبيرة من أوروبا الوسطى والشرقية من أواخر القرن السادس حتى القرن التاسع؛ البلغار Bulghars قبائل تركية محاربة شبه بدوية انتشرت في السهل البونطي القزويني ومنطقة الفولغا خلال القرن السابع من الحقبة المشتركة، ترجع أصولها إلى آسيا الوسطى؛ الخزر Khazars شعب تركي شبه بدوي، أنشأ واحدة من أكبر الدول في أوراسيا في العصور الوسطى تسمى «خزاريا»، عاصمتها أتل Atil، كانت من أهم شرايين التجارة لأوروبا الشمالية وجنوب غرب آسيا، وبسبب وقوعها بين الإمبراطوريتين العربية والبيزنطية، دخل بعضهم الإسلام والمسيحية، فيما اختار حكامهم اليهودية لكي لا يقعوا تحت سيطرة إحدى القوتين المجاورتين؛ البجناك Pechenegs شعب تركي شبه بدوي ظهر في سهول آسيا الوسطى بين نهر الفولغا الأدنى ونهر الدون وجبال الأورال يتحدث اللغة البجناكية التي تنتمي إلى عائلة اللغات التركية، حكموا خلال القرنين التاسع والعاشر معظم السهول الواقعة إلى جنوب غرب أوراسيا وشبه جزيرة القرم، دخل بعضهم الإسلام؛ المجر Magyars قبائل بدوية محاربة من آسيا الوسطى غزت شرق أوروبا وأسّست إمارة المجر. [المترجم].

(**) البرج barge مركب نهري قديم كان يسير بالشراع وبالجر بالحبال من جانبي المجرى المائي، تميّزت به لاحقا البلاد الواطئة (المقاطعات الهولندية) التي حفرت قنوات مزودة بطريق جانبي تسير فيه الخيل التي تجر المراكب كانت تسمى تريكفارت trekvaart. [المترجم].

السهل وبدأ في التسلل إلى الغابات الشمالية. غير أن البداوة التي استلزمت الانتقال المتكرر إلى مراعٍ جديدة، قيّدت بشدة ما أمكن لجماعات السهل أن تستدمجه في حياتها اليومية، كما تعزّز تهميشها بفعل توليفة الصيد والجمع والزراعة القائمة على قطع الغابات وإحراقها التي سادت بين شعوب الغابات في سيبيريا.

وفي أقصى الغرب، سمح المناخ الأوروبي الرطب المعتدل الناتج عن الرياح الغربية التي تهب عبر تيار الخليج بازدهار نسخة معدلة من نمط زراعة الحبوب المميّز لجنوب غرب آسيا، لكن على تربة جيدة الصرف، وذلك منذ العصر الحجري الحديث. وانتشر رعي الماشية والزراعة المتنقلة القائمة على القطع والإحراق في المواقع الأقل جودة. وظلت التربة الطفلية الثقيلة في السهل الأوروبي الشمالي مشبعة بالرطوبة إلى درجة حالت دون نمو الحبوب إلى أن أسهم نوع جديد من المحراث الثقيل في تحسين الصرف، وهو ما حدث بالقرب من مطلع الحقبة المشتركة. حققت التجارب المبكرة نجاحا كافيا لإعالة أعداد متزايدة من المزارعين الجرمان في وادي الراين. لذلك تراجع اعتماد المستوطنين الجرمان على الماشية وتضاعفت حقول الحبوب لديهم، ما مكّنهم عندما انهارت الدفاعات التخومية الرومانية خلال القرن الخامس من الاندفاع عبر الراين وإزاحة الجماعات الناطقة باللاتينية عن ضفته الغربية. وعبرت قبائل أخرى منهم بحر الشمال وحوّلوا بريطانيا السلتية إلى إنجلترا الأنغلوسكسونية بإدخال التربة الطفلية لتلك الجزيرة في الزراعة لأول مرة.

كان المحراث الثقيل المزود بقلّاب يحرث التربة على جانب واحد، الابتكار الذي مكّن أخيرا من تحويل التربة الطفلية التي كانت في السابق مشبعة بالرطوبة في أوروبا الغربية إلى حقول حبوب دائمة الإنتاج، وهو ما أنجزه المحراث من خلال تكويم التربة في «مصاطب» بينها «شقات مستطيلة» منخفضة، ما أنتج نظاما فعالا للصرف الاصطناعي. لكن ظل استخدام هذا المحراث مقيّدا بعد قرون من اختراعه بسبب تكلفته العالية وصعوبات جمع فرقة المحراث الواحد المكوّنة من ستة ثيران إلى ثمانية لجر المحراث خلال التربة. ومع ذلك فقد انتشر المحراث القلّاب وطرق الزراعة التعاونية المرتبطة به، ولذلك بدأت بحلول العام 1000 رقعة من حقول الحبوب تمتد بين نهري اللوار وإلبه وتغطي المنطقة بديلا من الغابات القديمة

والمروج السبخة، وحوّلت ما كان في السابق جزءا راكدا وخفيف السكان من العالم إلى نقطة التقاء نامية منتجة ضمن الشبكة العالمية القديمة.

يشبه انتشار الزراعة بالمحراث القلّاب عبر سهول شمال أوروبا الانتشار الأسبق والأكثر اتساعا لحقول الأرز في آسيا الموسمية(*)، وشكّل الاثنان إضافة إلى نطاق الشبكة العالمية القديمة وتعقيدها، وأسهما مع الوقت في تغيير توازن الثروة والقوة فيها.

غير أن الاضطرابات الداخلية والاجتياحات المتكررة ظلت تكبّل أوروبا الغربية لوقت طويل. وإجمالا يمكن تمييز ثلاث موجات متعاقبة ضمن هذا الاضطراب: الاجتياحات الجرمانية الأولى لفرنسا وبريطانيا وإسبانيا وشمال أفريقيا بين العامين 378 و489 التي دفعها الفرار من الهون، وموجة ثانية بين العامين 568 و650 أطلقها وصول الآفار إلى المجر الذين أزاحوا اللومبارديين إلى إيطاليا والسلاف إلى البلقان(**)، وموجة ثالثة بين نحو العامين 800 و1000 تعرضت خلالها أوروبا الغربية لغارات أشد من ذي قبل تمثّلت في الاعتداءات المتكررة من جانب البحّارة الفايكنغ المنطلقين من إسكندينافيا والخيّالة المجريين المنطلقين من المجر والمسلمين المنطلقين من إسبانيا وشمال أفريقيا.

أطلق هذا الهجوم الثلاثي ما أثبت أنه دفاع محلي فعال تجسد في مجموعة من الفرسان الأوروبيين المنقطعين مثل سابقيهم البارثيين والساسانيين لمهمة الدفاع عن القرى التي كانوا يحصّلون منها ريوعا فرّغتهم لهذه المهمة. لكن على خلاف الفرسان المدرعين الإيرانيين وفرسان الكاتافراكت البيزنطيين، ازدرى الفرسان الأوروبيون الرماية بالسهام وفضلوا عليها تركيز زخم الحصان الراكض في أسنة رماحهم المسددة نحو الخصم. أثبت هؤلاء المحاربون المحميون ببدلات حديدية والمجهزون بسيوف وبلطات للقتال الالتحامي، أنهم قوة هائلة فعلا. وبدلا من التعرض للاجتياحات كما كانت الحال على مدى قرون، انتشر الفرسان الأوروبيون سريعا من موطنهم الأول

(*) تشير الصفة «موسمي» مع البحار والمناطق وغيرها إلى البحار والمناطق التي تتعرض للرياح الموسمية. [المترجم].

(**) اللومبارديون Lombards: قبيلة جرمانية حكمت مملكة إيطاليا من العام 558 إلى العام 664. [المترجم].
السلاف Slavs (يسمون الصقالبة في التاريخ العربي الإسلامي) شعوب تتحدث اللغات السلافية، قطنت أوروبا الوسطى والشرقية ومنطقة البلقان وشمال آسيا ووسطها، تنقسم إلى السلاف الغربيين (البولنديين والتشيك والسلوفاك) والشرقيين (الروس والبيلاروسيين والأوكرانيين) والجنوبيين (الصرب والكروات والبوشناق والمقدونيين والسلوفينيين والمونتغمريين والبلغار). [المترجم].

في شمال فرنسا والبلاد الواطئة وبدأوا يغلبون على كل الجبهات(*)، فوسّعوا نطاقهم غربا إلى بريطانيا العظمى وأيرلندا، وجنوبا إلى إسبانيا وصقلية، وشرقا عبر نهر إلبه، وكانت الحملة الصليبية الأولى في العام 1099 إلى أورشليم أبعد مكان وصلوا إليه.

نجت الإمبراطورية البيزنطية خلال هذه القرون من سلسلة طويلة من الاعتداءات الهائلة، بفضل التحصينات المتقنة والموقع المنيع لعاصمتها القسطنطينية (إسطنبول حاليا). فنتيجة لأن السفن كانت تستطيع أن تزود المدينة بالمؤن من شواطئ بحر إيجة والبحر الأسود عندما يقطع أي جيش غازٍ وصول المدينة إلى منطقتها الخلفية المباشرة، فقد كان لزاما أن يكون الغزاة متفوقين في البر والبحر كليهما. وحتى العام 1204(**)، لم تكن واحدة من القوى الكثيرة التي حاصرت القسطنطينية - الفرس والعرب والآفار والبلغار والروس - تمتلك هذه المقدرة. أدى ذلك - بدوره - إلى بقاء نسخة مسيحية للحياة والثقافة الحضريتين في المناطق الساحلية لبحار إيجة والأدرياتيكي والأسود، في وقت كانت تتشكّل فيه ببطء نسخة أوروبية غربية من الحضارة المسيحية. وعلى مدار القرون السابقة للعام 1000، كانت نسختا الحضارة المسيحية الغربية والشرقية - اللاتينية واليونانية - تجتذبان الجماعات السلتية والجرمانية والسلافية، وهو ما حدث ضمن عملية إعادة ترتيب دينية عامة شملت أوراسيا وأفريقيا.

الأدوار الجديدة للدين

اتخذت الأديان العالمية النقالة التي ناقشنا ظهورها في الفصل الثالث، أشكالا جديدة وحققت بروزا أكبر في أنحاء الشبكة العالمية القديمة كافة بعد فترة قصيرة من العام 200 ح. م. واتخذت الخبرة اليومية طابعا جديدا عندما بدأ الأمل في بلوغ النعيم في الآخرة يلوح جليا في وعي الناس، وسرعان ما طوّرت الأديان الجديدة

(*) البلاد الواطئة Low Countries: مصطلح تاريخي للمنطقة الساحلية المنخفضة في غرب أوروبا المطلة على بحر الشمال حول دلتا أنهار الراين والسخليده والميز، تضم حاليا دول هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ وأجزاء من شمال فرنسا وغرب ألمانيا، وكان الاسم تاريخيا يستخدم في المقام الأول للمقاطعات الهولندية. [المترجم].

(**) يأسا من غزو بيت المقدس من خلال مصر بسبب قوة الدولة الأيوبية، اتجهت الحملة الصليبية الرابعة بقيادة البندقية في العام 1204 إلى القسطنطينية واحتلتها ونهبتها وأسست ما عرف باسم الإمبراطورية اللاتينية، بينما واصل البيزنطيون المقاومة من نيقية وطرابزون حتى استعادوا عاصمتهم في العام 1261. [المترجم].

طقوسا جديدة وأنماطا فنية جديدة ومعارف جديدة مزجت عناصر من التقاليد الهندية والإيرانية واليهودية والهلينية ضمن أشكال مميّزة وباقية. وغدا الناس أكثر تقبلا للكوارث والجور بالنظر إلى النعيم المستقبلي الذي ينتظرهم. وجعلت الأديان الجديدة التصدق واجبا دينيا لمساعدة الفقراء والمرضى والأيتام وغيرهم ممن يعانون في هذا العالم.

شكّل تحالف ملتبس بين الحكام والدين السمة البارزة للعصر الجديد، وفيه استفاد المانحون والمتلقون على حد سواء من الرعاية الرسمية للمؤسسات الدينية، كالأديرة والمعابد والكنائس والمساجد والمدارس madrassas، لكن الأديان في الوقت عينه قيّدت السلطة المَلكية أو الإمبراطورية التعسفية بإخضاع الحكام للقواعد الأخلاقية والدينية نفسها التي كان المحكومون يخضعون لها. نشأ هذا النوع من التحالف بين العرش والمذبح في إيران، عندما وصل أول ملك ساساني إلى السلطة في العام 226 ح. م من خلال تبني شكل مُحَدَّث ومنقَّح من الزرادشتية. لكن منذ أن تلاشت الزرادشتية بعد العام 651، عندما دخل الإيرانيون جميعا في الإسلام، غدت السياسة الدينية الساسانية أقل تأثيرا في التاريخ العالمي اللاحق، على خلاف ما نتج عن اعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين المسيحية في العام 312. كان قسطنطين متحيزا للمسيحية بوضوح، لكنه لم يحظر الوثنية التقليدية أو الأديان الأخرى. لكن في عهود خلفائه، أصبحت المسيحية في العام 395 الدين القانوني الوحيد في الإمبراطورية الرومانية. وانتشرت المسيحية شرقا حتى الصين على طول طرق القوافل، وانتقلت بحرا إلى الهند وإثيوبيا. لكن باستثناء إثيوبيا، ظلت المسيحية في هذه المناطق زرعا أجنبيا هزيلا.

كانت البوذية أوسع انتشارا من المسيحية. فمن الهند، انتقلت البوذية بحرا إلى جنوب شرق آسيا بعد موت بوذا مباشرة (نحو 483 ق.ح)، وهناك أسهمت في تشكيل الأديان الرسمية للممالك المحلية. وفيما وراء جبال الهيمالايا، كان الرهبان البوذيون أكثر عددا من المسيحيين على طول طرق القوافل في آسيا الوسطى، وسرعان ما اخترقوا الصين وكوريا واليابان. يرجع انتشار البوذية واسع النطاق وما تلاه من إيقاف أوقاف سخية لأديرتها، إلى العام 317 ح. م عندما اعتنقها أحد حكام شمال الصين، وكما فعل

معاصره قسطنطين، كرّس هذا الحاكم موارد الدولة لترسيخ الدين الجديد. وعلى مدار القرون التالية، جعلت رعاية الدولة للبوذية وانتشارها من الصين أرضا بوذية من حيث الشكل الخارجي، على الرغم من استمرار العلم الكونفوشي والطاوي بين رجال الدين ومُلاك الأراضي المحافظين الذين كرهوا الأفكار والممارسات الأجنبية[4]. ومن الصين، امتدت رقعة البوذية إلى كوريا التي تحوّلت فيها الممالك الثلاث المتنافسة إلى البوذية رسميا بين العامين 372 و528. وكما أوردنا في موضع سابق، فإن المبشرين البوذيين في اليابان نالوا الرعاية الإمبراطورية بداية من العام 593.

لكن في الوقت الذي كانت البوذية فيه تجتذب ملايين الأتباع الجدد في شرق آسيا، كانت الديانة الهندوسية حديثة التشكّل تزيحها من موطنها الهندي، وهو التحوُّل الذي أصبح جليا عندما انحازت سلالة غوبتا (نحو 320-535 ح. م) إلى الهندوسية على حساب البوذية، التي كانت اختيار أسلافهم الماوريين (نحو 321 ق. ح - 184 ق. ح). وعلى رغم أن الأديرة البوذية الغنية واصلت ازدهارها في الهند الغوبتية، فإن البوذية كانت تفقد هيمنتها. وبعد أن نهب غزاة من آسيا الوسطى الأضرحة والأديرة البوذية بين العامين 490 و549، لم يُعَد بناء الجماعات الرهبانية المدمرة، ربما لأن الطريق الهندوسي إلى الخلاص من خلال التوحُّد الشخصي مع شيفا أو فيشنو قد أصبح في ذلك الوقت أكثر جاذبية لمعظم الهنود من الطريق إلى النيرفانا الذي كانت تسلكه جماعات الرهبان البوذيين الغنية وصاحبة الامتيازات(*).

وفي الصين، تلقت البوذية انتكاسة قاصمة أخرى، عندما أقنع كونفوشيون ساخطون أحد الأباطرة التانغيين في العام 845 بإغلاق آلاف الأديرة البوذية ومصادرة أملاكها الواسعة. لكن بقيت البوذية الصينية سرا في أشكال طائفية شعبية انفجرت من حين إلى آخر في ثورات علنية خلال القرون التالية، بينما توارت البوذية في الهند عن الأعين بعد أن أصبحت في نظر الهنود مجرد طريق واحد من الطرق الكثيرة للنجاة من أوهام الحياة اليومية وآلامها، ومجرد طريق صارم بلا داع وطريق عسير وجدانيا إلى تلك الغاية.

(*) شيفا Siva وفيشنو Vishnu: اثنان من المعبودات الهندوسية الثلاثة الأكثر انتشارا - ثالثهما براهما Brahma. تنسب إلى الأول الديانة الشيفية، وإلى الثاني الديانة الفيشنوية، وإلى الثالث الديانة البراهمية. [المترجم].

بيد أن الهندوسية لم تكن دينا تبشيريا، ولذلك لم تنتشر الحيوية الوجدانية للطقوس الهندوسية والتوحُّد الشخصي الذي يبلغه المتعبدون المنتشون مع أفاتار أو آخر لشيفا أو فيشنو(*)، أبعد من شبه القارة الهندية وبضعة جيوب صغيرة من الهنود المهاجرين في الخارج. وفي المقابل، شقّت الأساليب الباطنية التي تطوّرت بين الرهبان الهنود طريقها إلى الرهبانية المسيحية منذ انطلاقها، وأثرت في الإسلام بعد العام 1000، في الوقت الذي نقلت فيه البوذية تأثيرات هندية أوضح إلى الأديان المختلفة في شرق آسيا. في حين لم يكن هناك مجال لتصدير العقائد والعبادات المحلية الكثيرة التي أجازتها الهندوسية والتي تعاملت مع كل معبود محلي باعتباره تجسيدا آخر للحقيقة الروحية المطلقة، إذ كان تسامح الهندوسية مع عادات ومعتقدات متنوعة كليا يفقدها التماسك المذهبي للأديان التي تقوم على مجموعة محددة من النصوص المقدسة. باختصار، كان تبني طرق متنوعة تماما ومتضاربة منطقيا إلى الخلاص ملائما لنظام الطبقات في المجتمع الهندي، لكنه لم يكن كذلك خارج الهند.

ومع الظهور المفاجئ للإسلام، أصبحت الاختلافات الدينية أكثر وضوحا وحدّة في أنحاء أوراسيا جميعها، فانحصرت الهندوسية في شبه القارة الهندية فقط. في بادئ الأمر تعامل المسلمون مع أشكال العبادة الهندوسية باعتبارها عبادة أصنام مقيتة. كان الإسلام دينا دعويا، وعندما توقفت الفتوحات العسكرية الإسلامية، اتخذ توسّع الإسلام أشكالا سلمية، فأينما ارتحل التجار المسلمون أخذوا دينهم معهم. ولا شك في أن الحيوية الوجدانية لليهودية والهندوسية والمسيحية والبوذية قد أعاقت القبول الواسع للدين الإسلامي، لكن أينما صادف المسلمون شعوبا وثنية، حدث اعتناق جماعي لدينهم. وقد أثبت أتراك غرب السهل أنهم أكثر تجاوبا مع التجار- الدعاة المسلمين، إذ اعتنقوا جميعا الإسلام السني بحلول العام 1000. وكما رأينا في موضع سابق، فإن عملية مماثلة بدأت في أفريقيا.

أصاب المسيحيون نجاحا مماثلا عبر الحدود الرومانية في شمال أوروبا التي نشر فيها الرهبان وغيرهم من رجال الدين - في مقابل التجار المسلمين - حقائق الخلاص في الدين المسيحي بين الجماعات السلتية والجرمانية والسلافية. وكان مما

(*) الأفاتار avatar - في الهندوسية - تجسيد لصورة الإله، مثل ماتسيا Matsya تجسيد المعبود الهندوسي فيشنو. [المترجم].

يسَّر انتشار المسيحية أن المفاهيم المسيحية للحكم أكدت سلطة الحكام المحليين ووسَّعتها، كما ساعد رجال الدين المسيحي من خلال إدخال الإلمام بالقراءة والكتابة على تقوية إدارة الدولة وتعزيز وحدتها. لذلك فلم يأتِ العام 1000 إلا كان المبشرون قد أدخلوا أوروبا كلها في المسيحية، باستثناء جيب للوثنية على طول الشاطئ الجنوبي لبحر البلطيق، وكان الليتوانيون آخر من اعتنق المسيحية، وهو ما حدث أخيرا في العام 1387.

كانت هناك اختلافات لا تحصى بين أديان الخلاص التي انتشرت على نطاق واسع، لكن كانت هناك بعض العناصر المشتركة الجديرة بأن تذكر. أولا، أنجزت البوذية والمسيحية والهندوسية والإسلام عملية إعادة توجيه أساسية لتوقعات أقدم، فبدلا من أن تعد بالعون الإلهي لضمان الازدهار والعون في الحياة الدنيا، كما فعلت كل الأديان السابقة، أعادت الأديان المذكورة توجيه تطلع الإنسان نحو عالم متجاوز أبدي، تمثَّل في هذا الدين أو ذاك في الفردوس أو النيرفانا أو إعادة الاتحاد مع شيفا وكريشنا أو الجنة(*). ولم ترتخِ القواعد الأخلاقية للسلوك اليومي، بل على العكس قويت بفعل الخوف من العقاب الأبدي في الجحيم، أو بالنسبة إلى الهندوس والبوذيين الخوف من التناسخ البائس الأبدي.

كان هذا التحوُّل منسجما مع الواقع المؤلم للحياة الحضرية، ذلك أن الاعتماد المتبادل بين المتخصصين المهنيين الذي أثرى المدن وقواها، كان هو نفسه جالبا للقلق والجور في الأوقات العادية وعرضة للانهيار المؤلم في الأوقات السيئة. ثم جاء الأمل في التعويض في الآخرة ليجعل الجور والمحن على الأرض أيسر في تحمُّلها، إذ على الرغم من كل المحن بقي للناس أمل في مستقبل أفضل بعد الموت. رحب الفلاحون بالتعويض الأخروي عن كل ما كانوا يتكبدونه، وربما خفَّضت هذه الآمال من تكرار ثورات الفلاحين. باختصار، كان التمسك بالأمل في وقت المحن الهدية الكبرى التي أعطتها الأديان الجديدة للإنسان. لذلك يسَّر انتشار هذه الأديان الحفاظ على التمايز الاجتماعي في المجتمع المتحضر واستعادته وتوسيعه إلى فضاءات جديدة. يفسر هذا الانسجام الارتباط الوثيق بين التحوُّل إلى واحد أو آخر من أديان الخلاص والتكاثر

(*) كريشنا Krishna: أحد المعبودات الأساسية في الهندوسية، يعبد إما باعتباره الإله الأعلى أو تجسيدا للإله فيشنو. [المترجم].

السريع للدول والمجتمعات المتحضرة عبر أوراسيا وأفريقيا، الذي شكّل سمة مميّزة للقرون الممتدة بين العامين 200 و1000.

ثمة جانب آخر مميّز اشتركت فيه أديان الخلاص جميعها، هو أن الأرواح الإنسانية تستحق الخلاص أو اللعنة فرادى، وثمة نوع من المحاسبة بين المُخَلِّص الكريم والآثم التائب هو الذي يقرر مآل الأخير. كما أكدت هذه الأديان أن النساء لهن أرواح مثل الرجال، وأعطتهن أدوارا جديدة مهمة، هي تحديدا أن ينقلن دينهن إلى الأطفال، ما جعل اعتناق الأديان الجديدة وراثيا وجذّرها بقوة في الممارسات العائلية اليومية. كانت النساء يقمن بأعمال خيرية، وفي بعض الأحيان اكتسبن حقوقا جديدة، مثل الميراث. وعلى أقل تقدير، فإن القواعد والطقوس الدينية الجديدة حددت علاقات النوع بطريقة أوضح من قبل، وشكّلت عزاء للأرامل والأيتام، وساعدت أحيانا في قضاء حاجاتهم عن طريق الزكاة والصدقات.

ثالثا، ربطت أديان الخلاص الحكام والمحكومين من خلال خضوع الطرفين لإرادة الله، أو في الأديان الهندية الخضوع للكارما التي تحدد حالة كل روح في الآخرة. ووفّرت الطقوس رابطا أقوى بين الحكام والمحكومين. جاءت الطقوس البوذية والمسيحية والهندوسية والإسلامية مختلفة بشدة، لكنها جميعا طوّرت أشكالا قوية وجدانيا للعبادة العلنية جمعت الحكام والرعايا على حد سواء. واغتنت المؤسسات الدينية من أوقاف الأطيان، ما مكّن من التطوير السريع للأبهة والجاذبية الجمالية للطقوس التي تؤديها. أما الكهنة والرهبان الذين استفادوا بطريقة مباشرة من هذه الأوقاف، فقد ردوا على ذلك بوعظ رعيتهم بوجوب طاعة مانحي الهبات الملَكيين. وبذلك اكتسب التحالف الطويل بين العرش والمذبح حيوية وجدانية متجددة، وإن لم تكن تلك هي الحال دائما.

حدثت هذه الافتراقات الاستثنائية بين العرش والمذبح بسبب الالتباس الشديد المحيط بالرعاية السياسية التي استحثّتها هذه الأديان. فهل كان الحاكم ملزما بأن يكون عادلا وورعا ومستقيما دينيا؟ وإذا قصّر في ذلك، فهل تصبح الثورة عليه واجبا دينيا؟ كانت الطوائف المتشددة تَخْلُص عادة إلى ذلك الاستنتاج، ما أعطى الثوار قضية مقدسة لترويجها، سرا في أغلب الأحيان، وبالقوة في أحيان أخرى. لذلك أفرزت المسيحية والإسلام سيلا من التحديات الطائفية للحكومات السائدة،

وظهرت من حين إلى آخر نسخ بدعية من هذا الدين أو ذاك لإبراز جماعات اجتماعية بعينها والدفاع عنها في وجه جيران أو منافسين مهيمنين. وفي الصين، ارتبطت الطوائف البوذية بأغلب الثورات التي اندلعت بعد العام 845. لكن كقاعدة عامة كان الدينان الهنديان أقل ميلا إلى التنافس من المسيحية والإسلام، إذ تقبلا صدق الطرق البديلة للخلاص كأمر طبيعي، بل إنهما لم يتوقعا من الحكام - الذين كانوا غارقين كما هي الحال دائما في أوهام الحياة الدنيا - أن يكونوا مقدسين أو حتى عادلين.

وأخيرا، أعادت الأديان الجديدة صوغ التقاليد الفنية والفكرية الأقدم، ونشرت الإلمام بالقراءة والكتابة أينما تجذّرت، ومكّنت ملايين البشر من المشاركة في عالم مشترك من المعاني. وأصبحت الحضارات المختلفة تُعَرّف بالدرجة الأولى عن طريق الألفة بالقواعد والطقوس المستندة إلى نصوصها المقدسة وتوقيرها لها. كانت الآراء المرجعية لرجال الدين المسيحيين ومجالس الأساقفة - بلا ريب - متمِّمة لنصوص الكتاب المقدس، في حين ظلت النصوص المقدسة للأديان الهندية أكثر وفرة وتعددية، إذ اتخذت الهندوسية من الملحمتين ماهابهاراتا Mahabharata ورامايانا Ramayana وبعض التراتيل التعبدية مصدرا للعلم المقدس، وانتقت الطوائف البوذية مجموعة نصوص من بين كم هائل من الكتابات الدينية، واختارت أحيانا نصوصا بعينها لتكون موجِّها لعبادات مميّزة. وفي كل مكان، ربطت لحمة قوية بين الإلمام بالقراءة والكتابة والأمل في الخلاص والمشاركة في حضارة بعينها، ما أوجد كتلا ثقافية مُعَرَّفة دينيا لايزال ورثتها يتقاسمون أغلب الكرة الأرضية.

نشرت عملية إعادة التنظيم الدينية التي حدثت بين العامين 200 و1000 أربعة أديان أساسية، تمتع كل منها بسمات جعلته مواتيا لانتشار الحضارة والساخطين عليها. أما الأديان التي أخفقت في التخفيف عن المؤمنين في وجه الجور الحتمي، فكان الأفول مآلها، واستوعبت البوذية والهندوسية والمسيحية والإسلام العشرات من هذه الأديان، أو محتها من الوجود عندما تسربت الأديان الأربعة إلى المناطق الخلفية في أوراسيا وأفريقيا وأخذت تنتشر تدريجيا في الغابات النائية وبين الجماعات الجبلية. وانتشرت الديانات الأربع عبر التخوم الجديدة في جنوب شرق آسيا وأفريقيا وشمال أوراسيا من اسكندينافيا إلى كوريا، وساعدت من خلال ذلك على توسيع الشبكة

الأوراسية حتى أصبحت حقا الشبكة العالمية القديمة التي تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، ومن الغابات السيبيرية إلى شواطئ المحيط الهندي.

ظهور شبكة أمريكية

ثمة تغير كبير آخر حدث بين العامين 200 و1000، وهو ظهور شبكات حضرية أخرى في الأمريكتين عندما وسّعت المراكز الحضارية المكسيكية والبيروفية تأثيرها وتفاعلت فيما بينها، ولو بدرجة طفيفة. ظلت الارتباطات داخل هذه الشبكة أضعف من مثيلاتها في أوراسيا، وذلك لأن النقل هناك كان متأخرا عنه في أوراسيا. فحيوان اللاما الذي كان حيوان الحمل الوحيد المتوافر هناك، كان يحمل نحو ربع حمل الإبل فقط، وكان وجوده مقصورا على مناطق الأنديز بأمريكا الجنوبية. لكن الأطواف وزوارق الكنو كانت معروفة عموما للجماعات الأميرندية(*)، ومن الواضح أن الاتصال بحرا بين المراكز المكسيكية والبيروفية كان أسهل من السفر سيرا على الأقدام في الأراضي الوعرة. لكن نظرا إلى أن الأطواف والمراكب الخشبية لم تترك غير أدلة أثرية ضئيلة، فمن المتعذر أن نحدد بالضبط الوقت الذي بدأ فيه الإبحار على طول شاطئ المحيط الهادي المكسيكي والبيروفي أو الوقت الذي بدأت فيه الزوارق الشجرية في التنقل بين جزر الكاريبي أو على طول نهري المسيسبي والأمازون.

وربما وصل مهاجرون من آسيا إلى الأمريكتين بحرا، فثمة ما يوحي بالهجرة البحرية في التواريخ المبكرة لبعض الاكتشافات الأثرية في مواقع تصل جنوبا حتى تشيلي على الأقل، علاوة على أن البحّارة البولينيزيين الذين وصلوا إلى جزيرة إيستر في نحو العام 400 ح. م ربما نزلوا على الشواطئ الأمريكية وأخذوا معهم البطاطا إلى جزر المحيط الهادي. صحيح أنه لا توجد حتى الآن أدلة أثرية على هذه الرحلات، لكن يظل انتشار البطاطا على جزر المحيط الهادي وزراعة القطن في بيرو خلال الفترة ما قبل الكولومبية لغزين يحتاجان إلى سبر أغوارهما. ويبدو أن الإجابة المثلى

(*) الأميرينديون Amerindians: اسم عام لكل الجماعات والشعوب الأصلية التي استوطنت الأمريكتين قبل وصول الاستعمار الأوروبي، والكلمة اختصار لعبارة American Indians التي تعني «هنود الأمريكتين». والكنو canoe زورق طويل خفيف ضيق يسيّره مجدف. [المترجم].

هي أن البشر هم الذين نقلوهما، لكن متى، وكيف؟ ولماذا لم يحدث الشيء نفسه مع نباتات أخرى؟[5].

قبل أن تظهر المدن أو المراكز الطقوسية المتقنة في أي مكان في الأمريكتين، كان نمط أمريكي للبستنة الاستوائية قد تجذّر على الأرجح على النتوء الشمالي الغربي لأمريكا الجنوبية إلى الجنوب من برزخ بنما مباشرة. ففي هذا المكان عُثر على أقدم الكسرات الفخارية المعروفة، ويتطلب الفخار نمط حياة مستقرة. ووجد علماء الآثار في أحد المواقع في بنما حبوبا مزروعة من المنيهوت واليام والأروروت والذرة ترجع إلى ما بين خمسة آلاف وسبعة آلاف سنة خلت(*). وفي أوقات لاحقة كانت البطاطا والمنيهوت محصولين مهمين في السهول الاستوائية الأمريكية، ربما وفّرا - إلى جانب صيد الأسماك - الغذاء لأقدم المستوطنات المستقرة في الأمريكتين، كما فعلت نباتات جذرية أخرى في جنوب شرق آسيا[6].

لم يكن في مقدور البساتين الاستوائية في الأمريكتين أن تشكّل قاعدة لقيام الحضارة التي كانت تتطلب حبوبا قابلة للتخزين. وتبيّن البحوث الحديثة والمتأنية أن عملية طويلة من الانتقاء الوراثي أنتجت الذرة المدجّنة من سلف بري مختلف تماما في المكسيك بداية من نحو العام 4000 ق. ح. وفي النهاية، انتشر النبات الجديد علي نطاق واسع في كل اتجاه، على رغم أن انتشاره أعاقته حاجة هذا النبات إلى أن يتكيف وراثيا مع أطوال النهار المختلفة في خطوط العرض المختلفة لكي يزدهر. ولاحقا، شكّلت الذرة - تكمّلها الفاصوليا والقرع - القاعدة للحضارات الأميرندية في أمريكا الشمالية، على الرغم من أن الذرة ظلت في أمريكا الجنوبية محصولا ثانويا مقارنة بالبطاطس والكينوا.

وفي نحو العام 1300 ق. ح، شرع الأولمك في بناء رواب ضخمة على طول الساحل الكاريبي للمكسيك. كانت النخب التي حشدت العمالة اللازمة لإقامة هذه الأبنية تشارك في شبكة تبادل واسعة النطاق أمدّتهم بسلع ثمينة مثل السبج واليشب والكاكاو. وفي المقابل، أثرت أنصاب الأولمك الحجرية الضخمة وطقوسهم الدينية - السياسية في الآخرين إلى درجة أن الحضارتين اللاحقتين الماياوية

(*)الأروروت arrowroot: نبات معمر ينمو في الغابات الاستوائية، يزرع أو يجمع من أجل جذوره النشوية. [المترجم].

(من نحو 600 ق. ح إلى 840 ح. م) والمكسيكية الداخلية (من نحو 400 ق. ح إلى نحو 1521 ح. م) ورثتا عن الأولمك مجموعة ثرية من الموضوعات والممارسات المعمارية، تماما كما ورث البابليون والآشوريون عن السومريين. لكن الماياويين عندما تعلموا الكتابة لم يسجلوا العلاقات التي ربطتهم بأسلافهم الأولمك القدماء، ولذلك لا تعرف تفاصيلها بدقة.

وبالمثل، لاتزال الارتباطات اللاحقة بين المراكز المختلفة لحضارة المكسيك وأمريكا الجنوبية يكتنفها الغموض. لكن إلى جانب وجود الذرة التي ظهرت في بيرو وبضعة مواقع متفرقة أخرى في أمريكا الجنوبية بعد العام 2000 ق. ح، ربما يكون الاعتماد على بستنة الحقول المصطبية في الألتيبلانو حول بحيرة تيتيكاكا Titicaca - أو لا يكون - شاهدا على انتشار النمط المميّز للمكسيك لزيادة الناتج الزراعي. ويكفي أن نقول إن حضارات المايا والمكسيك الأوسط والألتيبلانو البيروفية اعتمدت جميعها على الحقول المصطبية لإنتاج الفائض الزراعي الذي أعال نخبهم الإدارية ومتخصصيهم الحرفيين[7].

أنشئت الحقول المصطبية في المستنقعات وعلى طول الشواطئ الضحلة للبحيرات من خلال بناء جزر من الحقول المستطيلة الاصطناعية، مع ترك قنوات تصريف ضيقة من الماء الراكد بينها. وأسهمت الرطوبة الوفيرة والغرين الخصب الذي كان يتجدد من حين إلى آخر من خلال رفع مزيد من التربة من تحت الماء، في ضمان حصاد وفير من هذه الحقول، حتى في المناخ القاسي للألتيبلانو الأنديزية التي أدى فيها الضباب المتبخر من الماء الراكد في بحيرة تيتيكاكا ومحيطها إلى إطالة فصل النمو بحماية البطاطس والمحاصيل الأخرى من الصقيع. وفي صحاري الساحل البيروفي، قام على قنوات ري من نوع قنوات بلاد ما بين النهرين القديمة نمط مختلف من الزراعة الكثيفة. ومن المعقول أن نفترض أن انتشار الذرة المكسيكية ونمط بستنة الحقول المصطبية ربما ترافقا معا، لكن لا سبيل إلى تأكيد ذلك حتى الآن.

تطلبت المدن الماياوية هندسة مائية متقنة للحفاظ على حقولها المصطبية رطبة خلال أشهر الجفاف، وهو ما أنجزوه من خلال تخزين الماء في خزانات اصطناعية ضخمة (تشبه الخزانات التي استخدمت في جنوب الهند وجنوب شرق آسيا)، فضلا على استخدام قنوات متقنة لتوصيل الماء المخزن إلى الحقول. وخلال

الحقبة الكلاسيكية للتاريخ المایاوي (250-840 ح. م)، استخدمت النخب الحاكمة الثروة الناتجة من زراعة الحقول المصطبية في بناء قصور ومعابد وساحات عامة من الحجارة وتزيينها بمنحوتات كثيرة. وابتكروا نظاما للكتابة - لم تفكّ شفرته كليا إلا منذ العام 1960 - ونظاما للتقويم استخدم الترقيم الرياضي - بما في ذلك مفهوم الصفر- لتسجيل التواريخ بدقة كبيرة تمكّننا حاليا من ترجمته إلى أيام تقويمنا وسنواته. أما الحكام المایاويون الذين حكموا دولا مدينية متنافسة، فقد استمدّوا شرعيتهم من مزيج من النسب العائلي والوصول الطقوسي إلى التأييد الإلهي والاستخدام القاسي للقوة العسكرية(*). شكّلت الذرة والفاصوليا والقرع الغذاء الأساس، وكانت تكمّلها تشكيلة من النباتات الجذرية والفلفل والنباتات الأخرى، وهو المشهد الذي تغير كليا تقريبا بفعل النظم المتقنة لتخزين المياه وتوصيلها التي قامت عليها بستنة الحقول المصطبية وأعالت نموا سكانيا كثيفا.

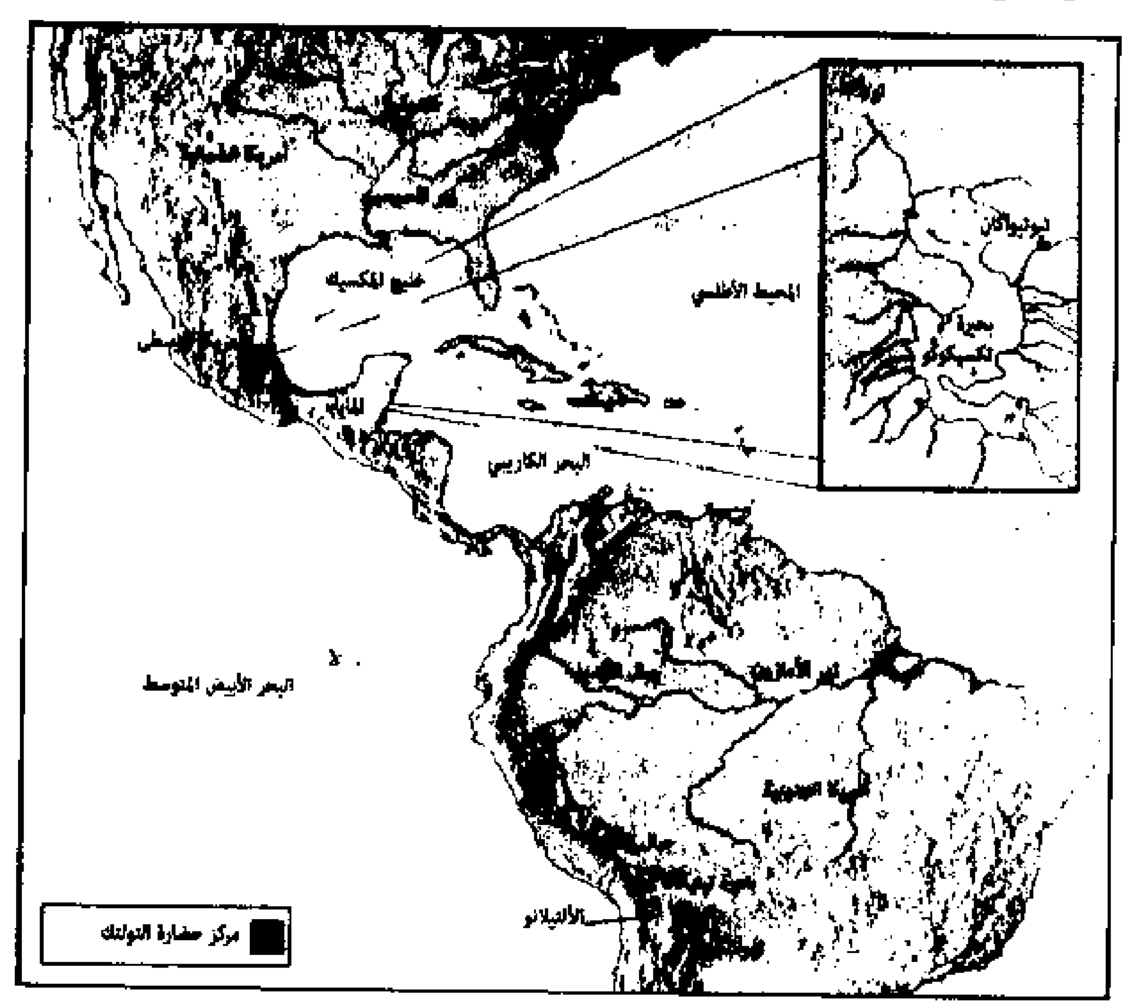
تشبه الحقول المصطبية التي اقترنت بالمراكز السكانية الأساسية في الأمريكتين حقول الأرز في آسيا الموسمية. فقد أسهم كلاهما في تغيير المعالم الطبيعية للأرض، وأعادا تشكيل مسارات المياه السطحية، وأنتجا محاصيل وفيرة، ووضعا المزارعين تحت رحمة جباة الريوع والضرائب، ما مكّن من تطوير بنايات القصور والمعابد المتقنة وغيرها من بهارج الحضارة سريعا في المواقع الرطبة المواتية في كل من الأمريكتين وآسيا.

لكن ظلت المخاطر تحفّ نظام المايا، إذ ظل عرضة لأي جفاف غير متوقع. وربما كانت الاضطرابات السياسية المصاحبة للنقص المفاجئ في الموارد الناتج من الجفاف، السبب وراء هجر السهول المایاوية خلال القرنين التاليين للعام 900. فبعد ذلك التاريخ اختفت المعابد ومعها الإلمام بالقراءة والكتابة وأشياء كثيرة أخرى تحت غطاء الغابات الاستوائية التي نمت فوقها ثانية. وعلى مدار القرون التالية، عاش

(*) قبل فكّ رموز كتابتها، ذهب دارس حضارة المايا البارز إبان العقد الثامن من القرن العشرين إيريك تومسن Eric Thompson إلى أن حكام المايا القدماء في أمريكا الوسطى كانوا حكاما دينيين. كان استشرافهم روحيا لأبعد الحدود، وكانت غايتهم «الاعتدال في كل شيء»، وكان شعارهم «عش ودع الآخرين يعيشوا»، وكان خُلقهم «يؤكد الانضباط والتعاون والصبر ومراعاة الآخرين». فكانت حضارتهم - في رأي تومسن - تختلف عن أي حضارة أخرى، ورأى فيها نبعا للقيم الروحية لعالم حديث يؤكد بإفراط النجاح المادي. لكن بعد فكّ رموز الكتابة المایاوية، اتضح أن تومسن كان مخطئا تماما فيما ذهب إليه. فقد وجدت حضارة المايا الحقيقية متعة في الحروب الطاحنة والتعذيب المطول للأسرى، وكان حكام المايا وآلهتهم على حد سواء يتناولون عقاقير هلوسة وحقنا شرجية مُسْكِرة باستخدام محاقن خاصة. راجع كتاب «حضارات السند البائدة». [المترجم].

المتحدثون باللغة الماياوية على الزراعة القائمة على القطع والإحراق، بلا مدن أو تراتبية اجتماعية محكمة.

وبالمثل، كانت العرقلة من حين إلى آخر تتهدد المراكز الطقوسية والنظم السياسية المماثلة التي تحلّقت حول البحيرة الضحلة التي كانت توجد سابقا في وادي المكسيك الأوسط. من ذلك أن مدينة تيوتيواكان Teotihuacan مارست فترةً نوعا من الهيمنة الإمبراطورية (نحو 100-700 ح. م) على معظم الداخل المكسيكي، ومن ضمن ذلك المدن الماياوية، لكنها تعرضت للنهب في نحو العام 650. وبعد فترة من الفوضى، تولت جماعات التولتك المقيمة في تولا Tola الدور الإمبراطوري(*)، وحكمت إقليما أقل اتساعا من نحو العام 800 إلى العام 1050. بيد أنه لا توجد سجلات مكتوبة تلقي الضوء على هذه الأحداث.



الخريطة (4 - 4): المراكز الحضرية الأميريندية بحلول العام 1000 ح. م

(*) التولتك Toltecs: دولة وثقافة قامت في أمريكا الوسطى في العصر ما بعد الكلاسيكي، تمركزت في موقعي تولا Tula وهيدالغو Hidalgo بالمكسيك. [المترجم].

وفي وادي المسيسبي ومستجمعات الأمطار المجاورة بأمريكا الشمالية، ظهرت مراكز طقوسية بسيطة نسبيا في أراض منخفضة خصبة حول المجاري المائية، يرجع المركز الأقدم بينها الذي يقع في لويزيانا إلى نحو العام 1000 ق. ح. وإلى الشمال، انتشرت على طول ضفتي نهر أوهايو بين نحو العامين 500 ق. ح و500 ح. م مواقع الهوبويل Hopewell الواسعة والكثيرة التي تميّزت بروابٍ ترابية متقنة. اعتمدت الجماعات الكثيفة نسبيا المطلوبة لبناء هذه الروابي على صيد الأسماك والحيوانات والجمع وزراعة تشكيلة من المحاصيل. فالذرة كانت معروفة لجماعات الهوبويل، لكن استخدامها كان طقوسيا محدودا فقط، ربما في شكل بيرة مُسْكِرة. ويشهد وجود النحاس في بحيرة سوبيريور Lake Superior، والسبج في وايومنغ Wyoming، والغالينة في ميزوري وإلينوي على حدوث تبادل واسع على طول الشبكة النهرية. ويكشف استخدام الذرة عن شكل من الارتباط مع المكسيك، وكذلك تكشف «البيبة» التي ربما كانت تستخدم لتدخين التبغ عن صلات مع أمريكا الوسطى.

هُجرت مواقع الهوبويل في نحو العام 500. ربما عرقل مغيرون من الشمال جماعات السهول النهرية سيئة الحماية، وشتتوهم باستخدام الأقواس التي وصلت إلى أمريكا الشمالية مع الإنويت قبل ثلاثة قرون أو أربعة. وقد أدخل التولتك وحلفاؤهم التشيتشيميكيون الأقواس إلى المكسيك الأوسط في نحو الغام 800(*)، لكن المحاربين المحترفين في المكسيك رفضوا الأقواس، وذلك لأن أسر الأعداء للتضحية بهم لإله الشمس كان السبب الأساس لحروبهم، وكانت السهام التي تصيب وتقتل من بعيد عديمة الفائدة لهذا الغرض. ولذلك فكما فعل اليابانيون بعد العام 1600 عندما رفضوا استخدام المسدسات حديثة الوصول للحفاظ على طريقة الحياة الملائمة لمحاربي السيف الساموراي، تمسك التولتك وورثتهم الأزتكيون بالقتال الالتحامي وازدروا الحرب بالقذائف. كان استخدام القوس لصيد الحيوانات وللحرب شائعا بين الجماعات الأميريندية الشمالية، كما تثبت المتاريس والحواجز الترابية

(*) التشيتشيميكيون Chichimeca هو الاسم الذي أطلقه شعب الناوا Nahuas المكسيكي الأصلي على كل الجماعات البدوية وشبه البدوية التي كانت تعيش في شمال المكسيك الحالية، تماما كما أطلق الرومان وصف «البرابرة» على كل من كانوا يعيشون خارج المنطقة الزراعية المتحضرة. [المترجم].

المتقنة التي شُيِّدت للدفاع عن المراكز الطقوسية المسيسبية الواسعة في كاهوكيا Cahokia (إلينوي) والمواقع المرتبطة بها بعد نحو العام 800. وعلى خلاف أسلافهم الهوبويل، اتخذ المسيسبيون من تشكيلة محسَّنة من الذرة ذات الحبات والقوالح الكبيرة غذاء أساسيا لهم. وكما في السابق، أقاموا شبكة لتبادل السلع الثمينة غطت حوض المسيسبي وما وراءه.

شهدت أمريكا الجنوبية أنماطا واسعة مماثلة للتطوُّرات التي وقعت في المكسيك والمركز الأمريكي الشمالي. فبداية من نحو العام 2000 ق. ح، ساعدت قنوات ري مأخوذة من بعض الأنهار القصيرة التي تنحدر من مرتفعات الأنديز في زيادة السكان وظهور مراكز طقوسية في صحاري الساحل البيروفي، استغلت منذ البداية الثروات المائية المتاحة في تيار همبولت، واحتفظت بارتباطات مع الألتيبلانو الأنديزية ومع الغابات الاستوائية في الأمازون الأعلى. لكن الموارد المحلية كانت مختلفة عن المكسيك، لأن كل مستوى ارتفاع كان مميّزا بمناخه ونظامه المائي ومجموعة نباتاته وحيواناته؛ ولذلك كانت حيوانات اللاما والألبكة وخنازير غينيا المدجَّنة متمِّما للبطاطس والكينوا اللتين ازدهرتا في الألتيبلانو الذي لم يكن مواتيا للذرة، بينما تنافس في غابات الأمازون المنيهوت ونباتات جذرية أخرى مع الذرة، ووفَّر القطن المزروع أليافا مكَّنت البيروفيين - إلى جانب وبر حيوانات الألبكة واللاما - من تحويل نسج المنسوجات متقنة الزخرفة إلى فن راقٍ. وعلى ذلك فإن الثالوث المكسيكي المكوَّن من الذرة والفاصوليا والقرع الذي كان أساسيا في أمريكا الشمالية قد أُدمِج في أمريكا الجنوبية ضمن نظام زراعي – ورعوي - أكثر تنوعا بكثير. ومع ذلك فإن النمط العام لتطوُّر أمريكا الجنوبية كان مماثلا لنمط المكسيك، وذلك لأن المراكز الطقوسية المختلفة على طول الساحل قد أخضعت لشكل من التبعية أولا للتشافين (نحو 900 ق. ح)، وبعدها بين نحو العامين 100 و1000 ح. م لدولة تيواناكو Tiwanku، الواقعة بالقرب من بحيرة تيتيكاكا في الألتيبلانو. وفعلت تيوتيواكان ووريثتها تولا الشيء نفسه في المكسيك.

خلاصة القول أنه بحلول العام 1000 كانت شبكة أمريكية تتشكَّل من الألتيبلانو الأنديزية إلى المسيسبي الأعلى، ارتبطت معا عن طريق النقل المائي، جنبا إلى جنب مع النقل البشري. لكن يظل طابعها وشكلها ونطاقها المحدد غير واضح بسبب

الفجوات الطويلة في السجل الأثري وعدم وجود نصوص مكتوبة، باستثناء المايا. وعلى رغم أن الشبكة الأمريكية تشكّلت بمعزل تام عن الأحداث في العالم القديم، فإن التشابهات بين تاريخها وتاريخ بلاد ما بين النهرين والصين المبكرة مذهلة حقا.

خاتمة: الأنماط المشتركة

بدأت حضارات أمريكا الشمالية والجنوبية وبلاد ما بين النهرين والصين جميعها عندما شرعت نخب محلية، تمتعت بوصول خاص إلى عالم ما وراء الطبيعة، في تنظيم عمل زراعي وحرفي واسع النطاق لتجنب السخط الإلهي. ولاحقا، أخذت قيادات مُعَسْكَرة بوضوح تتمّم الإدارة الكهنوتية، وأخضعتها في النهاية، ثم مدّ هؤلاء الزعماء سيادة إمبراطورية - مضطربة غالبا - إلى أقاليم أوسع وأوسع. وبالتزامن مع ذلك، نشرت شبكات التبادل طويلة المسافات سلع الترف والمكانة عبر مسافات أطول وأطول، ما نشر الألفة بالإمكانات الحضرية أبعد وأبعد عن المراكز الرئيسة للحياة المتحضرة.

ثمة تشابهات قوية وجلية بين تطوُّر الأمريكتين من جانب وأوراسيا وأفريقيا من جانب آخر. فعلى الرغم من الاختلافات الثقافية والجغرافية الهائلة عبر القارات، فإن هناك ما يغري بأن نفترض أن هذه التشابهات نشأت عن حاجة الجماعات الزراعية أولا إلى خدمات الكهنة وبعد ذلك إلى خدمات المحاربين لكي تزدهر. فقد كان المزارعون في حاجة إلى أن يعرفوا متى يزرعون وكيف يخزنون بذورا كافية للزراعة التالية، وهو ما تيسر لهم بفضل نوعين من الطقوس الدينية قام على إدارتها خبراء متخصصون. فمن خلال الملاحظة المتأنية للأجرام السماوية - الشمس والقمر والكواكب والنجوم - تمكن الكهنة من تحديد المواسم الملائمة للزراعة. وساعدت طقوس أخرى - الصوم والأضاحي وأعياد الحصاد - في توزيع الاستهلاك على مدار السنة، علاوة على أن عامة الناس عندما كانوا يقدمون الهِبات الغذائية للآلهة طلبا لدعمها، كانوا بذلك يضعون مخزونا تحت تصرف الكهنة، استُخدم في دعم عبادات أكثر إتقانا، كما استُخدم في حال الضرورة في تخفيف حدة المجاعة. وهكذا صارت الجماعات الزراعية بفضل قيادة الكهنة وتنظيم الطقوس الدينية لحياتها أقدر على الصمود في وجه الكوارث الناتجة من الطقس والأعشاب الضارة والآفات. وهنا

تحديدا تكمن قوة الكهنة في المجتمعات الزراعية المبكرة في أنحاء العالم جميعها.

وفي النهاية، سلّم الكهنة القيادة للمحاربين لأسباب مباشرة، ذلك أن الإدارة الكهنوتية عندما نجحت في خلق فائض كبير، أصبحت السرقة المنظمة طريقة حياة مجزية، ما أفسح المجال لمحاربين محترفين لحماية الجماعات من النهّابين من خلال احتكار العنف المنظم، في مقابل حصولهم على عائد حماية متفق عليه. أعطت الأسلحة المتخصصة والانضباط والتدريب هؤلاء المحاربين تفوقا قتاليا على معظم المغيرين واللصوص، ما مكّن المزارعين والمحاربين كليهما من الاستفادة من الريوع والضرائب المتوقعة، على عكس التكاليف المدمرة للنهب. وبذلك تمكن المحاربون المحترفون من إرغام النخب الكهنوتية القديمة على قبول التبعية لهم أو قبول شكل من التحالف معهم[8].

تبيِّن هذه التشابهات الواسعة أن التاريخ الإنساني تطوّر عبر مسارات متماثلة حتى في حال غياب الاتصال المباشر. فلا أحد على الإطلاق يفترض أن تطوُّر الدول الخاضعة للكهنة ثم للمحاربين في الأمريكتين يدين بأي شيء - ما عدا القوس - إلى سوابق أوراسية وأفريقية. كل ما هنالك أن شبكات التفاعل الكثيفة التي نمت في مواقع مواتية أنتجت الضغوط نفسها لتنظيم المجتمعات الزراعية والدفاع عنها، وأن نتائج ذلك جاءت متماثلة. لكن هناك - مع ذلك - اختلافا كاشفا بين الأمريكتين والعالم القديم، هو أن الأمريكتين لم يكن بهما غير مجموعة متواضعة من الحيوانات القابلة للتدجين، ما جعل كلا من الحرث والرعي غير ممكنين، وهو ما يفسر - بدوره - لماذا لم تقترب الثروة والقوة اللتان تولّدتا ضمن الشبكة الأمريكية مما تكشّف منهما ضمن الشبكة العالمية القديمة.

5

تكثُّف الشبكات خلال الفترة بين العامين 1000 و1500

بين العامين 1000 و1500، واصلت الزراعة والحضارة كلتاهما التوسُّع إلى أراض جديدة، لكن بمعدل أبطأ من قبل؛ وذلك لأن كثيرا من المناطق الجيدة كانت قد آلت فعلا إلى طرف ما. وبدلا من التوسُّع، تمثَّل التطوُّر الأهم في تكثُّف التفاعل ضمن أوراسيا ومعظم أفريقيا، وذلك بالدرجة الأولى بفضل تحسُّن النقل المائي وانتشار ممارسات ومعارف يسَّرت التجارة وشجَّعت التخصص في العمل. فقد كانت هذه القرون فترةَ ترسُّخ للشبكة العالمية القديمة أكثر منها توسيعا لها. ينطبق الشيء نفسه على الأمريكتين اللتين ظلت الأنديز وأمريكا الوسطى المركزين الأساسيين للحضارة فيهما، إذ قوّت هذه المراكز صلاتها مع مناطقها المحيطة، وهي العملية التي أنتجت إمبراطوريات مركزية بحلول القرن الخامس عشر.

«لم يكن في مقدور أي سلطة عامة في أوروبا أن توقف التغيير المتواصل للمجتمع، فزادت الثروة، وكذلك الفقر؛ لأن كثيرا من الناس لم يتمكنوا من التوافق مع قواعد سلوك السوق»

لمحة عامة

ضمن الشبكة العالمية القديمة، تمثلت نتيجة هذا الترسُّخ في زيادة الإنتاجية، واختراع تقنيات جديدة وانتشارها، ونمو القدرة على حشد الجهد البشري لأغراض مقصودة: دينية وفكرية، وكذلك اقتصادية وسياسية. وكما كانت الحال دائما، تركزت الثروة والقوة في الأماكن التي تقدم فيها التخصص وحشد الجهد البشري أبعد وأسرع مما عداها. لكن كما كانت الحال في السابق، مارست نخب صغيرة نسبيا الأشكال الجديدة والقديمة للسلطة وسيطرت على الأشكال الجديدة والقديمة للثروة. شهد عدد السكان زيادة، لكنها متقطعة؛ وذلك لأن أوبئة مهلكة، من أهمها الطاعون الدبلي(*)، انتشرت علي طول طرق التجارة في أوراسيا. ولم يصبح عامة الناس في معظمهم أفضل حالا من قبل، على الرغم من التقدم السريع في التجليات الجمعية للثروة والقوة.

لكن في المقابل، كان هناك ثمن لا مناص من دفعه، إذ تمزقت شبكات التكافل القروية أينما شرع المزارعون في إدخال الممارسات الحضرية إلى الريف من خلال التعود على شراء السلع والخدمات وبيعها بانتظام. كانت الاختلافات في المِلكية والمهن تقسم الجماعات الحضرية دائما إلى طبقات متمايزة، وأحيانا متعادية، وكثيرا ما كان البيع والشراء يؤديان إلى تقسيم القرى في اتجاهات مماثلة. وأخذت فكرة المشاع تضعف عندما ازدهرت بعض العائلات من بيع فوائضها في المدينة بدلا من استهلاكها داخل القرية في المناسبات الاحتفالية كما كان مزارعو الكفاف يفعلون عادة(**).

(*)سمي الطاعون الدبلي bubonic plague بهذا الاسم لأنه يظهر في شكل دبلات أي أورام في الغدد اللمفاوية في منطقة الأربية bubo (باليونانية boubôn وبالإنجليزية groin)، ويستخدم المصطلح للإشارة إلى الطاعون بوجه عام. [المترجم].

(**) ثمة رؤية أخرى لنهاية المشاع، قدمها عالم البيئة البشرية بجامعة كاليفورنيا غاريت هاردن Garrett Hardin في مقالة نشرت في مجلة ساينس Sience في العام 1968 بعنوان «مأساة المشاع» tragedy of the commons عرض فيها فوائد حقوق الملكية كما تخيلها عند الرعاة البدائيين: تعيل الأرض عددا محدودا من الماشية، ومادامت الحرب والمجاعة والمرض أبقت الرعاة والماشية دون هذا العدد، فلم تكن هناك مشكلة. لكن مع نمو المجتمع في الاستقرار والصحة، تجاوزت الحيوانات قدرة الأرض المشاع علي التحمُّل. وتكمن المأساة في أنه مادام في مقدور كل راعٍ أن يزيد منفعته بزيادة عدد ماشيته حيوانا واحدا في الأرض المشاع ولا يناله إلا نصيب صغير من التآكل المتزايد للأرض الناتج من هذا الحيوان الزائد، فإن الراعي سيسيم أكبر عدد ممكن من الماشية في هذه الأرض المشاع، أيا كان الضرر الذي سيلحقه بالمجموع. وخلُص هاردن إلي أن الحل الوحيد لهذه المشكلة تمثَّل في حقوق الملكية أو شيء رسمي يشبهها. راجع كتاب «مولد الوفرة: كيف تشكل رخاء العالم الحديث»، تأليف وليام بيرنشتاين، ترجمة مصطفى قاسم، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، 2012. [المترجم].

وخسرت عائلات أخرى، وكان عليها إما أن تعمل بالأجر في حقول الآخرين وإما أن يكمّلوا ما يمكنهم زراعته لأنفسهم بالعمل بعض الوقت حرفيين يصنعون الأقمشة وغيرها للبيع.

كانت كل الأديان الكبرى في أوراسيا تدين الجشع المنفلت وتسعى إلى كبح الحكام والتجار والمموّلين عن السعي الدائم وراء الكسب. لكن الوازع الديني لم يتمكن من وقف انتشار علاقات السوق. ومع استمرار توسّع قدرة الشبكة العالمية القديمة على حشد الجهد المشترك لأغراض مقصودة بين العامين 1000 و1500، تجاوزت هذه الشبكة - بخطوات واسعة - الشبكة الأمريكية الأصغر والمجتمعات الإنسانية الأكثر عزلة التي لا تحصى.

عزّز التحسُّن في النقل المائي التبادل عبر المسافات الطويلة وزاده كثافة، ما سمح لهذه العملية بأن تتقدم. كانت الصين المركز الأساس للتحوُّلات الاجتماعية والاقتصادية الحادثة بين العامين 1000 و1500 بفضل شبكتها الواسعة من القنوات والأنهار. كما وسّع الأوروبيون الغربيون قدرة شبكات الاتصال والنقل لديهم، صحيح أنهم لم يحققوا غير تحسُّن ضئيل في الأنهار الصالحة للملاحة التي تتدفق عبر السهل الأوروبي الشمالي، لكنهم لم يكونوا أقل من الصينيين في تطوير سفن متينة صالحة للإبحار في المياه المالحة، ووسّعوا استخدام العربات واستثمروا في الجسور بكثافة.

لم يحدث تحسُّن مماثل في النقل البري. لذلك ظلت النشاطات السياسية والاقتصادية في المراكز الإسلامية وفي آسيا الوسطى وفي الداخل الأفريقي - وفي المركزين الأساسيين في الأمريكتين - تعمل ضمن القيود التي فرضها النقل عن طريق القوافل والبشر. لكن في الداخل الهندي، يبدو أن التجارة البرية والحرب بلغتا مستويات جديدة من الكثافة بفضل تكاثر عربات الثيران التي كان يقودها سائقون محترفون يبيعون خدماتهم لمن يقدم أعلى سعر، ويعيشون في جماعات متخصصة شبه بدوية.

وعلى مضمار مختلف، بلغ الحساب العددي مستوى أعلى في المدى والدقة مع انتشار العد بالقيمة المكانية للأعداد، أي ما نسميه الأعداد العربية. فجأة أصبح تتبع الكميات الكبيرة - سواء من المال أو السلع - في يسر تتبع الكميات الصغيرة. كانت فكرة استخدام رمز للصفر قد ابتكرت في الهند في نحو القرن الثالث من الحقبة المشتركة، لكنها ظلت غير معروفة - حتى في الهند - إلى أن أدخلها عالم الرياضيات

والفلك الخوارزمي (نحو 780 - 850) إلى العالم الإسلامي[1]. وبعدها انتشر عد الكسور العشرية بالقيمة المكانية في أنحاء أوراسيا جميعها، ووصل أوروبا كشكل من الفضول الفكري بعد فترة قصيرة من العام 1000، مع أن معظم التجار لم يتخلوا عن الأعداد الرومانية الخرقاء حتى القرن الرابع عشر.

شارك كل جزء من الشبكة العالمية القديمة في التفاعل المكثف والتخصص المتزايد اللذين شجعهما النقل المائي الأرخص والحساب العددي الأسهل. ظلت تجارة التوابل والقطن القديمة على سواحل المحيط الهندي والجزر القريبة على أهميتها، وأخذت دفعة قوية من انتشار السلع المصنّعة الصينية - الحرير والخزف وغيرهما الكثير - بداية من نحو العام 1000. وربط بحّارة جنوب الصين والجزر القريبة تجارتهم بالتجارة البحرية طويلة المسافات عبر المحيط الهندي، وحتى المناطق المحيطية بالنسبة إلى هذا المركز التجاري الموسع ارتبطت به بدرجات متفاوتة بناء على تكاليف النقل وإمكاناته(*).

وإلى الشمال الشرقي، شيّدت الجزر اليابانية أساطيل لصيد الأسماك وأساطيل تجارية كانت تصدّر الفضة وغيرها من المعادن وتستورد الأقمشة الحريرية وغيرها من سلع الترف، في الأغلب من الصين. وإلى الجنوب الغربي، وسّع شرق أفريقيا تصدير الذهب والعاج والعبيد، وتبيّن الاكتشافات المتكررة لكسرات الخزف على الشواطئ الأفريقية أن السلع الصينية وصلت إلى أفريقيا في مقابل صادراتها. وإلى الشمال الغربي، جلب النقل البري خلال الأقاليم الإسلامية توابل المحيط الهندي إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط التي كان التجار الإيطاليون يوزعونها فيها.

وسرعان ما بدأ البحّارة الإيطاليون رحلات مباشرة إلى الموانئ المحيطة بشبه الجزيرة الأوروبية، وصلت أولا إلى شواطئ البحر الأسود من خلال فتح القسطنطينية (في العام 1204)، ثم تمكنوا بعد ذلك من عواصف الأطلسي ومدّه للوصول إلى موانئ بعيدة إلى الشمال مثل تلك الواقعة على مصب نهر الراين والتيمز بداية من العام 1291، وهناك وجدوا تجارة بحرية مزدهرة في موانئ بحر الشمال والبلطيق. شكّل هذا المجال البحري الموسع، الذي ربط كل الأنهار الطويلة الصالحة للملاحة

(*) «محيطي» من التقابل الشائع بين المحيط periphery والمركز center الاقتصاديين أو الحضاريين. [المترجم].

في شمال أوروبا، مسرحا ثانويا لنمو تجاري سريع. مارست سلع عادية مثل الملح والخشب والأسماك والصوف والحبوب دورا أساسيا في التجارة البحرية والنهرية الأوروبية، وكذلك المنسوجات والتوابل وسلع الترف الآسيوية، ومعها سلع مصنّعة أوروبية مثل الأقمشة الصوفية والنبيذ. وخلال القرن الخامس عشر وسّع البحّارة الأوروبيون سريعا نطاق ملاحتهم الأطلسية، ما شكّل تمهيدا لغزو محيطات العالم بعد العام 1492. وكما فعل الصينيون من قبلهم، أخذ البحّارة الأوروبيون يحوّلون حتى البحار العاصفة إلى ممرات آمنة إلى حد متحمل للتجارة والاتصال من كل نوع. وبذلك كانت الشبكة العالمية القديمة مهيأة في العام 1500 لابتلاع بقية العالم على نحو قوي ومفاجئ.

وحتى في الداخل الأوراسي البعيد عن السواحل، أخذت المراكب المائية والجليدية تقطع أنهار روسيا وسيبيريا جيئة وذهابا، وبذلك وضعت المنطقة المتجمدة ومعظم السهل في اتصال تجاري موسع مع المراكز الحضرية الواقعة إلى الجنوب. فكانت الغابات الشمالية تصدِّر الخشب والفراء والعبيد، تماما مثل الداخل الأفريقي البعيد عن السواحل الذي كان يصدّر الذهب والعاج والعبيد إلى المدن الإسلامية الواقعة في شمال أفريقيا وشرقها. وبالتزامن مع ذلك في غرب أفريقيا الواقع جنوب الصحراء الكبرى، دخل كثير من الممالك والمدن الأفريقية في الإسلام ومارست تجارة داخلية واسعة النطاق أدى فيها الملح المستخرج من الصحراء الكبرى وجوز الكولا من الغابات المطيرة القريبة من الساحل دورا أساسيا. وفعل الأمراء السلاف والأتراك الشيء نفسه في الغابات الأوراسية الشمالية من خلال الإغارة والتجارة على طول أنهار روسيا وسيبيريا الصالحة للملاحة واعتناق المسيحية الأرثوذكسية أو الإسلام السني.

لا توجد إحصاءات موثوقة عن كمية السلع التي دخلت هذه الشبكات التجارية ولا عدد البشر الذين باتت أرزاقهم تعتمد على بيع السلع والخدمات وشرائها. لكن اتجاه التغيير واضح على رغم ذلك، فأخذ مزيد ومزيد من البشر يتأثرون بدرجة أو بأخرى بعمليات التبادل المكثفة طويلة المسافات، إذ ترافق انتشار الأفكار والمهارات حتما مع انتشار البشر والسلع، ولذلك مارس البيع والشراء ضمن الشبكة العالمية القديمة تأثيرا متناميا في الحياة اليومية لمزيد ومزيد من

البشر. أخذت هذه العملية دفعة من الفوائد التي وجدتها الجماعات والأفراد في كل مكان في وفرة منتجات ما كان لها أن تتوافر لولا ذلك، وهو نفسه ما يفسر لماذا كانت العراقيل المحلية أمام التبادل مؤقتة دائما.

لكن على الطرف الآخر من هذه المكاسب، أخذ تفاوت متنام يفصل بين الأغنياء والفقراء، ما دفع احتجاجات صادقة متقطعة - وفي الأغلب عنيفة - داخل الجماعات المحلية. كما سببت هذه المكاسب نشر القلق من التوقفات العرضية للإمداد. وتحمّل المتخصصون الذين اعتمدت أرزاقهم على صنع السلع للبيع أخطارا شديدة؛ لأنهم باتوا مضطرين إلى الاعتماد على نشاطات متنامة ومنسقة مع غرباء كانوا أحيانا يعيشون في أماكن بعيدة.

بيد أن السنوات الخمسمائة الممتدة بين العامين 1000 و1500 لم تتقدم دائما في اتجاه واحد على امتداد أوراسيا وأفريقيا كما توحي هذه الملحوظات، بل ساد التشوش والأهداف المتعارضة في كل مكان، مع وقوع بضع مفاجآت سيئة على طول الطريق. فخلال القرن الثالث عشر، انطلق الفرسان المغول بقيادة جنكيز خان (نحو 1162 - 1227) من سهولهم المتناثرة لبناء الإمبراطورية الأكبر على مر الزمن التي وحّدت الصين وروسيا ومعظم جنوب غرب آسيا وكل السهل الأوراسي تقريبا تحت سيادة واحدة. لكن سرعان ما تلت الدمار الأولي سهولة غير مسبوقة في الاتصال، وعلى مدار بضعة عقود يسّرت الدولة المغولية الشاسعة والموحدة التبادل السريع للأفكار والتقنيات، إلى جانب انتشار عدوى الطاعون الدبلي المهلكة التي دمرت معظم أوراسيا الداخلية خلال القرن الرابع عشر.

سبب الموت الأسود - كما كانوا يطلقون على الطاعون في أوروبا - كارثة واسعة الانتشار، تماما كما فعلت أوبئة القرن الثاني. ففي أوروبا وجنوب غرب آسيا التي تتوافر عنها بيانات جيدة، أهلك الطاعون ربع السكان أو ثلثهم خلال ست سنوات. تزامنت ضربة الطاعون (1346 - 1352) مع بداية المناخ الأبرد الذي يسمى أحيانا العصر الجليدي الصغير (1300 - 1850)، الذي كان سببا في فشل المحاصيل على الحواف الشمالية للمنطقة الزراعية الأوراسية. لكن «العصور المظلمة» التي أطلقتها غارات السهل والأوبئة سابقا في الصين وأوروبا لم تتكرر. بل على العكس من ذلك، كان هذان الجزءان من العالم تحديدا هما اللذان نجحا أكثر من غيرهما

في التعافي من الكوارث المرضية والضغوط المناخية التي ميّزت القرن الرابع عشر، مع أن ترسيخ الصين لمكاسبها السابقة في ظل بيروقراطية إمبراطورية مستلهَمة من المبادئ الكونفوشية كان يقف على طرف النقيض مع الاندماج الفوضوي بين التجارة والحرب اللتين سادتا أوروبا.

خلال هذه القرون عينها، شهدت الأمريكتان تغيرات جذرية ونالتا نصيبهما من الكوارث. على وجه التحديد، تدهور المركزان الطقوسيان كاهوكيا (إلينوي) وتشاكو كانيون Chaco Canyon (نيو مكسيكو) بعد نحو العام 1250، ربما لأسباب مناخية. وفي المكسيك وبيرو أفسحت المراكز الطقوسية والإمبراطورية الأقدم الطريق لمراكز جديدة، إذ أقام الأزتك والإنكا إمبراطوريتيهما. لكن لا يظهر في السجلات الأثرية أو الأدبية توسُّع جذري في الإمكانات أو المهارات الأقدم، ومن الوارد أن الصعوبات البيئية الناشئة عن إزالة الغابات على نطاق واسع ونقص إمدادات المياه للزراعة المصطبية الكثيفة كانت تكبِّل المكسيك وبيرو عندما اقتحم الفاتحون الإسبان عالمهم.

كيف أصبحت الصين أول مجتمع سوق؟

كان انطلاق الصين نحو الحداثة بعد العام 1000 يقوم على تلمذة طويلة. فقد كانت الصين منذ القدَم تستورد أشياء مفيدة من غرب آسيا، منها على سبيل المثال: الأسبوع ذو السبعة أيام والقمح والعجلات الحربية وتكتيكات الفرسان. وعلى رغم أن الغلبة ظلت دائما للمهارات والأفكار المحلية، فإن البوذية، بعد أن نالت رعاية الدولة خلال القرن الرابع، قد فتحت الطريق أمام التعرض المتنامي للأفكار والممارسات المستوردة. وغدت الأديرة البوذية الغنية بأوقافها مراكز لنشر الأشكال الجديدة للفن والدين، فضلا على سلوك السوق، إذ كانت الأديرة قبل كل شيء مؤسسات اقتصادية، فضلا على كونها مؤسسات دينية. وكما كانت الحال في سومر القديمة، كانت أبهة العبادة تتطلب توفير السلع النادرة والثمينة، ما أفسح المجال أمام تجار المسافات الطويلة.

تكثُّفت ارتباطات الصين مع بقية آسيا خلال السنوات الأولى لحكم سلالة تانغ (618 - 907). ومادامت القوة العسكرية التانغية في حالة صعود، ساد الصين فضول قوي نحو بقية العالم. من ذلك مثلا أن الرهبان الصينيين استوردوا مئات النصوص

البوذية المرجعية من الهند، ثم ترجموها بغرض توفيقها مع العقول الصينية وتهيئة هذه العقول للعلم البوذي. ونالت أديان غرب آسيا - ومن أبرزها المانوية والمسيحية النسطورية والإسلام - مواطئ أقدام لها في الصين، وساعدت جماعات التجار الأجانب الذين جاءوا في الأغلب من آسيا الوسطى في تعريف الصينيين بكل ما يجب معرفته عن تجارة البازار.

لكن مع تراجع قوة الصين العسكرية - كما رأينا في الفصل الرابع - حدث رد فعل انعزالي. كانت الطباعة التي انتشرت لأول مرة في عهد التانغيين قد ساعدت في نشر العلم الكونفوشي والطاوي، فضلا على البوذي، وأتاحته أكثر من قبل. وبعد العام 845، أقنع مستشارون كونفوشيون الإمبراطور بحظر الديانات الأجنبية وتنشيط المالية الإمبراطورية بمصادرة الأراضي التي أوقفها مانحون أتقياء على الأديرة البوذية. لكن الأفكار والمهارات والمنظورات الجديدة كانت حينذاك قد ترسّخت بقوة في المجتمع الصيني، وحتى رجال الدين الكونفوشيون وجدوا ضرورة في استيعاب الأفكار الجديدة - البوذية في أغلبها - وطوّروا بذلك ما بات يعرف باسم الكونفوشية المُحَدّثة، وذلك من خلال طرح أسئلة جديدة واكتشاف إجابات أصيلة بإعادة تفسير النصوص الكلاسيكية.

كان لقبول سلوك السوق تأثيرات أشد من ذلك بكثير. أصبح البيع والشراء أكثر انتشارا عندما بدأت العملة النقدية الصينية - سرعان ما أكملتها عملة ورقية أديرت بمهارة - في تزييت عجلات التجارة(*). وخفّف الموظفون الإمبراطوريون الشك الكونفوشي القديم في التجار، ما أعطى الأخيرين مجالا أوسع من قبل. لذلك تحوّل الاقتصاد الصيني في عهد سلالة سونغ (960 - 1279) إلى التتجير أكثر وأكثر، إذ وجد الموظفون الإمبراطوريون أنه من الأفضل لهم أن يجمعوا الضرائب نقدا بدلا من جمعها في شكل سلع، وبحلول نهاية القرن الحادي عشر كان أكثر من نصف دخل الحكومة يأتي في شكل نقدي. فرض ذلك على عامة الناس أن يبيعوا شيئا - جزءا من الحصاد أو كله في حالة الغالبية - من أجل دفع ضرائبهم. واستخدمت الحكومة دخلها النقدي لشراء السلع والخدمات، في الأغلب بكميات ضخمة، ما عزّز علاقات

(*) من المجازات الشائعة في علم الاقتصاد أن «العملة تزيّت التجارة والتبادل»، بمعنى أنها تؤدي فيهما دور الزيت في الماكينة من حيث تيسير الحركة والدوران. [المترجم].

السوق وكثّفها. وازدهرت المدن، وتحسَّنت المهارات الحرفية، وتبنى مُلاك الأراضي والتجار الأثرياء أنماط حياة فخمة ظلت تبهر الغرباء على مدار قرون تالية.

كان هذا التوسُّع في الحياة الحضرية يقوم على الزراعة المكثفة؛ ذلك أن الأرز مبكر النضج الذي جاء من جنوب شرق آسيا وذُكر لأول مرة في السجلات الصينية في العام 1012، قد مكّن المزارعين في المناطق جيدة الري بجنوب الصين من إنتاج محصولين في السنة الواحدة، ما ضاعف حصادهم تقريبا، لكنه اضطرهم إلى العمل الشاق المطول في الحقول. وكان الأرز مبكر النضج يمكن أن ينضج مرة واحدة في السنة على منحدرات التلال التي كانت المياه تتوافر فيها شهرين أو ثلاثة فقط في السنة، ولذلك شرع الفلاحون الصينيون في بناء حقول مصطبية في مناطق المرتفعات في جنوب الصين، ما وسّع إجمالي مساحة الأرض المزروعة.

وإلى جانب الأرز، انتشرت في الصين على نطاق واسع محاصيل جديدة، من أهمها الشاي والقطن. ولا شك في أن ممارسة شرب الشاي المنقوع في ماء مغلي قد أسهمت في تقليل الإصابات المعوية من خلال قتل معظم الكائنات الدقيقة العالقة في ماء الشرب، ما ساعد خلال الأزمان التانغية والسونغية في ازدهار سكان الصين في الجنوب الأكثر دفئا ورطوبة، الذي اشتهر في الأزمان الهانية بأنه غير مواتٍ للصحة وقليل السكان. وربما كان للألبسة القطنية القابلة للغسل نتائج إيجابية على الصحة، فلا بد أنها أسهمت في تحسين رفاه عامة الناس الذين لم يكونوا يتحمّلون أسعار الأقمشة الحريرية، وكانوا في السابق يلبسون أقمشة التيل الخشنة. إجمالا، يبدو أن الزراعة المكثفة في الصين لم تتأخر عن التصنيع الحضري المكثف، ما ضمن استمرار رجحان كفة الحياة القروية وتحضر طبقة مُلاك الأراضي أكثر وأكثر.

يرجع الفضل إلى النقل الرخيص والآمن على طول الأنهار والقنوات الصينية في تمكين السوق من تركيز الموارد المادية في المكان الذي أراده الموظفون الحكوميون والأغنياء غير الحكوميين. فكانت مراكب البرج في القنوات تحمل أطنانا في المرة الواحدة، ونتيجة لأنها كانت تعتمد على الرياح وتيار الماء ولا تستخدم حبال الجر إلا في حال الضرورة، فقد مكّنت من خفض تكاليف النقل النهري عن النقل البري، لذلك كانت الفروق الصغيرة في الأسعار تبرر - اقتصاديا - نقل المنتجات المحلية لمسافات طويلة على طول الممرات المائية. تمثّل الشريان الرئيس للتجارة الصينية

في القنال الكبير، الذي ربط السهول الخصبة لوديان نهري اليانغتسي والأصفر بعد العام 611، وبذلك حدث الربط بين العمل اليومي لنحو مائة مليون إنسان على نحو أوثق من أي وقت مضى من خلال عمليات البيع والشراء في سوق واسع موثوق مربوط جيدا بعضه ببعض.

يسّر النقل الرخيص انتشار السلع الاستهلاكية العادية على نطاق واسع. وفي الأماكن المواتية، أمكن لعائلات الفلاحين أن تركز على تربية دودة القز أو زراعة نوع أو آخر من المحاصيل التجارية، وأن تعتمد على السوق في الحصول على الغذاء وغيره من السلع الأساسية. وهكذا ظهرت في الصين السونغية كل فوائد التخصص التي حللها آدم سميث لاحقا على نحو مقنع. فازداد الناتج، ونما السكان، وتضاعفت المهارات، وأخذ انفجار في الابتكار الصينيّ السونغية إلى مستوى من الثراء أعلى من أي وقت مضى ومن أي من معاصريها.

أما الموظفون الحكوميون الذين كانوا يتأهلون لمناصبهم باجتياز امتحانات تحريرية تقوم على نصوص كونفوشية، فقد أشرفوا على هذا التحوُّل بأعين حذرة، إذ كانوا مازالوا يعتبرون التجار الأغنياء والقادة العسكريين تهديدا للعدالة الاجتماعية والحكم الجيد. لكن في عالم مُتَجْر محفوف بالمخاطر، لم يكن في وسع الموظفين الحذرين أن ينجحوا في عملهم من دون خدمات المجموعتين. وحاول كبار الموظفين أن يكبحوا سلطة التجار والجنرالات من خلال تثبيت الأسعار وفرض ضرائب على المكاسب المفرطة واللجوء من حين إلى آخر إلى مصادرة ثرواتهم. وحاولوا في الوقت عينه أن يضعفوا الجنرالات من خلال تقسيم إماراتهم ووضع الإمدادات اللازمة لهم تحت سيطرة مدنية.

كبحت هذه السياسات تعبئة موارد الصين، ما أدى تحديدا إلى الزوال السريع للمشروعات الصناعية واسعة النطاق، على الرغم من وجود مجموعة من الأفران عالية التقنية في شمال الصين أنتجت وفقا للسجلات الضريبية المتبقية ما لا يقل عن مائة وخمسة وعشرين ألف طن من الحديد في العام 1078. فلم تضع الصين نفسها على منصة التحوُّل الصناعي المستدام التي وصلتها بريطانيا العظمى بعد نحو سبعمائة سنة، على رغم أن القاعدة التقنية لهذا الإقلاع كانت - بالنظر إلى الأحداث بعد انقضائها - متوافرة في عهد السونغيين. ولا أحد يعرف على وجه

اليقين متى أو لماذا أُغلقت الأفران المشغَّلة بفحم الكوك التي صنعت هذه الكميات الضخمة من الحديد.

فيما يتعلق بالجانب العسكري، ظلت المشكلة الدائمة المتمثلة في إعالة جيش ضخم لحماية الصين من بدو السهل تؤرق الموظفين السونغيين، ولم يحققوا فيها نجاحات تذكر. كانت قوة الاتحادات البدوية قد اشتدت عما كان سابقا بفضل إلمامهم المتزايد بالأسلحة والطرق الإدارية التي ابتكرها حكام الصين وآسيا الوسطى لمقاومة البدو أنفسهم، وتحديدا تراجعت الخصومات القَبَلية والشخصية عندما أذعن المحاربون البدو لقيادة بيروقراطية واحدة وبدأوا في القتال في وحدات عشرية تعسفية - عشرات أو مئات أو آلاف - تحت قيادات كانت تُختار وتُرقّى على أساس الجدارة والأقدمية بالدرجة الأولى. وسرعان ما تعلمت الجيوش البدوية الخاضعة لسيطرة بيروقراطية كيف تستولي على المدن المسوَّرة باستخدام المنجنيقات والسلالم وغيرها من آلات الحصار. وبذلك مالت كفة التوازن بين المدافعين الصينيين والمغيرين البدو بدرجة كبيرة لمصلحة المغيرين البدو أو الذين كانوا بدوا في السابق.

خلاصة القول أن سلالة سونغ لم تتمكن يوما من السيطرة على أقاليم الصين الشمالية والواقعة إلى أقصى الغرب، التي عمل الحكام المغول والتبتيون فيها بلا كلل على تقوية أنفسهم عسكريا. وأصبح التوازن المتغير جليا في العام 1126، عندما ألحق فرسان الجورشن المنشوريون الهزيمة بالمغول، واستخدموا آلات حصار حديثة استولوا بها على كايفينغ Kaifeng عاصمة سلالة سونغ، التي بقيت في الجنوب بفضل السفن الحربية النقالة التي جعلت عبور الأنهار أمرا خطرا أو مستحيلا على فرسان الجورشن(*). وتلا ذلك تطوُّر سريع في تصميم السفن والأسلحة القاذفة، كما تجلّى في المنجنيقات الثقيلة وأسلحة البارود المبتكرة.

وعلى الرغم من كل هذه الجهود، انهار خط الدفاع النهري عندما استخدم فاتح بدوي آخر، هو المغولي قوبلاي خان Kublai Khan حفيد جنكيز خان، عمالة صينية في بناء أسطول حديث فتح به الصين كلها بحلول العام 1279. وشنَّ قوبلاي هجوما بحريا على اليابان في العام 1274، وهجوما آخر أشد في العام 1281، لكنه

(*) الجورشن Jurchen هم أسلاف بدو المانشو، غزوا الصين من منشوريا وأسسوا في العام 1127 سلالة جين Jin التي ضمت معظم شمال الصين حتى غزاهم المغول في العام 1234. [المترجم].

تراجع بعد أن دمرت أسطوله، وهو راسٍ قبالة الشاطئ، رياحُ الكاميكازي التي استحضرها اليابانيون من دون جدوى خلال الحرب العالمية الثانية(*). وأحبط موت قوبلاي في العام 1295 نجاحات المغول الأولية لهجوم بحري على جاوة في العام 1293.



الخريطة (5 - 1): إمبراطورية قوبلاي خان والخانيات المغولية بحلول العام 1280 ح. م

لم تحقق هذه المغامرات فيما وراء البحار نجاحا باقيا، لكن إمبراطورية قوبلاي خان وحّدت الصين مع بقية أوراسيا على نحو أوثق من أي وقت مضى. فأخذ الآلاف من الناس يتنقلون جيئة وذهابا على طول طرق القوافل التي كانت تعبر السهول الشمالية، وكذلك على طول طريق الحرير القديم الواقع إلى الجنوب. وفي حين كانت الصين في الأزمان السابقة تستورد المهارات والأفكار من جنوب غرب آسيا، انقلب اتجاه التأثير خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، إذ كانت تقنيات صينية كثيرة قد غدت أكثر تفوقا. وفي حين كانت الأفكار الصينية أصعب في تصديرها بسبب

(*) في اللغة اليابانية، تعني كاميكازي kamikaze «الرياح الإلهية»، وربما بسبب هذه السابقة التاريخية «الحامية»، أطلق اليابانيون هذا الاسم على هجماتهم الانتحارية بالطائرات على أساطيل الحلفاء خلال المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. لكن في حين نجحت الرياح الإلهية «الطبيعية» في رد أسطول قوبلاي خان في العام 1281، لم تنجح نظيرتها «الانتحارية» في رد أساطيل الحلفاء الذين احتلوا اليابان في أغسطس 1945. [المترجم].

احتجابها في مخطوطات مكتوبة بالرموز، فإن تقنيات صينية مثل الرسم والطباعة والملاحة والبوصلة وأسلحة البارود والأفران العالية والأفران العادية، وربما أيضا بناء السفن، شقّت طريقها إلى المسلمين والهندوس والمسيحيين. كانت الاستجابات المتباينة لهذه التقنيات الجديدة حاسمة للتطوُّر اللاحق لكل هذه الشعوب. لكن قبل أن نتتبع تأثير الصين في اتجاه الغرب، نقدم فيما يلي بضع ملحوظات حول انهيار الإمبراطورية المغولية وترسُّخ سيطرة سلالة مينغ Ming (1368 - 1644) على صين مُتَحجِّرة تماما.

كان من نتائج الفتوحات المغولية التي بدأها جنكيز خان في العام 1211، وأكملها حفيده قوبلاي في العام 1279، أن وضعت كثيرا من الأجانب في المناصب العليا في الصين: المسلمين والبوذيين وحتى - وفقا لروايته هو نفسه على الأقل - شخص دخيل مثل البندقي ماركو بولو(*). فقد أوجد الارتياب والازدراء المتبادلان شُقة بين المغول ورعاياهم الصينيين، لكن كما فعل الغزاة الآخرون الذين جاءوا من السهل، وجد المغول ضرورة في الاعتماد على الموظفين الصينيين في الإدارة الروتينية على المستويات الدنيا.

ثم تراخت القبضة المغولية على الصين إبان أوائل القرن الرابع عشر نتيجة للشقاق والأوبئة والتضخم الشديد في قيمة العملة الورقية والكوارث الطبيعية، لاسيما الفيضان الهائل الذي دمر حواجز النهر الأصفر. وتحوَّلت الغلبة تدريجيا للثوار الصينيين، وبعد عقود من النزاع المدمر، نجح فاتح قاسٍ وُلِد فلاحا وتيتم في طفولته وعمل راهبا بوذيا متسولا قبل أن يحمل السلاح يدعى يوان تشانغ Yuanzhang (حكم 1368 - 1398)، في تأسيس سلالة مينغ التي حكمت الصين حتى العام 1644.

مع عودة الصينيين إلى السلطة، غدا النفور من كل شيء أجنبي مبدأ حاكما بين الموظفين المينغيين، الذين أعادوا تأكيد الأفكار الكونفوشية بقوة وأكدوا مركزية الصين الإمبراطورية ضمن النظام السماوي والأرضي من خلال معاملة اللقاءات السلمية مع الأجانب باعتبارها «بعثات إتاوة». احتفظت الحكومة المينغية منذ

(*) ماركو بولو Marco Polo (1254 - 1324): تاجر ورحّال بندقي ارتحل خلال آسيا الوسطى وكتب عنها كتابه «كتاب عجائب العالم» أو «رحلات ماركو بولو» الذي عرّف أوروبا بهذه المنطقة. [المترجم].

البداية بجيش ضخم للحماية من فرسان السهل، ودأبت على توطين السكان في الشمال الذي كان المغول فيه يفضلون المراعي على الأراضي الزراعية، وأقاموا عاصمة جديدة في بيجين (بكين) الأقرب إلى التخوم. تبنى المينغيون في بادئ الأمر سياسة عدوانية، وبدأ الإمبراطور المينغي الثالث تشو دي Zhu Di (حكم 1402 - 1424) في غزو جيرانه السهليين، وأرسل بالتزامن مع ذلك سلسلة من الحملات البحرية الضخمة إلى المحيط الهندي (راجع الفصل السادس).

لكن مغامرات الصين الإمبريالية فيما وراء البحار توقفت فجأة كما بدأت فجأة. وفي العام 1415 عمّقت الصين القنال الكبير، ما أزال الحاجة إلى استخدام الممرات البحرية لإمداد العاصمة بالأرز الجنوبي. وفي العام 1449 وقع الإمبراطور الحاكم في الأسر في أثناء حملة على المغول، وأطلق سراحه في السنة التالية، وقررت الحكومة المينغية أن تركز الموارد المتاحة لحماية التخوم السهلية. وفجأة توقفت جهود التوسُّع فيما وراء حدود الصين الجنوبية. وبعد سنوات من القتال، انسحب جيش صيني غازٍ من آنام Annam (فيتنام الحديثة)، وتُرك الأسطول ليبلى، وحُظرت تجارة ما وراء البحار على التجار الخاصين، بيد أن بعض الصينيين تحدوا الحظر بمواصلة الإبحار في أعالي البحار، لكنهم فعلوا ذلك كقراصنة ينطلقون من الجزر الواقعة قبالة الشاطئ.

هكذا تخلت الحكومة المينغية عمدا عن التوسُّع التجاري-الإمبريالي من النوع الذي أتى بالبرتغاليين إلى المحيط الهندي في نهاية القرن الخامس عشر. لذلك لم يقم مستكشف صيني بالدوران حول أفريقيا للوصول إلى أوروبا، أو اكتشاف الأمريكتين بعبور المحيط الهادي، مع أن السفن والمهارات الملاحية الصينية كانت مؤهلة فعلا لإنجاز هذه المآثر. ربما يعد ذلك الإمكانية الكبرى التي لم تتحقق في التاريخ الحديث، لكنها كانت اختيارا عقلانيا من منظور حكومة الصين الإمبراطورية، فلماذا تهدر الموارد لكي تجلب من أراضي ما وراء البحار إتاوات لم تكن الصين في حاجة إليها، في وقت كان الدفاع فيه عن التخوم البرية أحوج إلى هذه الجهود النشطة؟

وفي الداخل، اعتمد الحكام المينغيون على أصول الحكم الكونفوشية التقليدية للحفاظ على خضوع العسكريين والتجار، وحققوا في ذلك نجاحا كبيرا. وتراجع التهديد الذي شكّله المغيرون السهليون، ربما بسبب تعرضهم المزمن لعدوى الطاعون

الدبلي الذي أصبح لأول مرة مرضا مستوطنا بين قوارض الجحور في السهل[2]. وأيا كانت الأسباب، فإن الجيوش المينغية كانت أكثر نجاحا بكثير من الجيوش السونغية في حماية التخوم الشمالية.

ضَمِن تحسُّن حرس التخوم السلام، ومكَّن السلام من التعافي من الخسائر الحادة في عدد السكان التي حدثت في أواخر الحقبة المغولية، واستمر تتجير المجتمع الذي تنامى في عهد سلالتي تانغ وسونغ، وزاد الإنتاج للتصدير بفضل إشراف الدولة على إنتاج الحرير والخزف وبضع سلع أخرى. كانت المشروعات واسعة النطاق قليلة وحكومية، مثل إدارة الملح التي جمعت الهندسة المتطوِّرة لاستخراج الملح من الرواسب تحت الأرضية مع نظام ضريبي محكم وغير مباشر قائم على التسعير التعسفي. وازدهرت التجارة الخاصة والصناعة الحرفية كما كانتا في السابق، في الأغلب على نطاق عائلي، واستثمر التجار الناجحون في الأراضي وأرسلوا أبناءهم إلى المدارس على أمل أن يصبحوا موظفين بعد اجتياز الامتحانات الإمبراطورية وينضموا إلى الطبقة الحاكمة.

بعد التخلي عن السلوك العدواني الأولي، عملت النخبة الحاكمة في المجتمع المينغي على تحقيق الاستقرار. كانت الحقيقة والجمال محفوظين في أمان في الكلاسيكيات الكونفوشية وفي إنجازات الشعراء والرسامين والكتاب الصينيين، لاسيما من الأزمان التانغية والسونغية. وكان الأجانب الذين لا يشتركون في هذا التراث مصدر إزعاج وخطر، ولذلك كان يفضل إبقاؤهم بعيدا! أما أعمال الخزف والحرير والطلاء وما شابهها، فقد ظلت تجد أسواقا متقبلة بين الغرباء، بينما لم يجد الصينيون شيئا يستحق الإعجاب في السلع الأجنبية، ولم يرحبوا إلا بالفضة والنحاس وبضع مواد أولية أخرى في مقابل السلع المصنَّعة المختلفة التي كانوا ينتجونها للتصدير.

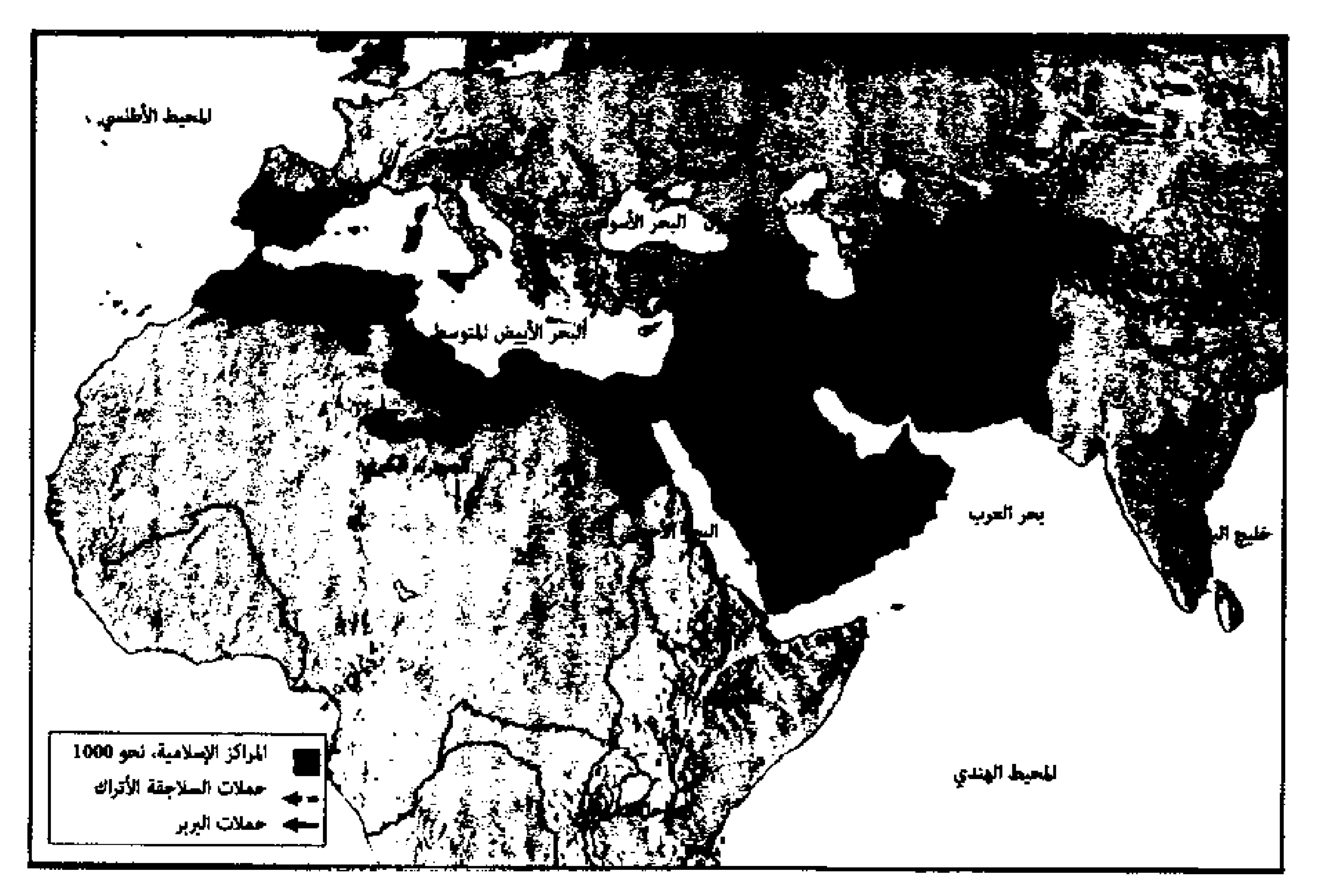
إجمالا، نجحت الصين في عهد سلالة مينغ في التعافي من الدمار الذي لحق بها خلال حكم المغول، ومع ذلك فقد عملت الحكومة بقوة بعد العام 1440 أو نحوه على كبح مشاركة الصين في الشبكة العالمية القديمة. ولا شك في أن سياسة الانكفاء المحافظة التي اتبعتها الصين كانت فرصة لأوروبا الغربية. لكن عدد السكان الضخم والسلام الأهلي المستدام والمهارات الحرفية المتفوقة كانت تعني أن مكانة الصين وأسبقيتها تراجعت أبطأ مما ظن الأوروبيون المتهورون الذين أبهرتهم نجاحاتهم.

تحوُّل العالم الإسلامي بين العامين 1000 و 1500

اعتمد ازدهار الصين على استخدام طرق الإنتاج الحرفي وتجارة البازار - وهي ممارسات ترجع في الأصل إلى المراكز الإسلامية في جنوب غرب آسيا - في مشهد طبيعي مختلف سمح فيه النقل المائي الآمن والرخيص للصينيين بتعظيم تأثير هذه الممارسات من خلال تحويل ملايين الفلاحين إلى مزارعين تجاريين يتسمون بالدأب والفطنة. غير أن شيئا من هذا القبيل لم يكن ممكنا في الأقاليم الإسلامية، ولا حتى في مصر التي دعم النقل المائي الرخيص والموثوق عبر النيل فيها زراعة تجارية واسعة منذ الأزمان الرومانية. وعلى رغم أن العِزَب الريفية في مصر كانت تنتج الحبوب - ولاحقا القطن - للتصدير، فإن نخبة مُلاك الأراضي هي وحدها التي كانت تحصد أي نفع مباشر. كانت عائلات الفلاحين في الصين تدخل السوق بإرادتها للحصول على المال لدفع الضرائب والريوع وشراء ما تحتاج إليه، ما زاد الحافز لدى المنتجين لزيادة الناتج. وفي المقابل، لم يكن لدى الفلاحين في مصر وغيرها من اقتصادات المزارع الاستعمارية(*) الدافع إلى إحداث قطيعة مع الوتيرة المتبعة. وفي مثل هذه الظروف، يجد الإداريون المبتكرون - إن وُجدوا - صعوبة جمة في التغلب على مقاومة العمال لبذل مزيد من الجهد في العمل.

تمثّل العائق أمام التقدم الاقتصادي في جنوب غرب آسيا في عدم وجود ممرات مائية داخلية صالحة للملاحة من النوع الذي وجد في الصين وأوروبا، ولم يكن في مقدور قوافل الإبل أن تحمل برا إلا كميات صغيرة مقارنة بالممرات المائية، ما حال دون النقل طويل المسافات للسلع الاستهلاكية العادية كبيرة الحجم التي أصبحت سلعا أساسية أولا في التجارة الصينية وبعد ذلك في التجارة الأوروبية. كان ذلك القيد يعني أن السفن الإسلامية والتجار المسلمين، على الرغم من

(*) اقتصاد المزارع الاستعمارية plantation economy، اقتصاد نشأ في المستعمرات، يقوم على الإنتاج الزراعي الضخم لعدد قليل من المحاصيل النقدية مثل القطن وقصب السكر والتبغ والقهوة، في مزارع ضخمة، في الأغلب بعمالة من العبيد أو العمال الملزمين. ومع أن المصطلح نشأ لوصف الاقتصادات الاستعمارية في الأمريكتين، فإنه ينطبق أيضا على الاقتصادات المشابهة السابقة على استعمار الأمريكتين، ومنها اقتصاد العِزَب الذي ساد في مصر والمشرق العربي قبل - وبعد - وقت طويل من استعمار الأمريكتين. والعِزبة أو أيا كان مسماها في هذه الفترة أو تلك وفي هذا البلد أو ذاك، ملكيات أطيان كبيرة كانت الدولة تخصصها لأفراد النخبة الحاكمة في شكل التزامات ضريبية، كان الفلاحون فيها أقرب إلى وضعية الأقنان في أوروبا. (المترجم).



الخريطة (5 - 2): المراكز الإسلامية خلال الفترة بين العامين 1000 و 1500

مشاركتهم في التحسينات التي شهدتها الملاحة البحرية، وعلى الرغم من مواصلة الإسلام الانتشار في مناطق جديدة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا، لم يكن في وسعهم أن يحدثوا في المجتمع الريفي بجنوب غرب آسيا تغييرا جذريا من النوع الذي اجترحه الصينيون. كما أضر التغير المناخي والتوسُّع الرعوي بالزراعة في جميع أنحاء المراكز القاحلة في جنوب غرب آسيا، وكذلك كانت ضربات الطاعون موجعة خلال القرن الرابع عشر.

في المقابل، ابتكرت الحكومات الإسلامية طرقا إبداعية لدعم تجارة القوافل ماليا، إذ سمحت للمتبرعين بأن يوقفوا - باعتباره فعلا من أفعال الخير الدينية - الأوقاف للخانات ونُزل القوافل من خلال تخصيص ريوع في شكل سلع من عِزَب زراعية لإطعام التجار المتجولين وإبلهم، عادة في أثناء وقفات استراحة لا تتجاوز الواحدة منها ثلاثة أيام. كانت هذه الأوقاف معفاة من الضرائب، ومكّنت الإبل من أن تجوز خلال المناطق الزراعية من دون أن تلحق الضرر بالمحاصيل بأكلها ليلا. أما في المناطق العشبية والصحاري، فكانت الإبل تشحن عضلاتها لمسيرة اليوم التالي بالرعي على النباتات البرية. أمّنت الخانات ونُزل القوافل المعتمدة على الأوقاف غذاء مجانيا للإبل في مناطق الاستقرار، لذلك كانت التكلفة المباشرة التي يتحمُّلها تجار القوافل تنخفض أينما وجدت سلسلة من أمثال هذه الخانات والنُّزل.

لكن ذلك لم يمكّن الإبل من نقل أحمال أثقل. لذلك ظلت سلع الترف غالية الثمن هي السلع الرئيسة في تجارة القوافل بين مناطق جنوب غرب آسيا. ولم يكن في مقدور الفلاحين الذين أرهقتهم الريوع والضرائب في شكل سلع، وأنهكتهم غارات البدو المتكررة، أن يدخلوا في الأسواق الحضرية القريبة إلا بدرجة محدودة. وباستثناء نهر النيل، كانت الأنهار في الأقاليم الإسلامية قليلة الفائدة في الملاحة. إجمالا، حالت القدرة المحدودة للقوافل البرية دون تجير الأغلبية الريفية في الأقاليم الإسلامية في مستوى قريب من ذلك الذي شهدته الصين وأجزاء من أوروبا بعد العام 1000 بفضل ممراتهم المائية الداخلية.

بيد أن التجارة البحرية الإسلامية على طول شواطئ المحيط الهندي أفلتت من هذا القيد. وفي بعض المناطق الساحلية، تواصل تكثّف الزراعة التجارية والإنتاج الحرفي للأسواق البعيدة. لكن ظل الاختراق التجاري للداخل الهندي والأفريقي

ضعيفا، إذ كبحته كالعادة تكاليف النقل والحماية العالية. ويبدو أن شيئا مماثلا للتحوُّل الجذري لحياة الفلاحين في الوديان النهرية الصينية الكبرى لم يحدث حتى على طول ممرات مائية واعدة مثل الغانج.

تفسر الحرب والسياسة هذه الحالة جزئيا، في كل من الهند والعالم الإسلامي بشكل عام، ذلك أن التعرض المتكرر لغارات البدو والبدو السابقين أضر بالزراعة وأعاق الاقتصاد الريفي الإسلامي في كل الأماكن تقريبا بين العامين 1000 و1350. وكانت نظم ري الأراضي الجافة عرضة للدمار بشكل خاص؛ لأن البدو كانوا عادة يفضلون رؤية العشب وليس المحاصيل المروية. وصرفت التيارات الدينية الجديدة الانتباه عن الأمور المادية، إذ انتشرت خلال العالم الإسلامي كله ممارسات جماعية استهدفت حث اللقاء الباطني مع الله، ما جعل العالم الإسلامي مفعما بالوجدان أكثر من قبل، لكن الصوفيين الذين ألفوا العيش بالقرب من الله وازدراء الأشياء الدنيوية، عزّزوا نزعة محافظة في الحياة اليومية.

تمثّلت الظاهرة السياسية الأساسية للقرون الممتدة بين العامين 1000 و1500 في التسرب المتسارع للأتراك إلى مراكز العالم الإسلامي، كان إحياء الوعي الثقافي والهوية الفارسيين تغيرا موازيا، واجتمع الاثنان لخلق نمط تركي - فارسي للثقافة والحكم والحرب فرضه الفاتحون المسلمون على الهند كلها تقريبا. وفي شمال أفريقيا كان البربر في داخل الصحراء الكبرى المقابل الأفريقي للتوسّع التركي، إذ وفّروا المقاتلين الذين أوصلوا حركات دينية إصلاحية متعاقبة إلى السلطة على سواحل البحر الأبيض المتوسط وجنوب إسبانيا. لكن على خلاف الأتراك والفرس، لم يطور الفاتحون البربر ثقافة أدبية خاصة بهم، وفضلوا بدلا من ذلك استخدام اللغة العربية: لغة القرآن الكريم.

اعتمد توسُّع الأتراك على تمكنهم الفائق من حرب الفرسان. كانت الجيوش التركية في شكلها الناضج تجمع بين الأسلوب القديم لقوّاسة السهل وسلاح الفرسان المدرعين من النوع الذي ابتكره البارثيون. وتمثّلت التوليفة الحربية المهولة التي تمتع بها الأتراك في استخدام عدد كبير من القوّاسة غير المدرعين القادرين على القذف بدقة كبيرة من فوق خيل منطلقة، واستخدام القليل من الفرسان المدرعين على خيل ضخمة القادرين على تشتيت تشكيلات المشاة[3].

حدث التقدم التركي على موجتين تخللهما الغزو المغولي المدمر لمعظم جنوب غرب آسيا بين العامين 1245 و1258. فبعد العام 1037 انتقلت قبائل الأتراك السلاجقة إلى مراكز العالم الإسلامي، جالبين معهم قطعانهم من السهول. كانت الزراعة المستقرة في الأراضي التخومية غير المروية (كان هناك كثير من هذه الأراضي في إيران وسورية وبلاد ما بين النهرين والأناضول) تتآكل فعلا قبل وصول الأتراك، ربما جزئيا بسبب التغير المناخي الذي جعل الرعي طريقة حياة أنفع من الزراعة. كان السلاجقة من المسلمين السنة، ولذلك رحب بهم الخلفاء العباسيون في بغداد والنخب الحضرية الذين كانوا يواجهون تحديات جدية من جانب المسلمين الشيعة الذين كان الفاطميون - الذين انتزعوا مصر - أشدهم خطرا، بينما كان ما يسمى طائفة الحشاشين في شرق إيران (1090 - 1256) أشدهم تطرفا(*).

ويمكن القول إن التدفق السلجوقي أعاد إلى الحياة التحالف القديم بين المحاربين البدو وسكان الحضر الذي كان له الفضل في الأمجاد العسكرية الأولى للإسلام، مع وجود فارق وحيد هو أن نخبا حضرية من مكة سيطرت على الحكم في السنوات الأولى للإسلام، في حين آلت السلطة السياسية خلال القرن الحادي عشر إلى أيدي المحاربين السلاجقة. وكان السلاجقة قد تعلموا قبل وقت طويل من مغادرة السهل أن يحترموا أنماط التجار ويستفيدوا منها، وكانوا بذلك مهيئين للسماح للنخب الحضرية بإدارة شؤونهم الخاصة ضمن حدود واسعة. وكانوا يريدون - في مقابل ذلك - الشرعية السياسية من الفقهاء السنة، الذين كانوا في ذلك الحين يعترفون بالخليفة العباسي في بغداد.

اخترق أحد أجنحة التقدم السلجوقي التخوم البيزنطية في العام 1071، واحتل معظم الأناضول سريعا، وتلا ذلك مباشرة انتشار الإسلام بين القرويين المسيحيين الناطقين باليونانية، وغدا شبه جزيرة الأناضول ناطقا باللغة التركية في أغلبيته. لكن الاكتساح الإقليمي للفتوحات السلجوقية التي امتدت من شواطئ بحر إيجة إلى بحر الآرال Aral، كانت عائقا لا يرتقي أمام إقامة شيء من قبيل الإدارة المركزية.

(*) الحشاشون طائفة انشقت عن الفاطميين في مصر، ولجأت إلى جبال الشام، لاسيما جبال إيران التي لم تتبنَّ المذهب الشيعي دينا للدولة إلا في عهد الشاه إسماعيل الأول في العام 1506، في المقام الأول من باب خلق أيديولوجيا مخالفة ومقاومة للسلطنة العثمانية السنية. [المترجم].

ولذلك فبعد أن مات آخر قائد سلجوقي عظيم في العام 1091 اندلعت حرب أهلية بين مغامرين عسكريين متنافسين وطال أمدها[4].

في شمال أفريقيا نشأ تحالف بدوي - حضري مماثل مع ظهور دولة المرابطين (حكموا من 1056 إلى 1147). كان المرابطون من القبائل البربرية الذين تعلموا أخيرا فنون تربية الإبل وتقدموا في الفتوح في كل حدب وصوب، معتمدين على قدرتهم التي تحسّنت على الانتقال. وعلى خلاف أسلافهم الفاطميين، رفع المرابطون راية الإسلام السني، ما يسّر لهم التحالف مع النخب الحضرية عندما أخضعوا المناطق الساحلية لشمال غرب أفريقيا. ومن تلك القاعدة، تقدموا في العام 1076 لاجتياح مملكة غانا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى بالقرب من ثنية نهر النيجر، وسرّعوا بذلك انتشار الإسلام في غرب أفريقيا. ونجح المرابطون كذلك في دفع المسيحيين في إسبانيا إلى التقهقر إلى الوراء. وعندما استؤنفت الانتصارات المسيحية في إسبانيا، حلّ محل المرابطين اتحاد بربري آخر من الإصلاحيين الدينيين الأكثر باطنية، عرفوا باسم الموحدين (حكموا من 1130 إلى 1269). وكما فعل أسلافهم، نجح الموحدون بعض الوقت في صد المسيحيين الإسبان، لكنهم سرعان ما تكبدوا هزيمة ثقيلة في العام 1212 حصرت الحكم الإسلامي في إسبانيا ضمن مملكة غرناطة الصغيرة، إلى أن سقطت غرناطة نفسها في العام 1492.

وفي حين كان الرعاة يكتسبون مكانة أكبر في الأقاليم الإسلامية، كان تحوُّل عكسي يحدث في الصين وأوروبا اللتين كان المزارعون الفلاحون فيهما يوسّعون سيطرتهم على المشهد ويشدّدونها. ربما عزّز التغير المناخي العمليتين كلتيهما، إذ توجد أدلة قوية على أنه بين نحو العامين 950 و1250 غدا الصيف في أوروبا الغربية أكثر دفئا وجفافا ما جعله مواتيا لزراعة الحبوب ونمو الكروم. ولو سادت ظروف مماثلة في الأقاليم الإسلامية - وهو أمر غير مؤكد - فلا بد أن الجفاف الصيفي كان مواتيا للرعي وليس للزراعة. وبعيدا عن المناخ، يبدو أن النجاحات العسكرية - السياسية للمحاربين الأتراك والبربر بعد العام 1037 أعطت مزيدا من القوة للعنصر الرعوي في المجتمع الإسلامي - والهندي - على حساب المزارعين المستقرين.

شهدت السياسة في العالم الإسلامي تحوُّلا آخر في منتصف القرن الثالث عشر، عندما تقدم المغول الوثنيون بخيلهم صوب الغرب من قاعدتهم في الصين وشرق

السهل واستولوا على بغداد ونهبوها في العام 1258، ودمروا نظم الري ببلاد ما بين النهرين وقتلوا آخر خليفة عباسي. ومع القضاء على الخلافة تبخر حتى زعم الوحدة السياسية الإسلامية. ولاحقا، اعتنق الإسلام الإيلخانات المغول الذين حكموا بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين وجزءا من سورية (1295)(*)، لكن ذلك لم يعطهم الشرعية الدينية. كان المسلمون المتدينون ساخطين على السياسة، وأخذ تطلعهم إلى النقاء الديني ينحو أكثر وأكثر إلى الطرق الباطنية، وبدأت عقيدة الاتحاد تترسخ لدى الدراويش - وقاوموا أحيانا - سلسلة طويلة من المغامرين العسكريين المبتدئين الذين على الرغم من تحدثهم اللغة التركية أو الفارسية، أقاموا مطالباتهم بالحكم دائما على تحدُّر حقيقي أو كاذب من جنكيز خان.

تمزقت الخانية المغولية بعد العام 1353، وبعدها أنشأ محاربون أتراك وأفغان ومغول نظما مضطربة حول قادة عسكريين ناجحين، كان تيمور الأعرج (أو تيمورلنك، حكم من 1369 إلى 1405) أكثرهم نجاحا(**). رعى بعض هؤلاء الحكام، ومنهم تيمورلنك، ثقافات بلاط فخمة، جمعت تأثيرات فارسية وتركية وصينية وأنتجت بنايات عامة رائعة ومخطوطات مصورة متألقة، وفي حالة واحدة مرصدا فلكيا رائعا. لكن هؤلاء القادة لم يترجموا الثروات الناتجة من الحرب إلى شرعية سياسية - دينية أو دول باقية، فكانت خانياتهم أشبه بأزهار الصحراء التي سرعان ما تتفتح وسرعان ما تذبل.

وكما كانت حال معاصريهم الإيطاليين والبيزنطيين الذين نال الإعجاب بالعصور القديمة الوثنية رواجا بينهم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، بدأ رجال البلاط والنخب الحضرية في جنوب غرب آسيا يتبنون نمطهم الخاص من العلمانية، وهو ما نشأ جزئيا من انبعاث الحماس للفروسية الفارسية ما قبل الإسلامية كما تجلى في الشعر الملحمي للفردوسي (توفي نحو العام 1020)، وجزئيا من تعرضهم المتزايد للثقافات الأجنبية. من ذلك مثلا أن الصوفيين المسلمين يدينون بكثير إلى

(*) الإيلخان Il-Khan، هو لقب الحكام الذين وقعت بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين من نصيبهم عند تقسيم الإمبراطورية المغولية، ومعناه الخان التابع أو نائب الخان، على اعتبار تبعيتهم للخان الأكبر مونكو خان، ومنه اسم دولتهم «الإيلخانية». [المترجم].

(**) الخانية هو اسم الدولة في اللغات المغولية والتركية، وحاكمها يدعى خان. [المترجم].

ممارسات رجال الدين الهنود، وأن درويشا مؤثرا مثل الرومي (توفي نحو العام 1273) لجأ إلى الشعر الفارسي بحثا عن طريق للروح إلى الله. ولاحقا، عبث بالمقدسات شاعرٌ فارسي شهير آخر، هو حافظ (توفي نحو العام 1389)، باستخدام مجازات حسية غامضة خلطت الحب الإلهي بالبشري. ووفّر كثير من الأمراء المسلمين من أوزبكستان إلى إسبانيا الرعاية للعلم، ما أحدث تقدما في علم الفلك والملاحة والرياضيات والجغرافيا. بيد أن الدين الوجدي الصوفي والعلم الابتكاري لم يكونا ينسجمان مع التأكيد الإسلامي الأقدم على الإذعان المدقق للشريعة، لكن هذا التعارض المنطقي كانت تقابله الجاذبية الوجدانية للروحانية الجديدة والعلمانية الحسية.

لم تعرف ثقافات البلاط المغولية - التركية المفرسنة طريقها إلى مصر(*). فبعد موت صلاح الدين في العام 1193، خضعت مصر لحكم العبيد العسكريين المماليك الذين جُلب معظمهم من الشواطئ الشمالية الشرقية للبحر الأسود. وتمكن جيش مملوكي من صد هجوم مغولي في العام 1260، وتأسيسا على المكانة التي نالها المماليك من هذا الانتصار بالدرجة الأولى، ظل حكم مصر لهم حتى العام 1517. وكما فعل الفاطميون من قبلهم، تعهد المماليك تجارة القاهرة ورعوا تقليدا أدبيا عربيا، على خلاف ثقافات البلاط المفرسنة التي سادت إلى الشرق من مصر. وبالمثل، تبنى الحكام البربر والنخب الحضرية في الغرب طريقة حياة عربية فخمة استمرت في إسبانيا حتى العام 1492 عندما سقطت غرناطة أمام المسيحيين.

بيد أن الانسحاب الإسلامي من إسبانيا كان حدثا استثنائيا. ففي كل الأماكن الأخرى، اجتمع ورع الدراويش والحماس التجاري - الدعوي مع العمل العسكري لتوسيع تخوم الإسلام بسرعة كبيرة. كانت الهند وأوروبا الشرقية وأفريقيا وجنوب شرق آسيا المسارح الأساسية لهذا التوسُّع. إجمالا، تضاعفت مساحة العالم الإسلامي تقريبا بين العامين 1000 و1500. لا عجب إذن أن المسلمين على الرغم من هزيمتهم المؤقتة أمام المغول الكفار وفشلهم العسكري المحلي في إسبانيا، ظلوا واثقين بأن الله معهم.

(*) المفرسنة أي المتأثرة بالتقاليد الفارسية، لاسيما ما قبل الإسلامية. [المترجم].

وفي الهند شنّ محمود الغزنوي (حكم من 997 إلى 1030) غارات نهب منطلقا من أفغانستان، وخلال القرون التالية مدّ الحكام المسلمون سلطانهم خلال شمال الهند كله واخترقوا بعيدا ناحية الجنوب. اعتمد حكام الهند المسلمون على تدفق غير منتظم لمقاتلين أتوا من الشمال كانوا متلهفين إلى صنع مستقبل لأنفسهم من خلال الحرب على الوثنيين الهندوس. جلب هؤلاء المقاتلون معهم دينهم ومهاراتهم الفروسية، وحاولوا في بادئ الأمر اجتثاث الوثنية من جذورها بتحطيم المعابد الهندوسية. لكن العادات العائلية ونظام الطبقات حافظا على الهندوسية حتى بعد اختفاء المعابد، وسرعان ما بدأ المقاتلون الهندوس يجارون فروسية منافسيهم المسلمين. لذلك وجد الحكام المسلمون أن من الحكمة أن يتسامحوا من شكل أو آخر مع المهرجانات الخلوية العامة التي كانت تحتفل بواحد أو آخر من أفاتارات الفيشنوية أو الشيفية. وأضاف الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام والذين جاءوا بالدرجة الأولى من الطبقات الدنيا، تيارا جديدا إلى المجتمع الهندي الذي ظل منعزلا كليا تقريبا عن النخبة الإسلامية الحاكمة.

وكما حدث في جنوب غرب آسيا، أدى وصول المحاربين الأتراك - الفرس إلى بروز العناصر الرعوية في الهند. ربما وقعت تجاوزات من الرعاة المسلمين والهندوس على أراضي المزارعين في المناطق الداخلية شبه القاحلة، لكن أي تدهور في الناتج الزراعي حدث نتيجة لذلك قد حدث في مقابله اتساع متنامٍ في التجارة الداخلية غير الساحلية التي كانت تعتمد على عربات الثيران بدلا من قوافل الإبل. لكن كما حدث في جنوب غرب آسيا، ظل النقل البري مكلفا، ما حال دون انتشار السلع الاستهلاكية العادية على نطاق واسع بعيدا عن الساحل.

ظهرت الإمبراطورية العثمانية إلى الوجود في نحو العام 1290 على تخوم العالم المسيحي في شمال غرب الأناضول، وأصبحت ماكينة للتوسُّع الإسلامي أقوى من أي إمارة أخرى على امتداد التخوم الهندية. وكما كانت الحال في الهند، كانت الحرب على الكفار في بادئ الأمر تستهدف الإغارة والنهب. وكما في حالة الهند، مكّنت الهجمات الناجحة للسلاطين العثمانيين الأوائل من تخصيص عِزَب لأتباعهم لإعالتهم حتى الحملات التالية. ولذلك فبعد البدايات المتواضعة، اكتسحت الجيوش العثمانية ما في طريقها سريعا، حتى إنهم بحلول العام 1389 كانوا قد فتحوا شمال

غرب الأناضول ومعظم شبه جزيرة البلقان. ربما استفاد العثمانيون من الطاعون الذي ألحق بالقوة العاملة الريفية العثمانية خسائر أقل مما ألحق بأعدائهم البحريين الأكثر تحضرا.

استلزم الاحتفاظ بدولة مترامية الأطراف دون انقسام على مدى أجيال، مؤسسات غير شخصية تستحث الولاء أو تفرض الطاعة. وقد تغلب السلاطين العثمانيون على المشكلة القديمة المتمثِّلة في ضمان طاعة مُلاك الأراضي الريفيين أوامر الاستدعاء للمشاركة في الحملات العسكرية من خلال خلق بيت شخصي من العبيد العسكريين، كان قويا بما يكفي لإرهاب أي مقاومة محلية أو قهرها إذا لزم الأمر. كان الجنود العبيد يشكِّلون سمة مميّزة للمجتمع الإسلامي منذ القرن التاسع، ونجحوا أحيانا من خلال اغتصاب السلطة في تأسيس نظم باقية، كان من أبرزها الدولة المملوكية في مصر. لكن بيت العبيد العثماني لم يستولِ قط على السلطة صراحة، بل كان - بدلا من ذلك - بمنزلة العمود الفقري لدولة قوية من خلال التنسيق بين مهاراتهم العسكرية المتخصصة ومهارة الفرسان الأتراك مُلاك الأراضي. وكان السلاطين الأوائل يدربون معظم عبيدهم كجنود مشاة كانوا يخدمون ضمن فيالق الانكشارية الهائلة، لكنهم كانوا يختارون المجندين الواعدين لإعطائهم تعليما أعلى وتعيينهم حكاما للإمبراطورية في زمن السلم وقادة لقوات الفرسان الأتراك في زمن الحرب. جاء معظم بيت العبيد السلطاني من قرى زراعة الكفاف في غرب البلقان التي أصبحت فِردة دورية من الشباب والصبية فيها شكلا من الضرائب(*).

وهكذا، كان كبار المسؤولين بالإمبراطورية العثمانية يجندون في صباهم من بين طبقة الفلاحين المسيحية. كان هؤلاء المسؤولون يستخدمون اللغة السلافية فيما

(*) كانت هذه العملية تعرف باسم «الدفشرمة» devshirme، التي تعني الجمع. ومع أنها كانت قاسية على أهالي الصبية المجموعين في بداية تطبيقها، فإن بقاء المجموعين على اتصال مع أهليهم ووصولهم إلى أعلى المناصب في الإمبراطورية، قد خفف صدمة جمع الصبية لاحقا. وبالمثل، بسبب الرغد الذي عاشته الجواري في حريم السلطان اللاتي كن يجلبن عادة من القوقاز - تحديدا من جبال شركسيا التي اشتهرت جواريها بجمالهن في كل الثقافات - كانت الأمهات يغنين لبناتهن أغاني تقول: «متعكِ الله بالعيش بين الألماس والأبهة زوجة للسلطان». وكان الشركس يبيعون بناتهم وأخواتهم على أمل أن يصلن إلى الحريم السلطاني، بل كانت الجميلات منهن يعرضن أنفسهن بلا ثمن على تجار الجواري من أجل هذه الغاية. راجع كتاب «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924» (جزآن)، تأليف فيليب مانسل وترجمة مصطفى قاسم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العددان يوليو وأغسطس 2015. [المترجم].

بينهم، ويستخدمون اللغة التركية للأغراض الرسمية، بينما كانوا باعتبارهم مسلمين جددا يتعبدون باللغة العربية. وكانوا بسبب أصولهم القروية أكثر حساسية لمصالح الفلاحين من الحكام المسلمين الآخرين، ما جعل الإمبراطورية أكثر استقرارا مما عداها.

وعلى امتداد التخوم الأخرى للعالم الإسلامي، شجع الأمراء - التجار والدعاة - التجار انتشار الإسلام. من ذلك مثلا أن المرابطين بعد أن فتحوا مملكة غانا في العام 1076، تقبل الكثير من حكام غرب أفريقيا الإسلام طوعا. لذلك انتشر الإلمام بالعلم العربي ومجموعة كاملة من المؤسسات الإسلامية بين الإمبراطوريات المتعاقبة على السهل العشبي وعلى طول الممر التجاري لنهر النيجر، أولا إمبراطورية مالي (نحو 1235 - 1430) ثم إمبراطورية صنغاي (نحو 1464 - 1591)[*]. أثرى ملوك هذه الممالك من تجارة الصادرات المزدهرة في العبيد والذهب والملح. من ذلك أن حاكم مالي مانسا موسى Mansa Musa عندما ذهب إلى مكة حاجا في العام 1324، جلب معه من الذهب ما سبب خفض سعر ذلك المعدن في القاهرة عدة سنوات تالية.

ازدهرت الموانئ الإسلامية على امتداد ساحل شرق أفريقيا على التجارة الداخلية، وإن لم تظهر دولة إسلامية بارزة في ذلك الجزء من القارة. وعلى الجانب الآخر من المحيط الهندي، أدى دخول الجماعات المحلية في الإسلام إلى إدخال شبه جزيرة الملايو والجزر الإندونيسية الرئيسة تحت الحكم الإسلامي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وبعد أن انهارت مملكة هندوسية في وسط جاوة في العام 1526، لم يقاوم الاستيعاب في عالم الإسلام الآخذ في التوسّع غير بالي Bali البعيدة.

تشهد النجاحات الدعوية بين العامين 1000 و1500 على القوة الوجدانية للإسلام الصوفي وعلى أن مجتمعا مدنيا حضريا ازدهر على الرغم من اضطرابات الحرب والسياسة المتواصلة. وحافظ انتشار الفقهاء على قيام جماعة ثقافية مترابطة عبر الحدود السياسية والإثنية[5]. كانت اللغة المقدسة المشتركة والشريعة والشعائر

(*) عرفت منطقة مالي بين نحو العامين 1230 و1600 إمبراطورية مالي التي امتدت على طول نهر النيجر وضمت العديد من الممالك والولايات، كان من أبرز حواضرها جني Djenne وتمبكتو Timbuktu، اشتهرت بثراء حكامها، لاسيما مانسا موسى، وتدهورت أخيرا بسبب المؤامرات الداخلية حتى أزاحتها إمبراطورية صنغاي Songhai التي أقامها شعب الصنغاي في غرب منطقة الساحل (راجع حاشية سابقة حولها) خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت عاصمتها غاو Gao. [المترجم].

العلنية التي عزّزها الحج إلى مكة، الذي كان يجمع النخب من كامل العالم الإسلامي سنويا، كافية للحفاظ على عناصر مشتركة فعالة بين المسلمين، على الرغم من التجزؤ السياسي واستمرار النزاعات الطائفية، المريرة أحيانا.

أثبت التوسُّع الإسلامي المتجدد بين العامين 1000 و1500، وموقعه المركزي في الشبكة العالمية القديمة، وجاذبية الأشكال الصوفية للإسلام، والأذواق الجديدة التي تخللت ثقافات النخب المختلفة برعاية الحكام المحليين، أن العالم الإسلامي ظل قويا ونشطا كما كان دائما. لكن على الرغم من ذلك النجاح، كانت التجديدات الإسلامية ثقافية وتجارية وعسكرية بالدرجة الأولى، ولم تؤثر بشدة في الأغلبية الساحقة من السكان، وهم الفلاحون العاملون على المحراث. بل إن التدهور الزراعي في مراكز العالم الإسلامي كان ينذر بالشر. فالمجتمع الإسلامي الذي أعاقته قيود النقل بالقوافل قد تخلف عن الصينيين والأوروبيين الغربيين في تسخير عمالته للإنتاج من أجل السوق. ونتيجة ذلك فإن الشبكة العالمية القديمة بكل معلوماتها الجديدة التي شجعت التخصص والكفاءة في كل النشاطات، ظلت في حالة المسلمين محصورة كليا تقريبا ضمن أقلية حضرية وعسكرية. ولم يستطع تألق ثقافات البلاط المغولية - التركية ونشوة التصوف والنجاح العسكري العثماني أن تعوّض عن هذا النقص.

تكثُّف شبكة العالم المسيحي

في العام 1000 كانت أوروبا الغربية في معظمها ريفية بالدرجة الأولى، ولم تكن سوى منطقة نائية متناثرة السكان. فيما تركزت الحضارة المسيحية في الشرق، أي في الإمبراطورية البيزنطية القوية التي حكمها من القسطنطينية الأباطرة الرومان الناطقون باللغة اليونانية بالتعاون مع الكنيسة الأرثوذكسية. وبعد خمسمائة سنة، كانت الإمبراطورية قد أفسحت المجال للدولة العثمانية الأقوى والأكثر اتساعا. لكن الانتصار التركي لم يقوّض العالم المسيحي، بل على العكس من ذلك، كانت المهارة والمعرفة والثروة والقوة الأوروبية الغربية تنمو سريعا، على الرغم من - أو ربما بسبب - الشجار الدائم بين الأوروبيين الغربيين الذي فشل التهديد العثماني في إسكاته.

كان الفرنجة - الجامحون والمتهورون - والأجلاف في الأغلب، والفضوليون دائما - واعين مثل اليابانيين على الطرف الآخر لأوراسيا للجوانب التي لا تحصى التي تفوق

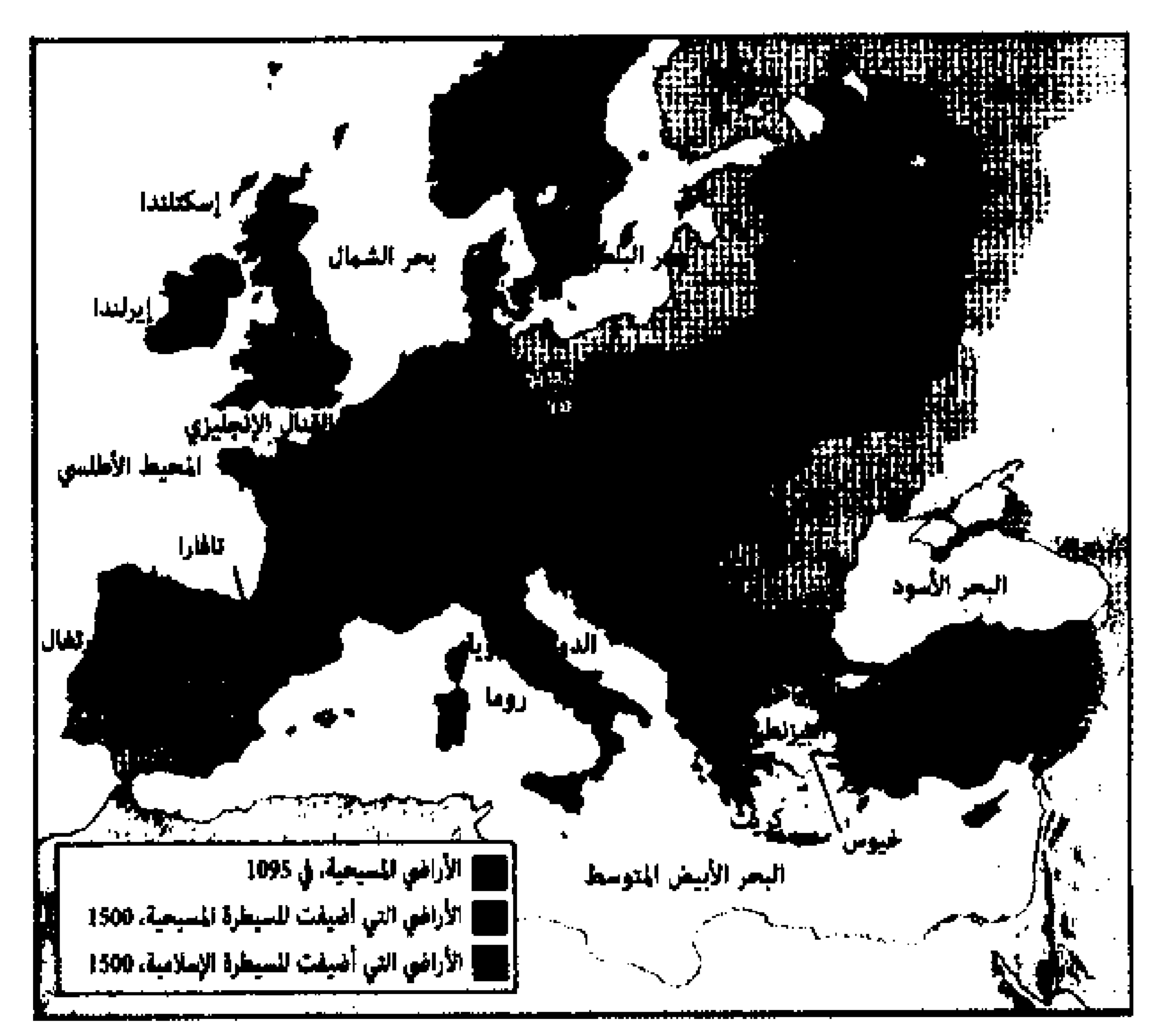
عليهم فيها جيرانهم المتحضرون(*). ولهذا السبب كان الاثنان مستعدين لتجريب التجديدات الواعدة أيا كان مصدرها. ولذلك فمع حلول العام 1500، كان الأوروبيون الغربيون قد اكتسبوا مجموعة رائعة من المعارف من جيرانهم البيزنطيين والمسلمين، واستوردوا مجموعة لا تقل روعة من التقنيات من الصين البعيدة. بإيجاز، استفاد الأوروبيون الغربيون فيما يتعلق بالثروة والقوة من تجريبهم المنفتح للأفكار والسلع والممارسات المنتشرة ضمن الشبكة العالمية القديمة. وقد ترتبت على ذلك نتائج حاسمة على التاريخ الأمريكي والعالمي بعد العام 1500.

حدث صعود أوروبا الغربية على مرحلتين متمايزتين فصلتهما انتكاسة خطرة خلال القرن الرابع عشر عندما فرض عليهم الحصاد السيئ الناتج من طقس أشد رطوبة وبردا، وكارثة الطاعون (1346 - 1352)، والخراب المتقطع بسبب حرب المائة عام (1337 - 1453)، أن يبدأوا من الصفر.

وبحلول العام 1000 كان الفرسان الراكبون وفرق المحراث القلّاب القادرة على زراعة التربة الطفلية المشبعة بالماء في الأراضي الواقعة بين نهري اللوار وإلبه، يعملون معا بكفاءة من خلال الحماية والإعالة التي قدمها كل طرف للآخر. ومن هذه المنطقة المركزية، أخذ فرسان المسيحية اللاتينية يوسّعون سلطانهم في كل اتجاه، وتبعتهم الزراعة بالمحراث القلّاب أينما ذهبوا، لكنها لم تلحق بهم إلى التخوم العسكرية لأن الاختلافات المناخية جعلت المحاريث الثقيلة غير عملية في أراضي البحر الأبيض المتوسط الجافة مثل إسبانيا وصقلية، وكذلك في المستنقعات الأيرلندية وفي فصول الشتاء المتجمدة في شمال شرق أوروبا.

وضمن الحدود التي فرضها الشتاء المعتدل والمطر الدائم على مدار السنة، اللذان منحهما لسهول أوروبا الغربية تيار الخليج والرياح الغربية السائدة، زاد الإنتاج الزراعي عندما تبنى الفلاحون القرويون نمطا مستداما للزراعة نجح في تشغيل العمالة على مدار السنة تقريبا. فمن خلال تقسيم الأرض الصالحة للزراعة إلى ثلاثة حقول - واحد يبذر في الخريف للحصاد في أواخر الربيع، وواحد يبذر في الربيع للحصاد الخريفي،

(*) كان المسلمون فيما قبل العصر الحديث يستخدمون كلمة الفرنجة للإشارة إلى سكان غرب أوروبا عموما، وتحديدا إلى الفرنسيين الذين ترجع أصولهم إلى الفرنك Franks. [المترجم].



الخريطة (5 - 3): توسُّع السيطرة المسيحية خلال الفترة 1000 - 1500

وواحد يترك للراحة لكي يحرث في الصيف للسيطرة على الأعشاب الضارة - أمكن لفرق المحراث أن تعمل على مدار السنة تقريبا، فكانوا لا يتوقفون عن العمل إلا في أيام عيد الميلاد الاثني عشر وفي الأسابيع التي كانت الزراعة والحصاد فيها يحتاجان إلى تكاتف الجميع. أدى هذا النظام إلى رفع نصيب الحارث الواحد من الأرض المزروعة إلى نحو ثلاثين هكتارا، وهو أكثر مما كان يحتاج إليه لإطعام عائلته وحيواناته[6].

وبذلك مكّنت الزراعة التعاونية لحقول مفتوحة في شمال غرب أوروبا، الفلاحين من إعالة مقاتلين أشداء كانت لهم مصلحة شخصية واضحة في حماية الفلاحين من المغيرين المدمرين، جنبا إلى جنب مع الكهنة والرهبان الذين تولوا العلاقات مع الله. وعادة ما كان يتبقى عندهم شيء في السنوات العادية لمبادلته بالمواد التي كانوا يحتاجون إليها أو يريدونها ولا يستطيعون صنعها بأنفسهم. وسّع ذلك الطلب على سلع الحرفيين إلى بيوت الفلاحين، ما شكّل دفعة للمهارات الحضرية ووثق صلات النقل والتجارة المحلية. وعندما

اكتسب متلقو الريوع والضرائب من النبلاء ورجال الدين تذوق المنتجات الحرفية المتفوقة والسلع النادرة المجلوبة من بعيد، بدأ سكان الحضر المستقدَمون من حواف المجتمع، والذين كانوا يعملون في الأغلب تحت قيادة تجار قراصنة من حقبة الفايكنغ، في إمدادهم بما يريدون، وقد فعلوا ذلك جزئيا من خلال التخصص كحرفيين، وجزئيا من خلال استيراد سلع الترف من أوروبا البحر متوسطية التي لم تتدهور فيها البلدات والتجارة بالدرجة التي شهدها الشمال وبدأ فيها انبعاث سريع بعد العام 1000 عندما انضم التجار الإيطاليون إلى شبكة تجارة المسافات الطويلة المتمركزة في المحيط الهندي والمعزَّزة بالتتجير الجذري الذي شهدته الصين.

عندما كثّف الأوروبيون الغربيون صلاتهم مع بقية الشبكة العالمية القديمة، قابلوا شعوبا أكثر منهم تطوُّرا ومهارة. لكن مادام الإنتاج الزراعي والحرفي المحلي يتوسّع سريعا كما حدث بين العامين 1000 و1270، ومادام الفرسان المسيحيون ناجحين عموما في القتال ضد الأعداء الأجانب، ظل بمقدور الغربيين الأجلاف أن يشعروا بالثقة بأن الله ودينهم المسيحي يحميانهم وهم ينهلون من معارف الأجانب ومهاراتهم من أجل مصلحتهم.

وبعد ثلاثة قرون من النمو السكاني السريع والاستعمار الكثيف للأراضي المستصلحة من الغابات والمستنقعات والبحر، ألمّت كوارث بأوروبا خلال القرن الرابع عشر ودمرتها، إذ أدى انخفاض درجات الحرارة إلى فشل المحاصيل ومجاعة واسعة بلغت ذروتها بين العامين 1315 و1322، ثم ضرب الطاعون المنطقة بعد جيل. أنقصت الكارثتان سكان أوروبا الغربية بنحو الثلث، وكان التعافي بطيئا بسبب الحصاد السيئ وعودة الطاعون عقدا بعد آخر.

لذلك كان عدد سكان أوروبا في العام 1500 لا يتجاوز عددهم في العام 1300، وإن أصبح النقل والصناعة في ذلك الوقت أكفأ منهما قبل مائتي عام. ففي العام 1500، كانت سفن قوية صالحة للملاحة تربط كل سواحل أوروبا، وكان التخصص والتبادل الإقليمي الداخلي قد حققا زخما مع دخول نسبة أكبر من السكان في السوق. وبذلك نسخت أوروبا الغربية التتجير الذي حدث في الصين بتأخير بنحو ثلاثة قرون أو أربعة، لكن على خلاف ما شهدته الصين، فشل الحكام ورجال الدين الأوروبيون في السيطرة على التجار والمموِّلين الذين أداروا الاقتصاد الإقليمي الجديد.

عمل التجار والمموِّلون الأوروبيون للدفاع عن مصالحهم من خلال امتلاك السيطرة السياسية على عدد من الدول المدينية ذات السيادة. وبذلك بات في مقدورهم أن

يتعاملوا بندية مع الحكام المحليين الآخرين الذين وجدوا أنهم لا يستغنون عن القروض ولا يستطيعون سداد ديونهم من دون تقديم تنازلات لمصلحة المموّلين والتجار. وحيث إن رجال المال كانوا دائما يبحثون عن أي شيء يمكن أن يحقق الربح، فإن عملية ذاتية الدفع من التغير الاقتصادي والاجتماعي والتقني قد اكتسبت زخما أينما سمحت الظروف السياسية لها بحرية العمل. وعمل المبتكرون الاقتصاديون المحميون سياسيا مرارا وتكرارا على إزاحة أصحاب المصالح المحليين والطرق القديمة لعمل الأشياء متى أدركوا فرصا للربح النقدي من خلال تقديم شيء جديد. ولاتزال هذه الحال مستمرة حتى اليوم، بعد أن غيّرت المجتمع الأوروبي أولا، وبعد ذلك طالت العالم على اتساعه، وميّزت العصور الحديثة عن الأشكال الأسبق والأكثر استقرارا للمجتمع الإنساني.

يقف الحكم الذاتي الحضري في أوروبا على طرف النقيض من الإخضاع القوي لسكان الحضر الصينيين الأكثر عددا لسيطرة الدولة، بينما كانت حرية النخب الحضرية الإسلامية تقف في مكانة وسط بين الطرفين، إذ كان تجارهم ومموّلوهم - الذين كان الكثيرون منهم يهودا أو مسيحيين - يخضعون لقيود أشد – ومن ثم كانوا أضعف - من معاصريهم الأوروبيين، مع أن الطوائف الحرفية الإسلامية وطوائف الدراويش كانوا يتمتعون باستقلالية كبيرة وكانوا أحيانا يتحدون سادتهم السياسيين. لكن الطوائف الحرفية والدراويش كانوا مدافعين عنيدين عن الوضع الراهن. أما التجار والمموّلون الذين كانوا يفتقرون إلى هذا الدعم في المدن الإسلامية، فكانوا يستسلمون بسهولة للمبتدئين العسكريين الذين استخدموهم في الأغلب جباة ضرائب، ومن حين إلى آخر صادروا مكاسبهم الهزيلة، كما فعل الموظفون مع التجار في الصين(*).

(*) في دراسة حالة قيّمة للعلاقات غير الرسمية المفيدة للطرفين بين أمير أو قائد عسكري مجهول من الإسكندرية وتاجر يهودي، يوجز أودفيتش L'etat الفرق بين غرب أوروبا والعالم الإسلامي بالقول: إن «التاجر في الدول المدينية الإيطالية كان بوسعه أن يقول Udovitch L'etat n'est pas contre moi [الدولة أنا]»، بينما لم «يكن بوسع التاجر في مصر الفاطمية إلا أن يقول c'est moi [الدولة ليست ضدي]». كان ذلك بالطبع في عصر قوة الدولة الإسلامية العربية وازدهارها، وليس في عصر تراجعها وأزمتها الاقتصادية الذي امتصت فيه هذا التاجر واستنزفته حتى فرّ وهاجر، كما حدث مع تجار الكارم، وهم جماعة من التجار يُختلف في أصل تسميتهم، تخصصوا في مصر بداية من زمن الفاطميين حتى زمن المماليك في تجارة التوابل وغيرها من سلع الشرق، وقاموا بدور الوساطة بين عالمي المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، وتولوا تنظيم الحياة التجارية والاقتصادية في مصر إلى أن ضيقت عليهم الدولة المملوكية بسياستها الاحتكارية ففروا من دولة المماليك برمتها. كان أفراد البلاط والسلالة المالكة – بمن في ذلك كبار القادة المدنيين والعسكريين - يحظون بامتيازات عديدة، منها حق الشراء الأول والإعفاء من الضرائب، مما جعل الأسواق تعمل لمصلحتهم على حساب التجار الأقل حظوة، فضلا عن عامة الناس. راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

كان للحكم الذاتي الحضري في أوروبا بعد آخر مميّز. ففي المجتمعين الإسلامي والصيني، كان أفراد عائلة واحدة، وأحيانا عائلة ممتدة، يديرون معظم الأعمال الاقتصادية، ذلك أن قوة الروابط العائلية جعلت من الصعب - إن لم يكن المستحيل - الثقة بالغرباء، ما أدى إلى تقييد مدى معظم الأعمال. ومع أن الأوروبيين تبنوا الطرق القانونية نفسها التي استخدمها المسلمون والصينيون لإنشاء الشركات وتسوية الديون، فإنهم وجدوا أنه من الأسهل عليهم أن يثق بعضهم ببعض، بغض النظر عما إذا كانت تجمعهم قربى دم. ربما رأوا أنه لا مناص لهم من فعل ذلك لأن الروابط العائلية الممتدة كانت ضعيفة في معظم أوروبا الغربية.

من ذلك على سبيل المثال أن مستثمرين جنويين أنشأوا في العام 1346 - وهو وقت مبكر - شركة مساهمة محدودة لتنظيم أسطول للإغارة والتجارة في شرق البحر الأبيض المتوسط. وعندما فتح هذا الأسطول جزيرة خيوس الإيجية، حوّل هؤلاء المستثمرون شركتهم إلى شركة دائمة حكمت خيوس وأدارت صادراتها المربحة إلى أن فتح الأتراك العثمانيون الجزيرة في العام 1566. لذلك ظلت المعونة - وهو اسم الشركة - توزع حصصا على حملة أسهمها من وقت إلى آخر على مدى أكثر من مائتي سنة(*)، بغض النظر عن شخوصهم أو قرابتهم من المستثمرين الأصليين من عدمها، لأن الأسهم كانت تباع وتشترى بلا قيود.

طُبقت فكرة الحكم الذاتي على المشروعات المشتركة المنفَّذة بعيدا عن البلاد أو على أراضيها، ولذلك غدت المشروعات الخاصة واسعة النطاق الأكبر من إمكانات أي عائلة واحدة ممارسة منتشرة ومألوفة. وبلغت صناعة السفن والتعدين آفاقا جديدة بفضل هذا النوع من تقاسم المخاطر بين الكثير من المستثمرين الخاصين. لذلك تجاوز إمداد المعادن الخسيسة - لا سيما الحديد - المتاحة للأوروبيين في العام 1500 ما كان متاحا لأي منطقة أخرى.

(*) المعونة Maona (أو المعاونة بمعنى الدعم المتبادل)، اسم عام لنوع من الشراكة التجارية استخدم في الدول المدينية الإيطالية خلال العصور الوسطى، لاسيما جنوى، كان عبارة عن اتحاد من المستثمرين يتشكل لإدارة الأسهم المشتراة من العوائد الضريبية المستحقة للدولة المدينية، ومع أن هذه الأسهم كانت تباع فرديا، فإن صعوبة جمع المال اضطرت المستثمرين إلى التكتل معا. وهي بذلك قريبة من مفهوم الالتزام الضريبي في المشرق العربي ما قبل الحديث. تعد هذه الشركة الشكل الأول للشركة المساهمة في أوروبا، لكن يتضح من الأصل العربي للكلمة أن هذه الممارسة مأخوذة من المسلمين. ومن أبرز شركات المعاونة الشركة التي أعطيت الحق في إدارة جزيرة خيوس ببحر إيجة وميناء فوكيا القريب منها، وبعد نجاح النموذج، أسّس الجنويون معاونة أخرى في قبرص. [المترجم].

يمكن القول إن المشروع التجاري العابر للعائلات في مدن أوروبا القرون الوسطى مستمد من ممارسات فرق المحراث الريفية. فقد كانت المدن أماكن غير صحية وكانت في حاجة إلى الحفاظ على أنفسها من خلال جذب القوة البشرية من الريف. وإلى مراكز أوروبا الغربية، جلب هؤلاء المستقدَمون الريفيون معهم عادة العمل في فرق المحراث التي كان أفرادها ينتمون إلى عائلات مختلفة. وإذا لم يؤدِ هذا الحارث أو ذاك نصيبه من العمل أو لم يتعامل بأمانة مع زملائه، فإن العقوبات المترتبة عليه كانت مريعة فعلا، إذ كان بمقدور الجيران الساخطين أن يستبعدوه بسهولة من فرق المحراث في السنة التالية، ما كان يُعجِز هذا العابث عن زراعة حقوله أو حصاد محصوله. ولا ريب في أن هذا الضبط الذي استلزم الثقة والتعاون المتبادلين خارج حدود علاقة الدم هو الذي هيأ سكان الحضر الأوروبيين للثقة بعضهم ببعض، ما أدى إلى ترسيخ الامتثال للقواعد المتفق عليها لتوزيع الأعمال والمكاسب بين الجميع.

إجمالا، اكتسب المجتمع الحضري الأوروبي مرونة غير عادية بفضل العادات الأخلاقية التي قامت عليها المشاركة الفعالة في عدد لا يحصى من الشركات الخاصة الطوعية التي شُكّلت لكسب المال ولأغراض أخرى دينية أو خيرية أو فكرية أو حتى للمرح وحسب. معنى ذلك أن الأوروبيين دعموا نموا زاخرا للمجموعات الخاصة المستقلة أكثر من المجتمعات الأخرى. ربما كانت فرق المحراث الخلية التي نمت منها هذه الإمكانية. وقد يلاحظ المسافرون اليوم أن الناس في مناطق أوروبا التي سادت فيها في السابق فرق المحراث القلّاب التعاونية لايزالون يمتثلون للقواعد ويقفون في طوابير، ويثقون بعضهم ببعض أكثر من سكان الأراضي التي زرعت فيها عائلات منفصلة حقولها وحدها وكانت في الأغلب تشك في جيرانها بسبب نزاعات الحدود وما شابه ذلك.

يتميّز كل مجتمع وكل منطقة بسمات خاصة، لكن القليل من هذه الخصوصيات كانت مؤثرة إلى هذا الحد. ففي أراضي المحراث القلّاب، عمل النمط السائد للعائلات النووية على إضعاف الروابط العائلية الممتدة، وأوجد الفرصة والحافز لازدهار أشكال أخرى من الاتحاد المدني والتجاري. وفي الوقت عينه، أعجز التنافس المحلي الحكام عن التدخل في شؤون التجار والمموِّلين، ما أعطى أصحاب المصالح المالية استقلالية غير عادية. لذلك طوّرت المجتمعات الأوروبية - على الأقل تلك الواقعة

بين نهري إلبه واللوار وعبر القنال في إنجلترا - مجتمعا مدنيا نشطا ودائم التغير ومعرقلا في الأغلب، وقف بين الخضوع العام للكنيسة والدولة والالتزامات العائلية الخاصة. يسّر ذلك المرونة في العلاقات الاجتماعية، لاسيما في البيئات الحضرية، وذلك بدوره جعل التكيف مع التغيرات التقنية والسياسية السريعة أسهل منه في أي مكان آخر. لكن هذه المرونة جاءت على حساب الأمان والدفء الإنساني اللذين توفرهما العائلات الممتدة، وكذلك السلام الذي تفرضه الدول الإمبراطورية.

وبدلا من ذلك، ساد عنف وتنافس متطاولان. فحتى العام 1300 كان إمبراطور ألمانيا وباباوات روما يدعون الأحقية في السلطة العالمية على العالم المسيحي اللاتيني، بينما كان الملوك والنبلاء والأساقفة والمدن يتنافسون على السيطرة الفعلية على الريوع والضرائب والرسوم القانونية التي كان ينفق منها على الحرب والكنيسة والدولة. بيد أن ذلك الواقع لم يكن يختلف كثيرا عن التجزؤ السياسي الذي ألمّ بالعالم الإسلامي خلال القرون نفسها، كما أن فشل الإمبراطور الألماني أولا (1250) ثم بابا روما (1303) في فرض ادعاءيهما بالسلطة العالمية يشبه انهيار الخلافة الإسلامية بعد العام 1258.

لكن مجموعة الدول المدينية ذات السيادة، التي ظهرت في إيطاليا والبلاد الواطئة وغرب ألمانيا بعد انهيار السلطة الإمبراطورية والبابوية، لم يكن لها نظير في أي مكان آخر ضمن الشبكة العالمية القديمة. وقام الترسُّخ اللاحق للممالك القومية في فرنسا وإنجلترا في جزء كبير منه على المساومة المتواصلة بين الملوك وسكان الحضر. ففي مقابل أموال الضرائب، وافقت الإدارة الملكية على حماية المدن من مضايقات الفرسان، والسماح لسكان الحضر بالقيام بأعمالهم كما يشاءون، ما جعل التجار والمموّلين وسكان الحضر الأفقر يمارسون دورا في السياسة والحرب أكبر بكثير مما كان شائعا في الأماكن الأخرى.

كان من العوامل الأساسية التي مكّنتهم من ذلك أن الحرب الأوروبية قد تُجُرت على نحو متزايد بداية من العام 1300. فبحلول العام 1282، الذي دمرت فيه سرية من النشّابة فرقة من الفرسان الفرنسيين في معركة سميت «صلاة الغروب الصقلية» Sicilian Vesper، كانت الأسبقية العسكرية التي تمتع بها الفرسان الأوروبيون منذ نحو العام 900 قد وصلت إلى نهايتها. وأصبح الرماحون والقوّاسة المنظمون

ضمن تشكيلات منضبطة قادرين على صد الفرسان المغيرين. وسرعان ما جلجلت مدفعية الميدان في ساحات المعارك الأوروبية في العام 1346، وإن ظلت غير فعالة في بادئ الأمر.

فجأة، أصبح الفن العسكري أشد تعقيدا. لم تكن إدارة الهجوم المتهور للفرسان المدرعين تتطلب براعة عسكرية كبيرة، مع أن حشد مجموعة وتموينها أكثر من بضعة أيام كان أمرا صعبا دائما. لكن خلال القرن الرابع عشر، كان على القادة العسكريين الناجحين أن يتعلموا تنسيق تحركات الفرسان والمشاة والمدفعية في الميدان، وكان على الواحد منهم أن يجند أعدادا ملائمة من المقاتلين ويجهزهم ويدربهم لكل فرع من أفرع الجيش ويجد وسائل لإمدادهم بالغذاء والأسلحة والضرورات الأخرى، سواء في الحامية أو في الحملة.

فرضت هذه المهمات على الحكومات الأوروبية تحديات إمدادية وإدارية ومالية صعبة. وأظهرت بضع دول مدينية إيطالية - على رأسها ميلانو والبندقية - كيف تفي بهذه المطالب من خلال تعهيد العنف المنظم. وابتكروا طرقا بيروقراطية لضمان حصول المحاربين المأجورين على التدريب والتجهيز الملائمين، وأن تتوافر لهم إغراءات فعالة لطاعة الحكام المدنيين بدلا من انتزاع السلطة لأنفسهم. ومع أن السيطرة المدنية تداعت أحيانا، تحديدا في ميلانو، فقد استطاعت البندقية أن تحافظ دائما على طاعة جنودها المأجورين للحكام المنتخبين.

ساعد انتظام الأجور، وشراء الأسلحة والإمدادات الأخرى من أقل مقدم عطاء، والتفتيش المنتظم لضمان أن يكون الرجال والمعدات مطابقين فعلا لما دفعت الحكومة المال من أجله، في جعل الاحتفاظ بقوة مسلحة محترفة مسألة حسابات مالية دقيقة لما هو مطلوب وما يمكن تحمُّله. يسَّر ذلك المرونة في نشر الرجال والأسلحة، وضمن الانتشار السريع لأي ابتكار تثبت فاعليته في الأسلحة أو التكتيكات، وذلك لأن المدن المتنافسة والحكام الإقليميين كانوا جميعا يسعون إلى امتلاك القوة الأكثر فعالية بأرخص الأسعار.

لذلك كان منتجو البنادق الأوروبيون في العام 1450 قادرين على الاستفادة من إمكانات التعدين المحلية، وتجاوزوا صناع الأسلحة الآخرين على مستوى العالم. وفي العام 1480، قلبت مدافع الحصار النقالة التوازن العسكري فجأة في العالم المسيحي

من خلال التمكين من دك أسوار أقوى القلاع في بضع ساعات. وبعد تركيبها على السفن، صار بإمكان هذه المدافع أن تطلق وابلا من النيران المدمرة على أي شيء عائم ومهاجمة التحصينات الشاطئية وتحطيمها تماما، كما سنرى في الفصل السادس.

كان صنع البنادق، مثله مثل التعدين وبناء السفن، في أيدي رواد أعمال خاصين. لذلك كان على الحكام الذين يريدون أسلحة جديدة أو محسّنة أن يدفعوا لهم أسعار السوق، وذلك لأن جهات العرض والطلب المتعددة كانت في تنافس دائم. ولم يكن من الوارد أن تنجح الأوامر الحكومية في خفض الأسعار، كما كان الموظفون الصينيون يفعلون عادة، لأن ذلك ببساطة كان من شأنه أن يدفع المنتجين إلى البيع لمشترٍ آخر. وفّرت الترسانات الحكومية بديلا جيدا، لكن عندما كانت البنادق جديدة وفن صبها يتغير سريعا، لم يكن بمقدور أي حكومة أن تجاري السوق. لذلك كان من الضروري ترك ذلك المجال لرجال الأعمال، الذين كانوا يحرصون على أن تظل أفرانهم تعمل باستمرار، ويستعملون حرفيين دائمين لإدارتها، ويبحثون عن الأماكن المواتية التي تميّزت بإمدادات وقود ومعادن مثالية وحكام محليين مستعدين - في مقابل نصيب من الأرباح - للسماح لهم بالبيع لكل المشترين بلا قيود.

ونتيجة لذلك، وجدت الحكومات الأوروبية أنفسها متورطة على نحو لا فكاك منه في التجارة والتمويل، وفي الاعتماد على الشركات الخاصة لتجهيز مقاتليها المأجورين. وقد أثبت توفير المال لدفع تلك التكاليف أنه صعب دائما. فتحوّل الحكام إلى الاقتراض من المموّلين لحملة عسكرية بعينها، لكن هذا الحل قصير الأمد لم يؤدِ إلا إلى زيادة الضعف المالي المستقبلي. فقد أصر المموّلون على الحصول على منح في شكل حقوق تعدين وغيرها من الامتيازات المدرّة للدخل كنوع من الضمان لهذه القروض. وبذلك أدى الدَّين الحكومي، من خلال توسيع مجال المشروع التجاري ونطاقه، إلى دفع أكثر الدول ممانعة إلى حماية تتجير المجتمع الأوروبي ككل ودفعه قدما. كان ذلك يقف على طرف النقيض تماما مما حدث في الصين. لكنه ضَمِن التجدد المستمر للتقنية الأوروبية عموما والتقنية العسكرية تحديدا.

في بادئ الأمر، اعتمدت التقنية الأوروبية الغربية بشدة على الاستعارة من معاصريهم البيزنطيين والمسلمين والصينيين. لكن الاستعارة كانت تنطوي دائما على التعديل، كما رأينا في مثال المدفعية. وحدث الشيء نفسه مع أشكال أخرى من

الاستعارة، منها على سبيل المثال أن الأرقام العربية وجدت تطبيقا جديدا مهما في محاسبة القيد المزدوج التي طبقت في إيطاليا بحلول منتصف القرن الرابع عشر، ما أنتج - لأول مرة - حسابا دقيقا للربح والخسارة. وفي القرن نفسه، ابتكر الأوروبيون بأنفسهم اختراعات مهمة، كان من بينها وسائل راحة يومية مثل أزرار الملابس ونظارات القراءة.

يمكن القول إجمالا إن ابتكارات متنوعة مثل محاسبة القيد المزدوج، وطباعة الحروف الأبجدية، والتدوين الموسيقي لتسجيل طبقة الصوت وطوله، والمنظور الهندسي الدقيق في الرسم، والساعات الميكانيكية لتقسيم اليوم إلى وحدات متساوية الطول، كانت جميعها أعراضا لطريقة جديدة لمقاربة المفاجآت اللانهائية للعالم الطبيعي. ويمكن وصف ما حدث بأنه كان نوعا من الرقمنة البطيئة creeping digitalization، بمعنى أن الأوروبيين فرضوا مرشحا حسابيا على الخبرة الحسية العادية. كان من بين النتائج المهمة لهذه الابتكارات زيادة دقة الاتصال، بمعنى التعبير عن الوقت والمكان وطبقة الصوت والربح وغيرها من المعاني بدقة أكبر من قبل، مكّنت بدورها من تنسيق النشاط الإنساني على نحو أكفأ كثيرا، تماما كما تفعل الرقمنة الحديثة للاتصال الكهرومغناطيسي اليوم (خذ مثالا على ذلك كيف مكّنتنا الساعات من خلال التقسيم التعسفي للوقت إلى ساعات ودقائق من توفير الوقت بالحفاظ على مواعيدنا!).

ثم جاءت الملاحظات الفلكية المسجلة رياضيا والتقدم في بناء السفن لتمكّن من بلوغ مزيد من الدقة في الملاحة، وهو ما ساعد في توسيع المشروع الاقتصادي الأوروبي الغربي إلى أراضي البلطيق التي أصبحت خلال القرن الرابع عشر مورّدا مهما للحبوب والأخشاب والأسماك والفراء. وفي تلك الأجزاء من أوروبا، تعاون مُلاك الأراضي وسكان الحضر في تطوير اقتصاد شبيه باقتصاد المزارع الاستعمارية من خلال حشد عمالة ريفية قسرية لإنتاج السلع للتصدير، مع حجز سلع الترف المستوردة لأنفسهم(*). وتطوّرت أشكال كاملة النضج من اقتصاد المزارع الاستعمارية في منطقة تخومية أوروبية أخرى شملت جزر ماديرا Madeiras وكناري Canary

---

(*) العمل القسري هو العمل الذي لا يملك فيه العامل حرية ترك العمل أو صاحب العمل، ومن أنواعه التاريخية العبودية والعمالة الملزمة والعمالة المسترّقة أو المرتهنة. سيأتي مزيد حول أنواع هذه العمالة في المتن والحواشي. [المترجم].

والرأس الأخضر Cape Verde الواقعة قبالة الساحل الأطلسي لشمال غرب أفريقيا، إذ حوّل الإسبان والبرتغاليون خلال القرن الخامس عشر المواقع الملائمة على بعض هذه الجزر إلى مزارع سكر باستخدام أساليب - من بينها استغلال العبيد من غرب أفريقيا - كانت مستخدمة بالفعل على جزر البحر الأبيض المتوسط وفي المغرب.

وعلى ذلك فإن تتجير أوروبا أحدث نتائج متعارضة. ففي المناطق المحيطية قليلة السكان(*)، كان رواد الأعمال الطموحون في حاجة إلى العمل القسري لإنتاج السلع للسوق بربحية، في حين سادت بالقرب من المراكز الحضرية الكبرى وفيرة السكان أسعار السوق للعمالة المأجورة. بيد أن العمل القسري على حواف المناطق المُتَجِّرة قديم قدم سومر، وكل ما استجد هو النطاق الجغرافي ومدى التمايز بين المركز والمحيط الذي أصبح بمقدور التجار والمموّلين الأوروبيين المحميين سياسيا أن يفرضوه على الجماعات المحيطة بفضل السفن الأوسع التي أصبحت تحت تصرفهم.

أظهرت الثقافة الراقية الأوروبية تجددا غير عادي، مدعومة بالروح التجارية لحياة المدن. اشمأزت الكثير من النفوس المتدينة مثل القديس فرانسيس الأسيزي St. Francis of Assisi (1181 - 1226) وأتباعه من رابطة النقد وحاولوا بشجاعة - لكن من دون جدوى - إنكار الجشع والفساد اللذين رأوهما في كل مكان حولهم(**). فيما يخص الدين، أنتجت المدن الهرطقة، جنبا إلى جنب مع المحاولات القوية لقمعها ودحضها. وأصبحت المدن مقرات لما نسميه الكاتدرائيات القوطية، تلك الأنصاب الحجرية رفيعة البناء للازدهار والدين معا التي تعد من أروع ما شُيِّد على الإطلاق.

يعد ابتكار الجامعات أحد أهم إنجازات أوروبا القرون الوسطى. كان التعليم العالي في الحضارات الأخرى ينقل الحقيقة والمعرفة إلى الأجيال الناشئة من خلال الدراسة الموقرة والاستظهار البطولي للنصوص المرجعية وأي حواشٍ مطلوبة لتوضيح المعاني الغامضة. ونتيجة لأن النصوص المكتوبة كانت نادرة ومكلفة في أوروبا

(*) راجع حاشية سابقة حول معنى «محيطي». [المترجم].

(**) في كتابات كارل ماركس، يشير مفهوم رابطة النقد cash nexus في ظل الرأسمالية إلى اختزال كل العلاقات الإنسانية، وليس علاقات الإنتاج وحسب، إلى مسألة تبادلات مالية، ويشير عموما إلى العلاقة التي تنشئها المبادلات النقدية. [المترجم].

القرن الحادي عشر، فقد اتخذ التعليم العالي في القانون واللاهوت والطب شكل المحاضرات، وسرعان ما بدأ المعلمون في التنافس في الإتيان بأشياء جديدة لقولها. من ذلك مثلا أن المعلم الباريسي الشهير أبيلار Abelard (1079 – 1142) بعد أن أوضح كيف يختلف المؤلفون المسيحيون المرجعيون، حاول بجرأة - أمام حشود من الطلاب المعجبين في باريس وحولها - أن يسبر أغوار الحقيقة بنفسه عن طريق الحجة والتفكير المنطقيين، وهو ما فعله أساتذة جامعيون لا يحصون بعد ذلك.

انطلاقا من هذه البداية، بزغت جامعة باريس سريعا كاتحاد مستقل من المعلمين. ونشأت جامعات مستقلة مماثلة في عدة مدن أوروبية أخرى. ووجد ورثة أبيلار في باريس وأماكن أخرى أن كتاب «المنطق» Logic لأرسطو الذي كان متاحا في ترجمة لاتينية، يوفر توجيها جيدا لنقاشاتهم المتواصلة حول الحقيقة. ووفرت الترجمة المنظمة لأعمال أرسطو الأخرى - جنبا إلى جنب مع الشروح العربية عليها - محتوى تعليميا موسوعيا للأوروبيين، ما أعطى معلمي الجامعات مجموعة موسعة من الأسئلة لمناقشتها، في حين ظلت محاولات الوصول إلى إجابات جازمة عن طريق التفكير المنطقي قاصرة دائما، وحتى التمييزات الحكيمة والدقيقة التي وظفها القديس توما الأكويني Thomas Aquinas (1225 - 1274) لم تفلح في إشباع فضول الجميع.

لذلك ظل الأوروبيون يختلفون حول الأسئلة الدينية والفلسفية والعلمية، وظلت قاعات المحاضرات بالجامعات تولِّد تنافسا بين المعلمين. كان استخدام اللغة اللاتينية يعني أن جماعة المعلمين والطلاب الجامعيين كانت ممتدة عبر العالم المسيحي اللاتيني كله. وبعد القرن الرابع عشر، كان الحرص على جمع التفاصيل يجعل النقاش الأكاديمي تافها أحيانا، وهي حالة لا نعدم لها نظيرا اليوم. لكن ذلك أفسح الطريق لموجة ثانية من العمل العلمي انطلقت من المدن الإيطالية التي غدت الطبقات الراقية صاحبة الامتيازات فيها تشعر بأن تعلم طرق العيش الجيدة في المجتمع المتمدن كان أهم من الجدل اللانهائي بشأن الأسئلة النظرية لعلم اللاهوت، وهي الحاجة التي وجدت إشباعها عند المؤلفين الكلاسيكيين الوثنيين، وعلى رأسهم شيشرون Cicero. لذلك شرع الإنسانيون في كشف كل المخطوطات المتوافرة للمؤلفين اللاتينيين واليونانيين القدماء ودراستها وتحقيقها، ما أطلق مسارا وثنيا مغايرا ضمن العلم المسيحي.

بالتزامن مع ذلك، جلب الاتصال المتزايد إلى الانتباه الأوروبي طوفانا من المعلومات الجغرافية وغيرها حول الشعوب والأماكن البعيدة. كان الحماس الذي تبنى به الأوروبيون المطبعة بعد العام 1455 لنشر كل أنواع المعرفة والرأي (راجع الفصل السادس) لا يقل أهمية عن تبنيهم المتهور والفوري لأسلحة البارود. وكشف التحوُّلان كلاهما عن أن هذه التقنيات المأخوذة أساسا من الصين قام على إدارتها أشخاص خاصون متلهفون للربح كانوا يتملصون عادة من السيطرة الكهنوتية أو السياسية. كانت قدرة الأوروبيين على السعي وراء القوة والمعرفة من خلال شراء أسلحة وكتب لا تحصى، تعني أن السلطات الدينية والسياسية لم يعد بمقدورها أن تحافظ على الوضع الراهن المستقر.

لم يكن بمقدور أي سلطة عامة في أوروبا أن توقف التتجير المتواصل للمجتمع. فزادت الثروة، وكذلك الفقر، لأن الكثير من الناس لم يتمكنوا من التوافق مع قواعد سلوك السوق. من ذلك مثلا أن كبار السن قد نُبذوا جانبا في أغلب الأحيان بطرق يستحيل تخيلها في الصين أو أفريقيا. كان العوز والالتباس ملازمين دائما للمغامرة المتهورة والابتكار المتواصل. بإيجاز، كانت التغيرات من كل نوع خارجة عن السيطرة في أوروبا، وهو ما ميَّز العالم المسيحي اللاتيني عن المجتمعات الأوراسية الأخرى ذات نظم الحكم الأفضل التي ظلت الهيمنة فيها للجهود المنسقة للدفاع عن طرق التفكير والسلوك التقليدية.

الجناح الهادي للشبكة العالمية القديمة

مع تحسُّن الشحن البحري وازدهار صيد الأسماك التجاري بفضل إمدادات الملح الرخيصة المطلوبة لحفظ الأسماك، أصبحت شعوب أوروبا الغربية تشكّل الجناح الأطلسيّ للشبكة العالمية القديمة الآخذة في الاتساع. وحدث توسُّع مماثل ومتزامن في المحيط الهادي، مارس فيه صيادو الأسماك والقراصنة اليابانيون دورا قياديا، وانضمت إليهم بعد نحو العام 1000 أساطيل صينية ضخمة، ثم انسحبت فجأة بمرسوم إمبراطوري بعد العام 1435. وبعيدا إلى الجنوب، مدّ البحّارة والتجار الملايويون نطاق الشبكة إلى الجزر الأبعد في جنوب غرب المحيط الهادي، من أهمها جزر الملوك وبورنيو Borneo وميندناناو Mindanao. وهناك تقدم بناء الدولة جنبا إلى جنب مع تكثُّف الإغارة والتجارة، تماما كما تلازم الإلمام بالقراءة والكتابة مع تكاثر الأنماط المحلية المتبلورة حديثا من البوذية والإسلام.

إن التشابهات بين الجناحين الهادي والأطلسي مذهلة. ففي كليهما شاركت جماعات إثنية متعددة، وأسهم تقدم الإلمام بالقراءة والكتابة باللغات المحلية في تقوية الدول المحلية وتعزيز الاستقلالية الإثنية والثقافية. ويشبه «الإقطاع» الياباني الإقطاع الأوروبي خلال القرون الوسطى، ويشبه اللجوء المتكرر إلى العنف الذي ساد بين بحّارة المحيط الهادي سلوك الفايكنغ. لكن شيئا من قبيل مصايد أسماك الرنغة والقدّ الغنية في المياه الأطلسية لم يظهر في المحيط الهادي، ربما لأن الملح الرخيص لم يكن متوافرا لحفظ الصيد وقتا طويلا يكفي لشحنه إلى الأسواق البعيدة (احتكرت الصين طرقا متطوّرة تقنيا لاستخراج الملح وحافظت الحكومة على أسعاره في مستوى مرتفع كشكل من أشكال الضريبة). لكن تشكيلة السلع المنقولة على متن سفن المحيط الهادي - التوابل والخزف وسلع أرخص مثل المعادن والقطن والأقمشة القطنية والأرز والخشب وغيرها من السلع الاستهلاكية العادية - كانت من حيث الحجم تضاهي ما كانت السفن الأوروبية تنقله حينذاك أو تزيد عليه.

على الجناح الهادي، قاومت كوريا واليابان وآنام التوسُّع الصيني، وطورت نظما سياسية وثقافية متمايزة لكل منها. ومع أن كوريا وآنام كانت لهما حدود برية مع الصين، فإن العملية التي اخترق المستوطنون الصينيون من خلالها الجماعات المحلية، ثم فاقوهم عددا عن طريق إنشاء حقول الأرز على التربة الملائمة، لم تمتد بعيدا كما حدث في جنوب الصين الحالي. وبدلا من ذلك، تجذّرت زراعة الأرز بين الجماعات المحلية في كوريا وآنام بسرعة كافية لدعم الحكام المحليين الذين كانوا يخضعون أحيانا للسيادة الصينية مع احتفاظهم بحكم ذاتي قوي، كما فعل الكوريون بعد العام 996، وفي أحيان أخرى كانوا يرفضون الصينيين، كما فعلت آنام في العام 1431 بعد كفاح طويل ضد الجيوش الصينية.

كان على اليابان أن تصد الحملات العسكرية التي أطلقها من الصين الإمبراطور المغولي قوبلاي خان في العام 1274 ومرة ثانية في العام 1291. لكن الجزر اليابانية كانت آمنة في الأغلب من خطر الاحتلال العسكري، ولذلك كان بمقدور النخب اليابانية أن تختار وتنتقي لأنفسها المهارات والمعارف التي تستوردها من الصين أو غيرها وأن ترفض أو تعدل ما تشاء. كان من السمات المميّزة لشرق آسيا أن رموز الكتابة الصينية كان يمكن قراءتها باللغات الأخرى في المنطقة بمساعدة علامات

صوتية توضح العلاقات النحوية بين الرموز المنفصلة، تماما كما تشير العلامة 2 مثلا إلى zwei وdeux وdos وduo وغيرها فضلا عن two(*). وعلى ذلك، فإن تعلّم قراءة وكتابة الرموز الصينية لم يكن يعني التخلي عن اللغات المحلية. وقد أنتج الكوريون رموزا أبجدية خاصة بهم خلال القرن الرابع عشر.

أصبحت رعاية الدولة للبوذية درعا ثانية للاستقلالية الثقافية في كوريا واليابان وآنام. كانت الصين قد قمعت الأديرة البوذية في العام 845، ما حوّل البوذية الصينية إلى عقيدة سرية مقاوِمة. وفي اليابان سمح الارتباط بأشكال طائفية مزدهرة ومتنافسة - وحتى مسلحة - من البوذية لليابانيين بمزج العلم الكونفوشي والطاوي في العبادات المحلية الأقدم. ثم جاء انتشار الشنتوية التي تطوّرت حول ما بدأ كطقوس خاصة للعائلة الإمبراطورية ليجعل هوية اليابان الثقافية آمنة أخيرا(**)، ما مكّن الفن والأدب والموسيقى اليابانية من أن تستعير بطلاقة من النماذج الصينية أو تفترق عنها، تماما كما كان المسيحيون اللاتينيون يستعيرون من النماذج البيزنطية والإسلامية خلال هذه القرون أو يفترقون عنها. وتقدم يوميات ليدي موراساكي Lady Murasaki (978 – 1026) وروايتها عن حياة البلاط في اليابان المعنونة «حكاية الجني» The Tale of Genji أدلة ميسورة الفهم على ظهور ثقافة راقية يابانية مميّزة. وسرعان ما ظهرت تعبيرات أخرى للثقافة اليابانية المميّزة، منها ميثاق شرف المحاربين المعروف باسم «البوشيدو» ومسرح «النو» وفن «الغيشا» والطوائف البوذية: «الأرض النقية» و«زِن» و«نيشرين»(***). واتبع الرسم والعمارة اليابانيان مسارات مميّزة.

(*) تعني كل هذه الكلمات العدد 2 في اللغات الألمانية والفرنسية والإسبانية واللاتينية على التوالي. [المترجم].

(**) الشنتوية Shinto: ديانة يابانية ترجع جذورها المدوّنة إلى القرن الثامن من الحقبة المشتركة، تقوم على ممارسات طقوسية متقنة تربط بين اليابان الحالية وماضيها القديم، ولذلك تعد أقرب إلى الأساطير، لكنها اليوم مقننة في شكل ديانة لها عدد من الآلهة في الأضرحة. [المترجم].

(***) البوشيدو: bushido (بمعنى طريقة المحارب أو أخلاقه في اللغة اليابانية): مفهوم ياباني يشير إلى طريقة حياة الساموراي التي تقوم على الاقتصاد في الإنفاق والولاء والفنون العسكرية والشرف حتى الموت، يشبه مفهوم الفروسية في أوروبا العصور الوسطى. ومسرح النو No Drama (أو النوه Noh بمعنى المهارة أو الموهبة في اللغتين اليابانية والصينية) هو الشكل الرئيس للمسرح الموسيقي الياباني التقليدي. والغيشا geisha فنانات يابانيات تقليديات يمثّلن دور المضيفات لتسلية زبائن ذكور، تشمل مهاراتهن أداء فنون مختلفة مثل الموسيقى التقليدية والرقص والألعاب والمسامرة. والأرض النقية Pure Land وزِن Zen ونيشرين Nichiren: طوائف بوذية يابانية. [المترجم].

أما الكوريون، فقد ظلوا تحت هيمنة صينية أوثق: ثقافيا وسياسيا. بينما تطوَّرت الاستقلالية الثقافية الآنامية، بالدرجة الأولى بعد أن نالوا الاستقلال الحاسم في العام 1431. لكن الشعبين لم يفلتا من الهيمنة الصينية إلى الحد الذي حققه اليابانيون.

شاركت البلدان الثلاثة جميعها في التجارة والإغارة البحريتين الكثيفتين أو تعرضت لهما. وحتى بعد أن حظرت الحكومة الإمبراطورية على البحّارة الصينيين تجارة ما وراء البحار، ظلت كتلة الصين الضخمة تسيطر دائما على الطرق البحرية. وعلى امتداد الجناح الهادي للشبكة العالمية القديمة، كانت الثقافة الصينية لا تقل ثقلا عن اقتصاد السوق الصيني. لكن نتيجة لأن الثقل المضاد الضابط للبيروقراطية الإمبراطورية الصينية لم يمتد إلى شعوب الجناح الهادي، فقد سادت بين هذه الشعوب أشكال من المجتمع والاقتصاد والثقافة حرة وأكثر تنافسية وأحيانا - على الأقل - أكثر ابتكارية، كما حدث بين الدول والشعوب المتنافسة على الجناح الأطلسيّ للشبكة في أوروبا الغربية. لذلك يبدو أن التخومية الجغرافية والثقافية والتقنية المتماثلة على الجناحين الهادي والأطلسيّ للشبكة العالمية القديمة، استحثّت استجابات متماثلة. على وجه التحديد، كان الجناحان بين العامين 1000 و1500 يوسّعان مداهما عبر أعالي البحار، ما مهد الطريق أمام التعولم الكامل للشبكة.

التخوم الجنوبية والشمالية للشبكة العالمية القديمة

إلى الجنوب والشرق من الجناح الهادي، ظل القوس الواسع للجزر الفلبينية والإندونيسية والميلانيزية منطقة للتوسّع التخومي(*). وهناك امتزج البحّارة المسلمون المتمركزون في شبه جزيرة الملايو وغيرها على طول ساحل المحيط الهندي مع السفن والبحّارة القادمين من سواحل المحيط الهادي. أظهر المسلمون نجاحا ملحوظا في نشر دينهم في الملايو وجاوة وسومطرة، وبعيدا في مينداناو في الفلبين. كانت دول محلية وشبكات تجارية واسعة قد قامت قبل وقت طويل على زراعة

(*) ميلانيزيا Melanesia: منطقة فرعية من أوقيانوسيا (راجع حاشية لاحقة حولها) تمتد من الحافة الغربية للمحيط الهادي حتى بحر أرافورا Arafura وإلى الشرق من دولة فيجي Fiji، تشمل حاليا دول فانواتو Vanuatu وجزر سليمان Solomon Islands وفيجي Fiji وبابوا نيو غينيا Papua New Guinea وجزر ومناطق أخرى تتبع فرنسا وإندونيسيا. [المترجم].

حقول الأرز في جاوة وسومطرة، وجاء اعتناق الإسلام ليسّر مشاركتهم في تجارة المحيط الهندي.

كانت الشبكة تضعف كلما ابتعدنا صوب الجنوب الشرقي، إذ كانت الرياح الموسمية المنتظمة تضعف كلما ابتعدنا عن آسيا البرية، ما حال دون الشحن البحري طويل المسافات. لذلك - على سبيل المثال - ظل داخل بورنيو وكل نيو غينيا منعزلين. كان مما ساعد في ذلك أن مستنقعات المنغروف الكثيفة الممتلئة بالملاريا التي شكّلت سدا حول معظم ساحل الجزر كانت بالنسبة إلى جماعات الصيد والجمع والبستانيين الاستوائيين الذين عاشوا عليها بمنزلة حماية فعالة من الدخلاء. وكان لشواطئ شمال أستراليا المنفرة التأثير العازل نفسه.

كان البحّارة البولينيزيون بالمحيط الهادي الأوسط، الذين استعمروا نيوزيلندا في نحو العام 1300، الأشد عزلة عن آسيا البرية. دخل هؤلاء على مناخ أبرد لم تزدهر فيه النباتات الغذائية الاستوائية التي جلبوها معهم، ولذلك اعتمد الماوري Maori - كما يعرف النيوزيلنديون الأوائل - على جمع الثمار وصيد الأسماك، إلى أن تعلموا طرقا لاستغلال هذه البيئة الغريبة عليهم بكفاءة. وعلى الجزر الاستوائية الملائمة للزراعة البولينيزية، بدأ عدد السكان المتنامي يضغط على الموارد، وظهرت مشيخات مُعَسْكَرة في جزر مثل تونغا وهاواي. أما على جزيرة إيستر الصغيرة المنعزلة فقد وجدت الجماعات أنفسها أمام كارثة بيئية وسياسية لا راد لها، عندما قطعوا كل الأشجار، ما أدى إلى اختفاء إمدادات الخشب الضرورية للوقود وصنع المراكب والأدوات.

انقطعت صلات هذه الجماعات البولينيزية النائية وواسعة الانتشار مع الشبكة العالمية القديمة، لكن ظهور المشيخات المُعَسْكَرة في سلاسل الجزر الأكبر يشبه ظهور الدول في الأماكن الأخرى إلى حد بعيد، ما يكشف أن الاستجابات السياسية للنمو السكاني ونقص الموارد المحلية كانت واحدة، وربما حتى ضرورية، لأن الدول والمشيخات تعيد توزيع السلع من خلال توزيع الهِبات والضرائب ومن خلال العمل على كبح العنف المعرقِل - من النوع الذي اندلع على جزيرة إيستر - من خلال احتكار ممارسة العنف.

كانت أفريقيا جنوب الصحراء وغابات شمال أوراسيا مناطق تخومية انضوت بمزيد من الإحكام ضمن الشبكة العالمية القديمة بين العامين 1000 و1500. وفي

المنطقتين كلتيهما ظل عدد السكان منخفضا؛ فقد فرض البرد القطبي قيدا على الزراعة في الشمال، وأحدثت الأنظمة المرضية المهلكة ونوبات الجفاف والمجاعة المتكررة تأثيرات مماثلة في أفريقيا. ومع ذلك، فإن الارتباطات بالشبكة العالمية القديمة تضاعفت، وظهرت في المواقع المواتية دول قوية ازدهرت جزئيا على تجارة المسافات الطويلة.

في بلاد السودان بغرب أفريقيا(*)، تلك المنطقة العشبية الممتدة من السنغال إلى بحيرة تشاد، ساعد الإسلام - كما جاء في موضع سابق - في بناء روابط مع الشبكة العالمية القديمة، وهو نفس ما فعلته الروابط التجارية التي قامت على قوافل الإبل عبر الصحراء الكبرى. كان نهر النيجر على مدى القرون موطنا لمجتمعات زراعية وحّدتها شبكات تجارية على طول النهر. وعندما وصلتهم الخيل الضخمة - من المغرب - والسروج والرّكاب، سرعان ما تمكن الجنود من فنون حرب الفرسان ووظفوها في ترويع جيرانهم وجمع الغنائم وبناء دول - وربما إمبراطوريات - إقليمية كبيرة[7]. امتدت إمبراطورية مالي في أوجها - حول العام 1330 - من ساحل الأطلسي إلى بحيرة تشاد، وفرضت سلاما واسعا مكّن من ازدهار التجارة والتفاعل على طول حافة الصحراء والسهل العشبي، وأدار حكامها تصدير - إلى العالم العربي - ما شكّل إبان أوائل القرن الرابع عشر نحو ثلثي إنتاج الذهب العالمي، واستيراد الخيل الضروري سياسيا، وتدفق الملح من الصحراء الكبرى صوب الجنوب إلى منطقة الغابات المحرومة من الملح. فعندما ازدهرت التجارة عبر الصحراء الكبرى، ازدهر معها التجار وحكام مالي وورثتهم حكام دولة صنغاي، التي بلغت أوجها بين العامين 1470 و1515. لكن الوحدة السياسية في هذه المنطقة أثبتت أنها هشة، ففي منطقة النيجر الأعلى والأوسط، أسهمت تقاليد المجتمع المتمدن القوية والقديمة وتقاليد السلطة السياسية الضعيفة في قصر عمر إمبراطوريات منطقة السافانا. وسرعان ما كانت الصراعات بين الحكام المتنافسين تكبح التجارة من خلال رفع تكاليف الحماية، علاوة على أن هذه المنافسة شجعت غارات صيد العبيد كأحد مصادر الدخل للدول، ما أضر بالإنتاج

(*) بلاد السودان Bilad as-Sudan (بمعنى بلاد السود) هو الاسم الذي أطلقه العرب على المنطقة الجغرافية الخضراء الواقعة جنوب الصحراء الكبرى إلى الجنوب مباشرة من منطقة الساحل (راجع حاشية سابقة حولها) التي تمتد من غرب أفريقيا إلى شرق أفريقيا الوسطى. [المترجم].

الزراعي والنمو السكاني، حيث كان عشرات الآلاف - لا توجد تقديرات موثوقة - من أبناء غرب أفريقيا يشحنون إلى أسواق العبيد في مراكش وطرابلس والقاهرة، ولاحقا إلى لشبونة والأمريكتين. ربما أسهمت التغيرات المناخية التي تشكّل أهمية دائمة على حواف الصحراء، في كبح الزراعة وإضعاف الدول الكبيرة في منطقة السافانا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد خرج النّفس الأخير للسلطة الإمبراطورية المركزية في العام 1591 عندما استسلمت صنغاي لجيش مغربي غازٍ، وبذلك أصبحت بلاد السودان جزءا لا يتجزأ من الشبكة العالمية القديمة.

وفي منطقة البحيرات العظمى بشرق أفريقيا الوسطى، أعال الأرز المروي والموز جماعات محلية كثيفة، ما مكّن من تحوُّل المشيخات القوية إلى دول زراعية كاملة النضج تمتعت بارتباطات تجارية ضعيفة لكن متنامية مع الساحل السواحلي. وبعيدا إلى الجنوب في زيمبابوي الكبرى(*)، تشهد خرائب القرن الرابع عشر على سلطة مملكة قامت على الرعي والزراعة وصادرات الذهب، كان حكامها يستوردون سلع الترف من أماكن بعيدة مثل بلاد فارس والهند والصين. بيد أن زيمبابوي الكبرى والدول الزراعية التي تطوّرت في منطقة البحيرات العظمى كانت استثناءات في منطقة تميّزت بضعف النقل والاتصال. فنتيجة للافتقار إلى حيوانات الحمل وقلة الأنهار الصالحة للملاحة، لم تشهد أفريقيا الوسطى والجنوبية قبل العام 1500 إلا القليل من المدن وشكلا هزيلا من تجارة المسافات الطويلة، ونتيجة لافتقارها إلى الفرسان، لم تشهد إمبراطوريات كبيرة. فعلى خلاف منطقة السافانا بغرب أفريقيا التي شهدت مدنا وأسواقا وإمبراطوريات واقتربت بذلك من الأنماط التي سادت في جميع أنحاء أوراسيا، ظل جنوب أفريقيا وشرقها محيطيين بالنسبة إلى الشبكة العالمية القديمة.

ظل معظم الشمال القطبي هامشيا، وهناك كانت جماعات منعزلة من صيادي الحيوانات والأسماك وجامعي الثمار تمارس طرقا تقليدية للحياة. لكن في الأراضي الروسية التي كانت الحرارة فيها أكثر اعتدالا بكثير من سيبيريا، اخترقت جماعات زراعية الغابات الشمالية ببطء لكن بثقة، وسادت هناك زراعة القطع والإحراق،

(*) زيمبابوي الكبرى Great Zimbabwe: أطلال مدينة في تلال جنوب شرق زيمبابوي كانت عاصمة مملكة زيمبابوي، بنيت بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر. [المترجم].

يكمّلها دائما الصيد والجمع. وفّرت شبكة الأنهار الروسية واسعة الانتشار نقلا سهلا باستخدام المراكب في الصيف والزلاجات في الشتاء، ما يسّر - بدوره - على أي حاكم بعيد أن يجمع الضرائب من شعوب الغابات في شكل سلع، كانت في هذه الحالة الفراء وليس الحبوب. نشر تجار الفراء المتجولون الأشياء سهلة النقل مثل الفؤوس والفخاخ المعدنية بين الجماعات المحلية في مقابل الحصول على مزيد من الفراء. وكان ظهور دوقية موسكو خلال القرن الخامس عشر وثراء مدينة نوفغورود Novgorod اللتين تركزت فيهما تجارة الفراء، تسجيلا لهذا الاختراق الأولي للغابات الشمالية.

الشبكات الأمريكية

بالتزامن مع ذلك، أقامت جماعات جديدة في الأمريكتين إمبراطوريات عسكرية قوية في المكسيك وبيرو، وعملت بدأب على توسيع الشبكات في الأمريكتين من خلال الحرب والتجارة. وظل المزارعون يخترقون جماعات الصيد والجمع، ووسّع المحاربون القوّاسة نطاق سلطتهم في جزر الكاريبي وفي أي مكان واجه القوّاسة فيه جماعات ذات أسلحة قاذفة أقل فاعلية.

استلزمت الأعمال المطلوبة لبناء العاصمة الأزتكية تينوشتيتلان Tenochtitlan (تأسّست على إحدى الجزر في العام 1325)، حشد أعداد هائلة من العمال للعمل في الحقول المصطبية على الأراضي الضحلة حول البحيرة وبناء سد لحماية مائها العذب من الاختلاط بالماء المالح. وحشد الإنكا (حكموا من العام 1440 إلى العام 1532) أعدادا أكبر من رعاياهم لشقّ الطرق وتحويل منحدرات الجبال إلى مصاطب زراعية وتشييد تحصينات حجرية ضخمة للدفاع عن إمبراطوريتهم الأنديزية. ولا شك في أن الروابي الطقوسية كثيرة العدد وكبيرة الحجم التي أقيمت في كاهوكيا بإلينوي بين نحو العامين 1050 و1250 تطلبت العمل المشترك لآلاف كثيرة من الناس. وقد اجتمع الفكر والتنظيم الدينيان والعسكريان، ما جعل هذه المآثر ممكنة، ويمكننا أن نقول بثقة إن الطلب العسكري والكهنوتي على سلع الترف أوجد عملا لتجار المسافات الطويلة وحافظ على شبكة أمريكية نشطة كانت في وقت وصول الإسبان تشمل معظم أمريكا الشمالية والجنوبية.

كانت المراكز السياسية - الطقوسية والشبكات المحيطة بها موجودة في

الأمريكتين لأكثر من ألف سنة، وفي حين كان الكثير من سماتها جديدا بلا شك، فإن السمات الأساسية لم تتغير كثيرا بين العامين 1000 و1500. لكن تكثُّفا تحويليا من النوع الذي حدث في الشبكة العالمية القديمة استجابة لتحسُّن النقل المائي لم يكن ممكنا في الأمريكتين، وذلك لأن قيود النقل والاتصال ظلت كما كانت في السابق. وفيما يتعلق بانتشار البشر في الأمريكتين، فربما كان تقدم الزراعة التدريجي نحو مناطق بعيدة مثل نيو إنغلند ووادي ريو دي لا بلاتا Reo de la Palata (الأرجنتين وأورغواي الحاليتان) أهم من أي شيء حدث في مركزي المكسيك وبيرو.

خاتمة

إن ما حدث في بقية العالم بين العامين 1000 و1500 يتضاءل بجانب التحوُّلات التي شهدتها المناطق الأساسية بالشبكة العالمية القديمة. فقد أدت خمسة قرون من التفاعل المتنامي والتخصص والإنتاج المتزايد على نحو متقطع والحشد المكثف للجهد البشري، استجابة لأسعار السوق وللأوامر السياسية، إلى زيادة القوة والثروة في المناطق الأساسية بالشبكة العالمية القديمة إلى آفاق غير مسبوقة. وبالتزامن مع ذلك، أصبحت الشبكة العالمية القديمة أكثر اضطرابا، لاسيما في جزئها الأوروبي الغربي، ما تسبب في نتائج حاسمة أطلقت تحوُّلات جذرية في كل أنحاء الأرض خلال القرون التالية.

6

نسج خيوط الشبكة العالمية خلال الفترة من 1450 إلى 1800

«أصبحت المدن الميناتية ومناطقها الداخلية دينامية ومزدهرة أكثر من قبل، وأكثر من المناطق الداخلية، وهاجر ملايين البشر إلى السواحل، وظهرت مجتمعات جديدة حول مسطحات العالم المائية»

بحلول العام 1450 كان قاطنو الأرض البالغ عددهم ما بين ثلاثمائة وخمسين مليونا وأربعمائة مليون إنسان يتحدثون آلاف اللغات، ويتبعون مئات الأديان، ويعترفون بمئات الحكام السياسيين، على رغم أن بضعة ملايين منهم لم يكونوا يعترفون بأي حاكم على الإطلاق. وعلى الرغم من تأثيرات أربعة آلاف سنة من الحضارة والأديان النقالة الدعوية وبناء الإمبراطوريات، لم يكن البشر جماعة واحدة بأي معنى حقيقي، إذ ظل التنوع الهائل سائدا، وظل ما بين ستين مليونا ومائة وعشرين مليون إنسان في أوقيانوسيا والأمريكتين وأفريقيا الوسطى

والجنوبية يعيشون حتى ذلك الحين في عزلة شبه كاملة عن المسرح الرئيس للتاريخ، وهو الشبكة العالمية القديمة(*).

وفي خلال ثلاثة قرون ونصف القرن بعد العام 1450، أخذ سكان الكوكب يشكِّلون شيئا فشيئا جماعة واحدة أكثر ترابطا. ومن هذه النقطة فصاعدا، لم يعد من المنطقي التعامل مع مناطق الأرض المختلفة كل على حدة، كما كنا نفعل أحيانا فيما سبق. وفيما يلي سنبدأ في معالجة الموضوعات - ومن ضمنها عملية العولمة - على المستوى العالمي.

كانت العولمة خلال العصر الحديث المبكر عملية مؤلمة، وأحيانا وحشية. فقد اختفت جماعات ولغات وأديان، بينما نجحت حفنة من المجتمعات الإمبريالية في نشر سلطتها وثقافتها إلى أراض جديدة. ومع انضمام عشرات الملايين من البشر - ومعهم مواردهم وأنظمتهم البيئية - إلى ما أصبح شبكة تغطي العالم بأسره، غدت عملية التخصص في العمل والتبادل عالمية حقا، ما أنتج ثروة أكبر وكذلك تفاوتا أكبر من أي وقت مضى. كانت هذه الاتجاهات جميعا في حقيقتها استمرارا وتتويجا للتأثيرات الحاثة على التجانس الناتجة من انتشار الحضارات عبر أوراسيا وأفريقيا. لكن في الفترة التي يغطيها الفصل الحالي، أخذت الأحداث تتوالى بمعدل أسرع، ولم يعد أحد خارج نطاقها، وإن تأخر كثيرون في اللحاق بها.

شبكات العالم في العام 1450

الشبكة العالمية القديمة

كانت الشبكة العالمية القديمة بحلول العام 1450 تغطي نحو ثلاثة أرباع البشرية، وكانت من الناحية الغربية تتاخم المحيط الأطلسي، من منطقة السافانا بغرب أفريقيا إلى بريطانيا وإسكندنافيا. وإلى الشمال، امتد نطاقها إلى غابات روسيا الشاسعة وعلى طول الحافة الجنوبية لغابات سيبيريا الأوسع. وبلغت تخومها الشرقية المحيط الهادي من كوريا واليابان في الشمال إلى الأرخبيلات الواقعة قبالة جنوب شرق آسيا. كانت جاوة تقع ضمن الشبكة، لكن المشاركة في الشبكة كانت تضعف كلما ابتعدنا نحو

(*) أوقيانوسيا Oceania: منطقة تتمركز حول جزر المحيط الهادي الاستوائية، تشمل المناطق الفرعية ميلانيزيا وميكرونيزيا وبولينيزيا. [المترجم].

الجنوب والشرق. وظلت نيو غينيا وميلانيزيا حتى ذلك الحين خارج الشبكة. وتمثلت التخوم الجنوبية للشبكة في جزر عالم المحيط الهندي وسواحله من سومطرة إلى شمال موزمبيق. كانت الشبكة قد مدّت بعض خيوطها إلى داخل أفريقيا، لكنها توقفت حتى ذلك الحين وراء ساحل شرق أفريقيا مباشرة. ولم تكن شعوب الغابات في غرب أفريقيا وأفريقيا الوسطى وشعوب جنوب أفريقيا تشارك إلا على نحو متقطع في حياة تلك الشبكة الهائلة التي نتجت من آلاف السنين من الهجرة والتجارة والعمل التبشيري ونقل التقنية والتبادل الأحيائي والغزو العسكري.

كانت الشبكة العالمية القديمة قوة حاثة على التجانس، لكنها كانت أبعد ما تكون عن التجانس، ولم يكن من الوارد أن تكون متجانسة تماما، لأن الجغرافيا والمناخ كانا يفرضان بعض الاختلافات، كأن لا ينمو السرغوم في السويد، ولا الجاودار في بنغلاديش. فكانت الشبكة عبارة عن كتل منفصلة متباينة. ولم تكن بعض الأماكن والجماعات الواقعة ضمنها كليا تشارك فيها، ومنها على سبيل المثال بعض شعوب الغابات في مرتفعات جنوب شرق آسيا التي ظلت مكتفية ذاتيا، وتتحدث لغاتها المحلية وتعبد آلهتها المحلية، ولم يكن اتصالها بالعالم الخارجي أوثق من اتصال جماعات جزيرة إيستر (جزيرة القيامة) به. وعلى الطرف الآخر من الطيف، كانت بعض أجزاء الشبكة بوتقات للتفاعل اليومي ومراكز حضرية امتزجت فيها الأفكار والسلع والأمراض والبشر وتركت بصمتها على الشبكة، منها البندقية والقاهرة والقسطنطينية (إسطنبول) وسمرقند في آسيا الوسطى وكاليكوت في جنوب الهند، وملقا Malacca في ماليزيا الحالية، من بين مراكز كثيرة أخرى.

ربطت آلاف من طرق القوافل والطرق البحرية أجزاء الشبكة معا، وبرز من بينها اثنان، قطع أولهما آسيا من شمال الصين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، وهو طريق الحرير القديم - الذي كان في حقيقته سلسلة من طرق القوافل المرتبطة - الذي نقل المسافرين بانتظام منذ الأزمان الهانية والرومانية، ونقل - في أوقات مختلفة - الإسلام والبوذية والمسيحية، فضلا على القطن والبطيخ والكرز والكرم، والجدري والطاعون الدبلي، والبنادق والبارود والرِّكاب. بلغ النقل عبر هذا الطريق ذروته عندما وفّرت الظروف السياسية السلام، وعندما توافرت لدى الحكام القوة والبصيرة لكبح قطاع الطرق والحفاظ على تكاليف الحماية في

مستوى منخفض. وكان المغول هم الذين وفروا هذه الظروف خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر(*)، لكن تقسيم إمبراطوريتهم والصراع بين الخانات المتنافسين في آسيا الوسطى قلّص تجارة القوافل وكل أشكال الاتصال والتبادل التي كانت ترافق التجارة. ثم قامت إمبراطورية أصغر من ورثة المغول شكّلها تيمورلنك بتعهد الاتصال والتجارة فترة وجيزة، لكن بحلول العام 1510 كان ورثته قد خضعوا لفاتحين من الأوزبك وغيرهم، ثم تفتتت الإمبراطورية إلى الأبد. وأخذ هذا الطريق الرئيس يتراجع تدريجيا على المدى الطويل، وتراجعت معه تدريجيا مدن القوافل الكبرى: تبريز وخيوة وبخارى وسمرقند(**).

أما الطريق الرئيس الآخر، فكان بحريا، وكان منافسا بدرجة أو بأخرى للنقل عبر الطريق الأول. امتد الطريق البحري من موانئ كوريا واليابان، لاسيما جنوب الصين، خلال أرخبيلات جنوب شرق آسيا، وحول شبه جزيرة الملايو، إلى المحيط الهندي ثم موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر. كان التمكن من الرياح الموسمية قد فتح هذا الطريق الرئيس منذ الأزمان القديمة، لكن أناسا قليلين كانوا يبحرون هذا الطريق البحري كاملا من إحدى نهايتيه إلى الأخرى، تماما كما لم يقطع طريق الحرير كاملا إلا قليلون. فقد كان طريق المحيط الهندي في معظم الحالات مجموعة من الوصلات الأصغر، عملت ضمنه عشرات المدن الميناثية كنقاط نقل وشحن، لكنه عمل كطريق رئيس واحد للسلع والأفكار والتقنيات والأمراض. كان النقل عبر هذا الطريق متقلبا اعتمادا - من بين أشياء أخرى - على الأخطار التي فرضها القراصنة، والمكوس التي كانت تجبيها السلطات السياسية التي تمكنت من السيطرة على «أعناق الزجاجات» على طول الطريق. على امتداد هذه الطرق الرئيسة والقنوات الكثيرة التي كانت تغذيها، انتقل خزف الصين المينغية إلى شرق أفريقيا، والفضة الإسبانية إلى الخزانات

(*) يستخدم المؤرخون عبارة «السلام المغولي» Pax Mongolica للإشارة إلى تأثيرات الفتوحات المغولية الداعمة للاستقرار والسلام في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لسكان أوراسيا التي غزاها المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر من الحقبة المشتركة. والعبارة وأمثالها مثل «السلام البريطاني» Pax Britannica و«السلام الأمريكي» Pax Americana قد سُكّت على منوال عبارة «السلام الروماني» Pax Romana التي تشير إلى التأثيرات نفسها للغزو الروماني لحوض البحر الأبيض المتوسط وغرب أوروبا خلال القرنين الأول والثاني من الحقبة المشتركة. [المترجم].

(**) تبريز Tabriz: مدينة تقع في شمال غرب إيران. تقع المدن الثلاث خيوة Khiva وبخارى Bukhara وسمرقند Samarkand في دولة أوزبكستان الحالية، وكانت مراكز مهمة على طريق الحرير القديم. [المترجم].

الصينية، والأقمشة الحريرية الصينية إلى نبلاء البندقية، والذهب من غرب أفريقيا إلى أمراء الهند.

ظهور الوصلات البحرية ضمن الشبكة العالمية القديمة

ابتداء من القرن الخامس عشر، كان الطرفان الشرقي والغربي للشبكة يشهدان تكثُفا وترسُخا سريعين، وهو ما نتج بالدرجة الأولى من التقدم الذي حدث - وإن كان بدرجات متفاوتة - في أنحاء الشبكة جميعها في تصميم السفن والمهارة الملاحية، والذي أحدث – بدوره - نتائج مختلفة في الأماكن المختلفة. كان تدجين الإبل وصقل المهارات المتعلقة بالقوافل قد أفاد خلال القرون السابقة الأجزاء الوسطى من الشبكة التي شهدت هذا التقدم. أما في الفترة التي يغطيها الفصل الحالي، فكانت المعرفة والتقنية البحريتان الجديدتان هما اللتين أحدثتا ذلك التأثير في جناحي الشبكة، إذ مكّنت السفنُ الأكثر ثباتا من الاستغلال الأكمل للبحار الخطرة: غرب المحيط الهادي من اليابان إلى جاوة، وشمال شرق الأطلسي من النرويج إلى إسبانيا، وبعدها بوقت قصير إلى السنغال. كانت هاتان البيئتان البحريتان عاصفتين وغادرتين، لكنهما ضمتا عددا كبيرا من الخلجان والجزر وأشباه الجزر التي تحوي كثيرا من المراسي الجيدة، وكانتا كبيرتين بما يكفي لأن تحويا طيفا واسعا من الموارد والمحاصيل، وهو ما جعل عوائد تبادل حتى السلع الضخمة مثل الحبوب والملح والخشب مشجعة. وفي الحالتين كلتيهما رُبطت العوالم البحرية بالنقل النهري الداخلي، وهو مطلب مهم لخفض تكاليف النقل بما يشجع التجارة في السلع الضخمة. تتدفق الأنهار الأوروبية - الراين وإلبه والدانوب والبو وكثير من الأنهار الأصغر- بهدوء على مدار السنة، كما أنها صالحة للملاحة. أما أنهار شرق آسيا - الأصفر واليانغتسي وبيرل وميكونغ وغيرها الكثير - فكانت موسمية بسبب الأمطار الموسمية، لكن من خلال شقّ القنوات وأعمال الري المضنية، أصبحت شبكة الأنهار والقنوات بشرق آسيا وسائل فعالة لمدّ النقل والتبادل المحمولين بحرا إلى المناطق الداخلية.

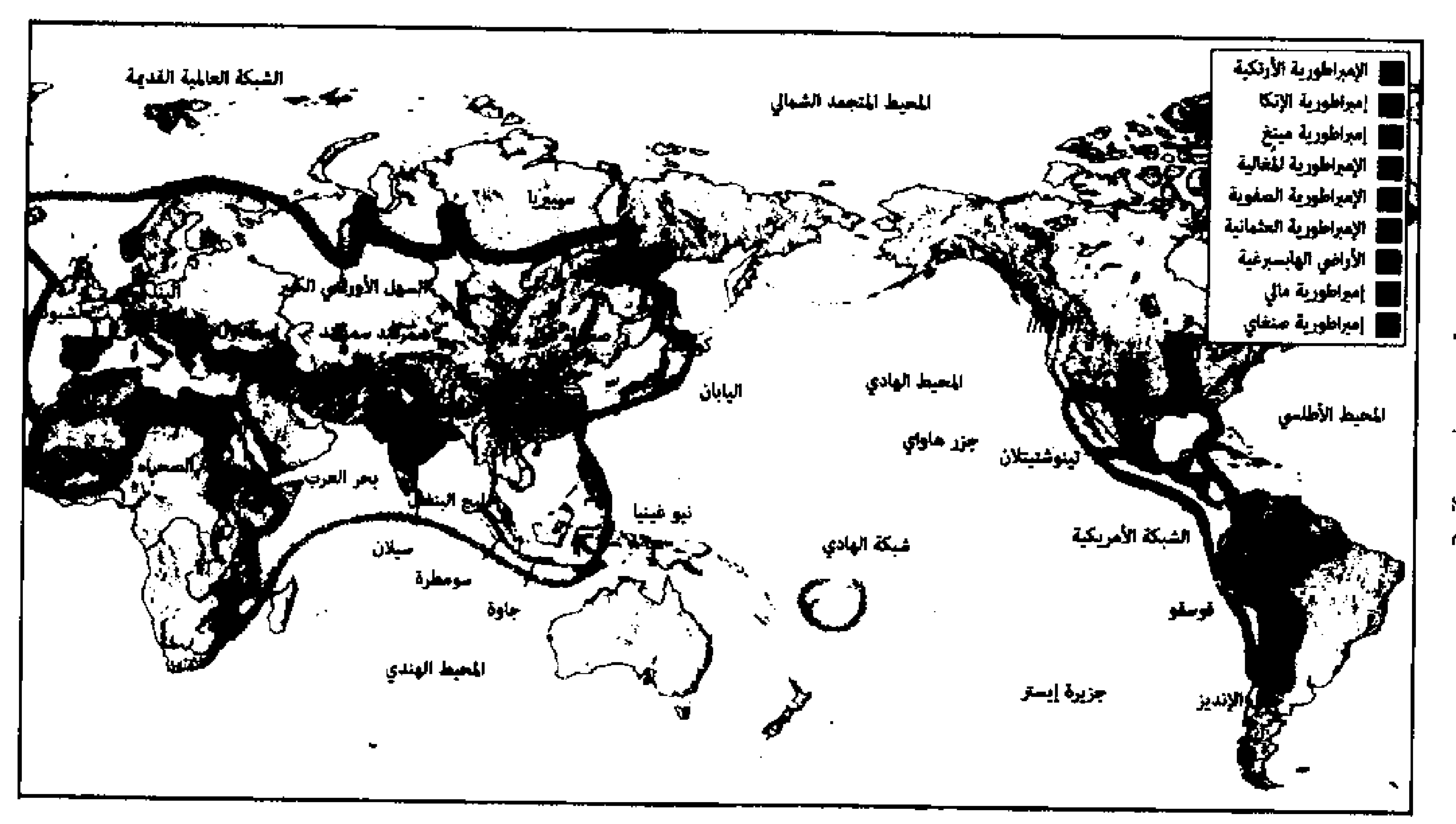
أثبتت النظم النهرية في جنوب آسيا، وبدرجة أكبر في جنوب غرب آسيا وشرق أفريقيا، أنها أقل نفعا بكثير، ولذلك برزت طرق القوافل في هذه المناطق. فقبل كل شيء، كانت الأنهار أقل عددا لأن المطر كان أقل منه في غرب أوروبا، وكذلك كانت

معظم الأنهار تتغير بشدة مع الفصول، وكانت مياهها في معظم الأحيان إما أكثر أو أقل مما يصلح للملاحة السهلة. كان العالم البحري للمحيط الهندي قد تطوَّر مبكرا، وكانت سفنه قد تكيفت منذ وقت طويل مع ظروفه الهادئة نسبيا، ولذلك كان أقل تأثرا بالتحسينات التي شهدها القرن الخامس عشر في تصميم السفن. وهكذا، فضمن الشبكة العملاقة، كانت الارتباطات البحرية تكتسب وزنا أكبر، وقد استفادت المناطق الساحلية للمحيطين الأطلسي والهادي من هذه التغيرات أكثر من شواطئ المحيط الهندي.

شبكة المحيط الهادي والشبكة الأمريكية

كانت هناك شبكتان أصغر خلال القرن الخامس عشر، أو ربما كانت توجد شبكة واحدة فقط، وكانت الأخرى في طور التشكُّل. أما الشبكة الأقل تطوُّرا، فهي شبكة المحيط الهادي. كانت المهارات البحرية المتفردة للبولينيزيين التي أتت بهم إلى معظم الجزر الصالحة للسكنى بين جزر نيوزيلندا وإيستر وهاواي، قد ساعدت في جعل بعض جزر المحيط الهادي على اتصال بعضها مع بعض. وتمتع بحّارة ميكرونيزيا بمهارات بحرية لا تقل عن البولينيزيين، وربما مراكب بحرية أفضل من مراكبهم(*). تكشف الأدلة الضئيلة أنه خلال القرن الخامس عشر كانت هناك دوائر تجارية منتظمة تمركزت حول جزيرة ياب - إحدى جزر كارولين - امتدت بعيدا حتى غوام وبالاو واستخدمت نقودا على شكل أقراص حجرية(**). واحتفظت المشيخات الميلانيزية والبولينيزية في جزر فيجي وساموا وتونغا باتصالات منتظمة بعضها مع بعض. كانت تونغا، وهي أرخبيل من الجزر الصغيرة الخصبة، مشيخة بحرية في طور التحوُّل إلى إمبراطورية بحرية، أقام حكامها شبكات قربى وتبادلوا سلع المكانة على امتداد مسافات طويلة، وكانت مركزا لشبكة في طور التشكُّل خلال

(*) ميكرونيزيا Micronesia: منطقة فرعية من أوقيانوسيا (راجع حاشية سابقة حولها)، تشمل آلاف الجزر الصغيرة في غرب المحيط الهادي، وتشمل دول ولايات ميكرونيزيا المتحدة Federated States of Micronesia وبالاو Palau وكيريباتي Kiribati وجزر مارشال Marshal Islands وناورو Nauru وجزر ومناطق أخرى. [المترجم].
(**) ياب Yap: إحدى جزر كارولين Caroline التي تنتشر متباعدة في شمال غرب المحيط الهادي إلى الشمال من جزيرة نيو غينيا. وغوام Guam وبالاو Palau جزيرتان في غرب المحيط الهادي، الأولى تتبع الولايات المتحدة والثانية دولة ذات سيادة. [المترجم].



الخريطة (1.6): شبكات العالم بحلول الأعوام 1450-1500

القرن الخامس عشر، لكنها كانت مركزا سياسيا أكثر منه مركزا تجاريا. كان عدد السكان ضئيلا - على الأغلب بضعة ملايين في كل جزر المحيط الهادي - واجتمع التشابه البيئي للجزر الواقعة شمال نيوزيلندا مع المسافات الطويلة بينها للحد من التجارة وغيرها من التفاعلات. فقد كانت هذه الشبكة شاسعة لكنها كانت غير محكمة الربط، ولم تكن تمتد إلا خيوط هزيلة فيما وراء تونغا وجيرانها.

أما الشبكة المنفصلة الثانية، وهي شبكة الأمريكتين، فقد شملت سكانا أكثر من الأولى بكثير، إذ ضمت في العام 1450 ما بين أربعين مليونا وستين مليون إنسان (تتراوح التقديرات بين خمسة ملايين وأكثر من مائة مليون، لكن أخيرا تقارب هذان الرقمان). كانت الأغلبية العظمى من هذه الجماعات تعيش في شبكة متفاعلة غير محكمة الربط تمتد من البحيرات العظمى بأمريكا الشمالية والمسيسبي الأعلى جنوبا إلى جبال الأنديز. وبسبب غياب حيوانات الحمل، باستثناء حيوان اللاما الأنديزي، فإن النقل المائي مارس دورا كبيرا في ربط هذه الشبكة معا، فكانت زوارق الكنو تحمل البشر والسلع بكفاءة فوق مياه أنهار حوض المسيسبي، وفي أحواض نهري الأورينوكو Orinococ والأمازون بأمريكا الجنوبية. وكانت زوارق الكنو المبحرة في البحار التي كانت تحمل حتى ثلاثين شخصا وأطواف الشحن الملازمة للأشرطة الساحلية في الكاريبي وخليج المكسيك تربط القارتين، وهو نفسه ما فعله الإبحار على طول شاطئ الهادي بين المكسيك وبيرو.

ضمت هذه الشبكة الأمريكية نقطتي التقاء، واحدة في المكسيك الأوسط مقر الدولة الأزتكية، والأخرى في بيرو موطن الإنكا. قامت دولة الأزتك على تقاليد الحضارات السابقة في المكسيك وورثت مكانة قيادية ضمن شبكات التجارة والتأثير الثقافي التي امتدت شمالا حتى وسط أمريكا الشمالية. قامت هذه الشبكات على تجارة النقل المتتابع برا وعبر المراكب الساحلية والنهرية. ومارس التجار والأسواق دورا أساسيا في مجتمع أمريكا الوسطى، وشكّلوا القاعدة للشبكة غير المحكمة لجماعات أمريكا الشمالية. سياسيا، لم يسيطر الأزتك إلا على المكسيك الأوسط، لكن ثقافيا امتد تأثير المكسيك الأوسط إلى حزام واسع من الأراضي الجافة بشمال المكسيك مرورا بحوض المسيسبي إلى الغابات الجنوبية الشرقية لأمريكا الشمالية. ومع أن تجارة المكسيك وروابطها الثقافية مع الشمال ضعفت على ما يبدو بعد القرن الثالث عشر،

فإنها كانت لاتزال قائمة في نحو العام 1450. في القلب من هذا العالم، كانت توجد مدينة تينوشتيتلان التي ربما ضمت ربع مليون إنسان، وكانت في العام 1519 تحتوي أسواقا أذهلت الفاتحين الإسبان الذين شاهدوا مدينتي نابولي وإسطنبول العظيمتين.

أقام الإنكا بين نحو العامين 1440 و1520 إمبراطورية امتدت من أقصى جنوب كولومبيا إلى أقصى شمال الأرجنتين وتشيلي، كانت فريدة في سرعة الغزو - مثل معاصريهم العثمانيين - ومستوى الدمج السياسي والثقافي القوي الذي فرضته على ما بين سبعة ملايين واثني عشر مليون إنسان. ربط الإنكا فتوحاتهم معا بشبكة طرق في جبال الأنديز وعلى طول شاطئ المحيط الهادي، ما ساعد في التعويض عن قلة الأنهار الصالحة للنقل. تألفت شبكة الطرق من نحو 15000 - 25000 ميل (25000 40000- كيلومتر) من الطرق الممهدة نُظمت في مسارين رئيسين كبيرين ترفدهما طرق لا تحصى، ما يضعها بين أعظم إنجازات الأشغال العامة في العالم. وانتشر دينهم الإمبراطوري الذي أدّى فيه إله الشمس الدور المركزي، سريعا وعلى نطاق واسع أينما امتد نفوذ جيوشهم، وانتشرت عمارتهم الحجرية الضخمة المميّزة وأنماط النسيج والأشغال الفخارية ولغة الكتشوا Qechua. وشجع الشحن البحري الساحلي الاندماج الاقتصادي، وذلك بتوجيه من الدولة أكثر منه نتيجة لتأثير التجار والأسواق. لكن على خلاف الأزتك وأسلافهم، يبدو أن تأثير الإنكا لم يمتد أبعد من المناطق الخاضعة لسيطرتهم السياسية، وهو ما قد يعكس الدور المحدود للتجار والأسواق في المجتمع الأنديزي.

أما خارج سلطان الإنكا، فكانت الشبكة الأمريكية موجودة لكنها غير محكمة الربط، ولم يكن انتشارها هناك ناتجا من السيطرة السياسية بل من الهجرة والتجارة والتأثير. فانتشرت محاصيل مثل الذرة والمنيهوت على نطاق واسع، ووصلت بعض الممارسات الثقافية مثل ألعاب الكرة في الساحات الخلوية إلى جزر الكاريبي والمكسيك وشمال أمريكا الجنوبية. وللغرابة لم تصل إلى بعض مناطق أمريكا الوسطى. كانت بعض الجماعات، مثل المايا حول جزيرة كوزوميل Cozumel، تتاجر على نطاق واسع، لكن يبدو أن شعوبا أخرى لم تشارك بقوة في التبادل خارج جماعاتها المحلية. وكانت زوارق الكنو تتنقل بانتظام بين جزر الكاريبي، لكن من الواضح أن انتقالها إلى أمريكا الشمالية والجنوبية البريتين كان نادرا.

بيد أن طبيعة الأدلة لا تسمح بالخلوص إلى استنتاجات دامغة، ومن الأحوط أن نقول فقط إن الشبكة الأمريكية كانت كبيرة - لكن متناثرة - عندما وصل كولومبوس إلى المياه الأمريكية. كانت شعوب كثيرة في أقصى شمال الأمريكتين وأقصى جنوبهما وفي جيوب أخرى لاتزال خارج هذه الشبكة، وعلى الرغم من قرون الاتصال والتبادل وبناء الإمبراطوريات الناجح، ظل التنوع الثقافي كبيرا، إذ كان هناك نحو ألفي لغة في العام 1492 لا يفهم كلا منها إلا أصحابها. لكن ذلك كله تغير سريعا.

التشابهات والاختلافات بين الشبكات

كانت الشبكات الواقعة في أوراسيا - أفريقيا وفي المحيط الهادي وفي الأمريكتين مختلفة في نطاقها وفي مدى الترابط وكثافته. لكن تميّزت المناطق جميعها - كبيرها وصغيرها، المدمجة بإحكام أو بغير إحكام - بانخفاض نسبي في تكاليف النقل والمعلومات، إذ كان من السهل نسبيا فيها اكتساب المعرفة حول الظروف في الأماكن الأخرى والسفر وتبادل السلع والأفكار و- من دون قصد - الأمراض. لذلك انتشرت أفضل الممارسات داخل هذه الشبكات بسرعة أكبر منها خارجها، سواء تمثّلت هذه الممارسات في أفضل الطرق لتزويد المراكب بالأشرعة أو بلوغ حياة مُرضية بعد الموت. أدى ذلك إلى اختزال التنوع الثقافي بدرجة كبيرة، إذ توافق الناس - طوعا أو كرها - على مجموعة أصغر من المعايير. لكن في الوقت نفسه، شجعت الشبكات التخصص في الإنتاج وتقسيم العمل، ما شجع التنوع الاقتصادي، إذ تخصصت جماعات مختلفة في نشاطات مختلفة. ربما كان الأهم من ذلك هو أن التخصص والتبادل مكّنا من تحسين استغلال الموارد - ومنها البشر - وخلق ثروة كانت توزع بتفاوت كبير. كان من نتيجة ذلك كله أن جعل المجتمعات الواقعة داخل الشبكات أكثر ثراء وقوة وتراتبية من المجتمعات الواقعة خارجها، وجعلها أقوى مناعيا لأن كثافتها الأعلى وتفاعلها الأسرع كانا ينشران الأمراض أسرع وعلى نطاق أوسع، ما تسبب - مع مرور الوقت وبتكلفة كبيرة في شكل وفيات الأطفال - في نشر مقاومة الأمراض على نطاق واسع بين البالغين الناجين من الأمراض. ميّز ذلك كله المشاركين في الشبكات عن المجتمعات الأكثر انعزالا.

غير أن شبكات العالم لم تكن متساوية، إذ كانت الشبكة الأكبر والأشد كثافة هي الشبكة العالمية القديمة التي شملت المجتمعات الأقوى على الكرة الأرضية من حيث

التقنية العسكرية وتقنية النقل، ومن حيث قدرتها على تركيز السلطة السياسية في أوقات وأماكن مختارة، ومن حيث مقاومتها للأمراض. ربما لم تكن هذه المجتمعات الأسعد حالا في العالم - بل لم تكن كذلك بالتأكيد إذا ما اخترنا وفيات الأطفال أو المساواة الاجتماعية محكات للحكم - لكنها كانت الأقوى من دون شك.

دمج شبكات العالم وتوسيعها خلال الفترة من 1450 إلى 1800

كتب الفيلسوف الأخلاقي الأسكتلندي العظيم ابن القرن الثامن عشر ومهندس الفكر الاقتصادي الحديث آدم سميث أن إبحار كولومبوس إلى الأمريكتين في العام 1492 وإبحار دا غاما حول أفريقيا في العامين 1497 و1498 كانا أعظم حدثين في تاريخ العالم حتى العام 1776. لكن سميث لم يصب غير نصف الحقيقة.

صحيح أن أجزاء كبيرة من العالم كانت - قبل كولومبوس - تعيش في جهل وانعزال كاملين بعضها عن بعض، وأنه لم تترتب نتائج مؤثرة في الاتصالات المتقطعة عبر الأطلسي والهادي، مثل إبحار الإسكندنافيين إلى لابرادور أو - ربما - إبحار البولينيزيين إلى أمريكا الجنوبية(*)، وصحيح أن إبحار كولومبوس يعد الخطوة الأهم في القضاء على ذلك الجهل وتلك العزلة، وفي دمج شبكات العالم في شبكة عالمية واحدة، وهي العملية الأهم في التاريخ الحديث، لكن إبحاره كان مجرد جزء من تلك الرحلة، ومجرد نتيجة لتغيرات واسعة الانتشار في تصميم السفن والمهارة الملاحية حمل شعلتها أناس مجهولون في معظمهم من أنحاء الشبكة العالمية القديمة كافة.

الثورة في تصميم السفن والملاحة

خلال القرن الخامس عشر اجتمع علم أوراسيا وحِرفيتها المهنية لإحداث تغييرين حاسمين في أوروبا الأطلسية، تمثّل الأول في السفينة القوية السريعة القادرة على المناورة، والرخيصة في تصنيعها وتشغيلها، والقادرة على الإبحار في أي مكان في بحار العالم ومحيطاته وعلى حمل كثير من المدافع الثقيلة. وحدث الآخر في مجال المعرفة الملاحية في شكل فهم الانتشار العام للرياح والتيارات البحرية والقدرة على تحويل الملاحظات

(*) لابرادور Labrador: أبعد منطقة إلى الشمال في كندا الأطلسية. [المترجم].

الفلكية إلى فكرة جيدة عن المكان الذي يوجد فيه المرء. ومن خلال هذه التطوُّرات، أصبحت الارتباطات البحرية القوة الموجِّهة في التاريخ الإنساني لنحو ثلاثمائة سنة.

بلغت الابتكارات في تصميم السفن أوجها في السفينة كاملة الأشرعة، التي يرجع ظهورها الأول إلى نحو العام 1420. أحدث الشحن الموسع بين البحر الأبيض المتوسط وبحري الشمال والبلطيق تلاقحا خصبا بين تقاليد كانت لاتزال مختلفة حتى ذلك الحين في تصميم بدن السفينة والأشرعة، تجسدت نتيجته في بناء «سفينة الكرفال» caravel القوية والاقتصادية التي ميّزت البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت الألواح الخشبية فيها تسمَّر في رافدة هيكلية بدلا من تسميرها بعضها في بعض بطريقة متراكبة مثل ألواح البيوت - البناء من خلال تراكب «الألواح» - كما كان سائدا في المياه الشمالية. أدى ذلك إلى توفير الخشب، والأهم من ذلك أنه جعل بدن السفينة أقوى. وشكّلت الدفة الخلفية - تطوَّرت لأول مرة في المياه الصينية وربما تطوَّرت مرة ثانية في بحر البلطيق - تحسُّنا في إمكانية المناورة عن ممارسات إنزال مجداف التوجيه السابقة. ثم أنتج الجمع بين الممارسات الأوروبية الشمالية والبحر متوسطية في الأشرعة تحسُّنا في السرعة وإمكانية المناورة. كانت السفينة كاملة الأشرعة تحتوي ثلاث سَوارٍ وتحمل كلا من الأشرعة المربعة الملائمة لاستغلال الرياح المواتية والأشرعة المثلثة الأفضل للإبحار ضد الرياح. ومع تحسُّن إمكانية المناورة، باتت السفن قادرة على العمل بلا مجاديف ولا مجدفين، إذ كان الأخيرون مطلوبين في السابق ضمانا للرياح غير المواتية. لذلك كانت السفينة كاملة الأشرعة أرخص في تشغيلها وتصنيعها. ومكّنت الهياكل والأشرعة الجديدة من بناء سفن أكبر وقادرة في الوقت نفسه على الإبحار. كان أكبر هذه السفن يسمى القرقور carrack، التي بلغت حمولتها خمسمائة طن بحلول العام 1450 ثم ألفي طن بحلول العام 1590، وكانت بذلك أكبر سفينة خشبية تبنى على الإطلاق، حتى إنه قد أُعِد ملعب تنس فوق واحدة من هذه السفن لأحد ملوك فرنسا خلال القرن السادس عشر. كانت السفينة كاملة الأشرعة قادرة على المناورة في أي رياح، وكانت قوية بما يكفي لمقاومة عصف البحار الهائجة. بيد أن السفينة الجيدة كانت من نوع المعدات، بينما ظلت المعرفة التشغيلية في حاجة إلى التطوُّر.

وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أنتج انصهار مماثل في المعرفة المكوِّن التشغيلي المطلوب لتوحيد العالم. ففي أيبيريا، اجتمعت تقاليد علم الفلك والرياضيات

العربية التي نقلها في الأغلب دارسون يهود مع الملاحظات والخبرة العملية التي تكوّنت لدى البحّارة الإسبان والبرتغاليين، لتوليد علم رياضيات حقيقي للملاحة. ومع توافر الآلات والخرائط والجداول المناسبة، أصبح ربابنة البحار قادرين على معرفة خطوط العرض بدقة كبيرة، ما مكّن من الإبحار الواثق إلى جزر أطلسية مثل ماديرا والأزور Azores وكناري بحلول العقد الثالث من القرن الخامس عشر. وبدأ الملاحون البرتغاليون والإسبان في التمكن من المثلث الأطلسي الواقع بين أيبيريا وغرب أفريقيا وجزر الأزور. وكانوا في العام 1442 - إن لم يكن قبله - يستخدمون سفينة الكرفال الصغيرة السريعة ذات الشراعين المثلثين المركبين على ساريتين للإبحار جنوبا على طول ساحل غرب أفريقيا، إذ تميّزت هذه السفينة بقدرتها على الإبحار ضد الرياح، ما مكّنهم من العودة إلى البرتغال بالإبحار في عكس اتجاه الرياح التجارية. وعندما أدرك البرتغاليون أنهم يستطيعون أن يبتعدوا بأمان عن الساحل الأفريقي ويبحروا إلى وسط الأطلسي ويتوجهوا شمالا ثم يبحروا مع الرياح الغربية السائدة للعودة إلى الوطن، بدأوا في استخدام سفن أكبر في رحلاتهم إلى أفريقيا. وأقاموا في العام 1482 محطة تجارية فيما يعرف حاليا باسم غانا، ووصلوا في العام 1488 إلى رأس الرجاء الصالح، وأدركوا أن الرياح في نصف الكرة الأرضية الجنوبي تتبع نمطا معاكسا لنظيره في نصف الكرة الأرضية الشمالي. وفي العام 1498 أبحر فاسكو دا غاما في المحيط الهندي، وهناك اعتمد على خدمات ربان محلي قاد قرقوره من ساحل شرق أفريقيا إلى الهند(*). وسرعان ما حصّل البرتغاليون المعلومات الشائعة حول أنماط الرياح الموسمية بالمحيط الهندي، وسعوا في الوقت عينه إلى أن تظل معرفتهم بالرياح الأطلسية ورياضيات الملاحة حكرا عليهم.

السفن والسياسة

وعلى ذلك، فإنه بحلول العقد الأخير من القرن الخامس عشر، كان البرتغاليون يمتلكون المعرفة والتجهيزات اللازمة للإبحار إلى أي مكان يريدونه في أعالي البحار.

(*) حدث ذلك في مدينة ماليندي على ساحل ما يُعرف حاليا باسم كينيا، التي اصطحب فيها دا غاما بحّارا مسلما محليا ليساعدهم في العبور النهائي إلى كاليكوت الهندية. يقال إن هذا البحّار هو أحمد بن ماجد العُماني الشهير، مؤلف أحد الكتب العربية الأساسية حول الملاحة. وثمة من يدفعون باستحالة أن يكون هذا البحّار هو تلك الشخصية البارزة، بل مجرد بحّار من الغوجاراتيين. [المترجم].

ولكي يفعلوا ذلك في أمان، ولكي يحصلوا على ما يريدون من إبحارهم، وجدوا أنفسهم في حاجة إلى ابتكار آخر، هو المدافع المثبتة على متن السفن، وكانت سفينة القرقور الكبيرة والقوية قادرة على حمل مجموعة كاملة من المدافع لم يكن في وسع السفن الأخرى في العالم آنذاك أن تحملها. وحتى السفن الكبيرة في المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي لم تكن تتمتع ببنية الرافدة القوية التي ميّزت سفينة القرقور، وكانت عرضة للتحطم إذا تعرضت لارتداد مدفع ثقيل. وفي العام 1509، وقبالة ميناء ديو الهندي، ربح البرتغاليون أول معركة بحرية لم تتضمن صدم سفن العدو أو اعتلاءها(*). وبحلول العام 1530 كان البرتغاليون وغيرهم قد شيّدوا سفنا مصممة وفقا لمتطلبات المدافع، مع وضع المدافع وقواعدها على جانب السفينة فوق خط الماء. وبعد العام 1550 أصبحت السفن الحربية والتجارية في أوروبا الأطلسية مختلفة هيكليا، وصار أي ملك أو دولة مدينية تريد البقاء على صفحة البحار مضطرة إلى أن توفر المال لبناء السفن الحربية، وهو ما أثر بشدة في السياسة الأوروبية لاحقا.

أثرت السياسة في العملية التي جمع الأوروبيون من خلالها أطراف شبكات العالم معا، ذلك أن جمع الدارسين وربابنة البحار الذين أنتجوا المعرفة الملاحية الحاسمة على صعيد واحد قد تطلب رعاية الدولة، وهو العمل الذي أنجزه الأمير هنري الملاح (1394-1460) باستخدام روابطه العائلية لضمان دعم التاج البرتغالي والبابوية. تبنى الأميرُ دارسين يهودا من إسبانيا وأقام مدرسة للملاحة في ساغريس، وعلى الرغم من حماسته الصليبية لمقاتلة الإسلام، فإنه لم يجد مانعا من استخدام العلم الإسلامي(**). وبعد موت هنري، تراخى الدعم الرسمي البرتغالي لرحلات ما وراء البحار بعض

(*) كانت معركة ديو Battle of Diu البحرية أو معركة شول الثانية The Second Battle of Chaul في الثالث من فبراير 1509 إيذانا بانتهاء سيطرة المسلمين على طرق الملاحة البحرية وانتقال هذه السيطرة إلى البرتغال وما تبعها من قوى أوروبية تدخلت في المنطقة. [المترجم].

(**) على خلاف شخصية الحالم والقديس، يظهر الدوم هنري في الروايات التعديلية الأخيرة شخصية عادية حرّكتها مجموعة أهداف وتطلعات كانت تتجذر داخل عقلية الفروسية والحروب الصليبية التي جمعت الدوم مع معاصريه جميعا، وبدأت مسعاها بلا خطة كبرى للتوسُّع البرتغالي فيما وراء البحار. وعلى خلاف ما هو شائع، لم يكن الدوم متعلما ولا حتى مهتما بالملاحة على وجه الخصوص. ويمكن وصف رحلات «الاستكشاف» الكثيرة التي رعاها الدوم - لكنه لم يشارك فيها - على نحو أدق بأنها كانت حملات مستقلة نفّذها صيادون عبيد وقراصنة. أما مدرسة العلم الملاحي التي ينسب إليه الفضل في تأسيسها في ساغريس Sagres، فيبدو أنها لم تظهر إلى الوجود قط إلا في عقول مؤرخي القرن التاسع عشر. راجع كتاب Giancarlo Casale, The Ottoman Age of Exploration (Oxford University Press, 2010). [المترجم].

الشيء، لكنه انتعش بقوة بحلول العقد قبل الأخير من القرن الخامس عشر، ولذلك كان البحّارة البرتغاليون أول من دار حول رأس الرجاء الصالح، وأول من ربط الأطلسي مباشرة بدوائر التجارة بالمحيط الهندي.

وسرعان ما اكتسبت ممالك أوروبية أطلسية أخرى المعرفة البحرية اللازمة لمحاكاة البرتغاليين. فوفّرت إسبانيا - المنافس السياسي للبرتغال - الرعاية لكولومبوس بعد أن رفضه البرتغاليون (أبحر ربان مدعوم من البرتغال يدعى فرديناند فون أولمن Ferdinand von Olmen صوب الغرب في العام 1487 ولم يعد). وقدمت إنجلترا الدعم للبحّار الإيطالي - مثل كولومبوس - جون كابوت John Cabot، الذي أبحر إلى نيوفاوندلاند في العام 1497. وعلى مدار القرن التالي أرسلت الدول الأوروبية الأطلسية عشرات البعثات البحرية عبر أعالي البحار بغرض التجارة والنهب والمعرفة الجغرافية وهداية الأرواح. وبحلول العام 1580 كانت هذه الدول قد جمعت معرفة جغرافية دقيقة نوعا ما عن معظم سواحل العالم، بينما ظل المحيط الهادي الشاسع يخفي عنهم بعض أسراره حتى أواخر القرن الثامن عشر عندما نجح ملاحون، منهم الربان جيمس كوك James Cook وجورج فانكوفر George Vancouver اللذان عملا لحساب بريطانيا العظمى، في وضع خرائط للسواحل والتيارات من أستراليا إلى ألاسكا، اعتمادا على الآلات الجديدة القادرة على تحديد خطوط الطول بدقة. وبحلول العام 1794، الذي أكمل فيه فانكوفر مسح ساحل المحيط الهادي لأمريكا الشمالية، كان الأوروبيون الأطلسيون قد وضعوا خرائط لكل شريط ساحلي مهم على الكرة الأرضية، ووضعوا كل الجماعات الساحلية حول العالم ضمن شبكة متفاعلة واحدة. وعلى ذلك فإن رحلة كولومبوس في العام 1492 التي دشّنت دمج الأمريكتين في هذه الشبكة الساحلية العالمية كانت الخطوة الأهم على الإطلاق، لكنها لم تكن الخطوة الوحيدة في عملية تراكمية طويلة بدأت بالرحلات البرتغالية إلى الجزر الأطلسية القريبة وانتهت بكوك وفانكوفر، وهي عملية كانت في حاجة إلى دعم حكومي.

السفن الصينية

توافر دعم من هذا النوع، وبمستوى لم يبلغه الأوروبيون الأطلسيون، للأدميرال تشنغ خه (نحو 1371 - 1435) الذي قاد ست بعثات صينية إلى المحيط

الهندي بين العامين 1405 و1433(*). ففي صيف العام 1415، وبينما كان الأمير هنري الملاح يشارك في حملة برتغالية ضد بلدة سبتة المغربية، كان تشنغ خه في هرمز على فم الخليج العربي في البعثة الرابعة من بعثاته الست. وفي حين كان الأمير هنري على بعد نحو مائتي ميل من بلاده، كان تشنغ خه قد أبحر نحو خمسة آلاف أو ستة آلاف ميل بعيدا من قاعدته. وكانت سفن تشنغ خه من ستة إلى عشرة أضعاف حجم أكبر السفن التي قادها كولومبوس لاحقا، وثلاثين ضعف حجم السفينة الوحيدة التي قادها جون كابوت في العام 1497. أبحر كولومبوس في بعثته الكبرى - الثانية بين بعثاته الأربع - بسبع عشرة سفينة وزهاء ألف وخمسمائة رجل، في حين شملت البعثة الأولى لتشنغ خه ثلاثمائة وسبع عشرة سفينة ونحو سبعة وعشرين ألف بحّار. وضمت رحلة كولومبوس في العام 1492 تسعين رجلا فقط، ورحلة كابوت نحو ثمانية عشر رجلا، وحتى الملاح البرتغالي فرديناند ماجلان Ferdinand Magellan، الذي عمل لحساب إسبانيا وقاد البعثة الأولى للدوران حول الكرة الأرضية، قد أبحر بطاقم مكوّن من مائتين وسبعين رجلا فقط، أي واحد في المائة فقط من حجم طاقم تشنغ خه. كان عدد سكان البرتغال التي عمل الأمير هنري لحسابها زهاء مليون نسمة (كان عدد سكان إسبانيا في العام 1492 ستة ملايين)، فيما كان عدد سكان الصين في العام 1415 نحو مائة وخمسة عشر مليونا، وكانت عائداتها الحكومية نحو مائة ضعف عائدات البرتغال. وعلى الرغم من ذلك، فقد تلاشى الدعم الحكومي في الصين، وازدهر في البرتغال. وبعد العقد الرابع من القرن الخامس عشر، كانت لدى الأباطرة المينغيين أولويات أخرى، وبحلول العام 1470 كانت المهارات المطلوبة لبناء السفن الكبيرة قد تبدّدت.

بيد أن الرحلات الصينية أنتجت بعض الفوائد، إذ تراكمت المعرفة الملاحية والجغرافية على الرغم من الجهود المينغية للحيلولة دون ذلك. فقد حصدت رحلات تشنغ خه معلومات هائلة عن مياه المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا،

(*) ينتمي الأدميرال الصيني تشنغ خه Zheng He إلى أسرة مسلمة خوارزمية من بخارى، واسمه العربي حجي محمود شمس، خدم جده الخامس سيد شمس الدين عمر إمبراطورية يوان المغولية حاكما لولاية يونان، وساعد تشنغ الإمبراطور تشو دي (يونغلي) في اغتصاب السلطة من ابن أخيه جيانوين Jianwen. [المترجم].

شقّت طريقها إلى خرائط وأدلة المسارات ومخططات النجوم وما شابهها، ووصلت إلى أناس غير حكوميين حتى بعد أن أمر وزير الحربية بإحراق النسخ الرسمية منها. وتحسّنت هذه المعرفة باطراد عن طريق تقارير الرحلات غير القانونية، وفي العام 1537 نشر بعضها في كتاب بعنوان «الطريق لعبور المحيط» Route for Crossing the Ocean، تلاه كثير من الكتب والخرائط وأدلة المسارات المماثلة. وبحلول العقد الثامن من القرن السادس عشر، كان المينغيون قد خفّفوا حظرهم للتجارة البحرية، ما أدى إلى ازدهارها ودخول سلع اليابان وكوريا والصين وجنوب شرق آسيا في سوق بحرية عملاقة واحدة، ما أحدث نتائج كبرى على أنحاء المنطقة كلها.

لكن الأوروبيين الأطلسيين كانوا في ذلك الوقت في طريقهم إلى المعرفة البحرية العالمية. وفي العام 1793 الذي أكمل فيه جورج فانكوفر تلك المهمة، قال الإمبراطور تشيان لونغ Qianlong (حكم 1736 - 1795) لمبعوث بريطاني إلى بيجين، كان يسعى إلى التوصل إلى اتفاقية تجارية مع الصين، إن بلاده غير مهتمة ببلد صغير «تقطعه عن العالم بحار شاسعة»، وهو استشراف كشف في الوقت عينه عن قوة الصين الحقيقية وعجز الإمبراطور المسن عن إدراك أن البحار هي التي وحّدت العالم في شبكة واحدة في العام 1793.

توسُّع الشبكة في أفريقيا

كانت أفريقيا ضمن أول توسُّع بحري كبير للشبكة. ففي العام 1450، كانت أفريقيا البحر متوسطية وإثيوبيا وبلاد السودان وساحل شرق أفريقيا جزءا من الشبكة العالمية القديمة، لكن بقية القارة لم تكن كذلك. ساعدت البيئة المَرضية الخطرة وندرة الأنهار الصالحة للملاحة والمهارات العسكرية الجيدة في إبعاد الدخلاء عن أفريقيا الاستوائية والجنوبية حتى بعد العام 1800، باستثناء بعض الحالات. وبدأت ارتباطات بحرية جديدة في تغيير ذلك بعد العام 1440، لكن على نحو انتقائي فقط. وفي شرق أفريقيا بين نهر الزمبيزي وإثيوبيا، لم يتوسّع التفاعل مع الشبكة عن طريق المحيط الهندي إلا قليلا. وسيطر ملاحون برتغاليون على عدة موانئ ساحلية (1505 - 1520)، لكن هذه المدن كانت على اتصال وثيق

منذ قرون مع العوالم العربية والفارسية والهندية. وتوغل البرتغاليون ونسلهم البرتغاليون الأفارقة داخل القارة أعلى نهر الزمبيزي وإلى إثيوبيا، لكنهم لم يسقطوا ممالك أو يستوطنوا هناك. ولم تخترق المسيحية أو الإسلام بعيدا في شرق أفريقيا الداخلي، إلا لاحقا. وسادت هناك تجارة متواضعة في العبيد والعاج، بالدرجة الأولى إلى بلاد العرب والهند، شملت نحو ألف عبد سنويا قبل العام 1720، وبعدها رفع النخاسون البرتغاليون في موزمبيق مستويات هذه التجارة عاليا. بينما ظل معظم شرق أفريقيا وراء الساحل منعزلا بشكل أو بآخر عن الاتصالات طويلة المسافات، وظل ريفيا بالدرجة الأولى ومنخرطا في كفاح بطيء لشغل الأرض بالقرى والمحاصيل والماشية.

وفي المقابل، انضم رأس جنوب أفريقيا كليا إلى الشبكة فجأة، إذ كانت السفن البرتغالية - وبعد العام 1600 السفن الهولندية - المتجهة إلى المحيط الهندي تتوقف في رأس الرجاء الصالح طلبا للماء والغذاء والراحة. تتميّز كيب بمناخ بحر متوسطي وأمطار شتوية، لكنها محاطة من ناحية البر بمناطق قاحلة(*). وفي العام 1652 أنشأت شركة الهند الشرقية - المعروفة بالاختصار الهولندي «في أو سي» VOC - محطة تجارية دائمة هناك وبدأت اتصالات منتظمة مع الجماعات المحلية. كان جنوب أفريقيا على مدى آلاف السنين موطنا لجماعات رعوية تسمى الخويخوي وجماعات صيد وجمع تسمى السان(**)، بلغ عددهم في منطقة كيب وفقا لأحد التقديرات خمسين ألفا. ووجدت شركة الهند الشرقية الهولندية أن قبائل الخويخوي والسان لا تستطيع أن توفر الإمدادات المطلوبة لرحلاتها الطويلة، وبحلول العقد الثامن من القرن السابع عشر، كانوا قد جلبوا مزارعين إلى كيب وجعلوها مستعمرة زراعية اعتمدت بالدرجة الأولى منذ بدايتها على عبيد كانوا يشترون أو يُؤْسرون من بين الخويخوي، أو يُجْلبون من الهند أو إندونيسيا أو مدغشقر، أو على نحو متزايد بحلول القرن الثامن عشر من موزمبيق. وتطوّر الاقتصاد بما يلائم احتياجات السفن

(*) كيب Cape أو كيب كولوني Cape Colony: هو الاسم الذي أطلق على منطقة رأس الرجاء الصالح Cape of Good Hope، وعاصمتها كيب تاون Cape Town. [المترجم].

(**) السان San: اسم آخر لجماعة البوشمن Bushmen التي تعرف هي وجماعة الخويخوي Khoikhoi باسم الخويسان Khoisan، وذلك لأنهما تختلفان في الصفات الجسدية واللغوية عن الأغلبية التي تقطن المنطقة من جماعات البانتو Bantu. [المترجم].

العابرة، ولذلك برز فيه القمح واللحم والنبيذ والبغايا. وفي العام 1713 جاءت سلالة قاتلة من الجدري من بعض شواطئ المحيط الهندي مع سفينة أنزلت بياضاتها على البر للغسل، ما سبّب موت ربع سكان كيب وزهاء تسعين في المائة من الخويخوي الذين كان مجتمعهم يترنح من قبل بسبب غارات صيد العبيد. وانتشر الجدري مرتين أخريين - في العام 1755 وخلال العقد قبل الأخير من القرن الثامن عشر - طال تأثيرهما - إلى جانب الخويخوي - الجماعات الناطقة بلغة البانتو الواقعة إلى شرق كيب في الأجزاء من جنوب أفريقيا التي تسمى حاليا ترانسكي Transkei وناتال Natal.

انتشرت اللغة الهولندية والمذهب الكالفيني للكنيسة الإصلاحية الهولندية ببطء بين جماعة العبيد والباقين على قيد الحياة من أحرار قبائل الخويخوي. وفي العام 1700 كان هناك مسلمون مكّنهم عددهم من رفع التماس إلى مسؤولي شركة الهند الشرقية الهولندية لإقامة مسجد. وفي العام 1800 كانت كيب تضم نحو عشرين ألف مستوطن أوروبي، معظمهم من الهولنديين، وخمسة وعشرين ألف عبد، معظمهم من أصول أفريقية جنوبية. كانت كيب بذلك جزيرة صغيرة للكوزموبوليتانية في جنوب أفريقيا(*)، لكنها مع ذلك كانت لاتزال خارج الشبكة العالمية.

كانت تجارة العبيد الشكل الرئيس للمشاركة المتنامية لمعظم أفريقيا في الشبكة. فكانت أفريقيا جنوب الصحراء تصدّر العبيد لأكثر من ألف سنة قبل أن تبدأ تجارة العبيد الأطلسية. لكن التجارة عبر الصحراء الكبرى والبحر الأحمر والمحيط الهندي كانت متواضعة في حجمها، ثم تغيّرت أهمية تجارة العبيد وحجمها عندما وحّد الأوروبيون الأطلسيون سواحل العالم. بدأ البحّارة البرتغاليون في أسر الأفارقة السود أول مرة في العام 1441، وأطلقوا تجارة عبيد محدودة إلى البرتغال، ولاحقا إلى جزر ماديرا وكناري. كان نجاح زراعة السكر بعمالة من العبيد - وفي المغرب التي أقامت سلالة السعديين فيها اقتصادا قائما على مزارع السكر بعمالة من العبيد - إلهاما لمزارع مماثلة أولا في ساو تومي São Tomé وغيرها من الجزر الواقعة قبالة الساحل الأفريقي، وبعد ذلك في البرازيل. وبدأت رحلات العبيد عبر

(*) تشير الكوزموبوليتانية cosmopolitanism إلى التعددية في الإثنية والدين واللغة والثقافة وما إليها التي تجمع العالم على اختلافه في مكان واحد أو إنسان واحد. [المترجم].

الأطلسي - إلى البرازيل - في العام 1534، أولا من سواحل السنغال وغانا الحديثتين بالدرجة الأولى(*). وفي النهاية، صارت صادرات العبيد إلى الأمريكتين تأتي من كامل الساحل الغربي من السنغال إلى أنغولا، وبحلول القرن الثامن عشر من موزمبيق وشرق أفريقيا كذلك.

وقبل إنهاء تجارة العبيد (1850 - 1880)، كان ما بين أحد عشر مليونا وأربعة عشر مليونا من العبيد قد غادروا أفريقيا، لم ينجُ منهم من «الرحلة الوسطى» ويصل الشواطئ الأمريكية غير خمسة وثمانين في المائة(**). ذهب نحو أربعين في المائة منهم إلى البرازيل، وذهبت نسبة مساوية إلى الكاريبي، ونحو خمسة في المائة إلى ما عرفت لاحقا باسم الولايات المتحدة، وانتهى الحال بالباقين إلى المكسيك وكولومبيا وبيرو وبقية أمريكا الإسبانية البرية. بلغت رحلات العبيد ذروتها خلال العقد قبل الأخير من القرن الثامن عشر بنحو ثمانين ألف عبد سنويا. وعلى مدار عمرها الذي دام أربعمائة سنة، كان حجم هذه التجارة في المتوسط نحو عشرة أضعاف حجم تجارة العبيد عبر الصحراء الكبرى والبحر الأحمر والمحيط الهندي.

كان لدى النخاسين الأوروبيين - بفضل انتشارهم العالمي - كثير مما يمكن أن يقدموه لنظرائهم الأفارقة. فكان البرتغاليون - في بادئ الأمر - يشترون العبيد الأفارقة لمبادلتهم بالذهب الأفريقي على ساحل الذهب. لكنهم عندما وجدوا استخدامات أكثر ربحية للعبيد، بادلوهم بالخيل بدلا من الذهب. وبحلول القرن السابع عشر، كانت تجارة العبيد جزءا من الشبكة التجارية العابرة للقارات والمحيطات، وهي

(*) على رغم أنه لا توجد تقديرات دقيقة، فإن أكثر من سبعمائة وخمسة وخمسين ألفا قد استعبدوا من سنغامبيا التي كانت مسلمة في أغلبيتها، فضلا على المسلمين الذين استُعبدوا من المناطق الأخرى التي لم يكن المسلمون يشكلون فيها أغلبية أو نقلوا منها فقط إلى عالم العبودية. راجع كتاب «عباد الله». وقد انطلقت تجارة العبيد في العام 1501، لكنها في البداية ربما اقتصرت على اللادينو Ladino أو الزنوج «المتحضرين» أو «السود المُلتَنين» Latinized Blacks، وهم الأفارقة الذين كانوا يبعدون إلى أمريكا الإسبانية أو البرتغالية بعد قضاء بعض الوقت في قشتالة أو لشبونة، ثم جاءت لاحقا التجارة في البوسال bozales أو الأفارقة المغلولين muzzled blacks وهم الأفارقة الذين أسروا من أفريقيا وغُلوا من رقابهم لمنع هروبهم وأخذوا إلى الأمريكتين مباشرة. [المترجم].

(**) تشير الرحلة الوسطى middle passage أو الرحلة الأطلسية Atlantic passage إلى رحلات نقل العبيد من غرب أفريقيا إلى العالم الجديد التي شكلت الضلع الأوسط مما كان تجارة مثلثية نقل خلالها ملايين الأفارقة إلى العالم الجديد كجزء من تجارة العبيد عبر الأطلسي. نشأت مثلثية هذه التجارة من أن السفن كانت تبدأ رحلتها من أوروبا محملة بالبضائع إلى أفريقيا (الضلع الأول للمثلث) التي كانت تبادل فيها بالعبيد ثم تأخذهم إلى الأمريكتين (الضلع الثاني أو الأوسط للمثلث)، وهناك كان العبيد يباعون أو يبادلون بمواد خام، كانت تنقل بعد ذلك إلى أوروبا (الضلع الثالث للمثلث)، لتبدأ الرحلة من هناك من جديد. [المترجم].

تجارة يسّرها نوعان من النقود: الفضة والأصداف. مكّنت الفضة الأمريكية تجار العبيد الأوروبيين من شراء سلع جنوب آسيا لسوق غرب أفريقيا. كانت الأقمشة من الهند وأوروبا سلعة الاستيراد الأساسية إلى غرب أفريقيا، وكانت تكمّلها مئات السلع الأخرى، منها الحديد الخام والنحاس والتبغ والكحول والبنادق والأصداف، التي كانت تجمع من المحيط الهندي - بالدرجة الأولى من جزر المالديف - وتُشترى في الأغلب بفضة أمريكية، للاستخدام في غرب أفريقيا عملة أساسية. وفي العام 1720 استخدمت الأصداف المستخرجة من المحيط الهندي في شراء نحو ثلث العبيد المبيعين من ساحل غرب أفريقيا. ومن أجل الحصول على هذه السلع والأصداف، كان تجار الساحل الأفريقي يشترون العبيد والذهب من الداخل الأفريقي.

أعطى ذلك التجار والخاطفين والأمراء في الداخل الأفريقي حافزا قويا لاسترقاق مزيد من البشر. وبسبب التجارة الأطلسية، استعبد هؤلاء نحو خمسة وعشرين مليون إنسان، مات كثيرون منهم قبل أن يباعوا للتجار المتمركزين على ساحل الأطلسي. وقد دخلت هذه الملايين العبودية إما كأسرى حرب وإما بالاختطاف أو لصدور أحكام قضائية باسترقاقهم بسبب إدانتهم أو قريب لهم بجريمة(*).

بيد أن الأسباب النهائية التي جعلت كثيرين يواجهون هذا المصير كانت توجد في أماكن أخرى. كان للسكر سوق رائجة في أوروبا، وللتبغ في كل مكان تقريبا، وكانت الحاجة ماسة إلى كثير من السواعد القوية لزراعة هذين المحصولين في الأمريكتين اللتين تقعان على نحو مواتٍ في الاتجاه الذي تهب منه الرياح على أسواق أوروبا. ولم يكن عدد الجماعات الأميريندية (انظر ما يلي) الآخذ في التراجع كافيا لهذا العمل، وكان في مقدورهم أن يهربوا بسهولة في المناطق التي كانوا يعرفونها جيدا. جرب مُلاك المزارع العمال الملزمين الأوروبيين وقليل من العبيد الأيرلنديين والأسكتلنديين(**)، لكنهم بعد العام 1640 وجدوا أن هؤلاء العمال مكلفون وقصار العمر، إذ كانوا يموتون سريعا عندما تحصنت الملاريا والحمى

(*) يوجد فصل كامل في كتاب «عباد الله» يشرح الظروف التي أسر خلالها العبيد من غرب أفريقيا «المسلم»، وإشارات إلى أفريقيا عموما. [المترجم].

(**) العامل المُلزَم indentured worker: عامل كان يبيع عمله لعدد معين من السنوات لصاحب عمل في المستعمرات في مقابل نقله إلى العالم الجديد، وهي عملية كان يجريها ربابنة السفن نيابة عن أصحاب الأعمال في المستعمرات البريطانية. [المترجم].

الصفراء في المناطق الاستوائية الأمريكية بحلول العام 1650. وفي المقابل، كان العبيد الأفارقة أرخص وكانت متوسطات أعمارهم المتوقعة في أمريكا الاستوائية أطول. لذلك كانوا يُشتَرون، لكن لماذا كانوا يباعون في المقام الأول؟

كان الناس في أفريقيا يحسبون الثروة عادة بعدد البشر، أي عدد الأطفال والزوجات والخدم والعبيد، وذلك لأن البشر في أفريقيا كانوا أكثر ندرة من الأرض. وكانت كثرة عدد الأتباع تعني المكانة والسلطة والثراء والأمان. ومن أجل بلوغ ذلك، كان لزاما - للمفارقة - بيع العبيد، فإذا تمكن أحدهم من الحصول على العبيد بتكلفة زهيدة من خلال الأسر وبيعهم في مقابل البنادق أو الأصداف أو الحديد، فإنه كان يستطيع أن يجمع مزيدا من الزوجات والأبناء وأن يختطف مزيدا من العبيد، ما يعني باختصار أنه كان يجمع ثروة من خلال إعادة الاستثمار. كان الاحتفاظ بالعبيد أمرا غير عملي، لأنهم كانوا يستطيعون الهرب بسهولة إن لم يباعوا بعيدا من أوطانهم، ولأن الزوجات والأبناء والأتباع كانوا أعلى قيمة وأكثر تعاونا وأقل سخطا من العبيد، ولأن العائلة الممتدة وفّرت مكافآت وجدانية أجدى من الاحتفاظ بالعبيد. وقد كان الأفارقة يريدون النساء والأبناء عبيدا في المقام الأول لأنهم كانوا في معظم المجتمعات يقومون بالأعمال الزراعية، وكانت السوق الأطلسية تدفع في العبيد الذكور أكثر من النساء، ولذلك كان من المعقول بيع الذكور للتجار المتمركزين على الساحل. وبسبب الارتباطات التي أوجدها السوق من خلال توسيع الشبكة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، اغتنى كثير من الأفارقة ونالوا المكانة من خلال تحويل العبيد - بطريقة غير مباشرة - إلى عائلة وأتباع، إذ كانوا يبيعون بعضهم للحصول على آخرين أكثر نفعا.

مارست السياسة دورا، إذ شنّ الحكام الأفارقة حروبا من أجل أهدافهم، وكانوا خلالها يحصلون على الأسرى. كان الاحتفاظ بالأسرى يسبب مشكلات، ولذلك كان بيعهم لساحل الأطلسي خيارا أجدى. سياسيا، كان الهجوم على العدو والاستيلاء على أكثر ما يمكن من جنوده وبيعهم عملا مفيدا. وفي الأساس من ذلك كله، كانت توجد حقيقة أن النخاسين الأفارقة لم يكونوا يشغلون أنفسهم بمصير العبيد الأفارقة، تحديدا بسبب غياب الإحساس بهوية أفريقية مشتركة.

كان تأثير تجارة العبيد في أفريقيا غير مباشر بالدرجة الأولى. فلم يشكّل الخمسة والعشرون مليونا الذين استعبدوا على مدار أربعمائة سنة غير نسبة صغيرة - لكن غير معلومة - من السكان. وحتى في أنغولا التي ربما كان تأثير تجارة العبيد فيها أكبر مما عداها، كان ما بين خمسة وعشرة أضعاف من يُستَعبدون يموتون سنويا لأسباب طبيعية، وكان احتمال تعرض الأنغوليين للاسترقاق يبلغ نحو خمسة أضعاف احتمال تعرض الأمريكيين حاليا للموت بسبب حوادث المرور. فمع أن التأثير السكاني لتجارة العبيد كان مدمرا في بعض الأزمان والأماكن، فإنه في أفريقيا ككل ربما كان صغيرا[1].

بيد أن التأثير الإجمالي لتجارة العبيد كان كبيرا. فسياسيا، شجعت تجارة العبيد إقامة الدول وتوسيعها، إذ وجدت المجتمعات التي كانت بلا دول، مثل الإيبو Igbo في جنوب شرق نيجيريا، أنفسها في خطر كبير، ولذلك كان عليها أن تحتفظ بالسلاح في متناول أيديها وهي تعمل في الحقول وتحتفظ بالأطفال في أماكن محصنة. فقد عسكرت تجارة العبيد المجتمعات الأفريقية في أجزاء كثيرة من القارة، ما شكّل تشجيعا لأمراء الحرب - رواد الأعمال الذين تحدوا الوضع الراهن بثرائهم السريع وطرقهم العنيفة. كانت هذه التجارة في مصلحة الدول اللصوصية - مثل أشانتي وداهومي في غرب أفريقيا - التي تخصصت في أسر العبيد من المجتمعات المجاورة الأضعف في الدفاع عن أنفسها(*). فاقتصاديا، كانت تجارة العبيد في مصلحة الشعوب اللصوصية التي عاشت على عوائد الاسترقاق واستثمرت إيراداتها في الخيل والأسلحة - ربما دخلت أفريقيا عشرون مليون بندقية من خلال تجارة العبيد - لتنفيذ مزيد من غارات صيد العبيد، بدلا من استثمارها في أشياء تعود بنفع أكبر على المدى البعيد. وسرّعت هذه التجارة تتجير المجتمعات الأفريقية من خلال تكثيف النقل عبر طرق تجارة المسافات الطويلة. أما ثقافيا، فربما شجعت تجارة العبيد انتشار الإسلام؛ ذلك أن الشريعة الإسلامية تحرم استرقاق المسلمين، ولذلك أعطى الإسلام معتنقيه أملا في الإفلات من النخاسين المسلمين في منطقة

(*) أشانتي Asante (1701 - 1957): مملكة أقامها شعب الأكان Akan في مكان دولة غانا الحالية منطلقين من موطنهم منطقة أشانتي ومعتمدين على الأسلحة النارية.

وداهومي Dahomey (1600 - 1894): مملكة أفريقية أقامها شعب الفون Fon في مكان دولة بنين الحالية، انتهت في العام 1894 عندما ضمها الفرنسيون إلى الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية باسم داهومي الفرنسية. [المترجم].

السافانا بغرب أفريقيا(*). واجتماعيا، أثبتت تجارة العبيد أنها مسببة للخلاف والشقاق، إذ غدا النخاسون الناجحون أغنياء وأقوياء، وكان على الأفراد العاديين أن يتحركوا بحذر. وآثرت بعض المجتمعات وبعض التجار ألا يتاجروا في العبيد، بينما رأت مجتمعات أخرى أنهم يجب أن ينخرطوا فيها خشية أن يكونوا هم أنفسهم ضحاياها(**). ولايزال الناس في كثير من أجزاء أفريقيا يتذكرون حتى الآن مَنْ من رفاقهم كان أسلافهم نخاسين ومَنْ منهم كانوا عبيدا.

بيد أن تأثير تجارة العبيد لم يكن متساويا. فقد أبيدت بعض الشعوب عن بكرة أبيها، وكانت الشعوب الأكثر عرضة لهذا المصير هي الجماعات سيئة التنظيم الدفاعي والقريبة من فرسان مسلحين. كانت منطقة السافانا بغرب أفريقيا التي كانت الخيل فيها بالغة الأهمية، أكثر عنفا من غيرها، وكذلك أنغولا التي لم تكن الخيل مهمة فيها. وبحلول العام 1800 كانت تجارة العبيد قد شقّت طريقها بعيدا في الداخل الأفريقي، لكنها لم تصل إلى كل مكان، إذ لم تصل قط إلى منطقة الغابات المطيرة الاستوائية الوسطى التي ظلت مع ذلك قليلة السكان.

ومن خلال تجارة العبيد، دخلت سواحل أفريقيا الأطلسية ضمن الشبكة، وغدا النخاسون على ساحل الأطلسي طليقين في اللغات الأوروبية، وتبنى بعضهم الألبسة والعادات الأوروبية. ودخلت السلع التجارية والمحاصيل الغذائية من حول العالم إلى أفريقيا الأطلسية. وفيما وراء الساحل توسّعت المشاركة في الشبكة من خلال تجارة العبيد.

لم تؤثر عولمة الشبكة بشدة في ساحل شرق أفريقيا، وذلك لأنه كان منضويا بقوة ضمن الشبكة العالمية القديمة. ولم يتغير السودان الأوسط (جنوب الصحراء

(*) ربما استفاد الإسلام من تجارة العبيد، لأن المسلمين من خلال رفض تجارة العبيد عبر الأطلسي - أو فقط لأن دينهم حظر على أتباعه بيع إخوانهم في الدين مع أنهم كانوا يبيعون غير المسلمين عبر الصحراء الكبرى إلى شمال أفريقيا - قد حشدوا غير المسلمين في جانبهم، إذ احتمى الفلاحون الضعفاء بالإسلام من الأوروبيين والأفارقة المسلمين وغير المسلمين على حد سواء. راجع كتاب «عباد الله». [المترجم].

(**) رهنت تجارة العبيد والنخاسون والشركات الأوروبية الأفارقة داخل حلقة مفرغة. فإذا حصل أحد الأطراف على أسلحة متفوقة، فإن خصومه المحتملين كانوا يجدون أنفسهم مجبرين على فعل الشيء نفسه حتى لا يكونوا هم ضحاياه لاحقا، وهو ما كان يتطلب الحصول على الرجال والنساء والأطفال وبيعهم لتأمين الأسلحة بغرض حماية سكان هذا الطرف أو ذاك من الاستعباد، مع العلم أن الأسلحة والذخيرة كانت تباع للحكام دون الفلاحين، وذلك لأن الشركات التجارية أرادت أن تضمن ألا يكون الفلاحون قادرين على الدفاع عن أنفسهم وأن يصيروا من ثم فريسة سهلة لأعمال الاسترقاق. راجع كتاب «عباد الله». [المترجم].

الكبرى مباشرة ما بين بحيرة تشاد والنيل) إلا قليلا، لأنه كان بعيدا عن الأطلسي، وكان الاسترقاق نشطا هناك منذ وقت طويل. لكن في غرب بلاد السودان وغابات غرب أفريقيا وأنغولا ومستعمرة كيب كولوني كان الدمج الأولي ضمن الشبكة العالمية معرقِلا وحاسما.

دمج الشبكة الأمريكية والشبكة العالمية القديمة

أدخلت الارتباطات البحرية الأمريكتين في الشبكة بعد فترة قصيرة من بدء دمج أفريقيا الأطلسية. فبعد أن عبّر الأوروبيون الأطلسي في العام 1492، شقّوا طريقهم إلى الداخل في كل من أمريكا الشمالية والجنوبية، بحثا إما عن الذهب وإما عن الفراء أو الأرواح لإنقاذها أو طريق إلى الصين. وأينما وجد الأوروبيون إمبراطوريات موحدة، كما كانت الحال في المكسيك وبيرو، استولوا عليها سريعا من خلال الغزو العسكري، أو في حالة الإنكا من خلال ما يشبه الانقلاب العسكري. بمعاونة أعداء الأزتك وضربات الجدري الموجعة، سقطت إمبراطوريتهم في الأعوام 1519 - 1521 أمام بضع مئات من الرجال بقيادة المغامر الإسباني إيرنان كورتيس Hernan Cortes. وفي العام 1532 عثر قريبه فرانشيسكو بيزارو Francisco Pizarro - على رأس مائة وسبعة وستين رجلا - على إمبراطورية الإنكا بعد أن أنهكها الجدري ومزقتها الحروب الأهلية، لذلك تمكن بيثارو من إخضاعها باستخدام توليفة من الدبلوماسية الحاذقة والخداع والحرب والقتل. وسّعت هذه الأحداث الشبكة سريعا، وذلك لأن المستعمرين لم يغيّروا نظم الضرائب والإتاوة والتجارة السائدة إلا قليلا لكي تلائم الأغراض الإسبانية، إذ استمرت كما كانت في السابق، لكنها صارت مدمجة في الشبكة العالمية القديمة. من ذلك مثلا أن نظام إتاوة العمل عند الإنكا المعروف باسم الميتا mita الذي وفّر العمالة لصيانة الطرق وغيرها من الأشغال العامة، كان النظام الذي أمّنت السلطات الإسبانية من خلاله عمالة كافية لتشغيل مناجم الفضة بالأنديز التي موّلت كثيرا من مشروعات إمبراطورية إسبانيا.

وعندما لم يجد الأوروبيون إمبراطورية موحدة، كما في معظم أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى والبرازيل و«القُمع الجنوبي» لأمريكا الجنوبية، حدث توسُّع الشبكة بمعدل أبطأ، إذ كانت هناك حاجة إلى إقامة صلات من الصفر، وكان غزو

هذه الجماعة أو الكيان السياسي أو استيعابه لا تترتب عليه في البداية إلا نتائج محلية فقط. من ذلك مثلا أن يوكاتان Yucatan، التي زالت السيطرة السياسية المركزية فيها قبل قرون، احتاجت إلى قرون حتى يرسّخ الإسبان سلطتهم فيها، على الرغم من استخدام الأسلحة وانتشار الجراثيم نفسها التي أخضعت إمبراطورية الأزتك في سنتين. وبالمثل، كان الاستيعاب الثقافي للمايا بطيئا ولم يكتمل قط. واستغرق البرتغاليون قرونا لفرض سلطتهم وصلاتهم الاقتصادية وثقافتهم على امتدادات البرازيل الشاسعة والممزقة سياسيا. فعل الإنجليز والفرنسيون الشيء نفسه في أمريكا الشمالية، مع أنه في الحالتين حدث تناسل وفير لسكان أصحاء نسبيا، وفي حالة الإنجليز حدث تدفق ضخم للمهاجرين بعد العقد الثالث من القرن السابع عشر.

كان الفقد الهائل للسكان في الأمريكتين هو النتيجة الكبرى لضم الشبكة الأمريكية إلى الشبكة العالمية القديمة. فلم تكن الجماعات الأمريكية تعرف «أمراض الزحام» التي كانت في ذلك الحين قد أصبحت أمراضا مستوطنة شائعة ضمن الشبكة العالمية القديمة. وكان أسلافهم قد جاءوا إلى الأمريكتين قبل تدجين الحيوانات، ولذلك لم تعرف الأمريكتان الأمراض المنقولة من الحيوانات المدجّنة (الجدري والحصبة والإنفلونزا وغيرها)، ومن ثم لم يكن لدى شعوبها مناعة ضدها. ولذلك فإن الجماعات الأمريكية الكثيفة والمتواصلة فيما بينها، عندما واجهت هذه الأمراض أول مرة، انتشرت بينهم أوبئة مريعة. كانت جماعات الأمريكتين تتحدر كلها من أسلاف قليلين نسبيا، وبالتالي كان تنوعهم الوراثي محدودا، بمعنى أن الكائن المُمرِض إذا تمكن من الإفلات من الجهاز المناعي لإنسان واحد، فإنه يستطيع أن يفعل الشيء نفسه مع الجميع، في حين أنه بين الجماعات المتنوعة وراثيا يمكن أن يصادف الكائن المُمرِض كثيرا من الناس الذين حصّنهم جهازهم المناعي بقوة. كانت الأمريكتان في ذلك مجرد تكرار - على نطاق أوسع كثيرا - لخبرة كثير من الشعوب التي أُدمِجت سابقا في الشبكات. سبب ذلك واحدة من أكبر كارثتين سكانيتين في التاريخ المدوّن (الأخرى هي انتشار وباء الطاعون خلال القرن الرابع عشر)، إذ سببت الأوبئة المتكررة إبادة ما بين نصف الأميرينديين وتسعين في المائة منهم بين العامين 1492 و1650.

وبحلول العام 1800 كان معظم الأمريكتين قد دخل ضمن الشبكة، تماما كما حدث مع جنوب أفريقيا. وفي ذلك العام كان نحو خمسة وعشرين مليون إنسان يعيشون في الأمريكتين، وهو عدد أقل مما كان فيهما في العام 1500. كان ربعهم يعيشون في الولايات المتحدة الوليدة، وزهاء خمسهم في المكسيك التي كانت لاتزال إقليما إسبانيا (حتى العام 1821). وكان اقتصاد الأمريكتين يديره أوروبيون أو أشخاص من أصول أوروبية تمتعوا من خلال الإلمام بالقراءة والكتابة بمعرفة أكبر بالأسواق العالمية والظروف السياسية. وانتشرت الفضة المستخرجة من المكسيك والأنديز إلى أنحاء العالم قاطبة. وغدت كل الكيانات السياسية الأمريكية، سواء المستعمرات الأوروبية أو المشيخات الأميريندية، منخرطة في السياسة العالمية. من ذلك مثلا أن اتحاد قبائل الإيروكواس مارس دورا في حرب السنوات السبع (1756 - 1763) التي تقاتلت فيها فرنسا وبريطانيا في الهند وأوروبا وأعالي البحار وأمريكا الشمالية(*). واعتنقت أغلبية جماعات الأمريكتين دينا معولَما، هو المسيحية، على رغم أن ممارستهم له لم تكن تتطابق تماما دائما مع المعايير التي كانت توضع في روما أو جنيف(**). كانت هناك أغلبية صغيرة تتحدث لغات أوروبية، كلغة ثانية في كثير من الحالات. وكان ربع السكان أو ثلثهم فقط يتحدثون اللغات الأميريندية، بينما كان نحو عُشر السكان - بعض العبيد وقليل من السود المُعتَقين - يتحدثون لغات أفريقية. وبذلك أُلحقت الأمريكتان ثقافيا بالشبكة العالمية الحديثة الناشئة، تماما كما أُلحقت بها اقتصاديا وسياسيا. وبحلول العام 1800 لم يكن يبقى خارج الشبكة غير المناطق متناثرة السكان في الأمازون وغرب أمريكا الشمالية الوعر.

توسُّع الشبكة إلى سيبيريا والقطب الشمالي

على رغم أن البحار هي التي وحَّدت العالم خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإن الشبكة امتدت عبر البر أيضا. كان الداخل الأكبر البعيد عن السواحل

(*) في أمريكا الشمالية، تحالف اتحاد قبائل ألغونكوين Algonquin مع الفرنسيين، بينما طلب منافسوهم الإيروكواس Iroquois الدعم من الهولنديين في نيو أمستردام (نيويورك لاحقا)، ولاحقا من الإنجليز الذي حلوا محلهم. [المترجم].

(**) روما هي مركز المسيحية الكاثوليكية، وجنيف هي «روما البروتستانتية» Protestant Rome كما أطلق عليها بعد تحولها إلى البروتستانتية إثر انتقال جون كالفن إليها في العام 1536. [المترجم].

الذي ظل خارج الشبكة حتى ذلك الحين هو مناطق الغابات والتيغة في سيبيريا. وفي العام 1500 كان هذا الفضاء الشاسع الذي يشكِّل زهاء ربع أوراسيا موطنا لما لا يزيد على نصف مليون إنسان، كانوا يشكِّلون نحو مائة مجموعة لغوية، منها التنغوس Tungus والساموِيد Samoyed والتشوكتشي Chukchi. كان التنظيم الاجتماعي لهذه القبائل يقوم على القربى، وعاشوا في معظمهم على صيد الحيوانات والأسماك والجمع ورعي الرنة، مع قليل من الزراعة والتفاعل الضئيل مع بقية العالم، بينما انخرط بعضهم على الحافة الجنوبية في التجارة والحرب مع الجيران الواقعين إلى جنوبهم، وهم شعوب السهل الأتراك والمغول.

ثمة عدة ملايين من الحيوانات ذات الفراء، كالثعالب والقاقم والسناجب والسمور، قاسمت السيبيريين في سيبيريا. وإبان أوائل العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر، نجح أفراد من عائلة إستروغانوف Stroganov الروسية التي اغتنت من احتكارها تجارة الملح الروسية، في إقناع القيصر إيفان الرابع («إيفان الرهيب») بتأسيس شركة مساهمة تتولى عائلة إستروغانوف من خلالها تجنيد الرجال وبناء مراكز تجارية للفراء في غرب سيبيريا. وعندما بدأ التجار الإنجليز في تجارة الفراء في ميناء آركينجل Archangel القطبي، استحسن القيصر فكرة أن يستأثر لنفسه بجزء من تلك التجارة. ووجدت عائلة إستروغانوف كثيرا من القوزاق - تلك الجماعة التخومية الخشنة المحنكة في فنون الحرب التي كانت تقطن جنوب روسيا وأوكرانيا - راغبين في اختراق سيبيريا بحثا عن الثروات(*)، وأطلقوا حملة لغزو التخوم في العام 1582. تمتع القوزاق والروس بمزايا العيش داخل الشبكة، فكانوا يمتلكون البنادق والمدافع التي ركِبوها فوق زوارق نهرية، وكانوا يحظون بدعم الدولة الروسية متى استطاعت أن توفر الرجال والإمدادات من حروبها الغربية مع السويد وبولندا وتركيا العثمانية. وكانت

(*) القوزاق Cossacks: جماعة من السلاف الشرقيين، تعيش حاليا في أوكرانيا وجنوب روسيا، كانت في السابق تعيش في المناطق منخفضة السكان في أحواض أنهار الدنيبر والدون والتيريك والأورال الدنيا في جماعات بدوية ديموقراطية شبه عسكرية، مارست دورا تاريخيا كبيرا في المنطقة، واشتهرت بغاراتها على الإمبراطورية العثمانية ورعاياها بداية من النصف الثاني من القرن السادس عشر، إذ شكلوا رأس حربة لروسيا في حروبها على الإمبراطورية العثمانية وانتزاع الأقاليم منها. في أثناء الحرب الأهلية الروسية (1917 - 1923)، وقف القوزاق في صف الحركة البيضاء ضد البلاشفة الحمر، وعندما انتصر الأخيرون فرَّ آلاف من القوزاق إلى خارج روسيا وتعرض الباقون للقمع والتشتيت، وبعد الحرب العالمية الثانية سُلِّم الفارون للاتحاد السوفييتي بعد أن شكلوا فرقا حاربت إلى جانب دول المحور. [المترجم].

لهم كتابة مكّنتهم من الاتصال عبر المسافات الطويلة وتنسيق أعمال المجموعات واسعة الانتشار. وتمتعوا أيضا بالمقاومة لكثير من الأمراض المعدية الشائعة التي كان كثير من السيبيريين لا يتمتعون بأي مناعة ضدها، أو بمناعة محدودة فقط، ولذلك تراجع عدد جماعة صغيرة تدعى اليوكاجير Yukagir بأكثر من الثلثين، بالدرجة الأولى بسبب الجدري.

وبحلول العام 1640 كان القوزاق قد تمكنوا من أنهار سيبيريا والنقل عبرها ووصلوا إلى شواطئ المحيط الهادي. وفي العام 1652 اصطدموا هم وآخرون يخدمون القيصر الروسي مع القوات الصينية في وادي نهر آمور Amur، وهي الصدامات التي انتهت بتوقيع معاهدة السلام للعام 1689 التي حددت التخوم الروسية - الصينية حتى منتصف القرن التاسع عشر. وبحلول العقد الرابع من القرن الثامن عشر كان الروس قد وصلوا إلى المحيط الهادي ومدّوا استيطانهم إلى ألاسكا، ثم في العام 1810 إلى شمال كاليفورنيا. وشيّدوا شبكة من عشرات الحصون والمحطات التجارية حاولوا من خلالها السيطرة على إمبراطوريتهم الشاسعة.

كان الفراء هو بغية الروس. وقد فرضوا على السيبيريين نظام إتاوة ألزم كل ذكر بالغ معافى بحصة من الفراء. كما تاجر الروس في الفراء، إذ كانوا يأخذونه في مقابل التبغ والكحول والأدوات والطحين. كان ذلك ترتيبا مألوفا لبعض السيبيريين الجنوبيين المتصلين بشعوب السهل الذين لم يستجد عليهم إلا جباة الإتاوة الجدد. لكن بالنسبة إلى جميع السيبيريين - تماما كما كانت الحال مع كثير من الشعوب من قبلهم - كان ذلك إقحاما فجا لهم في العيش ضمن الشبكة الغاصة بالعنف والأمراض والتمزيق الاجتماعي والتأثيرات السلبية للتعامل مع شعوب أقوى منهم. وجدت أغلبيتهم - عاجلا أو آجلا - أن المقاومة غير مجدية ووطّنوا أنفسهم على النظام الجديد، فأخذ الرجال يدفعون الإتاوة، وصارت النساء يتخذن من الرجال الروس والقوزاق أزواجا وأسيادا. وبدأ كثير من السيبيريين يعملون لحساب الروس، وساعدوا بذلك في توسيع الشبكة من خلال تجنيد جيرانهم في نظام التجارة والإتاوة. وعلى مدار معظم القرن السابع عشر، كان الكرملين يستمدّ ما بين سبعة وعشرة في المائة من عائداته من المائتي ألف أو الثلاثمائة ألف جلد حيوان التي كان يحصل عليها سنويا من سيبيريا.

كان دمج سيبيريا في الشبكة، مثل كل الأماكن الأخرى، عملية ثقافية، فضلا على كونه عملية اقتصادية. وفي العام 1621 شكّلت سيبيريا أسقفيتها (الأرثوذكسية الروسية)، وأسهم العمل التبشيري في إدخال معظم السيبيريين في المسيحية خلال القرن الثامن عشر، وتعلموا تحدث اللغة الروسية، واختفى كثير من لغاتهم المحلية. وبذلك أدخلت الجماعات والنظم البيئية السيبيرية في الشبكة الاقتصادية والثقافية.

وعندما شحّت حيوانات القاقم والسمور والثعالب والسناجب، ومعها دافعو الإتاوة السيبيريون، دفع الروس تخوم الفراء شرقا إلى ألاسكا. لكنهم لم يخترقوا بعيدا هناك، إذ كانوا يستغرقون سنة أو أكثر للسفر من موسكو إلى المحيط الهادي، وكانت تكاليف إمداد الحصون والحملات في شمال المحيط الهادي محبطة. وفي المقابل، كانت الامتدادات الشاسعة لشمال أمريكا الشمالية قليلة السكان والغنية بحيوانات الفراء أسهل في الوصول إليها من ناحية الأطلسي.

وصل النورديون كندا الأطلسية في نحو العام 1000(*)، لكنهم لم يتركوا أثرا باقيا. ولم يبقَ أثر للملاحين الباسكيين الذين وصلوا مصايد أسماك القُدّ الواقعة قبالة نيوفاوندلاند خلال القرن الخامس عشر. وحتى بعد قرن أو أكثر من رحلة كابوت في العام 1497، لم يكن الأوروبيون الأطلسيون قد تركوا أثرا يذكر في أمريكا الشمالية، لكنهم بعد العام 1600 أقاموا مستوطنات ومراكز تجارية للفراء على الممرات المائية الرئيسة لنهري هدسون Hudson وسانت لورنس St. Lawrence وعلى خليج هدسون Hudson Bay. وشرعوا في تأسيس شبكة من المحطات المحصنة، تشبه الحصون السيبيرية، وشجعوا الجماعات الأميرندية على تزويدهم بفراء القندس. جلب الأوروبيون معهم بنادقهم وأمراضهم المعدية، وأخذت أعداد الأميرنديين تتراجع كلما نشر تجار الفراء نظام الحصون والمحطات التجارية في أنحاء بيئة القندس. وبحلول العام 1800 كان الأوروبيون قد وصلوا إلى جبال روكي، ووصلوا بحرا إلى ساحل المحيط الهادي لأمريكا الشمالية، وهناك وجدوا الروس يصطادون الفقمة ذات الفراء بالهراوات ويصطادون القندس بالفخاخ.

(*) النورديون Norsemen (أو الشماليون): اسم آخر للإسكندينافيين الذين ورد ذكرهم في مواضع سابقة. [المترجم].

كانت أحداث هذه الملحمة تتكشف على قارتين، لكن البحث عن الفراء حول القطب الشمالي كان دافعها في الحالتين. فكان القوزاق والروس في جانب، والإنجليز والفرنسيون في جانب آخر، يعرفون أنهم يستطيعون أن يبيعوا أي كمية من الفراء تقع تحت أيديهم، وكانت لديهم معرفة عامة على الأقل بشأن الطلب على الفراء في أوروبا والصين اللتين كان الكثير من الفراء السيبيري ينتهي إليهما. مما يؤكد ذلك أن أول أوروبي يعبر قارة أمريكا الشمالية في العام 1793، وهو المستكشف وتاجر الفراء الأسكتلندي ألكسندر ماكينزي Alexander Mackenzie، كان يبحث عن طريق مربح تجاريا يبيع من خلاله الفراء الكندي للصين. يبيّن توسُّع الشبكة إلى سيبيريا وشمال أمريكا الشمالية أن الشبكة كانت تعمل بقوة، إذ كانت تنشر المعلومات والبشر والسلع والأمراض عبر مسافات شاسعة، وتدخِل جماعات متفرقة في حالة من التعاون والنزاع، وتخلط حظوظ الملايين، فتثري البعض وتقتل غيرهم أو تفقرهم، وتقضي على بعض اللغات والثقافات مثل لغة اليوكاجير، وتنشر غيرها مثل الروسية والإنجليزية والفرنسية.

توسُّع الشبكة في أستراليا والمحيط الهادي

ظلت امتدادات أستراليا وأوقيانوسيا الشاسعة وقليلة السكان خارج الشبكة العالمية حتى أواخر القرن الثامن عشر. صحيح أن العالم البحري النشط لجنوب شرق آسيا كان يرسل سفنا من حين إلى آخر إلى شمال أستراليا وميلانيزيا، لكن ذلك لم تترتب عليه إلا نتائج محدودة. ربما كانت نيوزيلندا مقطوعة تماما عن العالم الأوسع، ومقطوعة حتى عن الشبكة الصغيرة المتمركزة حول أرخبيل تونغا. ثم كُسرت هذه العزلة نهائيا في حالة نيوزيلندا في العام 1769، وفي حالة أستراليا في العام 1788.

ومع أن أرقام السكان مجرد تخمينات تقريبية، فإن نيوزيلندا في العام 1769 كانت تضم زهاء مائة ألف إنسان يدعون «الماوريين»، وهم نسل جماعة صغيرة من المهاجرين البولينيزيين الذين وصلوا الجزيرة في نحو العام 1300. وعلى مدار بضعة قرون تمتع الماوريون بأوقات ازدهار، إذ وجدوا في الفقمة الغنية بالبروتين وطيور الموا moa الضخمة غذاء وفيرا. ومع تراجع أعداد هذه المخلوقات -

وانقراضها في حالة الموا - تحوّل الماوريون تدريجيا إلى البستنة، وتطوّرت مجتمعات معسكرة نُظّمت عادة حول قبائل متعادية. وبعد أن شرع الربان كوك في تخطيط سواحل نيوزيلندا في العام 1769 وصلت مجموعات من صيادي الفقمة والحيتان البريطانيين والفرنسيين، ولاحقا الأمريكيين، ثم تلاهم مبشرون وتجار. وبحلول العام 1820 كان هؤلاء قد أنشأوا موانئ كوزموبوليتانية مضطربة لم تمتزج فيها الثقافتان الماورية والأوروبية بيسر. وهنا أيضا، عملت الأمراض الأجنبية عملها، وإن لم يكن بالشدة التي عملت بها في الأمريكتين أو في أماكن أخرى في بولينيزيا، ولم يبدأ الاستيطان الأوروبي السريع والإلحاق السياسي والحروب على الأرض وإدخال الأهالي في المسيحية إلا بعد العام 1840.

على الرغم من تفاوت التقديرات، يمكن القول إن عدد الجماعات الأسترالية الأصلية كان في العام 1788 زهاء سبعمائة وخمسين ألفا، لم يكونوا يعملون بالزراعة، مع أنهم كانوا يحرقون النباتات بانتظام لتهيئة الظروف المواتية للنباتات والحيوانات التي أحبوا جمعها وصيدها، وهي ممارسة تعرف باسم «الزراعة بالمشاعل» firestick farming. وكانوا يعيشون في جماعات صغيرة متنقلة جمعتها اتحادات فضفاضة من زهاء خمسمائة أو ثمانمائة «قبيلة»، أقامت - في الداخل القاحل على الأقل - روابط تجارية وحافظت على التزاوج فيما بينها والدعم المتبادل على مسافة مئات الأميال، وكانت تتقاتل من حين إلى آخر بعضها مع بعض. وقد جعلتهم أعدادهم الضئيلة وأسلحتهم الخشبية والحجرية وتنظيمهم الاجتماعي المحدود وصراعاتهم المهلكة وجهازهم المناعي غير المختبَر، عرضة للمذابح والإزاحة والأمراض، عندما أخذت تتوافد على الجزيرة في العام 1788 حمولات سفن من المدانين البريطانيين، كانوا في معظمهم من لصوص لندن الوضعاء(*). وبحلول العام 1845 كان عدد المستوطنين المتنامي قد تجاوز عدد الجماعات الأصلية المتراجع.

وبين العامين 1769 و1850 غطت الشبكة العالمية عالم المحيط الهادي كله

(*) على غرار سيبيريا بالنسبة إلى روسيا، كانت أستراليا سجن بريطانيا، إذ بدأ استيطانها كمستعمرة عقابية لإيواء المدانين، وهي العملية التي بدأت في العام 1788 بوصول أول أسطول مكوّن من إحدى عشرة سفينة من المدانين، هم الذين أسّسوا سيدني أول مستعمرة أوروبية في أستراليا. كان هؤلاء المدانون بعد انقضاء مدد عقوبتهم، يبقون في أستراليا وينضمون إلى المستوطنين الأحرار. وحاليا، يرد نحو عشرين بالمائة من الأستراليين أصولهم إلى المدانين المنقولين، وهو ما كان يشكل وصمة عار لأحفادهم، لكن أخيرا صار مناط فخر لهم. [المترجم].

تقريبا، من أستراليا إلى هاواي. ودخلت الفقمة والحيتان وخشب الصندل من المحيط الهادي في اقتصاد أكبر، مدفوعة بالطلب الصيني بالدرجة الأولى. ودخلت هذه الملايين القليلة من البشر في عالم ثقافي أكبر هيمن عليه الأوروبيون والمسيحية، وفي عالم سياسي- عسكري كانت مزاياهم فيه أضعف، وفي سوق مكروبي مشترك لم تكن لهم فيه أي ميزة. كان الأمر بالنسبة إلى كل جماعات المحيط الهادي كارثة بدرجة أو بأخرى، تماما كما كان بالنسبة إلى جماعات الأمريكتين وسيبيريا وجنوب أفريقيا قبل وقت ليس بعيدا، وكما حدث لجماعات لا تحصى قبل وقت بعيد. أفنيت هذه الجماعات أو استوعبت ولم يبقَ لها أثر غالبا في أثناء عملية بناء الشبكات الحضرية الكبيرة. وبحلول العام 1850 كانت الجماعات المتناقصة سكانيا على كل أرخبيلات جزر الهادي كثيفة السكان - هاواي وساموا وتونغا وفيجي- قد أُدمجت كليا في الشبكة العالمية.

كان توحيد شبكات العالم ومدّ الشبكة العالمية الجديدة إلى أراض جديدة في معظمه صنيعة الأوروبيين الأطلسيين الذين كانوا مغول البحر Mongols of the sea[2]. فمثل المغول، تمتع الأوروبيون بميزة عسكرية تمثّلت في حالتهم في المدافع المُركّبة على متن السفن بعد العام 1450، وهي ميزة لم يتوانوا عن استخدامها. ومثل المغول، وجدوا سهولة في تجنيد حلفاء رأوا فوائد قصيرة الأمد على الأقل في العمل مع الأوروبيين. ومثل المغول، كانت عمليات الغزو والمذابح والاستيلاء واختيار الحلفاء والاستيعاب التي نفّذوها بحق الشعوب الأخرى، الأساس لدمج غير مسبوق لشبكات التفاعل الاجتماعي والبيئي.

العالم الذي صنعته الشبكة خلال الفترة 1500 - 1800

انطوى بناء الشبكة العالمية على تغيير وخلق، تماما كما انطوى على عرقلة وتدمير. ومع خلق شبكة واحدة، بدا التاريخ كأن خطوه قد تسارع. فأخذت الابتكارات والاختراعات ونوبات الازدهار والكساد والآفات والأوبئة تموج خلال نظام موحد وتنتشر أينما سمحت لها الظروف المحلية بذلك. وأخذت حياة البشر تتشكّل على نحو متزايد بفعل أحداث وعمليات تنشأ بعيدا - عملت جنبا إلى جنب مع الواقع المحلي المتطوِّر- أصبحت قوى تاريخية لم يفطن إليها الكثير من

المعاصرين. من ذلك أن إنتاج الفضة في الأنديز والمكسيك واليابان أخذ يؤثر بقوة في الاتجاهات الاقتصادية والسياسية في أرخبيلات جنوب شرق آسيا، وأخذت المحاصيل الغذائية البرازيلية مثل المنيهوت، والمكسيكية مثل الذرة، تؤثر بشدة في الاتجاهات السكانية في أفريقيا الوسطى والصين والبلقان، وأعادت البنادق تشكيل الجغرافيا السياسية في كل مكان تقريبا. وعلى ذلك، فإن التاريخ الإنساني مع اتجاهه نحو التوحُّد، غدا أبعد عن الاستقرار وأقرب إلى الفوضى من أي وقت مضى، وهي الحال التي مازلنا نعيش فيها.

لكننا من بين هذا الاضطراب، نستطيع أن نميّز بعض الاتجاهات طويلة المدى التي شكّلت القرون الممتدة بين العامين 1500 و1800. فكريا وثقافيا، ساعدت عملية توحيد الشبكات في دفع تحديات كبرى لأنماط الفكر والدين السائدة. أنتجت عمليات إصلاح وإحياء وانشقاق، وأنتجت العلم الحديث. وسياسيا، أدت هذه العملية إلى تقليل عدد الدول مع زيادة قوة ما بقي منها، فضلا عن توسيع الفجوة بين الأقوياء والضعفاء. واقتصاديا، أحدثت هذه العملية خلطا كبيرا في حظوظ الأفراد والأمم، كان في معظمه لمصلحة الطبقات التجارية في كل مكان. أما اجتماعيا، فقد جلبت هذه العملية النمو السكاني، وتراتبية اجتماعية أشد تعقيدا، وزيادة في التفاوت الاجتماعي. وبيئيا، أحدثت هذه العملية تبادلات أحيائية كثيرة ومجانَسة جزئية لنباتات الكوكب وحيواناته وأمراضه. وجغرافيا، وحّدت هذه العملية جماعات إقليمية جديدة عن طريق النقل البحري، ما شكّل عوالم مائية. تواصلت هذه الاتجاهات إلى ما بعد العام 1800 وحتى اليوم.

التيارات الفكرية والثقافية

تقاطعت خلال هذه القرون تيارات من الأفكار والمعلومات تحدت النظم الفكرية والدينية والثقافية والسياسية السائدة. ربما حدث هذا التحدي في أقوى صوره في أوروبا الأطلسية بسبب دور الأوروبيين الأطلسيين في توحيد الشبكة العالمية والتنقل خلالها. لكن البشر في كل مكان شعروا بهذا التحدي وتعاملوا معه بالمدى المعتاد من ردود الأفعال الممتدة من تبني الاستشراف الجديد إلى إعادة تأكيد أنساق المعرفة والحكمة القديمة.

المعلومات والاتصال

تكاتفت الظروف لدعم الانتقال الأسرع والأوسع للمعلومات. أولا، حدث السفر عبر المحيطات وما ترافق معه من توسيع للشبكة وإحكام لخيوطها. واجتمعت زيادة التجارة والسفر وسرعة التحضر وارتفاع معدلات الإلمام بالقراءة والكتابة وتكثُّف العمل التبشيري والدعوي - المسيحي والإسلامي - لتعزيز سرعة الاتصال وحجمه. وأسهم المناخ السياسي (يناقش على حدة فيما يلي) في ذلك، إذ تشكّلت إمبراطوريات كبرى على البر والبحر كان كل منها ينظم شبكات اتصال تخصه. كانت المطبعة بالغة الأهمية في أوروبا، إذ خفَّضت تكاليف المعلومات بشدة وجعلت السيطرة السياسية على المعلومات غير ممكنة تماما، مع أنها جعلت الدعاية أيسر.

كانت الطباعة التطوُّر الأشد ثورية بين جميع هذه التطوُّرات، مع أنها ظلت لقرون التطوُّر الأشد محلية بينها. في نحو العام 1430 بدأ حدّاد من ماينتس Mainz (ألمانيا) يدعى يوهانس غوتنبرغ Johannes Gutenberg العمل في صب قالب أحرف لاستخدامه في الطباعة. كانت الطباعة في ذلك الوقت تستخدم الروسم الخشبي الذي لم يكن يقدر على إنتاجه إلا نحاتو الخشب المهرة وبعناء وتدقيق بالغين، ولذلك كانت النصوص تنسخ يدويا، مع ما كان ينطوي عليه ذلك من أخطاء من جانب النسّاخ. وسرعان ما تمكن غوتنبرغ من ابتكار قالب معدني متحرك صالح لإعادة الاستخدام ومطبعة أفضل طبع بها الكتاب المقدس في العام 1455. وظلت مطبعة غوتنبرغ هي السائدة حتى العام 1800، وسادت طريقته في صب قالب الأحرف حتى العام 1838، مع أن أحد الدائنين قاضاه في العام 1455، ما أضر بسمعته إلى أن عينه أحد الأساقفة بوظيفة تدرّ عليه دخلا في العام 1465، ومات غوتنبرغ في العام 1468.

كان الكوريون قد اخترعوا قالب طباعة معدنيا متحركا خلال القرن الثالث عشر. (مع أننا لا نملك دليلا على ذلك، فمن الوارد أن يكون غوتنبرغ قد عرف بذلك الإنجاز الكوري واستمدّ منه إلهاما). وعندما استحدث الكوريون أبجدية خاصة بهم إبان أوائل القرن الخامس عشر، أحدث ذلك ازدهارا محدودا في الطباعة والحياة الفكرية عموما، لكنه لم ينتشر واسعا خارج كوريا التي ظلت على أي حال مجتمعا طبقيا يقتصر الإلمام بالقراءة والكتابة فيه على نخبة صغيرة. وفي المقابل، كان الإلمام

بالقراءة والكتابة أكثر شيوعا في معظم أوروبا. وبفضل اختراع غوتنبرغ الذي يعد أحد أهم الاختراعات في التاريخ العالمي وأحد أوائل الاختراعات التي نعرف اسم صاحبها، تمكن الطباعون من إنتاج الكثير من الكتب بطريقة أسرع وأرخص من أي وقت مضى. وبذلك أحدثت الطباعة انفجارا في المواد المطبوعة. وبحلول العام 1500 كانت مائتان وست وثلاثون مدينة في أوروبا تحوي مطابع من نوع مطبعة غوتنبرغ، كانت في ذلك الوقت قد طبعت ثلاثين ألف عنوان بإجمالي نحو عشرين مليون كتاب بأكثر من عشر لغات. وفي العام 1483 صُبَّ قالب أحرف للأبجدية السيريلية المستخدمة في اللغة الروسية وبعض اللغات السلافية الأخرى، ثم للغة اليونانية في العام 1501. وبحلول العام 1605 كانت الصحف المنتظمة قد ظهرت إلى الوجود، وكانت في أول الأمر متخصصة في أخبار التجارة والأعمال. وفي العام 1693 صدرت أول مجلة نسائية في إنجلترا، وفي العام 1702 صدرت أول صحيفة يومية. وفي العام 1753 كان الناشرون البريطانيون يبيعون عشرين ألف صحيفة يوميا، كان كل منها يتابعه الكثير من الناس.

بيد أن ذلك كله لم يتجاوز العالم المسيحي، فأسّست صحف في أمريكا الإسبانية في العام 1533، وفي أمريكا الشمالية الإنجليزية في العام 1639، وفي غوا البرتغالية في العقد السادس من القرن السادس عشر(*). لكن في المقابل، قاومت الدول الآسيوية الكبرى الطباعة حتى القرن التاسع عشر. ففي حين استخدم التاج الإسباني المطابع لتسريع تدفق المعلومات الرسمية بعد العام 1476، واصلت الإمبراطورية العثمانية والمُغالية والمينغية الاعتماد على النسّاخ. ربما كان النسّاخ في هذه المجتمعات أقوى من أن يُجار على مهنتهم، وربما بدت الطباعة لهذه الدول أصعب في السيطرة عليها، أو في حالة اللغات ذات الرموز وليس الحروف الأبجدية ربما لم تبد الطباعة تحسُّنا كبيرا على الكتابة اليدوية أو الطباعة بالروسم الخشبي. وحتى القرن الثامن عشر، ظلت المرجعيات الإسلامية تعارض الطباعة على أساس أنها تدنيس للنص القرآني. لهذه الأسباب كلها، أنتجت الطباعة بين العامين 1450 و1800 مشهدا معلوماتيا في

(*) غوا Goa: مدينة تقع حاليا في ولاية بالاسم نفسه في جنوب غرب الهند على بحر العرب. كانت مقر نائب الملك البرتغالي حاكم الهند البرتغالية منذ أن انتزعتها البرتغال في العام 1510 من سلطان بيجابور يوسف عادل شاه وحتى نقل هذا المقر إلى بانجيم Panjim (أو بانجي Panjai) في العام 1843، ظلت تابعة للبرتغال إلى أن استردت الهند كل ممتلكات الهند البرتغالية في العام 1961. [المترجم].

أوروبا ومستعمراتها مختلفا تماما عنه في أي مكان آخر. على وجه التحديد، خفّضت الطباعة تكلفة المعلومات وشجعت التكافؤ في السجال الفكري، لاسيما السجالات الدينية الضارية.

الأديان والشبكة

فرض عالم المعلومات والأفكار المتغير- بالطباعة أو من دونها - تحديات قوية على الإجماعية الدينية حول العالم(*). فمع تصاعد التجارة وانتشارها، ومع ازدهار المدن في أنحاء العالم كافة، شقّت الأفكار الجديدة طريقها إلى جمهور متقبل. وفي حين كان الكثير من هذه الأفكار غريبا لدرجة تحول دون بقائه طويلا، وقد طواها النسيان فعلا حاليا، فإن بعضها قد بقي وتجذّر. أما الأفكار الناجحة، فكانت الأكثر توافقا مع الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المعاصرة، تحديدا مع السيولة الاجتماعية الأكبر ومع حالة الالتباس التي تميّز السوق ومع ظهور البلدات والمدن. كانت هذه الأفكار - إجمالا - تثمّن الخبرة والملاحظة أكثر من التقاليد والسلطة، وقدمت للأفراد مجالا أكبر لصوغ تفسيراتهم الخاصة لكل الأسئلة الكبرى حول الحياة والمجتمع والمقدس. وكانت هذه الأفكار أخلاقية في مجملها، إذ قدمت موجّهات للسلوك المستقيم و- ضمنا على الأقل - إدانة للزلات الأخلاقية التي يقع فيها أنصار الإجماعية السائدة.

كانت الجلبة الدينية والفكرية بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر تكرارا من نوع ما للحقبة التي ترسّخت خلالها أديان العالم الكبرى لأول مرة. وفي هذه المرة أيضا، دفع التحضر المتزايد الناس إلى التفكير في تبني أديان قدمت موجّهات أخلاقية وادعت العالمية ووعدت بعلاقات أسلس مع الأفراد خارج جماعاتهم المباشرة. كانت تعاليم بوذا وكونفوشيوس ويسوع المسيح ومحمد تعاليم أخلاقية ملائمة لجماعات حضرية متنقلة، وكانت أكثر جاذبية للحضريين من عبادة الطبيعة أو الأديان القَبَلية. وبحلول العام 1400 كانت هذه الأديان - وإن بدرجات متفاوتة - قد طوّرت مستويات من البيروقراطية شجعت الاسترزاق المهني، واستلزمت علاقاتها الدافئة مع

(*) «الإجماعي» orthodox (والإجماعية orthodoxy) في الأديان هو ما يجمع عليه أغلبية أتباع هذا الدين أو ذاك أو ما تعتقده أغلبيتهم وتمارسه، وما يعد الخروج عليه هرطقة أو بدعة. [المترجم].

الملوك تسويات هنا وهناك، واستدعت ثرواتها الدنيوية الفساد. وفي العصر الجديد للتجارة والمدن، تراجعت قدرتها على إشباع الطبقات الصاعدة والأرواح المتململة عموما، ما أفسح المجال لحركات فكرية ودينية جديدة.

ففي الصين على سبيل المثال، وبعد أن استولت سلالة مينغ على السلطة في العام 1368، كانت نسخة مُحَدَّثة من الكونفوشية قد أصبحت الأساس لامتحانات الخدمة المدنية وللإجماعية الفكرية للإمبراطورية. لكن هذه الإجماعية الكونفوشية بدت متصلبة ومضللة في نظر المفكر البارز وانغ يانغمن Wang Yangmin (1472 - 1529) الذي ذهب إلى أن عامة الناس بمقدورهم أن يبلغوا الحقيقة والحكمة والفضيلة من دون تلقٍ طويل للعلم الكونفوشي، وأن الخبرة والمعرفة الفطرية يمكن أن تقودا المرء إلى الصراط المستقيم. اتخذ أتباع وانغ ذلك تسويغا لمذهب فردي، وحتى مذهب في المساواة، وهي أفكار كانت راديكالية بكل معنى الكلمة على أناس نشأوا في سياق كونفوشي تقليدي. وقد تميّز أواخر عهد المينغيين عموما بدينامية غير عادية وتنوع في الجوانب الفكرية والدينية، كان من بينها إغراء المسيحية.

وفي الهند، ظهر دين جديد دعا إليه ناناك Nanak (1469 - 1539)، الذي عمل فترة محاسبا عند أمير أفغاني وكان ملما بالفيدات الهندوسية وأساسيات الإسلام واللغات السنسكريتية والفارسية والعربية(*). قامت السيخية - وهو الاسم الذي أطلق على دين ناناك - على الكتاب المقدس الهندوسي(**)، لكنها رفضت السلطة الكهنوتية لطبقة البراهمة، وأدخلت بعض العناصر المستمدة من الإسلام الصوفي، وقدمت نسقا أخلاقيا صارما لكل الأتباع كبديل عن النسق الذي يختلف من طبقة إلى أخرى. ودعا الغورو ناناك (هو الأول بين عشرة غوروات gurus يدعون «المعلمين

(*) الفيدا Veda (تعني «المعرفة» أو «الحكمة» باللغة السنسكريتية): مجموعة كبيرة من النصوص تتكوّن من أربع مجموعات: الريجفيدا Rigveda والياجورفيدا Yajurveda والسامافيدا Samaveda والأثارفافيدا Atharvaveda، كتبت في الهند القديمة باللغة السنسكريتية، وتعد أقدم طبقة في الأدب السنسكريتي وأقدم الكتب المقدسة الهندوسية. [المترجم].

(**) ليس هناك تحديد يحظى بإجماع عام للنصوص التي تؤلف الكتاب المقدس الهندوسي، لكنه في الأساس يشمل الفيدات الأربع والأوبانيشاد Upanishads وهي مجموعة من النصوص تحوي بعض المفاهيم الفلسفية المركزية في الهندوسية والبوذية واليانية، ويضيف بعضهم إليها البهاغافاد غيتا Bhagavad Gita، وهي 700 بيت شعري تشكل جزءا من ملحمة ماهاباراتا Mahabarata، والأغاما Agamas وهي مجموعة نصوص حول أصل الكون والمعرفة والفلسفة. [المترجم].

الكبار» في التاريخ السيخي) إلى التسامح بالقول إنه ليس هناك إله هندوسي وإله مسلم، وإنما إله واحد فقط. وانتشرت السيخية على نطاق واسع في شمال الهند، وراقت في بادئ الأمر للطبقات الحضرية العامية وللهندوس من الطبقات الدنيا وللنساء(*). فقد تميّزت السيخية بمسحة مساواتية، أو استحقاقية على الأقل، وكانت مسالمة في الأصل. ربما لذلك أعجبت الإمبراطور المُغالي أكبر Akbar (1542-1605)، الذي منح أرضا لمعبدها الذهبي في أمريستار(**).

ذهب الإمبراطور العظيم أكبر أبعد من ذلك إلى حد تشجيع الاختمار الثقافي والديني في الإمبراطورية المُغالية. كان المُغال سلالة مسلمة من آسيا الوسطى، حكمت بعد العام 1526 الأراضي الهندوسية في شمال الهند بالدرجة الأولى. وكان التسامح هو السياسة التي انتهجها أكبر الذي منح الأراضي لعلماء الأديان المختلفة، وأبطل الجزية التي كانت الدول الإسلامية تفرضها على غير المسلمين، وكلّف بترجمة النصوص الفلسفية والدينية بين الفارسية والهندية، حتى إنه استعمل معلما يسوعيا لتعليم ابنه. ونجح أكبر في سحق ثورة قادها علماء الدين المسلمون، وهم حراس الشريعة الإسلامية المتعلمون (1579 - 1580). ومع أن أكبر نفسه كان أميا، فقد دعم كوكبة متنوعة من دارسي الفلسفة وفقهاء الدين.

كما ظهرت تحديات للإجماعية الدينية في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، وتبنى بعض الحكام تسامحا دينيا مترويا، وإن لم يكونوا راديكاليين مثل أكبر. ففي الإمبراطورية العثمانية، أعمل محمد الفاتح (1432 - 1481) النظر في مذاهب دينية متنوعة، وشجع معاملة لينة للمسيحيين واليهود. لكن أثبت العثمانيون أنهم أقل تسامحا مع المسلمين الشيعة، وذلك لأن الحركة الشيعية شكّلت تحديا حقيقيا للسلطة العثمانية، وهو تحدٍ لم يفرضه المسيحيون واليهود.

فبعد العام 1501 أصبحت إحدى نسخ الإسلام الشيعي الدين الرسمي لبلاد فارس، وذلك بفضل النجاح العسكري للعشيرة الصفوية (سُميت لاحقا السلالة

(*) كان ناناك ينتمي إلى طبقة الويش التي تعلو طبقة العبيد - الشودرا - مباشر، وربما من هنا جاء تأكيده على المساواة. [المترجم].

(**) لاتزال مدينة أمريستار Amritsar الواقعة في شمال غرب البنجاب المركز الروحي للديانة السيخية، وفيها يوجد معبد هارمندير صاحب Harmandir Sahib الذي يعرف في الكتابات الغربية باسم المعبد الذهبي Golden Temple. [المترجم].

الصفوية). وبعدها تلقى الإسلام الشيعي دعم الدولة الإيرانية، وبات يشكّل تحديا دائما للسلطة السنية عموما، لاسيما للسلاطين العثمانيين الذين انتحلوا لقب خليفة المسلمين بعد العام 1517. في بادئ الأمر، أسّس الصفويون دولة دينية مقاتلة، حاربت العثمانيين والأوزبك، لكنها في عهد الشاه عباس الأول (1588 - 1629) تبنت سياسة التسامح الديني، وشجعت الأرمن واليهود على الإقامة والتجارة في إيران، وذهب عباس أبعد من ذلك إلى حد الإسهام في الإنفاق على كنيسة مسيحية في عاصمته أصفهان سبق أن بناها تجار فرانسيسكان برتغاليون من غوا. كان جزء كبير من دخل عباس يأتي من التجارة الدولية، لاسيما تجارة الحرير، وتعهد الشاه الروابط التي وفّرتها الشبكة لتعزيز مكانته في مقابل جيرانه السنة المعادين. وكما حدث في الهند خلال عهد أكبر، أثبت الانفتاح الفكري أنه سياسة جيدة في إيران.

وفي أوروبا، جاء التحدي الأشد لإجماعية الكنيسة الكاثوليكية من حركة الإصلاح البروتستانتي التي ولدت في العام 1517. كانت المسيحية قد أفرزت الكثير من البدع، لكن أخمد معظمها أو حُوصر في أماكن نائية أو جبلية. لكن ذلك الوضع تغير عندما خَلُص وانغ يانغمن الألماني مارتن لوثر (1483 - 1546) - المحاضر الجامعي والكاهن الرهباني وابن عامل المناجم - إلى أن المسيحية كانت في حقيقتها التزاما شخصيا داخليا، وأن الخلاص يأتي من الإيمان وحده، وهي الأفكار التي نشرها في العام 1517، مستفيدا من المطبعة، إذ نشرت الكتيبات الرخيصة انتقاداته لممارسات الكنيسة في كل حدب وصوب، ووجدت قراء متقبلين، لاسيما في مدن شمال أوروبا. لم يكن بمقدور أي سلطة حينذاك أن توقف ذلك الانتشار، وذلك بسبب الحرية الكبيرة في انتقال المعلومات والبشر. وسرعان ما ظهرت تنويعات لأفكار لوثر في هولندا والمجر وأماكن أخرى، كان من بينها الكالفينية في سويسرا وفرنسا والأنجليكانية والمشيخية في بريطانيا. وكما فعل المسلمون الشيعة، شعر البروتستانت بأن التراتبية الدينية كانت عائقا بليدا ومتزمتا وفي الأغلب فاسدا يحول بين المؤمن وربه. وكما حدث مع الشيعة في إيران، وجد البروتستانت دعما سياسيا، جاء في الحالة الأخيرة من الأمراء الألمان الذين أرادوا - من أجل مصالحهم - الاستقلال عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ووجد البروتستانت تسامحا في مملكة فرنسا الكاثوليكية، عندما منح التاج

في العام 1598 قدرا معقولا من حرية العبادة للهوغونوت، وهو الاسم الذي عرف به البروتستانت الفرنسيون(*).

لم تجنح البابوية وأنصارها إلى التسامح طوعا، بل وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تقبل البروتستانتية لمجرد أنهم لم يتمكنوا من استئصال شأفتها، وهو ما استلزم طريقة تفكير جديدة داخل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي وجدت نفسها مضطرة إلى أن تتغير لكي تحافظ على أتباعها، فدعمت تجديدا روحيا ضمن الكاثوليكية نفسها، وتبنت الروحانية، وشجعت العمل التبشيري، وتعهدت الفنون والعمارة على نطاق واسع. وانطوت جهودها التي سُميت الإصلاح الكاثوليكي أو الإصلاح المضاد، على كل من قمع المنحرفين وإجراء البحوث عن الشعوب والأديان الغريبة. على الصعيد الأول، حاولت الكنيسة أن تفرض العقيدة والممارسات المتبعة عن طريق الاضطهاد القاسي لكل المهرطقين. وعلى الصعيد الثاني، رعت الكنيسة التقصي العلمي للأمور الفلسفية والدينية، حتى إنها دعمت الدومينيكان والفرانسيسكان و- بشيء من التردد - اليسوعيين الذين قضوا أعمارهم في دراسة الإسلام أو الهندوسية أو البوذية.

كان لهذه الفورة الفكرية والدينية من الصين إلى أوروبا أسباب كثيرة، كان بعضها محليا ونوعيا. تنوعت المدارس الفكرية والمذاهب الدينية المشاركة في هذه الفورة في تفاصيلها من مكان إلى آخر، حتى إنه يمكن القول إن تلك الحركات ربما لم تؤثر إحداها في الأخرى. فمارتن لوثر لم ينتبه إلى النجاح الصفوي أو وانغ يانغمن، فضلا على أن يستمدّ من أحدهما إلهاما. لكن يبدو من المعقول- مع ذلك- أن نقول إن المناخ العام للجلبة الفكرية والدينية وجد إسنادا في توسُّع الشبكة وترسُّخها وتسريعها وما رافقها من تتجير وتحضر وانتشار للإلمام بالقراءة والكتابة.

(*) ابتلعت الحروب الدينية (1562 - 1598) فرنسا بين أقلية الهوغونوت Huguenots البروتستانتية والأغلبية الكاثوليكية وبلغت ذروتها في مذبحة عيد القديس بارتليمي (1572)، ثم ساد التسامح في عهد الملك هنري الرابع (حكم 1589 - 1610) الذي اضطر إلى التخلي عن دينه البروتستانتي وتبني الكاثوليكية. لكنه مع ذلك أصدر في العام 1598 مرسوم نانت الذي منح الهوغونوت الحرية المدنية وقدرا كبيرا من الحرية الدينية. لكن في العام 1685 أبطل لويس الرابع عشر المرسوم وأعطى الكهنة الهوغونوت مهلة أسبوعين لمغادرة البلاد أو اعتناق الكاثوليكية وحظر على عامة الهوغونوت مغادرة البلاد، ومع عودة الاضطهاد، فر نحو أربعمائة ألف منهم إلى إنجلترا وهولندا وسويسرا وأمريكا، كان لبعضهم إسهام في الثورة الصناعية التي انطلقت في إنجلترا في نحو العام 1760، إذ كانوا في أغلبيتهم من الحرفيين المهرة. ولم يأتِ التسامح النهائي إلا بعد مائة سنة واثنتين عندما أصدر لويس السادس عشر في العام 1787 مرسوم فيرساي الذي عرف أيضا باسم مرسوم التسامح. [المترجم].

أما التحديات التي واجهت الفكر الإجماعي من الصين إلى أوروبا، فقد تضمنت عادة تشجيعا لمعتقدات ضميرية أكثر فردية وشخصية، وهو ما كان في حقيقته معارضة أثارتها عادة الأديان السائدة ذات البنية البيروقراطية.

تضييق الخناق الديني

لم تدم هذه الفورة وعصر التسامح الذي رافقها هنا وهناك. ففي اليابان التي جمع فيها المبشرون المسيحيون بعد العام 1543 أتباعا وأثاروا إعادة نظر في البوذية والشنتوية اليابانيتين، ضيّقت الدولة الخناق عليهم في العام 1614. وبحلول العام 1630 كانت الدولة قد أعادت نحو ثلاثمائة ألف مسيحي ياباني قسرا عن المسيحية أو قتلتهم(*). وفي الصين، أثار تحدي وانغ يانغمن في النهاية إعادة توكيد نشطة للإجماعية الكونفوشية وتأكيدا متجددا على النصوص الكلاسيكية، إذ بدا للكثيرين أن اللين الذي ساد في أواخر عصر المينغيين هو الذي أدى إلى انهيار الإمبراطورية وغزو المانشو البرابرة (التشينغيين). وأقنع العنف والفوضى المرافقان للغزو التشينغي للصين نحو (1630 - 1683) الكثير من المفكرين بضرورة العودة إلى الأساسيات. وحتى التشينغيون أنفسهم، عندما استتب لهم الأمر، شجعوا هذا الإصلاح الكونفوشي المضاد، إذ كان من شأنه أن يعزّز أوراق اعتمادهم بين الطبقة المتعلمة الذين كانوا في حاجة إلى تأييدها لكي يحكموا الصين، ولأن المذاهب الكونفوشية الكلاسيكية بتأكيدها على النظام والتراتبية كانت مواتية للحكام عموما. وفي الهند، نقض الأباطرة المُغال اللاحقون سياسة التسامح التي استنها أكبر، فشجع ابنه العداء للسيخ الذين ردوا على ذلك بترسيخ تقليد عسكري هائل. وأعاد ابن

(*) سمي القرن السادس عشر من تاريخ اليابان بـ«القرن المسيحي»، ففيه أدى الانفتاح أمام التجارة والبعثات التبشيرية الأوروبية إلى انتشار المسيحية، لاسيما بين القادة المؤثرين، ولقيت المسيحية دعم شوغونات (حكام) من أمثال نوبوناغا الذي رأى فيها ثقلا موازنا لتأثير الطوائف البوذية. ثم جاء الشوغون هيده - يوشي ليضيّق على التبشير الذي رأى فيه تقويضا لدعائم المؤسسات الثقافية والاجتماعية للبلاد، وهو نفسه ما فعله الشوغونان الأولان بشوغونية توكوغاوا حتى العام 1623. وأخيرا رأى الشوغون الثالث إيته - ميتسو Iemitsu (حكم 1623-1651) أن انتشار المسيحية يهدد الاستقرار السياسي للبلاد، ولذلك طرد المبشرين البرتغاليين. ربما كانت ثورة الفلاحين في العام 1637 المعروفة بثورة شيمابارا Shimabara التي كانت صرخة الحرب فيها بين المحاربين المسيحيين اليابانيين في جانب الفلاحين هي «سانتياغو» (وهو القديس يعقوب الراعي لإسبانيا الكاثوليكية وصيحة الحرب الدينية لدى كاثوليك شبه الجزيرة الأيبيرية)، تأكيدا على الخطر المتأصل في الدين المستورد. راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

حفيده أورانكزب Aurangzeb حكم (1658 - 1707) صوغ الأساس الأيديولوجي للدولة المُغالية بالإصرار على أن يكون كبار موظفي الدولة جميعا مسلمين، وإعادة التمييز الضريبي لمصلحة المسلمين (1689). ولم تؤدِ الثورات والقلاقل من جانب السيخ والهندوس وغيرهما إلا لتأكيد التساوي بين الولاء للدولة والهوية الإسلامية في نظر الحكام المُغال. وفي المقابل، فشل تضييق الخناق في أوروبا، صحيح أن الكنيسة الكاثوليكية انتصرت على التاج الفرنسي ونالت إبطال التسامح مع الهوغونوت (1685) ونقضت انتشار البروتستانتية في الأراضي البولندية والتشيكية(*)، لكن في بريطانيا وإسكندينافيا وهولندا وألمانيا وسويسرا والمجر وغيرها من الأماكن بقيت البروتستانتية في أشكال مختلفة، ما ضمن مستقبلا من التنوع الفكري والعنف الطائفي. ففي أوروبا، جعل التجزؤ السياسي والتدفق الحر والرخيص نسبيا للمعلومات الإخضاع الديني والفكري هدفا صعب المنال.

إجمالا، أمكن للحكام الأقوياء والواثقين بأنفسهم، مثل أكبر ومحمد الفاتح، أن يتبعوا سياسة التسامح الديني والفكري، وقد فعلوا ذلك من باب الحسابات السياسية والتفضيل والفضول الشخصيين. بينما وجد ورثتهم المحاصرون بالأعداء في الداخل والخارج - مثل أورانكزب - أن من مصلحتهم، وبما يوافق مزاجهم الشخصي، أن يضيِّقوا الخناق على ما اعتبروه بدعا وأن يفرضوا قدر الإمكان الالتزام بالأيديولوجيا والدين الرسميين. نجح ذلك على أفضل ما يكون في اليابان والصين، بينما لم ينجح في أوروبا التي لم تستطع الكنيسة الكاثوليكية فيها أن تمنع نصف أوروبا تقريبا من اختيار البروتستانتية.

التوسُّع الديني: الإسلام والمسيحية والبوذية

في الوقت الذي اجتازت فيه التقاليد الفكرية الكبرى في أوراسيا هذه العواصف، واجهت التقاليد المماثلة في الأمريكتين ومعظم أفريقيا وأوقيانوسيا أعاصير. فاختفى الكثير من الأديان المحلية، وانطمر غيرها في المسيحية في الأماكن التي آلت فيها السلطة السياسية سريعا إلى أيدي أوروبيين مسيحيين، كما حدث في الأمريكتين.

(*) راجع حاشية سابقة عن الحروب الدينية في فرنسا وانتقالها من اضطهاد البروتستانت إلى التسامح معهم، ثم معاودة الاضطهاد، وأخيرا التسامح الدائم. [المترجم].

لذلك احتفظت الكاثوليكية كما تمارس في المكسيك وبيرو بجوانب من الأديان ما قبل الكولومبية، إذ أعيد صب هذه الأديان في قوالب يمكن أن تتسامح معها الكنيسة. وفي أفريقيا، توسّعت المسيحية والإسلام كلاهما سريعا بين العامين 1450 و1800، واستدمجا في الأغلب ممارسات ومعتقدات محلية، ما أنتج نسخا متمايزة من هذين الدينين. وكما أوردنا في موضع سابق، فإن مناخ تجارة العبيد شجع البعض على تبني الهوية الإسلامية لحماية أنفسهم. وأينما نشط البرتغاليون ونسلهم البرتغاليون الأفارقة - كما في أنغولا وموزمبيق - ساد اعتناق المسيحية. ولما رأى ملك الكونغو مزايا توثيق الروابط مع البرتغاليين، اعتنق المسيحية إبان أوائل القرن السادس عشر. إجمالا، أوجدت التمزقات السياسية والاجتماعية المصاحبة لتوسُّع الشبكة مجالا خصبا لانتشار المسيحية والإسلام.

كما جذبت المسيحية والإسلام أتباعا جددا في المناطق النائية من الشبكة العالمية القديمة. فمع تأسيس الوجود الإسباني الرسمي في الفلبين (1571)، أدخل المبشرون معظم سكان الجزر في الكاثوليكية. وفي البنغال، توسّع الإسلام على حساب الدين المحلي ترافقا مع إزالة الغابات وانتشار الزراعة المستقرة التي حلّت محل الحياة الأكثر تنقلا القائمة على الصيد والجمع والإحراق والزرع. وفي أنحاء العالم كافة، عملت روابط الشبكة في مصلحة الأديان النقالة على حساب الأديان المحلية، أي لحساب العضوية في جماعة أكبر تمنح الكثير من الفوائد العملية، وربما النفسية. وأينما ساد التمسك الصارم بالتقاليد والمعتقدات المحلية، كانت العزلة هي النتيجة، فضلا عن الإبادة السياسية أينما كان بالقرب منهم مسلمون أو مسيحيون جهاديون.

شهدت البوذية توسُّعا كبيرا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. كان للبوذية التبتية منذ وقت طويل إسهام ضئيل في الحياة الدينية للمغول الذين كانت أغلبيتهم تتبع تقاليد شامانية محلية. لكن بعد اعتناق أحد الخانات لها في العام 1578 انتشرت البوذية تدريجيا بين القبائل المغولية، ما ساعد في تقوية الروابط التجارية وغيرها بين الهند والتبت والسهل المغولي. وفي العام 1601 اختير أحد المغول لمنصب الدالاي لاما، وسرعان ما أزهرت منغوليا أديرة بوذية بسرعة ظهور أزهار الربيع. وعلى ذلك، ففيما يتعلق بالأديان، فإن الشبكة العالمية القديمة حققت

مزيدا من الترسُّخ من خلال نشر الأديان التبشيرية/ الدعوية النقالة على حساب أديان الجماعات المحلية.

العلم

تمثَّل العنصر الأهم على الإطلاق في الدوّامة الفكرية التي شهدتها القرون من السادس عشر إلى الثامن عشر فيما سُمي الثورة العلمية، وهي ثورة لم تنتهِ بعد، كان يوجد في القلب منها فكرة أن التجربة والتفكير غير المكبّل طريقتان ملائمتان للتقصي، وأن الملاحظة والخبرة يجب ألا تذعنان لسلطة التقاليد، وهي أفكار كانت - ولاتزال - مقوضة في حقيقتها، ولذلك كانت دائما محل هجوم من السلطات الدينية والسياسية.

نجح ذلك الهجوم عادة - وليس دائما - في كبح الابتكار في مجال العلم، ومن ذلك مثلا أنه عندما مكَّنت العرب فتوحاتهم من وضع أيديهم على التراث المكتوب للدارسين الهلينيين والعبريين والهنود، فإن ذلك أطلق فورة رائعة في التقصي العلمي خلال القرون من السابع إلى الثاني عشر، إذ حاول العرب - والأتراك والفرس - أن يوفّقوا بين الاختلافات التي واجهوها، ولم يكن في تقاليدهم العلمية الكثير مما يستحق الحماية، فجمعوا بين حصاد الماضي والتعرض للعلم المعاصر من إسبانيا إلى الهند وبنية مؤسسية - المدارس madrassas الملحقة بالمساجد - مكَّنت الدارسين في الأغلب من متابعة ميولهم الفكرية. ثم توقفت هذه الفورة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ربما لأن العلماء المسلمين، لاسيما علماء الرياضيات والفلك والطب كانوا في ذلك الحين قد أنتجوا كما هائلا من الأعمال التي اكتسبت سلطة أشبه بالحقيقة الدينية واستلزمت الحماية من الأفكار الجديدة.

على غير المتوقع، لم تحدث الثورة العلمية في البلاد الإسلامية ولا الهند والصين، بل في أوروبا، وهو ما يمكن إرجاعه إلى سببين أساسيين، أحدهما داخلي يتعلق بأوروبا نفسها والآخر ليس كذلك. فخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر أفرزت أوروبا الجامعة المستقلة (راجع الفصل الخامس) التي كان لها وجود مؤسسي قانوني ميّزها كجماعة كان الدارسون فيها يتمتعون عادة بحرية مناقشة وتفنيد ما يشاءون. أفرزت هذه الجماعات – بدورها - أفكارا رعناء لا تحصى، اختفى معظمها

سريعا[3]. لم تتسامح السلطات الدينية والسياسية مع تلك المؤسسة وأفكارها إلا لأنها لم تستطع أن تسحقها في أوروبا الممزقة. وقد وفْر بقاء الجامعات للدارسين الأوروبيين جماعة داعمة لم يكن لها نظير في أي مكان آخر في العالم. ضمت أوروبا في العام 1500 أكثر من مائة جامعة، وفي العام 1551 كانت جامعات جديدة قد أزهرت في مكسيكو سيتي وليما.

وبعد العام 1450 كانت المعلومات من أنحاء العالم قاطبة تصب في أرخبيل الحرية الفكرية المتمثْل في أوروبا. وكما حدث مع العرب من قبلهم، وجد الأوروبيون أنفسهم أمام طوفان من المعلومات المتنافسة والمتناقضة، إذ أنتج الإبحار جنوب خط الاستواء ملاحظات لأجرام سماوية لم تكن معروفة - للأوروبيين - في السابق، وأثارت الأمريكتان كل أنواع الأسئلة الممكنة: هل يتحدر الأميريندييون أيضا من نوح؟ وهل كان حيوان اللاما أحد الحيوانات على سفينة نوح؟ ومن الهند جاءت بحوث نباتية تثبت وجود عوالم غير متخيلة. ومن خلال الاتصال الموسع مع مراكز العلم الإسلامية، جاء تراث ضخم من الأعمال الطبية والفلكية وغيرها من الأعمال العلمية، كان بعضها يقوم على أعمال أسلاف يونانيين قدماء سرعان ما حظيت أعمالهم بانتباه متزايد. من ذلك أن الفلكي البولندي نيكولاس كوبرنيكوس Nicholas Copernicus (1473 - 1543) الذي يرجع إليه الفضل في اكتشاف أن الشمس هي مركز النظام الشمسي وليس الأرض، قرأ أعمال بطليموس الأصلية، ولا شك في أنه استمدّ إلهاما من الأعمال التي أنتجت قبله بقرنين في مرصد مراغة بشمال غرب إيران، الذي تحدى فيه ابن الشاطر (توفي 1375) وعلماء آخرون أفكار بطليموس بالطريقة نفسها التي اتبعها كوبرنيكوس لاحقا.

كان تصنيف هذا الحصاد العالمي وتنظيمه وإعمال العقل فيه عملا صعبا، وانطوى أحيانا على شيء من الخطر. فقد أثار حتما تحديات للأفكار السائدة، لكن لم تكن هناك سلطة تستطيع أن تكبح هذه التحديات، بل وجدت هذه الأفكار في الجامعات دعما مؤسسيا[4]. وبفضل المطبعة، انتشرت هذه الأفكار سريعا وبتكلفة منخفضة. بذلت الكنيسة الكاثوليكية محاولات متقطعة لإطفاء أنوار الثورة العلمية، ومن ذلك أن مارتن لوثر حاول – من دون جدوى - أن يمنع نشر كتاب كوبرنيكوس. وفي العام 1559، بدأت البابوية في تحريم كتب بعينها اعتبرتها هدامة، وهو التقليد

الذي لم تقلع عنه البابوية إلا في العام 1966(*). وبعد محاكمة دينية، وُضِع الفلكي غاليليو غاليلي Galileo Galilei (1564 – 1642) الذي دافع عن آراء كوبرنيكوس، قيد الإقامة الجبرية في فلورنسا في العام 1616. لكن هذه الإجراءات كانت غير كافية بحال من الأحوال، إذ كان في مقدور غاليليو أن ينشر أفكاره المسيئة في هولندا البروتستانتية، وهو ما فعله فعلا.

وكما حدث مع صقل فنون الملاحة، كانت الثورة العلمية عموما في حاجة إلى مشهد سياسي يوفِّر فضاء محميا للمفكرين، وإلى ظروف أوسع مواتية لتدفق الأفكار والمعلومات عبر المسافات الطويلة. وقد توافر المشهد السياسي اللازم بفضل التجزؤ السياسي - وبعد العام 1517 التجزؤ الديني المتزايد - لأوروبا، جنبا إلى جنب مع مؤسسة الجامعة الفريدة. وتوافر تدفق المعلومات عن طريق المطبعة والسفر عبر المحيطات.

يفسر اجتماع هذه الظروف أسباب وقوع الثورة العلمية في أوروبا دون أي مكان آخر. ففي الصين، بداية من زمن المينغيين حتى أوائل القرن العشرين، جعل نظام الامتحانات التعليم يتمحور حول التحصيل الأخلاقي والأدبي والجمالي. ولم يجد العلماء الصينيون دعما مؤسسيا كافيا، وكان التقصي الحر والأفكار الراديكالية يثيران عادة معارضة حكومية ناجحة. ولم يترك الحصاد المعرفي الذي تراكم من بعثات تشنغ خه إلا أثرا ضئيلا في العلم الصيني، ولم يولِّد برنامجا متواصلا للبحث العلمي فيما وراء البحار.

لذلك كان الأوروبيون وحدهم هم الذين طوَّروا ثقافة للتقصي العلمي قدمت بعد العام 1500 معرفة عملية هائلة. حدث تقدم الملاحة والفلك أولا، تلتهما الفيزياء وعلم المقذوفات - المفيد للمدفعية - ثم علوم الطب والنبات والكيمياء وغيرها بخطى أبطأ. وتدريجيا، أنتجت هذه العلوم فوائد عملية في الشؤون العسكرية والزراعة والتعدين والتعامل مع المعادن وغيرها من المجالات. أكسبت هذه العلوم - لا سيما العلوم العسكرية كالتحصين وقذائف المدفعية والتنظيم الدقيق رياضيا للرجال والإمدادات - دولا أوروبية صغيرة قوةً هائلة بداية من

(*) لم تسحب البابوية رفضها آراءَ غاليليو إلا في العام 1993. [المترجم].

أواخر القرن السادس عشر(*). وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، غدا العلم في أوروبا - وفي الولايات المتحدة - يرشُد التقنية، ما ولّد عملية ذاتية الدفع من التغير التقني لا تلوح لها نهاية في الأفق.

التيارات السياسية

«من فوهة البندقية تنبع السلطة كلها»، هكذا قال ماو تسي تونغ Mao Zedong. وبحلول القرن السادس عشر، كانت تلك المقولة قد تحققت على أرض الواقع. كانت الفترة 1450 - 1800 عاصفة على الصعيد السياسي، تماما كما كانت على الصعيد الفكري. تمثّل الاتجاه العام الواضح في إقدام الأسماك الكبيرة على التهام الأسماك الصغيرة. فالدول والحكام الأكفأ في جباية الضرائب، والأقدر بالتالي على الاحتفاظ بولاء عسكرييهم والتكيف مع الطبيعة المتغيرة للحرب، قد حظوا بعائدات متزايدة لقرن أو اثنين، وكلما كبرت الدولة كان من الأسهل عليها أن تكبر أكثر وأكثر. ووصلت عملية المركزية السياسية والتوسّع نهايتها عندما أخذت الأسماك الكبيرة تصطدم بعضها ببعض، وعندما أعجزت مسافات الإمداد الطويلة حتى أكبر الأسماك عن أن تظهر قوتها بفعالية.

لا ريب في أن السلطة تنبع من الأخلاق والكاريزما والثروة ومصادر أخرى، لكنها تأتي في النهاية من القوة والتهديد باستخدام القوة. وفي السنوات 1420 - 1700، شهد استخدام القوة تغييرات حادة جعلتها أكثر كلفة في نشرها، ما فرض مطالب جديدة على الدول والمجتمعات، وأعطى الأسماك الكبيرة ميزة استغلتها بلا هوادة. انطوت هذه العملية على أربعة مكوِّنات أساسية: أساطيل المحيطات، والمدافع والتحصينات، والجيوش الدائمة المنضبطة المدربة على اصطفاف السلاح(**)، والتنظيم الإمدادي المحكم لإسناد جيوش يصل تعدادها إلى مئات الآلاف من الجنود

(*) من ذلك أن دولة البرتغال التي كانت رائدة الاستكشاف والإمبريالية ومن أول القوى الأوروبية التي شكّلت إمبراطورية بحرية فيما وراء البحار في المحيط الهندي وفي الأمريكتين، لم يزد عدد سكانها خلال القرن السادس عشر على مليون وربع المليون نسمة، ولم يزد عدد الذكور البرتغاليين القادرين على حمل السلاح في حروب الشرق في أي وقت على عشرة آلاف. لكنها عوضت عن ذلك بالقوة العسكرية. راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

(**) اصطفاف السلاح close - order drill: تدريب عسكري يقوم على تغيير مواضع السلاح مثل «جنبا سلاح» و«كتفا سلاح» والمشية العسكرية المنضبطة بالسلاح في أوضاع مختلفة. [المترجم].

وعشرات الآلاف من الخيل[5]. شكّلت هذه المكوّنات معا الثورة العسكرية التي كانت القوة الدافعة الأهم في السياسة العالمية في تلك الحقبة.

الأسماك الكبيرة

كانت الأسماك الكبيرة تشترك جميعها إلى حد كبير في هذه التطوّرات الثورية، فذلك هو ما جعل منها أسماكا كبيرة. كانت الأسماك الأكبر بالترتيب التنازلي لعدد السكان هي الصين التشينغية ومناطقها الحدودية، ثم الإمبراطورية المُغالية في الهند، ثم الإمبراطورية العثمانية في جنوب غرب آسيا وجنوب شرق أوروبا وشمال أفريقيا، ثم الإمبراطورية الهابسبرغية في أوروبا والأمريكتين والفلبين.

بدأ التشينغيون باعتبارهم سلالة منشورية تدخلت في حرب أهلية في الصين في عهد المينغيين، حرضوا خلالها الأطراف بعضها ضد بعض، ثم استولوا فجأة على العاصمة بيجين في العام 1644. واجه التشينغيون أربعين سنة أخرى من الصراع قبل أن تستكين الصين كلها لهم أخيرا، وعمدوا - بالتزامن مع ذلك - إلى تأمين تخومهم البحرية من خلال كبح القراصنة الذين كان أحدهم، هو تشنغ تشينغ غونغ (توفي نحو 1662)، يقود آلاف الأتباع(*). انتزع التشينغيون تايوان في العام 1683، وبعد ذلك حوّلوا طاقاتهم نحو تخوم آسيا الداخلية إلى الاتحادات المغولية والإمبراطورية التبتية، وهي المنطقة التي تعقدت الأمور فيها بظهور روسيا لاعبا في سياسة السهل بعد العام 1640. إجمالا، أصاب التشينغيون نجاحا كبيرا في حكم الصين، وفي حكم السهل الشرقي، وفي الحفاظ على هوية مختلطة كأمراء حرب سهليين وأباطرة صينيين. فعند اعتلائهم العرش، كانت إمبراطوريتهم تضم نحو مائة وأربعين مليون إنسان، زادوا بحلول العام 1800 إلى أكثر من ثلاثمائة وخمسين مليونا، أي أكثر من ثلث عدد البشرية كلها. أسهم الإمبراطوران العظيمان والمعمران كانغ شي Kangxi (حكم 1662 - 1722) وحفيده تشيان لونغ (1736 - 1795) في دعم الاستمرارية

(*) تشنغ تشينغ غونغ Zheng Cheng - gong: يعرف في الغرب باسمه الصيني الدارج المبجل كوشينغا Honorific Koxinga قرصان صيني - ياباني قاوم غزو سلالة تشينغ للساحل الجنوبي الشرقي للصين لمصلحة سلالة مينغ. واحتل المراكز الهولندية في تايوان وأسّس على الجزيرة مملكة كجزء من الحركة الموالية لإعادة سلالة مينغ عرفت باسم مملكة تونغنينغ Tungning ضمتها الصين في العام 1683 بسبب الانقسامات التي نتجت عن موت تشنغ جينغ Zheng Jing ابن كوشينغا من دون أن يترك وريثا شرعيا للحكم. [المترجم].

المتفردة لسلالة تشينغ وتخليصها من صراع الخلافة، فاستمرت هذه السلالة حتى العام 1911.

كان المُغال في الأصل جماعة من الأتراك المسلمين من وادي فرغانة الواقع في أوزبكستان الحالية. وبعد أن هُزموا أمام جيوش آسيا الوسطى والأفغان، دخلوا الهند في محاولتهم الخامسة لغزوها وأطاحوا بسلطنة دلهي في العام 1526 مستفيدين من ميزة استخدام مدفعية الميدان. وبعد أزمة خلافة، أسّس أكبر بداية من العام 1556 إمبراطورية، اعتمادا على توازن دقيق بسبب الأغلبية الهندوسية في الهند، وسرعان ما دانت لهم الهند وازدهرت إمبراطوريتهم، لأن شمال الهند كان أرضا خصبة وكثيرة السكان، إذ كان ما بين مائة مليون ومائة وخمسين مليون إنسان يعيشون تحت سيطرة الإمبراطورية المُغالية خلال القرن السابع عشر، وكانت عائدات الدولة أربعة أضعاف عائدات فرنسا. لكن كانت أزمات الخلافة متكررة بسبب عدم وجود قواعد مستقرة للخلافة، إذ كان على كل إمبراطور أن يخشى على جميع أبنائه الذين كان كل منهم يعد نفسه للوصول إلى العرش من خلال حشد القوة وبناء التحالفات واغتيال المنافسين. فبعد أن يموت الإمبراطور، كانت تندلع عادة حرب أهلية ويضطر المنتصر فيها إلى إفناء كل إخوته أو التخلص منهم بشكل أو بآخر، وربما أيضا أبناء إخوته وأخواته، وهو التقليد الذي اتبع على نطاق واسع في العالم الإسلامي، ومن ضمنه الإمبراطورية العثمانية حتى منتصف القرن السابع عشر(*)، وتسبب في أزمات خلافة وحروب أهلية متكررة، لكنه ضَمِن وجود حكام أقوياء، إذ لم يكن ينجو من عملية الانتقاء هذه غير بضعة حكام ضعفاء أو عاجزين عسكريا، في حين كانت أغلبيتهم من الحكام الأقوياء. واستمرت الإمبراطورية المُغالية رسميا حتى العام 1857، لكن سلطتها الحقيقية تبخرت بعد العام 1707، عندما حشدت القوات الهندوسية قوة لم يكن في مقدور أي إمبراطور مُغالي أن يكبحها.

تناول الفصل الخامس الأعمال المبكرة للإمبراطورية العثمانية، وهي الأخرى سلالة مسلمة وتركية، ترجع أصولها إلى شمال غرب الأناضول. على الرغم من ضربة

(*) ثمة تقليد مماثل كان متبعا في الإمبراطورية العثمانية، على الأقل قبل عصرها المتأخر، وفي ذلك كتب محمد الفاتح: «يتعين على ابني الذي يرث عرش السلطان - أيا كان من هو - أن يقتل إخوته من أجل مصلحة النظام العالمي [الإمبراطورية العثمانية]. وقد أقرّه معظم الفقهاء على هذا الإجراء، لتسير الأمور على هذا النحو»، ما جعل الإمبراطورية العثمانية «مملكة بلا أمراء». راجع كتاب «القسطنطينية». [المترجم].

قاصمة على يد تيمورلنك في العام 1402، اتسعت الإمبراطورية العثمانية سريعا بداية من نحو العام 1415 وفتحت القسطنطينية في العام 1453، ومكّنها استخدامها الحكيم لمدفعية الميدان والمشاة المسلحين بالبنادق من تحقيق مزيد من التوسّع على مدار قرن أو أكثر، مستفيدين في ذلك من سياسة استمالة الزعماء المهزومين وتجنيدهم ضمن المراتب العليا للمجتمع العثماني. وبحلول العام 1550، كانت الإمبراطورية العثمانية تمتد من الفرات في الشرق إلى الدانوب في الشمال الغربي، إلى الصحراء الكبرى جنوبا. وبلغ عدد سكانها ما بين عشرين وخمسة وعشرين مليونا، ربما زادوا إلى ثلاثين مليونا بحلول العام 1800. وبعد العام 1517، آل إليها دخل مصر الذي شكّل فترةً زهاء ربع العائدات العثمانية، والمدينتين المقدستين مكة والمدينة اللتين سوغت حمايتهما للسلاطين العثمانيين انتحال لقب خليفة المسلمين. وعلى الرغم من صراعات الخلافة المتكررة من النوع الذي أُبتليت به الإمبراطورية المُغالية والحروب المتكررة ضد إيران وروسيا والبندقية والهابسبرغيين، دامت الإمبراطورية العثمانية حتى العام 1923.

ترجع أصول الهابسبرغيين Habsburg، وهم آخر سمكة كبيرة لدينا، إلى سويسرا. أصبح رأس العائلة رودولف الأول Rudolf I إمبراطورا رومانيا مقدسا في العام 1273، ونصّب ابنه حاكما للنمسا. ومن خلال الزواج والوراثة، ضم الهابسبرغيون لاحقا هولندا في العام 1477 وإسبانيا في العام 1516 وعدة أقاليم أخرى في أوروبا: لوكسمبورغ وبيرغندي وبوهيميا والمجر وصقلية ونابولي وميلانو. كان انتحالهم لقب الإمبراطور الروماني المقدس هو المقابل المسيحي لانتحال العثمانيين لقب خليفة المسلمين. فكانوا دائما في تحالف مع الكنيسة الكاثوليكية وفي قيادة الحرب الصليبية ضد البروتستانتية والإسلام، وعملوا بقوة على تأكيد سيادتهم على كل العالم المسيحي، تماما كما فعل العثمانيون ضمن العالم الإسلامي. وفي أوروبا، شملت مناطق سيادتهم نحو عشرين مليون إنسان في العام 1550، أي ما بين ثمانية عشر وعشرين في المائة من إجمالي سكان أوروبا. وفي الأمريكتين عدة ملايين أخرى أخذت تتراجع سريعا. ومثل العثمانيين، تمتع الهابسبرغيون بميزة كبيرة على جيرانهم خلال القرن السادس عشر، عندما تعاظمت قوتهم بفضل تبنيهم المبكر للأساليب العسكرية والمالية الجديدة. وتمتعوا أيضا بإعانة مالية في

شكل الفضة التي كانت تأتيهم من الأمريكتين والتي شكّلت بحلول العقد الخامس من القرن السادس عشر ما بين عشرة وعشرين بالمائة من عائداتهم. وقد دام الفرع النمساوي لآل هابسبرغ حتى العام 1918، إذ لم يقضِ عليهم - أيضا مثل العثمانيين - إلا فورة الحرب العالمية الأولى.

شاركت هذه الإمبراطوريات الكبرى كلها في الثورة العسكرية بدرجة أو بأخرى، وأخذت تلتهم جيرانها الأصغر إلى أن اصطدمت بأسماك كبيرة أخرى أو إلى أن وصلت إلى نهاية خط إمدادها. ترك ذلك مجالا صغيرا لبعض الأسماك متوسطة وصغيرة الحجم مثل اليابان (سبعة عشر مليون إنسان في العام 1500، ثم ثمانية وعشرين مليونا في العام 1800 ما جعلها سمكة كبيرة من حيث عدد السكان، لكن ليس من حيث مساحة الإقليم والموارد) وإيران (من أربعة إلى ستة ملايين). وكثيرا ما كانت الأسماك متوسطة الحجم التي تبنت شيئا من الابتكارات العسكرية، تلتهم الأسماك الصغيرة. وبهذه الطريقة، نشأت إمبراطوريات متواضعة على حواف القوى العظمى. وفي النهاية، ساعدت بعض التقنيات العسكرية الجديدة في بناء إمبراطوريات صغيرة بعيدا من مراكز القوة - في مدغشقر وإثيوبيا وشمال سومطرة وهاواي - كانت هي الأخرى جزءا من الثورة العسكرية.

الثورة العسكرية

سردنا فيما سبق قصة ظهور أساطيل المحيطات. مما ينبغي ملاحظته أن الأوروبيين الأطلسيين هم الذين شيّدوا هذه الأساطيل وطوّروها ووسّعوها، وأن الصينيين شيّدوا أسطولا وتخلوا عنه، وأن قوة أخرى غير هؤلاء لم تشيّد أسطولا حتى القرن التاسع عشر. صحيح أن سلطنة عُمان شيّدت أسطولا هائلا في غرب المحيط الهندي خلال القرن الثامن عشر وأن سلطنة آتشيه (شمال سومطرة) كان لها أسطول محلي ضخم، لكن هذين الأسطولين لم يجوبا على نطاق واسع بعيدا عن بلديهما. وحتى سمكة كبيرة مثل الإمبراطورية المُغالية حصرت انتباهها في الأهداف الإقليمية ولم تشيّد أسطولا كبيرا، مع أن أكبر أبدى اهتماما بالتقنية البحرية خلال العقد الأخير من القرن السادس عشر. وشيّد العثمانيون أسطولا ضخما، لكنهم حصروا أنفسهم في القوادس ذات المجاديف التي كانت على الرغم من فاعليتها

في البحر الأبيض المتوسط والبحار المغلقة الأخرى، غير قادرة على إظهار القوة في أعالي البحار. فلم يشيِّد أي من هذه القوى قبل القرن الثامن عشر سفنا قوية بما يكفي للاستخدام كمنصات للمدافع. معنى ذلك أن ابتكارات الأوروبيين الأطلسيين في القوة البحرية لم تنتشر سريعا عبر أنحاء العالم قاطبة، ما أعطاهم ميزة عسكرية دائمة أينما أبحرت بوارجهم.

كانت الجيوش الأوروبية الغربية تستخدم مدافع الميدان منذ نحو العقد الثالث من القرن الخامس عشر، وسرعان ما شرعت الجيوش العثمانية في استخدامها. وخلال العقد قبل الأخير من ذلك القرن، وفي سياق حرب إسبانيا المسيحية المظفرة على مملكة غرناطة المسلمة، تعلمت الجيوش كيف تنقل وتستخدم عشرات المدافع التي تجرها مئات الخيل. وفي العام 1494، دخلت قوة فرنسية إيطاليا بتجهيزات مماثلة، وأثبتت كيف يمكن لقوة مدفعية نقالة أن تدك الأسوار العمودية للقلاع سريعا وتدمر معقلا بعد آخر. ومن أجل مجابهة هذا السلاح الجديد، شرع المهندسون الإيطاليون بحلول العقد الثالث من القرن السادس عشر في ابتكار تحصينات جديدة بأسوار طينية منحدرة يمكنها أن تمتص ضربات قذائف المدفعية. وقد عمل ميكيل أنجلو Michelangelo وليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci كلاهما فترةً على تصميم القلاع باستخدام الهندسة نفسها التي تكمن وراء لوحاتهم وعمارتهم المدنية. كان لزاما أن تكون القلاع الجديدة ضخمة، وأن تصمم وتبنى بجدية وعناء (كانت القلعة الواحدة تأخذ غالبا عشرين عاما حتى تشيَّد على النحو الملائم)، وأن يحميها ما بين ألف وثلاثة آلاف رجل، وأن تكون مملوءة بالمؤن، وأن تكون لها مدافعها، وهو أمر مكلف. لكن تكلفة التقاعس عن بناء هذه القلاع كانت الهزيمة أو الاستسلام، لاسيما إذا كان الأعداء يملكون مدفعية متمكنة.

جاء المكوِّن الثالث للثورة العسكرية لاحقا. فبحلول العقد السادس من القرن السادس عشر، كانت بعض الجيوش الأوروبية تستخدم «مسكيتات» موثوق بها إلى حد ما(*)، وبحلول العقد الأخير من القرن السادس عشر وجدت هذه الجيوش أنه من الفعال ترتيب المسكيتيين في صفوف متوازية بغرض إطلاق وابل من النيران.

(*) المسكيت musket: بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة، والمسكيتي هو الجندي الذي يستخدمها. [المترجم].

وتبنت بعض الجيوش اليابانية ذلك الترتيب فعلا بحلول العقد الثامن من القرن السادس عشر، لكنهم لم يأخذوا الخطوة التالية الحاسمة. فبين العامين 1590 و1610، بدأ القادة العسكريون الهولنديون، بعد أن قرأوا أدلة التدريب العسكري الرومانية حول كيفية تدريب الفيالق للمعركة، في وضع نظام متقن لاصطفاف السلاح (وسرعان ما كتبوا أدلة تدريبات لأنفسهم)، وفرضوا على جنودهم قضاء ساعات لا تُحصى في ساحات الاصطفاف وممارسة الحركات المتزامنة التكرارية. كان الهدف من ذلك هو تمكين مجموعة كبيرة من الرجال من التصرف كفرد واحد، والتجاوب آليا مع الأوامر، وحشو بنادقهم وإطلاقها وإعادة حشوها سريعا من دون إصابة رفاقهم أو قتلهم. ربما كان من النتائج الأخرى لذلك تعزيز ترابط المجموعة وولائها، إذ تعزّز الحركة المتزامنة الارتباط بين البشر. وفي خضم لهيب المعارك، يستطيع الرجال جيدو التدريب أن يصمدوا ويحشوا بنادقهم وينتظروا أمر الإطلاق، حتى لو كان رفاقهم الأقربون يتساقطون عن أيمانهم وشمائلهم، وهو ما لم يكن بوسع جيش في العالم أن يفعله من دون تدريب. كان اصطفاف السلاح مكلفا، إذ كان الأمر يستغرق سنوات من التدريب حتى تصبح الوحدات منضبطة، كما أن الحفاظ على تلك الجاهزية استلزم جيشا دائما من الرجال منفصلا عن المجتمع المدني. وكان لزاما كذلك إطعامهم وكسوتهم وإيواؤهم، وإلا استخدموا مهاراتهم ضد ذلك المجتمع المدني. ومع أن ذلك الجانب للثورة العسكرية كان مكلفا مثل سابقيه، فإن الهزيمة كانت تكلفة التقاعس عن تبنيه، لاسيما إذا تبناه العدو.

أما المكوّن الأخير للثورة العسكرية، فتمثّل في التموين والإمداد المنظمين. فمع نمو أحجام الجيوش، ومع ضرورة استخدام الفرسان والمشاة والمدفعية في تشكيلات فعالة، وضرورة بناء سلاسل من القلاع وإمدادها، وضرورة القيام بذلك كله بعيدا عن الوطن وعبر تضاريس متنوعة في حال النجاح في الحرب، غدت مشكلات إمداد الجيوش أشد تعقيدا بكثير من أي وقت مضى. فكانت ماكينة الحرب الناجحة تحتاج إلى الرجال والخيل وكذلك إلى إطعامهم، جنبا إلى جنب مع الحديد والصُلب والجلد والبارود وغير ذلك الكثير. وكانت أيضا في حاجة إلى جنود المشاة والفرسان وجنود المدفعية والحدّادين وعمال صب المدافع والطباخين والمهندسين وخبراء الألغام والبغّالين، وكانت أيضا في حاجة إلى خيل لسلاح الفرسان وخيل للجر، وربما بغال

وثيران وإبل وفيلة حرب. كما أنها كانت تحتاج إلى ذلك كله بكميات كبيرة، وفي الأماكن الصحيحة والأوقات الصحيحة، وكانت في حاجة إلى نقل ذلك كله عبر أنهار وجبال. تطلب إنجاز ذلك بيروقراطية عسكرية ملمة بالحساب والقراءة والكتابة، مع أن رجال القلم كانوا عادة محل استخفاف رجال السلاح.

ونتيجة لأن ذلك كله كان مكلفا، فرضت الثورة العسكرية ضغوطا كبيرة على الحكام والمجتمعات. وقد أصاب قائد برتغالي عندما قال إن النصر يكون من نصيب الملك الذي يبقى معه آخر إسكودو(*). كانت الطرق المتاحة للحصول على المال المطلوب تتمثّل في اقتراضه أو انتزاعه أو وضع نظام ضريبي، وهي طرق تداخلت معا في الكثير من الحالات. كان الاقتراض يعني إيجاد نظام مصرفي، وهو تطوُّر حدث في إيطاليا والبلاد الواطئة ولاحقا في إنجلترا. اعتمدت ماكينة الحرب الهابسبرغية على قدرة الملوك على اقتراض المال، كما فعلت الماكينة الإنجليزية الأصغر. كان من شأن انتزاع الثروة بالطبع أن يخلق أعداء، لكن الثروة إذا انتزعت من أعداء حاليين، فإن ذلك كان يعني إصابة عصفورين بحجر واحد. وفعلت الإمبراطورية العثمانية المبكرة والإمبراطورية المُغالية ذلك باقتدار من خلال جمع الغنائم من حروب التوسُّع في التخوم، ومن خلال ذلك موّلتا ماكينة الحرب والدولة. وفي حين كان انتزاع المال من داخل حدود الدولة يولِّد خطر الثورة، فقد أثبت أحيانا أنه لا يقاوم، لاسيما عندما كانت المؤسسات الدينية تجلس فوق ثروة كبيرة. لذلك كان تأسيس نظام ضريبي موثوق به خيارا أفضل لكل من الحكام والمحكومين، مع أنه لم يكن مستساغا. وبالنسبة إلى الحكام كان من الأنسب دفع الضرائب نقدا وليس سلعا. وخلال القرن السادس عشر، فرض الصينيون ضرائب كانت تُدفع في شكل فضة فقط، وكذلك أصاب المُغال شيئا من النجاح في تنقيد نظامهم الضريبي، وهو ما فعله العثمانيون أيضا. كان النظام الضريبي للهابسبرغيين كفئا نسبيا ودعمته عائدات إنتاج الفضة الأمريكية، لكنهم كانوا مع ذلك في حاجة متكررة إلى المموِّلين بسبب طموحاتهم العسكرية الكبيرة. وبحلول العام 1550، كان الهابسبرغيون يضطرون إلى دفع أسعار فائدة سنوية وصلت إلى نحو خمسين في المائة للنقد الجاهز من المموِّلين، وهو

(*) الإسكودو escudo: عملة إسبانية وبرتغالية قديمة. [المترجم].

مؤشر على أن المموّلين لم يكونوا يثقون بمالية الهابسبرغيين. خلاصة القول إن الحاكم الذي يريد مجاراة الثورة العسكرية كان في حاجة إلى نظام مالي متقدم. كانت معظم الأسماك الكبيرة تنفق ما بين سبعين وتسعين في المائة من عائداتها على ماكيناتها الحربية.

يمكن القول - بإيجاز - إن هذه الحزمة من الابتكارات شملت جانبا ماديا تمثّل في السفن والمدافع والمسكيتات والبارود والتحصينات، وجانبا تشغيليا تمثّل في التدريب العسكري والهندسة العسكرية والجهاز الإمدادي - البيروقراطي والنظم المالية.

تأثيرات الثورة العسكرية

تطوّرت هذه الحزمة وانتشرت حول العالم على نحو متفاوت، وتشكّلت الماكينات العسكرية والنظم المالية في سياقات مجتمعات وبيئات قائمة وناشئة، وتنوعت الحوافز الدافعة إلى - وكذلك العقبات الحائلة دون - تبني أجزاء من هذه الحزمة. فمصر بلا خشب لم يكن في مقدورها أن تشيِّد واحدا من أساطيل المحيطات، ولم يكن في مقدور المجتمعات الأمية أن تبني بيروقراطية تموين على أي نطاق، ولا بوسع الرعاة البدو أن يشيِّدوا قلاعا. كان في مقدور المجتمعات التي تمتعت بتقاليد فروسية قوية أن تبني جيوشا من المدفعية والمشاة، وأن تنخرط في «عمل الخُلْد» - بتعبير نبيل بولندي - في مجال التحصينات، لكنها لم تفعل ذلك في معظم الأحيان(*). ولم تستطع المجتمعات الإسلامية المتمسكة بالتحريم القرآني للإقراض بفائدة، أن تبني نظما مصرفية بسهولة[6]. تفسر هذه القيود البيئية والاجتماعية والثقافية الانتشار المتفاوت للثورة العسكرية.

وتأثر تبني مكوّنات الثورة العسكرية من عدمه بميول كل حاكم ومواهبه، كما تأكد من عرضنا أعمال الأمير هنري الملاح، ومحمد الفاتح الذي تبنى المدفعية بلهفة، وغوستاف أدولف Gustavus Adolphus (1564 – 1632) الذي جعل السويد قوة

(*) «عمل الخُلْد» mole's work، تشبيها للعمل الدءوب المطلوب للتحصينات بحيوان الخلد الذي لا يتوقف عن حفر الأنفاق تحت الأرض. وينطبق وصف المجتمعات ذات تقاليد الفروسية القوية التي لم تبنِ جيوشا قائمة على المدفعية والمشاة والتحصينات مع أنها كانت قادرة علي ذلك، على مصر المملوكية. فبسبب تقديرهم للفروسية، أحجم المماليك عن تبني مدفعية الميدان وغيرها من مكوّنات الثورة العسكرية، ما تسبب في هزيمتهم أمام البرتغاليين في معركة ديو البحرية وأخيرا انهيار دولتهم أمام الغزو العثماني. [المترجم].

إقليمية بعد العام 1611 من خلال الجمع بين المشاة المدربين ومدفعية الميدان. وفي اليابان، تبنى أمير الحرب أودا نوبوناغا Oda Nobunaga (1534 – 1582) خلال العقد السابع من القرن السادس عشر المسكيتات، وخلال العقد قبل الأخير من القرن نفسه أدمج خليفته تويوتومي هيده – يوشي Toyotomi Hideyoshi (1536 - 1598) كلا من مدفعية الميدان والتحصينات المضادة للمدفعية في النظام العسكري الياباني. ورد الزعيم المانشوي هونغ تاي تشي Hong Taiji (1592 - 1643) على هزيمة ساحقة أمام قوات الصين المينغية في العام 1626 ببناء قوات مدفعية ساعدت المانشو في الاستيلاء على السلطة في الصين. كان من الوارد أن يتجاوب هؤلاء الرجال مع الأحداث بطرق مختلفة، لكنهم لم يفعلوا، ولذلك كانت أفعالهم مؤثرة.

تطوّرت معظم مكوّنات هذه الحزمة أولا في أوروبا والإمبراطورية العثمانية: مدفعية الميدان، والقلاع المزودة بالمدفعية والمشاة المسلحين بالبنادق. وابتكر الأوروبيون تدريب اصطفاف السلاح وطوّروا أساطيل المحيطات المجهزة بالمدافع. وسرعان ما انتشرت الابتكارات عبر أوروبا. من ذلك مثلا أن أدلة التدريب العسكري الهولندية تُرجمت ونُشرت بأكثر من عشر لغات. فقد كانت تكاليف المعلومات منخفضة، وكان الدافع إلى تعلم الطرق الجديدة كبيرا. وانتشرت المكوّنات التشغيلية على نطاق واسع في غرب أوراسيا، لكنها لم تصل إلى الجميع هناك. كانت المكوّنات المادية مكلفة لدرجة أن بضعة حكام فقط هم الذين تحمّلوا تكاليفها، أما البقية فهم إما تعرضوا للدمار وإما أصبحوا تابعين. وكانت الدول الأكثر نجاحا هي الممالك الهابسبرغية وفرنسا وهولندا - التي كانت تفتقر إلى الكثير من المواد الأولية اللازمة للحرب، لكنها عوّضت عن ذلك بالقوة البحرية والتجارة - والسويد، وأخيرا - بحلول العام 1690 - إنجلترا وروسيا.

شارك العثمانيون بقوة في الكثير من جوانب الثورة العسكرية - وليس كلها - فاستخدموا المدفعية، وشيّدوا القلاع المزودة بالمدفعية، وربما أنشأوا أفضل جهاز إمداد في العالم. واستخدمت قوات الانكشارية الشهيرة البنادق بفعالية كبيرة، لكنها لم تتبنّ التدريب المنتظم(*). وظل أسطولهم مكوّنا من سفن القادس،

(*) كان عدم تبني التدريبات المنتظمة راجعا إلى رفض الانكشارية نفسها لأي جديد كما سيأتي في حاشية لاحقة. [المترجم].

واعتمد نظامهم المالي على الغنائم - الانتزاع - والضرائب، ولم يسمحوا للأعمال المصرفية بأن تزدهر، مع أنهم كانوا غالبا ينتزعون قروضا إجبارية من رعاياهم. كان العثمانيون مُلمين على نحو كامل بالمعلومات المتعلقة بكل مكوّنات الثورة العسكرية في أوروبا، وذلك من خلال خبرات المعارك ومن الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام ومن الكتب الأوروبية. لذلك كانت اختياراتهم مقصودة ومتروية، عندما لم يُنشئوا أسطولا من السفن الشراعية وعندما تجنبوا التدريب العسكري الحديث(*).

استفاد المُغال من مدفعية الميدان، على الأقل بداية من العقد الثالث من القرن السادس عشر، ومن المسكيتات أيضا. واعتمدوا على سلاح الفرسان، لاسيما في بدايات الإمبراطورية، وواجهوا صعوبات في السيطرة على إمدادات الخيل إلى جنوب آسيا(**). على أن جيشهم لم يكن يوما في مستوى تنظيم الجيش العثماني من الناحية البيروقراطية، وظل ميالا إلى الانشقاق، إذ كان ولاء المقاتلين دائما لقادتهم العسكريين وليس للإمبراطور. وعندما كان أولئك القادة يؤثرون طاعة الإمبراطور، كان الجيش المُغالي يصير آلة حرب هائلة تضم مئات الآلاف من الرجال، لم يكن في مقدور قوة بين بلاد فارس وغابات البنغال الكثيفة أن تقف في طريقها. لكن حين كان هؤلاء القادة ينشقون على الإمبراطور، كانت القوة المُغالية تتبخر وتدمر الهند الحروب الأهلية والثورات. ولم يكن لدى المُغال قوة بحرية ولا نظام مصرفي. يفسر ذلك الصعود السريع للإمبراطورية المُغالية وقوتها التي لا ترد في حال وحدتها وانكفائها السريع في عهود الأباطرة الضعفاء أو في أثناء صراعات الخلافة. ويفسر عموما تأرجحها المفاجئ بين القوة والضعف بين العامين 1526 و1707.

(*) يزيد البعض على ذلك أن العثمانيين كانوا شركاء كاملين في صنع عصر الاستكشاف الذي أخذ القوى الأوروبية الأطلسية إلى عوالم المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا وشرقها ولاحقا إلى الأمريكتين، إذ توافرت فيهم - ولهم - الخصائص الأربع المميّزة لعصر الاستكشاف: العزلة الجغرافية والثقافية النسبية في البداية، والتبني اللاحق لأيديولوجيات سياسية توسّعية تركزت بوجه خاص على طرق التجارة والملاحة البحرية، والابتكار في بضعة مجالات رئيسة من مجالات التقنية العسكرية والبحرية جعلت التوسّع فيما وراء البحار ممكنا، والتكثّف غير المسبوق للاهتمام الفكري بالعالم الخارجي. راجع كتاب The Ottoman Age of Exploration. [المترجم].

(**) كانت بيئة شبه القارة الهندية غير مواتية لتربية الخيل، ولذلك كان سلاح الفرسان في الهند يعتمد على الخيل المستوردة، غالبا من جنوب غرب آسيا عبر الخليج العربي، ومن ذلك أن الرحّالة المغربي الشهير ابن بطوطة ذكر أن الخيل كانت تصدّر إلى الهند في قطعان كبيرة يضم الواحد منها حتى ستة آلاف حصان أو نحوها، وأنه التقى في أثناء رحلته بواحدة من هذه القوافل. راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

كان التشينغيون أكثر استقرارا بكثير، مع أنهم لم يَعدموا الثورات. تبنت هذه السلالة المدافع قبل وصولها إلى السلطة في العام 1644، بل إنهم ما كانوا ليتمكنوا من هزيمة القوات المينغية لولا إتقانهم فن حروب الحصار خلال العقد الرابع من القرن السابع عشر، وإدخالهم فنون الحصار إلى أساليب القتال في السهل، وبنائهم جيشا مرنا قادرا على أي مهمة على البر. وبعد أن أصبحوا في السلطة، درسوا المدفعية بعناية، واستفادوا بأقصى ما يمكن من المهارات الصينية في التعدين والرياضيات، واستعانوا بالمبشرين اليسوعيين الذين أداروا لهم مسابك المدافع - تماما كما أداروها للمينغيين من قبل - وفعلوا الكثير لتعريف الصينيين بأحدث الابتكارات العسكرية في أوروبا. ورث التشينغيون التحصينات على تخومهم الشمالية وحول المدن المهمة التي كانت محصنة ضد المدافع بأسوار سميكة (كان سُمك الأسوار المحيطة ببيجين نحو خمسين قدما). واعتمدت جيوشهم على الحجم أكثر منها على التدريب والبنادق، مع أنهم استخدموا الاثنين في بعض السياقات. ونتيجة لأن ميزتهم النسبية كانت تكمن في العدد، فقد فرض عليهم ذلك صعوبة في مجال الإمداد، وهو الجانب الذي برع فيه التشينغيون، تماما كما برع فيه العثمانيون. ولم يتمكن أعداء التشينغيين، وهم جماعات السهل بالدرجة الأولى، من تبني الكثير من مكوِّنات الثورة العسكرية، ولذلك لم يضطر التشينغيون إلى تبنيها كاملة، إذ كانوا في حاجة إلى أجزاء منها فقط للغلبة على أعدائهم السهليين.

شملت النتائج النهائية للثورة العسكرية ثلاثة جوانب أساسية، إذ أدت إلى تركيز السلطة، ما أدى - بدوره - إلى بناء دول وإمبراطوريات ووضع الأساس للنظام الدولي الحديث، ومهدت الطريق حتى تصير دول أوروبا الغربية الدول الأقوى على مستوى العالم، وقضت أخيرا ونهائيا على القوة البدوية.

أولا، عزَّزت الثورة العسكرية السلطة المركزية وساعدت في ظهور الدول الحديثة، إذ استخدم الحكام مدافع الميدان لدك القلاع وتركيع النبلاء المحليين. من ذلك أن اليابان قبل العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر كانت مقسمة إلى عشرات الإقطاعيات كانت في أغلب الأحيان في حالة حرب بعضها مع بعض عبر تحالفات متغيرة. ثم ظهرت السلطة المركزية في اليابان عندما استخدم نوبوناغا وهيده - يوشي مدافع الميدان لهزيمة منافسيهم وهدم قلاعهم وبناء دولة موحدة فرضت

احتكارا على استخدام البنادق. وفي فرنسا، فعل آل فالوا الشيء نفسه(*)، إذ سحقوا الدوقات العصاة والمدن المتمردة ثم بدّدوا دفاعاتهم، واستعاضوا عن ذلك بنظام من القلاع حول تخوم البلاد. ونجحت السلالة الصفوية في بلاد فارس في توحيد البلاد تدريجيا باستخدام طرق مماثلة، على الرغم من نفور الصفويين من البنادق والمدافع التي كانت تنتقص من جدارة المحاربين الحقيقيين. وكما فعل المُغال، أقام الصفويون إمبراطوريتهم في البداية على سلاح الفرسان بالدرجة الأولى، واستخدموا المدافع لتدمير مراكز المقاومة. إجمالا، يرجع نجاح الهابسبرغيين والعثمانيين والمُغال والتشينغيين في ترويض القوى المحلية وتوحيد دولهم - في معظمه - إلى تبنيهم الكامل أو الجزئي للثورة العسكرية والمالية. فقد انطوت عملية بناء الدولة وبناء الإمبراطورية على عنف شديد، وواجهت مقاومة مريرة، لكنها انتصرت في النهاية. أدى ذلك إلى تقليل عدد الكيانات السياسية، ما أدى - بدوره - إلى استئثار أيدٍ أقل بالمزيد من السلطة، ما أحدث هزة في الجغرافيا السياسية، إذ جرى اختزال أعداد كبيرة من الوحدات المتنافسة التي تتبع العديد من الممارسات العسكرية والسياسية والمالية إلى عدد أصغر من الوحدات التي تمارس طرقا مثبتة أقل تنوعا.

ثانيا، هيأت الثورة العسكرية دول أوروبا الغربية للصعود إلى ذرى القوة العالمية بعد العام 1750، وهو الصعود الذي اعتمد - كما سنرى - على عدة أشياء لم تحدث إلا بعد ذلك العام، وإن كانت القوة العسكرية التي استند إليها هذا الصعود تطوّرت تدريجيا بعد العام 1420. يرجع الفضل في ذلك إلى عجز أي حاكم أوروبي عن احتكار القوة التي ولّدتها الثورة العسكرية وخلق إمبراطورية أوروبية(**)، وهو الطموح الذي لم يعدم طالبيه بالطبع - منهم الهابسبرغيون الذين سعوا من دون

(*) آل فالوا Valois سلالة حاكمة فرنسية من نسل السلالة الكابيتية، حكمت فرنسا بين العامين 1328 و1589، تنسب إلى شارل كونت فالوا Charles, Count of Valois (1270 - 1325) الابن الثالث لفيليب الثالث ملك فرنسا، وقد عُدت سلالة جديدة فقط بسبب انتقال الحكم إلى الابن غير الأكبر. [المترجم].

(**) على خلاف رؤية الكثير من العرب المعاصرين، كانت الدول والكيانات السياسية في المنطقة العربية فيما قبل العصر الحديث قوية على المستويات السياسية والاقتصادية طالما ظلت كثيرة ومتعددة، وحتى متنافسة فيما بينها. لكن بعد أن توحّدت هذه الكيانات جميعها في دولة واحدة مع الغزو العثماني للمنطقة العربية، دخلت المنطقة، ومعها الإمبراطورية العثمانية نفسها، في حالة من الجمود والتدهور، لم تفق منها إلا على أصوات مدافع نابليون وهي تدك طوابي الإسكندرية. توجد مناقشة أوسع لنظرية التجزؤ السياسي التنافسي الداعم لقوة كل المتنافسين ضد بعضهم بعضا ولقوتهم كمجموعة ضد القوى الخارجية في الحالة الأوروبية في كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

جدوى إلى السيطرة على أوروبا كلها - وذلك لأن الهولنديين والفرنسيين والعثمانيين كانوا جميعا يعرفون فنون الحرب والتمويل، وكانوا فوق ذلك قادرين على العمل معا لصد القوة المهيمنة(*). لذلك فشل دمج القوة في أوروبا، وتطوَّر نظام من الدول المتنافسة، وأصبحت الحروب واسعة النطاق بينها مزمنة. وفي بوتقة التنافس الشرس، طوَّرت الدول الباقية ماكينات مالية وعسكرية كفوءة، كان في مقدورها في العام 1800 أو نحوه أن تظهر القوة حول العالم بنجاح غير مسبوق، مكَّنها حتى من تهديد إمبراطوريات شاسعة مثل الصين والهند. حدث ذلك مصادفةً في جزء منه، إذ كان من الممكن أن تتكشَّف الأحداث على نحو مختلف كما حدث في بقية أوراسيا. لكن لا شك في أن مجتمع المعلومات المفتوح في أوروبا أدى دورا في ذلك، فالمعلومات حول بناء السفن والتعدين وتشكيل المعادن وصب المدافع والتحصين والتدريب كانت تنتقل طليقة في أوروبا، جزئيا بفضل المطبعة، ما حال دون أن يتمكن أي حاكم وحيد من احتكار المعرفة والقوة التي تتولَّد عنها.

ثالثا، كتبت الثورة العسكرية والمالية كلمة النهاية للقوة البدوية. ظلت الاتحادات البدوية في السهل الأوراسي وفي شمال أفريقيا تؤدي منذ القدم دورا بارزا في السياسة، وكانت إمبراطورياتهم تظهر وتختفي سريعا، وذلك لأن اتحاداتهم كانت تُبنى على تحالفات قلقة تقوم على الأبنية الاجتماعية القَبَلية. وعندما كانت هذه القبائل تتحد، كانوا يصيرون قوة هائلة بفضل تمكنهم من الانتقال بالخيل والإبل وبفضل مهاراتهم العالية في الرماية ومجتمعهم العسكري الذي يغرس المهارات العسكرية في كل رجل، وحتى في بعض النساء. وقد عاش المزارعون المستقرون في خوف دائم من القوة البدوية لأكثر من ألفي عام. وفي نحو العام 1760، تقوَّضت القوة العسكرية للجماعات البدوية والمجتمعات ذات التنظيم القَبَلي عموما، وذلك لأسباب تتعلق بالبنادق والمال. كان البدو قادرين على استخدام البنادق، وفعلوا ذلك في حالات كثيرة، وكانوا قادرين أيضا على استخدام مدافع الميدان (مدافع صغيرة مركَّبة فوق الإبل، كما فعل المغول خلال القرن الثامن عشر). لكنهم لم

(*) ومن أمثلة ذلك التحالف الطويل بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية الذي كان موجَّها بالأساس ضد عدوهما المشترك: الهابسبرغيين في وسط أوروبا وفي إسبانيا. [المترجم].

يتمكنوا من صنع هذه الأسلحة بكميات كبيرة، ولم يتمكنوا من إصلاحها أو توفيرها بسهولة. وكما كانت المجتمعات المستقرة تفتقر دائما إلى الخيل وتضطر إلى شرائها، باتت المجتمعات المتنقلة تفتقر إلى المدافع والبارود وفي حاجة إلى شرائها. أدى ذلك - من غرب أفريقيا إلى منغوليا - إلى قلب توازن القوة لمصلحة المجتمعات الزراعية التي كانت أقدر على توليد قوة نارية أكبر. ولم تستطع المجتمعات الرعوية والبدوية كذلك أن تجاري النظم المالية الحضرية لتكون الأساس لطرق جديدة للحرب أو أن تشتري كل البنادق التي تحتاج إليها.

وفي أوروبا، خرج النفس الأخير للحرب القَبَلية خلال العقد الخامس من القرن الثامن عشر مع الهزيمة النهائية لسكان المرتفعات الأسكتلنديين. ففي معركة كلودين Culloden في العام 1746، واجه هؤلاء البدو بالسيوف وابلا من نيران المشاة البريطانيين. وخلال العقد السادس من القرن نفسه، خرج النفس الأخير للقوة البدوية في أوراسيا مع هزيمة اتحاد الجونغار Zunghar المكوّن من قبائل مغولية في شمال غرب الصين الحالية. كان الجونغار يمتلكون البنادق وحتى المدافع التي ساعدهم السويديون في استخدامها، لكن الجيوش التشينغية كانت تمتلك بنادق ومدافع أكثر عددا، والأهم من ذلك أن الصين طوّرت بين العامين 1670 و1750 نظام إمداد متقنا مكّنها من تموين جيوش ضخمة في الأراضي القاحلة، وهو ما كان مكلفا، لكن الصين التشينغية كانت تمتلك نظاما ضريبيا قادرا على تمويله، وكانت التكلفة في محلها، لأنها أزالت نهائيا التهديد الكبير المقبل من آسيا الوسطى، مع أن توسُّع الإمبراطورية الروسية أخذ يشكّل تهديدا أصغر. وكما فعل سكان المرتفعات الأسكتلنديون الذين سرعان ما انضموا إلى خدمة القوة التي هزمتهم، انضم المغول شيئا فشيئا إلى الألوية banners - كما أطلق على وحداتهم العسكرية - التابعة للصين التشينغية. وفي المقابل، احتفظت الشعوب القَبَلية البدوية بقوتها العسكرية في أمريكا الشمالية حتى العام 1890، عندما تلقى الاتحاد الأكبر بينها، وهو قبائل السو Sioux بالسهول الكبرى، هزيمته النهائية أمام الجيش الأمريكي. على أن ذلك الحدث كان هامشيا في الأمريكتين، وذلك لأن القوة البدوية لم توجد هناك إلا فترة وجيزة بعد العام 1680، عندما أُدخِلت الخيل إلى سهول أمريكا الشمالية. وفي أمريكا الجنوبية، جرى إخضاع المجتمعات المتنقلة التي كانت تستمدّ قوتها من المهارة في

استخدام الخيل في سهل تشاكو وبامبا Chaco and Pampas في بوليفيا والأرجنتين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

أحدثت الثورة العسكرية والمالية تحوُّلا جذريا في المشهد السياسي في أوراسيا. فتركت في إثرها دمارا مروعا، وقتلت قرون من الحروب المهلكة الملايين، وأدخلت الرعب في قلوب ملايين أكثر، ودمرت المحاصيل والمدن، والتهمت أموالا كان من الممكن استثمارها في غير ذلك. وخلقت عالما تسيطر عليه بضع أسماك كبيرة، إذ توسّعت الصين التشينغية إلى أقصى ما تستطيع قدرتها الإمدادية وأنجزت حدود الصين الحالية تقريبا. وفعل المُغال الشيء نفسه في جنوبهم والتهموا في النهاية كل الدول الصغيرة في شبه الجزيرة الهندية، لكنهم في الشمال الغربي اصطدموا بالقوة الصفوية، ومن حين إلى آخر بدول أفغانية قوية. ووسّع العثمانيون مداهم الإمدادي، وحاربوا باستمرار ضد الصفويين في الشرق والهابسبرغيين في الغرب، فضلا عن الروس إلى الشمال.

وفي الأمريكتين وأفريقيا، وصلت الثورة العسكرية مع دخلاء، ولم تتبنَ الشعوب المحلية إلا أجزاء صغيرة منها، حتى إن اندماجها السريع في الشبكة - الذي ظل غير مكتمل حتى العام 1800 - قد تيسّر في الأساس بسبب مشاركتها المحدودة في الثورة العسكرية. تبنت المجتمعات الأمريندية شيئا من الجانب المادي للثورة العسكرية - تحديدا البنادق - لكنها لم تتبنَ شيئا من جانبها التشغيلي، إذ فرضت تقاليدهم العسكرية صعوبة على تبني الطرق الجديدة، فضلا على نقص وصولهم إلى المعرفة المطلوبة وخبرتهم المحدودة في شغل المعادن. وعلى أي حال، كانت صفوفهم تتآكل بسبب الأوبئة، واقتصاداتهم كانت تتدهور بسبب فقدان الأرض، ولذلك كان تبني ابتكارات من النوع الذي يتطلب التزامات ضخمة من حيث القوة البشرية والمال أمرا غير وارد بالنسبة إلى الأمريندين. وأخذت دولهم تتقلص وتختفي، ولا تجد ما يدفع عنها ذلك المصير غير البسالة والثبات وأسلحة من الخشب والحجارة، وفي النهاية المسكيتات والبنادق، وهو ما لم يكن كافيا في وجه البرتغاليين والإسبان والفرنسيين والهولنديين والإنجليز الذين كانوا جميعا من المشاركين الأساسيين في الثورة العسكرية.

وفي أفريقيا أيضا، لم تترك الثورة العسكرية غير أثر واهن. فقد شقّت البنادق طريقها هناك، وشقّت المدفعية والتحصين طريقها إلى مدن ساحل المحيط الهندي،

وإلى حد ما إلى سواحل الأطلسي. وأدخل الأتراك والعُمانيون - والبرتغاليون - بعض الأساليب الجديدة إلى هذه المناطق. لكن التدريب المنتظم والجهاز البيروقراطي الإمدادي واسع النطاق والنظم المالية - الجانب التشغيلي للثورة العسكرية - لم تتجذّر قط في أفريقيا جنوب الصحراء، ولا حتى في مستوطنة كيب كولوني الهولندية. كانت فنون الحرب السائدة هناك ملائمة للسياقات الأفريقية التي جعلت الأجمات الكثيفة فيها ترتيب المسكيتيين في صفوف مطلبا مستحيلا في الأغلب. ومع غياب صناعة البنادق الأفريقية، كان لزاما استيراد المسكيتات والذخيرة، ولذلك ظلت هذه التقنيات نادرة إلا بين صيادي العبيد. كانت الاقتصادات المحلية في معظمها غير نقدية، ما جعل إنشاء نظام ضريبي كفء أمرا مستحيلا. ومع غياب حيوانات الجر، كان الاستخدام الواسع لمدفعية الميدان غير ممكن، ولذلك لم يكن ثمة دافع لحدوث مزيد من التطوّر للتحصينات الدفاعية. وكما رأينا في مواضع سابقة، فإن أجزاء كبيرة من أفريقيا تكبدت المدى الكامل للعنف الذي ميّز أوراسيا خلال هذه القرون، لكنها لم تكتسب إلا جزءا ضئيلا من القدرة العسكرية المحسّنة، ما مهد الطريق لمواجهة غير متكافئة خلال القرن التاسع عشر.

التيارات الاقتصادية والاجتماعية

لم تحدث تغيرات كبرى في تقنيات الزراعة أو الصناعة خلال هذه القرون، ومع ذلك فقد شهد الاقتصاد العالمي تغيرات حاسمة. أولا، أصبح هذا الاقتصاد عالميا حقا لأول مرة. ثانيا، اكتسبت تجارة المسافات الطويلة والمدن والتجار أهمية أكبر. أنتج ذلك ضغوطا في كل المجتمعات الزراعية، ربما حدث أكبرها في المناطق التي كانت الدينامية الاقتصادية على أشدها فيها، وهي تحديدا المجتمعات الواقعة حول شواطئ الأطلسي وغرب المحيط الهادي.

نما الاقتصاد العالمي بين العامين 1450 و1800 بسرعة كبيرة بمعايير العصور السابقة، مع أنه كان بطيئا بمعيار القرن العشرين. وتذهب أفضل التقديرات - مع أنها ليست سوى تخمينات مبنية على المعلومات - إلى أن الاقتصاد العالمي نما بين ضعفين وثلاثة أضعاف، وهو معدل أقل من ربع بالمائة سنويا. كان متوسط مستوى المعيشة العالمي في العام 1450 في نحو مستواه اليوم في البلدان الأفقر في أفريقيا،

ولم يرتفع إلا بمعدل عشرين بالمائة على مدى الثلاثمائة وخمسين عاما التالية. جاء كل النمو الاقتصادي تقريبا من النمو السكاني فقط، ذلك أن زيادة السكان كانت تعني زيادة الأرض المزروعة وزيادة الأسماك المصطادة وزيادة الأغنام المرباة وزيادة كل شيء. في حين بقيت التقنيات الزراعية والصناعية على حالها، إذ ظلت القوة العضلية تستخدم لكل شيء، ما فرض قيودا صارمة على كمية العمل الذي يمكن إنجازه وكمية الثروة التي يمكن توليدها. لا شك في أن معظم البشر الذين عاشوا في العام 1450 ما كانوا ليجدوا صعوبة في التعرف على الأدوات والأعمال والفرص والمخاطر وصعوبات الحياة الاقتصادية ومشاقها في العام 1800. لكن في إطار هذه الصورة العامة للتغير الهادئ، تكشف النظرة من قرب عن بعض التغيرات المهمة - مع أن أحدا لم يدركها في حينها - التي مهدت الطريق للتحوُّلات الكبرى التي طالت الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

تعد عولمة التجارة أحد التغيرات الحاسمة. فلأول مرة شاركت الأمريكتان في التجارة. وتكثّفت التجارة الأوراسية القديمة، إذ سمح طريق رأس الرجاء الصالح حول أفريقيا بشحن السلع بحرا من أحد طرفي أوراسيا إلى الطرف الآخر. وأصبح بمقدور البحّارة أن يتفادوا القراصنة والأخطار الأخرى من خلال الإبحار بعيدا عن الشاطئ طوال رحلتهم، لأنهم من خلال المعرفة الملاحية الجديدة صاروا يعرفون مكانهم تقريبيا حتى في المحيطات غير المطروقة. لذلك نما حجم السلع المتبادلة، وغدا مزيد ومزيد من الناس متخصصين في الإنتاج للسوق، ومن خلال إنتاج شيء واحد فقط صقلوا مهاراتهم ورفعوا إنتاجيتهم.

دخلت الآلاف من السلع المختلفة ضمن عمليات الشراء والبيع والشحن عبر المحيطات، لكن بوجه عام تميّزت التجارة العالمية خلال هذه القرون بنحو ستة تخصصات أساسية. فكانت الصين تبيع الحرير والخزف، وأحيانا الذهب، وجنوب شرق آسيا يبيع التوابل والفلفل، والهند تبيع الأقمشة القطنية، وأفريقيا تبيع العبيد والذهب، والأمريكتان تبيعان الفضة والفراء والسكر والتبغ، واليابان تبيع الفضة والنحاس، والأوروبيون يبيعون الحماية في أعالي البحار، وأخذوا يمارسون دور الوسيط وينقلون السلع في كل مكان. وحتى نحو العام 1750 ظلت الصين في قلب هذا النظام، فكانت معظم تجارة التوابل تذهب إلى الصين مباشرة، وكان أكثر من

ثلاثة أرباع الفضة والذهب تشقّ طريقها إلى الصين أو الهند، في الأغلب بعد عدة محطات. لكن خلال القرن الثامن عشر أصبح الاقتصاد الأطلسي ينافس اقتصاد غرب المحيط الهادي المتمركز حول الصين.

بلغت التجارة العابرة للقارات مكانة أكبر، جزئيا بسبب التغيرات التقنية في السفن وعلم الملاحة الجديد. لكن كانت هناك أسباب أخرى، تأتي الفضة على رأسها. فالاقتصادات التجارية تحتاج إلى النقد، لأن المقايضة غير كفوءة بالمرة. وتحتاج الاقتصادات التجارية العابرة للقارات إلى نقد مقبول في كل مكان، وهو الوصف الذي ينطبق منذ القدم على الذهب والفضة. لكن هاتين المادتين توجدان على الأرض بكميات محدودة، ما فرض قيودا على تجارة المسافات الطويلة، مع أنه كان بوسع التجار المحليين الذين يعرف بعضهم بعضا وتسود بينهم الثقة أن يتبادلوا السلع بلا فضة أو ذهب من خلال وعود الدفع المستقبلي. وفي منتصف القرن السادس عشر تغلب المنقبون في اليابان والمكسيك - وقبل الجميع في بوليفيا - على ذلك القيد، إذ اكتشفوا مناجم فضة جديدة، وطبقوا أحدث التقنيات العالمية على المناجم القديمة، ونجحوا في زيادة إنتاج الفضة العالمي بدرجات كبيرة. حدث ذلك في معظمه في أمريكا الإسبانية، التي طبقت فيها خلال العقد الخامس من القرن السادس عشر التقنيات الألمانية لفصل الفضة عن الصخور على أكبر عروق الفضة في العالم، وهي تلك الواقعة في منجم بوتوسي Potosi الذي كان في عنفوانه ينتج زهاء ثلاثة أخماس إنتاج الفضة العالمي. ثم أخذت المناجم اليابانية ترفع ناتجها بداية من العقد السابع من القرن السادس عشر. وتبنى العالم قاعدة الفضة التي فرضها الواقع، وأخذت كل المدن الميناثية الكبرى تقبل البيزو الإسباني(*).

كان معظم ناتج الفضة الياباني يذهب إلى الصين في مقابل الحرير والخزف وسلع أخرى مصنّعة. وعندما قيّد المينغيون الشحن وتجارة ما وراء البحار (قبل العام 1567)، حدث جزء من هذه التجارة من خلال الجماعات الصينية المقيمة فيما وراء البحار في باتافيا Batavia (جاكارتا الحديثة) وملقا وأماكن أخرى. كانت الفضة الأمريكية تذهب في أحد اتجاهين، إذ كان زهاء خمسها ينتقل عبر المحيط

(*) البيزو peso: عملة نقدية إسبانية، اكتسبت مكانة عالمية خلال القرن السابع عشر. [المترجم].

الهادي من أكابولكو Acapulco إلى مانيلا عن طريق سفن إسبانية كانت تسمى غليون مانيلا، وهو أطول خط شحن منتظم في العالم حينذاك (1565 - 1815)، وكان البقية تذهب إلى إسبانيا، غير أن ما كان يبقى منه هناك كان ضئيلا، لأن الهابسبرغيين كانوا ينفقونه على خدمة الدين والحرب، ما أدى إلى نشر الفضة حول أوروبا. كان الكثير منها يذهب عن طريق هولندا إلى روسيا في مقابل الحبوب والخشب، ومن هناك إلى إيران والهند، وكان بعضه يذهب إلى الأراضي العثمانية، لاسيما مصر وسورية، ومن هناك في معظم الأحيان إلى الهند في مقابل الأقمشة. وكان الكثير منها يذهب عن طريق السفن البرتغالية والهولندية والإنجليزية إلى جزر الهند الشرقية في مقابل التوابل(*). وإجمالا، كانت الفضة تتدفق نحو الصين.

كان السبب وراء انتقال الكثير من الفضة - ربما ثلثي الإنتاج العالمي - إلى الصين يكمن في أن الصين كانت تثمّنها عاليا وتدفع فيها أكثر من أي مكان آخر، سواء في شكل ذهب أو سلع، وذلك لأن الاقتصاد الصيني كان ينمو سريعا وكان في حاجة إلى الفضة لتزييت عملية التبادل. كان قرار المينغيين خلال العقد الثامن من القرن السادس عشر فرض «الضريبة الموحدة» التي كانت تدفع فضة فقط، يعني أن كل الصينيين الخاضعين للنظام الضريبي - ومن ضمنهم الفلاحون - باتوا مضطرين إلى أن يبيعوا شيئا للحصول على الفضة، وهو ما حشد السلع إلى السوق على نحو غير مسبوق.

ساعد تنقيد الاقتصاد الصيني وتعبئته في دفع التجارة في اليابان وكوريا وجنوب شرق آسيا. وأخذ التجار الصينيون واليابانيون والملايويون وغيرهم من تجار شرق آسيا يقطعون مياه غرب المحيط الهادي جيئة وذهابا بأعداد أكبر. وحدث ازدهار واضح بين العامين 1570 و1630، بعد أن خفّف الصينيون قيودهم على تجارة ما وراء البحار، وقبل أن تفرض اليابان أيا من هذه القيود. وساعدت زيادة مذهلة في إنتاج بوتوسي وفي شحن الفضة الإسباني إلى الفلبين في تعزيز الازدهار في غرب المحيط الهادي. وبحلول أوائل القرن السابع عشر كانت التجارة الخارجية اليابانية تشكّل نحو عشرة في المائة من الاقتصاد الياباني، ونمت المدن اليابانية حتى باتت تشكّل ما بين خمسة عشر وعشرين بالمائة من إجمالي السكان خلال القرن الثامن عشر، وهو

(*) تشير جزر الهند الشرقية عموما إلى جنوب آسيا وجنوب شرقها، وتحديدا إلى أرخبيل الملايو، الذي يضم حاليا الدول الجزيرية بروناي وماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة والفلبين. [المترجم].

ما كان نحو ضعف المتوسط العالمي. وأينما ذهب التجار الآسيويون، شجعوا الإنتاج المتخصص للسوق وصقل المهارات، ومن ثم زيادة الثروة. من ذلك مثلا أن الزراعة في جنوب شرق آسيا غدت أكثر تخصصا وارتباطا بالسوق، وتحوّلت مساحات شاسعة إلى مزارع، في معظمها بعمالة من العبيد، كانت تزرع القرنفل أو جوز الطيب أو القرفة أو الفلفل. وفي الوقت نفسه، نمت مدن جنوب شرق آسيا سريعا، وجذبت تجارا وملاحين من كل حدب وصوب. من أدلة ذلك أن مراقبا برتغاليا زعم خلال العقد الثالث من القرن السادس عشر أن أكثر من ثمانين لغة كانت تستخدم في شوارع ملقا.

سرعان ما انضم إلى التجار الآسيويين تجار برتغاليون ثم هولنديون استخدموا تفوقهم في القوة النارية للحصول على حصة من التجارة، بل إنهم في حقيقة الأمر كانوا يبيعون الحماية للتجار الآسيويين، بالاتفاق على عدم استخدام مدافعهم في مقابل أجر مناسب. لكن ثمة سببا آخر ساعد البرتغاليين والهولنديين في التنافس على هذه التجارة البعيدة، هو أنهم إلى جانب ميزة القوة النارية، كانوا يتمتعون أيضا بميزة في المعلومات. فنتيجة لأن التجار الآسيويين لم يكونوا يبحرون إلى أنحاء العالم كافة، فإنهم كانوا يفتقرون إلى معلومات السوق الثمينة التي كان البرتغاليون والهولنديون يمتلكونها أحيانا. فبفضل المعرفة - مع أنها كانت في الأغلب معرفة مر عليها عامان - بالأسعار في البرازيل وأوروبا ومصر، لاحت لهؤلاء التجار الذين كانوا يقطعون الكرة الأرضية جيئة وذهابا فرص عرضية لم تلح لغيرهم. وتعد أصداف الودع الأفريقية التي ورد ذكرها في موضع سابق مثالا على ذلك. كانت هذه الأصداف تأتي من جزر المالديف وتستخدم كعملة في الصفقات الصغيرة في الهند القريبة، لكنها كانت النقد المعياري في غرب أفريقيا، ولذلك كان التجار البرتغاليون والهولنديون والإنجليز يشترونها من البنغال أو سيلان ويستخدمونها كثقل للسفن في طريق عودتهم إلى أوروبا ثم يتاجرون بها على السواحل الأفريقية لشراء العبيد وشحنهم إلى الأمريكتين. لقد أعطت فرص العولمة الكثير لأولئك الذين كانوا يعرفون حول العالم أكثر من غيرهم[7].

كان الجزء الآخر من العالم الذي تمتع بتجارة حيوية واضحة يقع على الطرف الآخر لأوراسيا، وهو سواحل الأطلسي، وهنا نظم الأوروبيون الأطلسيون اقتصادا جديدا كان نظام المزارع الاستعمارية يقع في القلب منه. كانت هذه الزراعة امتدادا لنظام مزارع السكر بالبحر الأبيض المتوسط والمغرب والجزر الأطلسية ماديرا وكناري والرأس الأخضر

وساو تومي، إذ نقلها البرتغاليون إلى البرازيل بداية من العقد الرابع من القرن السادس عشر، كما ذكرنا عند مناقشة تجارة العبيد. وظهر أحد تنويعات هذا النمط الزراعي في الكاريبي، معتمدا في البداية على التبغ والعمال الملزمين القادمين بالدرجة الأولى من الجزر البريطانية. وفي العقدين الخامس والسادس من القرن السابع عشر، وصل السكر على نطاق واسع إلى الكاريبي وسرعان ما نافس البرازيل في إنتاج السكر واشترك في كل سمات نظام المزارع الاستعمارية، وهي العبودية والأغلبية الأفريقية ومعدل الوفيات العالي - بين العبيد والأسياد على حد سواء - وما نتج عن ذلك من هجرة عالية في شكل تجارة عبيد أو هجرة طوعية من أوروبا. وفي الوقت نفسه، وصلت مزارع التبغ إلى فيرجنيا وتشسابيك Chesapeake، وإن كان على نطاق صغير بالمعايير البرازيلية أو الكاريبية. وبذلك نشأ من باهيا Bahia في البرازيل إلى مستعمرة ميريلند نظام مزارع ضخم بعمالة من العبيد، كان ينتج السكر والتبغ والأرز والنيلة، ولاحقا القطن.

ينتمي السكر والتبغ إلى المواد المسببة للإدمان التي تخلق أسواقها بأنفسها. ولم يكن أي منهما ينمو جيدا في أوروبا شمال سهول البحر الأبيض المتوسط. وقد مكّن انخفاض تكاليف الإنتاج في الأمريكتين نظام المزارع الاستعمارية من الاستحواذ على معظم السوق الأوروبية التي أثبت أنها سريعة النمو، مع نمو السكان وزيادة الازدهار وتغير أنماط الاستهلاك. وبعد أن كان السكر عقارا طبيا غاليا، كان ملء ملعقة شاي منه يكلف أجر عدة أسابيع، أصبح العمال الحضريون بحلول العام 1780 يستهلكونه بانتظام. وكان السكر والتبغ مربحين لدرجة أن البرازيل وجزر الكاريبي كانتا تستوردان في مقابلهما الكثير من المواد الغذائية والنبيذ من أوروبا وأمريكا الشمالية. كانت مصايد الأسماك الكبرى بشمال الأطلسي ترسل الأسماك المملحة إلى الكاريبي لإطعام العبيد، وكان الملح الكاريبي يشحن إلى أوروبا لتمليح أسماك الرنغة الهولندية. فقد كان الاقتصاد الأطلسي - لاسيما قلبه المتمثّل في اقتصاد المزارع الاستعمارية - تجاريا تماما منذ نشأته، ووصل فيه التخصص والتبادل مستويات عالية، ومن هنا نشأت ربحيته.

ظل هذا الاقتصاد حتى القرن التاسع عشر اقتصادا قاتلا بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ ظل العبيد يموتون بمعدل أسرع من مواليدهم حتى نحو العام 1830 - في مقابل العام 1730 في المستعمرات الجنوبية بأمريكا الشمالية - ما دفع إلى استمرارية

تجارة العبيد(*). وكان البيض أيضا يموتون بمعدلات عالية، حتى إنهم في الكاريبي كانوا يموتون بمعدل أسرع حتى من العبيد. لذلك كان المهاجرون الأوروبيون يأتون عادة إلى الكاريبي على أمل أن يكوّنوا ثروة سريعا ويعودوا إلى بلادهم قبل أن تقتلهم الملاريا أو الحمى الصفراء، وكانوا يتعاملون بهذا المنطق مع العبيد الذين لم يكن هذا الأمل متاحا لهم.

احتفظ الأوروبيون الأطلسيون لأنفسهم بالسيطرة على الاقتصاد الأطلسي. فقمعوا ثورات العبيد بانتظام حتى العام 1791. ولم يكن في العالم قوة بحرية من خارج أوروبا الغربية قادرة على التطفل على الاقتصاد الأطلسي بالطريقة نفسها التي تطفل بها الأوروبيون الأطلسيون على تجارة المحيط الهندي وغرب المحيط الهادي.

التوترات والتحوّلات الاجتماعية

مع نمو دور التجارة، تغير توزيع الثروة والدخل، وهو ما حدث في أوضح صوره في الأماكن التي توسّعت التجارة فيها على أكبر نحو، وهي تحديدا غرب المحيط الهادي والأطلسي، ففي هاتين المنطقتين أصبح التجار - كان القليل منهم نساء - ينافسون نخب مُلاك الأراضي السابقين في الثروة. فمن خلال رحلة بحرية محظوظة واحدة، كان بمقدور التاجر أن يجمع مالا أكثر مما يمكن أن ينتزعه مالك الأراضي في سنوات في شكل ريوع من الفلاحين. من ذلك أن بيثارو حصل في ظهيرة على سبيكة تعادل إنتاج أوروبا في نصف قرن(**). كان ذلك حدثا نادرا بالطبع، لكن على مدى القرون،

(*) كان من الأسباب الأخرى وراء استمرار تجارة العبيد، إلى جانب انخفاض متوسط أعمار العبيد وارتفاع معدل وفيات أطفالهم، صعوبة التناسل والحصول على شريك/شريكة الحياة في المزارع التي مزجت داخل المزرعة الواحدة أفارقة من جماعات إثنية مختلفة لهم لغات وثقافات مختلفة، ما فرض مثلا على العبد الفولاني أو التكروري أو الماندينغي الآتي من غرب أفريقيا الذي يعيش في مزرعة أغلبيتها من الكونغوليين أو البانتو صعوبة في أن يجد زوجة تجمعه معها اللغة والثقافة، فضلا عن أن احتمال تمزيق أسر العبيد ببيع أي من أفرادها كان يلوح دائما في الأفق. راجع كتاب «عباد الله». [المترجم].

(**) في البداية، كانت المعادن النفيسة التي حصل عليها الفاتحون تأتي من المصادرة والنهب الصريح، وليس من التعدين. من ذلك أن فرانثيسكو بيثارو بعد أن أخضع شعب الإنكا في العام 1532 أسر إمبراطورهم أتاوالبا Atahualpa وطلب فدية لإطلاقه. ومع أن الإنكا قدموا له فدية من المصنوعات الذهبية ملأت حجرة بعرض سبع عشرة قدما وطول اثنتين وعشرين قدما وارتفاع تسع أقدام، فإنه أخلف وعده وأعدم الإمبراطور بالمخنق الحديدي. ومن جانبهم، أظهر الإنكا إدراكا حادا للعقلية الإسبانية في انتقامهم لإعدام إمبراطورهم، حيث قتلوا رهينة إسبانية بصب الذهب المصهور في حلقه وهم يتهكمون قائلين: «اشرب حتى تمتلئ، فمنه هنا ما يكفي لإشباع حتى أكثر الناس شرها». راجع كتاب «مولد الوفرة». [المترجم].

غدا التجار الحضريون، لاسيما المنخرطين منهم في تجارة المسافات الطويلة، أكثر ثراء ونفوذا من مُلاك الأراضي الأرستقراطيين. وفي النهاية، أصرت الطبقة التجارية الصاعدة على الحصول على نصيب من السلطة السياسية، ما أثار أزمات حول العالم، لاسيما على شواطئ الأطلسي.

بالتزامن مع ذلك، كانت طبقات مُلاك الأراضي تتنازل - مرغمة - عن أدوارها العسكرية. كان الفرسان في أوروبا والساموراي في اليابان وأصحاب التيمار في الإمبراطورية العثمانية جميعهم متخصصين في الحرب(*)، وكانوا يخدمون الإمبراطور أو الملك في مقابل الحق في دخل الأراضي المخصصة لهم. لكن مع تكشُف الثورة العسكرية، لم تعد هناك حاجة إلى مهاراتهم العسكرية. إذ صار الأمراء في حاجة إلى حشود من جنود المشاة والمدفعية والبحّارة وبناة القلاع، ولم يعودوا في حاجة كبيرة إلى المبارزين والرماحين. بدّد ذلك المكانة الاجتماعية لطبقة ظلت لها السيطرة على كل من الحرب والمجتمع الريفي عبر أوراسيا لآلاف السنين. ومع ذلك فقد بقي نمط الحياة الأرستقراطي، وسعى رجال التجارة الأغنياء إلى مكانة الأرستقراطية، إن لم يكن لأنفسهم، فلنسلهم. لذلك استغرقت هذه العملية عدة قرون، ولم تكتمل إلا بحلول العام 1950.

أثر الصعود التدريجي للمدن والتجارة في العلاقات الإنسانية العادية. فمع زيادة السلع المتداولة في عمليات الشراء والبيع، تراجع ما كان يجري تبادله من خلال التبادلات التقليدية أو الرمزية أو في شكل إتاوات. وأصبحت مكانة الناس - في المدن على الأقل - تقوم على المال أكثر منها على الشرف أو الأسلاف أو التقوى. وغدت قرارات الزواج أو إنجاب الأطفال أو قتلهم - وأد الأطفال - بمنزلة حسابات اقتصادية، مع أنها لم تصبح كذلك كليا، حتى في أوروبا واليابان والصين التي يبدو أن هذه التطوُرات كانت أقوى فيها من أي مكان آخر.

واتسعت شقة التفاوت الاقتصادي، وهو ما يحدث عادة في أوقات التوسُع الاقتصادي، نتيجة لأن بعض الناس يستفيدون من الارتباطات والتقنيات الجديدة

(*) التيمار timar: إقطاعات من الأراضي كان السلطان العثماني يمنحها للقادة العسكريين خلال القرون من الرابع عشر إلى السادس عشر بعائد ضريبي سنوي لا يقل عن عشرين ألف أقجة، وكانت الإقطاعة التي يزيد عائدها الضريبي السنوي على مائة ألف أقجة تسمى زعامة ziamet. [المترجم].

أفضل أو أسرع من غيرهم. جلبت تجارة المسافات الطويلة ثروات ضخمة لقلة صغيرة، تماما كما فعلت العمليات المصرفية الناجحة. وفي الوقت نفسه، زاد عدد العبيد حول العالم بدرجة كبيرة، حتى وصل إلى ما بين عشرين وخمسين مليونا بحلول العام 1800 (من اثنين إلى أربعة بالمائة من عدد البشر).

وكذلك ازداد تفاوت الثروة بين مناطق العالم. كان هذا التفاوت يشهد دائما تقلبات على مر الزمن. وفي هذه الفترة، ارتفع متوسط الدخل في الصين واليابان وفي جنوب شرق آسيا وفي شمال غرب أوروبا وفي أمريكا الاستعمارية أسرع منه في الأماكن الأخرى. على أن هذه الأحكام حول التفاوت العالمي تقريبية، وذلك لأن الإحصاءات المقارِنة التي تعتمد عليها غير مؤكدة.

كانت هذه التغيرات الاجتماعية جميعها تطوُّرات متوازية نشأت عن التتجير الذي نشأ عن اندماج الشبكات العالمية وتوسُّعها - وأسهم بدوره في دفع ذلك. وعلى خلاف استخدام المدفعية الذي حدث في الأساس من باب المحاكاة المقصودة، حدثت التغيرات الاجتماعية من باب التكيف غير المقصود مع متطلبات عصر جديد.

التغيرات البيئية والتبادل الأحيائي

إن ملاحي المحيطات عندما ربطوا شبكات العالم معا وعندما وسَّعوا الشبكة العالمية الناتجة لتشمل كل أرجاء الكرة الأرضية تقريبا، أعادوا خلط البيئة العالمية. فظهرت مخلوقات من كل الأنواع في أماكن لم تكن توجد فيها من قبل. على وجه التحديد، أُدمِجت النظم البيئية للأمريكتين مع نظم أفريقيا وأوراسيا فيما يسميه المؤرخون حاليا التبادل الكولومبي(*). كان ذلك تكرارا على مستوى أوسع وأبعد تأثيرا للتبادل الموسمي - بين جنوب آسيا وأفريقيا - الذي ساد خلال القرون السابقة(**). وأُدمِجت النظم البيئية للجزر الأوسترونيزية وجزر المحيط الهادي - وإن كان على نطاق أصغر - ضمن المزيج العالمي مع نهاية القرن الثامن عشر. طالت نتائج ذلك ما يقتات عليه البشر وما يقتات على البشر.

(*) التبادل الكولومبي Columbian Exchange: نسبة إلى كريستوفر كولومبس الذي اكتشف الأمريكتين. [المترجم].

(**) التبادل الموسمي Monsoon Exchange: هو التبادل المعتمد على الرحلات البحرية مع الرياح الموسمية بين جنوب آسيا وجنوب شرقها من ناحية وأفريقيا وجنوب غرب آسيا من ناحية أخرى. [المترجم].

كان الناس على مدار آلاف السنين ينقلون المحاصيل مع هجراتهم، لكنهم بعد العام 1492، فعلوا ذلك بمعدل أسرع. وسرعان ما أثبتت المحاصيل الغذائية الأمريكية فائدتها في أفريقيا وأوراسيا. من ذلك أن الذرة التي تنمو سريعا وتقاوم الجفاف وتعطي ناتجا سُعريا عاليا وتخزن بسهولة، انتقلت إلي المغرب وغرب أفريقيا إبان أوائل القرن السادس عشر. وسرعان ما أصبحت مهمة في مصر، وفي الكثير من أجزاء الإمبراطورية العثمانية، لاسيما أقاليمها الأوروبية مع حلول القرن الثامن عشر. ووصلت الذرة في وقت مبكر إلى أنغولا، وانتشرت على نطاق واسع خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في أنحاء جنوب أفريقيا كافة، وأصبحت الغذاء الرئيس لهذه المنطقة. كان هذا المحصول يدرّ غلة نحو تسعة أضعاف الدخن أو السرغوم - لكل وحدة عمل - اللذين حلَّ محلهما في معظم الأحيان. وخلال القرنين ذاتهما، انتقلت الذرة إلى جنوب شرق آسيا والصين، وهناك صارت مكمِّلا للأرز، وصارت في بعض المناطق الدعامة الأساسية لغذاء الفلاحين.

يرجع المنيهوت إلى البيئة البرازيلية، لكنه ينمو في كل البيئات الاستوائية تقريبا، الجافة أو المطيرة، الجبلية أو الساحلية، إذ يجيد هذا المحصول التعامل مع الجفاف، حتى إنه يزدهر في الأراضي الجدباء، ويمكن الاحتفاظ بدرناته النشوية حتى سنتين تحت الأرض. وفي سياق العنف الذي لفَّ أفريقيا الاستوائية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان من المنطقي أن تحتفظ الجماعة بغذائها تحت الأرض بدلا من تخزينه في مكان يمكن أن ينتزعه منه المغيرون. يعطي المنيهوت سعرات حرارية لكل هكتار مساوية للأرز أو الذرة وضعف سعرات القمح. وصل المنيهوت إلى أنغولا خلال القرن السادس عشر، وانتشر في أنحاء أفريقيا الوسطى كافة، وتدريجيا أصبح الغذاء الأساس هناك. وانتشر في آسيا الاستوائية، لاسيما إندونيسيا، لكن تأثيره هناك كان محدودا لأن الأرز المروي كان محصولا جيدا في الكثير من البيئات التي تناسب المنيهوت.

أما الهدية الكبرى الثالثة التي قدمها المزارعون الأمريكيون للعالم، فهي البطاطس التي ترجع في الأصل إلى الأنديز. وقد جعلتها غلتها المرتفعة ونموها في التربة الرملية عظيمة الفائدة في أيرلندا وشمال أوروبا عموما. وبحلول القرن التاسع عشر، أصبحت البطاطس، الغذاء الرئيس في روسيا وأيرلندا، فضلا عن أهميتها في كل مكان تقريبا في شمال أوروبا. ووصلت البطاطس إلى المناطق الجبلية حول العالم

التي حالت فيها الظروف الباردة دون زراعة الكثير من المحاصيل الأخرى. وكما في حالة المنيهوت، فرضت البطاطس نفسها على المزارعين في الأماكن التي كان من الوارد أن يقوم فيها الجنود والمغيرون بنهب الغذاء أو مصادرته.

انتشرت البطاطا وعدة أنواع من الفاصوليا والفول السوداني والكاكاو والأناناس والقرع والطماطم وعدة نباتات غذائية أمريكية أخرى حول العالم. وفي الكثير من الحالات، سمحت المتطلبات المختلفة التي تحتاجها من حيث التربة ودرجة الحرارة والرطوبة بزراعة أراضٍ جديدة، مثل منحدرات الجبال في جنوب الصين. تمثّل التأثير النهائي لذلك في زيادة تنوع الأطعمة المتاحة للبشر، وزيادة إمداد الغذاء الإجمالي في معظم أجزاء العالم خارج الأمريكتين. شعرت أفريقيا وإندونيسيا والصين وأوروبا بتأثيرات هذه المحاصيل بدرجة أقوى من الهند أو إيران أو آسيا الوسطى. ربما كان المزارعون الأفارقة الأكثر تبنيا للمحاصيل الجديدة، إذ كانوا مزارعي تخوم بامتياز، تميّزوا بالرغبة والاستعداد للتجريب، ربما بسبب قلة المحاصيل الجيدة المتاحة لهم.

وفي المقابل، أخذت الأمريكتان من عملية تبادل المحاصيل الغذائية بضعة محاصيل مفيدة من أوراسيا، من أهمها حبوب مثل القمح والشوفان والشعير، وكذلك فاكهة مثل الحمضيات. وكما كانت هناك مناطق شاسعة في أفريقيا وأوراسيا تلائم الذرة والبطاطس أكثر مما تلائم القمح أو الجاودار، كانت توجد في الأمريكتين مروج شاسعة تلائم القمح أو الجاودار أفضل من أي محصول آخر في الأمريكتين. ومع دخول الحبوب الجديدة، أصبحت الزراعة أكثر جدوى في سهول الأرجنتين المعروفة باسم البامبا وكذلك في السهول الشمالية لأمريكا الشمالية. وهناك لم يحدث التحوُّل الكبير حتى القرن التاسع عشر، لأن هذه المناطق ظلت خاضعة حتى ذلك الحين لسيطرة الأميرينديين الذين كانوا يفضلون نمط حياة يقوم على الماشية - عادة باستخدام سلالات أوراسية - تكمّلها أنماط معمرة من البستنة.

وإلى جانب انتقال المحاصيل الغذائية حول العالم، أخذت رحلات المحيطات نباتات مهمة أخرى إلى بيئات جديدة. فوصل السكر والقهوة والقطن إلى الأمريكتين، وكانت بوجه عام تزرع كمحاصيل نقدية لأسواق ما وراء البحار - أوروبا بالدرجة الأولى - ومن خلال العمل القسري، ممثلا عادة في العبيد الأفارقة. وبحلول القرن الثامن عشر، أصبحت هذه المحاصيل تشكّل نصيبا كبيرا من زراعة الساحل الأطلسي

للأمريكتين. على وجه التحديد، وجدت البرازيل تخصصها في الأسواق الزراعية العالمية بفضل المحاصيل الآسيوية والأفريقية، ذلك أن أشكال الحياة النباتية والحيوانية المحلية هناك لم يكن فيها ما يستحق أسعارا كبيرة، في حين أثبتت الظروف البرازيلية أنها مواتية للسكر والقهوة. وشكّل التبغ، وهو نبات أمريكي جنوبي، جزءا من اقتصاد المزارع الاستعمارية بالأمريكتين. لكنه انتقل عبر محيطات العالم، وأصبح بحلول القرن السابع عشر يزرع في أفريقيا الأطلسية وفي الهند وجنوب شرق آسيا والصين. وشاركت في الهجرات القارية بضعة نباتات أخرى ذات أهمية اقتصادية، منها توابل غالية الثمن مثل القرفة والقرنفل - موطنها الأصلي جنوب شرق آسيا - بذل الناس جهودا مضنية لزراعتها في البرازيل وفي شرق أفريقيا وفي الجزر الاستوائية في كل مكان. لكن نجاح تلك الجهود كان متواضعا، مع أن جزر شرق أفريقيا أصبحت في النهاية من منتجي القرنفل الأساسيين. كان انتقال النباتات الاقتصادية في معظمه عملا مقصودا، قامت على تنظيمه سلطات ملكية كانت تسعى إلى زيادة عائداتها وتقدم العلم. وقد برز البرتغاليون في هذا المجال أكثر من غيرهم، ساعدهم في ذلك أنهم كانوا يسيطرون على الأراضي الاستوائية في كل القارات. كان ممن نشط في عملية نقل النباتات أيضا الرهبنة اليسوعية بالكنيسة الكاثوليكية التي كان لها كهنة في أنحاء العالم كافة، تميّز بعضهم باهتمام قوي بعلم النبات الاقتصادي.

انتقلت الحيوانات هي الأخرى حول العالم. فوصلت الماشية والخيل والخنازير والماعز والأغنام إلى الأمريكتين بعد العام 1492 (كان في الأمريكتين حصان أسبق انقرض في أواخر عصر البلايستوسين). إجمالا، كانت هذه الحيوانات أفيد للأمريندين من المحاصيل الغذائية الجديدة. ففي الأنديز والمكسيك، أصبحت الأغنام الأساس لنمط حياة جديد وفّر مزيدا من اللحم والبروتين والصوف. وأسهم رعي الأغنام والماعز في جعل عمالة الأطفال أكثر إنتاجية مما كانت في السابق. وأثبتت الماشية أنها مفيدة، لاسيما في السهول الواسعة. ومكّنت الخيل من الإدارة الفعالة للماشية، وجعلت نمط الحياة البدوي القائم على رعي الجاموس ممكنا في أمريكا الشمالية.

لكن الحيوانات الجديدة أثبتت أنها مزيج من النعمة والنقمة. فمن دون تسييج فعال، كانت الحيوانات تسيم غالبا حيث تشاء، وكانت تجور أحيانا على حقول الذرة وبساتين الفاصوليا. وغالبا ما كان المزارعون والرعاة يجدون أن مصالح

الطرفين متعارضة، لاسيما في المكسيك. وشكّلت أظلاف الحيوانات الجديدة ضغطا جديدا على التربة، وربما أحدثت زيادة كبيرة في تآكل التربة في الأمريكتين.

حدث المكوّن الأساس الأخير للتبادل الكولومبي في شكل الجراثيم المسببة للأمراض التي أحدثت كارثة معممة في الأمريكتين. على أن هذا التأثير القاتل لم يكن متبادلا، إذ لم تقدم الأمريكتان أمراضا مهلكة كبرى إلى بقية العالم، مع أنه من المرجح أن يكون مرض الزهري قد نشأ هناك وانتشر في كل حدب وصوب مع ملاحي المحيطات.

ثمة تبادل أحيائي آخر حدث مع انتظام الاتصال بين النظم البيئية لأستراليا والمحيط الهادي مع بقية العالم، ومع أن المؤرخين لا يستخدمون هذا المصطلح، فإننا يمكن أن نطلق عليه اسم «التبادل الكوكي» تخليدا لذكرى البحّار الذي أسهم أكثر من غيره في كسر العزلة البيئية لأستراليا وبولينيزيا(*). في هذه الحالة، كان التبادل أحادي الاتجاه، إذ أعطت أستراليا العالم شجرة الأوكالبتوس، وهو نوع سريع النمو مقاوم للجفاف يزدهر حاليا في كل القارات. لكن لم يأتِ من هذا الجزء من العالم محصول أو حيوان أو مرض ذو أهمية للتاريخ العالمي. وفي الاتجاه الآخر، كان النقل هائلا. فبين العامين 1780 و1900 أخذت أستراليا وجزر المحيط الهادي عشرات النباتات الجديدة - من المحاصيل والأعشاب الضارة - وعشرات الحيوانات الجديدة، من كل من الماشية المفيدة والآفات الضارة. فقد أحدث اتصال النظم البيئية العالمية في أستراليا وجزر المحيط الهادي تغييرات أشد مما أحدثه في أي جزء آخر من العالم.

التأثيرات في سكان العالم

تأثر سكان العالم بالتغيرات الكبرى في إمداد الغذاء وفي النظم المَرضية. فبين العامين 1450 و1800 تضاعف عدد البشر، إذ بلغ نحو تسعمائة مليون إنسان. لا شك في أن جزءا كبيرا من ذلك يرجع إلى تبادل المحاصيل الغذائية. فمع إدخال مناطق جديدة في الزراعة، توافر المزيد من الغذاء للمزيد من البشر. وفي المناطق التخومية كان الناس عادة يتزوجون في سن مبكرة ويكوّنون عائلات كبيرة. ومع

(*) التبادل الكوكي Cook Exchange: نسبة إلى الربان جيمس كوك الذي جاء في مواضع سابقة أنه خطط سواحل نيوزيلندا في العام 1769. [المترجم].

أن المجاعات ظلت تضرب القرى والمدن في كل مكان، فإن أعداد البشر واصلت الارتفاع. بيد أن إمداد الغذاء كان جزءا من القصة فقط.

أما الجزء الآخر من القصة فكان التغير في حجم الخسائر الناتجة عن الأمراض المعدية. تمثّل التأثير الأولي لربط سكان العالم معا في تعريض ملايين البشر لأمراض لم يختبروها من قبل، ما أنتج كوارث سكانية، لاسيما في الأمريكتين وأستراليا والمحيط الهادي، بينما كانت التأثيرات مختلفة بشدة في الأماكن الأخرى. فقد ازداد انتشار الأمراض بسرعة كبيرة، ما جعل كل المراكز السكانية الكبرى تستضيف كل الأمراض الأساسية طوال الوقت، وهو ما يعني أنها لم تعد تنتشر دوريا كأوبئة وتقتل الملايين في ريعان قوتهم، بل أصبحت - بدلا من ذلك - أمراضا مستوطنة كانت غالبا تحصد أرواح الأطفال، وكانت العائلات في الأغلب تنجب أطفالا كثيرين للتعويض عن ذلك. وفي حين شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر أوبئة خطرة متكررة في الصين وأوروبا، وربما في الهند وأفريقيا، فإن هذه الأوبئة بدأت تتلاشى بحلول القرن الثامن عشر، وأخذ معدل النمو السكاني في الارتفاع في جميع أنحاء العالم. وبدأت الأمريكتان تتعافيان من كارثتهما السكانية، وتضاعف عدد السكان فيهما خلال القرن الثامن عشر، مع حدوث النمو الأسرع بين المهاجرين الأوروبيين والأفارقة. وفي الهند وأوروبا ارتفع عدد السكان بنسبة النصف تقريبا. وزاد عدد سكان الصين بأكثر من الضعف، إذ وصل إلى ثلاثمائة وخمسين مليونا بحلول العام 1800، وبذلك كان الصينيون يشكّلون ثلث البشر (تشكّل الصين حاليا خمس سكان العالم فقط). وفي أفريقيا يبدو أن السكان قد نموا بمعدل أبطأ، مع أن الأرقام تقديرية فقط. وفي أستراليا والمحيط الهادي كانت كارثة ما بعد الاتصال قد بدأت من فورها، لكن نتيجة لأن إجمالي عدد السكان هناك لم يكن كبيرا، فإنها لم تؤثر بشدة في النمط العالمي. كان القرن الثامن عشر نقطة تحوُّل في التاريخ السكاني العالمي، إذ كان بداية العصر الحديث للنمو السكاني السريع، وكانت التغيرات البيئية العالمية في المحاصيل والأمراض الأسباب الرئيسة وراء ذلك.

اجتمع النمو السكاني مع الحركية المتزايدة لخلق تخوم استيطانية جديدة في أماكن كان التغير البيئي فيها أسرع ما يكون. ويعد الساحل الشرقي للأمريكتين من الأرجنتين جنوبا إلى نيوفاوندلاند شمالا مثالا لذلك، وكذلك الاستيطان الهولندي حول

رأس الرجاء الصالح، والاستيطان الهندي شرقا في البنغال. وخلال هذه القرون أيضا انتقل المزارعون اليابانيون شمالا إلى جزيرة هوكايدو، وشجعت الحكومة الصينية تخوما استيطانية على طول حدودها الشمالية والغربية. كانت هذه الانتقالات تلقائية أحيانا، مثل انتقال البيوريتانيين إلى ماساتشوستس، لكنها كانت في أغلب الأحيان تلقى دعم الدولة، كما في الحالة الصينية. أوجدت هذه الهجرات نظما جديدة للبيئة الإنسانية، وهو ما انطوى عادة على إبادة الشعوب المحلية، وتآكل الحياة البرية الصالحة للأكل، وإزالة الغابات على نطاق واسع، وانتشار الزراعة والرعي. وقد استمرت ملاحم استيطان التخوم كموضوع رئيس في التاريخ العالمي حتى القرن التاسع عشر.

خاتمة

خلال الثلاثة قرون ونصف القرن التالية للعام 1450 اندمجت شبكات العالم التي كانت منفصلة حتى ذلك الحين، وكذلك انضم الكثير من الأراضي التي كانت خارج كل الشبكات حتى ذلك الحين. وبحلول العام 1800، كانت نسبة صغيرة فقط من التسعمائة مليون ساكن للكرة الأرضية لاتزال خارج الشبكة العالمية.

تغير العالم بفعل عملية اندماج الشبكات وتوسُّعها. فصار بمقدور عمال المناجم البوليفيين إخراج نظرائهم البافاريين من السوق، وصار البنغاليون يدخنون التبغ البرازيلي. وأصبح العالم أكثر ثراء خلال هذه العملية لأنها سرَّعت خطى تقسيم العمل والتخصص، لكنها في الوقت عينه جعلت العالم أكثر تفاوتا بعض الشيء، وذلك لأن البعض كانوا أقدر من غيرهم على الاستفادة من الارتباطات والتبادلات الجديدة. وأسهمت هذه العملية في تحقيق تجانس بطيء في مُجَمَّع الأمراض العالمي، إذ أصبح أناس أكثر وأكثر يتعرضون إلى مجموعة الأمراض نفسها ويطوِّرون مجموعات متماثلة من الأجسام المضادة، ما ضيَّق المجال أمام الأوبئة. أحدثت هذه العملية تراجعا بطيئا في تكرار المجاعات وشدتها، وذلك لأن الصلات التجارية، وفي حالة الصين نظم التوزيع الحكومية، أمكنها نقل الحبوب بمزيد من السرعة إلى الأماكن التي كان سعرها أعلى فيها. أحدث ذلك تقاربا في الزراعة العالمية، إذ انتشرت المحاصيل نفسها عبر مناطق أكبر من الكرة الأرضية، وأخذت أجزاء

أكثر وأكثر من العالم تتبع اتجاه الزراعة التجارية، لاسيما مزارع المحاصيل النقدية المعتمدة على العمل القسري. سرّعت هذه العملية نقل التقنيات، ومن ذلك مثلا أن مزارع السكر الكاريبية تبنت خلال القرن السابع عشر معمل تكرير كان مستمدا من سوابق صينية. وأصبح مزيد ومزيد من البشر يعيشون في المدن وينخرطون في شبكات اجتماعية أكبر وأكبر. وغدت المعلومات تنتشر بسرعة أكبر وبتكلفة أقل، ما أوجد استشرافا فكريا جديدا. وأدى التنافس العسكري باستخدام التقنيات الجديدة والمكلفة إلى القضاء على عدد كبير من الدول - والجماعات التي كانت من دون دول - بينما توسّع عدد أصغر من الدول.

ساعدت عملية اندماج الشبكات وتوسّعها في الإتيان بأطراف العالم إلى قلبه. فأصبحت المدن الميناية ومناطقها الداخلية دينامية ومزدهرة أكثر من قبل، وأكثر من المناطق الداخلية، وهاجر ملايين البشر إلى السواحل، وظهرت مجتمعات جديدة حول مسطحات العالم المائية. كان البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي يقومان منذ قرون بوظيفة جمع الناس معا. لكن بين العامين 1500 و1800 امتدت هذه العملية إلى العالم الأطلسي، وتكثّفت بعض الشيء في المحيط الهندي، وتكثّفت بقوة في غرب المحيط الهادي من اليابان إلى جاوة. وبزغ عالم المحيط الهادي مع رحلات غليون مانيلا عبر ذلك المحيط. وفي جميع الحالات، كانت هذه العوالم البحرية تتألف من جماعات تجارية ومعلومات وأمراض معدية. لكنها لم تتبلور كوحدات سياسية، وكان وجودها كوحدات ثقافية ضعيفا دائما. ولا ريب أن هذه الأهمية للبحر في تعريف الجماعات البشرية كانت غير مسبوقة وتمثّل خاصية مميّزة للعالم بين العامين 1450 و1800.

على أن التغير الذي حدث خلال تلك القرون لم يكن كبيرا. إذ ظلت أغلبية البشر في العام 1800 - ربما ما بين ثمانين وخمسة وثمانين في المائة من البشر - تعتاش على الأرض كمزارعين، وكانوا يعملون بقوتهم العضلية، مع مساعدة محدودة من الحيوانات، ومساعدة أقل من قوة الماء والرياح. وظلوا يعيشون في حالة من الفقر وعدم الأمان، في خوف من المجاعة والمرض والحرب والشيخوخة. وتمثّل عزاؤهم في العقيدة الدينية. وكانوا لا يعرفون الكثير حول العالم أبعد من خبرتهم المباشرة، لأنهم لم يكونوا يعرفون القراءة ولا يقابلون الغرباء إلا نادرا.

في العام 1800، ظل البشر والسلع والمعلومات يستغرقون أكثر من سنة للدوران حول الأرض، وظل ركوب الرياح الموسمية من الصين إلى جاوة والعودة أو من الهند إلى موزمبيق والعودة يستغرق سنة. وظل عبور المحيط الأطلسي يستغرق نحو شهر، وعبور المحيط الهادي ما بين ثلاثة وستة أشهر، وشهر أو أكثر لعبور الصحراء الكبرى بالإبل، وسنة للسير من أحد طرفي أوراسيا إلى الطرف الآخر. فقد أصبحت الشبكة العالمية عالمية بالفعل، لكن ظل البشر والسلع والأفكار والأمراض ينتقلون أسرع قليلا فقط من أسلافهم عندما تشكّلت الشبكة الحضرية الأولى حول سومر. لقد نمت الشبكات واندمجت في شبكة واحدة، لكن السرعة داخلها لم تزد إلا قليلا. وخلال القرن التاسع عشر، شهدت سرعة الاتصال داخل الشبكة زيادة جذرية، ما جعل الشبكة أسرع كثيرا. وأصبحت الشبكة أكثر خيوطا، مع امتداد خيوط لها إلى مزيد من الجماعات، إذ لم تعد تربط المدن المينائية ومناطقها الداخلية فقط، بل أيضا كل مدن العالم وقراه.

7

كسر الأغلال القديمة وإحكام خيوط الشبكة الجديدة خلال الفترة 1750 - 1914

تحرر البشر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من القيود القديمة والمتطاولة على أعداد البشر، وإمداد الغذاء، والحركية، والناتج الاقتصادي. تمثّل التطوُّر الأهم على الإطلاق في الثورة الصناعية وما انطوت عليه من تسخير للوقود الأحفوري. أحدث ذلك تحوُّلا أساسيا في الحالة الإنسانية، لا يدانيه في الأهمية إلا الانتقال إلى الزراعة قبل آلاف السنين. وكما أسهمت الشبكة العالمية الموحدة في إطلاق الثورة الصناعية، أسهمت الثورة الصناعية من جانبها في توسيع الشبكة وإحكام خيوطها. وأطلقت هذه التحوُّلات تغييرات اجتماعية

«حتى اليوم، لم يسلم العالم تماما من الفورانات التي بدأت خلال القرن الثامن عشر»

وسياسية، مثل ظهور النزعات القومية وإبطال العبودية والقنانة وغيرها من العمليات التي مارست دورا مهما في تشكيل العالم الحديث.

غير أن البشر عندما أفلتوا من إسار القيود القديمة، كبّلوا أنفسهم بقيود جديدة. فبحلول العام 1914 كانت نسبة متنامية من سكان الكوكب تعتمد على الوقود الأحفوري، وعلى الغذاء المزروع في قارات بعيدة، أي تعتمد - باختصار - على صيانة الارتباطات العالمية، إذ صارت تجارة المسافات الطويلة تشمل مزيدا ومزيدا من المواد الأساسية لبقاء البشر، مثل الغذاء والوقود. وخلال القرن التاسع عشر بلغت الشبكة العالمية مستوى عاليا من الكفاءة مكّن من توليد مكاسب كبرى من إقامة اقتصاد يقوم على التدفق اليومي الهائل للطاقة والمواد عبر مسافات شاسعة، وهو إنجاز لهذ تطلب مهارة تقنية هائلة واستثمارا وصيانة دائمة. كان من نتيجة الانتقال إلى الزراعة الذي حدث قبل آلاف السنين وعلى نحو تدريجي أن كبّل البشر ضمن وتيرة وأخطار بعينها، مثل الكدح المستمر والأمراض الوبائية. ومع ذلك، لم يكن ثمة طريق للرجوع، إذ انتشرت الزراعة في كل مكان، ومكّنت من زيادة عدد البشر، وكانت الأعداد الأكبر بدورها تستلزم استمرار الزراعة. أما الانتقال إلى الصناعة المشغّلة بالوقود الأحفوري الذي حدث فجأة، فقد حبس البشر داخل مجتمع الطاقة الكثيفة الذي وجدوا أنفسهم فيه مضطرين إلى مواصلة حشد كميات ضخمة من المواد الأساسية ونقلها واستخدامها.

تقدم الشبكة

كانت المعلومات والسلع في العام 1750 - وحتى في العام 1820 - تنتقل حول العالم أسرع قليلا فقط منها في أثناء عنفوان الشبكة السومرية، إذ ظلت العضلات الحيوانية والأشرعة مصدر الطاقة لكل النقل. لكن ذلك الوضع تغير تماما بحلول العام 1914 الذي كانت الشبكة فيه يربطها الصُلب والبخار والكابلات، وغدت الرسائل التي كانت تستغرق في السابق سنة لوصولها تصل في دقائق. لكن على خلاف ذلك، كانت التوسّعات الجغرافية للشبكة العالمية في الداخل المنعزل للأمريكتين وأفريقيا متواضعة تماما، إذ جاءت أقل اختراقا من التوسّعات السابقة التي ربطت مناطق العالم الساحلية والداخلية. فقد أصبحت الشبكة أشد سرعة وإحكاما، لكنها لم تتسع بالمستوى نفسه.

توسيع الشبكة

بعد الاستعمار البريطاني لأستراليا بداية من العام 1788، لم يعد يبقى خارج الشبكة العالمية كتلة يابسة صالحة للسكنى، وبقي خارجها القليل من البشر. عاش هؤلاء بالدرجة الأولى في الغابات المطيرة الاستوائية في أفريقيا أو الأمريكتين أو جنوب شرق آسيا أو في الامتدادات الأكثر عزلة للقطب الشمالي وأستراليا وأمريكا الشمالية. كانت أعدادهم لا تتجاوز بضعة ملايين على الأكثر، وسرعان ما بدأت في التناقص. وفي ذلك كتب تشارلز دارون (1809 - 1882) الشاب في يومياته خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر أنه «أينما حلّ الأوروبيون، أخذ الموت يطارد الجماعات الأصلية»[1].

اختفت بعض الشعوب الأصلية من دون أن تترك أثرا. وفي العام 1803، عندما أسّست بريطانيا مستعمرة عقابية هناك، كان نحو خمسة آلاف من التاسمانيين Tasmanians يعيشون على جزيرتهم الكبيرة الواقعة على بعد نحو مائتي كيلومتر جنوب الجزيرة الأسترالية. وصل أسلافهم تاسمانيا سيرا على الأقدام قبل نحو خمسة وثلاثين ألف سنة، وبعد أن ارتفع مستوى البحر في نهاية العصر الجليدي الأخير، انقطعت صلتهم مع بقية البشر. ونتيجة لعزلتهم الكاملة لعشرة آلاف سنة، فقد التاسمانيون القدرة على صنع الأدوات من العظام وإيقاد النار وصيد الأسماك. ويعد تدهورهم التقني دليلا دامغا على العقوبات الناتجة من العزلة الطويلة عن الشبكات العالمية. وبعد العام 1803 جلب السجناء وحراسهم إلى تاسمانيا أمراضا جديدة وأسلحة جديدة وموقفا متساهلا من العنف المهلك. وبحلول العام 1830 لم يكن يبقى على قيد الحياة إلا نحو ثلاثمائة تاسماني. وفي العام 1876 مات آخر تاسماني في ثقافته وجيناته، وهي امرأة تدعى تروكانيني Trucanini.

حدث الشيء نفسه مع الشعوب الأخرى التي ظلت منعزلة فترات طويلة، إذ لم توفّق في صراعها مع الدخلاء الأكثر تفوقا. كان من بين هؤلاء سكان جزيرة إيستر، وهي أبعد نقطة من بولينيزيا إلى الشرق، التي وصلها أجدادهم الأوائل في نحو العام 400 ح. م لكن سرعان ما انقطع اتصالهم مع بقية البشر، وفي النهاية فقدوا كل ذكرى للبشر الآخرين، وصاروا على اقتناع بأنهم البشر الوحيدون على الأرض، وهو الوهم الذي استمر حتى العام 1722، عندما توقفت هناك سفينة

هولندية ليوم واحد (أحد عيد القيامة)(*). لكن بقيت جزيرة إيستر مع ذلك مقطوعة الصلة عن العالم، إذ تُرك سكان الجزيرة مع أنفسهم على مدى المائة والأربعين سنة التالية، ثم ضمهم العالم في العامين 1862 و1863. فبسبب استنزاف التربة كان المزارعون في أوروبا والولايات المتحدة في حاجة إلى مزيد من الأسمدة التي كانوا يحصلون عليها من رواسب الغوانو الساحلية في بيرو(**). وفي أثناء طوافهم في بولينيزيا بحثا عن رجال للعمل في حقول الغوانو، نقل صيادو العبيد البيروفيون إلى هذه الحقول نحو ألف وأربعمائة إنسان، أي ثلث سكان الجزيرة. وعندما نجح بعضهم في العودة، جلبوا معهم - من دون قصد - الجدري وأمراضا أخرى، وسرعان ما اجتثت الأوبئة معظم سكان الجزيرة. وعندما وصل أول مبشر إلى الجزيرة في العام 1864، وجد الباقون منهم على قيد الحياة في حاجة ماسة إلى العون والرعاية. وبحلول العام 1868 كان الباقون على قيد الحياة من سكان جزيرة إيستر قد اعتنقوا المسيحية، واختفى دينهم السابق الذي ربما حمل سر منحوتاتهم المميّزة.

جلب توسيع الشبكة إلى جزيرتي تاسمانيا وإيستر الهلاك لجماعات كانت منعزلة تماما. ولحقت كوارث أقل فتكا بالجماعات التي كانت أقل عزلة. ففي منطقة الأمازون - على سبيل المثال - لم تكن الجماعات المتفرقة هناك مقطوعة تماما عن بقية أمريكا الجنوبية، وتكثّف تفاعلهم مع العالم الأوسع بالقرب من نهاية القرن التاسع عشر، عندما بدأت الأسواق العالمية تدفع أسعارا جيدة للمطاط الذي كان في ذلك الوقت يأتي من شجرة تنمو في الأمازون فقط. فأخذ جامعو المطاط ينتشرون في المناطق الواعدة من غابة الأمازون، وسرعان ما عقدوا صفقات مع الأمازونيين الأصليين للحصول على مزيد من المطاط. تبعت الأوبئة مسار ذلك الاحتكاك، ومعها درجة من العنف. ووقعت لقاءات مماثلة في المناطق القطبية الكندية والألاسكية جمعت جماعات الإنويت مع دخلاء جاءوا لجمع الفراء أو جلد الفقمة أو بحثا عن الذهب، وفي نيوزيلندا التي جمعت الماوريين مع صيادي الفقمة والحيتان والمبشرين، وبعد ذلك مع المزارعين الذين جاءوا بالدرجة الأولى من

(*) من هنا جاء اسمها إيستر Easter الذي يعني عيد القيامة. [المترجم].
(**) الغوانو guano: سماد طبيعي من ذرق الطيور البحرية. [المترجم].

بريطانيا العظمى، وفي سهول أمريكا الجنوبية والشمالية التي جمعت الأميرينديين مع أصحاب المزارع ومربي الماشية ذوي الأصول الأوروبية.

كانت هذه اللقاءات مشابهة للقاءات سابقة ألحقت فيها أمراض البشر المنضوين ضمن الشبكات الحضرية وتقنياتهم الدمار بحياة ومجتمعات شعوب كانت أكثر انعزالا. وفي اللقاء الأخير، انضم السل إلى قائمة الأمراض المهلكة، وذلك لأن التحضر السريع والزحام الشديد - لاسيما في أوروبا - أوجدا بيئات مواتية لذلك المرض الذي ينتقل عن طريق النفَس. وشملت تقنيات العنف أسلحة أشد فتكا مثل البنادق التكرارية. وعلى ذلك فإن الضربات التي وجهها المرض والعنف كلاهما للمجتمعات ذات التاريخ الطويل مع العزلة ربما كانت أقسى من تلك التي تكبدتها جماعات اليوكاجير أو الخويخوي خلال القرن السابع عشر، أو أي من الجماعات التي لا تحصى التي أُدمِجت في الشبكات الحضرية خلال الأزمان السابقة. على أي حال، فقد حققت الشبكة العالمية مزيدا من التوسُّع، بينما ضاق مدى التنوع الوراثي والثقافي بين البشر.

حتى الجماعات المنضوية فعلا ضمن الشبكة العالمية طالتهم أحيانا تأثيرات كارثية. كان من هؤلاء على سبيل المثال مغول الجونغار، الذين كانوا يعيشون في السهل شمال الصين وغربها، والذين شاركوا منذ وقت طويل في التبادل والاتصال مع جيرانهم. استطاعت هذه القبائل بطريقة أو بأخرى أن تتفادى الجدري لجيل أو أكثر إبان أوائل القرن الثامن عشر، ما جعلها غير محصنة ضده عندما أدى توثق الاتصال مع الصينيين خلال العقد السادس من القرن الثامن عشر إلى انتقال الجدري إليها. وبالطريقة نفسها، كان لشعوب أفريقيا الوسطى الكثيرة بحلول العقد الثامن من القرن التاسع عشر اتصال طويل - وإن كان متقطعا - مع الدخلاء، لكن بين العامين 1880 و1920 تكثَّفت هذه الاتصالات مع وصول الإمبريالية الأوروبية إلى أفريقيا الوسطى في شكل جنود وتجار ومبشرين جلبوا معهم نوبات حادة من الحرب والعنف والتهجير القسري للعمالة، ما عرَّض الشعوب لأمراض لم يكونوا يحملون مناعة لها، فانخفض عدد الجماعات المحلية بنسبة الربع تقريبا.

لا يكمن السبب وراء نزول هذا المصير بالجونغار وشعوب أفريقيا الوسطى في أن الشبكة العالمية قد ضمتهم فجأة كما حدث مع التاسمانيين وشعب جزيرة

إيستر، بل لأن الشبكة قد أحكمت خيوطها، ما قوّى الصلات التي غيّرت أنماط الأمراض ووضعت الضعفاء عسكريا في احتكاك منتظم مع الأقوياء. وفي أثناء هذه العملية، غدا بعض الأقوياء أشد قوة لأنهم أشرفوا على إحكام خيوط الشبكة، وشيّدوا أو امتلكوا البنية التحتية التي جعلت ذلك الإحكام ممكنا، واستفادوا أكثر من غيرهم من التدفق الأسرع والأكبر للمعلومات والسلع. أما أولئك الذين أصبحوا الأقوى بحلول العام 1914 فكانوا مجتمعات شمال الأطلسي.

إحكام خيوط الشبكة

كانت الاتصالات قبل العام 1815 تنتقل بسرعة الحصان، إن لم يكن بسرعة الحلزون. كانت الإمبراطورية الفارسية القديمة رائدة في نظم الطرق وخيل البريد، وهو النظام الذي انتشر على نطاق واسع عبر أنحاء أوراسيا كافة. واستثمرت بعض الحكومات في نظم المنارات والمشاعل المضاءة فوق قمم التلال لإرسال الإشارات بطريقة أسرع، وإن كان على حساب المحتوى، إذ لم يكن بمقدور هذه الطريقة أن ترسل إلا عددا قليلا من الرسائل المرتبة مسبقا. وفي أثناء الثورة الفرنسية (ستناقش فيما يلي)، وهو وقت كانت الوحدة الوطنية فيه بالغة الأهمية، شيّد الفرنسيون نظاما من الإشارات السيمافورية الميكانيكية سُمي التلغراف le télégraphe أمكنه بعد تزويده بما يكفي من التلسكوبات ومحطات التقوية أن يرسل رسائل قصيرة عبر طول البلاد وعرضها في بضع ساعات. لكن ظل الطقس السيئ وظلام الليل والخطأ الإنساني تهدر فائدة هذا النظام. وكما هي الحال مع نظم الاتصال الأولية السابقة، خدم التلغراف مصالح الدولة، وليس المصالح التجارية.

أما الاتصالات الحديثة، فقد وصلت في العام 1844، عندما انتقلت أولى رسائل التلغراف الكهربائي بين بالتيمور وواشنطن. كان بمقدور شفرة مورس التي ابتكرت للتلغراف أن تنقل أي مدى من المعاني تستطيع الكلمات أن تنقله، ثم توسّع نظام التلغراف في الولايات المتحدة على امتداد شبكة السكك الحديدية التي كان يخدمها. وحول العالم، انتشر هذا الابتكار مع القوة الإمبريالية البريطانية التي كان يخدمها. إجمالا، وفّر التلغراف ميّزة كاسحة في تكاليف المعلومات وموثوقيتها وسرعتها لأولئك الذين كانوا يستخدمونه، وهم تحديدا الأوروبيون والأمريكيون.

وبحلول العام 1851، كانت الكابلات الممدودة تحت الماء تربط بريطانيا بقارة أوروبا. وبحلول العام 1866، وحّد الكابل العابر للأطلسي بريطانيا وأمريكا. رأى المعاصرون في ذلك بزوغا لعصر جديد، ومنهم الشاعر المتفائل المجهول الذي أنشد يقول:

ها قد تصافحت يابستان هائلتان

عبر البحر الواسع العميق،

ويتطلع العالم بأمل جديد

إلى حلول أزمان أسعد،

فقد ولّى - بلا رجعة - ذلك الماضي

الذي كانت الجبال فيه تقف حائلا

ولم تعد المحيطات تفصل

قلب إنسان عن قلب إنسان آخر

إذ سخّر الإنسان البرق

وجعله عبدا

يحمل رسائله فوق الأرض

وتحت الأمواج[2]

يسّرت كابلات التلغراف تكوين الإمبراطوريات وإدارتها. فعندما اكتمل خط التلغراف الواصل بين بريطانيا والهند في العام 1870، غدت الرسائل التي كانت تستغرق في السابق ثمانية أشهر لإرسالها تأخذ خمس ساعات فقط. وبحلول العام 1902، كانت بريطانيا تمتلك نظاما تلغرافيا عالميا يستخدم كابلات بحرية ومحطات أرضية عبر الإمبراطورية البريطانية. كان منافسوها - ومنهم فرنسا - يستخدمون كابلات تملكها بريطانيا وتسيطر عليها، ولذلك فإن السلطات البريطانية عندما كانت تتنصت، كانت تعرف ما يجري حول العالم، وحتى ما يجري داخل الإمبراطورية الفرنسية، وقبل أن تصل المعلومات إلى باريس نفسها. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام 1914، وجدت ألمانيا أن شبكة كابلاتها البحرية المتواضعة قد قطعت، ما اضطرها إلى إرسال رسائل مشفرة عبر خطوط كان في مقدور حلالي الشفرات البريطانيين أن يتنصتوا عليها. وبهذه الطريقة، علم البريطانيون بعرض ألمانيا على المكسيك أن تهاجم الأخيرة الولايات المتحدة، وهو ما كان أحد الأسباب الرئيسة وراء

القرار الأمريكي بدخول الحرب، الذي حسم نتيجتها. كانت هذه الميّزة في الاتصال عونا قويا لبريطانيا في الديبلوماسية والجغرافيا السياسية حتى العقد السادس من القرن العشرين.

وكذلك ازدادت سعة الاتصال سريعا، وانخفضت تكاليفه بالسرعة عينها. فكان بوسع التلغراف الميكانيكي الفرنسي أن يرسل مائة وخمسين كلمة في اليوم، بينما كان بمقدور التلغراف الكهربائي في العام 1860 أن يعالج عشر كلمات في الدقيقة، وفي العام 1900 نحو مائة وخمسين كلمة في الدقيقة - تقريبا السرعة التي تنطق بها اللغة الإنجليزية - وفي العام 1920 نحو أربعمائة كلمة في الدقيقة. وخلال العقد السابع من القرن التاسع عشر، كانت الرسالة تكلف عشرة دولارات للكلمة، انخفضت إلى خمسة وعشرين سنتا فقط في العام 1888، وهي تكلفة كانت ميسورة للشركات الصغيرة والمواطنين العاديين. وفي العام 1900، غدت أوامر الشراء أو البيع تصل من لندن إلى سوق نيويورك للأوراق المالية في ثلاث دقائق. وبات بمقدور رجال الأعمال والمستثمرين الذين يتوافر لهم التلغراف أن يحققوا أرباحا فورية. في حين وجد من يفتقرون إليه صعوبة في أن يبقوا في السوق.

أحدث التلغراف ثورة في الاتصال من بعد، كانت لها نتائج كبرى على الجغرافيا السياسية والشركات، لكنه لم يكن غير واحدة فقط من التقنيات التي أحكمت خيوط الشبكة، وكانت التقنيات الأخرى في مجال النقل. أحدثت الباخرة والسكك الحديدية ثورة في النقل، لكن ثمة تحسينات أقدم في نظم النقل جعلت الباخرة والسكك الحديدية ممكنة، هي تحديدا القنوات والطرق. بحلول القرن الثامن عشر، كانت أفضل شبكات النقل في العالم توجد على الطرفين المتقابلين لأوراسيا: في الصين الساحلية والمياه المجاورة لها وفي أوروبا الساحلية، وهي المناطق التي كان للشبكة البحرية أكبر تأثير فيها خلال القرون الماضية. وعلى مدار القرن الثامن عشر، شهدت أوروبا - لاسيما بريطانيا - تكاثرا في الطرق والجسور والقنوات وتحسُّنا في هندستها وفي كفاءة السائقين ومركبات السفر والخدمات البريدية، وتشكُّل «تروست»(*) الطرق لبناء الطرق وصيانتها بغرض الربح. وبحلول العام 1770، كانت بريطانيا

(*) التروست trust: اتحاد احتكاري بين عدد من الشركات للحد من المنافسة. [المترجم].

تمتلك خمسة عشر ألف ميل من الطرق الرئيسة، ولم يكن أحد في إنجلترا يعيش على بعد أكثر من مسيرة يوم واحد من أحد الطرق الرئيسة. وبين العامين 1760 و1790، انخفض الوقت المطلوب لرحلة مركبة السفر بين لندن ومانشستر من ثلاثة أيام إلى يوم واحد، ما مكّن الخدمة البريدية من توفير خدمة يومية في طول البلاد وعرضها، وأعطى الشركات اتصالا وثيقا مع الموردين والزبائن. وبين العامين 1660 و1830، عدّلت بريطانيا عددا من الممرات النهرية أو وسّعتها، ما أدى إلى مضاعفة طول الممرات المائية الصالحة للملاحة داخل البلاد ثلاثة أضعاف، وأضافت بريطانيا مسافة مساوية من القنوات. كان تسريع حركة المعلومات والبشر والسلع وخفض تكلفتها أساسيين للثورة الصناعية، وصار نقل الفحم والحديد والقطن الخام - ومعلومات السوق - اللازمة لازدهار الصناعات ممكنا في بريطانيا في العام 1780، وليس العام 1720.

كانت البواخر والسكك الحديدية من نتاج الثورة الصناعية، إذ صارت ممكنة بفضل تحسينات أسبق في النقل البريطاني، وبدورها دفعت التصنيع قدما، إذ قضت على بعض قيود الطبيعة. فلم يعد بمقدور الرياح المعاكسة أن تؤخر البواخر أشهرا، ولا بمقدور الطقس - إلا السيئ جدا من نوعه - أن يبطئ القطارات. محقت هاتان التقنيتان المسافة، ما جعل الشحن الموثوق للسلع الضخمة لآلاف الأميال أمرا معتادا. وجعلتا الإنتاج الضخم مربحا، لأن السلع الأجود والأرخص أصبحت تجد مشترين في جميع أنحاء العالم. وأوجد تصنيع البواخر والقاطرات والسكك الحديدية في ذاته طلبا على كميات ضخمة من الحديد والصُلب والفحم.

أثبتت البواخر الأولى ذات دولاب التجديف، التي صنعت في أسكتلندا والولايات المتحدة، أنها مفيدة تجاريا في الأنهار وفي الرحلات الساحلية بعد العام 1801. وفي العام 1860 أو نحوه، أخذت تتفوق على السفن الشراعية في أعالي البحار. أحدثت الإعانات المالية من مكاتب البريد - التي كانت في حاجة إلى تسليم سريع وموثوق للبريد - والتحسينات التقنية - مثل المحركات الأفضل والداسرة اللولبية - وفورات كبيرة في الوقت والمال. ففي حين كانت الرحلة من هولندا إلى جاوة في زمن تجارة التوابل تستغرق سنة في العام 1650، صارت تستغرق ثلاثة أشهر بالشراع في حال توافر رياح مواتية في العام 1850، ثم ثلاثة أسابيع بالباخرة في العام 1920.

وتحققت وفورات مماثلة في الوقت على كل طرق المحيطات. ولم تكن الوفورات في أسعار الشحن أقل أهمية. فقبل العام 1700 كانت تجارة المسافات الطويلة تقوم بالدرجة الأولى على السلع الثمينة مثل التوابل والفضة والحرائر. وبحلول العام 1800 كانت التكاليف قد انخفضت بما يكفي لجعل شحن التبغ والأفيون والقطن والشاي والسلع الأخرى مربحا. وعلى مدار القرن التاسع عشر، لاسيما بعد العام 1850، انخفضت أسعار الشحن بشكل أسرع مع تحسُّن تقنية الباخرة وظهور خطوط الشحن لإدارة العمل بكفاءة. من ذلك أنه في أثناء حمى البحث عن الذهب في كاليفورنيا(*)، كانت سان فرانسيسكو تستورد بيوتا سابقة التصنيع من هونغ كونغ[3]. سرعان ما نُقلت العشرات من السلع الأخرى، منها الحبوب، عبر المحيطات، وازداد الشحن العالمي أربعة أضعاف (1850 - 1910).

في الوقت الذي أحكمت فيه البواخر خيوط الشبكة عبر البحار، فعلت السكك الحديدية الشيء نفسه على البر. استفادت السكك الحديدية من التلغراف، ومن الأشكال الجديدة لتنظيم الشركات الكبيرة، ومن انخفاض أسعار الحديد والصُلب والفحم. كان أول خط عام للسكك الحديدية - الذي افتتح في العام 1825 - يخدم صناعة الفحم البريطانية، ثم بدأ عصر السكك الحديدية في العام 1830 بخط بين مانشستر وليفربول، حقق نجاحا تجاريا كبيرا. وعلى مدار العقود التالية، شيّدت الشركات البريطانية شبكة كثيفة من السكك الحديدية. وسرعان ما مدّت ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وسويسرا خطوطا حديدية طويلة. فيما كانت الولايات المتحدة البلد الذي تأثر أكثر من غيره بالسكك الحديدية، وفيها مكّنت المسافات الطويلة والموارد الطبيعية والوحدة السياسية من بلوغ أقصى استفادة ممكنة من السكك الحديدية. وفي العام 1845، كانت الولايات المتحدة تمتلك مسافة ميلية من السكك الحديدية ضعف ما كانت بريطانيا تملكه، زادت إلى أربعة أضعافها في العام 1870. وفي العام 1869، أكمل الأمريكيون خطا حديديا عابرا للقارة، وبعد

(*) انطلقت حمى البحث عن الذهب في كاليفورنيا California Gold Rush (1848 - 1855) عندما اكتشف النجار جيمس مارشال James W. Marshall ذهبا في الأنهار المجاورة لموقع كان يبني فيه منشرة لمصلحة جون ساتر John Sutter في كولوما Coloma بكاليفورنيا، ما أدى إلى تدافع ما يربو على ثلاثمائة ألف منقب من داخل الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وأوروبا وأستراليا والصين، استخدموا في البداية أساليب بسيطة مثل غسل الأتربة والحصى في آنية، ثم طوروا أساليب أكثر تعقيدا، انتقلت لاحقا إلى بقية العالم. [المترجم].

العام 1880 كانوا يمتلكون سبعة أضعاف المسافة الميلية من السكك الحديدية في أي بلد آخر على الأقل. وربطت كندا (1885) ثم روسيا (1903) أراضيهما بخطوط حديدية عابرة للقارات، وأصبحتا إمبراطوريتين حديديتين. وبحلول العام 1914، كانت الدول الأوروبية قد شيّدت معظم الخطوط الحديدية التي تمتلكها حاليا، وكانت أعلى الكثافات توجد في ألمانيا وبريطانيا، لكن أمريكا الشمالية كانت تمتلك زهاء نصف المسافة الميلية من السكك الحديدية في العالم. أسهمت شبكات السكك الحديدية - مثلما فعلت البواخر - في خفض وقت النقل وتكاليفه، وفتحت الطريق بذلك أمام توسُّعات كبرى في التخصص وتقسيم العمل واقتصادات الإنتاج الضخم. وساعدت في حالات كثيرة في توحيد الأمم، ليس اقتصاديا فقط، بل سياسيا وثقافيا واجتماعيا أيضا.

الجدول (7-1): أطوال شبكات السكك الحديدية في الفترة 1850 - 1930 (بالكيلومتر)

السنة	الولايات المتحدة	روسيا	كندا	الهند	ألمانيا	فرنسا	بريطانيا
1850	14500	500	100	-	2100	900	3900
1870	85000	11000	4000	9000	19000	16000	21000
1890	335000	31000	23000	27000	43000	33000	28000
1910	566000	67000	51000	53000	61000	40000	32000
1930	692000	78000	91000	71000	58000	42000	33000

المصدر: تأسيسا على Daniel Headrick Tentacles of Progress (New York 1988), 55

وفي أفريقيا وآسيا، مُدّت السكك الحديدية عادة لخدمة الأغراض الاستعمارية، وشجعت تجارة الصادرات. وفي العام 1900، كانت القطارات تقطع المسافة بعشرين ضعف سرعة الحمّالين البشريين وثلاثين ضعف سرعة الثيران، فضلا على كونها تنقل أحمالا أثقل. وانخفضت أسعار الشحن البري بنحو ما بين تسعين وسبعة وتسعين في المائة عندما حلّت السكك الحديدية محل الحمّالين وعربات الثيران في أفريقيا والهند. وفجأة أصبح شحن المحاصيل الليفية والمعادن والسلع الضخمة الأخرى من داخل أفريقيا أو الهند مربحا. وفي أمريكا الجنوبية، انتهى الاستعمار قبل أن تبدأ السكك الحديدية، لكن الأجانب هم الذين موّلوا معظم السكك الحديدية هناك من أجل تصدير القمح أو النحاس، ولذلك مُدّت الخطوط

الحديدية هناك عادة من المزارع والمناجم إلى أقرب الموانئ، كما كانت الحال في أفريقيا أو جنوب آسيا. وشيُدت الأرجنتين أطول مسافة ميلية من السكك الحديدية في أمريكا اللاتينية، وتفوقت على بريطانيا في ذلك بحلول العام 1913، وذلك في معظمه بتمويل من بريطانيا.

بحلول العام 1914، صارت التجارة العالمية مجرد صفقات معتادة، وكان زمن التجار - المغامرين قد ولى بلا رجعة(*)، وأخذت الشركات والكيانات البيروقراطية تدير تدفقات تجارية بكميات ضخمة عبر مسافات شاسعة، بعد أن غدت المعلومات والبشر والسلع تنتقل أسرع وأرخص من أي وقت مضى بفضل التلغراف والبواخر والسكك الحديدية.

إطلاق الانفجار السكاني

ظل سكان العالم ينمون ببطء شديد على مدار معظم التاريخ الإنساني. ففي الوقت الذي كانت تتشكّل فيه أول شبكة حضرية حول سومر قبل نحو خمسة آلاف سنة، كانت الأرض تُؤوي ما بين عشرة وثلاثين مليون إنسان. وفي العام 100 ح. م، وبعد أن كانت الشبكة العالمية القديمة قد تشكّلت، بلغ عدد سكان العالم نحو مائة وخمسين مليونا (قريب من عدد سكان البرازيل حاليا). وفي العام 1500، عندما كانت الشبكة العالمية تتشكّل، كان العالم يسع أربعمائة وخمسين مليون إنسان، وهو العدد الذي ارتفع بحلول العام 1700 لنحو ستمائة وعشرة ملايين.

ظل النمو السكاني بطيئا ومتقلبا قبل العام 1700 بسبب ارتفاع معدلات الوفيات. ففي المجتمعات الزراعية، كان معدل المواليد ما بين ثلاثين وأربعين مولودا لكل ألف سنويا (زهاء ثلاثة أضعاف معدل المواليد الأمريكي حاليا)، لكن نصفهم لم يكونوا يعيشون إلى ما بعد عمر الخامسة بسبب الأمراض المستوطنة المعتادة التي اشتد تأثيرها بفعل سوء التغذية. كانت وفيات الأطفال الكابح الرئيس للنمو السكاني. وثمة كابح آخر تمثّل في الكوارث السكانية العرضية. ففي السنوات العادية،

(*) على خلاف التاجر الحديث الذي يستطيع أن يجري صفقات حول العالم من دون أن يبرح مكانه أو أن يسافر إلى أقصى الأماكن ويعود في أوقات قياسية، كان التاجر - المغامر merchant-adventurer يضطر إلى اجتياز المخاطر بنفسه في بلاد وبحار بعيدة وعبر مسافات طويلة في رحلات قد تطول لسنوات، من أمثلة شركاتهم التاريخية شركة الهند الشرقية الهولندية والبريطانية وشركة التجار المتعاملين مع أفريقيا وغيرها. [المترجم].

كان الناس يموتون بمعدل ما بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين لكل ألف سنويا (كان معدل الوفيات أدنى قليلا من معدل المواليد)، لكن كل بضع سنوات، كانت الأوبئة أو المجاعة أو العنف - أو ثلاثتها مجتمعة - تقتل أعدادا أكبر، ما كبح النمو السكاني على الدوام. كانت هذه الكوارث عادة محلية أو إقليمية في نطاقها، لكن مع توسُّع الشبكات أصبح من الوارد أن تتحوَّل الأوبئة إلى كوارث واسعة الانتشار، مثل كارثة الطاعون الذي ضرب معظم الشبكة العالمية القديمة خلال منتصف القرن الرابع عشر. وظلت المدن أماكن خطرة، إذ ظل الناس فيها يموتون بمعدل أسرع مما يولد غيرهم، ولم يحفظ المدن من التراجع السكاني غير الهجرة المتواصلة إليها من القرى المحيطة. صحيح أنه كانت.هناك بطبيعة الحال تباينات من مكان إلى آخر ومن وقت إلى آخر، لكن إجمالا كانت تلك هي الصورة العامة للنظام السكاني في المجتمعات الزراعية قبل العام 1700. وعلى مدار القرون الستة عشر السابقة للعام 1700، كان سكان العالم ينمون بنحو اثني عشر في المائة في كل قرن.

ثم بدأ هذا النظام يتقوَّض خلال القرن الثامن عشر، إذ أخذت معدلات الوفيات تتراجع، وفي بعض الأماكن أخذت معدلات المواليد ترتفع. فتضاعف عدد سكان الصين، وكان نمو سكان أوروبا قريبا من ذلك المعدل. وفي الأمريكتين، نما السكان بمعدل أسرع، ما مكّن من التعافي من الكوارث التي تلت الاتصال بالشبكة العالمية القديمة. ومع أن الأدلة متفرقة في حالة الهند وأفريقيا، فمن الواضح أن نموهما السكاني كان أقل من معدل الصين وأوروبا. ربما وصل إجمالي عدد سكان العالم بحلول العام 1800 إلى نحو 900 مليون، وبلغ معدل النمو السكاني خلال القرن الثامن عشر ثلاثين في المائة للقرن، أي أنه كان أسرع بنحو ثلاثة أضعاف منه خلال القرون السابقة للعام 1700. لم تختفِ الأوبئة والمجاعات، لكنها أصبحت أقل تكرارا وأقل حدة. وفي العام 1900، بلغ عدد سكان العالم واحدا وستة أعشار مليار نسمة، بمعدل نمو نحو ثمانين في المائة للقرن. معنى ذلك أن ثمة تحوُّلا أساسيا كان يتكشَّف.

ترجع الأسباب وراء هذه الفورة الحديثة في عدد السكان إلى التغيرات في الشبكة، ذلك أن تحسُّن كفاءة النقل والاتصال وسرعتهما وكثافتهما جعلت الكثير من الأمراض أمراضا مستوطنة، وضيَّقت المجال أمام الأوبئة. ويسَّر تحسُّن النقل وصول الغذاء إلى أولئك الأكثر لهفة إلى دفع ثمنه، ما كبح المجاعات المهلكة، وإن

لم يقدم يد العون للفقراء. وتواصل الانتشار العالمي للمحاصيل الغذائية، وربما كان تأثيره خلال القرن التاسع عشر أقوى من أي فترة سابقة. لم يكن للطب دور كبير في المراحل الأولى من هذه الفورة السكانية، مع أن انتشار المعرفة بالتلقيح ضد الجدري الذي كان ممارسة شعبية موقرة في الصين والهند وغرب أفريقيا وأماكن أخرى، قد أسهم في إطالة حياة الكثيرين. ربما أسهم المناخ الأدفأ في نصف الكرة الأرضية الشمالي بعد العقد الأخير من القرن السابع عشر في تحسين الحصاد، وبالتالي تحسين إمداد الغذاء ومقاومة الأمراض ومتوسطات العمر المتوقعة.

وأيا كانت الأسباب الأساسية وراء هذه الفورة السكانية، فقد حدثت في سياق ما يسميه المؤرخون التحوُّل السكاني demographic transition. وضمن هذا النمط، حدث أولا انخفاض في معدلات الوفيات، تلاه بعد فاصل زمني انخفاض في معدلات المواليد، وفي النهاية وصل المعدلان إلى توازن تقريبي وأخذ النمو - أو التراجع - السكاني في التباطؤ، لكن في أثناء ذلك الفاصل، نما السكان سريعا. وحدث هذا التحوُّل بسرعات مختلفة في الأماكن المختلفة. وثمة مجتمعات لم تتبع هذا النمط، لكنها عايشت الخبرات التي عايشتها معظم شعوب العالم.

في حالة بريطانيا، دام فاصل النمو السريع من نحو العام 1750 إلى نحو العام 1910، وهي فترة نما فيها سكان بريطانيا من سبعة ملايين ونصف المليون نسمة إلى 40 مليونا، على الرغم من هجرة نحو عشرين مليونا. وانخفضت معدلات الوفيات خلال القرن الثامن عشر، بينما ظلت معدلات المواليد مرتفعة لعدة أجيال، بل إنها ارتفعت قليلا، قبل أن تنخفض بشدة خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر. لقد حدث التحوُّل السكاني على نحو بطيء لدرجة أن ملاحظته قد فاتت على معاصرين من أمثال المحلل السكاني العظيم والمتشائم تي آر مالتوس T. R. Malthus (1766 - 1834).

وفي فرنسا، بدأ تراجع الخصوبة في وقت أسبق - بين العامين 1780 و1840 - ما قطع مرحلة النمو السكاني المرتفع لفرنسا ووضع حدا لكونها البلد الأوفر سكانا في أوروبا. واتبعت اليابان مسارا خاصا، إذ تجمد عدد سكانها من العام 1700 إلى العام 1860، وذلك نتيجة لمعدل خصوبة منخفض، ثم تصاعد حتى العام 1940، قبل أن يحدث الانتقال إلى معدلات مواليد ووفيات منخفضة. وفي معظم بقية العالم، حدث التحوُّل السكاني لاحقا، ولذلك سنناقشه في الفصل الثامن. ويكشف حدوث

هذا التحوُّل في أوروبا الأطلسية قبل غيرها أن الأوروبيين كانوا يشكِّلون في نحو العام 1900 نسبة من البشرية أكبر منهم قبل ذلك التاريخ أو بعده.

أوجد النمو السكاني السريع والمتفاوت ضغوطا جديدة، دفعت - بدورها - أنماطا جديدة إلى الهجرة، كان من بينها تزايد الهجرة إلى المدن. من ذلك أن نصف سكان بريطانيا كانوا يعيشون في المدن في العام 1850، وهي حالة غير مسبوقة فرضت على الريف أن يوفِّر أعدادا ضخمة من المهاجرين. وأثر النمو السكاني السريع والمتفاوت في السياسة، إذ شجع المغامرات الإمبريالية الأوروبية الغربية واليابانية فيما وراء البحار، والمغامرات الإمبريالية البرية الروسية والصينية والأمريكية والكندية. شكَّل النمو السكاني تهديدا لاستقرار الإمبراطوريات متعددة القوميات التي زادت فيها بعض القوميات بمعدل أسرع مما عداها. وأثر النمو السكاني في العالم الطبيعي أيضا، لأن زيادة السكان كانت تعني زيادة المزارع وزيادة المدن، وبالتالي تآكل الفضاء المتبقي للغابات والأراضي العشبية والمخلوقات البرية. ويمكن القول إن سرعة النمو السكاني وتفاوته بعد العام 1750 أثرا في كل شيء على وجه الأرض، ومازالا يفعلان ذلك حتى اليوم.

أسس جديدة للسياسة

منذ قيام الدول الأولى قبل خمسة آلاف عام، كان الحكم الملكي هو النظام السياسي الأكثر شيوعا والأطول بقاء. فكان فرد واحد - عادة رجل - يدعي الحق في الحكم، غالبا على أساس الوراثة والتفويض الإلهي. وعلى أرض الواقع، كان على الملوك والأباطرة أن يصلوا إلى تسوية مع السلطات الدينية ومع الوجهاء المحليين الذين كانوا عادة كبار مُلاك الأراضي في المناطق التي كانت الريوع وضرائب الأطيان هي مصدر الثروة فيها. أما الأماكن التي تميّزت بوفرة الأرض وقلة السكان مثل روسيا وأفريقيا الاستوائية وجنوب شرق آسيا، فقد تميّز الوجهاء بسيطرتهم على البشر أو التجارة، وليس الأراضي. تفاوتت الحكومات الملكية من حيث مستوى الحرية والتعبير السياسي الممنوحين للرعايا. ثم غادرت بضعة مجتمعات الحكم الملكي، وأنشأت دولا ديموقراطية يشارك فيها كل المواطنين - أيا كان تعريفهم - في السياسة، أو دولا جمهورية تعطي هذه المشاركة لممثلي الجماعات صاحبة الامتيازات. لكن

هذه الترتيبات ظلت محدودة الانتشار وهشة وقصيرة العمر، وظلت الحكومات الملكية جزءا من طبائع الأمور بالنسبة إلى أغلبية البشر.

وبداية من القرن السابع عشر، أحدث الاندماج المتزايد للشبكة تحوُّلا جذريا في قاعدة السياسة. فقد أنتج النمو السريع للتجارة والمدن جماعات من التجار ومُلاك الأراضي التجاريين استاءوا من الضرائب التي كان الملوك يفرضونها عليهم، وهو ما حدث في أنحاء الشبكة العالمية كافة، لاسيما في مناطقها البحرية مثل الصين الساحلية وغرب أفريقيا وأوروبا الأطلسية. وفي الأماكن الأكثر تقدما في الاتصال وفي الإلمام بالقراءة والكتابة، كان من الأيسر على هؤلاء المُلاك - كانت قلة صغيرة منهم من النساء - أن ينظموا أنفسهم في شكل جماعات سياسية متماسكة. وبالتزامن مع ذلك، واجه الملوك في كثير من الأماكن خلال القرن السابع عشر صعوبات مالية بسبب عقود من الحصاد السيئ وتراجع العائدات - جزئيا بسبب التغير المناخي غير المواتي - وارتفاع الإنفاق بسبب الثورة العسكرية. لذلك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى رفع الضرائب في الوقت الذي كان المُلاك فيه بوصفهم أحد مصادر الدخل المهمة ينظمون أنفسهم لحماية مصالحهم.

نجحت الإمبراطوريات الآسيوية الكبرى - التشينغية والمُغالية والعثمانية - في احتواء ضغوط القرن السابع عشر المالية، وإن كان بشق الأنفس. أما المناطق التي كانت الدول فيها كثيرة ومتقاتلة، كما كانت الحال في معظم أوروبا وأفريقيا الأطلسية، فقد تفاقمت الضغوط الواقعة على الحكومات الملكية بفعل الحرب المزمنة. وفي بعض الحالات، تفكك النظام القديم، كما حدث في مملكة الكونغو الاستبدادية المكوَّنة من نحو نصف مليون نسمة في العام 1650، والواقعة إلى الجنوب من نهر الكونغو، إذ طرد تجار العبيد والمُلاك المَلِكَ الوراثي بعد العام 1665، ما أطلق حربا أهلية، وفي النهاية أعيد بناء مملكة أقل استبدادا وأكثر لامركزية في العام 1710. وتهاوى النظام القديم في هولندا وإنجلترا اللتين تكاتف فيهما المُلاك الذين كانوا مهمشين سياسيا حتى ذلك الحين - منهم بعض تجار العبيد - للاستيلاء على السلطة. حدث ذلك في هولندا، عندما تخلّصت النخبة الحضرية من السلطة الهابسبرغية الإسبانية بعد حروب طويلة، ونتج في إنجلترا أولا من الحرب الأهلية بين الملك والبرلمان خلال العقد الخامس من القرن السابع عشر، ثم انقلاب عسكري في

العامين 1688 و 1689 أوجد ملكية جديدة ضعيفة قدمت تنازلات للمُلاك الجدد والبرلمان. وضع ذلك الأساس الاجتماعي - السياسي للثورات الاقتصادية والتقنية التي أطلقتها إنجلترا على العالم لاحقا.

وكما في حالة الكونغو، انتشرت هذه الثورات في أوروبا بالترادف مع أفكار سياسية جديدة أضفت الشرعية على النظام الجديد. وجدت هذه الأفكار عن حدود الامتياز الملكي متحدثا رائعا باسمها في شخص جون لوك John Locke (1632 – 1704)، الذي دفع بأن شرعية الحكم لا تنشأ إلا من موافقة المحكومين. نشرت الشبكة هذه الأفكار على نطاق واسع، متغلبة على جهود الرقابة، ووجدت أرضا خصبة في الأماكن التي كان المُلاك فيها ساخطين على حكم الملوك. وترسّخت هذه الأفكار بقوة أينما كان المُلاك يزدادون ثراء بسرعة، بينما أصبحت ثورية أينما كان الملوك يترنحون تحت ضغوط مالية.

انتقل هذا النمط بعد ذلك إلى مستعمرات أمريكا الشمالية خلال العقد الثامن من القرن الثامن عشر، وهناك تكاتف المُلاك الذين كانوا في أغلبيتهم تجارا في المستعمرات الشمالية ومُلاك أراضٍ وعبيدٍ في المستعمرات الجنوبية، لمقاومة الضرائب المتصاعدة التي فرضها البرلمان البريطاني. وكما هي الحال دائما، استلزمت ديون الحرب فرض ضرائب جديدة، كانت هذه المرة ناتجة من الصراع العالمي بين بريطانيا وفرنسا المعروف باسم حرب السنوات السبع التي دارت رحاها في أوروبا والأمريكتين والهند وفوق صفحة البحار. أراد المُلاك في بريطانيا أن يحوّلوا بعض نفقات إدارة الإمبراطورية إلى المُلاك في أمريكا الشمالية، فاعترض كثيرون في أمريكا، وجمعوا جيشا من خلال فرض ضرائب على أنفسهم، وأطلقوا الثورة الأمريكية (1775 - 1781)، وكان النصر حليفهم لأن القتال في أمريكا كان مكلفا لبريطانيا، ولأن الفرنسيين تدخلوا لمصلحتهم.

لكن سرعان ما ندم الملك الفرنسي على دعمه الأمريكيين؛ لأن النموذج الأمريكي شكّل إلهاما لطلاب الحرية في كل مكان، ولأن التعبير البليغ عن أفكار الحرية من جانب أمريكيين من أمثال توماس جيفرسون Thomas Jefferson (1743 – 1826) أثبت أنه معدٍ، ما أضاف إلى مزيج الآراء المقوضة التي كانت منتشرة فعلا في فرنسا. وبحلول العقد الثامن من القرن الثامن عشر، كانت

النخبة الفرنسية قد تصدعت، فلم تعد نسبة كبيرة من الأرستقراطيين أصحاب الأطيان والتجار الحضريين والمهنيين تؤيد الحكم الملكي، وأخذت تتطلع إلى التحرر من القوانين والضرائب والقيود التي تكبِّل المشروعات، وهي مطالب ما كان الملك ليمنحها لهم. كان من الممكن ألا يفضي ذلك إلى شيء، لولا النمو السكاني الذي غذى النهم للأرض بين طبقة الفلاحين، والحرب الأمريكية التي استنزفت الخزانة، والحصاد السيئ الذي أرهق الجميع. وخلال العقد قبل الأخير من القرن الثامن عشر، رفض المصرفيون والكنيسة الكاثوليكية والأرستقراطيون الأغنياء منح قروض أخرى للملك الذي استدعى هيئة كانت خاملة منذ وقت طويل تسمى مجلس الطبقات Estates General لمساعدته في جمع الضرائب، ما فتح الباب من دون قصد أمام طوفان الثورة، إذ أعلن أولئك الذين جرى استدعاؤهم، والذين كانوا في معظمهم من المُلاك، أنهم ممثلون للشعب الذي تنبع منه السيادة الحقيقية. وعندما كانوا يتعرضون للهجوم، كانوا يجدون دعما من الفقراء الحضريين في باريس، ونجح هذا التحالف في إسقاط المَلكية (1789 - 1791). وحلّت الفوضى بسبب تصارع الجماعات الثورية بعضها مع بعض، واندلعت الحرب مع الممالك المجاورة. وسرعان ما اختطف عسكري يدعى نابليون بونابرت (1769 - 1821) الثورة لأغراضه الخاصة، وأقحم فرنسا في سلسلة طويلة من المغامرات العسكرية في إيطاليا والنمسا ومصر وإسبانيا وروسيا، وقادها في النهاية إلى الهزيمة في العام 1815، التي أعيدت الملكية بعدها لكن بلا شرعية كافية، فتلا ذلك مزيد من الثورات في فرنسا إلى أن ظهرت جمهورية أقوى بعد العام 1871(*).

(*) تأسست الجمهورية الفرنسية الأولى في العام 1792، ثم انقلب عليها نابليون بونابرت وأعلن الإمبراطورية الفرنسية في العام 1804، وغزا معظم أوروبا، وعيّن أفرادا من عائلته ملوكا لها، وانتهت إمبراطوريته بنفيه إلى إلبا بعد هزيمته في حرب الائتلاف السادس واحتلال فرنسا في الحادي عشر من أبريل 1814 وتنازله عن العرش لابنه الطفل نابليون الثاني، الذي لم يحكم قط، ثم أعاد نابليون الإمبراطورية لمائة يوم في مارس 1815 قبل أن تنتهي بمعركة وترلو في يوليو من العام نفسه ومعها نابليون، الذي نفي هذه المرة إلى جزيرة سانت هيلانه ومات فيها في العام 1821، بعدها عادت عائلة البوربون إلى العرش عبر نظام ملكي دستوري حتى ثورة يوليو 1830 التي أقامت الجمهورية الثانية، وفي ديسمبر 1851 انقلب على الجمهورية لويس نابليون بونابرت الذي انتخب رئيسا ثم أعلن الإمبراطورية الثانية باسم نابليون الثالث حتى العام 1870 الذي أعلِنت فيه الجمهورية الثالثة بعد هزيمة نابليون الثالث أمام بروسيا في معركة سيدان. [المترجم].

أشعل الانفجار الفرنسي انفجارات أخرى عبر الأطلسي، أولها في مستعمرة السكر الفرنسية سان دومينغو(*). كانت أحداث الأعوام 1789 - 1791 قد أضعفت السيطرة الاستعمارية هناك، ولذلك فعندما وقع تمرد للعبيد تحوّل سريعا إلى ثورة. كانت نسبة كبيرة من العبيد في سان دومينغو آتية من الكونغو، ما جمع الأفكار الكونغولية حول الحكم الملكي المقيّد مع الأفكار الفرنسية لبث الروح في الثورة. تناوب الفرنسيون والبريطانيون والإسبان الدور لقمعها، لكنهم فشلوا جميعا، إذ نجح عبد سابق وخادم منزلي ومربي ماشية يدعى توسان لوفرتور (1743 - 1803) في تنظيم جيش فعال، وأدار حرب عصابات، ورتب باقتدار لكي تدمر الحمى الصفراء أعداءه بين العامين 1791 و1803(**). وفي العام 1804 أصبحت هايتي دولة مستقلة، وغدت الجمهورية الثانية التي تأسّست في الأمريكتين، والجمهورية الأولى والوحيدة التي قامت على ثورة للعبيد. وفي هذه الحالة، غدا المُلاك الذين كان بعضهم ممن يريدون الانفصال عن فرنسا، خاضعين لرجال كانوا يملكونهم في السابق.

جلبت الثورة الفرنسية الاستقلال إلى المستعمرات الإسبانية في الأمريكتين، حيث تكررت بين المُلاك في أنحاء أمريكا اللاتينية كافةً أصداءُ نموذج الثورة في كل من الولايات المتحدة وفرنسا وأيديولوجيتها. فمع أن القيود التي فرضتها الإمبراطورية الإسبانية على التجارة كانت مخترقة على نطاق واسع، فإنها أزعجت التجار ومُلاك الأراضي على حد السواء، وهما الطرفان اللذان تمتعا بازدهار متنامٍ قائم على النمو السكاني والتجاري، لكنهما رأيا أن القواعد الإسبانية تحول دون تحقيق مزيد من المكاسب. ولذلك فعندما غزا نابليون إسبانيا في العام 1808 اشتعلت المستعمرات الأمريكية اللاتينية بالثورة، ولم يكن في وسع إسبانيا أن تفعل شيئا. وبعد أن طُرد نابليون من إسبانيا حاولت الحكومة الإسبانية الجديدة أن تعيد تكوين الإمبراطورية بقوة السلاح، لكنها فشلت، ووقعت أكبر حملاتها العسكرية على المستعمرات

(*) عرفت سان دومينغو Saint Domingue بعد الثورة على فرنسا والاستقلال عنها في العام 1804 باسم هايتي، وكانت في الأصل مستعمرة في غرب جزيرة إسبانيولا انتزعها الفرنسيون من إسبانيا في العام 1659. [المترجم].

(**) توسان لوفرتور Toussaint Louverture هو قائد الثورة الهايتية الناجحة التي بدأت في نوفمبر 1791، حارب الفرنسيين لمصلحة الإسبان وحارب الإسبان والإنجليز لمصلحة الفرنسيين، وأخيرا حارب فرنسا النابليونية من أجل استقلال سان دومينغو، وأنشأ أول مجتمع حر في المستعمرات يرفض العرق كأساس للتفاوت الاجتماعي، ومات بفعل الخيانة قبل الانتصار النهائي للثورة الذي حدث بقيادة جان جاك ديسالين Jean Jacques Dessalines (1758 – 1806)، الذي أعلن استقلال هايتي في يناير 1804. [المترجم].

فريسة للحمى الصفراء. وبحلول العام 1826 كانت أمريكا الإسبانية قد تشظّت إلى عدة دول مستقلة، ولم يبقَ لإسبانيا غير كوبا وبورتوريكو اللتين ظل أصحاب مزارع السكر فيهما موالين لأفضل زبون لهم.

كانت هناك أسباب محلية ومحددة لكل هذه الثورات التي تكررت أصداؤها في أنحاء العالم الأطلسي كافة. لكن كانت هناك أسباب مشتركة، هي الرغبة في الحكم النيابي أو السيادة الشعبية، والقوة المتصاعدة للطبقات التجارية، والنمو السكاني، والصعوبات المالية للملوك المحاصرين بالمشكلات. نتج ذلك كله، بدرجة أو بأخرى، من الإحكام المتنامي لروابط الشبكة العالمية. ونتيجة لأن ذلك الإحكام حدث بأقوى وأسرع ما يكون حول شواطئ الأطلسي، فإن عصر الثورات كان في بادئ الأمر خاصية أطلسية.

ولم يطل الوقت قبل أن تطوّر كل الثورات - باستثناء الثورة الهايتية - فكرة أن الملّاك يجب أن يكونوا أحرارا في السعي وراء الثروة وفقا لما يتراءى لهم، بينما تميّزت الثورة الفرنسية بتطوير فكرة أن السيادة تقوم على موافقة المحكومين وأن الدولة تعبير عن إرادة الشعب، وانتشرت هاتان الفكرتان على نطاق واسع، لاسيما الأخيرة. وفي فرنسا أثبتت هذه الفكرة أنها مفيدة كأساس لجيش من نوع جديد عرف باسم «الأمة المسلحة» nation - in - arms، وهي فكرة كانت جديدة على أوروبا، على الأقل منذ الجمهورية الرومانية قبل ألفي عام[4]. وعندما اجتمع هذا الجيش الجماهيري مع التنظيم المتقن، وهي مهارة كان نابليون متمكنا منها، أثبت أنه آلة مهولة للحرب البرية. وساعد في صوغ وعي جمعي، هو الإحساس بالانتماء للأمة، بين الفرنسيين الذين كانوا في العام 1790 متنوعين، فأصبحوا في العام 1815 أقل تنوعا بكثير، إذ غدوا فرنسيين بدرجة أكبر من ذي قبل، ومن ثم أكثر إذعانا لأي حكومة تستطيع أن تقنعهم بأنها تجسد إرادة الشعب، وهنا مكمن السحر.

كان من شأن النزعة القومية - بمعنى الإحساس بالتضامن بين أفراد يعتقدون أنهم يشكّلون أمة واحدة - أن تيسر فن الحكم. فعلت القومية في هذا الجانب ما فعلته الأديان وقتا طويلا، وهو ما جعل المحكومين يتقبلون مصيرهم. وأينما كان السكان جميعا يشتركون في سمات يعتقد أنها تميّز أمة - هي عادة اللغة والثقافة وفي بعض الحالات الأصل المفترض - بات بمقدور الدولة أن تصوّر نفسها بسهولة على

أنها تجسيد للأمة. واستخدمت الحكومات الخدمة العسكرية والتعليم الجماهيري - لاسيما دروس التاريخ البطولي والقومي - والأدب القومي لغرس المشاعر القومية، وكان المسرح والموسيقى والمتاحف والمواكب والاحتفالات الطقوسية تنقل الرسالة نفسها إلى الأميين. وأظهر الناس في كل مكان - لاسيما سكان الحضر والطبقات المتعلمة - تجاوبا كبيرا لسحر القومية الذي جعل الناس يشعرون بأنهم جزء من كيان أكبر وأنبل من عائلاتهم أو أبرشياتهم. وفي حين عملت القومية بدرجة أو بأخرى كدين علماني وتحالفت في بعض الحالات - مثل إيطاليا والمكسيك وتركيا - مع عناصر معادية لرجال الدين، فإنها انسجمت في معظم الأحيان مع الدين المهيمن، كما فعلت مع الكاثوليكية في بولندا وأيرلندا، والأرثوذكسية في روسيا واليونان وصربيا، والشنتوية في اليابان. وقدمت القومية أحيانا مكافآت ملموسة، مثلا لمعلمي المدارس والصحافيين وضباط الجيش وغيرهم الكثيرين ممن ساعدوا في نشر رسالتها. وأشبعت القومية بعض أعمق الرغبات الإنسانية، وهو الدافع إلى التضامن والجماعة، والدافع إلى تقسيم البشر إلى «نحن» و«هم». ربما كانت لهذا الدافع قيمة تتعلق بالبقاء في أثناء التلمذة الطويلة للتاريخ الإنساني، عندما كان تضامن الجماعة يعني مزيدا من النجاح في الصيد وحماية الذات، وربما يكون له أسس أحيائية في الدماغ البشري. تمثّل القومية الحديثة الالتقاء بين تضامن الجماعة وسيادة الدولة. وعلى أي حال، فقد انتشرت القومية في كل حدب وصوب.

أسهمت القومية في قلب النظام السياسي العالمي رأسا على عقب، إذ أعطت - أولا - قوة أكبر لتلك الدول التي استطاعت أن تسخّرها لخدمتها، كما في حالة الدول التي كانت الحدود اللغوية والثقافية فيها تتطابق بالكامل مع الحدود السياسية – مثل اليابان. وحدث ذلك أيضا في دول كانت حدودها السياسية يمكن تعديلها لاستيعاب المشاعر القومية المنبثقة، كما في حالة إيطاليا وألمانيا اللتين أصبحتا دولتين من خلال الدبلوماسية وحروب صغيرة بين العامين 1859 و1871. واستفادت فرنسا وبريطانيا من القومية، إذ كبحت تنوعهما اللغوي والثقافي، وهو ما استغرق - في الحالتين - قرنا أو أكثر. وبعد الحرب الأهلية أسهم التعليم المجاني وأيديولوجيا سياسية مغرية قائمة على الحرية في إنجاح القومية في الولايات المتحدة على الرغم من تنوعها الإثني والديني. وبينما يجد أتباع كثير من الأديان الحرية في الخضوع

لله، وجد حكام الدول المتجانسة إلى حد معقول القوة في الخضوع لإرادة الشعب، لأن الإذعان لها - أو التظاهر بذلك فقط - من شأنه أن يستحثَّ الدعم القومي.

أما الأماكن التي كان السكان فيها غير متجانسين بالمرة، فقد أضعفت النزعة القومية الدولة. حدث ذلك في الأقاليم الهابسبرغية والعثمانية خلال القرن التاسع عشر، حيث استعصى التنوع الثقافي والإثني الكبير على الدمج، على رغم أن الدولة هنا أيضا لم تدخر جهدا للاستفادة من ذلك السحر المراوغ. وبدلا من ذلك عملت القوميات من أجل هدف التحرر، ما جعل تلك الإمبراطوريات صعبة في حكمها، بل إن سياسات المركزية والدمج لم تفعل شيئا غير إثارة النزعة القومية بين مزيد من الأقليات. طال هذا المصير روسيا الإمبراطورية، إذ ترسّخت النزعة القومية بين كثير من رعاياها، لاسيما البولنديين. وبالمثل، ولّدت مشروعات «الترويس» Russification استياء مريرا. وخلال القرن العشرين انتشرت القومية حول العالم، وقلبت النظم السياسية في كل مكان رأسا على عقب، إذ أخذت تجمع الجماعات والدول وتمزقها بلا رحمة. ومع ظهور الهويات القومية لم تعد السياسة والثقافة كما كانتا قبلها.

لم ينتشر الحكم النيابي والقومية أبعد من ذلك خلال القرن التاسع عشر. فلم تُظهر الإمبراطورية الروسية ميلا إلى توسيع قاعدة السياسة، ولا الإمبراطوريات الآسيوية الكبيرة ومئات الدول الأفريقية، على الرغم من اتخاذ بعض الخطوات الصغيرة في عدة حالات. ومع نهاية القرن التاسع عشر - كما سنرى - كانت معظم آسيا وكل أفريقيا تقريبا قد وقعت تحت السيطرة الأوروبية، وعمل الحكم الاستعماري عادة - فيما عدا المستعمرات الاستيطانية مثل نيوزيلندا وأستراليا - بالأوامر الفوقية أو بالتشاور مع حكام محليين غير منتخبين. وبعد العام 1826 تبنت الدول المستقلة بأمريكا اللاتينية - في معظمها - دساتير جمهورية (على رغم أن البرازيل تبنت النظام الإمبراطوري حتى العام 1889)، لكنها في الأغلب خضعت لإدارة الجيوش، لأن الجيش - والكنيسة في بعض الحالات - كان في معظم الحالات المؤسسة الرئيسة التي نجت من حروب الاستقلال وازدهرت خلالها. ومع حلول العام 1950 فقط، أصبح مبدأ الحكم النيابي يحظى بقبول عام، وباتت كل الدول تقريبا تتظاهر - على الأقل - بالالتزام به.

ثمة قيد آخر لم تتخلّص منه السياسة الجديدة بعد. ففي الجمهوريات والملّكيات الدستورية على حد سواء وسّعت الثورات المشاركة السياسية بالدرجة الأولى إلى المُلاك الذين قادوا هذه الثورات، بينما ظل الفقراء مستبعدين لبضعة أجيال والنساء لمدة أطول. وخلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر مدّت الولايات المتحدة حق الاقتراع للذكور البيض الفقراء، ومدّته بريطانيا في العام 1884 إلى كل الذكور دافعي الضرائب. ومدّت فرنسا وألمانيا الإمبراطورية حق الاقتراع إلى كل الذكور البالغين خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر. لكن في إيطاليا في العام 1881 كان ستة بالمائة فقط من الشعب يتمتعون بحق الاقتراع. ولم تشارك النساء في التصويت على السياسة القومية في أي مكان حتى العام 1894، عندما فتحت نيوزيلندا الطريق لهن للاقتراع، لكن ظلت مشاركة النساء محدودة في السياسة في كل مكان تقريبا حتى بعد العام 1918. لذلك جاء العام 1914 ولا أحد في معظم الدول يتمتع بالحق في الاقتراع، وحتى الدول التي أعطت ذلك الحق للرجال، كانت النساء فيها لاتزال محرومات منه. وفي الجمهوريات الأمريكية ظلت هناك قوانين وتهديدات مختلفة حالت دائما دون إعطاء حق الاقتراع للسود، حتى بعد إبطال العبودية. فمبادئ عصر الثورات ظلت حبرا على ورق في معظم العالم حتى القرن العشرين(*)، وحتى في الأماكن التي طبقت فيها تلك المبادئ على أرض الواقع، فإنها لم توسّع قاعدة المشاركة السياسية عادة إلا ببطء شديد. غير أن هذه المبادئ الجديدة، على رغم أنها لم تطبق على نحو متسق، شكّلت جزءا من قاعدة العالم الحديث.

الثورة الصناعية

كان هناك شيء أكثر أهمية وتأثيرا يحدث في العالم، هو الثورة الصناعية. وعلى رغم أنها تركزت في البداية في إنجلترا، فإنها كانت في الوقت عينه تحوّلا شمل العالم كله، جزئيا لأن تصنيع إنجلترا الذي سبق الآخرين استلزم هو نفسه ارتباطات جديدة

(*) يشير عصر الثورات Age of Revolution إلى الفترة الممتدة بين نحو العامين 1774 و1848 التي شهدت حركات ثورية بارزة في كثير من أجزاء أوروبا والأمريكتين طالبت بالتحوّل من الحكم المطلق إلى الحكم الدستوري والجمهوري، بدأت بالثورة الأمريكية (1765 - 1783)، ثم الفرنسية (1789 - 1799)، وانتهت بالثورات الإيطالية (1848). [المترجم].

مع أماكن مثل الهند وأمريكا، وجزئيا لأن التصنيع لم يكد يبدأ في إنجلترا حتى أخذ ينتشر في أصقاع العالم المختلفة. وكما هي الحال مع التحوُّل السكاني والقومية، انتشر التصنيع سريعا وعلى نحو متفاوت، ما أنتج مزيدا من الضغوط التي استحثّت بدورها هجرات وثورات وظهور نظم إمبريالية وانهيار غيرها وأشياء أخرى كثيرة.

أولا وقبل كل شيء، أحدثت الثورة الصناعية تحوُّلا في قاعدة الطاقة للمجتمع الإنساني، والطاقة ضرورية للتصنيع والنقل والبقاء المادي. قبل استخدام الوقود الأحفوري، لم يكن البشر يسخِّرون إلا جزءا ضئيلا من الطاقة المتاحة على الأرض. فمن خلال تناول النباتات، كان البشر يأخذون الطاقة الكيميائية التي كوّنتها عملية البناء الضوئي من ضوء الشمس. ومن خلال أكل الحيوانات واستخدام القوة العضلية لحيوانات الجر، كان البشر يحصلون على مزيد من الطاقة. وحتى طاقة الرياح والماء التي لم تكن متاحة إلا في المواقع المواتية لها، لم تكن تستغل إلا جزءا صغيرا من الطاقة السنوية التي تنقلها الشمس إلى الأرض. فلم تستخرج كل من هذه الطرق إلا جزءا صغيرا من التدفق السنوي للطاقة التي تولِّدها الشمس، التي كانت على رغم وفرتها لا تُحوَّل بكفاءة إلى أشكال مفيدة. ومن خلال إحراق الخشب أو الفحم النباتي، أمكن للبشر تسخير مخزون الطاقة الذي تراكم في الأشجار على مدى قرن أو اثنين. لكن في نهاية المطاف، لم تنتج كل هذه الطرق إلا حصيلة محدودة من الطاقة، وهو ما كان يعني أن يظل كل البشر تقريبا فقراء دائما وأن يعتمدوا على الكدح المضني من أجل أرزهم أو خبزهم اليومي.

ثم جاء الوقود الأحفوري ليغيِّر ذلك كله. كان الهولنديون أول من اعتمد على الوقود الأحفوري في اقتصادهم، عندما كانوا يحرقون الخُثّ - أنسجة نباتية متراكمة يحفظها الماء - لتدفئة بيوتهم وتشغيل صناعات مثل التخمير وصنع الطابوق وتكرير السكر وصنع الزجاج (لكن ليس في تشكيل المعادن؛ لأن لهيب الخُثّ لم يكن ينتج حرارة كافية لصهرها). كان الهولنديون يستخرجون الخُثّ من المستنقعات ويجففونه ويحرقونه للحصول على الطاقة التي سبق أن خزنتها النباتات على مدى آلاف السنين. أعطى ذلك هولندا ميزة فريدة في الصناعات الكثيفة في استهلاك الطاقة - إلى أن وصل الفحم - واعتمد ازدهار الهولنديين في عصرهم الذهبي (بين نحو العامين 1580 - 1700) إلى حد كبير على الطاقة منخفضة التكلفة.

وفي حين أتاح الخشب طاقة تكوّنت على مدى قرون، وأتاح الخُثّ طاقة تكوّنت على مدى آلاف السنين، كان الفحم طاقة تكوّنت على مدى دهور. عرف البشر حول العالم استخدامات الفحم منذ زمن بعيد، واستخدمته الصين السونغية على نطاق واسع في صناعة الحديد، وكانت لندن تحرق الفحم للتدفئة المنزلية منذ القرن الثالث عشر على الأقل. كانت بريطانيا تحتوي على رواسب فحم وفيرة، شكّلت جزءاً من «الهلال الفحمي» الذي امتد من السهول الأسكتلندية عبر إنجلترا إلى شمال فرنسا وبلجيكا وحوض الرور Ruhr في ألمانيا، وهي المنطقة التي قُدّر لها أن تكون المركز الصناعي لأوروبا، فكانت بالنسبة إلى التاريخ الحديث في أهمية الهلال الخصيب بالنسبة إلى التاريخ القديم. قبل العام 1750 لم يكن النقل الاقتصادي للفحم ممكناً، إلا للفحم الساحلي في شمال شرق إنجلترا ولبضعة أميال فقط. لكن مع حفر القنوات خلال القرن الثامن عشر دخلت رواسب الفحم الأكبر الواقعة في الداخل البريطاني إلى السوق. وبحلول العام 1815 كان إنتاج الفحم البريطاني السنوي يعطي طاقة مكافئة لما يمكن استخراجه من غابة افتراضية تساوي مساحة إنجلترا وأسكتلندا وويلز وعشرين ضعف ما كان بإمكان الغابات البريطانية الفعلية أن تنتجه[5]. عوّض الفحم بذلك عن مساحة الأرض. كانت بريطانيا في طريقها إلى أن تصبح أول مجتمع غني بالطاقة. يبيّن الجدول (7 – 2) الفرق في استخدام الطاقة قبل الوقود الأحفوري وبعده:

الجدول (7 – 2): المتوسط السنوي لاستخدام الطاقة لكل فرد

المتطلبات الأساسية للجسم البشري	1*
مجتمعات الصيد والجمع	36-
المجتمعات الزراعية	1824-
المجتمعات الصناعية	7080-

• الوحدة المستخدمة هنا هي متوسط المتطلبات الأيضية الأساسية لجسم الإنسان البالغ، وهي نحو ثلاثة ونصف غيغاجول سنوياً(*)(6).

(*) الجول joule: وحدة قياس الطاقة، والغيغاجول gigajoule تساوي مليار جول. [المترجم].

وكما فعل الانتقال إلى الزراعة قبل مائة قرن، رفع استغلال الوقود الأحفوري إمدادات الطاقة المتوافرة للاستخدام الإنساني، ما أنتج زيادة كبيرة في أعداد البشر وثرائهم. وأينما تسبب التحوُّل السكاني - في مراحله الأخيرة - في إبطاء النمو السكاني، كانت حصيلة الطاقة الجديدة تعني الإفلات من الفقر الجماهيري لأول مرة في التاريخ.

ومع انخفاض أسعار الفحم البريطاني، أصبح من الأسهل تأمين التدفئة في الشتاء وتنشيط الصناعات الكثيفة في استهلاك الطاقة التي تخصص فيها الهولنديون في السابق. لكن الأمور في بريطانيا ذهبت أبعد من ذلك بكثير، جزئيا بفضل اثنين من التغيرات التقنية. كانت معظم عروق الفحم غير قابلة للاستخدام في صناعة الحديد لأن شوائبها كانت تنتج حديدا هشا، لكن ذلك لم يعد يشكِّل عائقا بعد العام 1709، عندما أدرك صاحب مصنع حديد يدعى أبراهام داربي Abraham Darb (1678 - 1717) أن الكوك - وهو كربون أصفى مشتق من الفحم - يعالج هذه المشكلة بطريقة جيدة، وقد أوجد ذلك حلا لعائق استخدام الطاقة في إنتاج الحديد، ما أحدث توسُّعا ما كان له أن يحدث باستخدام الفحم التقليدي: الفحم النباتي. أما التجديد التقني الثاني، فكان المحرك البخاري الذي وجد سابقا في صورة أولية في الصين وفرنسا وإنجلترا. ألهمت مشكلة نزح الماء من مناجم الفحم عدة تطوُّرات في تصميم المحركات البخارية، كان أهمها ذلك التطوُّر الذي يرجع إلى الأسكتلنـــــدي جيمـــس واط James Watt (1736 - 1819) خلال العقد الثامن من القرن الثامن عشر. وأينما كان الفحم مجانيا، أخذت محركات بخارية مشغَّلة بالفحم تعمل على مداخل المناجم لنزح المياه الجوفية، ما مكَّن عمال المناجم من الحفر لأعماق أبعد وأبعد.

فتح نزح المياه من الطريق تخوما جديدة للطاقة في باطن الأرض، وهو ما كان إنجازا مهما يكافئ ما حدث في الزراعة عندما نجح المزارعون في زراعة السهول الرطبة في شمال غرب أوروبا باستخدام المحراث القلَّاب، أو على مسافة أبعد كثيرا عندما دشَّنت حقول الأرز بشرق آسيا أو الحقول المصطبية ببلاد ما بين النهرين فرصا جديدة لإنتاج الغذاء. كانت السيطرة على المياه هي المفتاح في الحالتين، وفي حالة استخراج الفحم، كانت الآلات هي التي فعلت ذلك، لا الفلاحون.

وبحلول العام 1800 كانت بريطانيا تمتلك نحو ألفي محرك بخاري، كانت أغلبيتها تستخدم في نزح المياه من مناجم الفحم، ما أسهم في خفض أسعار الفحم

أكثر وأكثر. وسرعان ما أصبح استخدام الفحم والمحركات البخارية الثابتة ممكنا في كثير من التطبيقات الأخرى مثل صناعة النسيج والخزف، وفي تشغيل الأكيار في مسابك الحديد. وأخيرا، أصبحت المحركات البخارية النقالة - في القاطرات والسفن - هي القاعدة، ما أحدث نتائج ذكرناها فيما سبق. كان ذلك هو القلب التقني للثورة الصناعية في بريطانيا[7].

بيد أن الثورة الصناعية انطوت على ما هو أكثر من الابتكار التقني والطاقة الرخيصة. ففي بريطانيا توافرت بيئة اجتماعية وسياسية واقتصادية ناشئة شجعت الابتكار ويسّرته. ساعدت التسويات التي نتجت مما سمي الثورة المجيدة - انقلاب العامين 1688 و 1689 - في تأسيس نظام ضريبي أكثر استقرارا وحقوق ملكية أكثر أمنا وسياسات أكثر دعما لرجال الأعمال مثل حظر استيراد الأقمشة الهندية (1721) الذي شجع صناعة القطن الإنجليزية. وتمتع المنتجون البريطانيون بحماية تعريفية عالية من المنافسة الأجنبية حتى العقد الثالث من القرن التاسع عشر. وكان بمقدور أرباب الأعمال في صناعات التعدين والمنسوجات أن يعتمدوا على الحكومة وجيشها لدعمهم في الصراع مع العمال. وأوجدت التحسينات في النقل التي نوقشت فيما سبق سوقا على المستوى القومي، ومن ثم شجعت الإنتاج واسع النطاق. ثم جاءت حروب بريطانيا الثلاث الكبرى بين العامين 1756 و1815 لتجعل الحكومة زبونا جيدا لكميات ضخمة من منتجات الملابس والسلع الحديدية، وبذلك شيّدت بريطانيا مُجَمّعا صناعيا - عسكريا[8](*). وطوّرت نظاما ماليا نجح في وضع ثروة المدخرين تحت تصرف الأعمال التجارية التي كانت في حاجة إلى الاقتراض، وإن لم يؤثر بشدة - فيما يبدو - خلال العقود الأولى للثورة الصناعية، ومن ذلك أن أبراهام داربي اضطر إلى الاعتماد على أموال العائلة والأصدقاء لتوسيع أعماله في مجال الحديد، وهو الأمر نفسه الذي فعله جيمس واط. لكن بعد العام 1780 أصبح بمقدور رواد الأعمال أن يقترضوا مما

(*) يشير المجمع الصناعي - العسكري industrial - military complex الذي حذر منه الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور في خطبة وداعه في السابع عشر من يناير 1961، إلى علاقة تبادل المنافع بين صناعة الدفاع ومؤسسات الدولة ممثلة في الجيش، وفي هذه العلاقة تشنّ الحروب من أجل المصالح الخارجية لصناع السياسة المدنيين والعسكريين وتحصل شركات الدفاع على صفقات مربحة وتدور عجلة إنتاجها، وهي العلاقة التي تختصرها عبارة «الحرب بغرض الربح» war for profit. [المترجم].

سمي البنوك الوطنية وأن يبيعوا الأسهم في سوق لندن للأوراق المالية (أسّست في العام 1773). وعلى ذلك، فإن المشهد الاجتماعي والسياسي قد عمل - جنبا إلى جنب مع تجاوز عائق الطاقة عن طريق الفحم - على تمكين الابتكار وتشجيعه.

وفيما وراء شواطئ بريطانيا، كانت هناك ظروف أخرى ساعدت في التخلص من القيود القديمة. فكما عوّض الفحم عن أراضي الغابات، عوّضت حقول ما وراء البحار عن الأرض الزراعية البريطانية، ما أدى إلى تحسُّن إمداد الغذاء، لاسيما للمدن، إذ قدمت بريطانيا سلعها المصنّعة في مقابل الحبوب من روسيا وأمريكا الشمالية، واستخدمت قوتها الاستعمارية في الحصول على السكر بأسعار مواتية من الكاريبي، ما أمدّ العمال الحضريين ببعض السعرات الحرارية. ومن الصين والهند كانت بريطانيا تجلب الشاي الرخيص الذي ساعد - لكونه منبِّها - أولئك العمال في مواصلة ورديّاتهم في المصانع. وساعد تصدير السلع المصنّعة وممارسة القوة الاستعمارية كلاهما بريطانيا في الحصول على القطن الخام المطلوب لعمل مصانعها: من الجنوب الأمريكي ومن الهند، ولاحقا من مصر وأماكن أخرى في أفريقيا. وأثبت توسُّع حزام القطن في أمريكا بعد العام 1790 أهميته لصناعة النسيج البريطانية التي تلقت دفعة أخرى من الأصباغ وأساليب الصباغة القادمة من الهند وتركيا. لقد جلبت شبكة التجارة العالمية لسكان بريطانيا وصناعاتها كل ما كانت تحتاج إليه، وذلك بفضل المزايا التي وفّرها الفحم والبخار البريطانيان. في العام 1865 أوجز عالم الاقتصاد دبليو إس جيفونز تلك الوضعية على النحو التالي:

> إن التجارة الحرة... التي قامت على القاعدة المادية لموارد الفحم لدينا، جعلت أربعة أركان الكرة الأرضية روافد طائعة لنا... فغدت سهول أمريكا الشمالية وروسيا حقول ذرة لنا، وشيكاغو وأوديسا مخازن قمح لنا، وكندا والبلطيق غابات خشب لنا، وأستراليا مراعي أغنام لنا، والأرجنتين والمروج الغربية لأمريكا الشمالية قطعان ثيران لنا، وترسل بيرو فضتها إلى لندن، وإليها أيضا يتدفق الذهب من جنوب أفريقيا وأستراليا، ويزرع الهندوس والصينيون الشاي لنا، وكذلك مزارع القهوة والتوابل والسكر في جزر الهند الغربية. وتشكّل إسبانيا وفرنسا مزارع

> عنب لنا، والبحر الأبيض المتوسط بستان فاكهة لنا، أما حقول قطننا التي تمثّلت لمدة طويلة في أراضي جنوب الولايات المتحدة فتمتد حاليا عبر كل المناطق الدافئة على سطح الكرة الأرضية[9](*).

حاول المؤرخون طويلا أن يفسروا لماذا حدثت الثورة الصناعية في إنجلترا قبل غيرها، ولماذا حدثت في التوقيت الذي حدثت فيه. وثمة إجابة موجزة تذهب إلى أن الخصائص الداخلية - وفرة الفحم والحديد - والتطوّرات الداخلية - البيئة الاجتماعية السياسية بعد العام 1688 - قد تكاتفت مع إحكام خيوط الشبكة داخل بريطانيا - الطرق والقنوات والسكك الحديد والخدمة البريدية - وعلى مستوى العالم - تجارة ومستعمرات ما وراء البحار والنمو السكاني - لخلق الشروط اللازمة للتصنيع، وهي حالة بلغت فيها الحرية والدافعية للابتكار مستويات غير عادية(**).

ساعدت الابتكارات الناتجة في تجاوز العوائق القديمة، لكنها خلقت مشكلات جديدة كانت في حاجة إلى حلول. ففي مجال المنسوجات مثلا، كانت الغزول اللازمة لتشغيل نسّاج واحد في المصانع الصغيرة كثيرة العدد قبل العام 1733 تحتاج إلى عمل ثلاثة أو أربعة غزّالين، ثم جاء اختراع المكوك الطائر ليضاعف سرعة النسّاجين ويزيد الدافعية للتوصل إلى طريقة لتسريع عمل الغزّالين، وهو ما أنجز في العام 1770 من خلال المغزلة. ويمكن القول - بناء على ذلك - إن الابتكارات - على الأقل بالنظر إلى الأحداث بعد انقضائها - حدثت على دُفعات. وشملت هذه الابتكارات عناصر تقنية وتنظيمية تطوّرت جنبا إلى جنب مع ترتيبات اجتماعية وسياسية. شملت الدُّفعة الأولى التي حدثت في نحو الأعوام 1780 - 1830 صناعات المنسوجات والحديد بالدرجة الأولى، وفيها تضمنت الإنجازات التقنية الأساسية المكوك الطائر والمغزلة والنول الكهربائي في إنتاج المنسوجات القطنية، وأفران الكوك في صناعة الحديد. وشملت أوجه التقدم المهمة في مجال النقل الطرق المعبدة

(*) في تأكيد مماثل وأكثر صراحة لدور الإمبريالية والنهب الاستعماري في النمو الاقتصادي والثورة الصناعية البريطانيين، تهكم المؤرخ الإمبراطوري الفيكتوري جون روبرت سيلي John Robert Seeley في كتابه «توسّع إنجلترا» (The Expansion of England, 1883) من ميل التأريخ الإنجليزي إلى التركيز على توسيع الحرية في الداخل وليس على التوسّع فيما وراء البحار بالقول: «يبدو أننا - إذا جاز التعبير - قد غزونا نصف العالم وزرعناه برجالنا في نوبة من غياب العقل». راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

(**) توجد مناقشة وافية لسبق إنجلترا بقية الدول الأوروبية وسبق أوروبا بقية مناطق العالم إلى الثورة الصناعية في الفصل الثامن من كتاب «مولد الوفرة» والفصل السادس من كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

والقنوات. وحدثت ابتكارات تنظيمية حاسمة في نظام المصنع تضمنت تشغيل العمال تحت رقابة أشد واتباع معايير لضبط الجودة. وتمثّل التطوّر الاجتماعي - السياسي الرئيس في التسوية التي تحققت بين السلطة السياسية والاقتصادية التي تكشّفت في تسويات الثورة المجيدة.

تركزت الدُّفعة الثانية من الابتكارات (نحو 1820 - 1870) على الحديد والفحم والمحركات البخارية. وفي هذه الفترة ترافق تطوّر الشركات المحاصة التي وفّرت آلية قانونية لكي يسهم عدد غير محدود من المستثمرين بأموالهم الاستثمارية مع ظهور دولة ليبرالية ناشئة (أي دولة تتدخل بأقل ما يمكن في تنظيم النشاط الاقتصادي)، ما أطلق ابتكارات تنظيمية وبيئة اجتماعية سياسية منسجمة مع المكوّنات التقنية ضمن هذه الدُّفعة. وساعد في ذلك أن الدولة الليبرالية الناشئة انبرت في بناء إمبراطورية وجيش وأسواق فيما وراء البحار.

شملت الدُفعة الثالثة (نحو 1850 - 1920) الفحم والصُلب والسكك الحديد والتلغراف والكيماويات والكهرباء، وهي شركات عملاقة استفادت من وفورات الحجم وعملت على المستوى العالمي. وللمرة الأولى، لم تظهر معظم الابتكارات في بريطانيا، بل في ألمانيا والولايات المتحدة، لاسيما الشركة البيروقراطية واسعة النطاق التي كانت السكك الحديد الأمريكية رائدتها. كان مما استجد على المشهد أن العلم أعطى الثورة الصناعية مزيدا من الزخم. كانت الابتكارات المهمة تنتج في السابق من اجتهادات عمال المسابك والمناجم والمصانع. لكن بعد العام 1860 صار العلم المنظم يمارس دورا متناميا في المجال، إذ وضعت الجامعات برامج بحثية تفيد مصالح الأعمال التجارية، لاسيما في مجالي الكيماويات والهندسة، وذلك تحديدا في الدول التي عملت على اللحاق ببريطانيا. وبدأت الشركات الكبيرة في تمويل أقسام بحوث تابعة لها. أثمرت هذه الترتيبات نجاحات مالية، وأصبحت في النهاية القاعدة حول العالم أينما انتشر التصنيع.

مع كل دُفعة من دُفعات الابتكار، كانت الثورة الصناعية تصبح عالمية أكثر وأكثر، فقد اعتمدت منذ بدايتها على الغذاء والألياف القادمة من أماكن بعيدة، ومع الوقت تزايد هذا الاعتماد على المصادر البعيدة للمواد الأولية. بيد أن الثورة الصناعية كانت عملية عالمية من جانبين آخرين، هما تأثيراتها وانتشارها.

تأثيرات الثورة الصناعية

كانت الثورة الصناعية العامل الأهم في إحداث التفاوت في الثروة والقوة، الذي شكّل السياسة العالمية بعد العام 1800. تمثّل أحد تأثيراتها المبكرة في القضاء على الصناعات الأقل كفاءة.

القضاء على التصنيع في آسيا وأفريقيا والأمريكتين

كانت الهند في العام 1700 المصدّر الكبير الوحيد للمنسوجات في العالم. لكن بحلول العام 1860 أصبح النسّاجون الهنود عاجزين عن الصمود في وجه المنافسة البريطانية، وذلك لأنهم لم تكن تتوافر لهم الطاقة الرخيصة أو المعايير الموحدة أو ضبط الجودة التي ميّزت نظام المصنع. وعن دكا Dhaka - مركز صناعة النسيج في بنغلاديش الحالية - قال السير تشارلز تريفليان Sir Charles Trvelyan في شهادته أمام مجلس اللوردات: «إن الأدغال والملاريا تكتسحها سريعا... فقد تدهورت مانشستر الهندية من مدينة مزدهرة إلى بلدة فقيرة وصغيرة». وانكمش سكانها من نحو ما بين مائة وعشرين ألفا ومائة وخمسين ألفا في العام 1750 إلى ما بين أربعين ألفا وستين ألفا في العام 1850.

قبل أن تغزو المنسوجات البريطانية العالم، كان النسّاجون حول العالم ينتجون تشكيلة واسعة من الأقمشة تامة الصنع المنسجمة مع الأذواق المحلية. ففي بلاد فارس مثلا، كانت الصناعات القطنية والحريرية مزدهرة قبل العام 1820، وكانت مصدر رزق لآلاف النسّاجين - الرجال في معظمهم - في مدن مثل أصفهان وتبريز ولآلاف الغزّالين - النساء في معظمهن - في الريف المحيط. ثم بدأت الأقمشة القطنية البريطانية التسلسل إلى السوق الإيراني خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر، وعلى مدار العقود التالية غدت الأقمشة البريطانية أرخص وأفضل وأكثر جاذبية للأذواق الإيرانية. وفي النهاية، أصبح الإيرانيون أكثر إقبالا على الأقمشة القطنية البريطانية من الحرائر الإيرانية. وبحلول العام 1890 لم تكن أصفهان تضم غير عُشر أنوال الحرير التي كانت فيها في العام 1830، وتوقفت إيران عن تصدير الأقمشة الحريرية والقطنية وبدأت في تصدير القطن والحرير الخامين. وفي العام 1850 صدرت إيران من الأقمشة القطنية ثلاثة وعشرين ضعف ما صدرته من القطن الخام، وفي العام 1910 صدرت من القطن الخام عشرين ضعف ما صدرته من الأقمشة القطنية. لذلك كان صبية الشوارع يهزجون بهذه الكلمات:

كل من كانوا يكسبون قوتهم من النسج
صار الموت أفضل لهم من الحياة[10].

ولا شك في أن أهازيج مماثلة كانت تغنى في شوارع كيوتو وشنغهاي وكلكتا وبخارى والقاهرة وتلمسان وتمبكتو وقوسقو Cuzco ومكسيكو سيتي. وتسرب العوز الناتج عن كفاءة المصانع البريطانية إلى القرى حول العالم - من ضمنها إنجلترا نفسها - التي كان أهلها يتعيّشون على الغزل.

جربت الحكومات في إيران والإمبراطورية العثمانية والمكسيك وأماكن أخرى إجراءات جديدة لحماية نسّاجيها وغزّاليها، فجربت إيران حظر الأقمشة المصنوعة في الخارج وطالبت رعاياها بارتداء المنسوجات الإيرانية، إلى أن رأى الشاهات مصلحتهم في العائدات الجمركية الأعلى من واردات المنسوجات. وموّل العثمانيون والمكسيكيون مصانع جديدة مشغّلة بالبخار باستخدام آلات وخبرات مستوردة من أوروبا. ربما تمثّل أنجح هذه الإجراءات في الإمبراطورية العثمانية التي عادت فيها صناعة النسيج بحلول العام 1900 إلى حجمها في العام 1800 بعد انهيار أولي. لكن حتى بعد تعافي هذه الصناعة، فإنها لم تشكّل إلا نصيبا أصغر من الأقمشة المبيعة داخل الحدود العثمانية، إذ تعافى حجمها إلى ما كان عليه، لكن تراجع نصيبها النسبي من السوق. واختلفت صناعة النسيج العثمانية، إذ أخذت تتركز بشدة على إنتاج السجاد، وفي العام 1910 اشترى ائتلاف بريطاني معظم مصانع السجاد في الإمبراطورية العثمانية.

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت الثورة الصناعية في بريطانيا تنتج سلعا أكثر وبأسعار أرخص، ما جعل الصناعات الأخرى حول العالم تتكبد المصير نفسه الذي واجهته صناعة النسيج. فتفوق الحديد والصُّلب والسلع المعدنية البريطانية في المنافسة على منتجات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وحدث الشيء نفسه في صناعة السفن وصناعة الخزف البريطانيتين، وكذلك الأعمال المصرفية والتأمينية البريطانية. وأخذت بريطانيا تصدّر حتى الفحم حول العالم في أواخر القرن التاسع عشر. أعطت الابتكارات التقنية والتشغيلية للثورة الصناعية مزايا نسبية هائلة للكثير من الشركات في بريطانيا، لاسيما الشركات الكثيفة في استخدام الطاقة أو المعرفة. أطلق ذلك عملية إعادة تنظيم هائلة للاقتصاد العالمي، وجدت

معظم أجزاء العالم فيها أن ميزتها النسبية تحوّلت إلى الإنتاج الكثيف في استخدام الأرض، بالدرجة الأولى إنتاج المحاصيل الغذائية والليفية. وفي بعض الحالات، لم تنشأ هذه العملية عن التحوُّلات في الإنتاجية والميزة النسبية وحسب، إذ استخدمت بريطانيا القوة العسكرية المحسَّنة لفرض تعريفات وضرائب ومعاهدات عزَّزت مصالح منتجيها. من ذلك مثلا أن الهند أصبحت مستوردا صافيا للأقمشة بحلول العام 1816، جزئيا لأن الكثير من الولايات الهندية قد أجبرت على قبول التجارة الحرة في المنسوجات.

الإمبريالية والاستنهاض

أسَّس الأوروبيون الأطلسيون إمبراطوريات بحرية قبل الثورة الصناعية. وفي معظم الحالات، تكوَّنت هذه الإمبراطوريات من سلسلة من المحطات التجارية المحصنة أو جزر السكر. وادعى الإسبان والبرتغاليون امتلاك أقاليم شاسعة في الأمريكتين، لكنهم في حقيقة الأمر كانوا يسيطرون على نحو ربع ما ادعوه فقط. وكانت لبريطانيا مستعمرات استيطانية متنامية في أمريكا الشمالية، لكن شرق جبال الأبالاش فقط. ولم تكن القبضة الهولندية على إندونيسيا المعاصرة تتجاوز بضعة موانئ ومناطقها الداخلية. وخارج الأمريكتين وسيبيريا وأسترالاسيا التي صارت الإمبريالية فيها ممكنة بفعل الكوارث السكانية(*)، لم يسمح التوازن السياسي بإمبريالية ما وراء البحار على أي نطاق، إذ كانت السلطة الأوروبية تتلاشى بعد مدى مدافع السفن.

ثم جاء التصنيع ليبدل هذه الحالة جذريا، إذ جعل الإمبريالية الأوروبية، لاسيما البريطانية، رخيصة ويسيرة، ومن ثم أكثر جاذبية. فأخذت المصانع تنتج أسلحة جديدة أشد فتكا، ويمكن القول إن الطرق الحديثة للإنتاج الضخم القائم على الأجزاء المعيارية القابلة للتبديل ظهرت أولا في صناعات الأسلحة. وصار في مقدور السفن المدرعة المشغَّلة بالبخار أن تظهر القوة بعيدا عن الساحل على طول أنهار مثل الغانج أو اليانغتسي اللذين كانا في السابق شرياني القوة للتشينغيين والمُغال.

(*) أسترالاسيا Australasia: منطقة من أوقيانوسيا تشمل جزر أستراليا ونيوزيلندا ونيو غينيا والجزر المجاورة لها في المحيط الهادي. [المترجم].

وبداية من العقد الخامس من القرن التاسع عشر، ساد عدم توازن كبير في نظم التسليح والاتصال، جعل النصر في الحرب من نصيب الجيوش الأوروبية حتى على خصوم أكثر عددا منهم بكثير. وعلى الرغم من اعتراضات عرضية في الداخل، أخذت الدول الصناعية تشنّ الحروب بمعدل أعلى وتضم الأقاليم عرضا، ردا على إهانة ديبلوماسية أو عدم سداد دين أو فشل مفاوضات معاهدة تجارية(*). أسهمت النزعة القومية وتحسُّن مالية الدولة في تقوية الدول الأوروبية، لكن كانت هذه الحروب في حقيقتها إمبريالية صناعية نتجت عن عدم التوازن في القوة الذي ساد بين نحو العامين 1840 و1945.

ومع نهاية القرن التاسع عشر، كان عدم التوازن قد اتسع أكثر، مع ظهور البنادق التكرارية والرشاشات الأولى والقذائف المتفجرة وغيرها من الابتكارات في مجال الأسلحة. وبعد العام 1875 بدأت الدول الصناعية تصنع مواسير البنادق من الصُّلب باستخدام تقنيات جديدة، ولم يعد بمقدور الحدّادين المهرة في أفريقيا أو إندونيسيا أن يصنعوا الأسلحة الحديثة من خلال تقليدها. وصار بوسع الدول الصناعية أن تشنّ حروبا في أفريقيا وآسيا بتكلفة لا تذكر. وبحلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حقق الأطباء العسكريون نجاحا كبيرا في كبح الأمراض التي كانت في السابق تصد الدخلاء عن دخول أفريقيا وجنوب شرق آسيا الاستوائيين. ومن خلال تدريب قوات محلية وتجهيزها بالأسلحة الحديثة، تمكن الأوروبيون من خوض الحروب واحتلال الأقاليم عبر معارك خاضها أفارقة أو هنود بالدرجة الأولى، وهو ما أضعف تأثير الأمراض الاستوائية أكثر.

أثبتت الإمبريالية الصناعية أنها خبرة صادمة للمجتمعات التي ابتليت بالقوة الأوروبية. فلم يعد بوسع الجسارة والرماح والسهام والمسكيتات أن تصمد في وجه القوة العسكرية الحديثة. فلجأت الشعوب في كل مكان إلى عالم ما وراء الطبيعة طلبا للعون، وظهر الكثير من الأنبياء الجدد لقيادة المقاومة ضد التقدم الإمبريالي، تجمعت فيهم عناصر من الأديان المحلية مع عناصر من المسيحية أو الإسلام. وفي

(*) من أمثلة الحروب التي شنّتها القوى الأوروبية لأسباب تافهة حرب احتلال الجزائر التي أطلقتها فرنسا ردا على إهانة قنصلها ديفال Deval الذي ضربه الداي حسين في أبريل 1827 بمخفقة الذباب غضبا من عدم سداد فرنسا دينا عليها للجزائر. [المترجم].

حالات كثيرة، وعد الأنبياء الجدد باستخدام السحر للدفاع عن أتباعهم ضد الرصاص، وهو الوعد الذي صدقه بعض هنود السهول الذين قاوموا الجيش الأمريكي خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، والفلاحون في شمال الصين الذين قاموا بثورة الملاكمين في العام 1900(*)، وثوار الماجي ماجي الذين قاوموا الاستعمار الألماني في شرق أفريقيا في العامين 1905 و1906(**). لكن حتى السحر نفسه لم يستطع أن يوقف الرصاص.

تقاسمت القوى الصناعية - بفضل تفوقها العسكري - معظم بقية العالم في العقود السابقة على العام 1914. وصار الأوروبيون - بسبب قوتهم - على اقتناع بأنهم أرقى عرقيا من الأفارقة والآسيويين، وأنهم من ثم مؤهلون - بقدر الله - لحكم العالم. وتواصل التوسّع الإمبريالي، حتى عندما كانت الفوائد الاقتصادية أو الاستراتيجية لضم الأقاليم غير واضحة، لمجرد انخفاض تكاليف ضمها. وأخذت بريطانيا نصيب الأسد، فبعد أن فقدت الولايات المتحدة في العام 1783، كوّنت إمبراطورية غطت الكرة الأرضية بحلول العام 1914.

بين العامين 1750 و1860 أصبحت الهند بريطانية على مراحل، وغدت المستعمرة الأهم والأكثر سكانا، بعد أن كانت الهند في بادئ الأمر مستعمرة تجارية تديرها شركة الهند الشرقية. كانت الإمبراطورية المُغالية قد فقدت حيويتها بحلول العام 1710، وظلت الدول الهندوسية الكثيرة التي ظهرت على أنقاضها في نزاع فيما بينها ومع الدول الإسلامية. وفي هذا الموقف، وجدت الشركة أنها تستطيع أن تشكّل السياسة الهندية لمصلحتها من خلال تدريب وتسليح الجيوش الهندية التابعة للأمراء المتعاونين معها، التي استخدمتها بعدئذ لهزيمة الأمراء غير المتعاونين

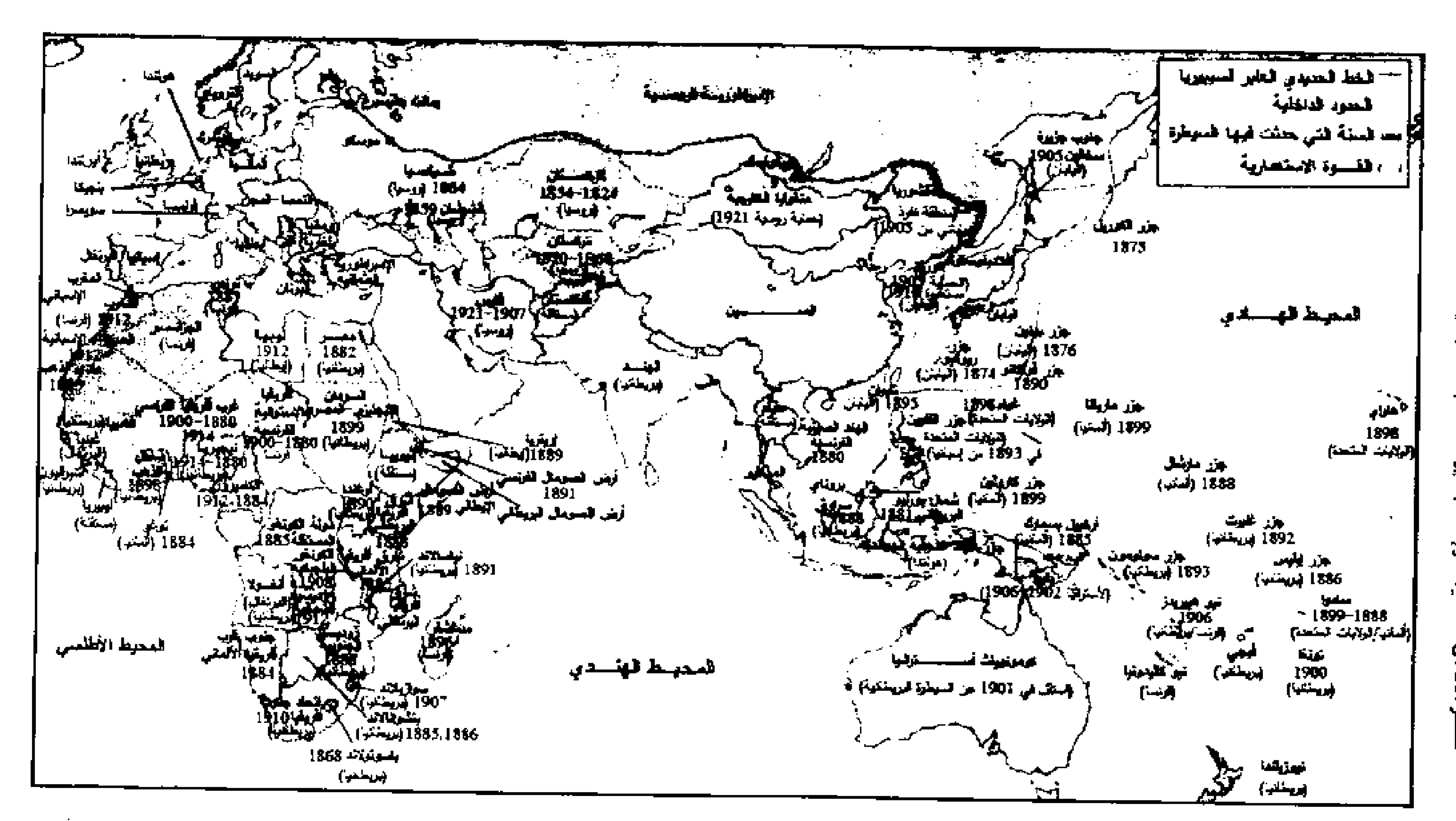
(*) ثورة الملاكمين Boxer Rebellion: ثورة عنيفة أطلقتها في الصين جماعة عرفت باسم الملاكمين بدافع المشاعر القومية ورفضا للتوسّع الإمبريالي والنشاط التبشيري المسيحي، تبنتها الدولة الصينية التي أعلنت الحرب على القوى الأجنبية، وحاصر جيشها حي المفوضيات الأجنبية، إلى أن هزم الجيش الإمبراطوري أمام تحالف الدول الثماني الذي احتل بكين في أغسطس 1900. [المترجم].

(**) ثورة الماجي ماجي Maji Maji Rebelion: (بمعنى الماء السحري) ثورة مسلحة خاضها سكان مستعمرة شرق أفريقيا الألمانية (تنزانيا الحالية) رفضا لزراعة القطن للتصدير التي فرضها الألمان عليهم، وفيها زعم ساحر محلي أن روح أفعى قد تلبسته، وأعطى أتباعه سائلا زعم أنه يحوّل رصاص الألمان إلى ماء، كان في حقيقته ماء مخلوطا بزيت الخروع وبذور الدخن، ما شجع أتباعه على الثورة التي انتهت بهزيمتهم ومجاعة كبرى نتجت عن سياسة الأرض المحروقة التي اتبعها الألمان. [المترجم].

معها. وبحلول العام 1818 كانت أراضي الشركة في الهند تضم من السكان خمسين ضعف مَنْ فقدتهم بريطانيا في المستعمرات الأمريكية في العام 1783. وفي النهاية ضم التاج البريطاني بعض الأقاليم، وبعد ثورة كبرى في العامين 1857 - 1858، صفى التاج شركة الهند الشرقية والإمبراطورية المُغالية، وبسط السلطة البريطانية على الهند كلها، ومن ضمنها الدول المعاصرة باكستان وبنغلادش وسريلانكا. في هذه العملية، وكما حدث لاحقا في أفريقيا، أمكن لعدد قليل من الجنود والموظفين البريطانيين أن يحتلوا ويحكموا أقاليم شاسعة بفضل المعدات والمعرفة المتوافرة لهم ولحلفائهم المحليين المختارين.

ثمة دول أخرى تمتعت بشيء من مزايا القوة الصناعية، كوّنت إمبراطوريات أصغر. ضمت فرنسا مستعمرات في أفريقيا والهند الصينية. أما ألمانيا التي لم تتوحّد إلا بعد العام 1871 وكانت من القادمين المتأخرين إلى عالم الإمبريالية، فقد استولت على أقاليم متفرقة في أفريقيا وبعض الجزر في غرب المحيط الهادي. ووسّعت روسيا إمبراطوريتها الإقليمية إلى منطقة القوقاز وآسيا الوسطى. وحتى دول الصف الثاني الأوروبية، مثل إيطاليا وبلجيكا والبرتغال وإسبانيا، كوّنت إمبراطوريات أو وسّعت أقاليمها في أفريقيا بعد العام 1880. ومن خلال تجنيد جيوش أفريقية تابعة لهم وتدريبها وتسليحها، تمكنت هذه الدول من هزيمة أي قوة أفريقية، باستثناء بارز تمثّل في إثيوبيا التي تحلى ملكها منليك Menelik (1844-1913) ببصيرة دفعته إلى استقدام ضباط أوروبيين لتدريب جيشه وشراء أسلحة حديثة - منها القليل من الرشاشات - وبناء نظام سكك حديدية وتلغراف متواضع، ما مكّن إثيوبيا من أن تصبح هي نفسها قوة إمبريالية على نطاق إقليمي وأن تصد محاولة احتلال إيطالي في العام 1896.

إن ما فعلته إثيوبيا في القرن الأفريقي فعلته دول أخرى في أماكن أخرى، وأحيانا على نطاق أوسع. فبحلول العام 1815 كان الحكام اليقظون قد لاحظوا أن التصنيع يجلب الثراء والقوة، وخَلصوا في الأغلب إلى أنهم إذا أرادوا أن يصمدوا في وجه الإمبريالية الصناعية، فلا مناص لهم من أن يتحوّلوا إلى التصنيع، أو أن يتعهدوا على الأقل برنامجا صارما «للاستنهاض» self-strengthening، وهو الاسم الذي عرفت به هذه العملية في الصين. كان الاستنهاض جهدا مقصودا من جانب النخب



الخريطة (7 - 1): الإمبريالية في آسيا والمحيط الهادي وأفريقيا بحلول العام 1910

داخل الحكومة وخارجها لتحديث الجيش والاقتصاد و- إذا لزم الأمر- المجتمع لمواجهة التحديات التي فرضتها القوى الصناعية. كانت الحكومات عادة تريد أن تقيّد التغيير الاجتماعي في أضيق الحدود، إذ لم ترد إلا تحديث جيوشها(*). لكن إنجاز ذلك الهدف تطلب صناعة الأسلحة، وصناعة الحديد والصُّلب، وقوة عاملة صناعية، وفي معظم الحالات مستوى أعلى من التعليم وحرية انتشار المعلومات، ونظاما ضريبيا أكفأ. معنى ذلك أن الصمود في وجه التحدي الإمبريالي الصناعي تطلب - كما تكشَّف - مجموعة واسعة من التغييرات، فرضت أحيانا تهديدا على الحكومة وأنصارها، وهو ما يفسر فشل معظم جهود الاستنهاض.

كان أول من تبنى التصنيع خارج بريطانيا الدول المجاورة في أوروبا وفروع بريطانيا عبر الأطلسي. ومع أن بريطانيا بذلت كل ما في وسعها للتكتم على أسرارها الصناعية ومنع انتقال التقنية، فإن حرية انتقال الأفراد والأفكار والآلات كانت أكبر من قدرة بريطانيا على الحفاظ على احتكارها. أغرت الحكومات الأوروبية رجال الصناعة البريطانيين بالمال لفتح مصانع في بلادهم. واستأجر رواد الأعمال الأوروبيون والأمريكيون عمالا بريطانيين، واختطفوهم في بضع حالات من أجل مهاراتهم ومعارفهم. وذهب رجال أعمال من أمثال قطب صناعة الصُّلب الألماني الكبير ألفريد كروب Alfred Krupp (1812-1887) إلى بريطانيا للوقوف على التقنيات الجديدة. وبذلك انتشرت الثورة الصناعية إلى أوروبا والولايات المتحدة، لاسيما بعد العام 1815. كانت بلجيكا بما امتلكته من فحم، وسويسرا بما امتلكته من قوة مائية أول السائرين على الطريق. وكانت الأنهار سريعة الجريان كافية لتوليد الطاقة الكهربائية لمصانع النسيج، لكن الإنتاج الكفء للحديد والصُّلب كان في حاجة إلى الفحم، فضلا عن الحديد الخام. حاولت الحكومات في أنحاء أوروبا كافة أن تشجع هذه الصناعات من خلال الإعانات المالية والتخفيضات الضريبية والبنية التحتية المجانية وقمع العمال المتمردين، لكن في النهاية اعتمدت جغرافية التصنيع الأوروبي بالدرجة الأولى على تركز رواسب الفحم الكبيرة. كان نصيب فرنسا

(*) يرجع فشل محاولة محمد علي الاستنهاضية في مصر بالدرجة الأولى إلى هذا السبب: محاولة تحديث الجيش من دون تحديث المجتمع أو بالأحرى مع الحفاظ على البنية السياسية الاستبدادية والبنية الاجتماعية الطبقية الاستغلالية. [المترجم].

من الفحم صغيرا، وكان عليها أن تستورده في العام 1848. وشيّدت ألمانيا أكبر صناعة للحديد والصُلب على الإطلاق، تركزت في حوض الرور الغني بالفحم. وبحلول العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر، كانت صناعة الحديد والصُلب الألمانية قد تجاوزت نظيرتها البريطانية.

اتبع التحوُل الأمريكي إلى التصنيع النمط الأوروبي. ففي بادئ الأمر، اعتمدت الولايات المتحدة بشدة على العمال المهاجرين الأوروبيين والتقليد المباشر للطرق البريطانية. أعطت القوة المائية دفعة لصناعة النسيج التي ازدهرت أولا في نيو إنجلند، ووفّر فحم بنسلفانيا الطاقة للصناعات الأمريكية الثقيلة التي تركزت بالدرجة الأولى في وادي نهر أوهايو. وحظي التصنيع الأمريكي بالكثير من الدعم الحكومي، أولا في شكل حماية عن طريق التعريفات الجمركية بداية من العقد الأخير من القرن الثامن عشر. كان بعض المنشآت الصناعية الأمريكية - مثل نظيراتها الألمانية - ضخمة وتوظف حتى ألف عامل أو أكثر. ومع توافد ملايين المهاجرين إلى الشواطئ الأمريكية بداية من العقد الخامس من القرن التاسع عشر بفضل انخفاض أجرة السفن، أصبحت المصانع الأمريكية أكثر بيروقراطية وتراتبية، جزئيا لأن العمال كانوا في أغلب الأحيان لا يستطيعون التواصل بسهولة بعضهم مع بعض. لم يسهم الأمريكيون إلا ببضعة ابتكارات تقنية مهمة قبل العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر، لكنهم كانوا روادا حقيقيين في إدارة الشركات والمصانع. أما إنجازهم الأهم، الذي عُرف في ذلك الحين باسم «نظام الصناعات الأمريكي»، فكان الإنتاج الضخم للأجزاء القابلة للتبديل الذي يليه التجميع، الذي كانت الحكومة الفدرالية أول من استخدمه في إنتاج الأسلحة، ثم انتشر سريعا على نطاق واسع إلى كل الصناعات الأمريكية، وفي النهاية عبر العالم أجمع. وفي العام -1890 إن لم يكن قبله - كانت الصناعة الأمريكية قد تجاوزت نظيرتها الألمانية، واحتلت المركز الأول عالميا، وهي المكانة التي لاتزال تحتفظ بها.

لفتت القوة والثروة اللتان ولّدهما التصنيع انتباه القادة السياسيين وكبار رجال الأعمال في كل أصقاع العالم. ففي مصر التي انتزع حكمها في العام 1805 الألباني المبتكر محمد علي (1769-1849)، الذي عمل في خدمة العثمانيين، بدأ التصنيع المدعوم من الدولة خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر. وفي البرازيل استخدم

رواد الأعمال المحركات البخارية في تكرير السكر منذ العام 1815، وهو وقت مبكر. وفي الهند أنشأت عائلة طاغور Tagore مصانع نسيج بمعدات من بريطانيا. وحاول الصينيون إنشاء صناعات سلاح حديثة بعد هزيمتهم أمام البريطانيين في حرب الأفيون الأولى (1839 - 1840). لكن أيا من هذه المبادرات لم تذهب بعيدا، إذ كانت المجتمعات في هذه الحالات تفتقر إلى التركز الكافي لأناس يمتلكون المهارات الجديدة، وفي معظم الحالات كان رجال الأعمال يستطيعون أن يجمعوا من توسيع الأعمال القائمة ممثلة في بيع الحبوب أو الخشب أو السكر أو القطن مالا أكثر مما كان يمكن أن يدرّه عليهم تقويض الترتيبات القائمة من خلال تبني التصنيع.

بحلول العقد السابع من القرن التاسع عشر، كانت تكلفة الاعتماد على اقتصاد زراعي منخفض الطاقة قد باتت جلية إلى حد موجع، ولذلك ضاعفت بعض الدول جهودها من أجل التصنيع. كانت روسيا واليابان الأكثر نجاحا بين هذه الدول. تلقت الدولتان دروسا مؤلمة خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر. فتلقى الروس هزيمة موجعة في حرب القرم (1854 - 1856) عندما تحالفت بريطانيا وفرنسا مع تركيا العثمانية، وكان ذلك حافزا لسلسلة من الإصلاحات في روسيا، كان من أهمها إلغاء القنانة، ما جعل النظام القانوني ونظام العمل أكثر مرونة وفتح الطريق أمام جهود التصنيع المدعومة من الدولة. تمتعت روسيا ببعض المزايا، منها وفرة الحديد الخام والفحم، والأراضي التي كانت قد احتلتها أخيرا في آسيا الوسطى التي كان بالإمكان زراعتها بالقطن، ونخبة ملمة باللغات الأوروبية ومعتادة على استعارة الأفكار الجديدة. ومثل الولايات المتحدة، تمتعت روسيا بامتدادات إقليمية مفتوحة كان بإمكان السكك الحديدية أن توحّدها، ولذلك أكدت حركة التصنيع الروسية على تشييد السكك الحديدية، وشيّدت روسيا أول مختبر في العالم لبحوث القاطرات (1882). ومثل الولايات المتحدة أيضا – واليابان - كانت روسيا في حاجة إلى رأس المال الاستثماري والمهارات الأجنبية. أثبت تحويل الأقنان السابقين إلى عمال مصانع منضبطين أنه تحدٍ لأرباب الأعمال الروس، لم يتغلبوا عليه إلا ببطء. وانطلاقا من نقطة انطلاق منخفضة في العام 1860، نما التصنيع الروسي ببطء في بادئ الأمر، ثم بسرعة كبيرة بداية من العام 1890، عندما أصبح أولوية أولى لوزير المالية الذي ترأس السكك الحديدية في السابق. وبحلول العام 1910 كانت روسيا تمتلك رابع أو خامس أكبر مُجَمَّع صناعات ثقيلة في العالم.

كان التصنيع تطوُرا غير وارد في اليابان. ففي العام 1853 تلقت اليابان صدمة موجعة عندما رسا الأسطول الأمريكي في خليج إدو Edo (طوكيو) وفرض معاهدة تجارية وحقوقا في بناء محطة للتزود بالفحم. كانت اليابان في ذلك العام قد قضت مائتين وعشرين سنة في حالة من العزلة المقصودة عن بقية العالم، ولذلك كان اقتصادها لايزال زراعيا. ونظرا إلى أن ريفها كان مزدحما بعد العام 1720 أو نحوه، فقد عملت العائلات على خفض عدد أطفالها، ولذلك أخذ النمو السكاني يسير بطيئا لنحو خمسة أجيال. وكما حدث في بريطانيا، كانت الغابات قد اختفت تقريبا. لكن على خلاف بريطانيا، لم تكن اليابان تمتلك غير القليل من الفحم وأقل منه من الحديد الخام، ولا تمتلك أراضي ملائمة لزراعة القطن. وخلال القرن الثامن عشر توسّعت اليابان إقليميا في الشمال إلى جزيرة هوكايدو المفيدة بغاباتها وأسماكها، لكنها كانت تفتقر إلى المواد الأولية اللازمة للتصنيع. لكن كان من مزايا اليابان أن سكانها كانوا ملمين بالقراءة والكتابة إلى مستوى غير معهود، وكانوا معتادين على التراتبية والولاء للجماعة والانضباط. وبعد صراع سياسي تصاعد بتنصيب الإمبراطور ميجي (حكم 1867-1912)(*)، حظيت اليابان بنخبة عنيدة حريصة على تعلم ذلك الذي جعل الأجانب أقوياء إلى هذا الحد. وكان قصف الموانئ اليابانية من حين إلى آخر من جانب السفن البريطانية والفرنسية والهولندية والأمريكية قد أكد لليابانيين ضرورة الاستنهاض خشية أن تتحوّل بلادهم إلى مستعمرة.

في اليابان تمثّل العنصر الحاسم في الدولة ودعمها غير المحدود للشركات الكبرى، لاسيما شركات صناعة السفن والتعدين والسكك الحديدية والحديد والصُلب. وكما حدث في ألمانيا، مارست الاعتبارات العسكرية دورا أساسيا في الاختيارات الاستثمارية. كان الجيش الحديث في حاجة إلى كميات ضخمة من الحديد والصُلب، ولذلك تركت الحكومة صناعة النسيج في الأيدي الخاصة، وتعهدت الصناعات الثقيلة بعنايتها. كانت الحكومة نفسها تمتلك الكثير من ترسانات السفن والمناجم، ودعمت صناعة بناء السفن والسكك الحديدية الخاصة من خلال الإعانات المالية

(*) كان اسم هذا الإمبراطور في حياته هو موتسوهيتو Mutsuhito، لكن ثمة تقليدا يابانيا كان يطلق على الإمبراطور الراحل اسم الفترة التي رافقت عهده، ومن هنا أطلق عليه اسم ميجي Meiji التي تعني «الحكومة المستنيرة». [المترجم].

والائتمان والتخفيضات الضريبية، ومن خلال ممارسة العنف ضد العمال والفلاحين الساخطين الذين موَّلت ضرائبهم كل هذه الصناعات والذين تضررت حقولهم من التلوث الصناعي. تعهدت الشركات الناجحة ارتباطات سياسية للحصول على نصيبها من الدعم الحكومي، وهو ترتيب كان في مصلحة الشركات الكبرى، منها العملاقان متسوبيشي Mitsubishi وكاواساكي Kawasaki اللتان لاتزالان قويتين حتى اليوم. ونفَّذت الدولة توسُّعات إمبريالية على حساب الصين بداية من العام 1894، ما أمَّن لها الوصول إلى الفحم والحديد الخام من منشوريا. ودعمت الدولة التعليم الفني والزراعة العلمية، ما ساعد في مضاعفة ناتج الأرز بين العامين 1880 و1930. وأخذ النمو السكاني الذي ظل راكدا فترة طويلة يرتفع، ما وفَّر الكثير من الشباب للعمل في المصانع والجيش. إجمالا، حدث تصنيع اليابان على نحو مفاجئ بالمعايير السابقة. وبحلول العام 1914 كان هذا التصنيع قد نقل اليابان إلى الصفوف الأمامية للقوى الصناعية والعسكرية.

حدث التحوُّل إلى التصنيع في ألمانيا والولايات المتحدة وروسيا واليابان في سياق جهود الاستنهاض. ففي الولايات المتحدة - على سبيل المثال - أدركت الحكومة التهديدات الاقتصادية والعسكرية التي فرضتها عليها بريطانيا، وردت عليها بالحماية عن طريق التعريفات الجمركية منذ السنوات الأولى للجمهورية ونظام بريدي ونظام من الترسانات العسكرية والطرق البريدية والعسكرية. وعندما صدَّت القوات البريطانية احتلالا أمريكيا لكندا وأحرقت البيت الأبيض في حرب العام 1812، ضاعفت الولايات المتحدة جهودها للاستنهاض، فشيَّدت بنية تحتية للنقل النهري وأزاحت المرتفعات الرملية من مجاري الأنهار والمراسي، وأعادت تنظيم أكاديميتها العسكرية الجديدة الواقعة في ويست بوينت West Point خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر، وأسَّست أكاديمية بحرية في العام 1845. وبدأت التوسُّع الإقليمي في اتجاه الغرب باستخدام الجيش والمساحين الحكوميين وتقديم حوافز متنوعة منها منح الأراضي مجانا للمستوطنين لإحباط الاهتمام البريطاني بإقليم أوريغون وتكساس. وشيَّدت حكومات الولايات شبكات من القنوات والطرق. وبعد العام 1862 قدمت الأرض مجانا لشركات السكك الحديدية والجامعات. حقق هذا المشروع المستدام للاستنهاض نجاحا مذهلا.

تعهد الألمان والروس واليابانيون برامج مماثلة. شملت الجهود الألمانية إلغاء عمالة الأقنان، وإنجاز التوحيد السياسي لمعظم الأراضي الناطقة بالألمانية، وإنشاء القنوات والسكك الحديدية، والتعريفات الجمركية، والاستثمار الضخم في التعليم والجيش، وجوانب كثيرة أخرى. كانت العناصر نفسها حاضرة بنسب مختلفة في روسيا واليابان، ما أنتج مجتمعا أكثر مرونة ودولة وجيشا قويين و- الأهم بين الجميع - اقتصادا صناعيا. يمكن القول إجمالا إن القوى العظمى خلال القرن العشرين كانت تلك التي نجحت في التعامل مع تحدي الاستنهاض خلال القرن التاسع عشر.

بيد أن هناك من جهود الاستنهاض ما كان الفشل مآلها. فالإمبراطورية العثمانية، مدفوعة بملاحظة الممارسات الفرنسية والبريطانية في حروب الثورة الفرنسية، أدخلت إصلاحات على جيشها ونظامها الضريبي بداية من العقد الأخير من القرن الثامن عشر. وبعد أعمال تمرد من جانب وحدات عسكرية ساخطة، توقف البرنامج في العام 1806، لكي يستأنف بمزيد من القوة في العام 1826 على يد السلطان محمود الثاني الذي نفّذ مذبحة بحق القطاعات من الجيش العثماني التي قاومت إصلاحاته(*)، واتخذ مسارا استلزم في عهد ورثته نظاما ماليا جديدا، ومؤسسات تعليمية جديدة، ونظاما قانونيا جديدا، وجيشا جديدا قائما على التجنيد الإلزامي

(*) بعد أن كانت الانكشارية في طليعة جيوش العالم في تبني النظم العسكرية الحديثة، ومنها مدفعية الميدان والبنادق كما جاء في مواضع سابقة، صارت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر معادية لكل جديد. لذلك أنشأ السلطان سليم الثالث بعد العام 1792 قوة مشاة جديدة عرفت باسم «النظام الجديد» Nizam-i Cedid، بعيدا عن الانكشارية التي قتل أحد أفرادها مستشار السلطان وراعي التحديث محمود رائف أفندي وهو يقول «إنه ليس مسلما، بل هو الإنجليزي الكافر محمود الذي أقتله الآن». وفي مايو 1807 دخلت الانكشارية في عصيان مفتوح وخلعوا السلطان سليم الثالث ونصبوا مصطفى الرابع خلفا له، إلى أن وصل الحاكم الإقليمي مصطفى البيرقدار على رأس قوة لإعادة سليم، فأعاد النظام إلى العاصمة ووصل إلى القصر، ما جعل رجال مصطفى الرابع يسرعون إلى قتل سليم، لكن البيرقدار تمكن في اللحظة الأخيرة من إنقاذ محمود أفندي - ابن عم القتيل وابن السلطان عبدالحميد الأول - الذي قيل إنه كان آخر أفراد سلالته ونُصّب سلطانا باسم محمود الثاني (حكم 1808 - 1939). ظلت الانكشارية في حالة عصيان وانفلات، فقتلوا الصدر الأعظم مصطفى البيرقدار- أو انتحر قبل أن يقع في أيديهم - وحاولوا إعادة مصطفى الرابع. وفي العام 1826 تمردوا على محمود الثاني رفضا للتدريبات والأزياء الحديثة لأنهم «لا يريدون تدريبات الكفار». فاستغل السلطان الفرصة للقضاء المبرم على تلك القوة التي صارت عبئا على الدولة وتهديدا لها، إذ استخدم النظام الجديد وقوات المدفعية التي ظلت موالية له في إبادتهم عن بكرة أبيهم في حرب «أهلية» دارت رحاها في ساحة الأتميدان وخلال شوارع إسطنبول، انتهت بقتل كل عناصر الانكشارية خلال معارك وإعدامات ميدانية، وألغيت قوات الانكشارية رسميا في العام نفسه. راجع كتاب «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم»، الصادر عن سلسلة عالم المعرفة. [المترجم].

ومصانع لإمداده باحتياجاته، والاستعانة بالخبراء الأجانب، والحد من سلطة الدين في المجتمع العثماني. ساعدت هذه الحزمة التي عرفت باسم التنظيمات Tanzimat، الإمبراطورية في الإفلات من القلاقل التي ميّزت منتصف القرن التاسع عشر، التي كان من بينها فقدان الكثير من الأقاليم، لكنها جاءت على حساب عناصر قوية - مُلاك الأراضي والمرجعيات الدينية - نجحت في كبح الإصلاح خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر. تقوّضت المالية العثمانية بفعل الحروب والديون المتنامية، ما أضعف قدرة الحكومة على إطلاق مزيد من المبادرات. واستنزفت القوة العثمانية في صراعات ضد الرعايا الثائرين في منطقة البلقان وأرمنيا وفي مراقبة هيئة ضباط كانت تنحو أكثر وأكثر نحو العلمانية والتمرد. ووعد انقلاب الضباط في العام 1908 بإعادة الشباب إلى الإمبراطورية التي سرعان ما دمرتها الحرب العالمية الأولى. إجمالا، كانت جهود الاستنهاض العثمانية ضئيلة وبدأت متأخرا.

واجهت الصين التشينغية تحدي الإمبريالية الصناعية في وقت متأخر عن العثمانيين وكانت أقل نجاحا منهم. كان النمو السكاني في الصين في العام 1800 يضغط على الموارد، وكانت الثورات متواترة بين الفلاحين الذين اشتد تململهم بفعل تسارع فقدان الغابات والتربة والتدهور البيئي العام، والتي اعتبروها - كالعادة - أمارة على أن الإمبراطور فقد تفويض السماء. وتصاعدت الضغوط عندما وجد تجار بريطانيون وأمريكيون أنه من المربح لهم أن يهرّبوا إلى الصين - من الهند - الأفيون الذي أصبح بحلول العقد الثالث من القرن التاسع عشر مخدرا إدمانيا واسع الانتشار. وعندما اتخذ التشينغيون إجراءات لكبح تدفق الأفيون، اعتبرت بريطانيا ذلك انتهاكا للتجارة الحرة، وأدى الفشل التالي في المفاوضات إلى حرب الأفيون الأولى التي أثبتت فيها البوارج والبنادق البريطانية تفوقها على القوات التشينغية التي كان الكثير من جنودها يحاربون بلا بنادق، ما اضطر الصين إلى قبول معاهدة فتحت أبوابها أمام التجار والمبشرين الأجانب والتنازل عن جوانب من السيادة الصينية. كان ذلك إذلالا للتشينغيين الذين لم يفعلوا شيئا لمواجهته، وسرعان ما ساءت الأمور أكثر بسبب هونغ إكسيوكوان Hong Xiuquan.

كان هونغ إكسيوكوان (1814 - 1864) ينتمي إلى أقلية إثنية في جنوب الصين تسمى الهاكا Hakka، وكان ابنا لعائلة فقيرة كانت لها مزاعم بأنها من طبقة

النبلاء. وكما كان الشباب الأذكياء في عصره يفعلون، سعى هونغ إلى النجاح باجتياز امتحانات الخدمة المدنية التي كانت تفتح فرص العمل في الحكومة. قدمت قريته كاملة تضحيات لتحمُّل تكاليف سنوات تعليمه الكثيرة، إذ رسب هونغ أربع مرات. وبدافع اليأس، وجد الشاب عزاءه في تعاليم الألفية السعيدة للمبشر المعمداني الأمريكي إيسكار روبرتس Issachar Roberts، وهو واعظ من تينيسي علم نفسه بنفسه وتعلم لهجة الهاكا(*). كانت لهونغ طريقة تجديدية في فهم الدين المسيحي، إذ استنتج بناء على رؤيا رآها في منامه أنه الأخ الأصغر ليسوع المسيح، وأن الله أرسله لكي يحقق الجنة على الأرض ويخلِّص الصين من الحكام الأجانب الفاسدين(**). جذب وعظه أتباعا، لاسيما بين الشرائح الواقعة في قاع التراتبية الكونفوشية، وفي أواخر العقد الخامس من القرن التاسع عشر وقعت ثورة طوباوية مسلحة أعلن فيها التايبينغ - كما بات الثوار يعرفون - رفضهم لسلالة تشينغ لكونهم أجانب ووكلاء الشيطان(***). شجع التايبينغ الفلاحين على عدم دفع الضرائب والتنصل من التزاماتهم نحو مُلاك الأراضي، وأنكروا الملكية الخاصة. وشجعوا النساء على رفض سلطة الرجال - ما عدا الرجال من زعماء التايبينغ - واستخدموا النساء جنودا وأعلنوا المساواة بين الجنسين. وروَّجوا لغة مبسطة ونشروا القراءة والكتابة بين الجماهير لتقويض مكانة الدارسين البيروقراطيين الذين فشل هونغ في الانضمام إلى صفوفهم. لكن دينهم كان متزمتا، فحرَّم الأفيون والكحول والتبغ والزنا واتخاذ المحظيات والدعارة وحتى الجنس عموما، وكان إلههم غضوبا وحقودا يطلب الطاعة ويفرض - من خلال التايبينغ - عقوبات وحشية.

جذب هذا البرنامج ملايين الأتباع - طواعية أو قسرا - ولذلك جلب على نفسه سخط سلالة تشينغ. أثبت التايبينغ في بادئ الأمر أنهم أقوى من القوات التشينغية، حتى إنهم كادوا ينتزعون بكين منهم. بالتزامن مع ذلك، هاجمت

(*) الألفية السعيدة millenarianism: عقيدة في بعض مذاهب المسيحية تؤمن بأن المجيء الثاني ليسوع المسيح قد بات وشيكا وأنه سيقيم على الأرض مملكة الله التي ستدوم ألف سنة أو يزيد. وثمة تنويعات لهذه العقيدة في أديان أخرى وفي حركات سياسية واجتماعية. [المترجم].

(**) يذكر أن تشينغ سلالة من المانشو البدو الذين غزوا الصين من منشوريا. [المترجم]

(***) كلمة تايبينغ Taiping تعني «السلاميين» من اسم حركتهم الثورية: «مملكة السلام السماوية» Taiping Heavenly Kingdom. [المترجم].

بريطانيا التشينغيين في العام 1856، ثم هاجمتهم فرنسا، بسبب تراجعهم عن بعض الالتزامات التي فرضت عليهم بعد حرب الأفيون الأولى والمعاهدات التالية لها. وكادت السلالة تنهار تماما. لكن في العام 1860، وبعد أن احتلت القوى الأوروبية بكين ونهبت القصر الصيفي للإمبراطور، أخذت بريطانيا وفرنسا ما أرادتاه بمعاهدة جديدة، وحوّلتا دعمهما إلى التشينغيين وتكاتفتا مع طبقة النبلاء والبيروقراطيين المحليين الذين جمعوا جيوشا خاصة لمحاربة التايبينغ. وتحقق انتصار التشينغيين النهائي وانتهت الفوضى في العام 1864 بفضل هذه القوات جنبا إلى جنب مع النزاعات والاغتيالات داخل قيادات التايبينغ التي خانت المبادئ الأخلاقية المتزمتة التي كانت تعظ بها. إجمالا، مات ما بين عشرين مليونا وثلاثين مليون إنسان في أكبر حرب أهلية في التاريخ[11]، وخرّب القتال أجزاء كبيرة من البلاد وأفرغ خزانة الدولة.

لم تتعافَ سلالة تشينغ تماما من هذه الثورة، لكن الصدمة أطلقت جهودا للاستنهاض، فأصلحت الدولة نظام الجمارك، وأطلق حكام الأقاليم الذين قادوا الانتصار على التايبينغ جهودا لإصلاح الزراعة والتعليم وإنتاج الأسلحة. وبعد العام 1867 كانت الترسانة أكبر مصنع في الصين، وشيّدوا أحواضا لصناعة السفن وسككا حديدية. فمن أجل حماية الصين من عدوان «البرابرة»، كانت التقنية العسكرية هي غاية الإصلاحيين الذين أدركوا أنه لا مناص من قدر من التصنيع، مع أنهم حرصوا على الحفاظ على أسس المجتمع الكونفوشي الزراعي. ومع ذلك فقد أثارت مبادراتهم المتواضعة معارضة أفراد طبقة النبلاء الأكثر تمسكا بالتقاليد، وفي النهاية معارضة العائلة الإمبراطورية نفسها. من ذلك أن أحد حكام الأقاليم أمر بإزالة خط حديدي كان أول خط شُيِّد من نوعه في الصين. وظل الجيش الصيني جاهلا بالجوانب التقنية وسيئ التسليح وفاشلا في الحروب، ولم تستطع الصين خلال العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر أن تحول دون خسارة الممالك التابعة لها لمصلحة فرنسا (فيتنام) وبريطانيا (بورما). وفي العام 1895 فقدت الصين في حرب مع اليابان مملكة تابعة أخرى (كوريا) و- الأهم من ذلك - مقاطعة جزيرية (تايوان). وبعد ثورة الملاكمين في العام 1900، وهي انتفاضة فاشلة ضد الأجانب دعمتها العائلة الإمبراطورية، دخلت الصين حالة من الفوضى والاعتداء على القوات الأجنبية في بكين. ثم نفّذت السلالة الحاكمة محاولة أخيرة للإصلاح، فألغت نظام امتحانات الخدمة المدنية الذي

استمر قرونا، وجربت الحكم الذاتي المحلي، وأقرّت تشييد السكك الحديدية، وأنشأت مدارس عسكرية جديدة، وشنّت حربا على الأفيون، فضلا عن مبادرات أخرى. لكن على غرار ما حدث مع العثمانيين، أوجدت الدولة - من دون أن تقصد - هيئة ضباط ثائرة. وظلت سلالة تشينغ تترنح حتى انهيارها النهائي خلال سلسلة من الثورات والانتفاضات في العامين 1911 و1912 أطلق عليها اسم الثورة الصينية. خلاصة القول أن جهود الاستنهاض في الصين فشلت فشلا ذريعا.

إن التغيرات في الشبكة التي أنتجت التحوُّل السكاني والقومية والتصنيع، أوجدت فائزين وخاسرين جددا على مستوى الجغرافيا السياسية. كان النجاح من نصيب الدول التي حوّلت النمو السكاني إلى قوة للتصنيع والتحضر، بينما لم تنجح الدول التي أدى النمو السكاني فيها إلى إفقار الفلاحين. مكّنت الشبكة من الانتشار المفاجئ للمعرفة والتقنية الصناعيتين اللتين استغلتهما بعض الدول في إعادة هيكلة مجتمعاتها واقتصاداتها. وفي أماكن أخرى أثبت تحدي التصنيع أنه أقوى مما يمكن تحمُّله، أو أثار برامج للاستنهاض قسمت النخبة على أنفسها، ما أدى إلى انهيار إمبراطوريات كانت مهولة في السابق.

التغيرات الاجتماعية

أسهم التصنيع في إعادة ترتيب حظوظ ملايين البشر العاديين. وتغيّرت الحياة اليومية أولا وبأشد ما يكون في المناطق التي قطع التصنيع فيها أشواطا أطول. لكن نتيجة لأن العالم خلال القرن التاسع عشر كان شبكة شديدة الإحكام، فقد غيّرت الثورة الصناعية الحياة في كل مكان.

وصلت التغيرات في المركز الصناعي في أوروبا إلى صميم الحياة: العائلة والعمل والقرية. فمع فورة السكان بعد العام 1750 أخذت القرى في كل مكان تفيض بالشباب الذين كان الكثيرون منهم لا تلوح أمامهم فرص كافية للحفاظ على مستوى معيشة ذويهم. بدافع اليأس من المستقبل الذي كان ينتظرهم في قراهم، أخذ هؤلاء الشباب يتدفقون على المدن الصناعية، ما ألهب تحضرا سريعا لم يشهده العالم من قبل. فتحوّلت برمنغهام وبرلين، اللتان كانتا بلدتين صغيرتين في العام 1780، إلى حاضرتين في العام 1880. وأخذ القرويون يكتسبون الأذواق الحضرية شيئا فشيئا،

إذ كان الكثيرون منهم يقضون أجزاء من حياتهم على الأقل في مدن كبيرة. وعندما بدأت معدلات المواليد في القرى في التراجع، وهو ما حدث بعد العام 1890، لم تعد القرى تمتلك فائضا للتصدير من الشباب، وأخذت أحجامها تنكمش. اكتسب هذا الاتجاه زخما خلال القرن العشرين، ما أقرّ هيمنة المدن في العالم الحديث. وانتزع نظام المصنع أعمال الغزل والنسج والحرف الأخرى من القرى، وتركها أقرب إلى الطابع الزراعي الكامل وأقل قدرة من قبل على الاكتفاء الذاتي.

لقد غيّر التصنيع طبيعة العمل تماما وإلى الأبد. فتحوّل الناس من الإيقاع الطبيعي للأيام والفصول التي حكمت عمل المزرعة إلى جداول تحكمها الساعة. وفرض عمل المصنع أشكالا جديدة من الضبط - إذ لم يكن بمقدور العمال أن يأخذوا استراحة متى يشاءون - وتحمُّل الضوضاء والحرارة والغبار، وأحيانا الخطر. كان عمال المصانع عموما يؤدون مهمات محددة، ولم يكن الواحد منهم ينتج السلعة كاملة وحده بالطريقة التي كان صانع البراميل أو المزارع ينتج بها البرميل أو المحصول على التوالي. وفي المزرعة كانت العائلة تعمل عادة كوحدة، بينما في المصنع كان الفرد يعمل كجزء من فريق كبير. ولم تكن الوظائف الجديدة تحتاج غير مهارة بسيطة يستطيع أي إنسان أن يتعلمها في بضعة أيام أو أسابيع. لذلك - وعلى خلاف الحال مع فرد العائلة - كان من الممكن تغيير العامل بسهولة إذا أفرط في الشراب أو قصّر في العمل. كان أرباب الأعمال في الأغلب يفضلون توظيف النساء والأطفال لأنهم كانوا أميل للإذعان لضبط المصنع، كما أن أناملهم الدقيقة جعلتهم أفضل في الكثير من المهمات. لذلك وجد الأزواج والآباء أنفسهم مضطرين إلى التنازل عن جزء من سلطتهم على الزوجات والأطفال لرؤساء العمال بالمصانع.

أوجدت هذه التحوُّلات الأساسية في ظروف العمل والحياة الاجتماعية احتياجات فكرية ووجدانية جديدة، أخذت تشبعها معتقدات جديدة شملت عقائد ثورية مختلفة، كانت الماركسية أقواها تأثيرا. قدم الفيلسوف والصحافي الألماني المثقف كارل ماركس (1818 - 1883) تفسيرا معقدا للتاريخ ورؤية للمستقبل وعدت العمال بأنهم سينجحون في النهاية في الثورة ويضعون حدا لحكم الرأسماليين والملوك ويدشّنون حقبة دائمة من المساواة والانسجام تسمى الشيوعية، وهي النظرية التي لاقت رواجا خاصا بين المتعلمين الرافضين للوضع الراهن، في حين جذب الوعد

بالعصر الألفي السعيد الكثير من الناس الذين لا طاقة لهم على التنظير. وكما سنرى لاحقا، فقد تركت الماركسية تأثيرات جذرية على روسيا والصين.

فرّخت المسيحية عقائد جديدة، توقع الكثير منها - كما فعلت الشيوعية - أن الأمور ستسوء قبل أن تتحسّن في النهاية. فكان البروتستانت الأمريكيون من أتباع مذهب العصمة الحرفية - على سبيل المثال - يعتقدون أن المسيح سيعود لوضع الأمور في نصابها بعد عصر مظلم من النزاع(*)، وهي الرسالة التي وجد فيها العمال الحضريون عزاء. وانجذب كثيرون إلى نسخ أحدث من البروتستانتية مثل السبتية والعلم المسيحي اللتين لاقتا رواجا في أمريكا الصناعية الحضرية (قادت نساء المذهبين في بعض الأوقات)(**). وحتى الميثودية التي ولدت خلال القرن الثامن عشر حققت نجاحا مميزا في التكيف مع التصنيع في بريطانيا(***). أكدت الميثودية على الجماعات الصغيرة القائمة على الدعم المتبادل وإمكانية تقويم النفس والحاجة إلى الاقتصاد في الإنفاق والتأمل، لكنها لم تفرض متطلبات مذهبية صارمة على أتباعها. وتجاوبت الكاثوليكية في أوروبا وأمريكا مع احتياجات الجماعات الصناعية - وتحدي الماركسية - ببرنامج حضري اعتمد على المدارس الكاثوليكية واتحادات العمال والمنظمات المجتمعية للوصول إلى المستهدفين.

ظل عمال الصناعة قبل أن ينظموا أنفسهم ضمن اتحادات عمالية، يكدحون في ظروف صعبة في مقابل أجور زهيدة، وكان طعامهم سيئا وصحتهم معتلة ونموهم

(*) مذهب العصمة الحرفية fundamentalism: حركة عرفتها البروتستانتية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تؤكد أن الكتاب المقدس معصوم من الخطأ، ليس في قضايا العقيدة والأخلاق فقط، بل أيضا في كل ما يتعلق بالتاريخ ومسائل الغيب كقصة الخلق وولادة يسوع المسيح من مريم العذراء وعودته ثانية إلى العالم والحشر الجسدي. [المترجم].

(**) السبتية Seventh-day Adventism: طائفة بروتستانتية ألفية، كانت إيلين وايت Ellen G. White (1827 - 1915) أحد مؤسسيها، تميّزت باتخاذ السبت يوما للعبادة والإيمان بقرب المجيء الثاني ليسوع المسيح ولذلك يعرفون باسم المجيئيين Adventists. والعلم المسيحي Christian Science أو كنيسة المسيح العالم Church of Christ, Scientist: مجموعة من الحركات الدينية الميتافيزيقية أسّستها في نيو إنجلند خلال القرن التاسع عشر ماري بيكر إيدي Mary Baker Eddy (1821-1910) التي ذهبت في كتابها «العلم والصحة» (Science and Health, 1875) إلى أن المرض وهم يمكن التغلب عليه بالصلاة وحدها. شكل هذا الكتاب - إلى جانب الكتاب المقدس - النص الأساس لهذه الكنيسة التي تؤمن إلى جانب ذلك بأن الوجود روحي تماما وأن العالم المادي محض وهم. [المترجم].

(***) الميثودية Methodism: مجموعة من الطوائف البروتستانتية المرتبطة معا تاريخيا، تستمد تعاليمها من جون ويسلي John Wesley وأخيه تشارلز ويسلي Charles Wesley وجورج وايتفيلد George Whitefield، نشأت خلال القرن الثامن عشر كحركة إحيائية ضمن كنيسة إنجلترا، ثم أصبحت كنيسة مستقلة بعد موت ويسلي. [المترجم].

معاقا، وتفشّت بينهم المظالم ضد أرباب الأعمال. كانت حياة عمال المصانع أو عمال المناجم الاختيار الأخير لطالبي العمل، ولم يقبل بها منهم إلا ذوو الخيارات المحدودة، لكن مادامت القرى ترسل فيضا من الشباب، فإن المصانع ظلت تجد عمالا مستعدين للعمل، وإن على مضض. وجد الكثيرون منهم ملاذا في أنواع الشراب والفسوق التي أمكنهم تحمُّل نفقاتها، أو وجدوا عزاء في تلك الأديان التي يسّرت عليهم تحمُّل مشاقهم. بينما خطط آخرون ثورات لقلب النظام الاجتماعي ووضع العمال في الحكم. لكن على الرغم من بضع حوادث عصيان، فإن هذه الثورات لم تقع، لسبب أساسي هو أن الجيوش المكوَّنة من مجندين من الفلاحين أثبتت في أثناء مرحلة التصنيع المبكرة استعدادها لإطلاق النار على العمال الحضريين وقمع الثورات(*). ولاحقا انتزعت اتحادات العمال تنازلات من أرباب الأعمال في شكل ظروف عمل أكثر أمنا وساعات عمل أقصر وأجور أعلى، ما أضعف شهية العمال للثورة. ونالت الاتحادات من حين لآخر دعم إصلاحيين في الحكومة أصدروا تشريعات قيّدت عمالة الأطفال أو العقوبات المسموح بها على العمال.

جاءت نقطة تحوُّل أخرى مع تقييد عمالة الأطفال الذي اقترن بتوفير التعليم المجاني. كان التصنيع يكافئ الإلمام بالقراءة والكتابة والتعليم الأساسي على نحو غير مسبوق، ولذلك أخذت أعداد متزايدة من الناس تطلب هذا التعليم، ورأى الكثير من الدول فائدة في دعمه. ولأول مرة في التاريخ، بدأ ملايين الأطفال يقضون عدة سنوات في التعليم الرسمي وتعلم القراءة والكتابة وحب الوطن وتقبل الضبط من أشخاص من خارج عائلاتهم. كان الأطفال في البيئات الريفية أو الحضرية حتى ذلك الحين يسهمون اقتصاديا في الإنفاق على عائلاتهم منذ الصغر، ثم جاءت هذه الترتيبات الجديدة لتحوِّل الأطفال من أصول اقتصادية إلى ديون، ولذلك بدأت الأسر

(*) من أمثلة استخدام الجيوش لقمع ثورات العمال في الدول الصناعية الليبرالية، ما سمي في إنجلترا «مذبحة بيترلو» Peterloo massacre (على اسم معركة وترلو Waterloo) في أغسطس 1819 التي استخدمت فيها قوات عسكرية لفض نحو تسعين ألف متظاهر من ساحة القديس بيتر والقبض على الخطيب الراديكالي الشهير هنري هنت Henry Hunt، وفيها جُرح عدة مئات، لكن غياب الأسلحة النارية أدى إلى خفض الخسائر في الأرواح إلى أحد عشر فقط، حيث كانت السيوف والعصي هي الأسلحة المختارة. ومن أمثلتها في الولايات المتحدة ما عرف باسم «مظاهرات العلاوة» في أثناء فترة الكساد التي أمر فيها الرئيس هربرت هوفر باستخدام الجيش لفض مظاهرة نظمها محاربو الحرب العالمية الأولى طلبا لصرف العلاوة مبكرا، وقامت قوات راكبة بإرهاب المعارضين العزل بخيولهم وباستخدام حافات سيوفهم غير القاتلة من دون إحداث إصابات خطيرة. من كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

تخفّض عدد الأطفال الذين ينجبونهم، وهو التحوُّل السكاني الذي حدث بأسرع ما يكون في البيئات التي غيّر التصنيع فيها هذه الحسابات الاقتصادية، وأحدث فرقا كبيرا في حياة الزوجات والأمهات اللاتي أتيحت لهن خيارات جديدة ومزيد من المرونة مع تراجع ما كن يستثمرنه في الذرية.

خلاصة القول أن المراحل الأولى للتصنيع حوّلت حياة العمال إلى بؤس، إذ أخضعت الأفراد والعائلات و- بدرجة أقل - الجماعات لضغوط كبيرة. ولذلك فإن تراجع فرص الحياة الريفية كان وحده ما دفع الناس إلى تقبل الحياة المريرة لعمال مناجم الفحم الألمان أو فتيات مصانع ماساتشوستس في العام 1850. لكن بعد جيلين أو ثلاثة تحسّنت الظروف شيئا فشيئا في المجتمعات الصناعية، لاسيما في حالة العمال المنظمين ضمن اتحادات. وبحلول العام 1900 كان العمال في المركز الصناعي يعيشون في المتوسط حياة أكثر عافية وأطول عمرا وأيسر حالا من إخوانهم أو أجدادهم الريفيين.

وخارج المركز الصناعي أحدثت الثورة الصناعية تغييرات عميقة في حياة العمال والعائلات على حد سواء. ففي روسيا واليابان اللتين لم تكونا جزءا من المركز الصناعي لكنهما مع ذلك كانتا من القوى الصناعية في العام 1914، اتخذت الخبرة الاجتماعية مسارات مختلفة، مع أنهما تحوّلتا إلى التصنيع في الوقت نفسه وبالسرعة نفسها/تقريبا. كانت سرعة التصنيع في البلدين كليهما تعني أن أغلبية عمال المصانع كانوا من الفلاحين الذين نقلوا إلى بيئات جديدة. وفي روسيا وجد هؤلاء العمال المصانع العملاقة منفرة، ووجدوا جورا في أوجه التفاوت الحادة في الحياة الحضرية. جاء الكثير من هؤلاء العمال من قرى كانت تعيد تخصيص الأرض دوريا بين العائلات لضمان المساواة العامة، ولم يكونوا يتمتعون بتسامح أخلاقي وافر مع التفاوت. وكان العمال الروس في معظمهم من الرجال، وكانوا ينتقلون كثيرا جيئة وذهابا بين المصنع والقرية، وظلوا على اتصال مع أقاربهم الريفيين. ولم يرَ هؤلاء العمال تحسُّنا يذكر في أجورهم وظروف عملهم، وكانت جهودهم لتنظيم أنفسهم نقابيا تقابل بقمع شديد. وفي هذه الظروف، وجد الكثير من العمال أن أفكارا ثورية مثل الفوضوية أو الماركسية تعبر عن أوضاعهم. فقد تبلور بين العمال الروس إحساس قوي بالمظلومية والتضامن والتعاطف مع مظالم الفلاحين، وهو ما ولّد هياجا وإضرابات وقمعا عنيفا، وأنتج ثورة عندما خسرت روسيا حربا مع

اليابان في العام 1905، ولاحقا، عندما كانت روسيا تخسر حربا أكبر مع ألمانيا، وشكّل العمال الحضريون قوات الصدمة ضمن الثورة الروسية في العام 1917.

لم تكن حياة المصانع في اليابان أفضل حالا من روسيا، لكن معظم القوة العاملة فيها - اثنين وستين بالمائة في العام 1909 - كانت من الفتيات الآتيات من القرى اللاتي كن يخططن للعودة إليها والزواج بعد عملهن فترة في المدينة، وكن يربين منذ نعومة أظفارهن على تحمُّل كل صروف الدهر وعلى طاعة الرجال، ومنهم رؤساء العمال بالمصانع وآباؤهن وإخوتهن الذين أمروهن في الأغلب بالعمل في المصانع لمساعدة عائلاتهن قبل أن يتزوجن. كانت هؤلاء الفتيات يعشن عادة تحت رقابة لصيقة في مساكن المصانع لضمان أن يبقين صالحات للزواج على الرغم من إغراءات المدينة. لم تعرف اليابان اتحادات العمال أو الإضرابات، وما وقع منها قمعته الدولة بلا رحمة. ولم يتبلور تضامن كاف بين العمال، ولم تجد الاشتراكية مكانا هناك.

لكن أديانا جديدة وجدت مكانا لها على أرض اليابان. فقد ألهم تصنيع اليابان عملية إعادة تنظيم دينية، كما حدث في أوروبا وأمريكا. فكانت القومية المحمومة من جانب الدولة التي بررت تضحيات الشعب تقوم على نوع جديد من تقديس الإمبراطور نُسِج ضمن عقيدة الشنتوية التقليدية. لكن ظهرت ديانات منافسة، منها ديانة التنريكيو Tenrikyo التي أطلقتها السيدة ناكاياما ميكي Nakayama Miki (1798 - 1887)، ووجد أتباعها عزاء في وعدها بمجيء عالم خال من الفساد والجشع وفي تأكيدها على الجماعة والإيثار، وديانة الأوموتو Omoto التي أطلقتها امرأة وكانت ذات نكهة مسيحية هي الأخرى، رفضت التصنيع والتحديث صراحة وفضلت عليهما جمال الحياة الريفية وتناغمها ونقاءها. اضطهدت الدولة زعماء هاتين الديانتين، لكنها لم تستطع أن تمحوهما. ومع أن تصنيع اليابان حدث متأخرا وسريعا وبدعم من الدولة كما في حالة روسيا، فقد جاءت النتائج الاجتماعية والسياسية المترتبة عليه مختلفة تماما في البلدين.

إبطال العبودية والقنانة

في عالم القرن التاسع عشر المترابط، أسهم التصنيع في تغيير حياة واستشراف ملايين البشر ممن كانوا يعيشون في أراضٍ بعيدة عن أقرب مصنع. كانت مراحل

التصنيع الأولى قد زادت مشقة الناس، ثم حدث تحسُّن مع الوقت، وإن لم يكن بوضوح في المراكز الصناعية. عرضنا فيما سبق كيف عانى النسَّاجون والغزَّالون حول العالم المنافسة الصناعية، وكيف تكيفوا معها في بعض الحالات. كان منتجو الغذاء والألياف أكثر عددا بكثير من النسَّاجين والغزَّالين، وكان عملهم الأساس لشحنات السكر والشاي والقهوة والقمح والقطن الضخمة إلى المدن الصناعية. وازداد الطلب على هذه السلع خلال المراحل المبكرة من التصنيع، ما شجع توسُّع المزارع التي كانت تزرع فيها، وتولى رواد أعمال ملمون بالسوق زمام المبادرة بشراء مزيد من الأراضي وإزالة مزيد من الغابات واستئجار مزيد من العمال أو - كما كانت الحال في الأغلب - شرائهم. فقد شجع التصنيع المبكر توسُّعا كبيرا في العبودية والقنانة.

لم يكن اتساع العمل القسري أوضح منه في الأمريكتين، وإن لم يقتصر عليهما. ففي الجنوب الأمريكي تجاوب اقتصاد القطن مع شهية مصانع النسيج في نيو إنجلند وبريطانيا. وبين العامين 1800 و1860 تضاعف عدد العبيد هناك خمسة أضعاف ليصل إلى أربعة ملايين، ما أدى إلى توسيع زراعة القطن والعبودية حتى تكساس. وفي الكاريبي اشترى أصحاب المزارع مزيدا من العبيد لزيادة ناتج السكر والقطن والقهوة. وحدث توسُّع مماثل في البرازيل التي كان السكر والقهوة فيها محصولي العبيد الأساسيين. وفي جنوب شرق آسيا أشرفت السلطات الإمبريالية والدول المستقلة على حد سواء على توسيع سريع للمزارع والعبودية، ما أسهم في تدفق الفلفل والسكر إلى السوق. وفي روسيا وأوروبا الشرقية اللتين كان الأقنان فيهما يزرعون القمح للتصدير، فطن مُلاك الأراضي إلى الربح الناتج عن زيادة الطلب على الغذاء في المدن الصناعية، فوسَّعوا عملياتهم بشراء مزيد من الأقنان وتشجيع زيادة معدل المواليد بين الأقنان الذين كانوا في حوزتهم. وفي مصر التي كان معظم العبيد فيها يأتون من السودان النيلي(*)، أدى توسُّع زراعة القطن والأعمال العسكرية لمحمد علي وخلفائه - الذين استخدموا الكثير من العبيد الأفارقة في جيوشهم - إلى فورة في

(*) يشير السودان النيلي إلى جنوب السودان الذي يقطنه النيليون Nilotes وهم قبائل كثيرة تجمعهم اللغات النيلية (فرع من عائلة اللغات النيلية - الصحراوية)، من أهمها قبائل الدينكا والنوير والشلك والأنواك وغيرها، التي تنتشر أيضا في أوغندا وكينيا وشمال تنزانيا؛ كان حال الفلاحين في مصر أقرب إلى حال الأقنان في أوروبا، وقاموا في الاقتصاد بدور العبيد في الأماكن الأخرى. وجاءت استعانة محمد علي بالعبيد ضمن محاولاته الأولى لبناء الجيش، ولما فشلت بهلاك العبيد لجأ إلى الفلاحين. [المترجم].

العبودية بعد العام 1805. وفي جزيرتي موريشيوس وريونيون Reunion بالمحيط الهندي، انبثق نظام مزارع جديد لإنتاج القطن والقهوة والسكر بداية من نحو العام 1780، كان يستورد العبيد من مدغشقر وشرق أفريقيا والهند. وفي غرب أفريقيا توسّعت العبودية خلال القرن التاسع عشر، جزئيا استجابة للطلب الأوروبي على زيت النخيل، وهو أحد الزيوت الصناعية المبكرة. لذلك انتعش المنطق الاقتصادي للعبودية أو القنانة أينما كانت العمالة شحيحة إلى حد لا يُمكّن من تحقيق الاستفادة القصوى من الفرص التجارية التي وفّرها التصنيع والشبكة الأشد إحكاما.

لكن في الوقت الذي بلغت فيه نظم العمل القسري في العالم أقصى اتساع تاريخي لها، حدث شيء غريب، إذ أخذت تلك النظم تتفكك. فالعبودية التي وجدت منذ خمسة آلاف سنة على الأقل، وكانت تبدو من طبائع الأشياء، أصبحت أمرا غير أخلاقي في نظر الكثير من المجتمعات. وبالتزامن مع ذلك، بدأ منطقها الاقتصادي يضعف، ودعمها السياسي يتضاءل، ومعارضوها ينظمون أنفسهم، وهي تطوّرات تثبت فعالية الشبكة العالمية.

نشأت المعارضة الأخلاقية للعبودية في العالم الأطلسي. فخلال العقد قبل الأخير من القرن الثامن عشر، ومع بلوغ تجارة العبيد الأطلسية أوجها، انقلب عليها الرأي الديني والفكري. كان الصاحبيون الإنجليز أول من قاد هذه الحركة(*)، وذهبوا إلى أن العبودية تتناف مع المسيحية، وتكاتفوا مع مفكرين علمانيين تأثروا بأفكار حركة التنوير، لاسيما أفكار حقوق الإنسان. وسرعان ما أصبحت مناهضة العبودية قضية رأي عام في إنجلترا، ووقّع مئات الآلاف من المواطنين التماسات تطالب بإبطالها. وفي فرنسا ظهرت في العام 1788 جمعية لمناهضة العبودية. شكّلت الثورة الهايتية انتكاسة لهذه الجهود، إذ استنتج صناع القرار أن منح الحرية للعبيد يجلب الفوضى والعنف. لكن أنصار إبطال العبودية البريطانيين أثبتوا تمكنهم من الفنون السياسية والبرلمانية، وفي العام 1807 أنجزوا إبطال تجارة العبيد. غير أن هذه كانت البداية فقط.

(*) الصاحبيون Quakers أو جماعة الأصدقاء Society of Friends هم أعضاء حركات دينية مسيحية نشأت خلال القرن السابع عشر، عُرفوا - من بين أشياء أخرى - برفض المشاركة في الحروب ومناهضة العبودية والامتناع عن المسْكرات. [المترجم].

ظلت دول أطلسية أخرى تجيز الاسترقاق، لكن ليس لأمد طويل. فأمام الضغوط الأخلاقية والاقتصادية من بريطانيا ومن حركات داخلية مناهضة للعبودية، حظرت الولايات المتحدة والدنمارك وهولندا وفرنسا تجارة العبيد قانونيا بين العامين 1808 و1830. وأخذت بريطانيا تستخدم جزءا من أسطولها لاعتراض سفن العبيد في أعالي البحار وإعادة الأسرى إلى أفريقيا، عادة إلى سيراليون، وهي مستعمرة أسست حديثا للعبيد المحَرَّرين(*). وعندما حظرت البرازيل (1850) وإسبانيا (1867) تجارة العبيد قانونيا، توقفت هذه التجارة عبر الأطلسي، باستثناء بضع رحلات غير قانونية، سُجل آخرها في العام 1864.

لا تفسر الهواجس الأخلاقية إزاء العبودية إلا جزءا من هذه الأحداث، وكانت الأجزاء الأخرى من المعادلة اقتصادية وسياسية. فقد راجت الاعتراضات الأخلاقية على العبودية في الأماكن التي كانت أهمية العبودية فيها للاقتصاد غير مباشرة، مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الشمالية. أما الأماكن التي شكّلت العبودية فيها قاعدة الإنتاج والنظام الاجتماعي فإن الهواجس الأخلاقية فيها ظلت غير مقنعة. لكن بعض مُلاك العبيد قبلوا إلغاء تجارة العبيد طائعين، لأنهم توقعوا أن الزيادة الطبيعية بين جماعات العبيد يمكن أن تديم العبودية(**)، وهو المنطق الذي ساد في الولايات المتحدة وباربادوس اللتين كان عدد العبيد فيهما كافيا لإعادة إنتاج نفسه من خلال التناسل. وكان من شأن زيادة النمو السكاني بين العبيد أكثر من ذلك أن تقوّض المنطق الاقتصادي للعبودية. وإذا كانت هناك وفرة كافية في العمالة، فإن المزارع يمكن أن تزدهر بفضل أجور العمال الرخيصة، وهو ما ساعد في تقبل بعض مُلاك المزارع فكرة تحرير العبيد.

بيد أن هذا المنطق لم يكن مستساغا من الجميع. من ذلك أن أحد مُلاك المزارع في موريشيوس اعتبر تحرير العبيد «ضربة وضيعة من التعصب الأشد

(*) بعد أن حظرت بريطانيا تجارة العبيد، بدأ أسطول غرب أفريقيا البريطاني في منع هذه التجارة من خلال تفتيش السفن وإعادة العبيد. وبحلول العام 1865 كان هذا الأسطول قد حرر نحو مائة وخمسين ألف إنسان من سفن العبيد، سماهم الإنجليز المحرَّرين recaptives، أعاد أغلبيتهم إلى سيراليون التي سميت عاصمتها لهذا السبب فريتاون Freetown التي تعني بلدة المحرَّرين، وإلى جزر الكاريبي البريطانية - كعمال ملزمين - لتعويض النقص في العمالة الذي نتج عن حظر تجارة العبيد. راجع كتاب «عباد الله». [المترجم].

(**) على أساس أن تناسل العبيد الحاليين كان كفيلا بالحفاظ على أعدادهم أو زيادتها، لأن نسل العبيد كانوا بالقانون ملكا للسيد الأبيض. [المترجم].

وضاعة وجهنمية»[12]. وفي جنوب أفريقيا - التي أصبحت مستعمرة بريطانية في العام 1815 - قاوم مُلاك العبيد البوير - أحفاد المستوطنين الأوروبيين الأوائل - إبطال العبودية والقيود الأخرى من خلال الهجرة بعيدا عن الحكم البريطاني في العامين 1833 - 1834(*). وبالمثل اعترض مُلاك العبيد في الولايات المتحدة على القيود المقترحة على العبودية وشنُّوا تمردا بات يعرف باسم الحرب الأهلية الأمريكية (1861 - 1865). وحتى في الأماكن التي تقبل فيها مُلاك العبيد فكرة تهاوي المنطق الاقتصادي للعبودية، فإنهم تشبثوا بها في الأغلب خوفا من أن يفتح الإصلاح أبواب الثورة كما حدث في هايتي.

فيما رأى آخرون في الثورات نفسها مبررا كافيا للتخلي عن العبودية. فمع توسُّع العبودية في العالم الأطلسي بعد العام 1750 تزايد عدد ثورات العبيد وحجمها، ولم تكن الثورة الهايتية إلا أكبرها والوحيدة بينها التي نجحت(**). سببت الثورات المتكررة، حتى إن قُمعت، رفع تكاليف العبودية على أصحاب المزارع وخفض أرباحهم وإحساسهم بالأمن. وأخذت بعض جماعات العبيد السابقين الآبقين - الذين يسمون المارون maroons في المجتمعات الناطقة بالإنجليزية - تهدد المزارع. واجتمع النموذج الهايتي وإغواء جماعات العبيد الآبقين وأيديولوجيا الحرية التي كانت تدوي في أرجاء العالم الأطلسي لجعل العبيد أكثر تململا وتمردا. غير أن ذلك لا يعني أن العبيد السابقين تحوّلوا بالضرورة إلى تبني مناهضة العبودية، فأحيانا كان العبيد الآبقون في جامايكا يقدمون العون للحكومة الاستعمارية لقمع الثورات في المزارع، وفي البرازيل كانت إحدى جماعات العبيد الآبقين تشتري العبيد وتمتلكهم.

بعد الثورة الهايتية، حدثت الموجة الكبرى الأولى لتحرير العبيد في العام 1833، عندما أوصل توسيع حق الاقتراع في بريطانيا عناصر جديدة من الطبقة الوسطى إلى البرلمان، ما مكّن من إصدار قانون تحرير العبيد[13]. ونال نحو سبعمائة وخمسين

(*) البوير Boer (تعني المُزارع في اللغتين الهولندية والأفريقانية) أو الأفريكان Afrikaans (أو Afrikaners) هم أحفاد المستوطنين الهولنديين الذين بدأوا في التوافد على جنوب أفريقيا خلال القرن السابع عشر، يتحدثون لغة تطوّرت عن العامية الهولندية تسمى الأفريقانية Afrikaans. [المترجم].

(**) كان من أكبرها وأخطرها وأكثرها تنظيما - بعد الثورة الهايتية بالطبع - ثورة العبيد المسلمين من غرب أفريقيا في ولاية باهيا البرازيلية في العام 1835، وثورات سابقة ولاحقة قادها وشارك فيها مسلمون في مختلف المستعمرات الأمريكية. راجع كتاب «عباد الله». [المترجم].

ألف عبد في المستعمرات حريتهم على مدى ست سنوات، كانوا خلالها ملزمين قانونيا بالعمل ثلاثة أرباع الوقت لأسيادهم السابقين بلا مقابل(*). ودفعت الحكومة لأصحاب العبيد تعويضات شكّلت نحو ثلث أو نصف الموازنة السنوية لبريطانيا. هكذا وصلت مؤسسة قديمة إلى نهايتها القانونية في الإمبراطورية البريطانية بفضل الجهود المشتركة لأنصار إبطال العبودية والعبيد والتيارات الفكرية والاتجاهات السكانية التي عمّت العالم[14].

وعلى مدار القرن التالي انتهت العبودية في كل مكان. حدث ذلك أولا في أوروبا وأمريكا اللاتينية التي أوصلت الثورات السياسية فيها إلى السلطة ليبراليين متعاطفين مع مناهضة العبودية. فألغت تشيلي والمكسيك العبودية خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر، بعد نيل الاستقلال عن إسبانيا مباشرة. وحدث إلغاء العبودية في الإمبراطورية الفرنسية مع ثورة العام 1848، ما أدى إلى تحرير ثلث مليون عبد. وحدث إلغاء العبودية في الإمبراطورية الهولندية في العام 1867، وحدث في إسبانيا - التي كانت عمليا تعني كوبا وبورتوريكو - في العام 1886. وفي البرازيل استمرت العبودية حتى العام 1888، عندما صارت أجور العمال قاعدة واعدة لمزارع القهوة التي كان العبيد يعملون فيها في السابق، وذلك بعد وصول أعداد كافية من المهاجرين البرتغاليين والإيطاليين. أما أكبر موجة لتحرير العبيد في الأمريكتين فقد حدثت في الولايات المتحدة (أربعة ملايين عبد)، عندما خسر الجنوب الحرب الأهلية، وفي البرازيل (مليون ونصف المليون عبد).

غير أن كل موجات تحرير العبيد مجتمعة تتضاءل أمام ما حدث في روسيا. ومع أن روسيا كانت تضم عبيدا، فإن القنانة كانت الشكل الأساس للعمل القسري فيها. في أواخر القرن الثامن عشر كانت مكانة الأقنان الروس قد تدهورت واقتربت من مكانة العبيد، إذ كانوا ملكية قانونية لمُلاك الأراضي أو الدولة، وكانوا يتعرضون

(*) عندما صدر قانون تحرير العبيد في الإمبراطورية البريطانية في العام 1833، فإنه لم يحرر العبيد جميعا في الحال، بل حرر القانون في الحال العبيد دون عمر السادسة، وفرض على العبيد الأكبر من ذلك العمر فترة تمهن apprenticeship بُررت كفترة إعداد لهم على الحياة الحرة والتعود على كسب قوتهم. وفي ترينيداد كتب عجوز مسلم رسالة إلى قائم مقام الحاكم الإنجليزي تهكم فيها من فترة التمهن التي اشترطها القانون بالقول: «إن مقدم الالتماس قد علم في الأول من أغسطس 1834 وهو في عمر الرابعة والثمانين بأن الملك قد منحه الحرية، وأنه مع ذلك يجب أن يظل متمهنا لكي يتعلم حرفة استخراج القصب نفسها التي مارسها خمسين عاما». [المترجم].

لتأديب وحشي، وكانوا يُشتَرون ويباعون كأفراد أو عائلات أو قرى كاملة، وكانوا يتزوجون في الوقت الذي يختاره مُلاكهم ومن الأشخاص الذين يختارهم المُلاك. وفي العام 1797 كانت روسيا تضم نحو عشرين مليون قن ملكية خاصة وما بين أربعة عشر مليونا وخمسة عشر مليون فلاح تملكهم الدولة كانوا أكثر حرية قليلا من العبيد الملكية الخاصة لكن عملهم بالسخرة لم يكن يتوقف. كانت أغلبية فلاحي الدولة يعملون في الحقول، وبعضهم في الغابات أو المناجم، وكانت قلة منهم تعمل في المدن.

نشأ إلغاء القنانة في روسيا عن العوامل نفسها التي دفعت إلغاء العبودية في العالم الأطلسي، وإن حدث بمعدلات مختلفة. كان للتيارات الفكرية لحركة التنوير والثورة الفرنسية تأثيرها، وأدت بطريقة مباشرة إلى إلغاء العبودية في بروسيا وأجزاء من بولندا قبل العام 1810. وبداية من العقد الأخير من القرن الثامن عشر بدأ بعض المفكرين الروس يشجبون القنانة، وتعرض من فعل ذلك منهم علنا للاضطهاد والنفي. وعلى مدار الستين سنة التالية فقدت القنانة كل الدعم الفكري والأخلاقي في روسيا، وبدت أمرا متخلفا في أعين الروس الذين كانوا ملمين بمستوى الحريات السياسية المتنامي في أوروبا الغربية. وتراجع منطقها الاقتصادي بين النخبة الروسية مع النمو السكاني السريع الذي جعل أجور العمال أكثر إغراء. أعاقت القنانة التقدم التقني؛ لأن عمل الأقنان لم يكن يكلف مُلاك الأراضي - أو أصحاب المناجم - شيئا تقريبا، ولأن الأقنان لم يكن لديهم الدافع للتعامل مع الآلات بعناية. وأعاقت القنانة تحديث الجيش الروسي، وتحديدا حالت دون تبني نظام الاحتياط العسكري، لأن الحكومة لم تجرؤ على تسريح الأقنان ذوي المهارات العسكرية إلى قراهم. لذلك ألزمت القنانة روسيا بالاحتفاظ بجيش دائم ضخم ومكلف.

حكمت القنانة على روسيا بأن تعيش تحت تهديد الثورة. من ذلك أنه في أثناء حرب مع الإمبراطورية العثمانية شهد العام 1773 ثورة ضخمة على طول نهر الفولغا بقيادة قوزاقي يدعى إميليان بوغاتشيف Emilian Pugachev (1726 - 1775)، زعم أنه القيصر الذي قُتل أخيرا (بطرس الثالث زوج كاترين الكبرى)، وأعلن إلغاء القنانة، وقاد جيشا ضعيفا في ثورة عنيفة قتل فيها ألفا من مُلاك الأراضي، واستولى على مدينة قازان، وهز أركان الدولة الروسية، إلى أن أُسر وأُعدم في العام 1775. لكن

ظلت ذكرى ثورة بوغاتشيف تخيف حكام روسيا من استمرار القنانة، وتخيفهم في الوقت عينه من إلغائها، إذ كانوا يشعرون كأنهم يركبون على ظهر نمر، تماما كما شعر مُلاك العبيد في العالم الأطلسي بعد الثورة الهايتية، بمعنى أن الوضع الراهن كان خطرا، لكن النزول من على ظهر النمر كان ينطوي على خطر أكبر.

لذلك جرى التفكير لعقود في تحرير العبيد في روسيا، وجرى التخطيط له سرا لسنوات، قبل إعلانه في العام 1861. ثم جاءت الهزيمة المذلة لروسيا في حرب القرم لتقنع القيصر بأن الوقت قد حان لاتخاذ هذه المخاطرة. فقد توقع القيصر ومعظم الطبقة الحاكمة ثورة عنيفة من جانب ثلاثة وعشرين مليون قن في الأيدي الخاصة، لكن على خلاف ذلك لم يقع غير بضع حوادث. نال الأقنان - الذين أصبحوا فلاحين - حريتهم القانونية، ومعها الحق في الزواج كيفما يشاءون، وحيازة الأرض، والهجرة، وحصلوا على أراضٍ، لكن تدريجيا. فعلى غرار ما حدث مع العبيد السابقين في المستعمرات البريطانية، أُلزِم الأقنان في روسيا بالعمل لأسيادهم السابقين - تسع سنوات في هذه الحالة - إذ اشتروا حريتهم بالعمل بلا أجر لمدة أطول من نظرائهم في الغرب. وأُلزموا بشراء الأرض من الدولة التي عوّضت مُلاك الأراضي. طُبِقت هذه الشروط على ثلاثة وعشرين مليون قن ملكية خاصة. وفي العام 1866 أُعطِي سبعة وعشرون مليونا آخرون من فلاحي الدولة أراضي يعملون فيها في مقابل دفع الضرائب. وهكذا نال نحو خمسين مليون إنسان مزيدا من الحرية في عملية تحرير الأقنان الروسية، وإن حدث ذلك بدرجات وشروط تركتهم في حالة من الإحباط.

ومع تنامي الزخم، أدت التغيرات الفكرية والسكانية خلال القرن التاسع عشر إلى خفض قيمة العمل القسري. وفي جنوب شرق آسيا حدث الإلغاء القانوني للعبودية بين العام 1868 (جزر الهند الشرقية الهولندية) والعام 1926 (بورما)، وهو ما نتج عن الضغط الاستعماري الأوروبي، حتى في دول مستقلة مثل تايلند التي رفع ملكها مونغكيت Mongkit (حكم 1851 - 1868) راية مناهضة العبودية وأصدر مرسوما يقضي بأنه لا يجوز للرجال أن يبيعوا زوجاتهم وأطفالهم من دون موافقة الزوجة، ثم حدث الإلغاء الكامل للعبودية في العام 1915. وفي أنحاء جنوب شرق آسيا كافة كان إلغاء العبودية مسألة سياسية، لأن العمل القسري ظل مربحا هناك. لكن طوفانا من «الكولي» الصينيين - وهم العمال الملزمون المستقدمون بالعصا

والجزرة كلتيهما - غمر جنوب شرق آسيا خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين(*)، ما وفّر القوة العاملة لتوسيع المزارع والمناجم وجعل إلغاء العبودية أكثر تقبلا.

طالت ضغوط الحكومات الأوروبية العبودية في جنوب غرب آسيا والأقاليم العثمانية، وأذعن العثمانيون وحظروا تجارة العبيد من أفريقيا في العام 1857، باستثناء الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية (الحجاز) الذي كانت العبودية مهمة فيه وكانت النخب المحلية هناك تستثمر فيها بغزارة. واستمرت تجارة العبيد العثمانية الآتية من شركسيا الواقعة على الشواطئ الشمالية الشرقية للبحر الأسود حتى أواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر(**). فالعثمانيون لم يحظروا العبودية نفسها، بل أرادوا فقط أن يقضوا عليها تدريجيا بقطع الإمدادات.

وفي أفريقيا حدث الإلغاء القانوني للعبودية أيضا بتدخل أوروبي. وإن كان هذا التدخل قد نتج جزئيا عن ضغط مارسه العبيد أنفسهم. فمن المفارقات أن كبح تجارة العبيد الأطلسية إبان أوائل القرن التاسع عشر وسّع نطاق العبودية داخل القارة، إذ انخفضت أسعار العبيد مع إغلاق الأسواق الواقعة على الجانب الآخر من الأطلسي، وبذلك تحسّن المنطق الاقتصادي لاستخدام العبيد داخل أفريقيا. تجاوب رجال الأعمال الأفارقة مع ذلك بتأسيس مزارع عبيد جديدة في غرب أفريقيا وشرقها، كانت تزرع الفول السوداني والمنيهوت والقرنفل ومحاصيل أخرى. وشهدت بلاد السودان حروبا شنّها إصلاحيون مسلمون رأوا أن الإسلام الأفريقي لا يتطابق تماما مع الإسلام المُنَزّل، ما أدى إلى استرقاق كثير من الأسرى، وفي النهاية بلغ عدد العبيد هناك نحو ثلث إجمالي السكان أو نصفه. ومع أواخر القرن التاسع عشر، حظرت القوى الاستعمارية - إنجلترا وفرنسا بالدرجة الأولى - تجارة العبيد داخل أفريقيا، في الأغلب باتخاذ ذلك مبررا أخلاقيا لتوسيع نطاق حكمهما. وبحلول العام 1914

(*) استخدم مصطلح الكولي Coolie خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للإشارة إلى العمال الملزمين في شركة، بالدرجة الأولى من شبه القارة الهندية وجنوب الصين، وتستخدم الكلمة حاليا للإشارة إلى حاملي الأمتعة في محطات القطار بالهند. [المترجم].

(**) شركسيا Circassia: منطقة تاريخية في شمال القوقاز تمتد على طول الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأسود يقطنها الشعب الشركسي، كانوا - إلى جانب القبجاق - العرق الغالب على المماليك الذين حكموا المشرق العربي قرونا قبل الغزو العثماني وفي أثنائه، وقد اشتهرت الجواري الشركسيات في الدولة العثمانية وحتى في أوروبا بأنهن الأجمل في العالم حتى انتهاء العبودية. [المترجم].

كانت تجارة العبيد واسعة النطاق قد توقفت. استغرق حظر العبودية هنا وقتا أطول نوعا ما لأن القوى الاستعمارية تصرفت بشيء من التردد، وذلك لأن حكم أفريقيا كان في حاجة إلى تعاون الوجهاء الذين كان كثيرون منهم من مُلاك العبيد، أكثر من حاجته إلى امتنان ملايين التعساء. ورأت القوى الاستعمارية أن العبودية في أفريقيا لم تكن جائرة في أغلبها(*)، وكانت في كل الأحوال مهمة للإنتاج الزراعي وإنتاج المنسوجات، علاوة على أن إلغاء العبودية في أفريقيا الإسلامية كان من شأنه أن يثير معارضة علماء الدين الذين رأوا وقاحة في تغيير الشرع الإلهي.

لكن العبيد فرضوا قضيتهم بداية من العقد الأخير من القرن التاسع عشر، إذ أخذوا يفرون في جماعات، وأحيانا يقتلون أسيادهم، لاسيما في غرب بلاد السودان، ما أضعف الحكام الذين كانت القوى الغربية ترغب في حكم المنطقة من خلالهم. لذلك غيَّر البريطانيون والفرنسيون سياستهم بعد العام 1900، إذ سحبوا دعمهم من مُلاك العبيد، وفرضوا إلغاء العبودية على مضض، بالدرجة الأولى بين العامين 1905 و1936، وكانوا في ذلك لا يفعلون شيئا غير إقرار ما كان يحدث على أرض الواقع. وفي خلافة صكتو - بشمال نيجيريا - وحدها، حرَّر إلغاء العبودية ما بين مليون ومليوني عبد(**). وفي شبه الجزيرة العربية استمرت العبودية على نطاق ضيق بعد إلغائها القانوني في أفريقيا الاستعمارية. وبعد استقلالها حظرت موريتانيا العبودية مرة ثانية في العام 1980، لكنها لم تختفِ تماما حتى الآن، لاسيما في بلاد السودان.

حتى إن لم تكن العبودية قد استؤصلت تماما، فإن إلغاء العبودية والقنانة يمثل تحررا عظيما للبشر. فبين العامين 1790 و1936، أصبح هذا النظام الذي ظل آلاف السنين طبيعيا وأخلاقيا في معظم المجتمعات، يبدو غير أخلاقي وغير مربح و

(*) تميَّز نظام الرق الأفريقي- بشهادة الرحَّالة الغربيين الذين كانوا على ألفة بالنظام الأمريكي- برفق ولين جعل العبيد هناك المكافئ الوظيفي لمستأجري الأراضي الأحرار والعمال المستأجرين في أوروبا. وكان العبيد هناك يُستخدَمون كثيرا إداريين وجنودا وحتى مستشارين ملكيين، ما منحهم حرية تنقل وافرة، فضلا على نمط حياة النخبة. فالشقة الهائلة التي تفصل بين العبد ومالكه في الأمريكتين لم تكن معروفة في أفريقيا، وكان العبيد في أغلبيتهم يعيشون عيشة هنية يسيرة، حتى كان من الصعب التمييز بين العبيد وأسيادهم أو الجواري وسيداتهن، ولم يكونوا يتعرضون للعقوبات البدنية البشعة التي كان العبيد الأمريكيون يلاقونها. راجع كتاب «عباد الله». [المترجم].

(**) صكتو Sokoto (من الكلمة العربية «سوق»، وتكتب أيضا سوكوتو): مدينة تقع حاليا في أقصى شمال غرب نيجيريا بالقرب من التقاء نهري صكتو وريما، كانت قبل الاستعمار البريطاني في العام 1903 مقرا لخلافة صكتو التي أسسها عثمان دان فوديو في العام 1809 في أثناء حروب الجهاد الفولانية. [المترجم].

/أو غير رشيد سياسيا. وما أنجزه تسخير الوقود الأحفوري في مجال العمل نفسه - التحرر التاريخي من الكدح العضلي - أنجزه إلغاء العبودية في المجال الاجتماعي. كان الحدثان مرتبطين ومتزامنين تقريبا، إذ أدى استخدام الطاقة غير الحية تدريجيا إلى جعل العمالة أقل ندرة، وجعل العمل القسري أقل إغراء، ويسّر نقل الأفكار المناهضة للعبودية، ومكّن من فرض المبادئ الأوروبية المناهضة للعبودية على آسيا وأفريقيا. وفي بعض الأماكن جعل إلغاء العمل القسري استخدام الآلات والطاقة غير الحية اقتصاديا بدرجة أكبر. لقد تدفقت تيارات النمو السكاني والتصنيع واستخدام الطاقة ومبادئ المساواة معا عبر العالم وأعادت صياغة الحالة الإنسانية.

العولمة في عصر الإمبريالية

تدفقت هذه التيارات وغيرها في دوّامات حول العالم، وازدادت سرعتها مع إحكام خيوط الشبكة العالمية أكثر وأكثر. حدثت خفقة كبرى للعولمة بين العامين 1870 و1914، شكّلت جزءا لا يتجزأ من التحوُّلات السكانية والسياسية والاقتصادية التي عرضناها فيما سبق.

وحّدت الخفقة الأولى للعولمة سواحل البحار والأحواض النهرية على مستوى العالم باستخدام الشحن البحري، ثم كثّفت الخفقة الثانية (في الفترة 1870 - 1914) الخفقة الأولى ووسّعت نطاقها إلى الداخل البعيد عن السواحل. تناولنا فيما سبق الأساس التقني لهذه الخفقة ممثلا في البواخر والسكك الحديد والتلغراف. أما قاعدتها السياسية فكانت القوة الإمبريالية الأوروبية بالدرجة الأولى، وكذلك القوة المتنامية لليابان والولايات المتحدة وبضع دول أصغر، كانت جميعها قادرة على فرض سيطرتها على الجماعات الداخلية، وفي كثير من الحالات التوسّع على حساب الآخرين. بيد أن الأبعاد الأهم للخفقة الثانية للعولمة كانت اقتصادية، تحديدا تكثُّف حركية البشر والسلع والمال.

أغرت نظم النقل والاتصال الجديدة الناس بالانتقال حول العالم. في الماضي تمثّلت الهجرات الكبرى عادة في ترحال الشعوب البدوية، والانتقالات الضخمة للاجئين هربا من العنف أو الاضطهاد، وتجارة العبيد، وهي انتقالات كانت كبيرة ومؤثرة، لكنها في الأغلب كانت تشمل أعدادا متواضعة إلى أن ظهرت تجارة العبيد الأطلسية، وحتى هذه التجارة تتضاءل بجوار هجرات القرن التاسع عشر التي كانت اقتصادية

بالدرجة الأولى في دافعها، إذ أخذ الناس ينتقلون إلى المناطق التي كان يمكن الحصول فيها على الأرض بشروط ميسّرة أو التي كانت الأجور فيها أعلى منها في بلادهم. مكّنت المعلومات الرخيصة والوفيرة عن البلاد الأجنبية الناس من مقارنة ظروفهم في الوطن مع الإمكانات البعيدة، ما شجع عشرات الملايين على المغامرة بالهجرة.

ساعد إنهاء العبودية في إطلاق الهجرة في تدفقات كبرى. وفي بعض مجتمعات العبيد السابقين وجد العبيد السابقون خيارات أخرى غير العمل بأجر في الأعمال نفسها التي كانوا يقومون بها في السابق. من ذلك مثلا أنه عندما ألغيت العبودية في مارتينيك - إحدى جزر السكر بالبحر الكاريبي - في العام 1848، غادر ثلثا العبيد السابقين الجزيرة في غضون ثلاث سنوات. ومع النمو السريع للطلب على الألياف الصناعية والمعادن والغذاء، ظلت المزارع والمناجم حول العالم في حاجة إلى الملايين من السواعد القوية. لذلك تطوّرت تجارة الاستقدام في المناطق الفقيرة - لا سيما في الهند والصين - لنقل العمال إلى أماكن ما كان ليذهب إليها أحدهم. وبينما انتقل معظمهم بمطلق حريتهم، فإن أكثر من مليوني إنسان هاجروا كعمال ملزمين، كانوا يصلون وجهتهم وهم مدينون بالعمل ما بين ثلاث وسبع سنوات في مقابل نقلهم. هاجر معظم هؤلاء العمال المسترَقين طوعا على أمل أن يعودوا أفضل حالا بعد أن تنتهي مدتهم(*)، بينما اختطف بعضهم اختطافا. وتفسر فرص الفلاحين الفقراء التي كانت آخذة في التدهور في الهند والصين لماذا آثر كثيرون منهم الهجرة. فقد كان لدى الفلاحين في جنوب الهند سبب وجيه لتجريب حظهم في الخارج، ذلك أن الإيجارات الريفية ارتفعت بشدة بعد العام 1850[15]. لم يرجع كثيرون منهم إلى بلادهم، إما لأنهم ماتوا - كانت المناخات المَرضية غير المألوفة السبب الرئيس - وإما لأنهم آثروا البقاء في أراضيهم الجديدة.

فانتقل نحو مليون هندي - معظمهم عمال مستَرَقون - إلى موريشيوس وترينيداد وغويانا وناتال (جنوب أفريقيا) وفيجي للعمل في حقول القصب، وانتقل أربعة ملايين - معظمهم مهاجرون أحرار- إلى مزارع المطاط ومناجم القصدير بشبه

(*) العامل المسترَق bonded laborer أو العامل المرتهن (أو عبودية الدين debt bondage): شكل من العمالة الملزمة يرتهن فيه عمل العامل سدادا لدين أو التزام آخر، والعمل نفسه ومدته يمكن أن تكون مفتوحة، ويمكن أن ينتقل من جيل إلى آخر. [المترجم].

جزيرة الملايو. وانتقل ما بين مليونين وثلاثة ملايين - أغلبهم من التاميل من جنوب الهند - إلى سريلانكا للعمل في مزارع الشاي. وانتقلت عدة ملايين أخرى إلى بورما، عاد معظمهم إلى بلادهم، كما فعل معظم المهاجرين إلى سريلانكا والملايو. وفّر الهنود معظم العمالة المطلوبة لاستمرار العمل في مناجم الإمبراطورية البريطانية ومزارعها إلى أن أبطل نظام العمالة الملزمة في العام 1917. إجمالا، هاجر ما بين ثلاثين وأربعين مليون هندي (1830 - 1913)، بقي منهم في الخارج ما بين ثلاثة وستة ملايين.

كان الصينيون منذ القرن الثامن على الأقل يهاجرون إلى جنوب شرق آسيا، لكنهم لم يبدأوا في الهجرة بأعداد كبيرة إلا بعد العام 1870. وفي جنوب الصين طوّر رواد الأعمال تجارة سميت «تجارة الكولي» كانوا فيها يقدمون المال لنقل المهاجرين الراغبين - وغير الراغبين- ثم يبيعون دين المهاجرين لأصحاب المزارع ومشغّلي المناجم في جنوب شرق آسيا بالدرجة الأولى. ذهب معظم هؤلاء إلى مناجم القصدير ومزارع المطاط في شبه جزيرة الملايو (نحو ستة ملايين في الأعوام 1881 - 1914)، وإلى تايلند وإندونيسيا (كانت تسمى حينئذ جزر الهند الشرقية الهولندية)، وإلى المزارع في الفلبين وكوبا وبيرو وهاواي، وإلى المناجم في جنوب أفريقيا(*). ساعد بعضهم في بناء السكك الحديد في غرب الولايات المتحدة وكندا. وإجمالا، فربما هاجر من بين عشرة وخمسة عشر مليون كولي صيني (1830-1914)، كان احتمال عودتهم إلى الوطن أضعف من احتمال عودة الهنود.

حدث كثير من التدفقات الأصغر للعمال غير المهرة في جنوب غرب المحيط الهادي، في الأغلب في شكل عمال ملزمين، إلى مزارع القصب في فيجي وكوينزلاند في أستراليا. وانتقل مئات الآلاف من اليابانيين إلى هاواي والبرازيل وبيرو. وانتقلت بضعة تيارات أصغر من الأفارقة الملزمين إلى الكاريبي في أعقاب إلغاء تجارة العبيد الأطلسية. في كل هذه الهجرات، كان الرجال أكثر من النساء، وكانوا عموما من الشباب.

ثمة تدفق آخر، كان بالأحرى سيلا، غادر أوروبا. كانت هذه الهجرة طوعية تماما في طبيعتها، وإن كان كثيرون منهم قد فرّوا من المجاعة أو التجنيد العسكري

(*) تستخدم الكلمة «كولي» حاليا للازدراء من بعض الآسيويين في جنوب أفريقيا. [المترجم].

أو السجن، مع أن مئات الآلاف غادروا أوروبا إلى السجون في سيبيريا أو أستراليا أو غويانا الفرنسية(*). شمل تدفق العمال الملزمين إلى الكاريبي بضعة آلاف من الأوروبيين، كان معظمهم برتغاليين، وبعضهم نرويجيين وألمانيين. إجمالا، غادر أوروبا ما بين خمسين مليون مهاجر وستين مليونا بين العامين 1840 و1914، ربما عاد ثلثهم إلى أوطانهم. جاء منهم ما بين خمسة ملايين وستة ملايين من أيرلندا التي كانت في العام 1840 تضم ستة وأربعة أعشار مليون نسمة، انخفضوا في العام 1900 إلى ثلاثة وتسعة أعشار مليون فقط، وهي واحدة من الدول القليلة في الأزمان الحديثة التي تكبدت خسارة طويلة المدى في عدد سكانها. هاجر مليون أيرلندي في أثناء المجاعة الكبرى في الأعوام 1845 - 1847 وحدها(**)، وتمثّل الرد الرسمي على المجاعة الأيرلندية في إلغاء التعريفات على الغذاء المستورد، ما فتح بريطانيا أمام الغذاء الرخيص من الخارج ودمر من ثم كثيرا من المزارع في بريطانيا. لذلك أبحر لاحقا ما بين ثلاثة عشر مليون مهاجر وستة عشر مليونا من بريطانيا وأيرلندا بين العامين 1845 و1914. وغادر نحو ستة ملايين ألماني إلى الأمريكتين بين العامين 1820 و1913. وهاجرت أعداد أكبر من جنوب أوروبا وشرقها، بالدرجة الأولى بعد العام 1890، لأن معدلات الخصوبة هناك ظلت عالية حتى العام 1914 وظل التصنيع بطيئا، ولذلك واجه معظم الشباب مستقبلا مظلما في بلادهم. ذهب نحو سبعون في المائة من المهاجرين الأوروبيين إلى الولايات المتحدة. فيما انتقل نحو أربعة ملايين روسي إلى سيبيريا، ونحو أحد عشر مليون إيطالي وإسباني وبرتغالي إلى أمريكا الجنوبية (1824 - 1924)، بالدرجة الأولى إلى الأرجنتين والبرازيل. وفي هذه الأثناء غادر مزيد من البريطانيين والأيرلنديين إلى كندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا.

(*) كما كانت سيبيريا سجن روسيا ومنفاها، وأستراليا سجن إنجلترا ومنفاها، كانت غويانا سجن فرنسا التي كانت ترسل إليها المدانين ليقضوا عقوبتهم في سجن الشيطان Ile du Diable سيئ السمعة. [المترجم].

(**) كانت المجاعة الكبرى Great Hunger أو مجاعة البطاطس الأيرلندية هي الأخرى نتيجة غير مباشرة للعولمة وتكثُّف الشبكة العالمية وإحكام خيوطها، إذ سببها على الأرجح مرض يعرف باسم آفة البطاطس، أتلف محصول البطاطس في كل أوروبا في العقد الخامس من القرن التاسع عشر، لكن تأثيره كان أكبر في أيرلندا التي كان ثلث سكانها يعتمدون كليا على البطاطس في غذائهم. فلولا العولمة والشبكة العالمية، لما انتقلت البطاطس من العالم الجديد إلى القديم، ولما اعتمد عليها الناس في غذائهم إلى هذا الحد، ولما كان تبادل الآفات الزراعية بهذه السرعة وذلك الاتساع. [المترجم].

بلغت هذه الهجرة الضخمة ذروتها في نحو الأعوام 1890 - 1913 لثلاثة أسباب أساسية: أولا، أزالت معظم الدول الأوروبية بين العامين 1815 و1850 كل العقبات القانونية أمام الهجرة. ثانيا، أصبح الانتقال أرخص وأسرع، ومن ذلك أنه في العام 1894 كان في مقدور المرء أن يبحر من أيرلندا إلى الولايات المتحدة في عشرة أيام بتسعة دولارات فقط، وهو ما يعادل أجر أسبوع بالمعدلات الأمريكية. ثالثا، ساءت ظروف المزارعين والفلاحين الأوروبيين؛ ذلك أن القمح الرخيص الآتي من مروج أمريكا الشمالية والأرجنتين أضر بالمنتجين في أوروبا. وإلى تلك المروج نفسها ذهب ملايين الأوروبيين للعمل بالزراعة، ما زاد انخفاض أسعار القمح الأمريكي، واقتلع مزيدا من الأوروبيين من بلادهم. لم يوقف هذه الحلقة غير الحرب العالمية الأولى.

إجمالا، شملت الهجرات الضخمة من الهند والصين وأوروبا بين العامين 1830 و1914 أكثر من مائة مليون إنسان. وهاجرت ملايين أخرى داخل الصين والهند إلى المناطق التخومية مثل منشوريا وآسام Assam، وداخل أوروبا إلى المناطق الصناعية مثل حوض الرور أو سيليزيا(*). أسهمت حركة البشر الهائلة في النمو الاقتصادي العالمي بقوة، لأن الناس أخذوا ينتقلون من أماكن لم يكن عملهم فيها يدرّ كثيرا إلى أخرى كان يدرّ فيها الكثير. غيّرت الهجرة وجه الدول التي استقبلت المهاجرين، إذ جعلت اقتصاداتها الأكثر دينامية في العالم وجعلت مجتمعاتها أكثر تنوعا إثنيا ودينيا. أنتج ذلك في بعض الحالات توترات دائمة لاتزال تربك السياسة حتى اليوم، كما هي الحال في فيجي وماليزيا وسريلانكا. وعملت الهجرة صمام أمان لضغط سكان الأرياف في المجتمعات المرسلة التي كان من الممكن لولا ذلك أن تتعرض لاضطرابات كبيرة.

كانت السلع والمال تنتقل بسهولة أكبر من البشر، مع أننا يجب أن ننظر إلى الأرقام بعين الحذر. ماليا، زادت التجارة العالمية بنحو ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف بين العامين 1870 و1913، وحدث النمو الأسرع بين أمريكا الشمالية وأوروبا الأطلسية. أما النسبة المصدّرة من كل الإنتاج التي ربما كانت اثنين في المائة في العام 1820، فقد بلغت اثنتي عشرة في المائة في العام 1913 (ترفعها بعض التقديرات إلى ثلاث وثلاثين في المائة[16]): من ثماني عشرة في المائة في أمريكا اللاتينية إلى ما بين واحد

(*) سيليزيا Silesia: منطقة في أوروبا الوسطى تقع في معظمها ضمن بولندا وجزئيا في جمهورية التشيك وألمانيا، يجري فيها نهر أودر وتكثر فيها الموارد المعدنية والطبيعية. [المترجم].

وخمس في المائة في شرق آسيا وجنوبها. يفسر انخفاض أسعار الشحن معظم هذه الفورة في التجارة، فضلا على انخفاض التعريفات.

أخذ رأس المال الاستثماري يتدفق بمزيد من الحرية بفضل التلغراف وقاعدة الذهب. فقاعدة الذهب التي استخدمت رسميا في العام 1878 ثبّتت قيمة العملات بالذهب، ما قلّص حالة الالتباس في الاستثمار والتجارة الدوليين. وفي حين كان المستثمرون فقط هم الذين يشتغلون بالاستثمار الأجنبي في السابق، أصبحت البنوك وتجار السندات يحشدون مدخرات المحامين والنادلات لهذه الأغراض. فنما الاستثمار الدولي بنحو خمسة أضعاف أو ستة - وربما ثمانية أضعاف - بين العامين 1870 و1914، جاء أكثر من نصفه من بريطانيا. كانت فرنسا و- بعد العام 1890 - ألمانيا من كبار المصدّرين الآخرين لرأس المال، وفضّل مستثمروهما السندات الحكومية، بالدرجة الأولى من الدول الأوروبية الأخرى. وذهب الاستثمار البريطاني بالدرجة الأولى إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا والأرجنتين. وفي الدول الثلاث الأخيرة شكّل الاستثمار الأجنبي نصف إجمالي الاستثمار، ما يعني أن ازدهارها ونموها اعتمدا بقوة على هذا التدفق. وكان ما تدفق إلى الصين والهند وأفريقيا أقل من ذلك بكثير.

هناك ثلاث نتائج واسعة الانتشار ترتبت على هذه الانتقالات الهائلة للبشر والسلع والمال، التي حدثت بحجم وسرعة أكبر كثيرا مما شهده العالم من قبل. أولا، كانت هذه الانتقالات انعكاسا لسوق عالمي أشد إحكاما، وساعدت كذلك في خلقه. فحدث تقارب لأسعار بعض السلع عبر الأسواق، لاسيما تلك التي جرى تبادلها أكثر مما عداها. وحدث تقارب أكبر لأسعار الفائدة (سعر المال المقترض)، لاسيما في تلك البلاد التي شاركت بدرجة أكبر في تدفق رأس المال. ولأول مرة في التاريخ، أصبحت الأزمات الاقتصادية تعمُّ العالم كله سريعا. فقبل العام 1850 كانت الأزمات الاقتصادية تنتج بالدرجة الأولى من الحصاد السيئ. لكن في العام 1870 طالت موجات الانهيار المالي فورا اقتصادات عشرات الدول، إذ صار النظام المالي العالمي أهم من كل العوامل الأخرى - باستثناء الطقس السيئ - في تلك الأراضي التي تربطها الشبكة. ثانيا، تساعد هذه الانتقالات في تفسير النمو الاقتصادي الأسرع على الإطلاق الذي شهده العالم، بنحو اثنين في المائة أو اثنين ونصف في المائة سنويا

من العام 1870 إلى العام 1913، إذ توسّع إجمالا ضعفين أو ثلاثة أضعاف على مدار هذه العقود، وهو معدل أسرع مرتين أو ثلاثا منه في الخمسين سنة السابقة (1820 - 1870)، وأسرع من ست إلى ثماني مرات منه خلال الفترة 1500 - 1800. أما نمو الاقتصاد العالمي لكل فرد فقد بلغ واحدا وثلاثة أعشار في المائة سنويا أو واحدا وستة أعشار إجمالا (1870-1913)، وارتفعت الدخول أسرع منها في أي وقت سابق، لكن ارتفاعها حدث على نحو متفاوت، إذ تمثّلت النتيجة الكبرى الثالثة لهذه الخفقة من خفقات العولمة الاقتصادية في توسيع شقة التفاوت حول العالم. فقد وصل الازدهار أسرع في المناطق الصناعية وبضع مناطق زراعية خصبة في الولايات المتحدة وكندا والأرجنتين وأستراليا، بينما ظل مراوغا في أماكن أخرى.

ثمة أبعاد ثقافية وبيئية لعولمة أواخر القرن التاسع عشر. فقد ساعدت قوة أوروبا الأطلسية وأمريكا وازدهارهما وثقتهما بإلهام عشرات الآلاف من المبشرين لنشر نسخ من الإنجيل المسيحي حول العالم. حقق هؤلاء النجاح الأكبر في الأماكن التي كان توسّع الشبكة فيها أشد تمزيقا، من بينها على سبيل المثال جزر المحيط الهادي وجنوب أفريقيا وداخل أمريكا الجنوبية. لكنهم نجحوا كذلك في نشر المسيحية بين كثيرين في كوريا والصين. وكما كانت الحال دائما، جاءت المعتقدات الناتجة توفيقية، بل كانت في حقيقتها بمنزلة أديان جديدة يمكن أن نسميها أشكالا أفريقية أو كورية من المسيحية. وأخذت الأديان الأهلية المحلية تختفي، وهي عملية بدأت منذ قرون.

حدث شيء مماثل للغات، إذ اختفى بعض اللغات، بينما انتشر بضع لغات إمبريالية، هي الصينية والعربية والإسبانية والروسية والفرنسية والإنجليزية. انقرضت اللغات المحلية بأسرع ما يكون على التخوم الإمبريالية للعالم: في أستراليا والأمريكتين وسيبيريا وآسيا الوسطى، لكن الشيء نفسه حدث في أوروبا التي انقرضت فيها اللغة المحلية لكورنوال Cornwall الواقعة جنوب غرب إنجلترا خلال القرن التاسع عشر. اختفت اللغات أحيانا بسبب اختفاء متحدثيها، كما حدث في تاسمانيا، لكن اختفاء اللغات حدث طوعا في الأغلب، إذ أخذ الأهل يحثون الأطفال على تعلم اللغة التي تفيدهم في الحياة ولغة القوة والمكانة. وهكذا، فعلى مدار جيلين أو ثلاثة، حلّت اللغات العالمية محل اللغات المحلية. من أدلة ذلك أن

المبشرين الذين تكبدوا مشقة في تعلم اللغات الأصلية لأستراليا ونيو غينيا والأمازون ندموا في الأغلب على الوقت الذي ضيعوه في ترجمة الكتاب المقدس، إذ لم يجدوا أحدا في حاجة إليه بعد أن تحوّل الأهالي إلى لغات المبشرين.

وكما حدث مع الأديان، أنتجت دوّامة البشر والقوة أشكالا جديدة من امتزاج اللغات. فاكتسبت اللغات الإمبريالية كلمات جديدة عندما واجه متحدثوها العالم، فأخذت الإنجليزية مئات الكلمات من الهندية والأردية (مثل pajama [بجامة] و jungle [أجمة])، وكلمات أخرى من اللغات الأميريندية (مثل moccasin [حذاء المقسين] وpawwow [اجتماع]). وأثبتت المناجم والمزارع حول العالم التي حشد فيها أناس من كثير من البلاد للعمل معا، أنها بوتقة للغات جديدة تماما تسمى اللغات المبسطة pidgins، وهي لغات ذات قواعد بسيطة خلقها الأفراد الذين وضعوا معا بلا لغة مشتركة بينهم. أخذت معظم اللغات المبسطة في العالم الحديث مفرداتها بالدرجة الأولى من البرتغالية أو الإنجليزية. ثم جاء الأطفال الذين نشأوا على سماع اللغة المبسطة بوصفها لغة أولى وأعطوها قواعد ووسّعوا ثراءها ومرونتها، ما حوّلها إلى لغة «كريولية»(*). يحتوي الكاريبي بسبب تاريخ هجرة العمال إليه من جهات كثيرة، ما بين خمس وعشرين لغة وثلاثين لغة كريولية، تشكّل معظمها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مع أنها لاتزال تتطوّر مثل كل اللغات الأخرى. وفي حالة نادرة، تحوّلت إحدى اللغات الكريولية إلى لغة إمبريالة، هي اللغة السواحلية التي ابتكرت كلغة مبسطة بين التجار على ساحل شرق أفريقيا وأصبحت لغة كريولية غنية، وتوسّعت خلال القرن التاسع عشر في الداخل الأفريقي إلى منطقة البحيرات العظمى بفضل نجاح التجار السواحليين. أذهلت سرعة العولمة بعض المراقبين الإنسانيين إلى درجة جعلتهم يذهبون إلى أن العالم يحتاج إلى لغة دولية جديدة، فابتكروا عدة لغات، كان من أكثرها نجاحا لغة الإسبرانتو Esperanto، التي ابتكرها طبيب عيون يهودي بولندي في العام 1887،

(*) الكريولية Creole: واحدة من لغات مبسطة تكوّنت من هجين من لغات مختلفة تحوّلت لاحقا إلى لغات قائمة بذاتها حين تعلمها الأطفال كلغة أولى، ظهرت في مناطق العالم التي تعايشت فيها جماعات من خلفيات لغوية وثقافية مختلفة، من أبرزها مجتمعات العبيد في الأمريكتين وجزر الكاريبي. وتشير الكريلة أو التكريل crealization عموما إلى الامتزاج بين الثقافات والاستيعاب والاندماج والانغمار الثقافي. [المترجم].

يقال إن مليون إنسان يتحدثونها حاليا. إجمالا، انخفض عدد الأديان واللغات في العالم، إذ تراجع التنوع الثقافي للعالم بمعدل أسرع من أي وقت سابق.

التغير البيئي

أدى توسُّع الشبكة وإحكام خيوطها وتيارات الهجرة والتجارة والاستثمار العالمية إلى عرقلة الترتيبات البيئية في كل مكان، وتدميرها أحيانا. فالتصنيع باستخدامه المكثف للفحم، سبب تلوث الهواء في الحضر بكثافة غير مسبوقة، واشتهر ضباب لندن بصفرته وحمضيته الناتجة من إحراق الفحم، ما جعل المشاة تزل أقدامهم في نهر التيمز في العام 1873 بسبب كثافة الضباب الشديدة، وسبب موت نحو ثلاثة آلاف إنسان في لندن في العامين 1879 - 1880 بسبب أمراض الرئة في أثناء حصار الضباب. وسبب تلوث الهواء مرض الملايين وموتهم في المدن الصناعية في أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان.

كانت الثورة الصناعية وعدد السكان المتنامي في حاجة إلى مزيد من الألياف والغذاء من المزارع والحقول حول العالم. وبين العامين 1750 و1910 تضاعفت المساحة المزروعة ثلاثة أضعاف تقريبا، وحدثت أسرع التوسُّعات في أمريكا الشمالية وروسيا وجنوب شرق آسيا. وتضاعفت مساحة المراعي أكثر من ثلاثة أضعاف في الفترة نفسها، وحدث نموها الأسرع في الأمريكتين وأفريقيا وأستراليا. وتقلّصت غابات العالم بنحو عشرة في المائة، بالدرجة الأولى في أمريكا الشمالية، وتقلّص الفضاء والمواد المغذية المتاحة للمخلوقات البرية. كان الجميع في ذلك الوقت يعتبرون هذه التغييرات مفيدة، وقد عمل ملايين البشر بمشقة لإنجازها.

لكن حتى تحويل هذه المساحات الهائلة إلى أراض للمحاصيل والمراعي لم يكن كافيا لزراعة كل الغذاء والقطن المطلوبين. ولكي تدرّ التربة مزيدا من الغلة، أخذ الناس في الأراضي الجافة يتحوّلون أكثر وأكثر إلى الري. وشجعت الإمبراطوريات الأوروبية ذلك، فشيَّد الاستثمار البريطاني والسواعد الهندية نظم ري ضخمة في الهند، وشيَّد الروس نظما ضخمة في آسيا الوسطى. وقام التوسُّع في الغرب الأمريكي على إدخال الري إلى الأراضي الجافة على السهول المرتفعة وفي كاليفورنيا، وهو الأمر نفسه الذي فعله التحرك الصيني إلى التخوم في سنجان ومنغوليا. شجع النمو

السكاني وتحسُّن شبكات النقل إعادة تنظيم المجاري المائية في كل مكان لا تستطيع الزراعة على المطر أن تزدهر فيه.

كما أسهمت الشبكة محكمة الربط في نقل النباتات والحيوانات والأمراض حول العالم، وإن لم يكن بالنتائج الثورية التي أحدثها ذلك في أعقاب كولومبوس. فواصلت المحاصيل الغذائية الأمريكية انتشارها عبر أفريقيا وأوراسيا. من ذلك أن واحدا من كل ثلاثة نباتات كانت تزرع في تنزانيا في أواخر القرن التاسع عشر كان أمريكي الأصل. ربما كانت الذرة الأقوى تأثيرا في الصين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وفي الوقت عينه وسَّعت المحاصيل الغذائية الآتية من العالم القديم استعمارها للأمريكتين، ومن أهمها القمح على السهول والمروج السابقة. واستأنف التبادل الكولومبي جَلب الكائنات المُمرِضة من العالم القديم إلى جماعات جديدة من الأميرينديين على امتداد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ووقعت اختلالات كبرى في أوقيانوسيا وأسترالاسيا اللتين شهدتا بعد العام 1750 النتائج الكارثية عينها التي تنتج من جلب أمراض جديدة إلى أناس ذوي جهاز مناعي غير مختبر، وأعادت الماشية فيهما تشكيل التربة والحياة النباتية، لاسيما في نيوزيلندا وأستراليا. وتحوَّلت الأنواع الحيوانية التي أقحمت في هذه البيئات - مثل الأرنب في أستراليا - إلى حيوانات برية، فأخذت تقضم النباتات إلى الحد الذي أدخل المخلوقات المحلية في حالة مجاعة. وسبَّب التنافس والافتراس من جانب القادمين الجدد انقراض مئات الأنواع المحلية في أستراليا ونيوزيلندا وجزر المحيط الهادي.

جلب النقل الأسرع والهجرة الضخمة أمراضا جديدة حتى للجماعات ذات الجهاز المناعي المختبر. ينطبق ذلك على الكوليرا، ذلك المرض سريع الفتك الذي كان موجودا منذ وقت طويل في جنوب آسيا لكنه لم يكن ينتقل على نطاق واسع مكانيا، جزئيا لأنه يقعد ضحاياه ويقتلهم قبل أن ينتقلوا بعيدا، لكنه مع تحسُّن النقل، أخذ يرافق الحجاج المسلمين إلى مكة بانتظام. ووصل أوروبا أول مرة خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر مع تحركات الجنود، وهناك انتشر لاحقا عدة مرات. وأصبح السل مرضا مؤثرا حول العالم بعد نحو العام 1820، وكان من المعتاد أن يحمل الأفراد عدوى السل من دون أن تظهر عليهم أعراضه، لكن عندما يُضْعِف سوء التغذية مقاومتهم، كما كانت الحال دائما بين أفراد الطبقة العاملة الصناعية،

فإن المرض كان يغلبهم أحيانا. وكما فعل كثير من الأمراض المعدية، أحدث السل دمارا كبيرا بين الشعوب التي لم تتعرض له من قبل، فقتل الملايين في المحيط الهادي وفي داخل الأمريكتين وفي جنوب أفريقيا.

دفعت الخسائر الكبيرة الناتجة عن الكوليرا والتيفود وغيرها من الأمراض المنقولة عن طريق الماء، باحثين طبيين- أولا في بريطانيا خلال العقد الخامس من القرن التاسع عشر- إلى الكشف عن وسائل انتقال بعض هذه الأمراض المعدية. واتضح في النهاية أن الفصل الدائم بين ماء الشرب وماء الصرف يمكن أن يحدث فرقا كبيرا. تلت ذلك «ثورة إصحاحية»، بالدرجة الأولى في شمال أوروبا وأمريكا الشمالية وبعض المستعمرات الأوروبية حول العالم التي نالت المدن فيها نظما للصرف الصحي ومياه الشرب النظيفة. وبين العامين 1880 و1910 غدت الحياة الحضرية أكثر أمنا بكثير بفضل محطات ترشيح المياه. وأينما شيدت البلديات هذه المحطات، أصبحت متوسطات الأعمار المتوقعة لسكان الحضر أطول من رفاقهم الريفيين، ولأول مرة منذ ظهورها قبل خمسة آلاف عام، لم تعد المدن ثقوبا سوداء سكانيا، ما عزز هيمنتها السياسية والثقافية على المناطق الريفية خلال القرن العشرين.

خاتمة: ما قبل الانفجار

ساعد إحكام خيوط الشبكة بين العامين 1750 و1914 في إطلاق ونشر الانفجار السكاني والسياسة النيابية والهويات القومية والتصنيع. جاء انتشار كل هذه الاتجاهات متفاوتا، ما ولد توترات كبرى داخل المجتمعات وبينها. فتصدعت القيود القديمة والنظم القديمة، ولم تحل محلها نظم جديدة مستقرة، بل حلت البلبلة والالتباس، وحتى اليوم لم يسلم العالم تماما من الفورانات التي بدأت خلال القرن الثامن عشر.

كان من الممكن للمرء في لندن أو باريس أن يجزم في العام 1910 بأن العالم مكان منظم، تهيمن عليه إمبراطوريات قوية لا ريب في أنها ستبقى قرونا، وتعمه تجارة حرة بين الأمم، ويدعم علما يخدم المصلحة العامة، ويتألف من رجال مسؤولين بحزم عن عائلاتهم، وما إلى ذلك. لكن ذلك لم يكن إلا وهما من منظور الناس في بكين أو المكسيك، وهو ما تأكد للجميع مع المسار الذي اتخذته الأحداث بعد العام 1914.

أنتجت التحوُّلات الواسعة التي حدثت في الفترة بين العامين 1750 و1914 توترات وأوجه ضعف شديدة حول العالم. فقد حمّلت البشرية نفسها - من دون وعي- التزامات جديدة على أسس غير راسخة. فاستلزم النمو السكاني والحضري العالميان صيانة الزراعة التجارية وتوسيعها، في وقت كانت بعض الجماعات والأمم فيه لا تملك ما يكفيها من أرض وماء. وتطلب الازدهار الذي حققته العولمة الاقتصادية الحفاظ على الهجرة الحرة للبشر ورأس المال والسلع، إن لم يكن توسيعها أيضا، لكن هذا النظام لم يكن منسجما مع المشاعر القومية. وكان الاقتصاد الجديد الغني بالطاقة في حاجة إلى مزيد ومزيد من الوقود الأحفوري الذي كان مبعثرا حول العالم على نحو متفاوت. واستلزمت التفاوتات الكبيرة في الثروة والقوة إما أن تظل الجماعات الأقل حظا في جهل بواقعها، وإما أن يتقبلوا مصيرهم طوعا، وإما أن يجبروا على قبوله. ومن خلال النظر إلى الأحداث بعد انقضائها، يمكننا القول إن العالم في بداية القرن العشرين كان بمنزلة علبة قدح كبيرة كان كثير من الناس بداخلها يحملون مشاعل موقدة. •

8

الضغوط على الشبكة:
العالم منذ العام 1890

«كما قامت الدول قديما على التحالف بين العرش والمذبح، ولم يكن بمقدورها أن تبقى لولا كبار الكهنة، فإن الدول الحديثة أصبحت تعتمد على التحالف بين الوزارة ومجلس الإدارة والحكومة والشركات، إذ أخذ الاقتصاديون دور كبار الكهنة»

في ربيع العام 1930 خرج منقب أسترالي عن الذهب يدعى ميك ليهي Mick Leahy في مغامرة إلى المرتفعات الداخلية في نيو غينيا. ومع أن الرجل لم يجد إلدورادو التي خرج باحثا عنها(*)، فإنه اختتم فصلا طويلا في التاريخ الإنساني. كانت مرتفعات نيو غينيا موطنا لعشرات الآلاف من الناس، كانوا في معظمهم مزارعين يمارسون زراعة الكفاف ويعيشون في عزلة شبه تامة عن بقية البشر، وكان أسلافهم يزرعون المرتفعات الخصبة منذ نحو تسعة

(*) إلدورادو El Dorado (بمعنى «الرجل الذهبي»): زعيم أسطوري لشعب مويسكا الهندي بكولومبيا الحالية كان يغطي نفسه بمسحوق الذهب، ولاحقا تحوّل اسم الأسطورة إلى «مدينة الذهب المفقودة» التي سحرت المستكشفين منذ زمن المستعمرين الإسبان الأوائل. [المترجم].

آلاف سنة. وخلال العقود التالية للعام 1930 أدخل منقبون ومبشرون وموظفون استعماريون وتجار وعلماء أنثروبولوجيا وغيرهم سكان المرتفعات في اتصال منتظم ودائم مع العالم الخارجي. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي انضمت فيها جماعة كبيرة من البشر إلى الشبكة العالمية، ومنذ ذلك الحين أخذت الشبكة تزداد سرعة وإحكاما، لكن من دون أن تضم أراضي جديدة أو جماعات جديدة.

وفي حين تسارع الاندماج ضمن الشبكة خلال القرن العشرين بفعل التقنية وغيرها من القوى الدافعة الأخرى، سببت السياسة أحيانا التفكك. وبوجه عام، فإن خفقة العولمة التي تلت العام 1870 انتهت مع اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام 1914، إذ تراجعت الهجرة والتجارة وتدفقات رأس المال الدولية، ثم تعافت جزئيا بعد الحرب، ثم تراجعت مرة ثانية. ولم يتجمع الزخم لاندماج اقتصادات العالم ومجتمعاته مجددا إلا خلال حرب كبرى أخرى، هي الحرب العالمية الثانية. وجاء صعود الولايات المتحدة إلى الصدارة الاقتصادية والعسكرية العالمية بعد العام 1945 ليجعل العولمة تبدو كأنها أمركة. وكما كانت الحال دائما، أدت عملية إحكام خيوط الشبكة العالمية إلى إعادة خلط حظوظ الدول والجماعات والأفراد، ما أنتج إحباطات وتفاوتات وتوترات جديدة، وكذلك أشكال ترف وحريات جديدة لنحو ربع البشر تقريبا.

الاتصال والأفكار

ساعدت التحوُّلات التقنية الكبرى في الاتصال والنقل خلال القرن التاسع عشر- البواخر والسكك الحديدية والتلغراف - في ربط العالم معا بمزيد من الإحكام، لكن ظلت هناك جوانب بعينها من الحياة لم يمسسها التغيير. يتمثّل التميّز الأكبر لتقنيات النقل والاتصال التي شكّلت القرن العشرين - الهاتف والراديو والتلفزيون والسينما والسيارة والطائرة والإنترنت - في أنها غيّرت الحياة اليومية لمليارات الناس، ما أدى إلى توسيع مدى خبرتهم ووصولهم إلى المعلومات. دعمت هذه التقنيات الجديدة المساواة أمام انتقال المعلومات في الدول المزدهرة، وساعدت حتى العام 1950 في تضييق الفجوات بين الأغنياء والفقراء داخلها. لكنها في الوقت نفسه، نتيجة لأنها منحت الثروة والقوة لأولئك الذين استخدموها من دون غيرهم،

ساعدت في توسيع الفجوة بين الأغنياء والفقراء حول العالم. من ذلك أن نحو ستين في المائة من سكان أمريكا ونحو خمسة وثلاثين في المائة من سكان كوريا الجنوبية كانوا يستخدمون الإنترنت بانتظام في العام 2000، في مقابل ستة في المائة فقط من سكان البرازيل وأقل من عُشر في المائة من سكان نيجيريا. سنعود إلى هذه المسألة في نهاية هذا الفصل.

إجمالا، حدثت التحوُّلات التقنية على ثلاث موجات. شملت الموجة الأولى الهاتف الذي اخْتُرِع خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر، والسيارة التي اخْتُرِعت خلال العقد الأخير من ذلك القرن، والراديو الذي اخْتُرِع في نحو العام 1900، لكن ثلاثتها جميعا لم تنتشر إلا خلال العقد الثالث من القرن العشرين، وفي الولايات المتحدة بالدرجة الأولى، وبعد ذلك حدث انتشارها حول العالم على نحو متقطع. وحدثت الموجة الثانية خلال العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين، عندما انتشر التلفزيون - اخترع خلال العقد الرابع من القرن العشرين - والطيران التجاري في الولايات المتحدة، وسرعان ما عمّت معظم بقية العالم. وكما في حالة الهاتف والراديو، استخدمت الطائرة أولا في الحروب قبل أن تصبح مفيدة تجاريا. ونشأت الموجة الثالثة ممثلة في أجهزة الحاسوب المُشَبَّكة معا خلال العقد السابع من القرن العشرين، لكنها لم تنتشر إلا إبان أوائل العقد الأخير من القرن العشرين. كانت كل هذه التقنيات الجديدة شبكات، ما يعني أنها كانت بطيئة في الانطلاق، لكن بمجرد وصولها عتبة بعينها، فإنها كانت تنتشر بسرعة كبيرة. فلم يكن من المعقول أن يكون لدى المرء هاتف قبل أن ينتشر الهاتف بين الكثير من الأفراد الآخرين. لكن بعد أن حدث ذلك، صار من غير المعقول عدم امتلاك هاتف. وبالمثل، كان من غير المعقول امتلاك سيارة قبل أن تكون هناك محطات بنزين وطرق ممهدة، لكن بمجرد أن توافرت الأخيرة حتى أثبت امتلاك سيارة أنه إغراء لا يقاوم لكل من يتحمّلون ثمنها. ولذلك فإن هذه التقنيات لم تكد تترسخ حتى غيّرت الحياة اليومية سريعا وزادت كثافة وسرعة النقل ضمن الشبكة العالمية.

تمثّل التأثير التراكمي لكل هذه التغيرات - وغيرها مثل الصحف ذات التوزيع الجماهيري - في تعريض الناس لوابل من المعلومات والانطباعات والأفكار الجديدة، وتمكين مزيد منهم من السفر إلى أماكن أبعد وبسرعة أكبر ولعدد مرات أكثر من

أي وقت سابق. وقد أثبت ذلك أنه مربك ومدوّخ، ومغرٍ كذلك. فدفع الناس إلى افتراض أن ظروفهم ما كان ينبغي لها أن تكون على هذه الحال، بل كان بالإمكان تحسينها من خلال الهجرة أو الثورة أو التعليم أو العمل الشاق، أو حتى الجريمة، وغير ذلك من المبادرات. ومع ظهور الراديو والسينما، وعلى الأخص التلفزيون، بات بمقدور الأميين الجياع أن يلقوا نظرة - سواء كانت دقيقة أو لا - على طريقة حياة الأغنياء. لذلك أطلقت هذه المعلومات - جنبا إلى جنب مع التحضر الهائل - كلا من الطموح والسخط، ما وفّر مجندين محتملين لطيف واسع من الحركات السياسية.

مارست الإذاعة والسينما والتلفزيون تأثيرا مهما آخر كان سياسيا بوضوح، إذ مكّنت المتحدثين المفوهين من الوصول إلى ملايين البشر. فصار بمقدور الخطباء القادرين على بث الحماس أو الغضب أو السلطة بأصواتهم المؤثرة أن يبنوا حركات سياسية واسعة بسهولة غير مسبوقة. كان من بين السياسيين الماهرين في استخدام الإذاعة أدولف هتلر (1889 - 1945) في ألمانيا، وفرانكلين روزفلت (1882 - 1945) في الولايات المتحدة، وجمال عبدالناصر (1918 - 1970) في مصر. بل إن الكثير من السياسيين الناجحين خرجوا من البث الإذاعي والتلفزيوني، كان من أبرزهم إيفا بيرون (1919 - 1952) في الأرجنتين، التي كانت شعبيتها بوصفها ممثلة سينمائية مفيدة لعملها السياسي وعمل زوجها خوان بيرون(*)، والرئيس الأمريكي رونالد ريغان (1909 - 2004) الذي احترف التمثيل وكانت أعماله التلفزيونية الأساس لنجاحه الانتخابي(**). لكن بعد جيل أو نحوه، أصبحت هذه الوسائط أصعب في استغلالها والاستفادة منها، جزئيا لأن المشاهدين صاروا أكثر حنكة، وجزئيا لأن كثيرا من السياسيين صاروا يتقنون المهارات اللازمة، ما أعجز الواحد منهم عن أن يبز كل منافسيه بسهولة. فعند إدخال تقنيات الاتصال الجديدة لأول مرة إلى مجتمع من المجتمعات، فإنها ربما يسّرت التأثير في الجماهير، وساعدت يقينا في تعبئتهم، لكنها

(*) ماريا إيفا دوارتي دي بيرون Maria Eva Duarte de Peron أو إيفا بيرون (1919 - 1952): ممثلة أرجنتينية كانت الزوجة الثانية للرئيس الأرجنتيني خوان بيرون Juan Peron والسيدة الأولى للبلاد من العام 1946 حتى وفاتها في العام 1952. [المترجم].

(**) تاريخ وفاة رونالد ريغان Ronald Reagan من عند المترجم لأن وفاته تالية على صدور الكتاب. قبل عمله السياسي الذي تكلل برئاسة الولايات المتحدة (1981 - 1989) وقبلها حاكما لكاليفورنيا (1967 - 1975)، عمل ريغان مذيعا إذاعيا من العام 1932، ثم ممثلا سينمائيا من العام 1937 وكان أول أفلامه فيلم Love is on the Air. [المترجم].

مع مرور الوقت ربما مارست التأثير العكسي، إذ أعجزت الحكومات عن السيطرة على المعلومات وعلى المواطنين.

الثقافة والدين والعلم

اشتد التنافس في سوق الأفكار بفعل البنية التحتية المعلوماتية الجديدة. من ذلك أنه في العام 1890 لم يكن معظم الصينيين قد سبق لهم أن التقوا أحدا يتبنى رؤى لم تتشكل في السياق الثقافي الصيني، ولم يكن معظم الأيرلنديين قد سبق لهم أن التقوا أحدا ليس مسيحيا وأيرلنديا. ونتيجة لأن معظم الصينيين والأيرلنديين لم يكونوا ملمين بالقراءة، فإن استشرافهم للحياة - إن لم يكن الواحد منهم قد سافر بعيدا - ظل على الأغلب ضيقا وسطحيا ومحكوما بالعادة. ولا ريب في أن بعض الصينيين والأيرلنديين قد تمتعوا بفضول نهم، وأن بعضهم كانوا ملمين بالقراءة، وأن بعضهم سافروا خارج بلادهم. وفي المقابل، كانت المنافسة والصدامات الثقافية هي القاعدة في بعض أجزاء العالم، كما كانت الحال في جنوب أفريقيا التي كانت مشهدا لاحتكاكات يومية بين الهنود والصينيين والزولو والكوسا والتسوانا والخويخوي والسان والأفريكان والبريطانيين، وعشرات من الشعوب الأخرى ذوي اللغات والأديان وأنماط الحياة المختلفة(*). لكن مع انتشار الإذاعة والتلفزيون والإلمام بالقراءة والكتابة والصحف والسينما والسفر بالطائرات، أصبح من غير العادي أن يخوض أغلبية البشر غمار الحياة من دون أن يقابلوا أفكارا وطرق حياة مختلفة تماما. ويمكن القول إن التقنيات الجديدة جعلت العالم أشبه بحالة جنوب أفريقيا، إذ غدا أناس أكثر وأكثر يعايشون التنوع الثقافي أكثر وأكثر.

إن ما فعلته هذه العملية حتى الآن يعد غربلة ثقافية بكل معنى الكلمة، فقد أدت إلى القضاء على الكثير من المنافسين أو تهميشهم وإلى نجاح هائل لقلة صغيرة منهم. عرجنا في الفصل السابع إلى هذه العملية فيما يتعلق باللغات التي استمرت فيها تلك الاتجاهات وتكثفت إلى حد أنه بحلول العام 2000 كانت لغة

(*) تنتمي شعوب الزولو Zulu والكوسا Xhosa والتسوانا Tswana والخويخوي والسان (البوشمن) في معظمها إلى جماعات البانتو، ويعيشون في جنوب أفريقيا في دول مثل جنوب أفريقيا وبتسوانا وناميبيا وأنغولا وزيمبابوي وليسوتو. راجع حاشية سابقة عن جماعات الأفريكان والخويخوي والسان. [المترجم].

واحدة تنقرض كل أسبوعين أو نحوهما، وغدا معظم سكان العالم يتحدثون واحدة من اللغات الخمس عشرة الأولى كلغة أم[1]، في حين كان أكثر من نصف لغات العالم لا يستخدمها غير أقل من عشرة آلاف شخص. وطالت العملية نفسها أنماط اللباس والموسيقى والرياضة والطبخ، إذ أخذت بعض التنويعات المحلية تختفي عندما رأى الناس الفوائد التي تنتج عن تبني المعايير الحضرية أو القومية أو الدولية. وفي الوقت عينه تطوّرت هذه المعايير القومية والدولية، وفي بعض الأحيان أظهرت أو امتصت تأثيرات محلية أصبحت بذلك واسعة الانتشار. فنتيجة لتأثير الراديو - على سبيل المثال - أخذ التنوع المحلي في الموسيقى الشعبية البرازيلية يختفي تماما بداية من العقد الثالث من القرن العشرين، مفسحا المجال لبضعة أنماط قليلة أصبحت قومية، منها موسيقى السامبا samba المميّزة لريو دي جانيرو، التي حققت رواجا على المستوى العالمي وصارت رمزا للبرازيل. ومن خلال الانتشار الدولي للموسيقى الشعبية البريطانية والأمريكية - بالدرجة الأولى - تسللت الإيقاعات المشتقة من موسيقى غرب أفريقيا إلى الموسيقى في اليابان والجزائر وكل مكان تقريبا(*). ونتيجة لتأثير التلفزيون، أصبحت كرة السلة لعبة دولية بعد العقد الثامن من القرن العشرين، متجاوزة أصولها الأمريكية. وتقاربت الأنماط المعمارية حتى صار المطار الجديد أو العمارة المكتبية أو العمارة السكنية الجديدة واحدة الشكل في مانيلا أو مدراس أو مونتريال. وأخذت ثقافة الشباب هذا الميل إلى التماهي إلى أبعد الآماد، فباتت الجوانب غير المكلفة، مثل قبعات البيسبول خلال العقد الأخير من القرن العشرين، منتشرة في كل مكان في مدن العالم.

وبالمثل، حدث تقارب في الثقافة السياسية حول معايير أخذ عددها يتراجع أكثر وأكثر. فمن خلال كل من الإمبريالية والمحاكاة، أصبحت النظم القانونية لبضع دول من أوروبا الغربية والوسطى - تقوم في أغلبها على القانون الروماني - الأساس للنظم القانونية في كل القارات. كانت الشريعة الإسلامية قد انتشرت في كل حدب وصوب

(*) قطعت بعض الأنماط الموسيقية رحلات طويلة مدوّخة في اتجاهات يصعب تتبعها، منها أغاني البلوز blues والهولر holler الزنجية الحزينة المعبرة عن الوحشة في الولايات المتحدة، التي اعتقد في البداية أنها تأثرت بموسيقى الفلامنكو الغجرية من إسبانيا، ثم تأكد أنها تأثرت بموسيقى غرب أفريقيا المسلم، الذي كان ممثلا بين العبيد الأفارقة في الأمريكتين، وأن التشابه بين موسيقى الفلامنكو وأغاني البلوز راجع إلى أن كلا من الغجر وسكان غرب أفريقيا المسلم قد تأثروا بالموسيقى العربية. راجع كتاب «عباد الله». [المترجم].

خلال القرون السابقة، واحتفظت بمكانتها بعد العام 1890، وإن حدث ذلك أحيانا ضمن توليفات مضطربة. فاعتمدت نيجيريا وباكستان - على سبيل المثال - على كل من التقاليد القانونية الإنجليزية والإسلامية. ومع أن النظم القانونية الهجين التي تعد مناظرا بطريقة أو بأخرى للغات الكريولية أسهمت في زيادة تنوع التقاليد القانونية المطبقة، فقد انقرضت التقاليد القانونية المحلية والعشائرية والقَبَلية التي كانت تفتقر إلى المكانة ودعم الدولة. وبالمثل، تراجع تنوع النظم السياسية، ومع أن المشيخات القَبَلية والدول المدينية والاتحادات الرعوية وغيرها من الأشكال السياسية التاريخية الأخرى لم تختفِ تماما، فإن أمثلتها الموجودة باتت أقل عددا وأضعف وجودا. وفي أثناء ذلك، أخذت مجتمعات أكثر وأكثر تتقبل - طائعة أو مكرهة - الإمبراطورية البيروقراطية أو الدولة القومية صيغةً سياسية لها.

وفي عالم الدين، عملت سهولة نقل الأفكار لمصلحة الأديان النقالة وعلى حساب الأديان المحلية. كان على الأديان في كل مكان أن تتكيف مع وسائل الاتصال الجديدة، ومع الشكل الجديد للاقتصاد العالمي، وفي الكثير من الأماكن مع الإمبريالية، وفي كل مكان مع التحضر. لذلك شهدت الفترة التالية للعام 1890 دينامية واضطرابا غير عاديين في الحياة الدينية. فنتيجة لأن الحياة الحضرية بما يميِّزها من غياب المعرفة الشخصية وعدم تجذُّر وآثام واضحة أثارت دائما السعي الديني وراء المعنى والانتماء والأخلاق، فإن الاندفاع المعاصر إلى المدن انطوى على وقت عاصف وخصب كان في انتظار الأديان خلال القرن التالي.

ففي بيرو كان الناس في العام 1900 أمام الاختيار بين الكاثوليكية - بسماتها المحلية بالطبع - والأديان المحلية التي بقيت في الظل طوال الأربعمائة سنة التي كانت فيها أديان الإنكا (نحو 1440 - 1532) أولا ثم الكاثوليكية (نحو 1540 - 1840) الدين الرسمي. وفي العام 1915 أُضيف اختيار ثالث، عندما بدأ البروتستانت الإنجيليون في نشر دينهم في بيرو. ومع التحضر وتحسُّن الرعاية الصحية خسرت الأديان المحلية في المنافسة، لأنها كانت ترتبط بسمات البيئة الطبيعية وتخصصت في فنون المداواة. ووجدت الكاثوليكية نفسها في مواجهة صعبة بعد أن فقدت دعم الدولة خلال القرن التاسع عشر. ونجحت البروتستانتية في الانتشار بين نحو عشرة في المائة من البيروفيين بحلول العام 1995، إذ جذبت رسائلها عن العون المتبادل

والانضباط والعمل الشاق الملايين الذين تركوا قراهم للعيش في مدن الأكواخ المتجهمة التي طوقت ليما وقوسقو وأريكيبا Arequipa. ووجد البروتستانت الإنجيليون أرضا خصبة في دول أمريكية لاتينية أخرى كانت تشهد تحضرا، فصاروا يشكّلون عشرين في المائة من السكان في البرازيل وتشيلي بحلول العام 1990.

وفي أفريقيا أيضا حدثت ثورة في المعتقد بسبب الهجرة إلى المدن والتعرض للأفكار الجديدة وضغوط الإمبريالية، وفقدت الأديان المحلية أتباعها. ففي الفترة الاستعمارية (نحو 1890 - 1960)، ازدهرت المسيحية بدعم من آلاف المبشرين وتشجيع من السلطات الاستعمارية. وازدهر الإسلام، للمفارقة لأنه ليس دين القوة الاستعمارية(*). (ازدهرت المسيحية في كوريا لأسباب مماثلة حين كانت كوريا مستعمرة يابانية وكان دعم الدولة موجّها للبوذية اليابانية)، وأصبح المسلمون الأفارقة أقرب في الشبه إلى التنويعات المهيمنة للإسلام، إذ صار في مقدور الكثير من زعمائهم أن يتلقوا تعليمهم في مراكز علم إسلامية مثل فاس والقاهرة، وغدا بوسع الكثير من المسلمين أن يحجوا إلى مكة. وفي النهاية، جلبت الإذاعة والتلفزيون أصوات المرجعيات الدينية المصرية أو السعودية مباشرة إلى الجماهير. وفي المقابل، أصبحت المسيحية أقل إجماعية في أفريقيا(**)، فلكي تزدهر هناك، كان عليها أن تجتاز بعض المواءمات مع تقديس السلف وتعدد الزوجات والمداواة الطقوسية. كان الأفارقة في حاجة إلى أن يروا في المسيحية شيئا يلبي احتياجاتهم الروحية والمادية. ومثل كل الأديان النقالة الأخرى، كانت المسيحية تحوي رسائل تخاطب حال المظلومين، سواء في الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثالث من الحقبة المشتركة أو في كينيا في العام 1925. لذلك وفّق ملايين الأفارقة المسيحية لكي تناسب ظروفهم، وهي المواءمات التي اعتبرها الكثير من المبشرين الأوروبيين خرافات وسحرا. وبينما تقبل بعض الأفارقة أن يصبحوا أنجليكانيين أو ميثوديين أو كاثوليك

(*) انتشر الإسلام خلال حقبة تجارة العبيد لأنه حظر على أتباعه بيع إخوانهم في الدين على نحو ما جاء في حاشية سابقة. وعلى الرغم من الانتصار اللاحق للاستعمار الغربي الذي قاومته الحركات الإسلامية، فقد أصبح الإسلام في غرب أفريقيا قرينا لمقاومة الحكم الأجنبي وحماية الفلاحين، ما جعله في النهاية الدين الغالب في معظم غرب أفريقيا. راجع كتاب «عباد الله». [المترجم].

(**) وفقا لمعنى «الإجماعية» الوارد في حاشية سابقة، فإن المسيحية عندما تصير أقل إجماعية في مكان ما، فإن ذلك يعني أنها أصبحت أبعد عن العقائد والممارسات الإجماعية لهذا الدين. [المترجم].

إجماعيين، رد غيرهم بتشكيل كنائسهم المستقلة التي يوجد منها اليوم نحو عشرة آلاف كنيسة، منها كنيسة سيمون كيمبانغو Simon Kimbangu (1889 - 1951).

ولد كيمبانغو ابنا لمعالج تقليدي في المنطقة الجنوبية مما كان يعرف حينها باسم الكونغو البلجيكية، وأصبح مُعمَّدا وهو شاب صغير، لكنه فيما يشبه حالة هونغ إكسيوكوان، فشل في امتحانات الكهانة، وسرعان ما سمع صوت المسيح يأمره بأن يخرج شعبه من الغواية والآثام. وفي العام 1921، وهو وقت كانت أفريقيا الوسطى فيها تحاصرها الأوبئة، بدأ كيمبانغو يشتهر كمعالج، وأقلقت شعبيته ومواعظه غير الإجماعية السلطات البلجيكية التي سجنته وحكمت عليه بالإعدام، ثم خفّف الملك البلجيكي الحكم وقضى كيمبانغو بقية حياته في السجن، وقبض على أبرز أتباعه وأودعوا السجن أو المنفى. لكن في البيئة الاستعمارية لم يكن من شأن الاضطهاد إلا أن يرفع مكانة كيمبانغو، إذ رأى أتباعه في حياته تكرارا لحياة المسيح: دعوة إلهية وكهانة في المداواة ووعظ الشعب والاضطهاد من جانب نظام إمبريالي. وفي العام 1969 اعترف المجلس العالمي للكنائس بكنيسة يسوع المسيح على الأرض من خلال النبي سيمون كيمبانغو Church of Jesus Christ on Earth Through the Prophet Simon Kimbangu التي تقول إن لها اليوم نحو أربعة ملايين رعية. وبحلول العقد الأخير من القرن العشرين ضمت أفريقيا نحو ثلاثمائة وخمسين مليون مسيحي، مارس بعضهم العمل التبشيري في أوروبا الأكثر إظلاما، التي انحرفت ملايين الأرواح فيها بعيدا عن المسيحية وكانوا في أمس الحاجة إلى الخلاص.

ولِدت الإمبريالية ردود أفعال دينية متنوعة. فرأى الكثيرون أنه من الحكمة تبني دين الإمبرياليين، كما حدث في أفريقيا، أو في هونغ كونغ التي اعتنق فيها الكثير من الصينيين المسيحية، أو في كوريا التي تبنى بعضهم فيها البوذية في أثناء الاحتلال الياباني. لكن في حالات أخرى كثيرة، لاسيما المسلمين والهندوس، برزت ثلاثة خيارات مختلفة، أولها تحقيق نوع من المواءمة بين المعتقد الديني والعلم والممارسات والعادات التي بدا أنها هي التي أوصلت الإمبرياليين إلى كل هذه القوة. كانت المواءمة أسهل على الهندوسية التي ظلت مائعة في حوافها، لكنها حققت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين اتساقا أكبر- من خلال التضحية

بشيء من التنوع - بفضل تأثير شخصيات مثل المصلح الاجتماعي والديني فيفيكاناندا Vivekananda (1863 - 1902) الذي سعى إلى التوفيق بين العلم والقيم الإنسانية الغربية والتقاليد الفيدية الهندوسية. وتمثّل رد فعل ديني ثانٍ في الرجوع إلى العصر الذهبي للنقاء ورفض كل ما هو جديد وأجنبي، ربما باستثناء تقنيات الاتصال المفيدة، وهو رد الفعل الذي اجتذب المسلمين من أمثال أولئك الذين انضموا إلى جماعة الإخوان المسلمين التي تأسّست في مصر في العام 1928، وأولئك الذين قادوا الثورة الإيرانية في العامين 1979 - 1980، التي أوصلت نظاما دينيا إلى الحكم. وتمثّل مسار ثالث في التخلي عن الدين تماما لمصلحة أيديولوجيات علمانية، كان من أكثرها رواجا القومية والاشتراكية اللتان تمتعتا في بعض الأوقات بجاذبية في كثير من البلدان. فيما يلي نتناول تلك الأيديولوجيات العلمانية والسياسية.

أحدثت الأفكار والمعلومات المنتشرة في أنحاء الشبكة كافة خلال القرن العشرين - جنبا إلى جنب مع ضغوط التحضر والإمبريالية - دوّامة من اعتناق الأديان، والتوفيقية، والأديان والمعتقدات والعبادات الجديدة. تمثّل الاتجاه المهيمن - المتواتر عبر التاريخ العالمي - في القضاء على الأديان المحلية أو تهميشها وانتشار الأديان الكتابية الكبرى إلى أراضٍ جديدة. لكن ظهرت اتجاهات أخرى، من أهمها تراجع المسيحية في أوروبا وأمريكا الشمالية أمام الرؤى العلمانية، وتوافق الكنائس البروتستانتية مع الحركة النسوية بحلول العقد قبل الأخير من القرن العشرين، وتراجع المعتقدات الكونفوشية والبوذية في الصين في عهد النظم القومية والشيوعية.

في خضم هذا الاختلاط، راجت فكرة أن جميع الأديان واحدة في جوهرها. من ذلك أن حركة راماكريشنا Ramakrishna في الهند وجدت مسالك إلى الإلهي في كل الأديان. وقد أذهل أكثر مروّجيها فاعلية – فيفكاناندا - الحضور في البرلمان العالمي للأديان في شيكاغو في العام 1893، حين دعا إلى دين عالمي موحد. ثمة دين آخر يؤكد على الوحدة الأساسية لكل الأديان، هو الدين البهائي، الذي انبثق عن الإسلام الشيعي الإيراني خلال القرن التاسع عشر، واكتسب بضعة ملايين من الأتباع خلال القرن العشرين واتخذ من الإنجليزية لغة له. وحتى الحركة الثيوصوفية بطريقتها

الخرقاء تقدم مثالا آخر لإغراء الوحدة الدينية(*). الجمعية الثيوصوفية التي أسّستها في العام 1875 نبيلة روسية ومحامٍ أمريكي، وقادتها لاحقا امرأة إنجليزية، كانت أعظم تأثيرا في الهند، واشتغلت بالتّنجيم والظواهر الروحية، وأظهرت ميلا جارفا إلى الانشقاق. ولكن الثيوصوفيين وجدوا جوهرا مشتركا في كل الأديان الكبرى ووجدوا وحدة مشتركة لكل البشرية، وتلك نتيجة ملموسة للشبكة العالمية التي كان الثيوصوفيون أيضا من بين ضحاياها.

فمع وصول العلم الحديث، غدت الثيوصوفية والكثير من المعتقدات الصوفية الأخرى تبدو سخيفة. وشكّل العلم الحديث تحديا للأديان الكبرى نفسها، لكنها نجحت عموما في التكيف معه من خلال التنازل عن بضعة جوانب عقائدية مع الاحتفاظ بمعظم أتباعها - فيما عدا أوروبا التي ازدهر فيها الإلحاد - وإن لم تحتفظ بتأثيرها السابق في الحياة العامة.

اجتاز العلم عملية غربلة في بعض جوانبه، ولم ينجُ من التبادل السريع للمعلومات والأفكار خلال القرن العشرين إلا القليل من الأفكار الموثوق بها بشأن أصل الكون ومحتويات أعماق المحيطات وأسباب الأمراض وغيرها، وأخذ أناس أكثر وأكثر يقبلون عددا أقل من الأفكار، وانتهى العلماء المتعلمون إلى قبول مجموعة واحدة من الحقائق، سواء كانوا يقيمون في بوسطن أو برلين أو بومباي أو بكين. أما السبب الأساس وراء ذلك، فكان التبادل العالمي المتنامي للأفكار والبيانات العلمية، إذ أخذت المؤتمرات الدولية والمجلات العلمية تتكاثر منذ العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر، وأخذ العلماء الشباب من أنحاء العالم يتدفقون على أوروبا - ومن ضمنها روسيا - وأمريكا الشمالية للدراسة. كانت قوة أوروبا والولايات المتحدة - وأخيرا اليابان - ومكانتها مؤثرة إلى الحد الذي جعل الأفكار العلمية المنتجة هناك تكتسح العالم.

كانت رؤى العالم العلمية الناشئة تشترك في سمات عدة. أولها أن مناهج العلم التي انبثقت في أوروبا القرن السابع عشر وتؤكد على الملاحظة والتجريب صارت

(*) الثيوصوفية theosophy (تعني «الحكمة الإلهية» إذ يتكوّن المصطلح من الكلمتين اليونانيتين theo [الله] و sophy [الحكمة]): مجموعة من الفلسفات تسعى إلى المعرفة بأسرار الحياة والطبيعة، لاسيما طبيعة الألوهية وأصل الكون والغرض منه، تشكّل جزءا من التقاليد الباطنية الغربية. [المترجم].

المرجعية الموثوق بها حتى في بلاد كانت لها دائما تقاليد علمية مميّزة مثل الصين، وثانيها أن العلم أخذ يتخلى شيئا فشيئا عن مبدأ اللازمنية ويتبنى النماذج التطوُّرية للعالم الطبيعي، وثالثها أن العلم الجيد لا يتأتى بلا ثمن.

أصبحت الجيولوجيا علما تاريخيا صراحة بحلول العقد الرابع من القرن التاسع عشر. وأوضحت أحافير الحيوانات البحرية أن الأماكن المرتفعة والجافة حاليا كانت في السابق محيطات، وأن عمر الأرض يبلغ بالتأكيد ملايين السنين (يقدر علماء الجيولوجيا عمر الأرض حاليا بأربعة مليارات ونصف المليار سنة)، وأن السلاسل الجبلية يبدو أنها نشأت ثم تآكلت ببطء على مدى الدهور. وبحلول العقد السابع من القرن العشرين، غدا علماء الجيولوجيا يقبلون فكرة أن كتلة القارات انجرفت ببطء عبر سطح الأرض، وهي فكرة كانت محل سخرية عندما اقترحت لأول مرة في العام 1915.

وصارت الأحياء هي الأخرى علما تاريخيا بعد أن نشر تشارلز داروين في العام 1859 نظرية التطوُّر بفعل الانتقاء الطبيعي. دفع داروين بأن كل الأنواع انحدرت من أنواع أقدم، وأن كل المخلوقات تعيش في صراع من أجل البقاء ينتقي السمات الأصلح للبقاء في وقت ومكان بعينيهما. كانت أفكار داروين أقوى الفرضيات العلمية وأكثرها ثورية في الأزمان الحديثة، وشكّلت تحديا مباشرا للروايات الدينية لأصل الحياة والبشر. ولهذا السبب، استحثّت آراؤه معارضة قوية، لاسيما من جانب أولئك الذين يعتبرون الكتاب المقدس كلمة الله بالمعنى الحرفي. وأثارت هذه الأفكار عداوة المؤدلجين في الاتحاد السوفييتي، الذين رأوا أن عنصر المصادفة القوي في مخطط داروين - مثل الطفرات العشوائية التي توجه التطوُّر - يتعارض مع القوانين التي اكتشفها ماركس، والتي تؤكد أن التقدم نحو الشيوعية كان ضرورة تاريخية وأن البشر قابلون للكمال. لكن تدريجيا، نالت رؤية داروين - مع بعض التعديلات - قبولا عاما بين أصحاب الخلفية العلمية في العالم.

حدث الافتراق الكبير الآخر في الأحياء في مجال الوراثة، بالدرجة الأولى بعد العام 1950، وقام على التجارب التي أجراها الراهب النمساوي غريغور مندل Gregor Mendel (1822 - 1884) الذي أوضحت أعماله على البازلاء كيف تعمل الوراثة، لكنها لم تحظَ بانتباه حتى العام 1900، عندما انبرى بعده علماء

الوراثة حول العالم في توسيعها وتوصلوا إلى نتائج عملية حول استيلاد المحاصيل. وظلت الطريقة التي تعمل بها الوراثة لغزا إلى أن جاءت أعمال العالمين فرانسيس كريك Francis Crick (1916 - 2004)(*). وجيمس واطسون James Watson (ولد 1928) اللذين قدما خلال العقد السادس من القرن العشرين نموذجا مقنعا للشفرة الوراثية يبيّن بدقة أين وكيف تخزن المعلومات الوراثية في جزيئات الحمض النووي، وهو إنجاز عظيم يؤكد الرؤية الداروينية في الأحياء.

سارت الفيزياء في الطريق نفسه بعد العقد الثالث من القرن العشرين، عندما ذهب المحامي والفلكي الأمريكي إدوين هابل Edwin Hubble (1889 - 1953) إلى أن الكون ليس ثابتا كما كان الفلكيون السابقون يفترضون، بل ينمو. فالنجوم، ومنها شمسنا، لها دورات حياة، وليست عناصر ثابتة ودائمة في السماوات. وبحلول العقد السابع من القرن العشرين أصبح الفلكيون يؤمنون بنظرية الانفجار العظيم، التي تذهب إلى أن الكون ولد قبل نحو اثني عشر مليار سنة من خلال توسُّع فوري من نقطة كثيفة من المادة والطاقة(**). كان علماء الفيزياء قد بدأوا بداية من العقد الأخير من القرن التاسع في بحث العالم الخفي لجزيئات الذرة وما دون الذرة، وهو المسعى الذي تكلل بحلول العقد الخامس من القرن العشرين بإنتاج الأسلحة النووية، وبحلول العقد التالي بظهور محطات الطاقة النووية. وبدلا من لازمنية الفيزياء والفلك وعموميتهما كما فهمهما نيوتن وخلفاؤه، أصبح من المفهوم حاليا أن الظروف على الأرض وفي نظامنا الشمسي ومجرتنا ككل محلية ومؤقتة.

زواج العلم والتقنية

في الوقت الذي اصطبغت العلوم فيه بالصبغة التاريخية، أصبحت أكثر تكلفة وبيروقراطية وارتباطا بالتقنية. على مدار معظم التاريخ الإنساني لم تكن ثمة علاقة تربط العلم بالتقنية، وكانت التغيرات العلمية تؤثر في الأفكار من دون

(*) سنة وفاة فرانسيس كريك غير مذكورة في الكتاب الأجنبي لأنه مات بعد صدوره. [المترجم].

(**) الانفجار العظيم Big Bang: نظرية تفسر نشأة الكون، تفترض أن الكون قد تمدد في البداية من نقطة واحدة قبل نحو 13,8 مليار سنة، عقب انفجار أولي، برد بعده الكون، ما سمح بتكوُّن جزيئات دون الذرة، ثم ذرات لاحقا. واندمجت سحب عملاقة من هذه العناصر البدائية من خلال الجاذبية، مكوِّنة النجوم والمجرات. لكن هذه النظرية لا تفسر الحالة السابقة للكون. [المترجم].

الممارسات، فيما كان التغير التقني يأتي من الحرفيين، وهم أناس لم يتلقوا تعليما علميا، لكنهم تمتعوا بخبرات عملية. لكن ذلك كله بدأ يتغير بحلول العقد السابع من القرن التاسع عشر.

كتب الفيلسوف الإنجليزي ألفريد نورث وايتهيد أن «أعظم اختراع خلال القرن التاسع عشر كان اختراع طريقة الاختراع»[2]. والملاحظة عينها تنطبق بدرجة أكبر على القرن العشرين. بداية من العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر، أخذت القوى العظمى - بالدرجة الأولى ألمانيا وبريطانيا - تتنافس في تطوير أساطيل أقوى، وأخذت تنظم العلماء والمهندسين في فرق تستهدف إنتاج تقنيات عسكرية مفيدة. وتدريجيا، أصبحت المعرفة العلمية مكوِّنا أساسيا للأمن العسكري. وخلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر، أنشأت الشركات الصناعية في ألمانيا والولايات المتحدة معامل بحثية خاصة بها واحتفظت بفرق صغيرة من العلماء مكلَّفين بحل مشكلات بعينها. وأقامت شركات الكيماويات روابط مع الجامعات، وأخذت تموِّل البحوث وتؤمِّن تدفق خريجين مهرة. ومع توثق انخراط الحكومات والشركات في تمويل العلم، تحوَّل العطش للمعرفة إلى العلم التطبيقي الذي يمكن أن يساعد في النصر في الحروب وتحسين الصحة وتوسيع الثروة. كانت العلوم كلها - البحتة والتطبيقية - في حاجة إلى تقنيات ونظم تعليمية مكلفة، ما أدى إلى ترسيخ المشهد الدولي للعلم الذي تهيمن عليه بضع دول، من أبرزها ألمانيا حتى العقد الرابع من القرن العشرين، ثم الولايات المتحدة فيما بعد.

وبعد الحرب العالمية الثانية، شيَّد الأمريكيون مُجَمَّعا علميا صناعيا عسكريا متناميا وفَّر التنسيق بين جهود البحث والتطوير التي تقوم بها الشركات والجامعات ووزارة الدفاع. كانت بريطانيا تمتلك مُجَمَّعا مماثلا أصغر يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر. وأطلق الاتحاد السوفييتي مشروعا مماثلا تميَّز بسمة إضافية تمثَّلت في إنشاء مدن علمية - سرية في الأغلب - مصممة خصيصا لأغراض البحث والتطوير، كانت تقيم وتعمل فيها جيوش صغيرة من علماء الفيزياء والمهندسين في شبه عزلة عن المجتمع الأوسع. ومع أن الحرب الباردة كانت القوة الدافعة وراء هذه التطوُّرات، فإن نتائج هذه الاستثمارات في العلم والتقنية طالت كل جوانب الحياة. من ذلك أن علماء الكيمياء الصناعية طوَّروا مواد بلاستيكية تنتشر الآن في كل مكان، وخلال

العقد السادس من القرن العشرين أنتجت بحوث فيزياء الجوامد الترانزستور الذي جعل الراديو رخيصا ونقالا، وأنتج علماء الوراثة النباتية سلالات جديدة من القمح والأرز والذرة أمكنها في الظروف المواتية أن تضاعف غلة المحاصيل مرتين أو أربع مرات نحو (1960 - 1980)، ما رفع إمداد الغذاء العالمي بشدة. وتسارع معدل الاختراع والابتكار بفعل المنافسة والتعاون بين الحكومات والجامعات والشركات في دعم جيوش من المهندسين والعلماء، ما جعل العلم أكثر بيروقراطية.

في زمن دارون، كان العلم لايزال مهنة عِلية القوم المتفرغين - الرجال في معظمهم - أو الأكاديميين، وكان كل واحد منهم يعمل منفردا عادة، وإن تواصل بعضهم مع بعض بفضل مكاتب البريد والجمعيات العلمية. وفي العام 1900 كانت الأمتان الأكثر تقدما في العلم - ألمانيا وإنجلترا - تضمان ثمانية آلاف عالم عامل في كل منهما. وبحلول العام 1940 كانت الشركات الأمريكية توظف سبعين ألف عالم في البحوث والتطوير. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية التي فرضت متطلباتها ظهور العلم البيروقراطي الأكثر مأسسة والأوسع نطاقا، ومن أمثلته مشروع القنبلة النووية الذي اشتغل فيه وحده أربعون ألف شخص. كشف نجاح هذه الجهود وغيرها ما يمكن أن يفعله التمويل الوفير والقوة العاملة العلمية، ومنذ ذلك الحين أخذت الحكومات والشركات تموِّل البحث العلمي بسخاء، وإن ظل نصيب كبير من هذا البحث يرتبط بالمشروعات العسكرية. وبحلول العام 1980 كانت الولايات المتحدة تزهو بأكثر من مليون عالم، وكانت أوروبا الغربية تمتلك أكثر من ذلك العدد. وفي حين كان داعمو هؤلاء العلماء مستعدين للإنفاق على قدر صغير من العلم البحت - مثل البحث المتجرد حول مصير الديناصورات - فإن بغيتهم كانت العلم التطبيقي الذي كان من شأنه أن يساعد في صنع مصيدة فئران أو - بعد ظهور التقنية الأحيائية خلال العقد قبل الأخير من القرن العشرين - في إنتاج فأر محسَّن. خلاصة القول أنه ما كان للعلم أن يتقدم لولا رعاية الدولة، وكذلك تأكد شيئا فشيئا أن الدولة لا يمكن أن تتقدم لولا الثمار التقنية للعلم.

انتزع العلم الحديث شيئا من المرجعية التي كانت للأديان في السابق، إذ بدا أنه يقدم إجابات معقولة عن بعض التساؤلات الكونية، على رغم أنه لم يساعد في التساؤلات الأخلاقية. ونال العلم مكانة أكبر عندما أصبح أكثر ارتباطا بالابتكار

التقني والتقدم الطبي. وباتت كل النظم التعليمية في العالم تضَمِّن مناهج العلم ونتائجه بين الأشياء التي يجب أن يتعلمها الأطفال. لكن العلم لا يستطيع أن يجيب عن كل شيء، ما ترك مجالا للأديان لتعديل رسائلها، فأخذ الكثير منها في النهاية يقبل نسخة معدلة من الداروينية، وأجرى المؤمنون بالأديان مواءماتهم الخاصة مع العلم الحديث، ومنها مثلا أنهم صاروا ينظرون إلى الانفجار العظيم باعتباره نسخة من الخلق الإلهي. ولم تبقَ غير قلة صغيرة من المؤمنين ترفض نظرية الانفجار العظيم رفضا مطلقا.

أخيرا، نشر التقدم العلمي والتقني خلال القرن العشرين شعورا عاما بالقلق والريبة، لاسيما في المجتمعات التي شهدت أشد التحوُّلات بسبب هذا التقدم. وفي حين ذهب العالم النيوزيلندي الكبير إيرنست رذرفورد Earnest Rutherford في بداية القرن إلى أنه يمكن شرح الفيزياء المفيدة كلها لنادلة بسيطة في حانة، فإن أحدا من أترابه بعد مائة سنة لم يكن بمقدوره أن يزعم ذلك، إذ غدت الفيزياء وعلم الوراثة على وجه الخصوص فوق الفهم العامي. حتى غير المتدينين وجدوا بعض جوانب الفيزياء النووية أو التدخل الوراثي مقيتة أخلاقيا أو سياسيا، وهو اتجاه عمقه أحيانا عدم اكتراث بعض العلماء بالنتائج الاجتماعية لأعمالهم. لكن حتى المرتابين كانوا معتمدين تماما على الأداء السلس للنظم التقنية المعقدة والعمل المتواصل لكادر نخبوي من المتخصصين المهرة.

السكان والتحضر

يعد التاريخ السكاني أحد أكثر سمات القرن العشرين بهاء، وكان في جوهره قصة انفجار ثم ركود جزئي مارس فيها العلم والتغير الاجتماعي أدوارا أساسية. ففي العام 1900 كانت الأرض توفر أسباب الحياة لنحو واحد وستة أعشار مليار إنسان، كان زهاء خمسهم في الصين. وبحلول العام 2000، تضاعف هذا العدد أربعة أضعاف إلى ستة مليارات نسمة (لاتزال الصين تشكِّل خمسهم والهند سدسهم). لم يحدث شيء من هذا القبيل من قبل، ولن يحدث مستقبلا. حدثت هذه الفورة بعد العام 1950، وبلغ معدل النمو السكاني العالمي ذروته في نحو العام 1970 بمعدل اثنين في المائة سنويا، ثم أخذ يتراجع على نحو متقطع منذ ذلك الحين، ويتوقع علماء السكان

أنه سيواصل التراجع إلى معدل الصفر بحلول العام 2050 أو العام 2070. أما ما قد يحدث بعد ذلك فمتروك لخيال كل إنسان.

كان انتشار إجراءات السيطرة الناجحة على الموت بين معظم سكان المعمورة السبب الرئيس وراء هذا الانفجار السكاني المتفرد. فقبل العام 1914 كانت نظم الصحة العامة الفعالة غير موجودة إلا في بضع مناطق. لكن بعد العام 1950 أسهمت التطعيمات والمضادات الحيوية وإجراءات الإصحاح، وهي ثمار عقود من البحث العلمي، في خفض معدلات الوفيات في كل مكان. أما متوسط العمر المتوقع عند الولادة، الذي كان على المستوى العالمي أقل من ثلاثين سنة في العام 1800 ونحو خمس وثلاثين سنة في العام 1900، فقد وصل إلى خمس وأربعين سنة في العام 1950، ثم سبع وستين سنة في العام 2000. كان ذلك تغيرا جذريا في الحالة الإنسانية. ويمكن لليابانيين، وهم الشعب الأطول عمرا على الأرض حاليا، أن يتوقعوا أن يعيشوا حياة ضعف حياة جيل آباء أجدادهم. حتى أدنى شعب في طول العمر المتوقع، وهم السيراليونيون، يتمتعون بعشرين سنة أطول من أعمار أسلافهم في العام 1900. حدث معظم التقدم في السيطرة على الموت على المستوى العالمي بين العامين 1945 و1965. وإلى أن انخفضت معدلات المواليد هي الأخرى، وهو ما حدث في كل مكان، أخذ السكان ينمون بنحو أربعة في المائة سنويا في بعض دول أفريقيا وأمريكا الوسطى، وهو معدل كبير كان يكفي لمضاعفة عدد سكانها في ستة عشر عاما. وفي بعض الدول، لم يستغرق الانتقال من معدلات المواليد والوفيات العالية إلى معدلات منخفضة أكثر من عشرين عاما، ما أدى إلى قفزة صغيرة في إجمالي عدد السكان. أنجزت كوريا الجنوبية وتايوان وتايلند ذلك بعد العام 1960، لذلك أصبحت بالتالي غنية نسبيا في وقت قياسي.

ساعد العلم في تنظيم النسل، تماما كما ساعد في السيطرة على الموت. أصبحت حبوب منع الحمل متاحة لأول مرة في العام 1960، بعد أن جاء ابتكارها مصادفة كإحدى نتائج الشبكة العالمية، إذ اعتمدت على مادة أولية كيميائية مأخوذة من نبات اليام المكسيكي كانت تستخدم في السابق سما للأسماك، وجاء تمويل الحبوب الأولى بالدرجة الأولى من سيدات أمريكيات ثريات، واشتغل بالبحث عليها علماء يهود من أوروبا الوسطى ممن هربوا من النازية إلى المكسيك. وفي العام 1995 كان زهاء مائتي مليون امرأة حول العالم قد استخدمن حبوب منع الحمل.

لم تؤثر المذابح البشرية الضخمة خلال القرن العشرين بشدة في الاتجاهات السكانية. فإذا جمعنا عدد كل الوفيات غير الطبيعية الناتجة عن الحروب والإبادة الجماعية وحملات الإرهاب من جانب الدول والمجاعات الناتجة عن الفعل البشري، فإن مجموعها يصل إلى ما بين مائة وثمانين مليونا ومائة وتسعين مليونا، وهو ما يُشكِّل نحو أربعة في المائة من إجمالي الوفيات خلال القرن العشرين[3]. معنى ذلك أن تسارع معدلات الموت لأسباب سياسية لم يضاهِ تباطؤ الموت بفضل إجراءات الصحة العامة وتحسُّن التغذية.

بيد أن التفاوت في معدلات النمو السكاني الذي كان مهما خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ظل معرقِلا بعد العام 1890. فقد ظلت الخصوبة عالية في أوروبا الشرقية حتى العام 1914، ما تسبب في توترات متصاعدة داخل الإمبراطوريتين الروسية والنمساوية، على الرغم من معدلات الهجرة العالية منهما. لكن ذلك كان صحوة الموت فقط للنمو السكاني السريع في أوروبا. وفي العام 1920 كان معدل الخصوبة قد انخفض بشدة في أنحاء أوروبا كافة، وحدث النمو الأسرع حينها في الهند وأمريكا اللاتينية، وبعد العام 1930 أو نحوه في أفريقيا. وفي حين أخذت الهجرة من أوروبا في العام 1900 نحو ثلث الزيادة الطبيعية، فإن الهجرة لم تسهم بدرجة ملحوظة في خفض الضغوط في الهند والصين وأمريكا اللاتينية وأفريقيا. وبدلا من ذلك دفع النمو السكاني اضطرابا سياسيا وتحضرا وجهودا حكومية مستميتة للتصنيع بين عشية وضحاها. وقد كان التاريخ السكاني لأفريقيا أشد تطرفا، إذ تضاعف السكان ستة أضعاف أو سبعة لنحو سبعمائة وخمسين مليونا في قرن واحد.

دفعت الضغوط والمخاوف الناتجة عن النمو السكاني السريع الدول إلى اجتراح سياسات سكانية. لم يكن الحكام في الماضي يكترثون عادة بعدد السكان، وإن فعلوا، فإن موقفهم كان بسيطا، وهو أنه كلما زاد عدد السكان كان ذلك أفضل. واستمر هذا الموقف خلال القرن العشرين، لاسيما بين الحكام المستبدين الذين كانوا في حاجة إلى مزيد من الرجال لتشغيل المدافع ومزيد من النساء لتربية الأطفال. من ذلك أن هتلر وستالين كانا يكافآن الوَلود من النساء بأوسمة الدولة. لكن بعد العام 1950، استحثَّت معدلات النمو السكاني التي بدت مرتفعة جهودا مشتركة

لخفضها. وقد نُفِّذت أهم الجهود لكبح النمو السكاني في البلدين الأكثر سكانا في العالم: الهند والصين. ففي العام 1952، أخذت الهند التي استقلت بعد العام 1947، تشجع المواطنين على تنظيم حجم الأسرة، وخلال العقد الثامن من القرن العشرين، وضعت الهند معدل الخصوبة - خمسة وعشرين لكل ألف - ضمن أهداف خطتها الخمسية، وحاولت في العام 1976 أن تفرض التعقيم الإلزامي على من أنجبوا ثلاثة أطفال. لكن ذلك الإجراء لم يلقَ قبولا عاما، ولم تحقق الجهود الحكومية لضبط الزيادة السكانية إلا نتائج متواضعة. وبحلول العقد الأخير من القرن العشرين، كانت الهند قد خفَّضت معدل خصوبتها الإجمالي بنحو الثلث عن مستواه في العام 1952، ومع ذلك فقد ازداد عدد سكانها لأكثر من الضعف في أربعين سنة، وكان متوقعا أن تتخطى الصين بوصفها الدولة الأكثر سكانا في العالم إبان أوائل القرن الحادي والعشرين.

لم تتبنَّ الدولة في الصين الحد من الزيادة السكانية كسياسة مستدامة إلا بعد موت ماو تسي تونغ (1893 - 1976) الذي كان رأيه عادة - وليس دائما - أن عدد الصينيين ليس كبيرا. وبعد خطوات تجريبية نحو سياسة مستدامة إبان أوائل العقد الثامن من القرن العشرين، فرض خلفاء ماو في العام 1979 حصة طفل واحد لكل أسرة على معظم البلاد، مع استخدام حوافز وعقوبات كافية لتغيير معدل الخصوبة تماما. وبفضل قوة الدولة الصينية والتحضر السريع في الصين، وربما أيضا التاريخ الطويل للسيطرة على الخصوبة في الأسر الصينية، حققت سياسة الحصة نجاحا رائعا، إذ انخفض معدل الخصوبة في الصين بين العامين 1970 و2000 بنحو الثلثين، ما جعل النمو السكاني في مستوى الإحلال فقط، وهو أسرع معدل لخفض النمو السكاني في تاريخ العالم. وبحلول منتصف العقد قبل الأخير من القرن العشرين، كان أربعة وتسعون في المائة من البشر يعيشون في دول تتبع سياسات الحد من الزيادة السكانية، لكن الصين وحدها هي التي وضعتها بندا رئيسا ضمن الأيديولوجيا القومية.

على الجانب الآخر شهد عدد قليل من الدول تراجعا سكانيا، ولذلك اتبعت سياسة معاكسة بتقديم الحوافز للحمل والإنجاب، على نحو ما فعل هتلر وستالين. كانت فرنسا تقدم علاوات لكل طفل بداية من العام 1939، وهو ما فعلته عدة

دول أوروبية أخرى بداية من العقد الثامن من القرن العشرين، واليابان بداية من العام 1993، مع أنها لم تثمر نتيجة ملموسة. وحظرت رومانيا الشيوعية كل أشكال تحديد النسل في العام 1965، وجندت شرطتها السرية للتأكد من أن النساء لا يتخلين عن واجبهن التناسلي(*). ضاعفت هذه الإجراءات المتطرفة معدل المواليد في العام 1966، لكن عندما سقط النظام (1989 - 1990)، دخلت الرومانيات في إضراب تناسلي. لقد تأثرت السياسات المحابية للإنجاب سلبا من تشابهها مع برامج النظم الاستبدادية سيئة السمعة في إسبانيا وإيطاليا وألمانيا وروسيا واليابان. لكنها في كل الأحوال كانت تدفع في عكس اتجاه جارف لا يقاوم هو التحضر.

كان النمو الهائل للمدن خاصية أخرى مميّزة للقرن العشرين. ففي العام 1900 كان ما بين اثني عشر وخمسة عشر في المائة من البشر يعيشون في المدن، ازدادوا في العام 1950 إلى نحو ثلاثين في المائة من البشر، ثم في العام 2001 إلى أكثر من نصف البشرية. كان ذلك في الوقت عينه نقطة تحوُّل كبرى في الحالة الإنسانية. فقبل العام 1880، كانت المدن في كل مكان ثقوبا سوداء سكانيا، بالدرجة الأولى بسبب أمراض الأطفال المستوطنة والأوبئة المتكررة. ففي العام 1750 سببت لندن مقتل الأطفال والوافدين الجدد بسرعة كبيرة أكلت نصف الزيادة الطبيعية في إنجلترا كلها. لكن بعد العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر جعلت إجراءات الصحة العامة حياة المدينة أكثر أمانا، أولا من خلال توفير الماء النظيف. من أدلة ذلك أنه بحلول العقد الثالث من القرن العشرين أصبح سكان الحضر الصينيون أطول عمرا من إخوانهم الريفيين. ومنذ ذلك الحين فصاعدا أخذت المدن تنمو أكثر وأكثر بفعل الزيادة الطبيعية والهجرة الداخلية.

شمل زهاء مائتين وخمسة وعشرين مليون إنسان يعيشون في المدن في العام 1900، زادوا في العام 2001 إلى نحو ثلاثة مليارات، أي بزيادة ثلاثة عشر ضعفا. وبوجه عام، حدثت هذه الزيادة في سكان الحضر أولا في أوروبا وشرق أمريكا الشمالية واليابان في أثناء فترات التصنيع نحو (1850 - 1930). وكانت بريطانيا أول

(*) بغرض زيادة عدد السكان أصدر الرئيس الروماني نيكولاي تشاوشيسكو في العام 1966 المرسوم 770 الذي حظر وسائل منع الحمل والإجهاض، وأخذت الشرطة السرية تراقب الصيدليات والعمليات في المستشفيات، وأجبرت النساء على مراجعة أطباء النساء والتوليد مرة شهريا، وأجبرت الحوامل منهن على متابعة حملهن حتى الولادة. [المترجم].

دولة كبيرة صار أكثر من نصف سكانها يعيشون في المدن (1850)، وهي الوضعية التي وصلت إليها ألمانيا في العام 1890، والولايات المتحدة في العام 1920، واليابان في العام 1935، تلاها الاتحاد السوفييتي ومعظم أمريكا اللاتينية التي دفع التصنيع المدعوم من الدولة فيها هذه الهجمة على المدن بين العامين 1930 و1970. وبحلول أوائل العقد السابع من القرن العشرين، وصل كل من الاتحاد السوفييتي وأمريكا اللاتينية - ككل – إلى عتبة الخمسين في المائة الحضرية. وفي الصين، أبقت السياسة المتبعة المواطنين في القرى حتى العام 1980، وبعدها انهال الفلاحون على المدن في أسرع وأكبر عملية تحضر شهدها العالم على الإطلاق، وربما تتجاوز الصين عتبة الخمسين في المائة بين العامين 2005 و2010(*).

أصبحت المدن أكثر عددا وأكبر حجما. وتحوّلت القرى إلى مدن بين عشية وضحاها في المناطق التي اُكتشف فيها الحديد الخام والفحم معا، كما حدث في حوض الرور بألمانيا. وأوجد استيطان التخوم مدنا كبرى، مثل بوينس آيرس وملبورن وشيكاغو التي كان كل منها لا يضم إلا نحو مائة ألف مواطن في العام 1858، ازدادوا إلى أكثر من نصف مليون في العام 1900 (كانت شيكاغو حينئذ خامس أكبر مدينة في العالم بواحد وسبعة أعشار مليون نسمة). وأينما حدث التصنيع في عاصمة الدولة، كان النمو أكبر كثيرا، ومن ذلك أن مكسيكو سيتي كانت تضم ثلث مليون نسمة في العام 1900، ثم نحو خمسة ملايين في العام 1960، ثم ما بين عشرين مليونا وخمسة وعشرين مليونا في العام 2000. وفي العام 2000 كانت المدن العملاقة مثل ساو باولو وشنغهاي والقاهرة ودلهي تسع - كل منها على حدة - عددا من الناس أكبر مما كان العالم كاملا يسعه عندما اخترعت الزراعة لأول مرة، ونحو عدد سكان بريطانيا العظمى في زمن الثورة الصناعية.

شمل تأثير هذا التغير الأساسي في الحالة الإنسانية كل شيء: الأخلاق والدين والهوية والسياسة والتطلعات والتربية والصحة والترفيه وأشياء أخرى كثيرة على نحو لم يتضح كاملا حتى الآن. لقد طوّر البشر تدريجيا في معظم الأماكن طرقا للعيش معا في بيئات قروية كانت كل المعاملات فيها تحدث في سياق لقاءات شخصية،

(*) لقد حدث ذلك فعلا. فبنهاية العام 2015، كان ستة وخمسون في المائة من الصينيين يعيشون في الحضر https:// en.wikipedia.org/wiki/Urbanization_in_China [المترجم].

وكانت سمعة كل إنسان فيها معروفة للآخرين جميعا، وتطوّرت فيها أعراف لكبح النزاع. وفي البيئات الحضرية، تلاشت هذه الأعراف والكوابح، مفسحة المجال للقانون والشرطة والتربية الأخلاقية لكبح السلوك اللصوصي. وانبثقت فسيفساء من المنظمات الاجتماعية لتلبية احتياجات الحياة الحضرية، بداية من عصابات الشوارع إلى الطوائف الدينية إلى جمعيات الأحياء. لكن حتى الآن لم تتوصل أي مدينة إلى نسق أخلاقي مشبع أو طريقة لضمان علاقات اجتماعية سلسة أو مستقرة في البيئات الحضرية.

بيد أن الحياة الحضرية على الرغم من كل ضغوطها، تقدم مزايا كبيرة. من ذلك أن فرص الصعود الاجتماعي والإثارة الأكبر للصغار شكّلت دائما إغراء للمهاجرين. وبدأت المدن بعد العام 1890 توفر إتاحة أفضل للتعليم والرعاية الصحية والماء النظيف والكهرباء. وبعد العام 1950 أصبحت مهارة قيادة السيارة التي تكتسب بسهولة تضمن دخلا معقولا بعيدا عن الأعمال التي تقصم الظهر. وفي الكثير من الدول باتت الحكومات تتخوف من العصيان المدني وتستخدم سلطتها لضمان غذاء رخيص للمدن، أحيانا من خلال تثبيت الأسعار، وأحيانا من خلال مصادرته من الفلاحين. يساعد ذلك كله في تفسير استمرار جاذبية المدن.

كان التحضر السبب الرئيس وراء تراجع النمو السكاني العالمي بعد العام 1970. ففي المدن - التي لا تنتشر فيها عمالة الأطفال على الأقل - يفرض الأطفال تكاليف باهظة على ذويهم خمسة عشر عاما أو عشرين، في حين يكون الأطفال في البيئات الريفية - لاسيما تلك التي يوجد فيها ماعز أو طيور منزلية لرعايتها - مفيدين اقتصاديا من عمر الخامسة أو نحوها. وفي المدن، يزداد احتمال أن تحصل الفتيات على تعليم رسمي، وتميل النساء الأكثر تعليما عموما إلى إنجاب عدد أقل من الأطفال. ولذلك فأينما انتشرت المدن، تخلى الناس خلال جيل أو اثنين عن التأكيد الزراعي المعتاد على الخصوبة، وباتوا ينجبون عددا أقل من الأطفال. تجلّى هذا التحوّل في أوضح صوره في أوروبا الوسطى بعد الحرب العالمية الأولى. ففي نحو العام 1930، كان الفيينيون يتكاثرون ببطء شديد لدرجة أنه لولا الهجرة إلى المدينة لانخفض سكانها بمعدل ثلاثة أرباع خلال الجيل الواحد. ولم يكن البرلينيون أقل إحجاما عن إنجاب الأطفال. وبحلول العقد الثامن من القرن العشرين كان

التحضر - وانتشار عادات المدينة بين سكان الريف - قد انتشر في كل حدب وصوب لدرجة أن خصوبة السكان في ألمانيا واليابان باتت دون مستوى الإحلال[4]. وفي روسيا وأوكرانيا انخفضت معدلات المواليد بعد العام 1980، بينما ارتفعت معدلات الوفيات - لاسيما بين الرجال - ما أدى إلى انخفاض عدد السكان سريعا.

يعني هذا النمط - لو استمر - أن المدينة تستأنف دورها التاريخي كثقب أسود سكانيا. فقبل العام 1880 كانت المدن تلتهم السكان بسبب ارتفاع معدلات الوفيات فيها، وبعد فترة من النمو بالزيادة الطبيعية، بدأت المدن تلتهم السكان ثانية بسبب انخفاض معدلات المواليد فيها. من ذلك أن لندن حاليا - تماما كما كانت في العام 1750 - يمكن أن تنكمش لولا الهجرة إليها (تجتذب لندن منذ العقد السادس من القرن العشرين الكثير من المهاجرين من الكاريبي وجنوب آسيا، وليس من بقية بريطانيا فقط). هل ستنجح الحياة في لاغوس وليما في صد الناس في النهاية عن إنجاب الأطفال كما حدث في لندن؟ وهل ستواصل الظروف الحضرية ممارسة دورها في إثناء الناس عن الإنجاب؟ لا توجد إجابات واضحة. ربما تحدث تطوُّرات غير متوقعة في التقنية الأحيائية على سبيل المثال تغير إجراءات التناسل والحياة الأسرية.

الطاقة والبيئة

كان النجاح المتفرد الذي حققه نوعنا في تسخير الوقود الأحفوري أحد الأسباب الرئيسة لزيادة أعداد البشر أربعة أضعاف وزيادة سكان الحضر ثلاثة عشر ضعفا خلال القرن العشرين. فقد أدى استخدام الفحم إلى تحطيم القيود القديمة التي كبّلت النقل والإنتاج الصناعي. وبحلول العام 1890 تقريبا كان نصف الطاقة المستخدمة حول العالم يأتي من الوقود الأحفوري وبالدرجة الأولى الفحم. وخلال القرن العشرين تمثَّل التطوُّر الحاسم في تاريخ الطاقة في ظهور النفط الرخيص.

كانت الولايات المتحدة في الصدارة في بناء اقتصادها ومجتمعها حول النفط. حدث أول حفر ناجح في الصخور الصلبة في بنسلفانيا في العام 1859، لكن أول تدفق كبير للنفط حدث في جنوب شرق تكساس في العام 1901 وكان فاتحة لقرن من الطاقة الرخيصة. ولاحقا حدثت اكتشافات نفطية كبيرة في المكسيك وفنزويلا

وإندونيسيا وسيبيريا - الأكبر من الجميع - وحول الخليج العربي، وبدأ استغلالها بكثافة منذ أواخر العقد الخامس من القرن العشرين. وعلى المستوى العالمي حدث التحوُّل إلى النفط بالدرجة الأولى خلال الفترة من 1950 إلى 1973 التي ارتفع خلالها إنتاج النفط العالمي من عشرة ملايين إلى خمسة وستين مليون برميل يوميا، ثم ارتفع إلى خمسة وسبعين مليون برميل. أحدث النفط ثورة في النقل، إذ لا يمكن للسيارات والطائرات أن تعمل بالفحم. وأحدث ثورة في الزراعة من خلال تشغيل الآلات الزراعية واتخاذه مادة أولية كيميائية للأسمدة، ما مكّن ثلاثة في المائة من الأمريكيين - على سبيل المثال - من إطعام بقية السكان. وأصبح الأرز والقمح والبطاطس التي تطعم سكان العالم تنشأ عن النفط تماما كما تنشأ عن التربة والماء وعملية البناء الضوئي.

ومع النفط، وإسهامات أصغر من الغاز الطبيعي والقوة الكهرومائية والطاقة النووية، نمت حصيلة الطاقة العالمية بغزارة بعد العام 1890. فأخذ المواطن العالمي المتوسط يستخدم في العام 2000 ما بين ثلاثة وأربعة أضعاف الطاقة التي كان نظيره يستخدمها في العام 1900. لا ريب أن هذا المتوسط يخفي فروقا شاسعة. فكما وسّعت الثورة الصناعية تفاوت الثروة والقوة حول العالم، كذلك فعل الانتقال المتسارع إلى الاستخدام الكثيف للطاقة. من ذلك أنه في العام 1990 كان الكندي أو الأمريكي المتوسط - مثلا - يستخدم من الطاقة ما بين خمسين ومائة ضعف نظيره البنغالي، وذلك لأن معظم الطاقة في بنغلاديش كانت لاتزال تأتي من المادة العضوية. غير أن الانتقال إلى الاستخدام الكثيف للطاقة حرّر المجتمعات من الكدح، وجعل الناس أكثر حركية وإنتاجية وثراء من أسلافهم، أو معاصريهم الذين لم يشاركوا في هذا الانتقال. باختصار أدى تسخير الوقود الأحفوري - لاسيما النفط - إلى جعل حياة جزء كبير من البشرية أيسر، لكنه في الوقت عينه وسّع شقة التفاوت بين الأثرياء والفقراء.

على أن زيادة أعداد البشر أربعة أضعاف وزيادة استخدام الطاقة ثلاثة عشر أو خمسة عشر ضعفا خلال القرن العشرين لم يترك البيئة سالمة، بل أحدث فيها اختلالا غير مسبوق. فقد كان ذلك - ولايزال - بمنزلة تجربة عملاقة وخارجة عن السيطرة على المحيط الأحيائي. وتواصلت عمليات تحويل الغابات والأراضي العشبية إلى مزارع ومراعٍ، وإن كان بمعدل أبطأ قليلا منها خلال القرن التاسع

عشر. وتضاعفت مساحة الأرض المخصصة للمحاصيل بين العامين 1900 و2000، من منطقة في مساحة أستراليا إلى منطقة تساوي مساحة أمريكا الجنوبية. وانتقل مشهد التحوُّلات الأسرع في استخدام الأرض من المناطق المعتدلة إلى المناطق المدارية، وحدثت آخر عمليات الاستصلاح الكبرى في السهول المعتدلة في روسيا وكازاخستان في أواخر العقد السادس من القرن العشرين. وفيما بعد أخذ توسُّع أراضي المحاصيل يحدث بأقصى سرعة في أمريكا الوسطى وغرب أفريقيا وجنوب شرق آسيا، لاسيما بعد العام 1950، وذلك بالدرجة الأولى على حساب الغابات المطيرة. تسبب إقحام أعداد أكبر من البشر في النظم البيئية المعقدة للغابات المطيرة الاستوائية في أخطار غير متوقعة. فانتقل فيروس الإيدز على ما يبدو إلى البشر من قردة الشمبانزي في أفريقيا الوسطى قبل فترة قصيرة من العام 1959، وانتشر في أفريقيا الاستوائية لعشرين سنة قبل أن يصبح وباء عالميا، قتل بحلول العام 2002 نحو عشرين مليون إنسان، ثلثاهم من الأفارقة. غير أن الإيدز لم يغيّر النمط الأكبر للاستعمار الإنساني المتزايد للمحيط الأحيائي.

أدى ذلك إلى تآكل الفضاء المتبقي للمخلوقات البرية أكثر وأكثر. ومع أنه لا توجد تقديرات موثوق بها فقد انقرض الكثير منها عندما تحوّلت بيئتها الطبيعية إلى مزارع أو مراعٍ، أو عندما أبادتها حيوانات مفترسة أو أمراض أقحمت حديثا على بيئاتها. وحتى ما لم ينقرض منها بات على شفا الانقراض مثل الحيتان الزرقاء. لقد شهدت الأرض خمس نوبات انقراض كبرى في تاريخها، وأظهر القرن العشرين أمارات بداية نوبة سادسة هي الوحيدة التي تسبب فيها الإنسان. وفي الوقت عينه وجدت أنواع أخرى - هي الأنواع المفيدة بطريقة مباشرة لأغراض البشر مثل الماشية والدجاج - الأرض وقد أعيد ترتيبها بطرق محسوبة لزيادة عدد أفرادها. ثمة أنواع أخرى - مثل الجرذان والهندباء البرية - وجدت العالم كما يعيد البشر تشكيله مواتيا لها، مع أنها ليست مفيدة للبشر. وإجمالا، فإنه بحلول العام 2000، بلغت نسبة الحياة على الأرض التي تخدم الغايات البشرية بطرق مباشرة أو غير مباشرة نحو أربعين في المائة على البر وعشرة في المائة في البحار، وهو ما يشكِّل ما بين خمسة وثمانية أضعاف نظيرتيها في العام 1900. وبناء على ذلك فإننا في أثناء محاولة إطعام أنفسنا وتكوين الثروات وحماية أنفسنا من رفاقنا، نعيد تشكيل المحيط الأحيائي

بقوة من خلال إقحام أنفسنا كفاعل رئيس في تشكيل التطوُّر الأحيائي. على المدى القريب أنتجت هذه العملية غير الواعية بشرا أكثر ومجاعات أقل وثروة أكبر وحياة أطول من أي وقت مضى في التاريخ الإنساني. ومازلنا في انتظار ما ستؤدي إليه هذه العملية على المدى البعيد.

وإلى جانب إعادة تشكيل المحيط الأحيائي، غيّرت أفعال البشر – من دون قصد - الدورات الجيوكيميائية الأحيائية الأساسية للأرض. غير أن ذلك التدخل لم يكن جديدا كليا، لكنه بعد العام 1890 بلغ آمادا أبعد. من ذلك مثلا أن إحراق الفحم والنفط أنتج سحبا كثيفة من تلوث الهواء في آلاف المدن، تسبب أسوؤها - التي شهدتها لندن في ديسمبر 1952 - في وفاة أربعة آلاف إنسان في أسبوع. لكن مما يبعث على الأمل أنه أمكن خفض تلوث الهواء الحضري بسهولة في المجتمعات التي يسمع فيها لاحتجاجات المواطنين، من خلال الاستعاضة بالنفط أو الغاز الطبيعي عن الفحم، أو من خلال تقنيات أنظف في المصانع ومحطات الطاقة. كان التصدي لتلوث الهواء الحضري بندا أساسيا في برنامج الحركة البيئية وهي تتشكّل في أمريكا الشمالية واليابان وأوروبا الغربية وأماكن أخرى خلال العقد الثامن من القرن العشرين. لكن في الأماكن التي كانت الغلبة فيها لأهداف رجال الصناعة أو الدولة على صحة المواطنين استمر التلوث المميت، وهو ما حدث تحديدا في الدول الصناعية الفقيرة مثل الصين والهند وتايلند والمكسيك والدول الشيوعية في أوروبا الشرقية. ففي مكسيكو ستي التي تعمل فيها أربعة ملايين سيارة في ظروف جغرافية مواتية لتكوّن الضباب ذهب تقدير للإدارة البلدية في العام 2002 إلى أن تلوث الهواء تسبب في موت خمسة وثلاثين ألف إنسان سنويا. وفي كراكوف بجنوب بولندا تسبب التلوث بحلول العقد قبل الأخير من القرن العشرين في خفض محتوى الأوكسجين في الهواء بدرجة محسوسة، وإليه ترجع - هكذا يفترض - معدلات السرطان التي بلغت ضعف المعدل القومي، والذي كان هو نفسه مرتفعا بالمعايير العالمية. إجمالا تسبب تلوث الهواء الحضري في وفاة ما بين خمسة وعشرين مليونا وأربعين مليون إنسان خلال القرن العشرين.

أما تشبع الهواء بثاني أكسيد الكربون فإن خطره الفوري كان أقل، لكنه تغير جذري وأصعب في رده. فثاني أكسيد الكربون واحد مما يسمى الغازات الدفيئة التي

توجد بنسب ضئيلة في الهواء، لكنها تؤدي دورا أساسيا في تنظيم درجة حرارة الأرض. وقد سبب البشر من خلال إحراق الوقود الأحفوري والغابات منذ العام 1750 زيادة كمية ثاني أكسيد الكربون في الجو بنسبة الثلث تقريبا. حدثت تلك الزيادة كلها تقريبا بعد العام 1900، وحدث ثلاثة أخماسها بعد العام 1950. وبالتزامن مع ذلك ارتفعت درجة حرارة الأرض ببطء في بادئ الأمر، لكن بسرعة أكبر بعد العام 1980. لذلك ارتفع مستوى البحر بنحو قدم منذ العام 1900. ومع أن تأثيرات هذه التغيرات في الحياة على الكوكب لاتزال طفيفة حتى الآن، فإنها - على خلاف تلوث الهواء الحضري - تشكّل اتجاها يصعب كبحه سريعا، حتى لو توافرت الإرادة لفعل ذلك، لأن ثاني أكسيد الكربون ما إن يعلق بالجو حتى يظل فيه قرنا كاملا تقريبا. تشمل النتائج المحتملة بعض الممكنات المريعة مثل إيقاف تيار الخليج، وهو شيء حدث على ما يبدو في الماضي البعيد في أثناء الحقب الدافئة. غير أن ذلك لو حدث مرة أخرى فسيشكّل كارثة كبرى على أوروبا. وتشمل النتائج المؤكدة ارتفاع مستوى البحر أكثر إلى حد إغراق بضع دول جزيرية وبعض أخصب الأراضي الزراعية في العالم في الدلتات النهرية الساحلية.

بيد أن مؤسساتنا السياسية التي تطوّرت على مدى آلاف السنين لمجابهة تحديات أخرى، قد أثبتت أنها غير مؤهلة للتعامل مع هذه وغيرها من المشكلات البيئية واسعة النطاق وبطيئة الحركة، إذ يدفع النظام الدولي التنافسي الدول إلى زيادة ثرائها وقوتها على المدى القريب بغض النظر عن الهواجس الأخرى، تستوي في ذلك النظم الاقتصادية الرأسمالية والشيوعية التي شجعت اتجاهات وتصرفات مماثلة، في حين ينشأ الدفع في اتجاه التصدي للمشكلات البيئية بالدرجة الأولى عن احتجاجات المواطنين التي تركز عادة على المشكلات التي لا تفرض حلولها عليهم أي تضحية مادية ولا تستلزم ثقة أو تعاونا كبيرين عبر الحدود القومية. وقد ثبت في الدول الغنية خلال العقد قبل الأخير من القرن العشرين أنه من السهل خفض التلوث بثاني أكسيد الكبريت من محطات الطاقة أو انبعاثات الرصاص من عادم السيارات من خلال تغيير الوقود أو تعديله، لكن قلة من الناس فقط كان لديهم الاستعداد لبذل التضحيات اللازمة لكبح انبعاثات ثاني أكسيد الكربون أو تشبع المجاري المائية بالأسمدة. فقد تمثّلت المقاربة العامة خلال القرن العشرين

في استغلال الموارد لأقصى حد، وتسخير الطبيعة لأقصى حد، وإذا لزم الأمر التضحية بالصدّادات البيئية ورجوعية الغد والأمل في حال أفضل.

قد يكتشف البشر في المستقبل أن هذا الاختلال البيئي - لاسيما التغير المناخي والتراجع في التنوع الأحيائي - كان التطوُّر الأهم في فترة ما بعد العام 1890، وربما كان أهم حتى من الصراعات الايديولوجية أو الحروب العالمية. لكننا لا نستطيع أن نقدم حكما موثوقا إلا بعد عقود أو حتى قرون من الآن، لذلك دعونا في اللحظة الراهنة نتحوَّل إلى الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي أنتجها القرن العشرين.

التراجع عن العولمة: الحرب والكساد خلال السنوات 1914 - 1941

كان من نتيجة الاندماج السريع لمجتمعات العالم واقتصاداته بعد العام 1870 أن دفع الكثيرين إلى افتراض أن الحرب قد ولت بلا رجعة، لكن سرعان ما تبدَّدت هذه الآمال مع اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام 1914. كان السبب المباشر للحرب تافها، وهو اغتيال ولي عهد إمبراطورية النمسا - المجر في سراييفو، في حين كان السبب الحقيقي وراء الحرب هو ظهور ألمانيا كقوة عظمى. كان عدد سكان ألمانيا ينمو أسرع (1871 - 1914) من نظيره في فرنسا أو بريطانيا، وتفوقت ألمانيا على جيرانها في معدلات التحضر والتصنيع. دفع ذلك تقاربا بين الخصمين التقليديين - بريطانيا وفرنسا - بعد نحو العام 1900، وسرعان ما تشكُلت نظم تحالفات متعادية، شملت كل القوى الكبرى الأوروبية. وبالمثل، خشي الألمان من أن تتفوق روسيا عليهم قريبا بمواردها الوفيرة كما تفوقوا هم أنفسهم على بريطانيا. واندفع الجميع نحو الحرب تحت تأثير النعرة القومية في كل المجتمعات والجهل بما تستتبعه الحرب.

كان النصر من نصيب تحالف فرنسا وبريطانيا وروسيا وإيطاليا و- في نهاية الحرب - الولايات المتحدة، على ألمانيا وإمبراطورية النمسا - المجر والإمبراطورية العثمانية، وهو نصر تحقق بتكلفة باهظة. كان الطب العسكري قد تقدم إلى الحد الذي مكّن الأطباء من حماية جيوش جرارة من انتشار الأوبئة لآماد طويلة تكفي لخوض حرب خنادق مطولة. وجعلت المدفعية الثقيلة والغازات السامة من الحياة في الخنادق جحيما، وفي الوقت نفسه جعلت الرشاشات الآلية الخروج

من الخنادق مميتا. حصدت الحرب - في المجمل - أرواح ما بين تسعة ملايين وعشرة ملايين مقاتل، بينما ماتت ملايين أخرى من المدنيين بسبب الجوع أو المرض أو العنف. كانت المصالح الإمبريالية الأوروبية كفيلة بأن تنشر الحرب إلى أفريقيا وآسيا والمحيط الهادي، وإن لم تشهد المجازر الجماعية التي ميّزت ساحات المعارك الأوروبية. وتحوّلت المعارك إلى حرب استنزاف لكل من الرجال والروح المعنوية. وشهدت الجيوش جميعها - باستثناء الجيش الألماني - أعمال تمرد خلال خمسة وثلاثين شهرا من بداية الخسائر الثقيلة بين القوات. وفي النهاية، كانت الولايات المتحدة هي التي حسمت الحرب عندما دخلتها برجال وموارد لم يكن القتال المطول قد نال منهم بعد.

فيما كانت الحكومات تدفع بمزيد من الرجال إلى هذه المفرمة، خَلُصت إلى أنها يجب أن تعبئ كل مقدرات مجتمعاتها للمجهود الحربي، وهي الممارسة التي باتت تعرف باسم «الحرب الشاملة» total war. فقد أصبح الإنتاج الحربي أخطر من أن يترك للسوق، ولذلك أخذت لجان تخطيط حكومية تسيطر على معظم عملية صنع القرار في الصناعة والنقل والزراعة. وجنّدت المصانع ملايين النساء لصنع الأسلحة والذخيرة والملابس العسكرية. وعلى الرغم من حدوث اختناقات محبطة، تمكّنت اقتصادات الحرب من رفع مستويات الإنتاج سريعا. كان سجل النجاح في زمن الحرب مثالا للإدارة الحكومية للاقتصادات القومية أثبت أنه مغرٍ بعد ذلك في زمن الحرب والسلم كليهما.

زعزعت الحرب الأسس السياسية والاقتصادية لأوروبا، وطال تأثيرها أنحاء العالم كافة. فأوجدت معاهدات السلام دولا جديدة من إمبراطورية النمسا - المجر متعددة القوميات، وقلّصت مساحة ألمانيا بعض الشيء، وفرضت تعويضات ضخمة على ألمانيا لتسببها في الحرب (كما حدث على نطاق أصغر مع فرنسا في العام 1815 بعد الحروب النابليونية). وأعطت المعاهدات بعض الأقاليم العثمانية للمنتصرين، وهو ما لم يحدث بطريقة مباشرة، بل من خلال آلية عصبة الأمم، تلك الهيئة الدولية التي أنشئت في العامين 1919 و1920 لإدارة النزاعات المستقبلية ومنع الحروب. وانهارت الإمبراطورية العثمانية بفعل الثورة (1919 - 1924) وظهرت تركيا القومية العلمانية (راجع ما يلي)، وألغى الأتراك الخلافة الإسلامية فورا، تاركين العالم الإسلامي

بلا رأس ديني أو مركز سياسي. لكن عالم المنتصرين لم يفلت من التمزق.

كانت الإمبراطورية الروسية أول المنتصرين الذين شملهم الدمار. فبحلول العام 1917 كانت ضغوط الحرب الصناعية قد أثبتت أنها أكبر من طاقة روسيا التي كانت ترسل الرجال إلى الجبهات بلا تدريب، وأحيانا بلا سلاح، ودخل جيشها في تمرد جماعي. كان القمع من نصيب سكانها الحضريين الذين احتجوا على تردي الأوضاع، لاسيما أسعار الخبز والإدارة السيئة للحرب. وانفجر هذا السخط في ثورة عامة في ربيع العام 1917 خلعت القيصر. وقررت الحكومة المؤقتة الجديدة أن تواصل المجهود الحربي بأي ثمن، ثم أسقطها في خريف العام 1917 انقلاب عرف باسم الثورة البلشفية، دبّره فلاديمير لينين (1870 - 1924). كان لينين قد طرد من الجامعة، وعلم نفسه القانون، لكنه احترف العمل الثوري، وعلم نفسه الأيديولوجيا الماركسية، وعندما وصل إلى السلطة، أراد أن يعيد تشكيل روسيا باعتبارها مجتمعا شيوعيا. كان عليه أولا أن يعقد سلاما مع ألمانيا (مارس 1918) وأن ينتصر في الحرب الأهلية (1918 - 1921)، وهو ما أنجزه باستخدام آليات الاقتصاد الموجّه التي أجلها في المجهود الحربي الألماني حينما قضى الحرب العالمية الأولى في زيورخ التي كانت بالنسبة إليه منصة ملاحظة جيدة لهذه الآليات. وظلت الدولة التي أنشأها - الاتحاد السوفييتي - مدينة لآليات الإدارة الاقتصادية التي ابتكرتها ألمانيا في أثناء الحرب العالمية الأولى. واستأنفت هذه الدولة ميراث الشرطة السرية والقمع السياسي الذي ورثته عن القياصرة، لكن لينين وخلفاءه أخذوا هذا الميراث إلى آماد متطرفة قضت على الدولة نفسها.

ثمة دول أخرى بين الحلفاء نالت منها ضغوط الحرب، منها إيطاليا التي انهارت حكومتها أمام الإضرابات وعنف الشوارع (1919 - 1922)، ما أدى إلى ظهور الدكتاتورية الفاشية لبنيتو موسوليني (1883 - 1945) التي أنكرت السياسة الديموقراطية، ونبذت الاشتراكية، وعملت على تعبئة الجماهير من خلال حزب سياسي واحد، ومجّدت الأمة، وأعلت من شأن السجايا العسكرية والتأثير التطهيري للحرب، وهي الإجراءات التي جذبت الملايين التي عانت في أثناء الحرب وبعدها، لاسيما المحاربين القدامى الذين شعروا بأن السلطات المدنية التي لم تشارك في الحرب وتكتوي بنارها قد خانتهم وحقّرت من شأنهم، وجذبت ضحايا التضخم النقدي الذين فقدوا مدخرات حياتهم.

بدا للملايين في أوروبا وحول العالم أن روسيا وإيطاليا تقدمان حلولا مغرية لمشكلات ما بعد الحرب، في وقت كانت تقلبات السوق فيه تعني استمرار خطر البطالة، وكانت بالنسبة إلى الفلاحين تعني أسعارا منخفضة إلى حد مدمر للغذاء الذي يبيعونه. كانت الكنائس والأحزاب السياسية والاتحادات العمالية وجمعيات رجال الأعمال والصحف والجامعات قد شاركت جميعها في دعم الحرب، ما أفقدها مكانتها بدرجة أو بأخرى. ومع تنامي الشهية العامة إلى ترتيبات اقتصادية وسياسية جديدة، وجدت الشيوعية والفاشية مؤيدين كثرا في أوروبا، ولم تجد غير قلة مؤيدة في الصين والهند الاستعمارية والولايات المتحدة وغيرها من الأماكن. فوجد القوميون الصينيون أو الغوميندانغ Guomindang - ورثة ثورة سون يات سين في العام 1911 - ضالتهم في كل من السياسة الاقتصادية الفاشية الإيطالية والتنظيم السياسي اللينيني(*)، وحاولوا أن يكيفوهما مع الحالة الصينية. أما الشيوعيون الصينيون، وهم المنافسون الأساسيون للغوميندانغ، فقد انحازوا إلى تبني النموذج السوفييتي كاملا. وفي هذا الجانب، كانت الصراعات الداخلية على السلطة في الصين (نحو 1925 - 1940) رجع صدى للصراعات الأيديولوجية في أوروبا.

كان جزء من إغراء النموذجين السوفييتي والإيطالي يكمن في الحماية التي وعدا بتوفيرها من تقلبات الأسواق الدولية. اتخذ النموذجان من الاكتفاء الذاتي الاقتصادي أولوية أولى (مع أن إيطاليا لم تقترب من إنجازه مطلقا). كانت التجارة الدولية قد انخفضت بحدة في أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ أوقف المتحاربون التجارة فيما بينهم، وانبروا في إغراق السفن التجارية بعضهم لبعض، وهو ما صار ممكنا بسبب اختراع الغواصة. لذلك طال النقص كل أطراف الحرب، لاسيما أولئك الذين كانوا أكثر احتياجا إلى الغذاء المستورد. وأصبح ابتكار بدائل للواردات المفقودة جزءا حاسما من اقتصادات الحرب، لكن أحدا لم يجد بديلا من الغذاء، ولذلك قرر الاتحاد السوفييتي وإيطاليا ألا يتكبدا هذا النقص مرة ثانية، فاتخذا من الاكتفاء الذاتي سياسة لزمن السلم، وفرضا قيودا على الهجرة. أوجدت معاهدات السلام حفنة دول جديدة في شرق أوروبا الوسطى، ما فرض حواجز جديدة أمام التجارة والهجرة.

(*) سون يات سين (Sun Yat - sen (1866 - 1925: ثائر صيني ومؤسس جمهورية الصين وأول رئيس لها بعد ثورة العام 1911. [المترجم].

ولجأت الدول الضعيفة الجديدة - ومنها جمهورية فايمار الألمانية - إلى طباعة النقود لمعادلة موازناتها(*)، ما أحدث تضخما مفرطا إلى حد جعل النقود الألمانية بلا قيمة في العام 1923 وأعجز الألمان العاديين عن استيراد أي شيء. ولذلك فمع أن تدفقات رأس المال والتجارة تعافت خلال العقد الثالث من القرن العشرين، فإن المشهد السياسي الممزق وطموحات الاكتفاء الذاتي حالت دون الاستئناف الكامل للاقتصاد المعولَم الذي ميّز فترة ما قبل العام 1914.

أما الدول التي ظلت صامدة فسرعان ما انهارت. فبعد العام 1924 مكّنت القروض الأمريكية ألمانيا من دفع بعض تعويضات الحرب التي فرضت عليها لمصلحة بريطانيا وفرنسا، وسرعان ما استأنف الألمان والبريطانيون والفرنسيون وارداتهم من حول العالم، ودبّت الحياة مجددا في الاقتصاد الدولي. لكن القروض الأمريكية جفّت في العام 1928، عندما امتص ازدهار في سوق الأوراق المالية كل رأس المال المتاح. وتبخر التمويل اللازم للصادرات القادمة من أمريكا اللاتينية وأستراليا والمناطق الزراعية الأخرى، ما تسبب في كساد زراعي. وانهار سوق الأوراق المالية الأمريكي في العام 1929، وطلبت البنوك استرداد القروض، وأفلست البنوك والشركات فجأة. كان ارتباط البنوك ضمن شبكات إقراض عالمية يعني أن انهيار بورصة نيويورك وما تلاه من انهيار أربعين في المائة من البنوك الأمريكية سيطلق تفاعلا متسلسلا حول العالم. وسرعان ما فقد ملايين المواطنين وظائفهم في الدول الصناعية، ولم يستطع المزارعون حول العالم أن يبيعوا محاصيلهم. وفي حضور ذكرى الإدارة الاقتصادية الناجحة في أثناء الحرب العالمية الأولى، كان على الحكومات أن تفعل شيئا.

وقد فعلت، لكنها لكي تنقذ أنفسها دمرت الاقتصاد العالمي، إذ رفعت التعريفات والحصص وحواجز أخرى في وجه التجارة. وخفّضت قيمة عملاتها، ورفعت الضرائب، وخفّضت الإنفاق القومي لمعادلة الموازنات، وتخلف بعضها عن سداد الديون، ما أدى إلى إفلاس مزيد من الشركات. وتخلت الدول عن قاعدة الذهب،

(*) جمهورية فايمار Veimar Republic: هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على الجمهورية البرلمانية الديموقراطية الليبرالية التي تأسست في ألمانيا في العام 1919 لتحل محل نظام الحكم الإمبراطوري الذي ساد ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وانتهت في العام 1933 مع تأسيس الحقبة النازية ونظام الحزب الواحد. استمدّت اسمها من مدينة فايمار التي عقدت فيها الجمعية التأسيسية. [المترجم].

ما فرض مزيدا من الصعوبات على كل المعاملات الدولية. وحاولت كل دولة أن تخفّض وارداتها لكي تزيد الإنتاج والتوظيف في الداخل. بإيجاز، أدى سعي الدول إلى الخلاص الفردي من الكساد إلى تعميقه على المستوى الدولي. وبحلول العام 1932 كان الاقتصاد العالمي قد انكمش بنسبة الخمس، والتجارة العالمية بنسبة الربع. ووصلت مستويات البطالة في الدول المتضررة مثل الولايات المتحدة وكندا وألمانيا إلى ما بين عشرين وثلاثين بالمائة. وانخفضت أسعار الغذاء والمواد الخام بنسبة النصف. وفقد المزارعون والفلاحون حول العالم معظم دخولهم، واضطر المدينون منهم في الأغلب إلى التنازل عن أراضيهم.

كانت السياسات التي اتبعت بعد العام 1929 تراجعا عن العولمة. فقد بدا أن الاقتصادات القائمة على الاكتفاء الذاتي تصمد أفضل من غيرها أمام العاصفة، فجاءت معاناة إيطاليا أقل من الدول الأخرى، وهو نفس ما حدث في الاتحاد السوفييتي، مع أنه في حقيقة الأمر كان يمر بأزمة اقتصادية حادة تكتنفه وحده. عمل خليفة لينين جوزيف ستالين على مدّ الثورة إلى الريف بالاستعاضة عن المزارع العائلية بمزارع تعاونية وحكومية، وهو ما أثار معارضة قوية، تعامل معها ستالين بوحشية منفلتة، إذ قتل نحو عشرة ملايين فلاح أو جوّعهم حتى الموت في العامين 1932 - 1933، فانكمش الاقتصاد السوفييتي بنسبة الخمس. أخفى ستالين ذلك كله عن العالم الخارجي، في حين كان يروّج للإنجازات السوفييتية المتزامنة - والحقيقية - في مجال التصنيع. كان ستالين يسعى إلى إنهاء الاعتماد السوفييتي على السلع الصناعية والعسكرية المستوردة، ونظرا إلى أن الاقتصاد القومي المخطط الذي تحوّل إليه الاتحاد السوفييتي بعد العام 1928 لم يكن مؤهلا للتعامل مع الاهتزازات غير المتوقعة في العرض والطلب المعتادة في الأسواق الدولية، فقد كان الاكتفاء الذاتي هو الإجابة. وأصبح التصنيع المدعوم من الدولة السياسة المتبعة في المكسيك والأرجنتين والبرازيل، لكن بلا إرهاب ستاليني. وجددت حكومة اليابان العسكرية التأكيد على الصناعة الثقيلة والزراعة، على أمل أن تجعل البلاد مكتفية ذاتيا في الأسلحة والغذاء. وهكذا عملت الحكومات في كل مكان على بناء اقتصادات قومية أقرب إلى الاكتفاء الذاتي.

أثبتت هذه الإجراءات أنها مشؤومة، فلم ينجُ من السنوات الأولى للكساد غير بضع حكومات من تلك التي ذكرناها، لكن موسوليني وستالين نجوا. كان للناخبين

دور فاعل في هذا التحوُّل المشؤوم في كل الدول التي كان التصويت مهما فيها. ففي ألمانيا عُيِّن هتلر مستشارا (1933)، وسرعان ما انقلب على ممارسة التصويت وأوقفها. وانبثقت نظم ديكتاتورية في معظم الدول الأوروبية، وفي عدة دول أمريكية لاتينية. ونجا الحكم الاستعماري في أفريقيا وآسيا، مع أن سنوات الكساد كانت عجافا على تجارة الصادرات، وأضافت الضوائق التي كان الفلاحون وعمال المناجم يواجهونها زخما إلى الهياج المناهض للاستعمار (راجع ما يلي). غير أن النتيجة الأهم للتحوُّل إلى الاكتفاء الذاتي خلال العقد الرابع من القرن العشرين، تمثَّلت في جعل الدول توسُّعية، لاسيما الدول التي لم تكن لها إمبراطوريات فيما وراء البحار، إذ باتوا على يقين بضرورة ضم مزيد من الأراضي والموارد من أجل التحرر من الواردات التي كانت مكلفة إلى حد مدمر في زمن السلم وغير موثوقة في زمن الحرب، كما أثبتت خبرة الحرب العالمية الأولى. أما القوى الإمبريالية القديمة فقد عملت على انتزاع مزيد من الدخل من مستعمراتها.

فحاولت بريطانيا وفرنسا أن تنتزعا مزيدا من الدخل من إمبراطوريتيهما القائمتين، ولذلك عملتا على زيادة الصادرات المعدنية والغذائية من مستعمراتهما الأفريقية والآسيوية، ما تطلب تدخلات أعمق في الحياة اليومية لأهالي المستعمرات، تراوحت من اللجوء إلى العمل القسري ورفع الضرائب - لإرغام الفلاحين على زراعة المحاصيل النقدية - إلى إجراءات أكثر نفعا للمستعمرات لمكافحة تآكل التربة أو أمراض الحيوانات، لكنها لم تكن تحظى بتأييد شعبي. بوجه عام، نحت الحكومات الاستعمارية نحو «التنمية»، إذ غدت أكثر اهتماما بإعادة هيكلة المجتمع بغرض تعظيم النمو الاقتصادي، وذلك عادة من خلال الصادرات التي يمكن جباية ضرائب عليها. أنتج هذا التغلغل العميق في المستعمرات طبقات موالية من الأفارقة والهنود والفيتناميين الذين استفادوا من هذه الإجراءات. لكنها أنتجت مراكز سخط جديدة ضد الحكم الاستعماري، شملت الكثير من الأفراد المتعلمين والواعين سياسيا. مؤدى ذلك أن بذور تصفية الاستعمار بذرت خلال العقد الرابع من القرن العشرين.

وفي حين عملت بريطانيا وفرنسا على انتزاع مزيد من الدخل من إمبراطوريتيهما فيما وراء البحار، عملت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على بناء إمبراطورية برية. فشيَّدت الحكومة الأمريكية سدودا ضخمة في أنحاء الغرب الأمريكي

كافة، ما ساعد في ري مساحات شاسعة والاستفادة من الإمكانات الكهرومائية لكل الأنهار الكبيرة. وأخذ السوفييت يشيِّدون سدودا كبيرة، وعملوا على استغلال الموارد المعدنية لسيبيريا والقطب الشمالي - في الأغلب من خلال العمل القسري - وتطوير الإمكانات الزراعية لآسيا الوسطى. أثبتت الجهود الأمريكية والسوفييتية التي انطوت في الحالتين على تحوُّلات بيئية كبرى، أنها مفيدة في سنوات الحرب التي كانت على وشك الاندلاع.

بالتزامن مع ذلك، كانت إيطاليا وألمانيا واليابان منخرطة في بناء إمبراطورية لكل منها. كانت الدول الثلاث تفتقر إلى الموارد اللازمة للاقتصاد المكتفي ذاتيا، لاسيما النفط. فعملت إيطاليا على بناء إمبراطورية في البحر الأبيض المتوسط والقرن الأفريقي، ما أدى إلى غزو إثيوبيا في العامين 1935 و1936 ومحو الإهانة التي تعرض لها الإيطاليون في العام 1896. وبنت ألمانيا إمبراطورية اقتصادية في جنوب شرق أوروبا من خلال إغراء الدول الأصغر بالدخول معها في اتفاقات تجارية حصرية، وضمّت النمسا وتشيكوسلوفاكيا سياسيا في العامين 1938 و1939. واستولت اليابان بداية من العام 1931 على أراضٍ صينية، لاسيما في منشوريا الغنية بالفحم والحديد الخام، وحاولت أن تستغل كوريا وتايوان بدرجة أكبر، وكذلك حاولت على نطاق أضيق أن تستغل الإمكانات الزراعية لجزر ميكرونيزيا التي أخذتها من ألمانيا من خلال عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى. هذا السعي إلى تكوين إمبراطوريات بغرض تحقيق الاكتفاء الذاتي هو عينه الذي أطلق الحرب العالمية الثانية.

إجمالا، شهدت الفترة بين العامين 1914 و1940 تفككا شديدا للاقتصاد العالمي. فتراجعت التجارة كما جاء فيما سبق، ولم تتعافَ تدفقات رأس المال كليا من الحرب العالمية الأولى، وأخذت تتراجع بعد العام 1929، ولم تصل إلى مستواها في العام 1913 حتى بعد الحرب العالمية الثانية. وتوقف عصر الهجرة الواسعة، جزئيا لأن بعض الدول منعت الهجرة، وجزئيا لأن الولايات المتحدة - المتلقي الأكبر للمهاجرين - تبنت في العام 1924 نظام حصص حدّ من الهجرة. وحدّت البرازيل من الهجرة خلال العقد الثالث من القرن العشرين. وقيّدت ألمانيا أعداد المهاجرين - البولنديين بالدرجة الأولى - في العام 1922. وتباطأ تدفق العمال الهنود والصينيين إلى المناجم والمزارع الاستعمارية. كانت فرنسا وحدها هي التي سهّلت الهجرة إليها بسبب

معدل مواليدها المنخفض. كانت هذه التغييرات حادة ومعرقِلة للازدهار القائم على حرية انتقال البضائع ورأس المال والأفراد، فقوّضت السياسة الليبرالية ودعمت فكرة أن الحكومات يجب أن توجه الحياة الاقتصادية، وأثارت إحساسا بخيبة الأمل من الأفكار الثقافية والدينية واسعة الانتشار، ومن ثم استعدادا جديدا لتجريب أفكار جديدة. خلاصة القول أن العولمة بعد العام 1870 والحرب بعد العام 1914 ولّدتا سخطا ومخاوف غذّت القومية والسعي إلى الاكتفاء الذاتي، ما قوّض التعاون وضبط النفس اللازمين للاقتصاد والسلام العالميين.

بيد أن خيوط الشبكة الكونية لم تتفكك، إذ ظلت الصلات قائمة، ولهذا السبب تحديدا انتشر الكساد حول العالم، حتى إن حروب التعريفات ربطت الحكومات معا بدرجة أقوى من قبل. وفي بعض الجوانب ازدادت سرعة التفاعل وكثافته داخل الشبكة، حتى مع تفكك الاقتصاد الدولي. وبدأ الراديو والسيارة ينشران تأثيرات أعمق خلال هذه الفترة. ونما الكثير من الشركات، لاسيما الأمريكية واليابانية، إلى شركات دولية خلال العقد الثالث من القرن العشرين. وفي الكثير من الدول نحت السياسة نحو دعم مشاركة المواطنين. وتحوّلت الأحزاب الشيوعية والفاشية في بعض الحالات إلى أحزاب جماهيرية فعلا، وساعدت الأحزاب الشيوعية في تعزيز التعاون الدولي. وغدت اتحادات العمال فعالة سياسيا، وكذلك جمعيات أرباب الأعمال. وجاء التوسُّع الأكبر للحياة السياسية مع منح النساء حق الاقتراع. فمع مشاركة النساء في المجهود الحربي خلال الحرب العالمية الأولى، لم يعد منطق حرمانهن من الحقوق السياسية مقنعا، وبداية من العام 1918 أخذت دول ديموقراطية أكثر وأكثر تمنحهن حق الاقتراع.

ومع أن الهجرة الدولية تباطأت بعد العام 1914، فإن الهجرات العسكرية تسارعت، إذ انتقل الملايين حول العالم في أثناء الحرب العالمية الأولى، ما وسّع آفاقهم وترك فيهم تأثيرات جديدة. كانت بريطانيا وفرنسا تعتمدان بشدة على القوة العاملة من إمبراطوريتيهما، ما أقحم الهنود والعرب والأفارقة في جبهات القتال. وحاربت كتائب من الكنديين والأستراليين والنيوزيلنديين والأفارقة الجنوبيين في أوروبا وأماكن أخرى، وهو نفس ما فعله الأمريكيون. وعندما رجع هؤلاء الجنود إلى أوطانهم، نشروا في العامين 1918 و1919 أول وباء عالمي حقا في التاريخ، هو

الإنفلونزا الذي قتل نحو أربعين مليون إنسان، وهو عدد أكبر كثيرا ممن قتلوا في الحرب نفسها.

أما على صعيد السياسة الدولية، فقد عزَّزت الحرب وعواقبها تفاعلا أوثق، من النوعين التنافسي والتعاوني. أنتج التنافس العسكري المستعر خلال الحرب العالمية الأولى تفاعلا أوثق، سواء بين الحلفاء الذين كانوا في حاجة إلى تحقيق التكامل بين تخطيطهم وعملياتهم، أو بين الأعداء الذين بات عليهم أن يراقب بعضهم بعضا بعناية وينسخوا الابتكارات الناجحة سريعا. وبعد العام 1918 تعهدت الشيوعية تعاونا سياسيا من نوع خاص، ذلك أن الشيوعيين كانوا يؤمنون بأن الثورة لا بد أن تنجح في النهاية على المستوى العالمي، ولذلك حاولوا جديا أن ينسقوا نشاطاتهم عبر الحدود، بالدرجة الأولى من خلال كيان دولي عرف باسم الكومنترن Comintern. لكن هذا التعاون الشيوعي تراجع في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين، عندما قلب ستالين العقيدة الرسمية وأطلق شعار «الاشتراكية في بلد واحد». لكنه واصل دعم الشيوعيين في كل مكان، ومع نهاية العقد الرابع من القرن فعل ذلك بقوة في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية. وبالتزامن مع ذلك، دفع الاضطهاد النازي لليهود خلال العقد الرابع من القرن العشرين نزوحا جماعيا للاجئين المتعلمين - منهم ألبرت آينشتاين - إلى بريطانيا والولايات المتحدة وأماكن أخرى، ما أحدث مزيدا من الاندماج على الصعيد الفكري.

كانت الحرب العالمية الأولى إلهاما لإنشاء مؤسسات جديدة قصد بها أن تتوسط المنافسة. كانت حفنة من المنظمات الدولية قد ظهرت خلال القرن التاسع عشر، معظمها ذات مهمات محددة مثل الاتحاد الدولي للتلغراف (1868) والاتحاد العالمي للبريد (1874). لكن في العام 1919 ولد عدد من المؤسسات، من أهمها عصبة الأمم، التي شملت عدة هيئات فرعية كانت مسؤولة عن تنظيم معايير العمل واللاجئين والزراعة وما إلى ذلك. وتعاونت الاتحادات الوطنية لكرة القدم لإطلاق بطولات كأس العالم التي أقيمت لأول مرة في أورغواي في العام 1930. إجمالا، نقض تفسخ الاقتصاد العالمي الزخم المعولِم الذي ميّز العقود السابقة على العام 1914، وأبطأ تقدم الاندماج في المجالات الأخرى، لكنه لم يوقفه تماما.

انبعاث العولمة: الحرب والازدهار الطويل منذ العام 1941

أثبتت عصبة الأمم أنها ليست أهلا للمهمات التي واجهتها، علاوة على أن الولايات المتحدة التي عملت أكثر من غيرها من أجل إنشاء هذه المنظمة رفضت الانضمام إليها، وهو نفس ما فعله الاتحاد السوفييتي حتى العام 1934. افتقرت هذه المنظمة إلى القوة لكبح الطموحات التوسُّعية لإيطاليا واليابان وألمانيا التي شكَّلت تحالفا فضفاضا في العام 1936 عرف باسم المحور. ودفعت عدوانيتهم - جنبا إلى جنب مع عجز العصبة - الاتحاد السوفييتي وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلى الاستعداد للحرب.

العالم في حالة حرب: 1937 - 1945

كانت الحرب العالمية الثانية الصراع الأضخم والأشد تدميرا في التاريخ، إذ خاضتها عشرات الدول، وكانت في حقيقتها أربعة نزاعات متمايزة. شمل النزاع الأول زمنيا عدوان اليابان على الصين المقسمة التي كانت في حالة فوضى، وفيه بدأت الأعمال الحربية واسعة النطاق في العام 1937. ولكي تواصل اليابان حربها في الصين، كانت في حاجة إلى النفط من إندونيسيا التي كانت حينئذ في أيدي الهولنديين. وعندما تكاتفت الولايات المتحدة وبريطانيا وهولندا لتقييد مبيعات النفط لليابان في أغسطس 1941، دخل اليابانيون في مقامرة طائشة بمهاجمة الولايات المتحدة في بيرل هاربر وفتح نزاع ثان عبر المحيط الهادي. لم يكن لدى اليابانيين أمل كبير في هزيمة الولايات المتحدة، لكنهم اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يعيقوا الأسطول الأمريكي لأطول فترة ممكنة عن بلوغ مكانة إمبريالية منيعة في شرق آسيا، التي لم يكن بوسع الولايات المتحدة أن تطردهم منها إلا بتكلفة لا يتقبلها مجتمع ديموقراطي سريع التأثر.

بالتزامن مع ذلك في أوروبا، هاجمت ألمانيا هتلر، التي جرأها ضمها السلمي للنمسا وسودتنلند Sudetenland في العام 1938، واحتلالها السهل لبقية تشيكوسلوفاكيا في العام 1939، بولندا في سبتمبر من تلك السنة، ما عجل بإعلان بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا. فاجتاحت ألمانيا بولندا سريعا في العام 1939، ثم اجتاحت فرنسا في العام 1940، لكن بريطانيا صمدت. وقاتلت بريطانيا ثم الولايات

المتحدة القوات الألمانية والإيطالية في الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وأوروبا الغربية (النزاع الثالث). واندلع النزاع الرابع عندما هاجم هتلر الاتحاد السوفييتي في يونيو 1941، وهي مقامرة طائشة أخرى وسّعت عليه جبهات القتال. كان هتلر يكن كراهية شخصية عميقة للسلاف واليهود، وأراد إبادتهم من خلال مهاجمة الاتحاد السوفييتي وخلق أراضٍ خاوية في الشرق للاستيطان الألماني، وهي خطة كان من شأنها أن تجعل الاكتفاء الذاتي الألماني ممكنا.

تواصلت هذه النزاعات جميعها حتى العام 1945. كان على اليابانيين والألمان أن يربحوا الحرب سريعا إن أرادوا النصر، وذلك لأن اقتصادات الحلفاء كانت أقوى من اقتصادات المحور. كان الاتحاد السوفييتي متكيفا من قبل مع اقتصاد الحرب، إذ كان يستخدم آليات الاقتصاد الموجَّه منذ العام 1918 والتخطيط الاقتصادي منذ العام 1928. وكان متخصصا في الارتجال السريع، إذ كانت ثقافته تعلي من شأن التعبئة المسعورة من النوع الذي مكّن من بناء مصانع من الصفر في أسبوع وشجع النساء على العمل في الحقول والمصانع، أو أجبرهن على ذلك كما قد يرى البعض، وكانت طبقة الفلاحين والبروليتاريا في الاتحاد السوفييتي قد تعودت على تحمُّل الظروف القاسية. كانت الولايات المتحدة هي الأخرى متكيفة من قبل مع اقتصاد الحرب من خلال «عبقريتها في الإنتاج الضخم»[5]، ودورات الإنتاج الضخم، وتقاليد الابتكار في ريادة الأعمال، والسعي العنيد وراء الكفاءة. أنشأت الولايات المتحدة مُجَمَّعا صناعيا - عسكريا ضخما في سنة واحدة - العام 1942 - وفي غضون هذه السنة وحدها تفوقت بنحو الضعف على دول المحور في إنتاج معدات الحرب. وفي العام 1944 كانت شركة فورد للسيارات تجمِّع قاذفة قنابل بي - 24 واحدة كل ثلاث وستين دقيقة في خط تجميع بطول ميل خارج ديترويت، حتى إن إنتاج فورد وحدها تفوق على إنتاج إيطاليا كلها خلال الحرب. وكانت ترسانات السفن على شاطئ المحيط الهادي، باستخدام الكهرباء التي توافرت من خلال السدود الضخمة التي بُنيت حديثا، تجمِّع سفينة شحن واحدة كل ثمانية أيام. وكانت الولايات المتحدة تصنع ست عشرة سفينة حربية في مقابل كل سفينة يدشّنها اليابانيون. وحتى الاتحاد السوفييتي، وعلى الرغم من مستوى المهارة المنخفضة بين قوته العاملة والعراقيل الكبرى الناتجة عن فقدان بعض أراضيه، كان إنتاجه يفوق إنتاج ألمانيا

خلال سنوات الحرب جميعها. صحيح أن ألمانيا واليابان تمتعتا بسبق عدة سنوات في إنتاج الأسلحة، لكن جيوشها أصرت على السلع عالية الجودة واحتقرت برعونة الثمار الرديئة للإنتاج الضخم. ولم يتمكنوا من رفع إنتاجهم من الأسلحة سريعا، ولم يكن لديهم العدد الكافي من الرجال لتشغيل المصانع والقتال على الجبهات في آن معا (لم يؤيد النازيون عمل النساء في المصانع)، ولم يكن لديهم نفط كاف. وفي المقابل، كانت تتوافر للحلفاء مواد أولية أكثر، وكل نفط العالم، ورجال أكثر، ورحبوا بتجنيد النساء في العمل الحربي، وحتى في القتال كما في الحالة السوفييتية. وبفضل مهارتهم في فك الشفرة، كانوا قادرين على قراءة الشفرات السرية لأعدائهم. وأخيرا، فإن دول المحور لم تنجح في إنجاز مستوى التعاون الاقتصادي والإستراتيجي الذي بلغه الحلفاء، لاسيما بريطانيا والولايات المتحدة. ولذلك فلم يكد الحلفاء يتمكنون من الصمود أمام الهجمات الأولى في العامين 1940 - 1941، حتى أخذت فرصة فوزهم بالحرب تتحسن يوما بعد آخر، وربحوها فعلا عندما شق الجيش السوفييتي طريقه إلى برلين في مايو 1945، وعندما أسقط طيارون أمريكيون قنبلتين ذريتين على هيروشيما ونغازاكي بعد ثلاثة أشهر.

حصدت الحرب العالمية الثانية أرواح نحو ثلاثة في المائة من سكان العالم في العام 1940، أي نحو ستين مليون إنسان، منهم أعداد كبيرة من المدنيين. كانت هذه الحرب حربا متنقلة، بالدرجة الأولى بفضل التقنيات الجديدة مثل الدبابة والطائرة، ولذلك غدت الجيوش والمدنيون في احتكاك دائم، وكانت لذلك عواقب مروعة أحيانا، لاسيما في الصين وأوروبا الشرقية التي تقاتلت الجيوش السوفييتية والألمانية على أراضيها. وقتل الألمان وشركاؤهم نحو ستة ملايين يهودي. وقع معظم القتال، لاسيما المهلك منه، في شرق الصين وغرب الاتحاد السوفييتي. فقد الاتحاد السوفييتي نحو خمسة وعشرين مليونا في الحرب - ثلثاهم من المدنيين - وفقدت بولندا ستة ملايين - نصفهم من اليهود - وفقدت ألمانيا أربعة ملايين ونصف المليون، وفقدت اليابان مليونين وأربعمائة ألف، ويوغوسلافيا مليونا وستمائة ألف، والصين نحو خمسة عشر مليونا، وإن كان الرقم الأخير تقديريا وحسب. أما الأمريكيون الذين أسهمت مصانعهم بقوة في الفوز بالحرب، فقد فقدوا مائتين وتسعين ألفا في ساحات المعارك، وأربعمائة ألف إجمالا، وهو رقم قريب مما فقدته بريطانيا واليونان، وأقل مما فقدته فرنسا.

عالم الحرب الباردة

خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية القوة العظمى العالمية الأولى. صحيح أن روما والصين الإمبراطوريتين حققتا هيمنة إقليمية منقطعة النظير، لكن لم يسبق على الإطلاق أن مارست أي دولة الهيمنة على هذا النطاق العالمي الذي بلغته الولايات المتحدة التي امتلكت أكبر أسطول في العالم، واحتكرت الأسلحة النووية لفترة، وامتلكت نحو نصف السعة الصناعية للعالم لفترة، وكان العالم كله يستدين المال من بنوكها، وحظيت بهيبة كبيرة. نتج بعض هذه المزايا عن الانتصار في الحرب وإنهاك القوى الكبرى الأخرى وحسب، فمدن الولايات المتحدة لم تسوَ بالأرض، ولم تقصف صناعاتها، ولم يهلك سكانها. وفي حين تطوّرت القوى الأخرى عبر عمليات طويلة المدى ترجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، فإن الولايات المتحدة لم تصبح القوة الصناعية الأكبر في العالم إلا في نحو العام 1890، وكانت على مدار الأربعين سنة التالية «نمر» الاقتصاد العالمي، إذ كانت تنمو بمعدل من خمسة إلى سبعة بالمائة سنويا. تمثّل الأساس للقوة الأمريكية - كما تجلّى في الحرب العالمية الثانية - في كفاءة صناعتها الثقيلة، ممثلة في خط التجميع المتحرك الذي جعل عملية الإنتاج أسرع وأرخص. ركّب هنري فورد أول خط تجميع كهربائي في مصنع للسيارات في العام 1912، لكن النظام لم يعجب العمال، ما اضطر فورد لأن يدفع ضعف الأجور السائدة للاحتفاظ بهم، ما مكّن العمال أنفسهم من أن يكونوا زبائن لفورد، إذ كان أجر شهرين يكفي لشراء سيارة فورد موديل تي Model - T Ford، وهو التكافل بين طرق الإنتاج الضخم والقوة العاملة جيدة الأجر نسبيا الذي صار عقدا اجتماعيا - يسمى أحيانا الفوردية Fordism - شكّل الأساس للديموقراطية الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى. ومع تحوّل ملايين العمال إلى مستهلكين، حظيت الشركات بدورات إنتاج أكبر وأكبر، ما أدى إلى خفض تكاليفها أكثر. وساعدت الطاقة الرخيصة والإنتاج الضخم في جعل الشركات الصناعية الأمريكية الأكثر تنافسية في العالم، ما مكّنها من النجاح في التصدير وبناء مصانع تابعة تستخدم الأنماط الأمريكية فيما وراء البحار، كما فعلوا بهمة خلال العقد الثالث من القرن العشرين. ثم جاء الكساد والحرب العالمية الثانية ليقطعا انتشار الشركات الأمريكية عبر المشهد العالمي. لكن بعد العام 1945 كانت الرياح مواتية للشركات الأمريكية في

جانبين، أولهما أن الصناعة دُمرت في الأماكن الأخرى، وثانيهما أن الحكومة الأمريكية كانت مهيأة على نحو غير مسبوق لتولي إدارة الاقتصاد العالمي.

كانت إخفاقات صنع السلام في العام 1919 لاتزال حاضرة في ذاكرة الحلفاء، ولذلك أصروا في الحرب العالمية الثانية على الاستسلام غير المشروط حتى يتمكنوا من فرض شروطهم على ألمانيا واليابان. سرعان ما تنازع الحلفاء فيما بينهم، لكنهم استطاعوا مع ذلك أن يعيدوا بناء نظام مستقر في سرعة قياسية. كان الأمريكيون في صدارة إدارة هذه العملية، إذ رعوا وموّلوا مجموعة جديدة من المؤسسات الدولية أريد بها أن تضمن عدم تكرار كوارث الكساد والحرب العالمية، إذ كان من المتوقع أن تعتني الأمم المتحدة بقضايا السياسة العالمية. وعقدت اتفاقيات وأقيمت مؤسسات للعناية بالنظام المالي العالمي (اتفاقية بريتون وودز التي نشأ عنها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) والتجارة الدولية (الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات الجمركية التي انبثقت منها منظمة التجارة العالمية) والصحة (منظمة الصحة العالمية) وغيرها الكثير. وانصب التركيز على النجاح فيما فشلت فيه عصبة الأمم: كبح القومية والاكتفاء الذاتي والعسكرة وغيرها من الشرور الأخرى من خلال إدخال الدول في مجموعة أندية تحكمها قواعد. أريد بهذا النظام الجديد أن يعيد تعولم العالم، لكن بطريقة أقل فوضوية مما حدث بين العامين 1870 و1914، حتى لا يتكرر السخط الذي ولّدته تلك الخبرة مرة أخرى.

كانت السياسة الداخلية في الولايات المتحدة ومعظم حلفائها تعمل من أجل الهدف العام المتمثّل في تلطيف الصدمات المتأصلة في المشاركة في الاقتصاد الدولي. اتخذ ذلك أشكالا مختلفة، لكنه تضمن في الأغلب الالتزام بالتوظيف الكامل و/ أو تأمين البطالة والرواتب التقاعدية والإعانات المالية للمزارعين وغيرهم من منتجي المواد الأولية، في الأغلب صناعات الفحم أو النفط. ألزم ذلك الدولة التدخل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ورفع الضرائب إلى مستويات لم تصل إليها من قبل إلا في زمن الحرب، وتعهد فنون الإدارة الاقتصادية. وكما قامت الدول قديما على التحالف بين العرش والمذبح، ولم يكن بمقدورها أن تبقى لولا كبار الكهنة، فإن الدول الحديثة أصبحت تعتمد على التحالف بين الوزارة ومجلس الإدارة (الحكومة والشركات)، إذ أخذ الاقتصاديون دور كبار الكهنة.

وهكذا نظمت الولايات المتحدة - بمساعدة متواضعة من أصدقائها - نظاما دوليا جديدا يقوم في حقيقته على القوة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية، وتتوسطه مجموعة من الاتفاقيات والمؤسسات الدولية. كان هذا النظام في بعض النواحي امتدادا للتعاون الذي حدث في زمن الحرب بعد العام 1941، وكان في نواحٍ أخرى رد فعل على الكساد وسياسات الاكتفاء الذاتي التي أطلقها، وكان في جوهره بحثا عن الأمان من أهوال الأعوام 1914 - 1945 في شكل يتوافق مع التقاليد والتفضيلات الأمريكية.

كانت ترتيبات ما بعد الحرب دفعة للعالم نحو إعادة التعولم. فرفعت حدود السرعة داخل الشبكة الكونية، مع بدء انتقال المعلومات والمال والسلع والتقنية أسرع كثيرا منها قبل العام 1945. حققت الولايات المتحدة بفضل قوتها وهيبتها مستوى عاليا من التعاون السياسي والعسكري بين أصدقائها. ووجد حلفاء الولايات المتحدة أن المكافآت الناتجة من مشاركتهم في هذا الترتيب تجبّ السخط على الغطرسة الأمريكية. وتزعمت الشركات الأمريكية بعد العام 1945 عملية سريعة لكنها جزئية لإحياء العولمة الاقتصادية، وذلك بفضل القواعد الجديدة وكفاءة صناعاتها، وبقليل من المساعدة العرضية من الحكومة.

ارتاب ستالين في هذا المشروع كاملا، وتذكر أن الولايات المتحدة وبريطانيا واليابان عملت للقضاء على الثورة البلشفية من خلال التدخل في الحرب الأهلية الروسية، وكانت لديه شكوك في أن الأمريكيين والبريطانيين في أثناء الحرب العالمية الثانية أخّروا فتح جبهة ثانية (وعدوا بها في العام 1942، لكنهم لم ينفذوها إلا في يونيو 1944 عبر إنزال نورمندي في فرنسا) ليجعلوا الاتحاد السوفييتي يتحمّل وطأة القتال ضد الألمان. وكان إعداده الأيديولوجي يقوم على أن الرأسمالية عدو الشيوعية الفتاك. وكان الرجل بطبيعته شكاكا إلى حد جنون الاضطهاد.

أراد ستالين من نظام ما بعد الحرب أن يضمن ألا يعيش الاتحاد السوفييتي أهوال الأعوام 1941 - 1945 مرة أخرى. كان يأتي على رأس أولوياته ضمان ضعف ألمانيا وخلق دول حاجزة طيعة بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا. ولم يكن مهتما بحماية الاقتصاد العالمي من الكساد، لأنه لم يكن يستطيع أن يعرض اقتصاده المخطط لاهتزازاته الفوضوية. وعندما أظهر الأمريكيون ميلا إلى إعادة بناء ألمانيا واليابان في

مسعاهم لإنعاش الاقتصاد العالمي، اعتبر ستالين ذلك مؤامرة ضد الاتحاد السوفييتي. ونتيجة لأن ستالين كان يمتلك أكبر جيش في العالم في العام 1945، وأن معظم ذلك الجيش كان موجودا في أوروبا الشرقية، فقد تمكن من الحصول على الدول الحاجزة الطيعة التي أرادها، ومن بينها الثلث الشرقي من أراضي ألمانيا. وانضم ستالين إلى الأمم المتحدة في العام 1945، لكنه رفض المشاركة في المؤسسات التي أقيمت لإدارة الاقتصاد العالمي، ورفض المشاركة بأي نصيب من المال الذي قدمته الولايات المتحدة لإعادة بناء أوروبا من خلال مشروع مارشال الذي بدأ في العام 1947. واستخدم ستالين الأداة التي كانت بحوزته، وهي الجيش الأحمر، لتعزيز سيطرته على أوروبا الشرقية، وهي العملية التي تضمنت نقل معظم صناعاتها إلى الاتحاد السوفييتي. وبالتزامن مع ذلك، استخدم الأمريكيون الأداة التي كانت بحوزتهم، وهي المال، لإعادة بناء صناعة أوروبا الغربية ومن ثم خلق روابط ضمنت دولا طيعة بلا إكراه، لاسيما بريطانيا وألمانيا الغربية. واشتعل التنافس الأمريكي - السوفييتي الذي عرف باسم الحرب الباردة بداية من العام 1948.

ساعد الفلاحون الصينيون وعلماء الفيزياء السوفييت في تحسين موقف ستالين في الحرب الباردة في العام 1949. أولا، وفّر له علماء الفيزياء - بمساعدة من جواسيسه - قنبلة ذرية، أنهت الاحتكار الأمريكي، وكانت خطوة واسعة نحو التكافؤ العسكري. وفي أكتوبر 1949 تغلب جيش من الفلاحين بقيادة الحزب الشيوعي الصيني الذي تزعمه ماو تسي تونغ على الغومينداننغ في حرب أهلية، وأعادوا توحيد الصين. زعم اليابانيون خلال الحرب العالمية الثانية أنهم ذاهبون لاستئصال شأفة الشيوعية من الصين، لكنهم ساعدوا – من دون قصد - في صعودها إلى السلطة، تماما كما ساعد هتلر – من دون قصد - في جعل الاتحاد السوفييتي قوة عظمى. فقد أثبتت قوات ماو التزامها وبطولتها في قتال اليابانيين، وامتنعت عادة عن الإساءات الطائشة بحق الفلاحين من النوع الذي تورطت فيه قوات الغومينداننغ. وتبنى الشيوعيون برنامجا مشابها لبرنامج التايبينغ قبل نحو قرن، يقوم على انتزاع الفلاحين أملاك مُلاك الأراضي، وتحرير النساء من قهر الرجال، والاستعاضة عن التراتبية الكونفوشية بالمساواة الاجتماعية، وتغليب الانضباط والأخلاق، وطرد الأجانب. لكنهم استعاضوا عن اللاهوت التوفيقي الذي ميّز التايبينغ بأيديولوجيا تقوم على المبادئ الماركسية

كما أعيد تفسيرها في كتابات لينين والتجربة السوفييتية، مع توفيقها مع الواقع الصيني. وفي حين اشتكى ماركس من «بلاهة الحياة الريفية»، واستغل السوفييت فلاحي الاتحاد السوفييتي بلا رحمة، أعلن ماو أن الفلاحين - الذين كانوا كثيري العدد في الصين وكان والداه منهم - يمكن أن يكونوا طبقة ثورية جنبا إلى جنب مع البروليتاريا، الذين لم يكن في الصين الكثير منهم. وتمكن ماو، باستخدام هذا البرنامج والتنظيم العسكري الجيد والمساعدين الممتازين وقليل من المساعدة من ستالين وكثير من حماقة الغومينداغ، من السيطرة على الصين البرية – من دون تايوان - في شهر أكتوبر 1949.

أوجدت الثورة الصينية - لفترة قصيرة - كتلة شيوعية يضاهي حجمها حجم الكتلة التي كانت الولايات المتحدة تتزعمها. أظهرت هذه الكتلة قوتها في الحرب الكورية (1950 - 1953) عندما قاتلت الجيوش الصينية بنجاح ضد تحالف بقيادة الولايات المتحدة، ما أدى إلى تقسيم كوريا. غير أن الصينيين والسوفييت لم يبلغوا يوما مستوى التعاون السلس الذي تحقق ضمن الكتلة الغربية، إذ فرقتهم اختلافات أيديولوجية حول الماركسية، وكان يقبع خلفهم تاريخ من الاحتكاك الروسي - الصيني المتقطع يرجع إلى العقد قبل الأخير من القرن السابع عشر. كان البلدان يقومان على نزعة قومية قوية ويسعيان إلى الاكتفاء الذاتي الاقتصادي. كانت لدى الطرفين أفكار متعارضة عن كيفية مواجهة العدو الرأسمالي، إذ كان ستالين وخلفاؤه من بعده (مات في العام 1953) يتبنون مقاربة حذرة، في حين رأى ماو أن الصينيين كانوا من الكثرة التي تمكّنهم من تحمُّل مخاطرة التعرض لهجوم نووي أمريكي. ومن المفهوم أن هذا الموقف المختال بثّ الرعب في قلوب السوفييت أنفسهم[6].

ولذلك فبعد عشر سنوات من تحالفهما ضمن التضامن الاشتراكي، افترقت الصين والاتحاد السوفييتي، وكان ذلك بداية النهاية للاتحاد السوفييتي. وفي العامين 1968 - 1969 وقعت اشتباكات بين جيشيهما على امتداد حدودهما الطويلة. ومنذ ذلك الحين، اضطر السوفييت إلى الاحتفاظ بجزء كبير من قواتهم العسكرية على طول الحدود الصينية. وإبان أوائل العقد الثامن من القرن العشرين أخذت الصين تلعب بالورقة الأمريكية، وأقامت علاقات ديبلوماسية مع الولايات المتحدة، ما ترك السوفييت محاصرين، ورفع إنفاقهم العسكري إلى حد أعجز اقتصادهم عن

التحمُّل. وبحلول العقد الثامن من القرن اقترب السوفييت من حدود ما يمكن لاقتصادهم الموجَّه أن يحققه. كان السوفييت قد نقلوا معظم الفلاحين إلى العمل الحضري، بالتزامن مع ميكنة معظم الزراعة، وأخرجوا النساء للعمل خارج الفضاء المنزلي على نطاق واسع، إذ ألزموهن بتحمُّل الأعباء المضاعفة للعمل بأجر إضافة إلى العمل المنزلي، وهي وضعية محبطة للإنجاب. أدى هذان التحوُّلان إلى رفع الإنتاجية بصورة ملحوظة، لكنهما كانا ورقتين تستخدمان مرة واحدة فقط. وقد أعاق النظام السوفييتي الابتكار التقني والتنظيمي بسبب عدم وجود سوق تنافسي للسلع أو مكافآت للمبتكرين. لذلك وسَّع السوفييت نظاما صناعيا بُني على الفحم والصُّلب - كان أحدث ما في عصره خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر - بدلا من تطويره باستمرار، ما فرض عليهم صعوبة تقنية ومالية في الاحتفاظ بمُجَمَّع صناعي - عسكري ضخم. وحرمت الزراعة السوفييتية من تطوُّرات استيلاد المحاصيل، وظلت راكدة، ومع نهاية العقد الثامن من القرن لم تستطع أن تطعم السكان.

وخلال العقدين السابع والثامن من القرن العشرين رد الحكام السوفييت على هذا الضعف بأن جعلوا من أنفسهم مُصدِّرا أساسيا للنفط والغاز السيبيريين إلى أوروبا الغربية. عزَّز النفط الرخيص تسلط الإمبراطورية السوفييتية على الدول الصناعية التابعة لها في أوروبا الشرقية التي لم تستطع أن تتحمَّل الأسعار العالمية. وعندما تضاعفت أسعار النفط العالمية ثلاثة أضعاف في العام 1973 ومرة أخرى في العام 1979 تحوَّل الاتحاد السوفييتي لفترة قصيرة إلى مشيخة نفطية عملاقة قادرة على استيراد السلع الاستهلاكية والتقنية الجديدة و - مما أثار السخط - القمح الأمريكي. لكن سرعان ما انفجرت هذه الفقاعة عندما انهارت أسعار النفط في الأعوام 1984 - 1986، ما قوَّض الاقتصاد السوفييتي الذي أصبح أبعد عن الاكتفاء الذاتي ووجد نفسه مرة أخرى عرضة لسوط تقلبات الأسعار الدولية.

تصدعت الشرعية السياسية السوفييتية هي الأخرى، إذ أدت الاتصالات والاحتكاكات الجديدة إلى تقويض العقد الاجتماعي السوفييتي. دأب الاتحاد السوفييتي على تبرير المشاق اليومية بوعود مفرطة عن المستقبل الوردي، وهو ما بدا معقولا لفترة، لاسيما عندما كان الاقتصاد ينمو سريعا، وكان المواطنون العاديون خلال العقد السادس من القرن العشرين يعرفون أنهم أفضل حالا من الناحية المادية

من آبائهم وأجدادهم، ولذلك تقبل كثيرون السيطرة السياسية المحكمة، وذلك هو العقد الاجتماعي الذي ميّز الاتحاد السوفييتي. ومادام أداء الاقتصاد مُرضيا، نجح هذا العقد في تسيير الأمور، حتى بعد وفاة ستالين ظل بمقدور الدولة البوليسية القمعية أن تطمئن بعض الشيء. لكن بعد العقد الثامن من القرن العشرين اتضح جليا أن اقتصاد الاتحاد السوفييتي لن يتمكن من مواصلة توفير السلع. وعندما أرخيت القبضة المحكمة عن المعلومات، عرف الناس مدى بؤسهم، عن طريق السفر والسينما وتلفزيون ألمانيا الغربية الذي كان متاحا في ألمانيا الشرقية. أسهمت المعلومات الجديدة في تغيير إطارهم المرجعي، إذ لم تعد المقارنة مع أجدادهم هي التي تحدد نوعية حياتهم، بل المقارنة مع الألمان أو الإيطاليين. كان مما زاد الأمر سوءا أن السوفييت غزوا أفغانستان في العام 1979 لتعيين ديكتاتور تابع لهم، وهو ما انتهى بحرب طويلة شريرة لا شعبية لها. وبحلول منتصف العقد قبل الأخير من القرن العشرين، لم يكن هناك أحد يصدق الحلم السوفييتي.

مع تآكل الاقتصاد والشرعية منح ميخائيل غورباتشوف (ولد 1931) الذي وصل إلى السلطة في العام 1985 مزيدا من حرية المعلومات والتعبير، على أمل إنعاش الاقتصاد من خلال تعريض المجتمع السوفييتي للأفكار والتقنيات الجديدة. وفي العام 1986 وقع حريق في مفاعل نووي في تشيرنوبل، حاول المسؤولون السوفييت أن يتكتموا عليه في البداية، ثم تحوّل إلى كارثة دولية محرجة، إذ نشر إشعاعا في أنحاء نصف الكرة الأرضية الشمالي كافة، وأبرز الحاجة الماسة إلى تحقيق مزيد من الانفتاح المجتمعي. لكن الانفتاح أخرج جني القوميات - لدى الأقليات والروس على حد سواء - من القمقم، ولم يكن غورباتشوف مستعدا لحشره في القمقم مرة ثانية. كان غورباتشوف في عمر الثالثة عشرة فقط عندما غادرت القوات الألمانية التراب السوفييتي، ولم يكن يربطه بالدول الحاجزة في أوروبا الشرقية الارتباط العميق الذي ربط أسلافه جميعا بها. من ذلك أن القوات السوفييتية قمعت انتفاضات في أوروبا الشرقية في الأعوام 1953 و1956 و1968. حتى العام 1981، عندما ثار العمال البولنديون في غدانسك Gdansk، ضغطت السلطات السوفييتية بلا رحمة على الحكومة البولندية لقمعهم. لكن غورباتشوف كان يرى الأمور على نحو مختلف، مع العلم بأن آراءه لم تكن رائجة بين المتشددين الذين أرادوا الاعتماد

على السياسات الموثوقة، وهي القمع في الداخل والمغامرة في الخارج. وفي العام 1989 رفض غورباتشوف التدخل لمنع الألمان الشرقيين من الهرب إلى ألمانيا الغربية، وسرعان ما انسلت مجموعة الدول الحاجزة كاملة من الفلك السوفييتي. بعد ذلك تفكك الاتحاد السوفييتي نفسه في العام 1991، بالدرجة الأولى لأن مكوّنه الروسي أراد مزيدا من السلطة، ونالت الجمهوريات الأربع عشرة الأخرى المكوّنة للاتحاد استقلالها عن موسكو. خسر السوفييت الحرب الباردة للسبب نفسه الذي خسر المحور الحرب العالمية الثانية بسببه، وهو أنهم لم يتمكنوا من إقامة اقتصاد دولي ابتكاري وتعاوني وتفاعلي لمجاراة الكتلة الأمريكية، إذ ظلوا متشبثين باقتصاد الاكتفاء الذاتي الذي شيّده ستالين والذي لم يستطع أن يتحمّل المنافسة السياسية العالمية طويلا. أما السبب وراء خسارتهم الحرب الباردة من دون حرب، فهو أن غورباتشوف كتبت له الغلبة على خصومه والأكبر منه سنا.

بيد أن الحرب الباردة لم تكن منافسة كلها. فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كانا في حالة صراع دائم، فإنهما تعاونا أيضا. كان من مصلحة الأمريكيين والسوفييت الحيلولة دون اندلاع حرب واسعة النطاق، وقد نجحوا في ذلك - للمفارقة - من خلال بناء ترسانات نووية ضخمة، جعلت تكاليف الحرب الشاملة غير مقبولة للعقلاء، ومن حسن الحظ أنه لم يصل مجانين إلى السلطة. وتبادلت الدولتان المعلومات كرها من خلال التجسس إحداهما على الأخرى باقتدار لم يمكن إحداهما من إخفاء الكثير عن صاحبتها. وبحلول العقد قبل الأخير من القرن العشرين أصبحت أقمار التجسس الصناعية قادرة على التعرف على أي شيء على الأرض أكبر من قارورة بيرة. وكبح الأمريكيون والسوفييت النزعة القتالية لدى جنرالاتهم وسياسييهم المتهورين، ولدى الدول التابعة لكل منهما فيما وراء البحار، ما منع الحروب بالوكالة إلا في المناطق الفقيرة - أنغولا وجنوب شرق آسيا - التي لم تكن الهزيمة أو النصر فيها مهما إلا للهيبة بالدرجة الأولى. وبداية من أواخر العقد السادس من القرن العشرين انخرطت القوتان العظميان في تبادل أكاديمي وثقافي. وخلال العقد الثامن من القرن تكثّف هذا التعاون، وتطوّرت صلات تجارية بينهما، وأحيا الزعماء تقليد لقاءات القمة الذي بدأه ستالين وروزفلت.

من نافلة القول أن ضغوط الحرب الباردة شجعت تعاونا وثيقا بين الولايات المتحدة وحلفائها. فلم تتعهد الولايات المتحدة المؤسسات الدولية التي سبق ذكرها

فقط، بل أشرفت على إعادة بناء اليابان وسمحت للشركات اليابانية بالوصول إلى الأسواق الأمريكية، وأقامت كثيرا من التحالفات العسكرية في أوروبا وجنوب آسيا وشرق آسيا، وموّلت التبادل الأكاديمي على نطاق غير مسبوق، وفتحت شركاتها فروعا لها في العشرات من الدول، وسمحت للشركات الأجنبية بالعمل على أراضيها. كان لهذا النوع من التعاون دور كبير في ترجيح كفة الجانب الأمريكي على السوفييتي. والسوفييت من جانبهم، وعلى الرغم من الشقة التي عزلتهم عن الصينيين، وعلى الرغم من الثورات في أوروبا الشرقية، أقاموا تعاونا بين حلفائهم، كان ضعيفا في جانبه الاقتصادي، لكنه كان قويا في جانبه العسكري. وخلال العقد السادس من القرن العشرين نجحت عدة دول أوروبية غربية بقيادة الخصمين السابقين فرنسا وألمانيا في تكوين المجموعة الاقتصادية الأوروبية التي كان من بين أهدافها الحيلولة دون سيطرة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتي على أوروبا سيطرة كاملة. وضمت المجموعة الاقتصادية الأوروبية تدريجيا مزيدا من الدول، وتبنت مزيدا من المسؤوليات. وبحلول العقد الأخير من القرن العشرين صارت المجموعة التي أصبحت تسمى الاتحاد الأوروبي تعمل ككيان أعلى من الدول أو دولة فوقية كبرى تمارس ضغوطا قوية على الأعضاء في أمور السياسات الزراعية والاقتصادية والهجرة، وضغوطا أضعف في أمور البيئة والتعليم والمعايير التقنية. وعلى ذلك فإن الحرب الباردة مع أنها كانت في الظاهر مجرد منافسة قاسية، فإنها عزّزت التعاون والتكامل، في الأغلب على الجانب الأمريكي، لكن أيضا داخل الكتلة السوفييتية، وحتى بين الكتلتين.

تصفية الاستعمار

خسرت القوى العظمى إمبراطورياتها في أثناء انشغالها بحروبها الحامية والباردة. بحلول العام 1914 كانت القوى الصناعية قد سيطرت على معظم الكرة الأرضية، وخلال العقد الرابع من القرن العشرين مدّت اليابان وإيطاليا إمبراطوريتيهما إلى الصين وإثيوبيا على التوالي. لكن قبل ذلك - وتحديدا في العام 1918 - كانت إمبراطوريات العالم قد بدأت تتفكك بسبب إجهاد الحرب الشاملة وتأثير القومية وانتشار المعلومات عموما، وفنون الحشد السياسي تحديدا. وبحلول

العام 1960 كانت الفجوة التقنية والعسكرية التي تفصل الضعفاء عن الأقوياء أكبر منها في العام 1914، لكن حتى الضعفاء أصبحوا منظمين بما يكفي لإقناع سادتهم الاستعماريين بأن الإمبريالية لم تعد تجزئ.

دمرت الحرب العالمية الأولى الإمبراطوريات الروسية والعثمانية والنمساوية - المجرية في غرب أوراسيا. لكن سرعان ما أعاد البلاشفة بناء الإمبراطورية الروسية، وسلّحوها بأيديولوجيا جديدة، وقبلوا حدودا سياسية مختلفة. لكنهم استعادوا الإمبراطورية البيروقراطية المركزية. واختفت الإمبراطورية العثمانية إلى الأبد، بعد أن خسرت معظم أراضيها في البلقان قبل العام 1914 لمصلحة النزعة القومية العارمة لدى اليونانيين والصرب والبلغار، ثم فقدت أراضيها العربية من خلال تسوية السلام للعام 1919 التي منحت هذه البلاد لفرنسا وبريطانيا من خلال عصبة الأمم. وكان مخططا أيضا تنفيذ تقسيم مماثل لأراضي تركيا نفسها، لكن الثورة القومية التركية بقيادة مصطفى كمال حالت دون ذلك(*). وقبِل كمال إنهاء الإمبراطورية راضيا لمصلحة تأسيس دولة قومية تركية، لكنه رفض أن ينفصل الأكراد، وهم أقلية كبيرة في شرق تركيا، ما أورث تركيا الحديثة مشكلة نكدة. وتفككت الإمبراطورية النمساوية - المجرية إلى أربع دول أوروبية منفصلة في العام 1919، شملت كل منها أقليات إثنية متململة، وأعطيت أجزاء من أراضي الإمبراطورية لدول مجاورة. وبناء على ذلك فإن الفورة الأولى لتصفية الاستعمار أوجدت بضع دول جديدة فقط قبل أن تنتهي، بينما تركت كثيرا من المشكلات للمستقبل. وتحوّلت ثلاث من الدول الجديدة - بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر - إلى دول تابعة للسوفييت في أواخر العقد الخامس من القرن العشرين، ولذلك كان عليها أن تنال الاستقلال مرة ثانية في العامين 1989 و1990.

بعد الحرب العالمية الأولى نالت أيرلندا - أو معظمها على الأقل - الاستقلال عن بريطانيا. يرجع سعي الأيرلنديين إلى الحرية إلى قرون بعيدة، وقد غذّته المظالم

(*) كانت القسطنطينية «مشتهى العالم»، فكان الاستيلاء عليها حلما لليونان وروسيا وبلغاريا، فيما كان الحلفاء يريدون أن يجعلوها مدينة دولية، وكانت لهذه الدول أيضا أطماع في الأقاليم التي شكلت الدولة التركية نفسها. وبعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، شرعت هذه الدول في تحقيق طموحاتها، فاستولت بلغاريا على تراقيا، واحتلت اليونان إزمير، وشقّ جيشها طريقه إلى إسطنبول المحتلة من الحلفاء. لكن الغلبة كانت من نصيب أنقرة التي نظم فيها مصطفى كمال أتاتورك جيشا، وأخذ الأتراك الرافضون للاحتلال يتوافدون عليها، ومنها زحف جيش «الوطنيين» واسترد إزمير وطرد اليونانيين ووصل إلى إسطنبول التي تفاوضوا فيها على انتشار الجيش التركي في تراقيا ورحيل القوات الأجنبية. راجع كتاب «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم». [المترجم].

الاقتصادية والانقسام الكاثوليكي - البروتستانتي. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى استغل القوميون الأيرلنديون انشغال بريطانيا بالقتال في فرنسا وأطلقوا ثورتهم في العام 1916 التي قمعتها القوات البريطانية بلا رحمة، لكن بعد الحرب رأت الحكومة البريطانية أن استمرار السيطرة على أيرلندا سيكون مكلفا. لذلك، وبعد مفاوضات مطولة، وُلدت جمهورية أيرلندا في العام 1922 التي لم تترك للبريطانيين إلا المنطقة الصغيرة المعروفة باسم أيرلندا الشمالية ذات الأغلبية البروتستانتية. ترك هذا الترتيب كثيرا من المشكلات للمستقبل.

حدثت فورة ثانية أكبر لتصفية الاستعمار بين العامين 1943 و1975، حررت معظم مستعمرات العالم. نتجت هذه العملية من إعادة الهيكلة السياسية التي شهدتها المجتمعات الاستعمارية. كانت الجهود الأولى لمقاومة الإمبريالية الصناعية عنيفة وانتحارية في معظم الأحيان. لكن الصراع تطلب أسلحة جديدة. وقد استغل الأفارقة والهنود وغيرهم الفرص التي أتاحتها تقنيات الاتصال والنقل الجديدة. فقد درس بعضهم في أوروبا أو الولايات المتحدة وتعلموا حول الصراعات السياسية في الأماكن الأخرى. وشكّلوا جماعات ضغط سياسية، كان من أبرزها المؤتمر - حزب المؤتمر حاليا - الذي تأسّس في الهند في نحو العام 1885. عملت هذه الجماعات على تسخير القوة الضامة للنزعة القومية التي نجحت في مستعمرات متجانسة إثنيا مثل فيتنام أو كوريا. وأخذ القوميون في كل مكان يبنون تحالفات سياسية فوق إثنية، محاولين خلق أمة في أماكن لم تكن توجد فيها من قبل. كانت لذلك أهمية خاصة في أفريقيا التي سادها التجزؤ الإثني، جزئيا نتيجة لسياسات فرِّق تسد الاستعمارية. وأخذ المفكرون المناهضون للاستعمار في أنحاء العالم كافة يتعاونون معا بداية من العقد الثالث من القرن العشرين. كان الكساد قد جعل الحياة أصعب في معظم المستعمرات، ما رفع مشاعر العصيان. وكانت الاقتصادات الاستعمارية عموما تعاني نقطة ضعف تمكن القوميون المنظمون المناهضون للاستعمار من استغلالها، إذ اعتمدت عائدات هذه الدول على صادرات المحاصيل أو المعادن التي كانت تمر من خلال أعناق زجاجات ممثلة في خطوط السكك الحديد والموانئ، ولذلك فعندما كان عمال السكك الحديد أو عمال الموانئ يضربون، كانوا يعرضون الدولة الاستعمارية للإفلاس، وهي نقطة الضعف التي استغلها القوميون بداية من العقد الرابع من القرن العشرين.

أسهمت الحربُ العالمية الثانية من عدة نواحٍ في تهيئة المشهد للفصل الختامي. فمن خلال خدمتهم العسكرية فيما وراء البحار اتسعت آفاق ملايين الرجال من الهند والهند الصينية وأفريقيا وأماكن أخرى، وتعلموا المهارات العسكرية الحديثة، وسمعوا الدعاية الأمريكية والبريطانية القائلة إنهم خاضوا الحرب من أجل الحرية، وسمع بعضهم - لاسيما في الهند وشمال أفريقيا - الدعاية اليابانية والألمانية تقول لهم إن الوقت قد حان للتخلص من أغلال الحكم الاستعماري. دمرت الحرب العالمية الثانية إمبراطوريتي إيطاليا واليابان تماما، ما حرر الإثيوبيين والليبيين والكوريين من السيطرة الأجنبية. وأضعفت الحرب اقتصاد فرنسا وهولندا وبريطانيا وعزيمتهم. وفي أثناء الحرب أصبحت سورية ولبنان مستقلتين تماما عن فرنسا. وبعد عقود من المقاطعة والإضرابات والتظاهرات ضد الحكم البريطاني، قدم الهنود في أثناء الحرب العالمية الثانية ضريبة الدم نيابة عن البريطانيين، ما سهّل عليهم التفاوض على استقلالهم في العام 1947.

عملت فرنسا وهولندا وبريطانيا بعد الحرب على إعادة تأكيد السيطرة الاستعمارية في كل الأماكن الأخرى، لاسيما في جنوب شرق آسيا التي طردهم الجيش الياباني منها في العامين 1941 و1942. لكن النزعة القومية المتصاعدة في جنوب شرق آسيا كانت تتطلب عزيمة أقوى مما أمكن للقوى الاستعمارية أن تظهره. فاستسلم الهولنديون في إندونيسيا في العام 1949 وسلّموا البلاد لرجال كانوا قد شحذوا مهاراتهم السياسية والعسكرية من خلال التعاون مع المحتلين اليابانيين. وأذلت القوات الفيتنامية الفرنسيين في العام 1954، لكن نتيجة لأن القوميين المناهضين للاستعمار كانوا شيوعيين، فقد تورطت الولايات المتحدة تدريجيا في الحرب نيابة عن فرنسا، ما ولّد صراعا طويلا وداميا قبل أن يستسلم الأمريكيون في العام 1975.

تركت الحرب آثارها في أفريقيا، وإن كان بدرجة أضعف مما أحدثته في آسيا. وهنا أيضا قامت تصفية الاستعمار على تطوُّر التنظيم السياسي والمهارة والعزيمة لدى القوميين المناهضين للاستعمار الذين رفعوا تكاليف استمرار الإمبريالية فوق المستوى الذي كان يمكن أن تتحمّله فرنسا وبريطانيا. في بادئ الأمر، وعلى غرار ما حدث في جنوب شرق آسيا، حاولت القوى الاستعمارية أن تقوي سيطرتها واستثمرت في خطط جديدة للبنية التحتية والتنمية الاقتصادية. وكانت في ذلك تحتاج إلى

تعاون النخبة المتعلمة ومباركة الولايات المتحدة التي كانت لديها شكوك في إمكانية استمرار الاستعمار الأوروبي، على الأقل في الأماكن التي لم يكن للشيوعية مكان فيها.

لكن الأحداث تجاوزت هذه الخطط. وأخيرا، أقنعت الحرب القذرة في الجزائر التي كانت شعبيتها في تراجع مستمر (1954 - 1962) فرنسا بالتخلي عن إمبراطوريتها في أفريقيا. كانت القوة البشرية الجزائرية والمغربية قد أصبحت أساسية للقوات الاستعمارية الفرنسية بسبب قلة الشباب الفرنسي، ولذلك فمع فقدان مستعمراتها في شمال أفريقيا، لم تستطع فرنسا أن تقاوم الضغوط المتزايدة من أجل الاستقلال. ثم جاءت أزمة السويس في العام 1956، لتزيد من ضعف فرنسا، ومعها بريطانيا. ردا على خلافات حول تمويل مشروع السد العالي أمَّم الزعيم المصري جمال عبدالناصر قناة السويس التي كان البريطانيون يديرونها حتى ذلك الحين، فصعَّدت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل الموقف بهجوم مفاجئ على مصر، لكن الولايات المتحدة هددت بقطع النفط والأموال التي نجَّت بريطانيا وفرنسا من الغرق، ما أجبر الدولتين على انسحاب مذل. كانت فرنسا وبريطانيا في حاجة إلى دعم أمريكي كامل لمقاومة التحديات التي فرضتها النزعة القومية المناهضة للاستعمار، وهو ما لم تمنحه لهما الولايات المتحدة. وأدرك أنصار استقلال أفريقيا ذلك واستغلوه بأن ضاعفوا جهودهم. وبحلول العام 1963 كانت أفريقيا كلها قد نالت حريتها، مع أن القوميين في موزمبيق وأنغولا واصلوا الكفاح ضد البرتغال حتى العام 1975.

تكشَّفت المرحلة التالية من تصفية الاستعمار مع انهيار الاتحاد السوفييتي الذي ناقشناه فيما سبق. واليوم لم تعد هناك مستعمرات أو بلدان تابعة أو أقاليم تحت وصاية الأمم المتحدة إلا في عدة جزر وجيوب صغيرة، لا تحوي مجتمعة إلا عددا ضئيلا من السكان. ولاتزال الصين إمبراطورية من نوع ما، إذ تسيطر على جماعات مسلمة وتبتية لو أعطيت لهم حرية الاختيار لانفصلوا عنها. وكذلك الحال في إندونيسيا، ذلك الأرخبيل الذي تقطنه عدة جماعات قد تفضل التحرر من السيطرة الجاوية. لكن لا ريب في أن عصر الإمبراطوريات الذي نتج من تفاوتات كبرى تشكَّلت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد ولّى وأصبح من الماضي، وإن اتخذت تبعية الضعفاء للأقوياء أشكالا أخرى.

أنتج تفكك الإمبراطوريات منذ العام 1918 أكثر من مائة دولة جديدة، ظلت في معظمها ضعيفة وتابعة لدخلاء أقوياء. فلم تتحوّل المهارات السياسية التي عجلت بتصفية الاستعمار إلى حكم جيد بسهولة. وبمجرد رحيل السادة الإمبراطوريين أثبتت الوحدة بين الإثنيات المختلفة أنها مطلب مراوغ. كان التصنيع الناجح في حاجة إلى استثمار ومهارات وأسواق لم تتوافر إلا في حالات نادرة. وفرض النمو السكاني السريع صعوبة في الحفاظ على مستويات المعيشة، لاسيما في أفريقيا. أما المستعمرات السابقة الأكثر نجاحا اليوم من الناحية الاقتصادية، فهي تلك التي حُكمت بأقسى ما يكون (كوريا الجنوبية) وبأرفق ما يكون (قبرص وهونغ كونغ). ويرجع حظها السعيد إلى سكانها جيدي التعليم نسبيا والتضامن الإثني الذي جعل النزعة القومية قوة توحيدية (ما عدا قبرص)، ويرجع في بعض الحالات إلى موقعها الإستراتيجي الذي جعل الولايات المتحدة تتعهدها بالدعم. من ذلك مثلا أن كوريا الجنوبية وتايوان المزدهرتين والمستقرتين ساعدتا في الصراع ضد الشيوعية في شرق آسيا، ولذلك كان دعمهما ماليا وفتح الأسواق الأمريكية أمامهما مواتيا للمصالح الأمريكية هناك.

أما الدول التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي السابق بعد العام 1991 فلم تزدهر، بل انكمشت اقتصاداتها بنحو ما بين عشرة وثلاثين بالمائة بسبب ضعف تنافسية صناعاتها على المستوى الدولي، ومنها أوزبكستان التي تخصصت في زراعة أقل أنواع القطن جودة في العالم، ولم تجد له مشترين بعد العام 1991، وكانت دول سوفييتية سابقة كثيرة لا تمتلك الكثير من الفحم أو النفط في أراضيها، ما أفقدها إعانات الطاقة السوفييتية بعد العام 1991. وانهارت روسيا نفسها اقتصاديا، في تناقض صارخ مع تجربة اليابان وبريطانيا وفرنسا والبرتغال وهولندا التي حققت جميعها ازدهارا قياسيا بعد تفكيك إمبراطورياتها. أثقلت السنوات السوفييتية كل الدول الوريثة بمشكلات بيئية حادة وصراعات إثنية كامنة - وظاهرة حاليا - ونخب سياسية ثقيلة الحركة. ومن بين الدول التي كانت في السابق تابعة للاتحاد السوفييتي، تبدو بولندا والمجر وجمهورية التشيك أفضل المرشحين لمحاكاة نموذج كوريا الجنوبية وتايوان، والقدرة على تسخير النزعة القومية، وبناء دول مستقرة لها شيء من الشرعية، وأخذ طريق الازدهار بشيء من التردد.

الازدهار الطويل وإعادة العولمة

في العام 1962 سجل مطرب البلوز الأمريكي جون لي هوكر John Lee Hooker أغنية تبدأ بالكلمات Boom boom boom boom التي تقدم تلخيصا جيدا للنصف الثاني من القرن العشرين(*). فقد شهد السكان واستخدام الطاقة وإنتاج المعرفة العلمية والتقنية جميعها ازدهارا طويلا، كما أوضحنا في صدر هذا الفصل. وحدث الازدهار الطويل الرابع في الاقتصاد العالمي، ونتج بالدرجة الأولى عن الازدهار في الجوانب الثلاثة الأخرى، وساعد في تقدم كل منها. فقد كانت الجوانب الثلاثة الأولى مزدهرة على مدار القرن، وحتى من قبله، في حين لم يأتِ الازدهار الاقتصادي إلا بعد العام 1950 أو نحوه. ومنذ ذلك الحين، بدأت ميادين الازدهار الأربعة تتطوّر معا وبعضها يدفع بعضا.

دخل الاقتصاد العالمي أزهى عصوره بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، إذ تضاعف ستة أضعاف بين العامين 1950 و1998. وفي ربع القرن السابق للعام 1973، كان الاقتصاد العالمي ينمو بمعدل نحو خمسة في المائة سنويا وثلاثة في المائة سنويا لكل فرد. وحتى عندما تباطأ النمو الاقتصادي بعد العام 1973، كان معدله أسرع منه في أي وقت سابق للعام 1950. لذلك تعد هذه الحقبة ككل الأكثر تفردا في تاريخ النمو الاقتصادي، مع أن كثيرا من الأفراد الذين لم يعايشوا غيرها، يتصورون أن تلك هي طبيعة الأمور.

حدث هذا النمو المتفرد بفضل النفط والطاقة، والطب والنمو السكاني، والعلم والتقنية، أي ميادين الازدهار الطويل الثلاثة. وحدث أيضا نتيجة لأن النساء المتزوجات أصبحن ينجبن عددا أقل من الأطفال، ما مكّنهن من دخول قوة العمل بأجر بأعداد غير مسبوقة، ولأن الفلاحين هجروا الأرض بسرعة قياسية طلبا للوظائف الحضرية، وهما تحوّلان اجتماعيان فريدان رفعا أرقام الناتج المحلي الإجمالي بقوة. على وجه التحديد حدث الازدهار الاقتصادي الطويل بفضل انتشار التقنيات الصناعية الحديثة مثل المصانع التي تعمل بالكهرباء إلى بعض المناطق وفيرة السكان. وفي أوروبا أحدثت إعادة بناء المشهد الصناعي فيما بعد الحرب نموا

(*) تعني كلمة boom «ازدهار»، وإن كانت في الأغنية نغمة صوتية بلا معنى. [المترجم].

سريعا بين العامين 1950 و1973، لكن يظل النموذجان العظيمان لذلك النمو هما اليابان التي بلغ متوسط نموها الاقتصادي بين العامين 1950 و1973 نحو عشرة في المائة سنويا، والصين التي بلغ نموها الاقتصادي بين العامين 1978 و1998 نحو ثمانية في المائة. كانت سياسات الصين الاقتصادية بعد ثورة العام 1949 تشمل مكوِّنات كارثية حقا، من أهمها الزراعة التعاونية وخطة التصنيع التي سُميت «قفزة واسعة للأمام» والتي أريد بها أن تحقق للصين الاكتفاء الذاتي وأن تمكّنها من تجاوز بريطانيا في إنتاج الصُلب، وهو هدف كانت له أهمية رمزية في نظر ماو. وبالفعل أنتجت الخطة كميات ضخمة من الصُلب الرديء، لكن مع مجاعة قتلت ما بين عشرين وأربعين مليون صيني. وبعد موت ماو في العام 1976 أعادت الصين النظر في توجهاتها، فتخلصت من المزارع التعاونية وحرّرت الصناعة والتجارة. وأدى تحويل مئات الملايين إلى أعمال أكثر إنتاجية إلى إحداث نتائج مذهلة في الصين، إذ أقبل مجتمع السوق الأصيل على ليبرالية السوق بحماس. وحدث نمو لا يقل روعة في دول أصغر في شرق آسيا بعد العام 1980، منها على سبيل المثال كوريا الجنوبية وتايوان وهونغ كونغ وسنغافورة. شكّلت هذه التطوُّرات مجتمعة قفزة واسعة حقيقية للأمام في شرق آسيا.

نتج هذا الازدهار الطويل عن إعادة عولمة الاقتصاد العالمي التي منحت الدول كل العائدات التي تنتج عن التخصص والتبادل. وساعدت المؤسسات الدولية التي أنشئت خلال العقد الخامس من القرن العشرين في إعادة العولمة، تماما كما ساعد فيها الالتزام الأمريكي بفتح الأسواق الأمريكية أمام صادرات أوروبا وشرق آسيا. صحيح أن ذلك الالتزام كان متذبذبا، ولم يمتد على أي حال إلى بعض القطاعات - مثل الزراعة - لكنه كان مقوما سياسيا أساسيا في وصفة النمو الاقتصادي العالمي خلال النصف الثاني من القرن العشرين. أدت إعادة العولمة إلى اشتداد المنافسة بين الشركات، فردّت الشركات الأوفر حظا على المنافسة بابتكارات رفعت معدل الإنتاج بدرجات غير مسبوقة، ومن ذلك أن صناع الصُلب، على سبيل المثال، صاروا ينتجون مزيدا من الصُلب من نفس كميات الحديد الخام والفحم والعمالة.

أدت التجارة دورا كبيرا في الرخاء الاقتصادي الطويل. في العام 1950، كان نصيب السلع المنتجة للتصدير في نفس حجمه تقريبا في العام 1870 وأدنى من حجمه

في العام 1913. لكنه تضاعف بين العامين 1950 و1973، وتضاعف ثلاث مرات بحلول العام 1995. حدثت كبرى الزيادات في التجارة عبر المحيط الهادي بمساعدة تقنية الحاويات الجديدة التي اخترعت خلال العقد السادس من القرن العشرين، لكنها انتشرت بداية من العقد الثامن من القرن. فالحاويات لكونها صناديق كبيرة ذات حجم قياسي يمكن نقلها بالشاحنات والقطارات والسفن، جعلت عمليات التعبئة والتفريغ والتحميل والتنزيل أسهل من الطرق السابقة، ما خفّض الوقت الذي تستغرقه السلع للوصول من هونغ كونغ إلى نيويورك بنحو الثلثين، وخفّض التكاليف بشدة بالاستغناء عن حشود غفيرة من الحمّالين، ويسّر مشاركة شرق آسيا في الاقتصاد التجاري الدولي.

ومع ازدياد ثراء العالم، تراجعت النسبة من الدخل التي كانت تنفق على الغذاء. فأخذ تصدير الغذاء من أماكن مثل الأرجنتين وأستراليا وكندا والولايات المتحدة، الذي كان مهما في الفترة 1870-1913، يفقد أهميته السابقة، ما أحدث تحوّلا في أنماط التجارة العالمية، إذ أخذت التجارة تنحو أكثر وأكثر إلى تبادل سلع مصنّعة في مقابل سلع مصنّعة أخرى. وفي أثناء الازدهار الطويل، حدث نحو ثلاثة أرباع التجارة العالمية بين اليابان وأوروبا وأمريكا الشمالية. بين العامين 1945 و1975 تحديدا حدث اندماج الاقتصاد العالمي بالدرجة الأولى بين الكتل التي تبنت الاكتفاء الذاتي بين الحربين. لكن بعد العام 1980 أخذت التجارة تشمل على نحو متزايد سلعا مصنّعة من البرازيل والمكسيك والصين والهند وإندونيسيا، وهي دول كبيرة كثيرة السكان منخفضة الأجور. وظلت معظم الدول الأفريقية على الهامش ولم تربح إلا القليل من توسّع التجارة العالمية.

يشكّل انبعاث التدفقات المالية جزءا كبيرا من الازدهار الطويل. ولم يكن مشروع مارشال إلا البداية فقط. وخلال العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، أخذ رأس المال ينتقل أسرع وبكميات أكبر من أي وقت سابق، مع أنه كنسبة من إجمالي الاستثمار كان أقل من نظيره في الأعوام 1870-1913. ذهب جزء كبير منه إلى ما يسمى الاستثمار الأجنبي المباشر الذي تفتح فيه شركة في دولة ما مصنعا أو منجما لها في دولة أخرى، وتتحوّل بذلك إلى شركة عابرة الحدود. وورّط الاستثمار الأجنبي الشركات عابرة الحدود في سياسة الدول المضيفة، إذ أرادت هذه الشركات

أجورا منخفضة وسياسات تجارية مواتية وتخفيضات ضريبية وإعانات مالية إن أمكن، بمعنى أنها أرادت مضيفا سخيا. وغدت الشركات الغنية عابرة الحدود تمارس نفوذا كبيرا في الدول الصغيرة والفقيرة والفاسدة بيروقراطيا. بإيجاز أصبحت الشركات عابرة الحدود بداية من العقد السادس من القرن العشرين قنوات مهمة للمعلومات والمال والقوة ضمن الشبكة العالمية، وذلك لأن استثماراتها قد ورّطتها بعمق في المجتمعات المضيفة.

تسارعت التدفقات المالية عندما بدأت «الأمولة» الكبرى للاقتصاد العالمي في أواخر العقد الثامن من القرن العشرين(*). كانت الصعوبات التي شهدها هذا العقد - تباطؤ معدلات النمو وارتفاع معدلات البطالة والتضخم - ناتجة بالدرجة الأولى عن ارتفاع تكاليف الطاقة التي صاحبت تضاعف أسعار النفط ثلاث مرات في العام 1973 ومرة رابعة في العام 1979، وهي مسألة سياسية بالدرجة الأولى. جاء بين الاستجابات لذلك الارتفاع تحوُّل فكري وسياسي نحو تحرير القواعد الحاكمة للتدفقات المالية، وهو ما بدأ في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وتشيلي وبضع دول أخرى. وبفضل اجتماع هذه البيئة التدخلية التي أرخيت حديثا مع التقنيات الجديدة، صار كسب المال من التمويل أيسر كثيرا من كسبه من الإنتاج أو التجارة. أحدث الاتصال عن بعد وأجهزة الحاسوب المُشَبْكة تغييرا جذريا في طرق عمل الشركات، ما مكّن من إجراء الصفقات آنيا في جميع أنحاء العالم بتكاليف تافهة. وغدت زيادة ضئيلة في أسعار الفائدة تتسبب في هجرة مبالغ ضخمة بين عشية وضحاها.

وفي حين اتخذت الأغلبية الساحقة من التدفقات المالية الدولية في الفترة 1870-1914 شكل الاستثمار طويل الأجل في السندات والسكك الحديد والمصانع، فإن رأس المال قصير الأجل المتململ هو الذي أخذ يبحث بعد العام 1980 عن اقتناص الفرص في شكل عملات أو أسهم يرجح أن ترتفع قيمتها. أخذ حجم هذه التدفقات المالية يتضاعف سريعا، ما أدى إلى تقزيم قيمة التجارة العالمية مع نهاية العقد الأخير من القرن العشرين. ففي الأسبوع الواحد كانت أسواق العملات الأجنبية تتعامل في صفقات في حجم الناتج المحلي الإجمالي السنوي للولايات المتحدة. وفي الدول صغيرة

(*) تشير الأمولة financialization إلى توليد الربح عبر التجارة بالمال من دون الدخول في عملية إنتاجية حقيقية، كما في أسواق المال والبورصات. [المترجم].

الحجم ومتوسطة الحجم، مثل تشيلي وتايلند، فرضت قدرة رأس المال على الهرب في لحظة قيودا شديدة على مدى السياسات المتاحة لهذه الدول، وذلك لأنهم إذا لم يلبوا رغبات المستثمرين، فإنهم سيعاقبون سريعا بخفض قيمة عملاتهم وأسعار سنداتهم. لذلك حاولت تلك الدول بشق الأنفس أن تذعن لرغبات رأس المال النقال من خلال معادلة الموازنات وتقييد العرض النقدي، وهو مسار خطر لأنه كان يعني في الأغلب طرد الموظفين الحكوميين وتقليص البرامج الاجتماعية وإجراءات مؤلمة أخرى كان من شأنها أن تثير سخطا شعبيا. خفت حدة الاختيار بين مطرقة هرب رؤوس الأموال وسندان السخط الشعبي - وإن لم تختفِ تماما - بإعلان صندوق النقد الدولي استعداده لإقراض المال للحكومات التي تتبع الإجماعية الجديدة.

ساعد هذا العالم الجديد الشجاع لرأس المال المتململ في ترويض التضخم في الاقتصادات الكبيرة، وإن أدى إلى تفاقمه من حين إلى آخر في اقتصادات أصغر مثل تركيا أو الأرجنتين. لكنه لم يفعل شيئا لحل مشكلة البطالة الدائمة، ولا لتسريع النمو الذي انخفض خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين إلى أدنى من معدلاته في الفترة 1945-1973. ربما تمثّل تأثيره الأساس في تحويل الدخل من العمل إلى رأس المال، ما وسّع سريعا شقة التفاوت داخل المجتمعات وبين بعضها وبعض (راجع ما يلي). كان ذلك بمنزلة مدّ متصاعد، رفع بعض القوارب، وأغرق غيرها. فحظي الأفراد الذين كان في وسعهم أن يعرضوا رأس المال في السوق العالمي بميّزة كبيرة عندما أصبح بمقدور رأس المال أن يهاجر في لحظة بأقل قيود ممكنة. أما الأفراد الذين كانوا يعرضون العمل فقط، فقد كان ازدهارهم ضعيفا، لأن انتقال الأجساد ظل أبطأ وأكثر كلفة وتقيّدا من انتقال المال. كان المصير الأسوأ بانتظار الأفراد الذين لم يكن لديهم ما يعرضوه سوى العمل غير الماهر، إذ لم يجدوا فرصا للهجرة عبر الحدود إلا الهجرة غير الشرعية.

ومع أن الهجرة الدولية كانت صغيرة مقارنة بالنمو في التدفقات التجارية، وضئيلة مقارنة بمحيطات رأس المال التي كانت تتلاطم حول العالم، فإن السنوات التالية للعام 1965 شهدت انبعاثا للهجرة الدولية. فكانت الاقتصادات سريعة النمو الاقتصادي وبطيئة النمو السكاني في حاجة إلى استيراد العمالة، في حين كانت المناطق الفقيرة سريعة النمو السكاني في حاجة إلى تصديرها. وعندما تسارع تعافي ما بعد الحرب في أوروبا بعد العام 1955، بدأت مناطقها الصناعية تجتذب ملايين

العمال من جنوب أوروبا وتركيا وشمال أفريقيا. ومع حلول العقد الثامن من القرن العشرين، أصبحت دول جنوب أوروبا نفسها مستوردا للبشر، بالدرجة الأولى من شمال أفريقيا، وكذلك من أمريكا الجنوبية ومناطق أخرى. فأوروبا التي ظلت تصدّر البشر لأربعمائة سنة، أصبحت جاذبة للمهاجرين من كل حدب وصوب. وبالمثل، أخذت الدول التي اغتنت حديثا من النفط حول الخليج العربي تستورد العمالة من فلسطين وباكستان وكوريا ومناطق أخرى في آسيا. وبحلول العام 1990 كان المهاجرون في الكويت أو المملكة العربية السعودية يقومون بكل العمل اليدوي تقريبا. وبالمثل ساعد ازدهار النفط في نيجيريا (نحو 1975-1983) في جذب ما بين مليونين وثلاثة ملايين مهاجر من غرب أفريقيا، طُرد الكثيرون منهم بالقوة عندما انهارت أسعار النفط. وخلال العقد السابع من القرن العشرين تخلّصت الولايات المتحدة وكندا وأستراليا - الدول التقليدية المتلقية للمهاجرين - من السياسات العنصرية للهجرة، وفتحت أبوابها للأفراد المهرة أو الأغنياء من أي مكان، ما كان يعني على أرض الواقع المهاجرين من شرق آسيا وجنوبها بالدرجة الأولى. ورفعت الولايات المتحدة عدد المهاجرين الشرعيين خمسة أضعاف بين العامين 1965 و1995، وتلقت في الوقت نفسه ملايين المهاجرين السريين، بالدرجة الأولى من المكسيك وأمريكا الوسطى. وضاعفت كندا معدل الهجرة إليها في السنوات نفسها. إجمالا، استقبلت الولايات المتحدة وكندا مهاجرين أكثر عددا من أي وقت سابق في تاريخيهما بحلول العام 2000، مع أن نسبة المهاجرين إلى المولودين في أمريكا كانت أعلى في العام 1913.

وإجمالا فإن النقل الرخيص والمعلومات الرخيصة حول الظروف في دول العالم الأخرى وحصص الهجرة المرتخية شجعت عشرات الملايين على ترك بلدانهم وتجريب حظهم في أماكن أخرى. وفي العام 2000، كان نحو مائة وخمسين مليون إنسان يعيشون مهاجرين، وبلغ التدفق السنوي للمهاجرين الشرعيين نحو مليونين، كان معظمهم - كما كانت الحال في الماضي - من الفقراء وغير المهرة، لكن كانت أقلية كبيرة منهم تمتلك تعليما جيدا ومهارات قابلة للتسويق. كان من السمات المميّزة لأواخر القرن العشرين ذلك العدد الكبير من الفلبينيات اللاتي وجدن وظائف خادمات منزليات ومربيات لدى العائلات الغنية في كل مكان من هونغ كونغ

إلى أثينا إلى نيويورك، وهو ما يعد من دلائل العولمة، إذ كان سوق العمالة للخدم المنزليين في الماضي محليا في كل مكان.

ساعدت دوّامة الهجرة المتسارعة في تخفيف ضغوط النمو السكاني السريع في أماكن مثل الجزائر والسلفادور، ووفّرت عمالا طائعين في أماكن مثل فرنسا والولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، في الأغلب في وظائف لا يقبلها مواطنو هذه البلدان. أخذت هذه الدوّامة الأفراد من أماكن لا يدرّ عملهم فيها عائدا كبيرا إلى أخرى يدرّ فيها عائدا كبيرا. اقتصاديا أثبتت الهجرة أنها مفيدة للجميع، ما عدا الطبقات العاملة في الدول المتلقية، الذين انخفضت أجورهم بسبب منافسة المهاجرين. أما ثقافيا وسياسيا فقد أحدثت هذه الدوّامة الكبرى توترات جديدة، ومن ذلك أن معظم البريطانيين لم يكونوا مرحبين بوجود أعداد كبيرة من الباكستانيين والجامايكيين بينهم، وبالمثل لقي الجزائريون في فرنسا والأتراك في ألمانيا والفلبينيون في الكويت استقبالا باردا.

أما أعقد المشكلات السياسية فقد نشأت في فلسطين، التي أدى التدفق اليهودي عليها إلى احتكاك متواصل مع العرب المحليين ثم إلى أربع حروب بعد تأسيس إسرائيل. انطوى النزاع العربي - الإسرائيلي على عدد من الاتجاهات المهيمنة خلال القرن العشرين: النزعة القومية والنفط والحرب الباردة، لكنه نتج في الأصل عن الهجرة اليهودية إلى ما يعتبره الفلسطينيون أرضهم. كان الديبلوماسيون البريطانيون والفرنسيون في السنوات الصعبة للحرب العالمية الأولى قد وعدوا العرب واليهود كليهما بفلسطين في مقابل الحصول على دعمهما في الحرب. وبعد الحرب منحت عصبة الأمم فلسطين لبريطانيا، التي فتحتها لسيل من الهجرة اليهودية. وبعد الحرب العالمية الثانية، دفعت الهجرة السريعة والعنف اليهوديان، بريطانيا للاستسلام على مضض للضغط الأمريكي والقبول بقيام إسرائيل (1947-1948). فرّ الكثير من الفلسطينيين بعد المذابح التي تعرضوا لها هم وإخوانهم، ثم هاجمت الدول العربية المجاورة إسرائيل فور إعلان قيامها، لكنهم تعرضوا للهزيمة، ما مكّن إسرائيل من توسيع رقعتها مع نزوح مزيد من الفلسطينيين. بالتزامن مع ذلك، رأى الأمريكيون بسبب أهمية النفط العربي – والإيراني - لهم أنه من الحكمة أن يتعهدوا ويسلحوا دولا تابعة لهم في المنطقة لا يتمتع أي منها بدعم شعبي. وبغرض

التحايل على نقص الشرعية، انتحل حكام هذه الدول عادة صورة أبطال القومية العربية ومناصري الفلسطينيين المهجرين والأعداء الألداء لإسرائيل. وهكذا أيضا فعلت النظم المكروهة التي صفت أنفسها مع الاتحاد السوفييتي. وفي الوقت عينه جزئيا بدافع التعاطف مع اليهود في أعقاب المحرقة النازية وجزئيا بسبب المهارات السياسية لليهود الأمريكيين، دعمت الولايات المتحدة إسرائيل بالمال والسلاح بسخاء. كانت الشبكة الكونية مؤثرة هنا أيضا، إذ أسهمت في هذه المعضلة عوامل مثل ضرورة تدفق النفط حول العالم، والسياسة العابرة للقارات للشتات اليهودي، وتصفية الاستعمار، والصعود الأمريكي.

كهربة الشبكة العالمية

كانت الطاقة الرخيصة والنمو السكاني أهم سببين للازدهار الاقتصادي الطويل الذي استفاد أيضا من التقنيات الجديدة. لكن على الرغم من الحاويات كانت تقنية النقل أقل أهمية بكثير منها في أثناء طفرة النمو في الفترة 1870-1913، بينما اكتسبت تقنية الاتصال والمعلومات أهمية أكبر، وهو ما يرجع - بلا ريب - إلى الطاقة الرخيصة التي مكّنت من مواصلة كهربة الكرة الأرضية. أدت كهربة تقنيات الاتصال والحاسوب الجديدة وتطويرها إلى خفض تكاليف المعلومات، أحيانا إلى الصفر. من ذلك أن المكالمة الهاتفية لثلاث دقائق بين لندن ونيويورك كانت في العام 1930 تتكلف ثلاثمائة دولار، انخفضت في العام 1970 لنحو عشرين دولارا، ثم جاءت الأقمار الاصطناعية التجارية والألياف البصرية ومعالِجات الحاسوب الدقيقة وإلغاء القيود على أسواق الاتصال عن بعد خلال العقد قبل الأخير من القرن العشرين لتخفّض تكاليف الاتصال أكثر وأكثر. وفي العام 2001، كانت المكالمة الهاتفية عبر الأطلسي تكلف ثلاثين سنتا، وتبادل البريد الإلكتروني مجانيا تقريبا.

استخدم الحاسوب لأول مرة في أثناء الحرب العالمية الثانية لتحليل الشفرات، وبالمثل حدث أول تبادل إنترنتي داخل الجيش الأمريكي. ثم بدأ المدنيون يدخلون إلى الإنترنت خلال العقد السابع من القرن العشرين، لكنه لم يتطوّر سريعا إلا بعد العام 1990، مع ظهور أجهزة الحاسوب الشخصية المُشَبّكة. كانت الولايات المتحدة تحوي مليون حاسوب شخصي في العام 1980، ثم عشرة ملايين في العام 1983، ثم

أربعة وأربعين مليونا في العام 1989. وبحلول أوائل العقد الأخير من القرن أصبحت هذه الأجهزة مربوطة معا على نحو متزايد. لقد انتشر هذا الاتجاه أسرع من معظم التقنيات المُشَبْكة السابقة، وبحلول العقد الأخير من القرن العشرين كانت القرية الإلكترونية العالمية قيد الإنشاء. وفي العام 2000 كان العالم يحوي مليار هاتف - من نصف مليار في العام 1980 - جميعها مربوطة معا، ومئات الملايين من أجهزة الحاسوب الموصّلة بالإنترنت، وواحدا وستة أعشار مليار صفحة ويب. وفي كل دقيقة كانت عشرة ملايين رسالة بريد إلكتروني تصل إلى صناديق البريد الإلكتروني على مستوى العالم.

ينطوي تقييم نتائج كهربة الشبكة الكونية حاليا على صعوبة، لأن العملية لاتزال قيد التطوّر. لكن لا ريب في أن هذه العملية قد أدت دورا كبيرا في «أمولة» الاقتصاد العالمي. وأثرت قطاع الخدمات كثيف المعلومات على حساب الصناعة والزراعة، ورفعت العائد من التعليم في العالم الحديث، إذ رفعت المكافآت التي ينالها أولئك الذين يحصلون على التعليم وقلّصت المكافآت المتاحة لأولئك الذين لا يقدمون غير ظهورهم القوية أو أيديهم الماهرة. أدت هذه العملية حتى الآن إلى تعزيز مكانة اللغة الإنجليزية حول العالم، وبداية من العام 1999 كان ثمانية وسبعون في المائة من صفحات الإنترنت باللغة الإنجليزية، يليها اللغة اليابانية بنسبة اثنين ونصف في المائة. أسهمت هذه العملية في تغيير سلوك الحرب بين أولئك الذين استطاعوا تحمّل تكاليفها - الولايات المتحدة بالدرجة الأولى - ذلك أن الأقمار الاصطناعية المربوطة بأجهزة الحاسوب مكّنت من الوصول إلى مستوى دقة غير مسبوق للأسلحة بعيدة المدى، ومن أدلة ذلك أن الجيش الأمريكي ربح حروبه على العراق ويوغوسلافيا وطالبان في أفغانستان بلا خسائر أمريكية. لكن هذه العملية أوجدت جوانب ضعف جديدة، تماما كما أوجدت إمكانات جديدة، إذ غدا بإمكان أي مخترق حاسوبي محظوظ وماهر وخبيث أن يدمر نظم السيطرة على الملاحة الجوية ونظم المياه في المدن والبنوك وكل شيء محوسب. ربما تكون كهربة الشبكة العالمية قد أضعفت سيطرة الدولة على المجتمع في معظم الحالات، من خلال تمكين منظمات أخرى - الشركات عابرة الحدود وجماعات الضغط والأكاديميين والإرهابيين - من التواصل بمزيد من الكفاءة. غير أن الحكومات في الماضي تعلمت كيف تقيّد

تقنيات المعلومات الجديدة وتخضعها للسيطرة، وقد تتعلم ذلك في هذه الحالة أيضا. لكن لايزال من المبكر إصدار حكم حول هذه القضية.

كان من النتائج التي قد لا تدوم طويلا لعملية كهربة الشبكة الكونية ظهور ما يسمى الفجوة الرقمية التي تعد أحدث فصل في تاريخ التفاوت. وسّع التصنيع الفجوات في الثروة والقوة بين سكان العالم من العام 1800 حتى نحو العام 1950. وعلى مدى ربع القرن التالي للعام 1950، كان التفاوت الاقتصادي يضيق بين مناطق العالم الأكثر فقرا والأكثر ثراء. لكن بعد أواخر العقد الثامن من القرن العشرين بدأ التقارب ينقلب. وحتى داخل المجتمعات الصناعية أخذت شقة التفاوت الاقتصادي تتسع بشدة بعد العام 1980، بعد أن ضاقت بين العامين 1890 و1970. فبعد العام 1980 ازداد ثراء العُشر الأكثر ثراء من سكان العالم بغض النظر عن المنطقة أو الجنسية، بينما ازداد قليلا فقر العُشر الأكثر فقرا. ثمة أسباب كثيرة تكمن وراء هذه الفجوات المتنامية، منها «الأمولة» التي نوقشت فيما سبق، ومنها أيضا الوصول الفارق إلى تقنية المعلومات والاتصالات الحديثة والمهارة في الاستفادة منها.

في العام 2002 لم يكن نصف سكان العالم قد أجروا مكالمة هاتفية بعد، ناهيك عن أن يتصفحوا شبكة الإنترنت. ثمة طبقة دنيا دولية ضخمة لا تقل عن مليار إنسان، توجد بالدرجة الأولى في أفريقيا وجنوب آسيا، لاتزال بلا كهرباء، ولاتزال مقطوعة بالكامل عن الشبكة المكهربة. لكن حتى هؤلاء المقطوعين تأثروا بالشبكة، إذ إن معظمهم يعرفون ما ينقصهم، وذلك من خلال التلفزيون الذي يشاهدونه في المقاهي أو الحانات أو من خلال الراديو أو الكلام الشفهي، ويعرفون أن معظم العالم أكثر منهم ثراء وأفضل منهم تغذية وصحة وأمنا. كان التفاوت عندما اتسعت شقته بشدة داخل المجتمعات وبينها في أثناء الثورة الصناعية، بمنزلة قنبلة موقوتة اجتماعيا. وفي أواخر القرن العشرين، انفغرت هذه الفجوات الواسعة في عالم موحد إلكترونيا تنتشر فيه المعلومات طليقة، ولذلك يدرك فقراء العالم واقعهم بدرجة أكبر من أسلافهم قبل مائة وخمسين عاما. ومن غير المرجح أن يستكينوا لتلك الوضعية، لأن رسائل الثقافة المعاصرة التي تنتشر بلا هوادة عن طريق وسائط الإعلام الإلكتروني تروّج التملك والاستهلاك باعتبارهما الطريق إلى تحقيق الذات. ومن المفهوم أن الاستعراض الدائم للقوة الساحقة واستخدامها من حين إلى آخر قد

يكفي لحماية أغنياء العالم، وهو ما يمكن أن تفعله أيضا ملهاة العصر الحالي المتمثّلة في صناعة التسلية التي تتفنن في توصيل الموسيقى والألعاب الرياضية والجنس. قد تسهم تقنية المعلومات والاتصالات بالطبع في تضييق شقة التفاوت قريبا من خلال خفض تكلفة التعليم وتوسيع إتاحته على المستوى العالمي، لكن ذلك إن حدث، سيحدث خلال عملية بطيئة سنواجه خلالها أخطار التفاوت الاقتصادي الصارخ في عالم الانكشاف الكامل.

خاتمة

أصبحت خيوط الشبكة الكونية أشد إحكاما بعد العام 1890. صحيح أن الشبكة لم تتسع جغرافيا إلا قليلا، لكن حجم الاتصال وسرعته زادا بدرجة كبيرة، مدفوعين في المقام الأول بالتغيرات في التقنية، وكذلك في السياسة. ثقافيا، كان هذا الإحكام لخيوط الشبكة تقدما ثابتا، إذ كان تتويجا لعملية المجانَسة homogenization طويلة المدى حول العالم، أو على نحو أدق للتماهي مع عدد أقل من المعايير. على أن تلك المعايير قد تطوّرت هي الأخرى، في الأغلب من خلال استيعاب تأثيرات من مختلف أنحاء العالم. أما سياسيا فقد كان الاندماج متقطعا، واقتصاديا اجتازت الشبكة عملية نقض حقيقية قبل أن تكتسب زخما جديدا بعد العام 1950.

أنتجت فورة العولمة بين العامين 1870 و1914 تفاوتا وسخطا جعلا النزعات القومية والحروب أكثر تواترا وانتشارا. ومع أن حرب الأعوام 1914-1918 أفقدت البعض الثقة في القومية - والحرب - فقد قوّت إغراءهما لدى آخرين. جعلت الضغوط السياسية والاقتصادية لعالم ما بعد الحرب - لاسيما الكساد - نظم الاكتفاء الذاتي القومية تبدو سياسة معقولة، وهو نفسه ما دفع البشرية إلى الحرب العالمية الثانية. عمل النظام الجديد الذي طبق بعد العام 1945 على تشجيع الاندماج والعولمة مرة أخرى، ما ساعد في إطلاق نمو اقتصادي غير مسبوق، بطرق خفّفت التفاوت الاجتماعي لفترة. لكن بعد العام 1980 تكاتفت التقنية والسياسة لإنتاج عولمة أسرع، اقترنت هذه المرة مع تفاوت سريع النمو. أدخلت الشبكة الكونية الكرة الأرضية المأهولة بالسكان، بكل شعوب العالم ونظمه البيئية، في دوّامة من التفاعل المتنوع. لذلك صار من الصعب إخفاء - والسيطرة على - الاحتكاكات الإثنية

والانقسامات الاقتصادية التي تسم العالم. إجمالا كانت هذه الفترة سنوات للتمايز، إذ عملت الشبكة محكمة الربط على تركيز الثروة والقوة وإبراز الاختلافات بين من يملكونهما ومن لا يملكونهما.

ساعدت الشبكة البشر ككل في توسيع نصيبهم من الأرض. فأدت المعرفة التي تولدت ونشرت داخل الجماعة العلمية إلى جهود ناجحة لكبح الأمراض وتحسين غلة المحاصيل. وأدت هذه التدخلات المستمرة - بدورها - إلى فورة في النمو السكاني والتحضر. لكن يظل هذا الإنجاز محفوفا بالمخاطر، إذ لايزال من الوارد أن تفلت الكائنات المُمْرِضة وآفات المحاصيل - ناهيك عن النزاع بين البشر - من أغلالها وتدمر الظروف التي مكّنت من هذا التوسّع في أعداد بني البشر. لكن حتى هذه اللحظة، نجحت مأسسة العلم والبحث والتطوير التقنيان في الحفاظ على سبق البشر في سباق التسلح البيئي.

يشكل التحضر والنمو السكاني الملمح الرئيس للتغير الاجتماعي خلال القرن الماضي. فعلى مدار خمسة آلاف سنة أو أكثر ظلت حياة القرية هي الخبرة المعتادة للبشر، وفي تلك البيئة تطوّرت كل أيديولوجيات البشر ومؤسساتهم وعاداتهم، وإن كانت أغلب التحديات والتغيرات الثقافية قد جاءت من المدن. أما حاليا، فإن خبرة أغلبية البشرية هي حياة المدينة التي تقوم على الطابع اللاشخصي وغياب المعرفة الشخصية. مقارنة بالحقبة الحديثة كانت حقب التحضر السابقة جميعها بطيئة ومحدودة، لكنها فرضت ضغوطا كبرى على الأديان والأيديولوجيات ورؤى العالم المهيمنة وعلى الأبنية السياسية السائدة. ويبدو أن عملية التوافق الاجتماعي والسياسي والنفسي والأخلاقي والبيئي مع الحياة في المدينة الكبيرة تأتي بين التحديات الأصعب لعصرنا.

9

الصور الكبيرة والممكنات بعيدة المدى

ثمة مزيج قابل للاشتعال يتمثل في ميل المجتمع المعقد إلى توليد التفاوت الاجتماعي - ذلك الميل الواضح على امتداد التاريخ - والحفاظ عليه، جنبا إلى جنب مع المعلومات الرخيصة، ومن ثم المعرفة الأوثق بهذا التفاوت»
جون روبرت مكنيل

«أظن أننا من أجل البقاء بعيد المدى بحاجة إلى جماعات الوجه للوجه الأولية، أي جماعات من النوع الذي عاش فيها أسلافنا، التي تنطوي على معانٍ وقيم وأهداف مشتركة تشعرنا بأن الحياة جديرة بأن تعاش بالنسبة إلى الجميع، حتى بالنسبة إلى أقل الناس مكانة وحظا بيننا»
وليام هاردي مكنيل

بقلم: جون روبرت مكنيل

تكدّس عائلتنا في البيت بضعة آلاف من الأشياء، من نوع كتب الأعداد وألغاز تجميع الأجزاء، موزعة بين ثماني حجرات. مع الوقت يصبح توزيع هذه الأشياء أقرب إلى العشوائية، إذ يصير من الممكن أن تجد عصي الأيس كريم داخل مشغّل أسطوانات الحاسوب، أو أن تجد دمى الحيوانات في الفرن. لكن هذه الحال لا تريح زوجتي وإياي، لذلك نبذل طاقتنا بانتظام للحفاظ على النظام والبنية. فنحن دائما في حالة صراع مع قوى الفوضى - وإن كنا نحبها في هذه الحالة - التي يظل بوسعنا أن نتغلب عليها ما بقيت فينا طاقة، لكن ذلك لا يمكن أن يدوم إلى الأبد، فضلا على أنه ينطوي عادة على تكلفة،

ذلك أن الطاقة التي تبذل في ترتيب الأشياء يضيع علينا استخدامها في أشياء أخرى. هذه هي قصة الكون والحياة والتاريخ الإنساني[1].

إن الكون بعد أن انفجر مباشرة خلال الانفجار العظيم قبل نحو اثني عشر مليار سنة(*)، بدأ يكوّن جزرا من النظام والبنية والتعقيد مثل المجرات والنجوم والكواكب، تشكّلت بفعل تدفقات الطاقة الجذبية، وتحافظ على بنيتها وتعقيدها باستخدام مزيد من تدفقات الطاقة. فالنجوم - على سبيل المثال - تخلّقت عن طريق السحب الجذبي للغبار والغاز، وطورت أبنية ومنحدرات، ما يجعل الجزيئات والحرارة تنتقل داخلها بطرق منتظمة. لكنها في النهاية تبدّد - من خلال نضح الحرارة - الكثير من الطاقة التي انتزعتها، ما يؤدي إلى انهيارها وموتها. فلا تستطيع النجوم أن تبلغ النظام وتحافظ عليه إلا من خلال انتزاع الطاقة واستخدامها، وهي عملية لا يمكن أن تدوم إلى الأبد.

والكائنات الحية من جانبها، سواء كانت وحيدة الخلية أم زرافات، تتبع المخطوطة نفسها، ذلك أن أجسامها تتكوّن من جزر من الأبنية المعقدة - أشد تعقيدا من النجوم - تحتاج إلى الطاقة من أجل البناء والبقاء. تأخذ هذه الكائنات الطاقة المُركّبة الصالحة للاستخدام - الغذاء - وتحوّلها إلى أشكال أقل تركيبا وأقل صلاحية للاستخدام، وكلما زاد تعقيد هذه المخلوقات، زادت الطاقة التي تحتاج إليها. ولعل أشدها تعطشا للطاقة حتى الآن هو الدماغ البشري، تلك البنية الأشد تعقيدا على الإطلاق في الكون المعروف التي تستخدم القدر الأكبر من الطاقة لكل وحدة من الكتلة. وقصة الحياة على الأرض هي قصة التعقيد المتنامي، أي قصة مخلوقات تتنافس بنجاح على نصيب من الفضاء - على المواد المغذية وعلى البقاء وعلى فرص التناسل - من خلال انتزاع مزيد من الطاقة من البيئة المحيطة واستخدامها بمزيد من الكفاءة.

يتكشّف التطوّر الثقافي عن القصة عينها، مع وجود بعض الاختلافات. فقد طوّر المجتمع الإنساني - على مر الزمن - أبنية أشد تعقيدا، كانت احتياجاتها إلى الطاقة تتزايد مع زيادة تعقيدها. فكانت مجتمعات الصيد والجمع - ولاتزال في الحالات

(*) راجع حاشية سابقة للمترجم حول الانفجار العظيم Big Bang. [المترجم].

الباقية منها - بسيطة نسبيا في بنيتها، ثم جاءت القرى الزراعية أشد تعقيدا وأكبر في حجم السكان وأعقد في التراتبية والتمايز الاجتماعي. كانت هذه القرى - والشبكات المحلية التي أقامتها - في حاجة إلى مزيد من الطاقة للبناء والبقاء، وذلك لأن بعضها تطوّر إلى بناء البيوت والأدوات والقدور وصيانتها، وتطوّر بعضها الآخر إلى الاحتفاظ بحيوانات مدجّنة والسفر الذي أقام صلات بين القرى. ثم جاءت الحضارة المبكرة أشد تعقيدا وأكثر تعطشا للطاقة، إذ قامت على التخصص وتقسيم العمل والتبادل والإكراه، وكانت الشبكات الحضرية التي شكّلت الأساس للحضارة في حاجة إلى كميات كبيرة من الطاقة لتشييد البنية التحتية ونقل البشر والحيوانات. واليوم لا تقوم للشبكة الكونية قائمة إلا بفضل القدر الهائل من الطاقة الذي نستثمره يوميا في زراعة الغذاء ونقله وتخزينه، ونقل السلع والبشر عبر مسافات شاسعة، ناهيك عن الكهرباء التي تمكّن من نقل طوفان من البيانات وتخزينها. وبناء على ذلك فإن التاريخ الإنساني، مثله مثل تاريخ الكون وتاريخ الحياة، يكشف عن تطوّر نحو الأبنية المعقدة التي تتخلق وتبقى عن طريق تدفقات الطاقة والتي تتطابق أحجامها مع درجة التعقيد والبنية في هذه الحالة أو تلك. بيد أن التاريخ الإنساني ليس بهذه البساطة.

ففي تطوُّر الكون والحياة، لا تختفي الأبنية والمخلوقات الأقل تعقيدا بالضرورة مع ظهور أبنية ومخلوقات أشد تعقيدا مع مرور الوقت، بل يبقى بعضها، ولايزال هناك - بعد اثني عشر مليار سنة - غبار كوني يسبح في الفضاء منفصلا عن أي مجرة أو نجم أو كوكب، ولاتزال هناك جراثيم - في بيتي بلا شك - لا تختلف كثيرا عن أسلافها قبل ثلاثة مليارات سنة. أما في التاريخ الإنساني فلا تتعايش المجتمعات المعقدة مع المجتمعات البسيطة، إذ تنحو المجتمعات المعقدة إلى تدمير المجتمعات الأبسط واستيعاب العناصر- الأفراد- الباقية منها. وفي التاريخ الإنساني يمنح التعقيد ميّزة تنافسية أكبر منه في عالم الطبيعة. وعلى الدوام كانت المجتمعات البسيطة عندما تدخل في احتكاك مع مجتمعات أشد تعقيدا إما تختفي وإما تصير أشد تعقيدا. لذلك كان الضغط الانتقائي من أجل التعقيد أقوى في المجتمع الإنساني منه في التطوُّر الأحيائي أو الكوني، وذلك لأن المجتمعات المعقدة لا تترك مجالا للمجتمعات البسيطة. في حين أن الزرافات لم تقلّص من الفرص المتاحة للجراثيم.

ربما يكمن السبب وراء ذلك في القدرة على معالجة البيانات التي تتمتع بها الأدمغة البشرية وكذلك في الشبكات الاجتماعية التي تخلقها. فقد كان أسلافنا يعيشون - كما نفعل - في جماعات، ولذلك فلكي يبقوا ويتناسلوا، كان لزاما عليهم أن يكونوا بارعين في التحالف والتنافس. ويرجع النجاح الذي حققوه على صعيد البقاء والتناسل إلى القدرة على الاتصال والتعاون، لاسيما بعد ظهور صيد الطرائد ضخمة الجثة والقتال ضد الجماعات الأخرى، مع أن جمع الغذاء سلميا كان مكافئا لأولئك الماهرين في الاتصال والتعاون. ومع الوقت غدا أسلافنا أبرع في بناء التحالفات وكسرها، وذلك لأن الأبرع في هذا الجانب كان الأفضل في فرص البقاء والأكثر تناسلا.

كان التطوُّر الثقافي - علاوة على ما سبق - لاماركيا(*)، بمعنى أن السمات والمهارات المكتسبة يمكن نقلها عبر الأجيال. فمعلومات مثل كيف تتحدث لغة أو كيف تنال ثقة الآخرين تنتقل من دماغ إلى آخر، ومن جيل إلى آخر، من دون حاجة إلى عملية الطفرة الوراثية والانتقاء الطبيعي البطيئة. مكَّنت سرعة التطوُّر الثقافي بعض الجماعات البشرية من سبق غيرها ومباغتتهم وتدمير أبنيتهم وانتزاع مواردهم، وهو ما لا يحدث في التطوُّر الأحيائي لأنه أبطأ، ما يجعل المخلوقات الأشد تعقيدا تتطوَّر ببطء شديد، ويعطي الآخرين عادة الوقت للتكيف.

ردا على مكافآت التبادل وعقوبات التأخر العسكري عن الغير طوَّر أسلافنا - متسلحين بمهارات تواصلية واجتماعية هائلة - شبكات تفاعل أكبر وأكبر، وهو ما يندرج ضمن التطوُّر نحو التعقيد. وكما حدث في قصص تطوُّر الكون والحياة تقدمت هذه العملية على نحو متقطع (ما يعرف بلغة الأحياء التطوُّرية باسم «التوازن المتقطع»(**). وكما حدث في تلك القصص وقعت عمليات نقض محلية ومؤقتة. من ذلك مثلا أن مجتمع الماياويين الجنوبيين صار في نحو العام 900 ح. م أقل تعقيدا

(*) نسبة إلى عالم الأحياء الفرنسي جان باتيست لامارك Jean-Baptist Lamark (1744 - 1829) الذي ذهب إلى أن الكائن الحي يستطيع أن ينقل السمات التي يكتسبها خلال حياته إلى نسله، وهي الفكرة التي تعرف باسم «وراثة الخصائص المكتسبة» أو «الوراثة الناعمة» soft inheritance. [المترجم].

(**) على خلاف فكرة التدرجية السلالية phyletic gradualism التي تقول إن التطوُّر عموما يحدث على نحو منتظم ومتواصل وعبر تحوُّلات تدريجية ثابتة لسلالات كاملة، تقول فكرة التوازن المتقطع punctuated equilibrium إن النوع عندما يظهر في السجل الأحفوري يظل ثابتا ولا يظهر تغيرات تطوُّرية عبر معظم تاريخه الجيولوجي إلا في حالات وأحداث نادرة. [المترجم].

وتخلى عن المدن والحضارة وتبنى نمط حياة أبسط، بلا أهرامات أو كتابة، وبقدر أقل من التجارة و- ربما - الحرب، وهو انتقال محلي ومؤقت بعيدا عن التعقيد، يشبه انقراض نجم أو ديناصور. لكن الحوادث من نوع انهيار المايا قليلة، إذ تمثّل الاتجاه العام في التقدم نحو مزيد من التعقيد ونحو شبكات تفاعل أكثر اتساعا وكثافة، وذلك على حساب المجتمعات الأبسط التي انقرضت بأعداد هائلة.

إذا نظرنا إلى التاريخ الإنساني من زاوية مختلفة قليلا، نجد أنه قد تطوّر من التشابه البسيط إلى التنوع ثم إلى التشابه المعقد. فقد كان أسلافنا البعيدون في شرق أفريقيا يعيشون في جماعات صغيرة بسيطة، ويتحدثون بضع لغات فقط، ويستخدمون مجموعة محدودة من استراتيجيات البقاء. لكن في النهاية ومع انتشار الجماعات في أنحاء العالم كافة ظهر تنوع ثقافي أوسع، تمثّل في مزيد من اللغات وصناديق الأدوات المختلفة وما إليها. ولاحقا طوّر البشر مزيدا من التعقيد الاجتماعي، انعكس في مدى واسع من الأشكال السياسية، مثل القبائل والمشيَخات والدول المدينية والإمبراطوريات. فقد كان الاتجاه يسير نحو التمايز الثقافي ونحو اللاتجانس ونحو جزر من التعقيد في بحر من التماثل شبه الكامل. غير أن ذلك لم يدم، فعند نقطة ما - في تقديري بين العامين 1000 و1 ق.ح - انعكس الاتجاه، إذ عملت الشبكات المتفاعلة على اختزال التنوع الثقافي، حيث خفّضت عدد اللغات والأديان والكيانات السياسية[2]، وكذلك الصيغ السياسية. فمع نمو الشبكات واندماجها، أصبح التعقيد هو القاعدة، أي التماثل الجديد، وأخذت أفضل الممارسات تنتشر هنا وهناك، واستقرت المجتمعات على مدى أضيق من السمات والمعتقدات والمؤسسات تتوافق جميعها مع الحياة داخل شبكات متفاعلة واسعة النطاق. وفي أثناء ذلك بادت المجتمعات التي أظهرت مقاومة. وأخذ التنوع يتراجع. غير أن هذه العملية لم تكتمل بعد، وليس من المرجح أن تكتمل أبدا، لكنها تمثّل الاتجاه اللافت للنظر في الألفي سنة أو الثلاثة آلاف سنة الأخيرة، ومن المرجح أن تستمر طويلا قبل أن تصل إلى نهايتها أو تنقض نفسها بطريقة أو بأخرى.

وفي الوقت الحاضر يشكّل المجتمع الإنساني شبكة واحدة ضخمة تقوم على التعاون والتنافس، تغذيها تدفقات هائلة من المعلومات والطاقة. ولايزال السؤال حول مدى استمرارية هذه التدفقات وتلك الشبكة سؤالا مفتوحا. فالحدود فسيحة،

والمعلومات يمكن أن توجد بكمية لانهائية، مع أنها تتطلب جهدا وطاقة لفرز الثمين عن الغث فيها، ومع أنه كلما زادت وفرة المعلومات، زادت صعوبة هذه المهمة. يُفترَض أن الشمس ستظل تعطي طاقة وفيرة لبضعة مليارات أخرى من السنين قبل انهيارها وانقراضها، مع أننا سنكون قريبا في حاجة إلى طريقة للحصول على هذه الطاقة أكفأ من إحراق الوقود الأحفوري الذي ينتج غازات تنذر برفع درجة حرارة الكرة الأرضية إلى حد مزعج.

بيد أن حل مشكلات الطاقة والمعلومات سيستغرق وقتا، وفي هذه الأثناء ستواجهنا أخطار أخرى. فلا ريب أن الإبداع الإنساني قد منحنا قدرة عنيفة على تدمير الذات، ويبدو أنه لا مهرب من استمرار تطوير التقنية التدميرية، وأن قدرتنا على كبح العنف لاتزال قاصرة. إن قوة ستة مليارات - ومازالوا ينمون - من الأدمغة البشرية المُشَبَّكة قوة مهولة لو تخيلناها، لكنها بالطبع يمكن أن تسخَّر لأغراض تدميرية أو بنّاءة.

ثمة مزيج قابل للاشتعال يتمثّل في ميل المجتمع المعقد إلى توليد التفاوت الاجتماعي- ذلك الميل الواضح على امتداد التاريخ - والحفاظ عليه، جنبا إلى جنب مع المعلومات الرخيصة، وبالتالي المعرفة الأوثق بهذا التفاوت. ومع تطوير أسلحة أشد فتكا من الأسلحة الموجودة فعلا، تبدو فرص العنف الكارثي ماثلة على نحو مخيف. من الحكمة – إذن - أن نعمل على تقليل هذا التفاوت، وهو هدف يتعارض مع الاتجاهات طويلة المدى للقرون الأخيرة وربما أيضا مع الأفكار الأثيرة حول الحرية.

وعلى أي حال، فلو بقيت الشبكة الحالية، فإننا سنملك زمام مصيرنا أكثر من أي وقت سابق. لقد مكّنتنا مهارات التواصل والتعاون أخيرا من الانضمام إلى الهيئة التحريرية للحياة على الأرض(*)، فأصبحنا نقرر الأنواع التي تبقى والتي لا تبقى، وأصبحنا منذ فترة نؤثر في بيئتنا على الأرض أكثر مما تؤثر هي فينا، وبعد فترة لن تطول قد نشكّل الجينات بدل أن تشكّلنا هي، فسوف نمسك بأيدينا زمام التطوّر الأحيائي والتطوّر الثقافي كليهما، وسوف يتوقف مستقبلنا على نوعية تلك الأيدي.

(*) تشبيها لدور الإنسان في السيطرة على الحياة وضبطها بدور هيئة التحرير التي تحدد اتجاه النشر وطبيعته وتقرر ما ينشر وما لا ينشر. [المترجم].

بقلم: وليام هاردي مكنيل

تتمثّل الحجة المركزية لهذا الكتاب في أن البشر على مدار تاريخهم استخدموا الرموز لخلق شبكات تنقل معاني متفقا عليها، أصبحت مع الوقت إطارا للتعاون والنزاع بين جماعات أكبر وأكبر من البشر. وعلى امتداد الزمان والمكان، أخذت الاختراعات والجهود المشتركة التي زادت الثروة والقوة الفرديتين، وعلى الأخص الثروة والقوة الجماعيتين، تنتشر خلال هذه الشبكات. ولذلك فعلى الرغم من حالات الفشل والكوارث المحلية - البيئية والأحيائية والاجتماعية والسياسية - التي لا تحصى، تمثّلت النتيجة النهائية في توسّع حياة البشر من خلال التوسيع المتقطع لاستهلاك نوعنا للطاقة وسيطرته عليها، بالدرجة الأولى الغذاء والنار، وكذلك الطاقة العضلية في شكل الحيوانات المدجّنة، والطاقة الميكانيكية في شكل الأدوات، والطاقة الأحفورية في شكل الوقود. ومسيرة الإنسان على الأرض متفردة حقا، إذ لم يوظف نوع آخر - حتى النمل - شبكة الاتصال المرنة والواسعة تلك لتنسيق الجهد المشترك، على أي نطاق قريب مما أنجزه البشر.

بيد أن السجل الإنساني يكشف عن أنماط تطوُّرية أكبر، ومن الممكن أن نستنبط تماثلات قوية ومذهلة في الماضي البعيد عندما شكّلت الجراثيم لأول مرة خلايا حية لا تحصى في محيطات الأرض وتبادلت المادة الوراثية على نحو متقطع من خلال الاحتكاك المباشر بعضها مع بعض، بالطريقة نفسها التي تبادلت بها الجماعات البشرية الأولى المعلومات عبر الالتقاء والاختلاط معا في المناسبات الاحتفالية. وحدث مرارا وتكرارا أن مكّن التبادل الوراثي الجرثومي المباشر الخلايا من توليد طفرات مفيدة ومن ثم التكيف مع الظروف البيئية المتغيرة.

لكن كما فعل البشر، غيّرت الجراثيم بيئتها، لاسيما عندما تحوّل بعضها إلى البناء الضوئي كطريقة لصنع الغذاء من ضوء الشمس والهواء وماء البحر وبدأت في إطلاق الأوكسجين الحر في الجو، وهو ما أدى في النهاية إلى تغيير البيئة الطبيعية على نحو أشد جذرية مما غيّر الإنسان بيئته. ومع أن الأوكسجين الحر سم قاتل لمعظم أشكال الحياة، فقد بقيت الحياة لأن الجراثيم التي لا تتحمّل الأوكسجين انسحبت إلى تجاويف عميقة في باطن الأرض لم يخترقها الغاز السام، وفي أثناء ذلك أحدث التبادل المتواصل للجينات طفرات حمت الخلايا الحية من الأكسدة المدمرة، وفي

النهاية، أنتجت الطفرات الوراثية جراثيم تتنفس، أي تستهلك الأوكسجين بانتظام، ومن خلال ذلك بدأت تستحوذ على كميات من الطاقة كانت مستحيلة قبل ذلك. استخدمت هذه الجراثيم جزءا من تلك الطاقة للتنقل بسرعة أكبر من قبل، ما يسّر عليها العثور على الغذاء والإفلات من المجاعة وغيرها من الظروف القاسية، وما مكّنها من البقاء والازدهار.

ثمة تماثلات قوية وواضحة بين ما فعلته الجراثيم والسجل الإنساني للاختراع وتوليد المهارات والأفكار الجديدة واستخدامها في تغيير البيئة ومن ثم تعلم السيطرة على الطاقة واستهلاك مزيد ومزيد منها. فالانتقاء الذي قامت عليه العمليتان واحد بالتأكيد، لكن ربما حدث التغير الوراثي بين الجراثيم عشوائيا، في حين حدث التغير بين البشر في الأغلب بفعل توقعات خائبة واختيارات مقصودة. وبغض النظر عن الطريقة التي حدثت بها التغيرات، فإن بعضها قد دعم البقاء، وتلك تحديدا هي أنواع التغيرات التي انتشرت وشكّلت المستقبل لكل من الجراثيم والبشر على حد سواء.

يقدم ظهور الجراثيم الكبيرة وحيدة الخلية ثم النباتات والحيوانات متعددة الخلايا تماثلا قويا آخر بين التاريخ الإنساني والأحيائي. فقد كانت أشكال الحياة الأشد تعقيدا هذه في حاجة إلى طاقة أكبر لإعالة التدفق المتواصل للرسائل الكيميائية والكهربائية داخل أجسامها، وكانت في الوقت عينه أكثر نجاحا في استخلاص الطاقة من بيئتها بفضل التكيف والحركية والحساسية الأكبر التي وفّرتها تلك التدفقات الداخلية. وتحوّلت بعض الأبنية داخل الجراثيم وحيدة الخلية والكائنات متعددة الخلايا إلى أشكال حياة مستقلة، كانت في البداية إما تفترس شريكها المستقبلي وإما تكون فريسة له، وهو ما أصبح تكافلا منمذجا مفيدا للطرفين كليهما لأنه ساعد في البقاء المشترك. تمثّلت النتيجة النهائية لهذا التكافل والتهايؤ الوراثي اللاحق في تزايد تعقيد التخصص والوظائف داخل أنسجة الكائنات متعددة الخلايا. ثمة تعقيد وتخصص مماثلان بين البشر، كانا - ولايزالان - الصفة المميّزة للمدن والحضارة، قاما في البداية على افتراس أبناء النوع نفسه، ثم تعدلا لاحقا بفعل العادة.

لاتزال هناك تماثلات أخرى واضحة. فقد مكّن التكافل الناشئ عن التهايؤ المتبادل بين كائنات كانت مستقلة في الأصل ومتعادية في الأغلب، أشكال الحياة متعددة

الخلايا من الحصول على مزيد من الطاقة، ما مكّنها سريعا – بدوره - من السيطرة على المحيط الأحيائي. وبالمثل، ابتلعت الحضارات - طوعا أو كرها - جماعات بشرية كانت مستقلة في الأصل، ما أنتج كيانات سياسية واقتصادية وثقافية جديدة أشد قوة، أخذت تنتشر بثبات بفضل قوتها النوعية إلى أراضٍ جديدة مواتية جغرافيا. كان انتشارها - كما أوضح الكتاب الحالي- يعني أن ما بدأ كحضارات منفصلة قد أصبح مع تكثُّف الاتصال خلال الألفية الماضية يتبع مسارا مألوفا من خلال الامتزاج ضمن الشبكة الكونية الأوسع انتشارا والأشد إحكاما التي تسود بيننا حاليا.

بالمثل، يشكّل المحيط الأحيائي بكل أنماطه المعقدة القائمة على التعاون والنزاع، شبكة عالمية تشبه الشبكة الإنسانية الرمزية التي توحّد البشرية حاليا، ونزعم أنها كانت توحّدها دائما. وفي الوقت الراهن تولّد الشبكة التغيير والتعقيد والتخصص والقوة أسرع من أي وقت سابق. بيد أن الشبكة الإنسانية كانت واحدة دائما، تماما كما كان المحيط الأحيائي واحدا دائما، حتى عندما كان الأمر يستغرق آلاف السنين حتى تنتشر مهارة أو فكرة جديدة مفيدة حول الأرض تدريجيا من خلال الاتصال المتقطع وجها لوجه بين جماعات بشرية منعزلة، كما في حالة القوس والسهم اللذين ظلا ينتشران حتى العام 1500 ح. م.

إن هذه التماثلات مطَمْئنة بالنسبة إليّ، إذ تقنعني بأن المسيرة الأرضية للبشر طبيعية، حتى إن بدت متفردة. فنحن إن أمعنا النظر، أدركنا أننا ننتمي حقا وصدقا إلى ذلك المكان الذي نعيش عليه - كوكب الأرض - وأننا جزء لا يتجزأ من المحيط الأحيائي الذي يمدّنا بأسباب الحياة.

بيد أن طمأنينتي بالانتماء إلى الأرض يقابلها إحساس قوي بعدم الأمان. فإلى متى ستستمر التدفقات المعقدة التي تمدّنا بأسباب الحياة؟ لا أقصد تدفقات الغذاء والطاقة وحسب، بل أيضا تدفقات المعاني والآمال والتطلعات التي توحّد البشر وتفصل بينهم بحدة أكثر من أي وقت مضى. هل ستنجو الحياة البشرية من الكوارث المستقبلية السياسية والعسكرية والأحيائية والبيئية؟ وهل ستعرقل أنماط الحياة الحضرية التناسل الثقافي والأحيائي؟ وهل يستطيع البشر - باختصار- أن يتكيفوا بطريقة أو بأخرى مع ظروف جديدة تماما، في معظمها من صنعنا، كما فعل أسلافنا في الأزمان الماضية؟

إن اقتناعاتي الشخصية هي أن كوارث - كبرت أو صغرت - ستقع بالتأكيد، وأن التكيف الإنساني سيثبت أنه أقوى مما يمكن تخيله. لكنني أظن أننا من أجل البقاء بعيد المدى بحاجة إلى جماعات الوجه للوجه الأولية، أي جماعات من النوع الذي عاش فيها أسلافنا، التي تنطوي على معانٍ وقيم وأهداف مشتركة تشعرنا بأن الحياة جديرة بأن تُعاش بالنسبة إلى الجميع، حتى بالنسبة إلى أقل الناس مكانة وحظا بيننا.

وإذا كان الأمر كذلك، فربما يكون السؤال الأكثر إلحاحا بالنسبة إلى المستقبل الإنساني هو كيف يمكن للجماعات الأولية شبه الخلوية أن تبقى وتزدهر ضمن التدفقات الكونية التي تقدم أسباب الحياة لأعدادنا وثرائنا وقوتنا الحالية، من دون أن تعرقلها تلك التدفقات، ومن دون أن تعرقل هي تلك التدفقات. مؤدى ذلك أننا بحاجة إلى تكافل جديد تماما.

في الأزمان الماضية كانت معظم المدن بالوعات سكانية تعيش طفيلية على القرى والأرياف، إذ كانت تستورد من الريف كلا من الغذاء والقوة البشرية. ولاتزال المدن عاجزة عن إعالة نفسها، ولاتزال تعتمد على المهاجرين الريفيين للقيام بأعمالها القذرة. ماذا سيحدث – إذن - عندما تنتشر الاتجاهات والتوقعات الحضرية وتبدأ في عرقلة جماعات الفلاحين التي تعتمد عليها المدن؟ تلك - في رأيي- هي المعضلة التي تواجهها البشرية حاليا، فأنماط حياة الفلاحين وعملهم في تراجع كاسح، والتحضر يكتسح المشهد، وتغزو الآمال والتوقعات الحضرية الريف، بالدرجة الأولى بفضل الاتصال الإلكتروني الجديد.

يضعنا ذلك أمام اختيارات جذرية: أن تجسّر الفجوة بين المدن والقرى بطريقة أو بأخرى عن طريق إعادة التفاوض على شروط التكافل و/ أو أن تظهر جماعات أولية ذات بنية مختلفة لمواجهة ما يسود الحياة الحضرية من غياب للمعرفة الشخصية. تعد الطوائف والتجمعات الدينية المرشح الأساس لهذا الدور. لكن جماعات المعتقد تعزل أنفسها بطريقة أو بأخرى عن الكفار، ما يسبب احتكاكات أو عداوات نشطة ضمن الشبكة الكونية. كيف يمكن – إذن - أن نحافظ على الشبكة ونفسح المجال في الوقت عينه للجماعات الأولية الضرورية لبقاء الحياة؟

وعلى ذلك فإننا لكي نحافظ على ما في أيدينا، يتحتم علينا وعلى ذريتنا أن نغيّر طرقنا

بأن نتعلم أن نعيش في آن معا في شبكة كونية وفي جماعات أولية مختلفة ومتنوعة، وهو مطلب ينطوي على الجمع بين متناقضين، وطريقة التوفيق بين هذين المتناقضين هي السؤال المصيري لعصرنا، وربما لوقت طويل في المستقبل. يتمثّل البديل الأقوى في انهيار الشبكة الحالية، وهو ما قد يؤدي إلى إفقار شامل وانقراض كارثي، وربما - إن نجت البشرية - بداية جديدة من الشظايا المحلية المكسرة للشبكة. خلاصة القول بإيجاز أننا نعيش فوق موجة متكسرة، والحظ والذكاء والتسامح وحدها يمكنها أن تمنع الشبكة من التحطم، وهو ما نتمنى أن يحدث.

الهوامش

الفصل الأول

(1) فُسّرت اكتشافات حديثة في شرق أفريقيا على أنها تبيّن أن مخلوقات شبيهة بالبشر نجحت في السيطرة على النار قبل نحو مليون سنة. وبغض النظر عما إذا كان ذلك صحيحا أو لا، فإنه قبل نحو أربعمائة ألف سنة، كانت سيطرة الإنسان على النار قد أصبحت ممارسة مؤكدة وواسعة الانتشار.

(2) إلى جانب ذلك، اجتمع انتصاب القامة والغدد العرقية والجلد غير المشعر لتعطي الجنس البشري جهاز تبريد كفئا للغاية. أما الحيوانات التي تعتمد على اللهاث لتبريد أجسامها، فلا تستطيع أن تتحمّل جهدا عضليا مطولا مثل الإنسان. من ذلك مثلا أن الأستراليين الأصليين لا يفعلون شيئا لاصطياد حيوانات الكنغر السريعة إلا مطاردتها بضع ساعات إلى أن يقع الحيوان مغشيا عليه من ارتفاع درجة حرارة جسمه.

(3) ثمة اكتشافات أثرية أخيرة في أفريقيا الوسطى، تؤرّخ إلى ما بين خمسة وسبعين ألف سنة وتسعين ألف سنة، قد تثبت أفقا أقدم للتكيف التقني الذي اقترن بالإنسان العاقل. انظر:

.John Reader, Africa: A Biography of a Continent (New York, 1998), 139

(4) بدأت جين غودال Jane Goodall ملاحظة منتظمة لجماعة من الشمبانزي في محمية غومبي Gombe Reserve بتنزانيا في العام 1960، وفي هذه الجماعة وقع الانفصال المذكور وما تلاه من قتال مهلك في الأعوام 1970-1972. وأضافت ملاحظات أخرى إلى فهمنا لتعامل الشمبانزي مع فكرة الإقليم، وقد لوحظت تغييرات حدودية واضحة. لكن تعدي الإنسان على البيئة الطبيعية للشمبانزي يحدث بخطى متسارعة في أفريقيا المعاصرة، ولذلك فإن الملاحظات التي تُجرى في البرية لا تتأثر بوجود الملاحظين المهنيين فقط، بل تتأثر أيضا بلقاءات الشمبانزي المكثفة مع بشر آخرين. جاءت نتائج هذا التعدي قاسية، منها مثلا أن أفراد الشمبانزي في غومبي كانوا يعانون شلل أطفال وبائيا، يفترض أنه انتقل إليهم من البشر. وجماعات الشمبانزي الموجودة حاليا عرضة لخطر واضح، وتتعرض العلاقات العابرة للحدود بين الجماعات المتجاورة لضغط مماثل مع تواصل اعتداء الإنسان على أقاليمها «البرية». لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، راجع:

Jane Goodall, The Chimpanzees of Gombe: Patterns of Behavior (Cambridge, MA, 1986), and Joseph H. Manson and Richard Wrangham, "Intergroup Aggression in Chi,panzee and Humans," Current Anthropolgy 32 (1991) ,369-92.

(5) كان التنسيق بين العين واليد والجسم، المطلوب لرمي الأحجار والرماح بدقة، وكذلك توجيه السهام بدقة، ميزة فسيولوجية أخرى للبشر لم تكن تقل أهمية للصيادين القدماء عن غددهم العرقية وقدرتهم على الجري لمسافات طويلة. انظر:

.(Alfred W. Crosby, Throwing Fire (New York, 2002

(6) لا شك في أن التغيرات في دورة الحيض لدى المرأة، التي مكّنت من إطالة النشاط الجنسي البشري لما بعد الفترة القصيرة التي تكون البويضة الناضجة فيها متوافرة لاستقبال المني، قد أسهمت هي الأخرى في بناء العائلات، لكن لايزال من غير المعلوم متى وكيف حدث ذلك.

(7) لم يعد النظام التقليدي لتسمية التواريخ الذي ترمز فيه «ق. م» إلى «قبل الميلاد» و«م»

إلى «بعد الميلاد» يلقى استحسانا بسبب تمترسه داخل تقاليد دينية بعينها. ونحن هنا نتبع نظاما تبقى السنوات فيه كما هي، بينما يحل الاختصار «ق. ح» (الذي يعني «قبل الحقبة المشتركة» before the Common Era; B.C.E) محل «ق. م»، ويحل الاختصار «ح.م» (الذي يعني «من الحقبة المشتركة» Common Era; C.E) محل «م».

(8) حدث استيطان الشريط الساحلي القطبي لكندا وغرينلاند قبل ذلك بوقت طويل، إذ يرجع إلى نحو ستة آلاف سنة خلت، لكن سكان القطب الشمالي الأوائل لم يتمكنوا من صيد الحيتان.

الفصل الثاني

(1) يتفق الخبراء على أن الصيادين القدماء دجّنوا الكلاب قبل فترة طويلة من انطلاق الزراعة، إذ ساعدتهم في الصيد من خلال تغيير أنماط الهيمنة والتعاون داخل مجموعة الذئاب إلى مجتمع بشري - كلبي جديد عابر للأنواع. وقد جاء الاتصال السمعي والإيمائي الناتج بين الكلاب والبشر فريدا في مداه ودقته، كما يعرف كل من يقتنون كلابا.

(2) كانت الأغنام البرية مشعرة ولها فروة تحتية قصيرة من الصوف، ثم زادت الأغنام ذات الصوف من فروتها التحتية، ربما بسبب الانتقاء الذي تسبب فيه البشر الذين كانوا قد تعلموا فعلا كيف يكسون أنفسهم من خلال غزل الكتان والألياف النباتية الأخرى ونسجها في شكل أقمشة.

(3) عرفت العربات ذات العجلات في بلاد ما بين النهرين قبل نحو خمسة آلاف وخمسمائة سنة، كما هو مثبت في صور من مدينة الوركاء منقوشة على لوح من الصلصال. واكتشفت بقايا خشبية لعربات من أزمان متأخرة كثيرا عن ذلك.

(4) توجد أنواع من الأرز تنمو في الأرض الجافة، لكن زراعة الأرز المائي أصبحت أساسية لنمط الزراعة المميّز لشرق آسيا، ولاتزال الجماعات الهامشية في المناطق الجبلية بجنوب شرق آسيا تزرع الأرز على المطر، غير أن غلته أدنى كثيرا من غلة الأرز المائي.

(5) تتميّز السهول الساحلية لنيو غينيا بانتشار كثيف للملاريا، وكانت شحيحة السكان. وحتى أشد الإمبرياليين جشعا لم يجدوا ما يغريهم في مستنقعات المنغروف التي كانت تصطف على الساحل، ولهذا السبب تمكن المزارعون على مرتفعات نيو غينيا من الحفاظ على نمط حياتهم المستقل والمنعزل حتى وقت قريب.

(6) على مدار آلاف السنين الماضية، كان 70 في المائة من البشر على الأقل يعيشون في أوراسيا، ما جعلها أكثر ازدحاما وتنافسية وتفاعلية من أي مكان آخر.

(7) يكشف تحليل الحمض النووي أن الجدري الذي ربما كان البلاء الأشد الذي ابتليت به البشرية على مدار القرون قد نشأ من جدري الإبل الذي تحمله الإبل العربية.

الفصل الثالث

(1) تغير الخط الساحلي للخليج العربي بدرجة كبيرة خلال الأزمان التاريخية. فالمدن السومرية التي تقع حاليا على مسافة مائة وخمسين كيلومترا (مائة ميل) من خط الساحل، كانت في السابق على خط الساحل أو قريبة منه. وبالمثل، غيّر نهر الفرات مجراه من وقت لآخر، ولذلك فإن المواقع التي توجد حاليا في صحراء قاحلة، كانت في السابق تقع على ضفاف النهر.

(2) لم تعرف اللغة السومرية الأسماء الموصولة، ويوحي وصف النصوص السومرية للعمال الريفيين بأنهم «أصحاب الرؤوس السوداء» إلى وجود شكل من الانقسام الإثني بين الطبقات الاجتماعية في المدن السومرية. وتشير بضعة نصوص دينية إلى الوصول بحرا من الجنوب.

(3) كانت الأقواس المُركّبة تُصنع من الخشب والعظم والوتر وتلصق معا بالغراء لإنتاج قوس مرن قصير، وكانت قذائف هذه الأقواس أسرع وأبعد مدى من الأقواس المصنوعة من الخشب فقط. وقد استخدمت هذه الأقواس في الحرب في بلاد ما بين النهرين في نحو العام 2350 ق. ح، ووصلت إلى الصين بعد نحو ثمانمائة سنة مع سلالة شانغ.

(4) تطلب صهر الحديد درجات حرارة أعلى من صب النحاس والبرونز، توافرت بمساعدة أفران مصممة لإنتاج حرارة أقوى (كانت تُذكّى عادة باستخدام كير ميكانيكي) وباستخدام الوقود الفحمي.

(5) تلقي النصوص الدينية المنقولة شفاهة - وإن ظلت صعبة في فهمها - بعض الضوء على الجوانب السياسية والاجتماعية للمجتمع الهندي. كان الحفظ عن ظهر قلب لكلام غير مفهوم غاية في ذاته بين البراهمة وتلامذتهم، وبذلك احتفظت السنسكريتية بأشكال لغوية قديمة، شكلت زادا لدارسي الفيلولوجيا الذين سعوا خلال القرن التاسع عشر إلى إعادة بناء عائلة اللغات الهندية - الأوروبية. لكن حاملي هذا التقليد الشفهي من خلال التثبيت المتعمد لأشكال كلامهم المقدس سببوا إخفاء التغيرات التاريخية التي كانت تحدث في المجتمع من حولهم.

(6) المقابل الصيني لاسم كونفوشيوس هو «كونغ فوشي» Kong Fuzi الذي يعني «المعلم كونغ»، إذ كان اسمه الشخصي «كونغ شيا» Kong Qia.

(7) سكّ ملوك الفرس أيضا عملات ذهبية، لكنهم اكتنزوا الكثير منها في الخزانة الملكية، ما جعلها تؤدي في الحياة الاقتصادية للإمبراطورية الفارسية دورا أضعف كثيرا من دورها لدى اليونانيين والرومان.

(8) كانت القوادس تهاجم من خلال صدم السفن المعادية، ولذلك كانت السرعة خلال الماء والرشاقة في المناورة سمتين مهمتين للقوادس. وقد أسهم التنسيق الجيد للتجديف في بلوغ هذه النتيجة، وأسهمت فيه أيضا الحركة الإيقاعية المتزامنة الشبيهة بالرقص، وربما أيضا حالة التضامن الوجداني التي يستحثها الرقص. وبالمثل، كانت للتشكيلات السُّلامية المهاجمة طليعة مدرعة صلبة بفضل تخصيص وقت للأنشودة، وهي صيحات موسيقية. وبذلك استفادت حروب اليونانيين - على البر والبحر على حد سواء - من الترابط الوجداني من النوع الذي يستحثه الرقص. ربما كانت قوة الالتزام الفردي المتفردة نحو البوليس تعتمد بالدرجة الأولى على الوجدان المشترك الذي تولده أمثال هذه الممارسات. راجع الكتاب:

William H. McNeill, Keeping Together in Time (Cambridge, MA, 1995), 112 - 120.

(9) في الوقت نفسه تقريبا، أظهر الفكر الصيني ازدهارا مماثلا، عندما نزعت الدول المتحاربة المتنافسة (403 - 221 ق. ح) الشرعية عن الأفكار الأخلاقية والدينية القديمة. وكما حدث في اليونان، سرعان ما تكلست الجهود الأولى لفهم جميع الأشياء إلى مدارس متنافسة لاتزال تستحوذ على اهتمام الدارسين الصينيين.

(10) بعد قتال صعب على التلال في جنوب إيطاليا بعد نحو العام 370 ق. ح، قسم الرومان فيالقهم إلى وحدات أصغر سميت شراذم maniples ظل بمقدورها أن تنفذ حائط الصد المتين على الأراضي الوعرة. وحلّت الرماح الخفيفة والسيوف محل الرماح الثقيلة

التي اعتمدت عليها التشكيلات السُلامية اليونانية والمقدونية.

(11) في النهاية، ظهرت لائحة أسفار متفق عليها شملت سبعة وعشرين كتابا في العهد الجديد اعتمدت على مرجعية القديس أثناسيوس المصري Athanasius of Egypt (توفي نحو 373 ح. م).

(12) كانت هذه الأمراض جديدة على البشر، لأنها انتقلت إليهم من الحيوانات، وهو ما لم يحدث إلا بعد أن بلغ البشر عددا وكثافة كافيين لإعالتها، وبعد أن جعل التدجين الاحتكاك المباشر بين البشر والحيوانات الحية أمرا معتادا. ولذلك فإن هذه الأمراض كانت - ولاتزال - أمراضا مميِّزة للحضارة.

الفصل الرابع

(1) زعم ماني Mani (نحو 216-276 ح. م) الذي عاش في بلاد ما بين النهرين أنه قد بُعث لتصحيح الأخطاء في العقائد الزرادشتية والبوذية والمسيحية من خلال ما تنزَّل عليه من وحي، وانتشر الدين الذي أرساه غربا نحو الإمبراطورية الرومانية وشرقا نحو الصين. وطفت المانوية إلى السطح مجددا في أوروبا القرون الوسطى بين المهرطقين المعروفين باسم الكاثار Cathars خلال القرن الثالث عشر، وبقيت في البوسنة إلى ما بعد الغزو العثماني خلال القرن الخامس عشر.

(2) بدأت العملات الذهبية والفضية والنحاسية في تزييت تجارة المحيط الهندي ومكّنت المموّلين الخاصين من خلال القروض وخطابات الاعتماد من توسيع نطاق هذه التجارة كثيرا بعد أن اجتاحت مملكة باختر Bacria اليونانية (نحو 190 ق. ح - 40 ح. م) جزءا من شمال غرب الهند وأظهرت للحكام الهنود الآخرين الفوائد الضريبية والتجارية التي يمكن جنيها من العملات.

(3) ربما أسهم إسراج الخيل لتثبيت الرِكاب في نحو العام 200 ح. م في تشجيع بدو الصحراء العربية الشمالية على تصميم الرِحال الأشد تعقيدا الملائمة لجسم الإبل. انظر:

Richard W. Bulliet, The Camel and the Wheel (Cambridge, MA, 1975).

(4) تجمع الطاوية Daoism بين طقوس شعبية قديمة بنيت حول تقديس الأرواح المحلية القوية وتقليد من المعرفة الأدبية شدد على العفوية والاستجابة الحدسية للـ«طاو» Dao التي تترجم على نحو غير دقيق إلى «الطريقة» (طريقة كل الأشياء). وبين العامين 400 و800 استعارت الشعائر الطاوية كثيرا من البوذية، ما مكّن الطاوية من منافسة الكونفوشية والتعايش معها على امتداد تاريخ الصين اللاحق.

(5) أثار احتمال حدوث اتصالات مبكرة عبر المحيط الهادي اهتمام عدد كبير من دارسي آسيا، في حين لم يأخذ هذه الفكرة مأخذ الجد إلا قلة من دارسي الأمريكتين. توجد مراجعة لهذا الموضوع في:

Joseph Needham and Lu Gweidjen, Trans-Pacific Echoes and Resonances: Listening Again (Singapore, 1984).

(6) يدين المؤلفان بهذا الاقتراح إلى أندرو شيرات Andrew Sherratt. انظر:

Warwick Bray, «Ancient Food for Thought,» Nature, 408, November 9, 2000, pp. 145-46.

وتوجد أدلة على زراعة نبات الأروروت في كولومبيا ترجع إلى ما بين تسعة آلاف وعشرة آلاف سنة خلت.

(7) ربما ابتكر الأولمك هذا النمط لأن مراكزهم الطقوسية كانت تقع في مناطق ساحلية سبخة، لكن لم تُكتشف أدلة أثرية على ذلك حتى الآن، وربما يرجع عدم اكتشافها إلى أن البحث عن هذه الآثار لم يبدأ إلا أخيرا عندما اكتُشفت الحقول المصطبية أولا في المواقع الماياوية، وبعد ذلك في مواقع المكسيك الأوسط.

(8) يوجد عرض مقنع لهذه الأنماط في:

Johan Goudsblom, Eric Jones, and Stephen Mennell, The Course of Human History: Economic Growth, Social Process and Civilization (Armonk, NY, 1996), 31-62.

الفصل الخامس

(1) استخدم علماء الرياضيات البابليون في عهد حمورابي رمزا للصفر في الخانات الوسطى، لكنهم لم يستخدموه في نهاية العدد، ولذلك كان يمكن تسجيل العدد 202 بلا لبس، على خلاف العدد 220. واستخدم الماياويون علامة للصفر، لكن القواعد المختلفة لأنظمتهم العددية عقّدت إجراءاتهم الحسابية، واختفت الرياضيات الماياوية مع انهيار مراكزهم الحضارية.

George Irfan, From One to Zero: A Universal History of Numbers (New York, 1985).

(2) هذا الأمر غير مؤكد. لكن توسع الجماعات السهلية تعرض لنوع من الكبح بعد العام 1350، وهُجرت بعض أفضل مراعي أوراسيا، ومن أهمها مراعي أوكرانيا. من أجل إعادة بناء الطريقة التي ربما حدث بها ذلك، انظر:

William H. McNeill, Plagues and Peoples (New York, 1976), Ch 4..

ثمة آخرون يختلفون مع هذا الطرح، من أبرزهم:

Jean-Noel Biraben, Les hommes et la peste dans la France et dans les pays européens et méditerranéens (Paris, 1975), 1, 48ff.

(3) أخذ المغول البارود معهم إلى الغرب، وتعود ورثتهم المغول - الأتراك على المدافع بسهولة. وفي جنوب الهند، يرجع أول استخدام مدوَّن للمدافع في المعارك إلى العام 1358، بعد اثني عشرة سنة فقط من استخدامها في ساحات المعارك الأوروبية في معركة كريسي Crecy. لكن صناع المدافع المسلمين فشلوا في مجاراة نظرائهم الأوروبيين، لأن حقوق التعدين الخاصة لم تكن مضمونة قانونا أو على أرض الواقع عند المسلمين، وهو ما كان يعني - جنبا إلى جنب مع قيود النقل البري - أن يفشل التعدين وتشكيل المعادن في التطوُّر على نطاق قريب مما حدث في أوروبا.

(4) مكّن ذلك الحملة الصليبية الأولى من شقّ طريقها برا إلى بيت المقدس في العام 1099. لكن عندما أطاح صلاح الدين الأيوبي (1137 - 1193) بالفاطميين من مصر ورسّخ سيطرته على المنطقة الداخلية السورية، أصبح استرداد بيت المقدس في العام 1187 يسيرا. وفيما بعد، لم تبق غير معاقل ساحلية صغيرة في أيدي المسيحيين، استسلم آخرها في العام 1291. وإجمالا، فإن الحملات الصليبية أثرت في العالم المسيحي أكثر مما أثرت في العالم الإسلامي، إذ لم يجد المسلمون شيئا جديرا بالإعجاب في طريقة حياة الصليبيين، في حين وجد المسيحيون كثيرا مما يمكن تعلمه من المسلمين حول المعيشة الحضرية الفخمة.

(5) تكشف حياة ابن بطوطة (1304 - 1368) المتفردة عن الروابط الثقافية الوثيقة التي جمعت المسلمين على امتداد الطريق من موطنه المغرب إلى الصين. انظر:

Ross Dunn, The Adventures of Ibn Battuta, a Muslim Traveller of the Fourteenth Century (Berkeley, CA, 1986).

(6) في مقابل ذلك، كانت العائلة الواحدة في أراضي البحر الأبيض المتوسط تستطيع أن تعتني بنحو عشرة هكتارات فقط، لأن الكروم والزيتون كانا يحتاجان إلى العزق اليدوي، ولأن حقول القمح لم يكن حرثها ممكنا إلا خلال الأسابيع القليلة من السنة التي تلي تليين أمطار الخريف الأولى للتربة التي حمصتها الشمس وقبل أن يحين وقت الزراعة للحصاد في الربيع.

(7) على خلاف ما كان معتقدا في السابق، يذهب رودريك مكنتوش ,Roderick McIntosh The Peoples of the Middle Niger (Oxford, 1998), ch. 10 إلى أن بناء الإمبراطوريات حدث في سياق تراجع سكاني. ربما يكون تراجع الاستيطان في حوض النيجر الذي لاحظه مكنتوش وغيره من علماء الأنثروبولوجيا قد نتج من الاتصالات عبر الصحراء الكبرى التي جلبت للمنطقة أمراضا جديدة، ربما كان من بينها الطاعون الدبلي.

الفصل السادس

(1) توجد وجهة نظر مضادة - من بين أخرى كثيرة - عن التأثير السكاني لتجارة العبيد في أفريقيا في الكتاب:

Patrick Manning, Slavery and African Life (Cambridge, 1990).

بيانات أنغولا مأخوذة من:

Joseph Miller, The Way of Death (Madison, 1988), 154.

(2) هذا المصطلح مأخوذ من آرنولد بيسي.

Arnold Pacey, Technology in World Civilization (Cambridge, MA, 1990).

(3) منها تلك الفكرة التي روّجها نائب رئيس ترينيتي كوليدج Trinity College [كلية الثالوث] في دبلن جيمس أوشر (1581-James Ussher 1656) الذي حسب بناء على نص الكتاب المقدس أن الأرض قد خلقت في العام 4004 ق.م. وهي الفكرة التي احتفظت بأنصار لها حتى القرن التاسع عشر. وبالمصادفة، جاء هذا التقدير مشابها لحساب قدمه غريغوري التوري Gregory of Tours خلال القرن السادس.

(4) كان زهاء سبعة وثمانين في المائة من العلماء الأوروبيين المسجلين في معجم السير العلمية Dictionary of Scientific Biography على مدى قرنين (1450 - 1650) ممن درسوا في الجامعات، وكان نصفهم يعملون في جامعات.

Toby E. Huff, The Rise of Early Modern Science: Islam, China, and the West (New York, 1993).

(5) يبخس المؤرخون العسكريون المكوّن الأخير حقه أحيانا، لكن أي أم أو أب حاول أن ينسق بين إطعام بضعة أطفال وسيارة في حالة حركة، يستطيع أن يقدّر مدى التعقيد الذي تنطوي عليه مهمة إمداد جيش كبير في حالة حركة.

(6) عمل المموّلون المسلمون ضمن شركات محاصّة نجحت في التمويل التجاري، لكنها لم تفد الحكام بالقدر الذي فعله الإقراض بفائدة. ومع أن الكتاب المقدس المسيحي يحرم الربا،

فإن الإقراض بفائدة أصبح شائعا بين الجماعات المسيحية بحلول القرن الخامس عشر.

(7) في زمن ابن بطوطة (1304 - 1368) الذي كان من القلة القليلة التي زارت جزر المالديف وغرب أفريقيا كليهما، كانت قيمة أصداف الودع أعلى في غرب أفريقيا عن المالديف بثلاثمائة وخمسين ضعفا، وهي فرصة عرضية لم يستطع ابن بطوطة أن يستغلها، بينما استغلها التجار البحريون الأوروبيون لاحقا.

الفصل السابع

(1) نقلا عن:

Roy Porter, The Greatest Benefit to Mankind: A Medical History of Humanity from Antiquity to the Present (London, 1997), 466.

لم يكن الأوروبيون بالطبع هم الذين نقلوا المرض إلى السكان الأصليين، لكن الأوروبيين كانوا من المشاركين في الشبكة العالمية القديمة. ربما أسهم اليابانيون أو الهنود وغيرهم بالقدر نفسه في نشر الجدري والحصبة والإنفلونزا وغيرها.

(2) نقلا عن:

Peter Hugill, Global Communications Since 1844 (Baltimore, 1999), 25.

(3) يدين المؤلفان بهذه المعلومات إلى دنيس فلن Dennis Flynn.

(4) فضلا على المجتمعات القَبَلية الأوروبية التي كان كل رجل فيها يعد محاربا.

(5) كانت الثلاثة والعشرون مليون طن فحم التي أنتجت في العام 1815، حتى لو أحرقت في محركات بخارية غير كفوءة، تكافئ عمل خمسين مليونا من الرجال الأشداء، مع العلم بأن إجمالي عدد سكان بريطانيا كان نحو ثلاثة عشر مليونا، ومن ثم كان عدد الرجال الأشداء ثلاثة ملايين فقط.

(6) المصدر:

Rolf-Peter Siefer Le Der Europaische Sonderwey: Ursachen und Faktoren (Stuttgart 2001), 18-19.

(7) لم يفت إدراك ذلك على المعاصرين، ومنه أن المحركات البخارية إبان أوائل القرن التاسع عشر كانت تزين في الأغلب بزخارف مستمدة من العمارة الكلاسيكية القديمة، وكانت غرف المحركات ومحطات النزح أحيانا تشبه الكنائس. فقد كان المحرك البخاري رمز الثورة الصناعية وجوهرها.

(8) يوجد تفنيد لأهمية الإنتاج العسكري في الثورة الصناعية في:

Joel Mokyr, The British Industrial Revolution (Boulder, CO, 1998), 56.

(9) W. S. Jevons, The Coal Question (New York, 1965 [1865]), 410 - 11.

(10) نقلا عن:

Willem Floor, The Persian Textile Industry in Historical Perspective, 1500-1925 (Paris, 1999), 119.

(11) مقارنة بذلك، حصدت الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865) أرواح نحو نصف مليون إنسان.

(12) نقلا عن:

Deryck Scarr, Slaving and Slavery in the Indian Ocean (London, 1998), 198.

(13) كانت حالات أصغر لتحرير العبيد قد وقعت قبل ذلك في بعض الأماكن التي لم تكن العبودية مهمة فيها، منها بعض الولايات الأمريكية الشمالية خلال العقد قبل الأخير

من القرن الثامن عشر.

(14) ظلت العبودية قانونية في الهند وسيلان حتى العام 1843.

(15) في مقاطعة نيلور Nellore District بشمال مدراس زادت الإيجارات على الفلاحين تسعة أضعاف الأسعار الحقيقية في الأعوام 1850 - 1927. انظر:

David Ludden, An Agrarian History of South Asia (Cambridge, UK, 1999), 219.

(16) A.G. Kenwood, and A.L. Lougheed, The Growth of the International Economy, 1820-2000 (London, 1999), 79.

الفصل الثامن

(1) هذه اللغات بحسب الترتيب التنازلي لعدد المتحدثين المحليين هي: الصينية المندرينية والإنجليزية والإسبانية والبنغالية والهندية والبرتغالية والروسية واليابانية والألمانية والصينية الووية Wu Chinese والجاوية والكورية والفرنسية والفيتنامية والتلغوية Telegu. انظر

Daniel Nettle and Suzanne Romaine, Vanishing Voices (Oxford, 2000), 29

(2) A. N. Whitehead, Science and the Modern World (New York, 1925), 98.

(3) انظر بيانات ماثيو وايت Matthew White على الموقع http://users.erols.com/mwhite28/20centry.htm.

(4) أي أقل من نحو اثنين وعُشر طفل لكل امرأة على مدار حياتها. في أمثال هذه الحالات، ينخفض عدد السكان في النهاية في غياب الهجرة. لكنه لا ينخفض فورا عادة بسبب وجود عدد من المواطنين في عمر الإنجاب يكفي للحفاظ على معدل المواليد أعلى من معدل الوفيات لنحو عشر سنوات أو عشرين. البيانات حول فيينا وبرلين مأخوذة من: Dudley Kirk, Europe's Population in the Interwar Years (Princeton, 1946), 55. في أوسلو واستوكهولم وريغا Riga، كانت أقسام الولادة بالمستشفيات شبه خاوية، وشهدت عدة دول أوروبية معدل خصوبة أقل من مستوى الإحلال لفترة قصيرة خلال العقد الرابع من القرن العشرين.

(5) هذه العبارة لفرانكلين روزفلت، في حين سخر الجنرال الألماني هيرمان غورينغ Hermann Goering من الصناعة الأمريكية بأنها لم تكن قادرة إلا على إنتاج شفرات الحلاقة.

(6) قال ماو لرئيس الوزراء نيكيتا خروشوف في العام 1957: «إننا لا نخاف من القذائف النووية. وسوف يكون النصر من نصيبنا أيا كان نوع الحرب التي قد تندلع، تقليدية أو نووية حرارية. فإذا شنّ الإمبرياليون حربا علينا في الصين، فإننا قد نفقد أكثر من ثلاثمائة مليون إنسان. لكن ما العمل؟ إنها الحرب. وسوف تمر السنوات ونعمل على إنجاب مزيد من الأطفال أكثر من أي وقت مضى».

Khrushchev Remembers: The Last Testament, translated and edited by Strobe Talbott (Boston, 1974), 255.

أو هكذا ادعى خروشوف: كانت لديه أسبابه للاستخفاف بماو.

الفصل التاسع

(1) يستخدم علماء الفيزياء مصطلح الإنتروبيا entropy للإشارة إلى درجة العشوائية أو الفوضى التي يظهرها هذا النظام أو ذاك. ينص القانون الثاني للديناميكا الحرارية الذي يلمح إليه مجاز الفوضى المنزلية على أن الإنتروبيا في حالة تزايد لا يرد في الكون ككل، ما يعني أن العشوائية والفوضى في تزايد دائم. ويمكن لتدفقات الطاقة من هنا أو هناك ومن حين إلى آخر أن تحافظ على النظام والبنية والتعقيد، وهو ما يحدث على حساب أخذ الطاقة من مواضع أخرى وتبديدها، ما يؤدي إلى خفض الكم الإجمالي للنظام والبنية في الكون.

(2) يذهب أحد التقديرات إلى أنه في العام 1500 ق.ح، كان هناك ستمائة ألف كيان سياسي على ظهر الأرض، بينما يوجد اليوم أقل من مائتي كيان سياسي.

Robert Carneiro, "Political Expansion as an Expression of the Principle of Competitive Exclusion." In Elman Service. ed. Origins of the State (Philadelphia, 1978).

وفي العام 10000 ق. ح، كان نحو اثني عشر ألف لغة تستخدم في العالم، مقارنة بستة آلاف لغة حاليا، وربما ينخفض هذا العدد إلى ثلاثة آلاف بعد قرن من الآن.

وليام هاردي مكنيل

- مؤرخ ومؤلف أمريكي (31 أكتوبر 1917 - 8 يوليو 2016).
- معروف بكتاباته حول الحضارة الغربية وفي التاريخ العالمي.
- والد المؤرخ جون روبرت مكنيل.
- عمل أستاذا متفرغا في جامعة شيكاغو.
- ألّف مجموعة من الكتب المهمة؛ أشهرها «التاريخ العالمي» A World History، و«تعقب الحقيقة: مذكرات مؤرخ» The Pursuit of Truth: A Historian's Memoir، و«لنتحرك معًا: الرقص والتدريبات في التاريخ الإنساني» Keeping Together in Time: Dance and Drill in Human History، و«السعي وراء القوة: التقنية والقوة المسلحة والمجتمع خلال الألفية الثانية» The Pursuit of Power: Technology, Armed Force, and Society since A.D. 1000، و«الحالة الإنسانية: رؤية بيئية وتاريخية» The Human Condition: An Ecological and Historical View.

جون روبرت مكنيل

- مؤرخ بيئي ومؤلف وأستاذ في جامعة «جورج تاون» الأمريكية.
- وُلد في 6 أكتوبر 1954 ابنا للمؤرخ وليام هاردي مكنيل.
- له مجموعة من المؤلفات المهمة، من أشهرها «التسارع الكبير: التاريخ البيئي لعصر الأنثروبوسين منذ العام 1945» The Great Acceleration: An Environmental History of the Anthropocene since 1945، و«ثمة شيء جديد تحت الشمس: التاريخ البيئي لعالم القرن العشرين» Something New Under the Sun: An Environmental History of the Twentieth-century World، و«إمبراطوريات البعوض: البيئة والحرب في الكاريبي الأكبر 1640-1914» Mosquito Empires: Ecology and War in the Greater Caribbean, 1640-1914، و«جبال عالم البحر الأبيض المتوسط: تاريخ بيئي» The Mountains of the Mediterranean World: An Environmental History، فضلا عن مقالات وبحوث كثيرة منشورة في مجلات علمية محكمة.

د. مصطفى محمد عبدالله قاسم

■ مترجم مصري.

■ حاصل على جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي في دورتها الثانية في العام 2016 عن كتابه «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924» (الكويت: سلسلة «عالم المعرفة» - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عددي يوليو وأغسطس 2015).

■ حاصل على جائزة خادم الحرمين الشريفين العالمية للترجمة في دورتها السابعة في العام 2014 عن كتابه «مأساة سياسة القوى العظمى» (الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، 2012).

■ حكّم كثيرا من الكتب المترجمة لعدد من مؤسسات وجوائز الترجمة في عدد من الدول العربية.

■ من أهم أعماله المترجمة: «ثلاث مدن مشرقية: سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التألق والهاوية» (الكويت: سلسلة «عالم المعرفة» - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عددا نوفمبر وديسمبر 2017)، «حضارات السند البائدة» (أبوظبي: مشروع كلمة للترجمة - هيئة أبوظبي للسياحة والتراث، 2017)، «القسطنطينية المدينة التي اشتهاها العالم: 1543-1924» (الكويت: سلسلة «عالم المعرفة» - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عددا يوليو وأغسطس 2015)، «القوة والوفرة: التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، 2015)، «الدِين والدم: إبادة شعب الأندلس» (أبوظبي: مشروع كلمة للترجمة - هيئة أبوظبي للسياحة والتراث، 2013)، «الحياة اليومية في مصر القديمة» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013)، «مولد الوفرة: كيف تشكل رخاء العالم الحديث» (الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، 2012)، «التقنية والثقافة في العصور القديمة» (مشروع كلمة للترجمة - هيئة أبوظبي للسياحة والتراث، 2012)، «الاقتصاد

السياسي لمصر: دور علاقات القوة في التنمية» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، «الفرض في التربية الليبرالية الجديدة» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، «الأطفال واللعب» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، «العلاقات الحضارية المسيحية - الإسلامية بين احتمالات التعاون والصراع» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)، «صعود الصين» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)، «الإعاقة العقلية: الماضي والحاضر والمستقبل» (عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010)، «مقدمة إلى التطور اللغوي» (عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010)، «التاريخ الاجتماعي للوسائط من غتنبرغ إلى الإنترنت» (الكويت: سلسلة «عالم المعرفة» - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 315 مايو 2005).

هذا الكتاب...

استحالت جماعاتٌ صغيرة متفرقة، لا يزيد عددها مجتمعةً على بضعة ملايين، يعيش بعضها في عزلة وغفلة شبه تامتين عن بعضها الآخر، ولا تستغل من طاقة الأرض ومواردها إلا ما يُقيم أوَدها لعمرها القصير قبل نحو ستة أو سبعة آلاف سنة، إلى «قرية كونية» تجمع اليوم عبْر أركان العالم الأربعة ما يزيد على ستة مليارات إنسان في اتصال وثيق وتفاعل مكثّف وحركية دؤوبة، يستغلون من طاقة الأرض ومواردها ما يزيد على ثمانين ضعف ما كان أسلافهم الأوائل يستغلونه، ويتمتعون بمتوسط عمري وحالة صحية ونظام غذائي ومستوى رفاه أعلى إلى حدٍّ لا يقارن بهؤلاء الأسلاف. فكيف حدث هذا التحوُّل الضخم في حظوظ البشر؟

يقدّم كتاب «الشبكة الإنسانية»، الذي ينتمي إلى مبحث التاريخ العالمي، رؤية للتاريخ الإنساني تُبرز أنماط التعاون والصراع بين جماعات البشر المختلفة عبر شبكات الاتصال والتفاعل التي تشكّلت بينهم قديما، وأخذت تزداد كثافة وإحكاما على مر السنين، وبفضلها انتقلت الأفكار والتقنيات والطموحات بين الجماعات البشرية، وأدمجت كل الجماعات في شبكة عالمية موحدة تمثّل دوّامة من الاتصال والتفاعل المتواصلين. فمن خلال الشبكات تعارَف البشرُ وتعاونوا وتنافسوا وتصارعوا، ما أسهم في تقدم المجموع. وقد انتقل مركز الشبكة - أو الشبكات - الذي نسميه الحضارات من منطقة إلى أخرى، بدءا من ممر «النيل-السند» ومع كل انتقال، كانت الشبكة تزداد إحكاما وكثافة وتزيد المجتمع الإنساني تعقيدا - أي تحضرا - حتى وصلنا إلى الحضارة الإنسانية المعاصرة التي تُعد نتاجا لإسهام كل الثقافات والأمم.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 578 - 5



إصدارات المجلس متوافرة إلكترونيا على موقعنا:
WWW.NCCAL.GOV.KW/PUBLICATIONS